

ذرائع مسانت  
قرآن کریم

محمد قطب

دار الشروق

دراسات قرآنية

الطبعة الثالثة

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

الطبعة الرابعة

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

الطبعة الخامسة

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

الطبعة السادسة

١٤١١هـ - ١٩٩١م

الطبعة السابعة

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

الطبعة الثامنة

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

مبني جنتون الطين محترمة

© دارالشروق

القاهرة: ٨ شارع سيديي مصرى

رابعة العدوية - مدينة نصر - ص.ب: ٣٣ البانوراما

تليفون: ٢٣٣٩٩٠ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

البريد الإلكتروني: dar@shonuk.com

مخبر قطب

# در اشعار قزلباش

دارالشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا

آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ . »

مَدَنُ اللَّهِ الْعَظِيمِ

## مقدمة

لى مع القرآن قصة طويلة !

بدأت أقرؤه - لنفسى - فى التاسعة من عمرى ، دون موجه ولا شارح ولا معين ! إنما هى كانت رغبة ذاتية عندى فى قراءة كتاب الله ، وحفظه كذلك إن أمكن !  
وبالفعل حفظت الربيعين الأولين من سورة البقرة ، ولكنى لم أصبر للحفظ أكثر من ذلك ، ولم أستطع أن أقاوم الرغبة فى قراءة الكتاب كله من أوله إلى آخره . . فقرأته فى تلك السنة فى عطلة الصيف .

وبدئى أننى لم أفهم الجزء الأكبر مما قرأت ! فما كان أحد يشرح لى ، وما كنت أستعين بأحد لكى يفعل ! ولكن ذلك لم يحدثنى عن متابعة القراءة إلى نهاية المصحف ، بقليل من الإدراك ، وتطلع إلى مزيد .

واستوقفتنى فى أثناء تلك القراءة مواضع معينة من القرآن ، فعددت أتلوها المرة بعد المرة ، وقد عرفت مكانها من الكتاب .

استوقفتنى القصص كلها بصفة عامة ، وقصة سيدنا موسى بصفة خاصة ، فى كل موضع ترد فيه . وكان منظر السحرة وثعابينهم وعصا موسى تلقفها وتأتى عليها ، منظرًا خلابًا بالنسبة لى ، أظلم أمثله مرة ومرة ومرة . . وكذلك انفلاق البحر ! كل فرق كالطود العظيم» . . ولكن منظرًا معينًا ظل يشدنى إليه شدًا ، ينطلق معه خيالى الطفل إلى أقصى المدى فلا يقدر على الإحاطة به - ومن يقدر ١٩ - فأعود أمثاله من جديد ، وتهتز نفسى هزة حميقة فى كل مرة ، فأقرأ الآية من جديد :

« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال : رب أرنى أنظر إليك ! قال : لن ترانى ! ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ! فلما تمجلى ربه للجبل جعله دكًا ، وخضر موسى صعبًا ، فلما أفاق قال : سبحانك ! تبت إليك وأنا أول المؤمنين » (١)

(١) سورة الأعراف : ١٤٣ .

وفي كل مرة أنظر - مع موسى - إلى الجبل ! ثم أتقرب في كل مرة أن يثبت الجبل فيرى موسى ربه !! ثم أرى أنه لم يستقر ! وأنقيل صورة ارتجاج الجبل وهو يندك ، حتى يخر موسى صعقاً ، ويظل هنالك مغشياً عليه فترة حتى يفيق .

لست أدري كم مرة قرأت قصة موسى في القرآن وأنا طفل ، ولا كم مرة عزجت على سورة الأعراف بصفة خاصة . ولكنني أذكر أنه ما من مرة قرأت الآية إلا وتبعتها بخيالي كأنني أقروها أول مرة ! وأروح أتقرب أن يثبت الجبل وتسم رؤية موسى لربه ، وأنا أعلم من قراءتي السابقة أن هذا لم يحدث ! ، ولكنني أظل أتقرب حتى تحمي الزلزلة العنيفة التي تدك الجبل فأعلم أن موسى لم ير ربه وإنما ختر مغشياً عليه !

تلك فترة قد خلت ، بخيالاتها الطفلة ، وإدراكها المحدود !

ثم عدت إلى الكتاب مرة أخرى في مرحلة الصبا ما بين الثالثة عشرة والسابعة عشرة ، بإدراك أكبر هذه المرة ، وعلى نحو جديد !

كنت في هذه الفترة أعيش في جو من « الروحانية » ، ومن الاهتمام بالفن في ذات الوقت . كنت أعيش في إشراقة روحية دائمة مع الله ، وفي خيالات دائمة كأنها أحلام البقطة ، وإن كانت لا تشغلني - كثيراً - عن واقع الأرض المحسوس ! وكنت قد بدأت أكتب الشعر ، أو ما يخيّل ليّ يومئذ أنه شعر ! وهو في حقيقته - وإن كان موزوناً - أقرب إلى خيال الأطفال وعواطف الأطفال !

وفي تلك الفترة كان القرآن يهزني كما يهز الصوفي في سبحاته . وخاصة حين كنت أسمع تلاوته من الشيخ محمد رفعت في المذيع . . كنت أحس أنه يقرأ بروحه لا بلسانه . يقرأ من أحماق قلبه . وكان صوته المميز الشجي يلتقي تمامًا بأحسه يومئذ من أحاسيس ، فيخيّل ليّ وأنا أستمع إليه أنني أستمع إلى الملائكة الأعلى ، وأن نبرات صوته أطياف من النور . وغلب على وهمي - بنير منطلق بالطبع ! - أن القرآن هكذا أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ! بهذه النشبات الصافية التي يشع منها النور . . وكان من أشد تلاواته تأثيراً في نفسي تلاوته لسورة مريم . . وما تزال !

كنت في هذه الفترة أكثر إدراكاً لمعاني القرآن عما كنت في الطفولة بطبيعة الحال . . ومع ذلك فلم أكن - في حالتني تلك - أقف طويلاً عند موضوعاته كما كنت أصنع حتى في أيام الطفولة ! كان يهزني ككل ! بصرف النظر عن الموضوع ! وكانت قراءته أو الاستماع إليه

ينقلاننى نقلًا من عالم الأرض المحدود إلى عالم غير محدود . . عالم لا يهمنى - وقتئذ - تبين ملاحظه ! إنه عالم مسحور !

كانت موسيقى النسق القرآنى الفريد تهزنى وتبهرنى ، فأصبح على أنغامها غير ملتفت كثيرًا إلى ما ألتقى به - فى أثناء هذه السباحة الروحية - من موضوعات أو « مفاهيم » . . لا لأنى - يومئذ - لا أدركها ، فقد كانت حصيلتى الثقافية قد نمت بقراءة ما قرأت من كتب العقاد وطه حسين والمازنى وهيكىل وغيرهم . . بحيث أستطيع أن أستوعب من معانى القرآن ومفاهيمه قدرًا غير ضئيل . . ولكنى مشغول عن ذلك بتلك الانطلاقة الروحية مع القرآن من ناحية ، ثم بالجانب الفنى من النسق القرآنى من جهة أخرى . . بصرف النظر عن الموضوع ! وإن كانت موضوعات « القدرة الخارقة » ذات صدى خاص فى نفسى أكثر من غيرها من الموضوعات !

فى تلك الفترة كانت سورة مريم - بصفة خاصة - تجذبنى إليها جذبًا قويًا لا أستطيع له دفعًا ، بل لا أحب له دفعًا !!

كانت فيها القدرة الخارقة من ناحية فى ولادة الغلام لذكريا وخلق عيسى بغير أب . وكان فيها النغم الموسيقى العجيب النسق من ناحية أخرى ، فلذا أضيف إليهما تلاوة الشيخ رفعت فقد بلغت فى نفسى مبلغًا من التأثير لا يمكن وصفه بالكلمات !

ومازلت أذكر إلى هذه اللحظة تأثير هذه السورة فى نفسى من أولها إلى آخرها . . وإن كانت أجزاء معينة منها كان لها فى نفسى تأثير أشد . أولها تلك الحروف فى مفتتح السورة ، التى لا مثيل لها فى كل ما بدئت به السور من حروف .

كهيَّعَص . . عجيبة فى ذاتها ، وأعجب - فى حسى يومئذ - بتلاوتها ، وخاصة العين الممدودة التى تقرأ كالمشددة ! ثم بداية الكلام بعدها هكذا : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا ! » ثم الجو المسحور ( بالنسبة لى وقتها ) الذى توحى به كلمه « نداء خفيًا » : « إذ نادى ربه نداء خفيًا » . ثم هذا النداء ذاته : « قال : رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبًا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا » . . كم كانت تهزنى تلك الصورة : « وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبًا » فأتحيلنى - وأنا بعد صبى - فى مثل تلك الصورة فتتهز نفسى هزة لا أستطيع أن أقاومها ! ثم المفاجأة - بعد هذا الدعاء مباشرة - بإجابة الدعاء : « يا زكريا ، إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سمياً » ! تلك الصلة الخفية بين هذا العبد الصالح وربه ، التى تجعله ينطق بالدعاء فيستجيب الله له على الفور [ بحسب ظاهر السياق فى الآية ] . .



كانت تنقلني إلى تلك السبعينات الروحية التي تغمر روعي بأطياف من النور ! ثم . . القدرة الحارقة : كذلك قال ربك هو عليّ هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ! « والآية . . » قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً « كلها . . كلها . . في ذلك الجو السابح في النور ! وخاصة ختام القصة : « وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً » !

ثم قصة مريم كلها . . بما فيها من خوارق . . وما في نسق التعبير من موسيقى . . روعة تأخذ بحس لا يشابهها شيء على الإطلاق ! ووقفات عند : « فناداها من تحتها . . » أو على القراءة الأخرى : « فناداها من تحتها . . » كلتاها تهز النفس بالفاجأة التي تبدو فيها القدرة الحارقة . . وكلام عيسى للناس : « قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً . . » وختام القصة مرة أخرى : « والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً » !

ولم يكن يفوتني - يومئذ - من الناحية الفنية ذلك الفرق بين الختامين : « وسلام عليه . . » والسلام عليّ . . « هناك » سلام ، « وهنا » السلام . . وكان يوحى ذلك إلى يومئذ بأن المقصود هو إعطاء أهمية خاصة لعيسى ، ورفع فوق يحيى درجات !

كما لم يكن يفوتني - من الناحية الفنية - ذلك التغير الموسيقي في نهاية قصة عيسى ، في قوله تعالى : « ذلك عيسى ابن مريم ، قول الحق الذي فيه يمترون » والآيات الست التي تتلوها ، حيث يختلف الروي مرة واحدة في السورة كلها عما قبله وما بعده ، إذ تنتهي الآيات بالياء الممدودة . . يوم أبعث حياً ، أو الهزمة المفتوحة « ولم تك شيئاً » إلا هذه الآيات السبع من السورة كلها (غير أحرف الابتداء : كهيعص) . . لم يكن يفوتني ، لشدة اشتغالي بالناحية الفنية إلى جانب الجو الروحي ، فكنت أحاول أن أعلمها بأنها لفت نظر لي شيء هام يراد لفت النظر إليه ، وهو في الوقت ذاته خارج عن سياق القصة ذاتها ، وهو التقرير الرباني بأن هذه هي حقيقة عيسى ابن مريم الذي امتاز فيه المعترون . . حتى إذا انتهى التعليق - أو التقرير - وعادت السورة تروي قصص عدد آخر من الأنبياء ، عاد الروي الأصلي الذي استخدم في القصص من أول السورة : « واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . . » . .

ولأمر ما كانت هاتان الآيتان من السورة تبرزني : « واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وكان رسولاً نبياً ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً » ولا أذكر الآن لماذا على وجه التحقيق ! وإن كان لابد من سبب معين أو أسباب . . وربما كان انشغال وقتها بنسب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إسماعيل ، وإنكار أهل الكتاب النبوة في فرع إسماعيل واحداً من هذه الأسباب !

وأذكر كذلك تأثرى العميق بهذه الآيات : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئا  
إداً ، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ، أن دعوا للرحمن ولداً » .  
ثم هذه الآية : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً » . . . ويلفتنى  
فيها بشدة أن النعيم هنا ليس نعيماً حسيّاً . . . إنما هو الود . . . الود من الرحمن . . . وكانت هذه  
- فى الجرح الروحي الذى أعيشه - ذات رنين خاص .

أما الآية الأخيرة فكان الجانب الفنى فيها يصل بى إلى الغاية : « وكم أهلكنا قبلهم من  
قرن ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً » . . . ورغم أننى لم أكن أعلم على وجه  
التحديد معنى كلمة « ركزاً » فقد كان يتمثل لى « الراوية » فى المسرحيات القديمة الذى  
يعقّب على الأحداث بعد انتهائها ليحطى العبرة للمستمعين . . المسرح خالٍ من آثار هاتيك  
القرون . . ثم يحىء السؤال كأنه همس فى ذلك الصمت المطبق ، صمت الفناء : « هل تحس  
منهم من أحد ؟ أو تسمع لهم ركزاً ؟ » ويجيب الصمت بالنفى . . ويسدل الستار !

فى تلك الفترة كذلك كانت تجذبنى سور بعينها فى القرآن - لا من ناحية موضوعها !  
ولكن لأنها تختلف فى الروي عن الغالب فى سور القرآن [ وهو الباء الممدودة أو الواو الممدودة  
وبعدها الميم أو النون ] . وكان من بين هذه السور سورة طه ، وسورة الفرقان ، وسورة ص ،  
وسورة الفتح ، وسورة ق ، وسورة النجم ، وسورة القمر . . ولكن « النجم » كانت هى  
القمة فى حسى يومئذ من حيث التنعيم الموسيقى بعد مريم ، فكانت لها فى نفسى جاذبية  
خاصة . .

أما هذه الآية من سورة القمر : « . . فالتقى الماء على أمر قد قدر » فكانت روحى تسبح  
فيها سبحات . . « ففتحتنا أبواب السماء بهاء منههم . وفجرنا الأرض عيونا ، فالتقى الماء على  
أمر قد قدر » ! إنه ليس ماء إذن هذا المنهمر من السماء والمتفجر من الأرض . . إنه قدر !  
قدر يتم . . صورته الحسية ماء . . وهو فى حقيقته قدر . . والصورة الحسية ذاتها ! ماء  
منسكب من السماء ، وماء يخرج من الأرض . . وحين يمس الماء المنسكب من السماء ماء  
الأرض المتفجر . . يتم القدر ! كما تحدث الشرارة حين يتلامس سلك الكهرباء الموجب  
وسلكها السالب . . وإن كانت هنا لا توجد شرارة . . وإنما يُقدَّر قدر !

تلك فترة أخرى قد خلت . . بكل سبحاتها الروحية ، وكل انشغالها بالجانب الفنى من

الحياة !

\* \* \*

ثم كاتب فترة لشباب الباكر ، وكانت حولة أخرى مع لكاتب حولة مختلفة تمامًا عن السابقة !

فإن ك ، هذا الحق الختام ، وسبحات الروح ، وموسيقى النعم ، وجمال النفس ، فيها صورة ذهبية كاملة ، فيها تعلم ! ويبحث عن الأفكار المجردة ، والفاهيم الكلية بحث أقرب إلى الجريد الفلسفي لا يرى لأشياء في صورتها المحسوسة ، إنما يراها مبلورة في « فكرة » ، ومصورة في « مفهوم كلي » !

كنت في هذه الفترة أدرس في الجامعة ، ورغم أنني كنت أدرس « الأدب » الانجليزي ، أنى أنه يسعى أن أعيش في جو لأرب وليس ، وديوسفي وحكم ، إلا أنني كنت قد عبرت هذه الفترة من عمري من قبل ! وكما كنت في لفترة لسابعة مشغولاً بالنفس لحسابي الخاص لا لحساب الدراسة ، إذ كنت في دراستي الثانوية في القسم العدمي لا تقسم الأدبي ! فكذلك شعرت انوم أنني « أتعسف » حسابي الخاص ، ولا أعيش كثيرًا في جو الدراسة ، إلا بمقدار ما يمكن أن يدخل من هذا « التعسف » في بعض الدروس أو بعض الدراسات !

وفي هذه الفترة عكفت على القراء أنبحث فيه عن « فكرة » لله سبحانه ، مقارنة بفكرة الله في اليهودية ، المخرفة والمسحبة المخرفة ، وناثرون الهدنة ، والسناب الوثنية الأخرى من أهة المراجعة إلى أساطير اليونان إلى أساطير الفرس إلى البودية وغيرها من الديانات

وما أرغم أنني أدركت يرمث من تلك الفصا ما أدركه اليوم مثلاً ، بصرف النظر عن صحته أو خطئه ، وعمقه أو صحافته . ونكس أفون فقط إن هذا هو لدى كان يشعلني في عكوي على القرب لله صغاته هل يمكن تصوره ؟ هل يمكن تصور كيف يُجرى فسه في انكون ؟ وهيمته سبحانه على لكون كله هل يمكن تصورها أو بصويرها بالألفاظ ؟

ثم المخلوق الشرى أن شيء هو ؟ ما حدوده ؟ ما دوره ؟ ما قيمة وجوده في هذا الكون ؟ !

ثم .

الحير والشر . وخيال والصح هل هي قيم مطلقة أم قيم نسبية ؟ وهل انعم الإسلامية عاصلة لأن الله فرضها وسها ؟ أم عاصلة « في ذاتها » ! وما المقياس ؟ هل هناك مقياس نقيس إليه هذه القيم ؟ وما هو ؟ ومن صبع من ؟ ومن الذي يحق به أن يصع المقياس ؟

والحياة الأخرى . ضرورة هي ؟ لها دور معين تؤديه في الحياة الدنيا ؟ أم هي فقط محل  
المصالح الرباني الكامل والخراء العادل ؟

والعدايات . أم هي لأن الله فرضها ؟ أم التعبد رغبة فطرية في الشر حتى ولو لم  
يأمرهم به الله ؟

والوحي . ما هو ؟ بأي طريقة يتم ؟ أي جهر في هذا الكيان الشرى يتلفاه ؟ وأين  
تلك الأجره الخفية من كيان الإنسان ؟ هل هي « مكان » معين فيه ؟ أم كيف تعمل  
وكيف تنفى . . وكيف تعي ؟

إلى آخر تلك الأمور التي علمت . فيما بعد ! - أن علماء الكلام حاصروا فيها ، وأسلم قالوا -  
في معظم الأحيان - كلاماً لا يسم ولا يعي من حوخ ! وعلمت كذلك - فيما بعد ! - أنه - في  
صورته التجريدية البحتة - لو لم يكن التصكير لصانع لا يستحق أن يبذل الجهد فيه !

حقيقة أنى لم أحص موصوعاً واحداً من هذه الموصوعات بروح الشك الذي كنت أسمع  
عنه عند « الملاسعة » وأمقته كذلك ! وحقيقة أنه كان أقرب إلى التأملات منه إلى التصكير  
المحسوس تأملات هادئة ، ولكنها ذهنية تعيش في عالم التجريد لا في عالم  
المحسوس . .

وانقصت تلك الفترة لأعود إلى القرآن من جديد !

\* \* \*

فمن مرة أخرى ؟

نعم ولكن من نوع آخر ، وصل مستوى جديد !

كان الشقيق بعد كانه « لتصوير المص في القرآن » يتحدث إلي في بعض حوائه  
فتستهوي وبهاجتي معاجلة عامة على كل ما عشه من قبل مع القرآن في جو الص أو  
على الأقل نفسى أسباب تأثيرات سابقة لم أكن أدري كنهها . ونضع يدي على معانيه  
التي أحيى في التعبير لقرى فأروح أراجع مرة أخرى نوعي جديد

يمكن أن نقول إنه تأثر هي واع ، غير ذلك لتأثر اسمهم الذي كان من قبل ، والذي  
كان تطويه في جساتها سبعة الروح !

وحين تكون في يدك المنهج . ونحن نعود إلى الأماكن التي رُفها من قبل فلم نستطع  
فتح معاليقها ، فتجرب أن تفتح فتفتح بين يديك . بها منعه هائله ، وفسحه هائله .  
وثررة هائلة !

وعدت « أستمتع » بالقرآن من حديد ، عن ضوء هذا السور الكاشف الجديد !  
ولا أستطيع اليوم أن أقول أين كانت تقودني قدمي في صحتي للقرآن لو لم يحدث هذا  
المعطف بكتاب « التصوير » ولكن الذي لا شك فيه أن كتاب « التصوير » قد أعطاني  
دعماً هائلة في اتجاه معين لم أكن لأتجه إليه بعد ذلك ، لكن كتاب

\* \* \*

ومع كتاب آخر من كتب لشقيق ، بدأ جولة جديدة مع القرآن !

ذلك هو كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام »<sup>(١)</sup>

لم يكن الحديث عن « العدالة الاجتماعية » في الإسلام حديثاً عن حنى ولا عن  
تمكيز . بل لقد كنت في محادثات مع الشيوعيين من قبل أقول لهم - من إيمان واضح - إن  
الإسلام هو لنظام الأفضل ، لأنه يعطي العدل الاقتصادي الذي تحصر الشيوعية نفسها  
فيه ، ثم لا يبحر مثلاً في حدوده ، ولا يجرّد الإنسان من كيانه لروحى الأصيل فيه ، بل  
يعطيه جانب الروح وجانب المادة في آن معاً ، لا يغفل هذا ولا ذاك . وإن كان بسيط  
الموضوع في كتاب « العدالة » كان أوسع ولا شك من كل ما فكرت فيه أو وصلت إليه من  
قبل .

ولكن احديد حقاً هو فكرة « التوازن » في الإسلام !

لقد كان شيء غامض منها يطوف في فكري وأن أتحدث مع المحادلين عن الروح  
والمادة والروح والمادة والجانب الاقتصادي والجانب الخلقى أو الإنساني  
ثم كانت ومضة عابرة خطرت في وأنا أتلقي محاضرة في علم النفس في معهد التربية عن  
فرويد ، فحظرت لي يومها أنه بينما تنالغ المسيحية الكسبية في فرض « الكنت » على دوافع  
الإنسان الفطرية ، ويبالغ فرويد في المطالبة بالانفلات من كل قيد . يصف الإسلام موهماً  
« متوازناً » في نقطه الوسط ، فلا يكنت الدوافع الفطرية كما تصنع الكنيسة ، ولا يطلق  
الإنسان من عمان كما يصنع فرويد . ثم كنت تأملات عابرة كنت في القرآن حور هذا  
المخاطر السريع

ولكن كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام » أزرر فكرة « التوازن » إبراراً واضحاً كأصل

( ١ ) يرى الشقيق أن هذا الكتاب قد فات أوله ، ولم يعد من كنهه الصالحة للنزوة . ولكنى ها أتحدث  
عن تأثراني الخاصة في فترات معينة من العمر

من أصول الإسلام العامة الشاملة ، بصورة لم تكن تحطرن من قبل على مال<sup>١</sup>  
ومن هنا عدت إلى القرآن من جديد أبحث فيه عن فكرة « التوارن » على خطى  
الخاص الذى أتجه إليه ، وهو خط « الدراسات النفسية »  
عدت إلى دراسة قرابية من نوع جديد دراسة لمحاولة استخلاص نظرية إسلامية عن  
النفس الإنسانية .

لقد كان يعر عني أن أسمع سحافات فرويد عن النفس الإنسانية تلقى على طلبة معهد  
التربية كأنها كلام مرل لا تبعى مناقشته ! ثم يعر عن أنه ليس في يدى - ولا في أيدينا -  
تصور متمير ، يقدمه بدلاً من هذه السحافات<sup>١</sup> ونغيب لو أن إنساناً ما ، استطاع أن يقدم  
يومًا هذه النظرية الإسلامية المتميزة ، التى كذب حيوطًا منفرقة منها تحظر في دهى دون أن  
تتجمع في شكل واضح مسور ولكن الموضوع كان يشعلنى دائمًا لا أستطيع أن أكف عن  
لتفكير فيه

وكان كتاب « العدالة الاجتماعية » نقطة تحول في تفكيرى . .

لقد بدأت الخيوط المتفرقة تتجمع في دهى حول براءة معينة محدودة واضحة . هى  
« التوارن »

وبدأت أدرس القرآن بحثًا عن مريد من هذه الخيوط ، وشواهد جديدة على « لتوارن »  
الأصيل في سبة الإسلام .

وعلى لرعم من أسى وقتها لم أفكر أبدًا في الكتابة ولا التأليف ولا أن أكون أن الذى  
يقدم لناس شيئًا عن الإسلام على الإطلاق فإن انفكرة ظلت شعسى مشعبه  
جادة حتى دفعنى دمعًا إلى تسجيلها في كتابى «الأول» الإنسان بين المادية والإسلام»

\* \* \*

ثم بدأت صحنى للقرآن تأخذ منحى آخر . .

لقد فرعت . أو هكذا بدا لى - من رسم الخطوط العريضة لنظرة الإسلام إلى النفس  
الإنسانية<sup>(١)</sup> . .

وبدأت أتجه وجهة جديدة وإن كانت دورها متضمنة في كتاب « الإنسان بين المادية  
والإسلام » .

( ١ ) عدت إلى الموضوع في بعد بصورة أكثر تفصيلًا في كتاب « دراسات في النفس الإنسانية »

إن هذا القرآن هو « منهج حياة » لكل البشرية . فغلب إذن أن نستخلص هذا « المنهج » من بين شأيا الكتاب .

وقد تحدث الشقيق من قبل عن منهج « العدالة الاجتماعية في الإسلام »

فلمسح بحث عن بنية « المناهج » التي تؤلف في مجموعها « منهج حياة » .

وبعير ترتيب مقصود جاء « منهج الترممة للإسلامة » ثم « منهج الفن الإسلامي » ثم « لتطور والثبات في حياة انشورية » الذي يمكن أن يكون « منهجاً » خاسب من الدراسة لاجتماعية ، فيما يتعلق بالجوانب الناجمة والجوانب المعيرة من الحياة<sup>(١)</sup> .

بعير ترتيب مقصود إنما كانت كل دراسة تنصح في نفس تأخذ طريقها في كتاب ولكن الصيغة مع القرآن كانت متجهة كلها في تلك لفترة إلى التفتيح عن تلك « المناهج » التي يتألف من مجموعها « منهج الحياة »

\* \* \*

خاطر آخر قد يكون تبعاً من ذات الاتجاه ولكنه أحد صورة خاصة من التعبير . أعادني إلى صحة جديدة مع الكتاب .

ذلك هو خاطر الجاهلية التي يعيش فيها ، باسم اليوم . جاهلية لقرن العشرين !

إن ، لمحت عن تمصيلات « منهج الحياة » القرآني في الاقتصاد والاجتماع ، والترقية وعلم النفس ، والتمس والعكر هو ذاته الذي أدى إلى هذا الخاطر . أن لاس يعينون في جاهلية « جذرية » شاملة ، أكثر وأعم من هذه تمصيلات . سبها الأصل هو رفض اتباع ما أنزل الله ، ورفض تسيير الحياة بمقتضى منهج الله .

وهذا - بالذات - هو الجاهلية . . ! هذا الرفض لمتعمد لمنهج الله ، ولتحكيمة في الحياة

ومن هنا كانت تلك اسئلة الجديدة في صحة القرن . حولة البحث عن « جوهر » الجاهلية ، الذي هو المقابل الحقيقي « جوهر » الإسلام . ثم دراسة أحوال الجاهليات التاريخية التي أفضت في النهاية إلى جاهلية القرن العشرين . ودراسة العلاج الوحيد لتلك الجاهلية ، وهو الرجوع إلى الإسلام .

\* \* \*

ثم كنا في المعتقل على أثر ذلك فترة طالت إلى سنوات

(١) هناك بحث آخر عن « منهج لإسلام لأخلاقي » ألقين في صورة محاضرات على طلبة معهد الدراسات الإسلامية سنة ١٩٦٤ - ٦٥ ولم يأخذ بعد صورة الكتاب

ولم يكن معاً في معظم تلك لفترة إلا هذا الكتاب ! ثم لم يكن شيء أحب إليّ في تلك لفترة من ذلك الكتاب ! يعكف عليه للتلاوة ، ويعكف عليه بالحفظ ، ويعكف عليه لسأله ، ويعكف عليه بعبادة ، ويعكف عليه للعبارة ، ويعكف عليه للخلاص من صيب القيد إلى صبح العيش في رحاب الله . . مع كتاب الله !

ورغب في الإحوة حين « استقر » بالمقام في المعتزل - أن تكون ، ب دروس في القرآن ! وقتت المهمة مشغلاً على نفسي من جسامتها ! فكل دراستي في القرآن من حين كنت من رواب محلاة أحمرها بحصى - راوية نفسية أو زاوية تربوية أو رواية هية - الح أم انقرب ككتاب شمس ، فامر لم أفكر في لتعرض له قط ، وما كنت في حاجة إلى تتعرض إليه في إحود من يقوم بهذه المهمة بالفعل وبحرجها « في طلال القرآن » ولكن إلحاح لإحوة هو الذي دفعني إلى لتعرض شيء ليس في حط تمكيري أن تعرض له بحال

ثم كنت - من خلال تلك الدروس - حوله جديد - مع انقرب - جديد عليّ فعلاً ! وبن كان يعني أن تكون من استبيات ! ولكن كم من استبيات لا يراها إلا من عن حقيقتها حتى يبارسها بالفعل ، أو يثيقظها لسبب من الأسباب ؟ !

لقد درست انقرب من قبل ، من تلك الدروس المحددة ، فكنت أخرج نتائج محددة في كل مرة - أن هذا الدين لمعجز ، الذي كتبه القرآن ، عملاق صرح في كل راوية يدرس منه

عملاق صرح في منهج الاقتصاد - عملاق صرح في منهج التروى - عملاق صرح في نظره لبس البشرية - عملاق صرح في منهج الأخلاق - عملاق صرح في نظم الأسرة - عملاق صرح في منهج لسياسي - وهكذا وهكذا في كل مجال ، بحث تبدو المناهج البشرية إلى حوار أقراناً صيلة ، فوق أم بمسوحة انكيان

هذا ، بدا في واضح وصريح كمالاً من قبل ، وصار عندي من استبيات ومن استبيات

وكنت تمثل له في خاطري صورة عجمية [ وبك عاذني مع كثير من الأفكار ] صورة دائره ذات مركز ومحيط في مركزها نقف على التوالي أقدام مجموعة من العيلة رؤوسهم واصله إلى المحيط ، مورعة عن ذلك المحيط ، كل يحتل مساحه من الدائرة - هذا يمثل النهج الاقتصادي ، وهذا يمثل النهج لسياسي ، وهذا يمثل النهج الاجتماعي - كنهم متساوون في الحجم - كلهم متشابهون في السات ! بحيث لو أدرب الدائرة في أي وضع لبدا أمامك عملاق وانف على النوم !



ولكن شيئاً جديداً بل مرة تبيّن لي في أثناء هذه الدروس كان يسمى أن يكون مسلماً من  
المسلمين . ولكنه - بالحق - لم يكن كذلك في حسيّ حتى نبيت حقيقته في . فهو جئت بها  
تماماً . . . كما فوجئت من قبل مرات وأنا أصاحب هذا الكتاب !

إنه عملاق واحد يجمع مترابط ، من الصورة ملء المساحة . . وليس هو أولئك  
العناقيد المتفرقة الذين وجدتهم من قبل ، كل على حدة ، كأنه كائن منفصل الحدود !  
عملاق واحد شامل ! لا تستطيع أن تقطع قطعة منه فتقول هذه سياسة وهذه  
اقتصاد وهذه ثرية وهذه من وهذه عقيدة وهذه شريعة !

إن ضرورة البحث العلمي - أو العقلي - وحدها التي جعلت تلك المواضع وتقيم  
تلك الحدود بين ما هو عادة وما هو معاملات من قبل في الفقه الإسلامي ، ثم بين ما هو  
سياسة ، وما هو اقتصاد ، وما هو اجتماع . . الخ ، في تفكيرنا الحديث !  
ولا شيء من هذه المواضع موجود في الحقيقة !

إنما هو كتاب واحد شامل ! تتداخل فيه هذه وتلك تداخلاً كاملاً لا يمكن فصل بعضه  
عن بعض ، كما لا يمكن فصل جزء من الجسم الحي عن جزءه إلا لضرورة البحث العلمي  
فحسب !

صحيح أنك - في الجسم - تقول : هذه يد وهذه ذراع وهذه عين ، وهذه سن  
ونكها متصلة تصلاً وثيقاً رغم تميزها بظاهر بحيث لا يمكن أن تقطع إحداها وحدها  
وتقول : هذه يد ، وهذه ذراع ، وهذه عين ، وهذه سن إلا أن تتزعزع من الجسم الحي ،  
وعندئذ تموت !

هناك وشائج تجمع الكل . . هناك دم يسري في الكل . . هناك أعصاب تربط لكن  
وتعطي كل جزء إحساسه بأجزاء الآخر  
انقرآن كذلك ! ولله المثل الأعلى .  
كتاب واحد شامل !

صحيح أنك تقول : هذه آية من آيات الأحكام هذه آية تطم روابط الأسرة هذه آية  
تتحدث عن نعم الله على الإنسان هذه آية تنعت الحسن بل تدبر آيات الله في الكون  
وأنت في كل ذلك صادق ولا شك

ولكن أقرأ القرآن جيداً ، وتدبره كما تدبره في صحة هذه الدروس لن تجد شيئاً من

دئت كنه مفصلاً عن شيء ، بحيث نستطيع - إلا في ضرورة البحث العلمي - أن نعصبه  
وحده كأنه كيان مستقل !

هناك وشائج تجمع الكل هناك ربط يربط الكل هناك سياق موحد يشمل  
الكل . . .

ودلت هو القرآن !

كم كان ذلك جديداً - في حسي على الأقل - يسبب يسنى أن يكون ديباً في حس كل  
دارس لهذا الكتاب !

وكم فوجئت - وأنا في تلك الدروس - أن صحتي الطويلة هذا انكتاب مد الطمولة  
تتجمع كلها لتعطي الصورة الموحدة الشاملة !

حتى وقفت انطوية حتى سبحات الصبا حتى حبات الفرس حتى أبحاث  
انعقل بمجرد حتى الدراسات « الإنسانية » من اقتصاد وجتماع وعلم نفس وتربية وهن  
هذا كلها يمكن أن ترد الآن ولكنها مرد مجتمعة متساوقة مواكبة لتأخذ مكانها في  
الصورة الموحدة لكلمة ، لا أجراة ولا تفريق وعدت تكون دلالتها أوضح وأعمق وأدق !

\*\*\*

تلك قصي الطويلة مع « الكتاب »

والصفحات التالية هي « الخلاصة » من هذه القصة الطويلة

أقدمها على تروده !

مما زالت بعد عن غير قشاع كامل مأ فيها عاة للقارئ أي عاء !

ومارلت أرى أنه حب من شاء أن يعيش « في ظلال القرآن » هبحد فيه عاء عى ،

وهن مثل هذا الكتاب !

وب قصدت بهذه الصفحات على أي حال أكثر من أن تكون « مفاتيح » قد تبنى

قرئاً من القراء على تدبر القرآن ،

« وما توفيقى إلا بالله » عليه توكلت وإليه أنيب »

محمد قطب

## القرآن مكي ومكّي

من المعروف بطبيعته خال أن هناك سوراً مكية وسوراً مدنية في القرآن ، حسب مكان  
برولها في مكة أو المدينة

ولكن هناك صاهرة تلمت بطرئ نادئ دي مدء ، هى وجود آيات مدنية في سور مكية ،  
وآيات مكية في سور مدنية أى أن هناك آيات برل في المدينة ولكنها ألحقت بسور مكية ،  
وآيات برلت بمكة ولكنها ألحقت بسور مدنية <sup>(١)</sup> .

واندى يصب بضر في هذه لطاهرة أن مكان برور الآية م يكن هو اندى حدد موضعها في  
المصحف ، ولا رمال برولها كدبك ' عهد برور آية في المدينة ثم تدح سورة مكية قل ذلك  
بعشر مسوات أو أكثر ، كالأية الأخيرة من سورة المزمل المكية

« إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل يصعبه وثثه ، وطائفة من الدين معك ،  
والله يقدر لسل وانهار ، عثم أن لن تحصوه كتاب عليكم ، فافرءوا ما تسر من القرآن  
علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يصرون في الأرض يستعوب من فضل الله ، وآخرون  
يقاتلون في سبيل الله ، فافرءوا ما تسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً  
حسباً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً ، واسمعوا لله إن  
الله عفو رحيم » [ المزمل : ٢٠ ]

( ١ ) هناك اب في سورة الفصص المكية ربنا بالجمعة في أثناء الهجرة « إن الذى فرض عليك القرآن  
لرأذك إلى معاد » [ الفصص ٨٥ ] وآيه في سورة محمد - المذنية - مرت في الطريق في أثناء الهجرة  
« وكأين من قرية من أشد قوة من فرقت إلى أخرجناهم منها ناصرهم » [ محمد ١٣ ] وآية  
في سورة البقرة برلت بصى في حجة الودع « وآتوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما  
كسب وهم لا يظلمون » [ البقرة ٢٨١ ] وجرء من آيه في سورة المائدة برن بعرفات في حجة الودع  
« اليوم أكملت لكم دينكم ولا تحشواهم وحشوا اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عناكم  
معنى ورضيت لكم الإسلام ديناً » [ المائدة : ٣ ]

وقد سرل آيات في مكة ولكنها تحقق سورة مدية برلت بعد ذلك كهده الآيات من سورة  
الأنفال .

« وإد يمكر بك الدين كفروا ليشنوك أو يقبلوك أو يجرحوك ، ويمكرون ويمكر الله والله  
خبير الماكرين . وإد تنى عليهم آياتنا قانوا قد سمعوا ، لو شاء بقنا مثل هده ، إن هدا إلا  
أسطير لأولين . وإد قالوا : اللهم إن كان هدا هو خق من عندك فأمطر علينا حجارة من  
السماء أو ائتنا عذاب أليم . وما كان الله ليعدهم وأنت فيهم ، وما كان الله معدهم وهم  
يستعصرون . وما هم ألا يعدهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أوبياء . إن  
أوبأوه إلا المتفون ولكن أكثرهم لا يعلمون . وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وصدية  
فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . إن الدين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن مسيل الله ،  
فسيئقوها ، ثم تكون عديهم حيرة ، ثم يعلمون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون »  
[الأنفال : ٣٠-٣٦]

هناك شيء آخر إد غير مكان سرول لآنة ورمان مرمها هو الذي حدد موضعها في  
المصحف .

وأول ما يحطر في انال إراء هده انطاهره أن هناك وحدة موضوعية لكل سورة من سور  
القرآن . وإلا فلو كان القرآن محتلط لموضوعات بلا راسبة كما يقول الدين لا يتدبرون القرآن  
ولا يفهمونه من المستشرقين ولامدتهم من « ستمين ! » ما كان هناك معنى لإخفاق آية  
مدية سورة مكة ، ولا آية مكية سورة مدية ، ولكن الأولى أن توضع حيث فرت ، في آية  
سورة متجاسة معها في الزمان والمكان !

بل إن وضعها في سورة غير متحدة معها في الزمان والمكان في موضع معين منها بالذات  
هو أشد دلالة ! فقد كان حبريل عليه السلام يتنزل بالوحى ثم يحجر الرسول صلى الله عليه  
وسلم بأن مكان الآية أو الآيات هو في سورة كذا ، بعد آنة كذا . فهي إد توضع في مكانها  
المقرر لها في اللوح المحفوظ ، بضرف النظر عن ماسة بروها من حيث الزمان والمكان .  
وهي من جهة أخرى لابد أن تكون ذات صلة موضوعية بالسورة التي ألحقت بها وإن كانت  
لم تنزل معها !

ولقد عسى صاحب « الطلال » هذه الوحدة الموضوعية في كل سورة بدتها ، فبينها ما لا  
يحتاج ما إلى مزيد ، ولكنها فقط تشير إليها وما وسجلها ، ثم يعود إليها إن شاء الله مرة  
أخرى ونحن نسط بعض النماذج من لسور المكية والمدية يؤكد لها ، خاصة في السور

الطوال ليبره وآل عمران ونساء التي قد سدو في حسن انديز لا يتدرون القرآن حليط من الموضوعات لا يربط بينها ربطاً !



ظاهرة أخرى لابد أن تلمح نظر القارئ لكتاب الله ، هي الاختلاف الواضح بين السور المكية والسور المدنية في طريقة التعبير وبناء الآيات . فالسور المكية - في اغلب - قصيرة الآيات سريعة الحركة ، سريعة لبص ، مثيرة للوجدان . والسور المدنية - في اغلب - طويلة الآيات ، متأنية للحركة ، أقرب إلى إثارة التأمل لفكرى منها إلى إثارة الوجدان . ذلك هو العال ، وإن كانت هناك في الحصة استثناءات غير قليلة هذه القاعدة العامة . فإني لا تستطيع - مثلاً - أن تميز سورة الأحزاب عن السور المكية إلا بموضوعها ، لا بحرسها ، ولا بطول الآيات فيها . كما أنك لا تستطيع تميز سورة البقرة عن السور المكية إلا بموضوعها ولا بحرسها جميعاً !

وقد قال انديز لا يتدرون القرآن ولا يفهمونه كلاماً في هذه الظاهرة كذلك !  
والأمر واضح لا عار به . فحين يكون الموضوع الرئيسي في السور المكية هو العقيدة بنفصياتها التي مستكلم عنها فيما بعد - يكون الأسلوب مناسباً هو الحركة السريعة واللبص سريع ومحاطبة الوجدان ، مكتمل العقيدة ، وحين يكون الموضوع الرئيسي في السور المدنية هو التشريعات والتنظيمات ، وبناء المجتمع المسلم وإقامة الدولة المسلمة وتثبيت أركانها إراء تكيد لدى يكيده لها أعداؤها ، يكون لأسلوب مناسب هو حركة استأنية ، ومحاطبة تعقيد التي تدع لمجادل للتدبر والتفكير . ومع ذلك فهو ليس ذلك الأسلوب العقل الخاف ، الذي تستخدمه البحوث العلمية ، ولا هو التجريد الذهني التيحت الذي تستخدمه الفلسفة . إنما هو سرى هريد من التعبير لا مثل له في يكتب اثر أو يتحدثون . لا يفقد نفس المحي ولا الحرس الموسيقى حتى في آيات التشريع الحب ، ولا يحاطب عقل الإنسان وحده دون بية كيانه ، كما سرى في شيء من التفصيل عند عرض مهادج من السور المدنية



أم المظاهرة التي تنمنا أكثر من غيرها في هذا السبهد القصير فهي تلك التي أشربا إليها في النقرة الساعة . أن السور المكية مشعولة كلها بالعقيدة - ولا شيء غير انعقده - خلال ثلاثة عشر عاماً من ارماد . وأن التشريعات والتنظيمات لم يسرل منها شيء في مكة إلا توحيدات عامة . بينما السور المدنية هي المشعولة بالتشريعات والتنظيمات ، وإن كانت لا

تجوز بحال من الأحوال من حديث لعقيدة الذي لا ينقطع الحديث عنه في كتاب الله من أوجه  
إلى منتهاه !

وفي لمصول لقائمة نتحدث عن السور المكية والسور المدنية ما موضوعاتها  
النصيرية؟ وكيف يتناولها القرآن ؟

ثم نعرض بما دج من هذه وتلك بين الموضوعات والطريقة على السواء

## السُّورُ الْمَكِّيَّةُ

الموضوع الرئيسى فى السور المكية كله هو لعقيدة ، هو « لا إله إلا الله » بكل موجداتها فى الآفاق والأنفس ، وكل تفصيلاتها وتفرعاتها ، وكل مقتضياتها فى واقع النفس وواقع الحياة من استطاع أن يقول فى الحقيقة إن العمدة هى الموضوع الرئيسى فى القرن كده ، مكبة ومدنية على سواء . ولكنها فى السور المكية تستغرق المساحة كلها ، وتستوعب الحديث كله ، بينما هى فى السور مدنية أشبه بالتيار الخارجى تستت على شاطئيه الحياة من كل جانب ، لترعرع وبردهر بعد أن تشعت بها النفس ، فتجىء بالتنظييات السبسة والاقتصادية والاجتماعية والروحية والفكرية تلى نظم حياة المجتمع المسلم فتشع معظم المساحة ، ولكنها تحيى مرتطة بالعقيدة ، مستمدة منها ، نبتة فى ظلها ، أوية فى ليلها لها وبعد بحسب لأول وهمة أن هذه الاهتمام البالغ بموضوع لعقيدة فى السور المكية ، والتركيز لشديد عليها بحيث تشع لمساحة كلها ، إنما كان لأن العرب فى جاهلية لم يكونوا يؤمنون بالله الواحد ، فاقترضوا الأمر أن يحاطبوا فى شأنها ، ويتكرر الخطابات إليهم حتى يصح لى هذا الحد !

ولكن نظرة سريعة إلى السور المدنية تريبا غير ذلك !

فى المدنية كان المجتمع المسلم قد دام ، وقامت الدولة المسلمة كذلك . وكان قد تربي على العقيدة لصحيحة جيل كامل ، بعصه تربي فى مكة من قبل ، خلال ثلاثة عشر عامًا من الدعوة ، بعصه تربي فى مدية قبل الهجرة وبعدى . بل كان قد تربي هذه العقيدة جود « يقتلون فى مسيل الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ » . وليس بعد تقديم النفس فداء هذه العقيدة والموت فى سبيلها دليل على مدى تأصلها فى نفوس أصحاب ، وحسن فهم فى اعتناقها ، والنجد لله فيها . ومع ذلك فقد كان هؤلاء مؤمنون المجاهدون أنفسهم بمخاضون فى أمر العقيدة فى العهد المديى من أول سورة بلى آخر سورة ! وذلك دليل واضح على أن هذا الاهتمام البالغ بأمر لعقيدة فى القرن لم يكن سبه ، نكار العرب فى جاهليتهم ، إنما لابد أن يكون سبه الأهمية الخاصة للموضوع ذاته ، حتى وإن كان المخاطبون به مزميزين .

كذلك ستنال من تكرار الحديث عن العقيدة في السور المدنية للمؤمنين لا للذين لم يؤمنوا بعد<sup>(١)</sup>، أن حديث العقيدة ليس درساً يُعطى ثم يُمضى عنه إلى غيره ! إنما هو درس يُعطى على الدوام ثم يُمضى معه إلى غيره ! بحيث لا ينقطع الحديث عنه في يوم من الأيام ! والله أعلم بحالقه<sup>(٢)</sup> ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير<sup>(٣)</sup> ؟ ولو كان يعلم سبحانه أن درساً عاماً في العقيدة يكفي ، أو حملة دروس وتنتهي ، لما ظل انقلب يحدث عنها في السور المدنية بلا انقطاع حتى آخر آية نزلت من القرآن ، وهي قوله تعالى : «واتقوا يوماً ترحعون منه إلى الله ، ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظنون<sup>(٤)</sup> »<sup>(٥)</sup> إنما يعلم سبحانه أنه لابد من التذكير الدائم بالعقيدة حتى يمتدحهم<sup>(٦)</sup> ، وذكركم فإن لذكرى تفجع المؤمنين<sup>(٧)</sup>»<sup>(٨)</sup> ولقد بحسب الأول وهلة كذلك أن القرآن يعطي هذه العناية البالغة للعقيدة - سواء في العهد المكي أو المدني - لأنه كتاب دين !

وهذا من جهة حق لا شك فيه !

ولكن هذا الكتاب هو منزل من عند الله لتقويم الحياة البشرية وإقامة الحق والعدل في الأرض : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأمرنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط<sup>(٩)</sup> »

فإذ كان الكتاب الذي يحوى منهج الرسل لإصلاح الحياة البشرية وإقامتها بالقسط يخص هذا خير الوصع للحديث عن العقيدة ، فلا بد إذن أن تكون العقيدة هي محور ذلك لإصلاح كله ، وأن يكون اهتمام القرآن بها أثباتاً من أنها هي الوسيلة للعناية المطلوبة وهو كسب هذا وسيلة أخرى غيرها أو مثلاً ، يؤدي إلى الإصلاح ، كالنظيم الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي - إلخ - لأولاه ، نقرأ هذه العناية : «إن الله سبحانه وتعالى وهو ير ، عن عباده منهج إصلاحهم لن يرضى عنهم بالوسيلة التي لذلك الإصلاح وهذا حدثهم بما عمل في كتبه المنزل عن التنظيحات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية - فهي ليست موصوفاً بعيداً عن القرآن ولا غير وارد فيه - وإنما أعطى لقرآن الأهمية العظمى لموضوع

(١) من أوضح الأمثلة على ذلك قوله تعالى في سورة النساء : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذي نزل على رسوله » [آية ١٣٦] وقوله تعالى في سورة الحديد : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وامنوا برسوله يؤتكم كفاً من رحمته » [آية ٢٨]

(٢) سورة المائدة ١٤ (٣) سورة البقرة ٢٨١

(٤) سورة الحديد ٢٥ (٥) سورة الحديد ٥٥



العقيدة، فبل كل شيء - حر لأن الله يعلم - مسحاه - أن هذا وحده هو السبيل الحقيقي  
لإصلاح البشرية ، وكل ابتداء يعبره ، أو مُصنّى بدونه ، عمل - ظل لا يؤدي إلى شيء !

\* \* \*

هناك أسئلة تلح عن الفطرة - نوعى أو غير نوعى - لا تستطيع الفطرة أن تتخصص من  
صعظها عليها وإلحاقها

من خلق هذا الكون ؟

من مدبر الكون ومدبر الأحداث ؟

من أين جننا ؟

إلى أين نذهب بعد الموت ؟

لأى غدا نعيش ؟

وهذه الأسئلة - هل التنظيم الاقتصادى أو السياسى أو الاجتماعى - هى التى تحدد مسار  
الإسكان فى الأرض ، وصورة وجوده عليها ، كما تحدد له لإجابته على سؤال أخير من تلك  
الأسئلة التى تلح على الفطرة ، وهو - على أى صورة نوعى أى منهج نعيش ؟

ولقد زعمت المادية الحداثية والتفسير المادى لتاريخ أن الذى يشكل وجود الإنسان على  
الأرض ويعطيه صورته هو الوضع الاقتصادى أو الوضع المادى !

\* فى الانتاج الاجتماعى الذى يراوله لسان ترهم يقيمون علاقات محدودة لا على هم  
عنها ، وهى مستفنة عن إرادتهم - فأسلوب الإنتاج فى الحياة المادية هو المادى يحدد صورة  
«عمليات الاجتماعية والسياسية والمعوية فى الحياة - ليس شعور لسان هو لدى يعنى  
وجودهم ، بل إن وجودهم هو لسان يعنى مشاعرهم » [كارل ماركس]

\* نبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتى وهو أن الإنتاج وما يصاحبه من تبادل لمسجات هو  
الأساس الذى يقوم عليه كل نظام اجتماعى - فحسب هذه النظرية نجد أن «أسباب الهوانية  
لكافة التعبيرات أو التحولات الأساسية لا يحور البحث عنها فى عقول الناس ، أو فى شعورهم  
وراء الحق وانعكاس الأرواح ، وبها فى التعبيرات التى نظراً على أسلوب الإنتاج والتبادل»  
[فردريك إنجلز]

والمادية الحداثية تعانق نفسها أو تعانق الناس هذه المقالة وتلك ، وتهرب من انواقح حين  
ترغم أنها « فيزيقية » بحثة ، أى مادية حادثة ليس لها علاقة « بها وراء الطبيعة » أو  
« الميتافيزيقا » كما يسمونها فى اصطلاحاتهم !

إسهم - وهم يصنعون نظريتهم لتفسير الحياة وتفسير التاريخ - قد أجابوا بالفعل على تلك

الأسئلة الميثافيزيقية « التى تدح على لمطرة البشرية ولا تستطيع المطرة أن تحصل من صغطها »<sup>(١)</sup> لمخارجها !

أجابوا بقولهم : « لا إله . والكون مادة » !

وأجابوا بقولهم : إن الحتمية المادية والحتمية الاقتصادية والحتمية التاريخية هي التى تدبر أمور الكون وتدبر الأحداث .

وأجابوا بقولهم : إن الإنسان نتاج المادة ، وإليها يعود !

وأجابوا بقولهم : إننا نعيش لنؤدى دورا لمرسوم بحسب وضعنا المادى والاقتصادى ، أى دورا ائدى تفرصه علينا « الحتميات » لمادة والاقتصادية والتاريخية !

وبصرف النظر - مؤقتا - عما فى هذه الأحداث كلها من صلاله وانحراف ، فإن ائدى يعيبا الآن منها أنها - رضيت أم أنت تقدم « تصور »<sup>(٢)</sup> معبأ للكون والحياة والإنسان وعلاقاتها كلها « بالخلق »<sup>(٣)</sup> وعلاقات بعضها ببعض ، كما تقدم إجابات للأسئلة التى تدح على المطرة - نوعى أو غير نوعى - وهذا كله قبل أن تقدم الصورة التطبيقية والحل العملى الذى نظن أنه يصدق الحياة البشرية ويقومها !

ومهما حاولت ائدية ، الحذلية أن نرغم أنها ضد « الميثافيزيقا » ولا علاقة لها بها على الإطلاق لأنها مادية بحتة أو « علمية ! » بحتة ، فستظل دعوى فائمة على غير أساس واقعى ، مادمت « فلسفتها » تعرض للإحابة على هذه الأسئلة بالذات ، وتحاول أن تعطى « تفسير »<sup>(٤)</sup> شاملا للحياة ، مبيئا على « تصور » شامل لعلاقاتها بعضها ببعض

وكون هذه لإحابات مادية بحتة - كما هو ظاهر - لا نسمى أنها فى أصلها إحابات على أسئلة غير مادية ، وأنها « تصوؤ »<sup>(٥)</sup> معنى سبق التطبيق الواقعى ويصبح له الموعود ولمسرات !

وهذا هو الجوهر الحقيقى للموضوع

إن الإنسان بحكم تكوينه ، ويوعى منه أو بعير وعى لابد أن تكون له عقيدة ! وهذه العقيدة ، التى هي تصوؤ شامل للكون والإنسان ، وعلاقاتها بالخلق ، وعلاقاتها بعضها ببعض ، هي الأساس لئدى تبس عليه الصورة التى يكون عيبها وجود الإنسان فى الأرض ، سواء وجوده ائدى أو وجوده لمعوى ، وسواء وجوده السبسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى .

( ١ ) هم ينكرون « الإله » بمعناه الدينى ائدى يعرفه ، ولكنهم يعونون إن « الطبيعة » هي التى خلقت الكون ، وإن للطبيعة قوانين حتمية هي التى تدبر الكون !

وليس من الضروري أن يكون كل إنسان واعياً هذا التصور لشامل أو أصيلاً فيه فقد يعيش على غير وعي كامل منه ، وقد يكون فيه مقدراً للأحزب وخاصة أصحاب سلطان في المجتمع ، الذي يشكون في العدة أنماط التفكير والسلوك في مجتمعاتهم ، ثم تبهم الخبير « مختارة » أو مقهورة على التقليد !

ولكن هذا كله لا يغير الحقيقة الواقعة ، وهي أن هذه العقيدة أو هذا التصور الشامل هو الذي يضع دستور الحياة ويشكل أنماطها وقوانينها ، وهو الذي يرسم للإنسان أفكاره ومشاعره وأنماط سلوكه ، ويحدد له علاقته بالخالق ، وعلاقته بالكون والحياة والإنسان .



ليس اهتمام القرآن بالعقيدة إذن ناشئاً من إنكار العرب في الجاهلية ، ولا ناشئاً من أنه كتاب « دين » !

إنما سببه أن الله الطيف الخبير الذي يعلم حقيقة النفس البشرية وتكوينها ، يعلم كذلك أن العقيدة هي محور ارتكاز الإنسان كله وموجّه ألوان نشاطه ، وأن نوع حياة الناس يحياها الإنسان في الأرض - فضلاً عن مصيره في الآخرة - مرهون كنه بوع العقيدة التي يعتقدونها ويسير - من ثم - بمقتضاها . مرهون بالإحاطة على تلك الأسئلة التي تسح على العطرة وتتطلب إجابات محددة عليها

من حاس هذا الكون ؟

من مدبر الكون ومدبر الأحداث ؟

من أين جئنا ؟

إلى أين نذهب بعد الموت ؟

لأى غاية نعيش ؟

ومن حمليه ذلك كله تحييء لإحاطة على السؤال الأخير على أي صورة وعي أي منهج نعيش ؟

فإذا أَوَّلَى القرآن العقيدة هذا الاهتمام كله فهذا هو الأمر الطبيعي ، وهذا هو المتوقع من كتاب يرسم للناس منهج الحياة .



يهتم القرآن اهتماماً بالغاً بأمر تصحيح العقيدة . .

ولا فإن العقيدة بمعناها المطلق ، أى الإيمان بوجود خالق هذا الكون ، ثم وجود مجموعة من التصورات فى أذهان الناس حول ذلك الخالق تطيع بطابعها واقع الحياة فى الأرض . . . هذا كله لا يحتاج إلى كتاب منزل ولا إلى رسول !

ومارس القرآن ليقول لناس إن هناك إلهاً ، فإنهم يعرفون ذلك بعير قرآن !<sup>(١)</sup> ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله !<sup>(٢)</sup> بل ، إنهم ليعرفون معلومات معينة عن ذلك الإله . قل : لن ، لأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟<sup>(٣)</sup> سيقولون لله ! قل : أفلا تذكرون ؟<sup>(٤)</sup> قل : من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله ! قل : أفلا تتقون ؟ قل : من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجبر عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ! قل : فأتى تسعرون<sup>(٥)</sup> !<sup>(٦)</sup>

بل ما مرز لقرآن - ولا أى كتاب سابق - ليقول لناس إن هناك إلهاً معدوداً ، فهم يعرفون ذلك ويقومون بالعبادة من دلت أنفسهم ، على صورة من الصور يصنعونها لأنفسهم !  
إنما برئت الكتب السماوية كلها وأرسل الرسل كلهم - بما فيها حاتم الأنبياء - صلى الله عليه وسلم - ليحدثوا الناس عن العقيدة الصحيحة ليقولوا : لا إله إلا الله ، اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .

وم تكن مشكلة البشرية - من أوان التاريخ إلى آخر التاريخ - أنهم لا يعرفون وجود الله ولا يعبدونه بصورة من الصور ، بما مشكلتهم أنهم لا يعرفونه المعرفة الحققة ، ومن ثم لا يعبدونه كما ينبغي له العادة سبحانه .<sup>(٧)</sup> وما قدره الله حق قدره ،<sup>(٨)</sup> « كلا ! لما يقض ما أمره »<sup>(٩)</sup>  
إن العطرة البشرية تنتجه إلى الله من تلقاء ذاتها بغير كتاب مرز ولا رسول . . .

فلقد أودع الله فيها هذا الوجه إلى خالق بطريقة لا يعلمها .<sup>(١٠)</sup> « وإذا أخذ ربك من نبي آدم من ظهورهم ذريهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قلوا : بلى !<sup>(١١)</sup> شهدنا !<sup>(١٢)</sup> »

كيف أشهدهم ؟ لا يعرف ! ولكننا نرى فى عالم الواقع أن الشر ينجهون توحهاً فطرياً إلى الخالق ، ولو لم ندعهم عنه أحد ويوجهون - فطرة - إلى عبادته ، ولو لم نأمرهم بذلك أحد أو يوجههم إليه ولكنهم كثيراً ما يصلون فى تصورهم للمخلوق سبحانه ، فيصورونه على غير حقيقته ، ويصورون وجوده أنه أخرى معه ، ثم يعبدونه على هوى أنفسهم بغير ما تعبدتهم

(١) سورة لقمان ، ٢٥ (٢) سورة المؤمنون : ٨٩-٨٨ (٣) سورة النمر ٦٧  
(٤) سورة عبس - ٢٣ (٥) سورة الأعراف ١٧٢

به ، ويشركون معه في العبادة تلك الألهة المتوهمه بيقربهم إليه رضى كما  
يرعمون « واندس اتحدوا من ذوبه أولياء ما بعدهم إلا لبقيروما إلى الله زلفى »<sup>(١)</sup>  
أويعدون تلك الآلهة المزعومة وحدها - في الواقع - من ذوب الله

وعندئذ يرسل الله الكتاب ويرسل الرسول ليصحح لداس عقيدتهم لا لتشتبه - فهي  
موحودة بأصل انعطرة - وليقول لهم - لا إله إلا الله - عدوا الله ما لكم من إبه غيره  
ولقد يجبل إلها أحياناً أن محاوية المعاصرة استثناء من هذه القاعدة ، لأن فيها شعوب  
تأسرها لا تعرف الله لئنه ، ولا تعنده استة بل تدرس الإلحاد في المدارس ، وتخرج ملحدين  
لا يعرفون الله ولا يؤمنون بوجوده .

كما أن بعض المفسرين قالوا عن « الدهريين » الذين يحكى انقراض قولهم - « وقالوا ما هي  
لا حياتنا لنديا بموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر . . »<sup>(٢)</sup> إن هؤلاء القوم ينكرون وجود الله  
ويؤمنون - بدلاً منه - بالدهر

وأما بالنسبة لهذه الآية فليس فيها ما يقطع بأنهم حتماً ينكرون وجود الله ! إن الآية تقرر  
فقط أنهم يسيئون الإيمانة إلى الدهر بدلاً من الله ، وأنهم ينكرون البعث - وليس هناك عن  
الإطلاق ما يمنع من أن يكونوا مؤمنين بوجود الله ولكنهم ينعمون صلاته سبحانه بما يحدث هم  
من حياة وموت ، كما ينعمون قدرته على البعث - وينعمون البعث حملة لأن الدهر - لدى  
يسيئون إليه الأمر - ثبيلك فقط ، ويست له قدرة على الإحياء !

أما الشيوعيون فليسوا - برعم إحداهم - استثناء من القاعدة ! بل الإلحاد مفروض عليهم  
فرصاً بالحديد ولدر كالتظام الشيوعى ذاته ! ولو حتى بينهم وبين أنفسهم لكان صلاحهم في  
أمر العقيدة كصلاح بقية الصالحين من البشرى ! يعرفون الله ولكن على غير حقيقته ،  
ويعبدونه ولكن على هوى أنفسهم ؟

وإن إصرار اندوية على تدريس الإلحاد في المدارس هو ذاته دليل على حشيتهم من العقيدة  
« انعطرة في انعطرة وإن حدثت - وكثيراً ما تصل ! - مهم يلاحقونها دائماً بالتوجيه المصادق في  
برامج الدراسة ، حشية أن تظهر ثقباً فتصد عليهم برعم كونها ضالة - أصلاً هامة من  
أصول مذهبهم الشرير ، المحطط لإفساد البشرية  
وتكفى هذه الحادثة لثبت أن الشيوعيين ليسوا استثناء من القاعدة

(٢) سورة الاحقالية ٢٤

(١) سورة الزمر ٣

فجاءوا رافدين العصاة الأول من ربتي في الشيوعية والإلحاد منذ مولده إلى يوم انطلاقه إلى  
العصاة في دخل الصاروخ ومع ذلك فقد اهتزت فطرته حين صدر إلى الكون من خلال  
الصاروخ ، لأنه رأى صورة لم يشهدها من قبل ، وكان أول تصريح له حين سقط إلى الأرض ،  
« حين صعدت إلى عصاة أحدثني روعة لكون قمصيت أحدث عن الله ! »

تلك هي استجابه المفطرة التلقائية إزاء الكون المائل الذي خلقه الله . ثم تستطيع كل  
الشيوعية التي تعرضها الدولة ، وكل الإلحاد الذي تشه في الدروس ، أن تحول دون انطلاقها  
حين هزتها روعة الكون !

ومن الطريف أن « لدولة » عصت من هذا التصريح ، لأنه يهدم كل ما أشأته خلال  
حسين عام من الإلحاد ! لذلك أمرت « جاجارين » بتصحيح ذلك التصريح خطير ،  
وأضاف إليه في القراءة الثانية : « أحدثني روعة الكون قمصيت أحدث عن الله فلم  
أجد » ونشرت وكالات الأنباء هذين القراءتين المختلفتين للتصريح الواحد . بغير تعليق !



نعم . ١- تخدع المفطرة إلى رسول ولا كتاب مبرر لديها على وجود الله ، أو يدعوها  
لعبداء الله . .

ولكنها في حاجة ماسة لرسول والكتب المبرر ، لتعرف الله على حقيقته ، وتمسكه حق  
قدره ، ويعبده العبادة الخفية . وتلك كانت مهمة الرسل جميعاً إلى أقوامهم ، عندهم صلوات  
الله وسلامه ، كما كانت تلك مهمة الكتب لمرة حقيقياً . حتى جاء الرسول الأخير - صلى  
الله عليه وسلم . ، ليحاطب البشرية كافة ، وجاء الكتاب الأخير مصدقاً لذي يدينه من  
الكتاب ومهيماً عليه

جاء قبل كل شيء . . يعرفهم بالله

أو لم يكونوا يعرفونه ١٩

نلى ! ولكنها معرفة ناقصة من ناحية . ومعرفة ذهنية باردة من ناحية أخرى ، لا يبعث  
في القلب ، ولا تتحول إلى وجدان حي ولا سلوك عملي في واقع الأرض

ومما يلفت النظر كثيراً أن امرأة سجل على العرب معرفتهم بالله « الذين سألهم من  
خلق السماوات والأرض يقولون الله » (١) ثم سألهم - مع ذلك - « الذين لا يعلمون »  
« كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » (٢)

(١) سورة لقمان ٢٥ . (٢) سورة البقرة ١١٣

فلم يعتبر معرفتهم السابقة علماً ولم يجعل هذه المعرفة السابقة رصيصة هم يصيف إليه  
بيانات جديدة عن الله إنما محمداً محمداً ، واعتبرها جهلاً وجهالة ، وبدأ معهم من نقطة  
الصفر ، باعتبار أنهم « لا يعلمون » !

من الأحسن من ذلك أنه حين بدأ معهم من نقطة الصفر ، بدأ بـ « البيانات » المعلومات  
و « البيانات » التي كانت لديهم بالفعل !

« اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق » <sup>(١)</sup> .

وكون الله هو الخالق للإنسان كان معروفاً لديهم ، وسجله القرآن عليهم « ولئن سألتهم  
من خلقهم ليقولن الله » <sup>(٢)</sup> !

وكون الإنسان محمداً من علق كان معروفاً لهم كذلك ، وسجله القرآن عليهم « كلا إن  
خلقهم مما يعلمون » <sup>(٣)</sup> .

هنا لم تكن « البيانات » و « المعلومات » جديدة وإن كانت قد حدثت فيها بعد  
أشياء لم يكونوا يعلمونها أو كانوا منكرونها لها . المهم أنه عند الابتداء من نقطة الصفر ،  
بدأ بالمعلومات الموجودة لديهم بالفعل . هي العرق إذن بين تلك المعرفة السابقة التي محمداً  
محمداً واعتبر غير موجودة أصلاً ، وسماهم بها « الذين لا يعلمون » وبين هذه المعرفة ذاتها  
تقدم من جديد ١٩

العرق بين « المعلومات » ذاتها ، ولكنه في طريقة المعرفة

هناك كانت معلومات نادرة مينة لأهل قائمة في محيط ادن وحده . وما يرد لها أن  
تكون معلومات حية ناضجة ، لأنها لا تستكن في الدهر ، إنما تنتقل إلى القلب ، فتبصر في  
وجدان حي ، فتتحول إلى سلوك إنساني

« اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذي علم  
بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى . إن إلى ربك  
الرجعى . »

هذا لا يعني أن خلق الإنسان من علق مجرد « معلومات » ولا كذلك تعليم الله للإنسان  
ما لم يعلم . إنما يبينان التحريك وجدان الإنسان نحو الله الخالق وأهل العلم ، بما ينبغي  
من الشكر على نعمة الخلق ، ونعمته لتعليم . وربنا كانت الكنية أفضل ، لأن الإنسان يجد  
نفسه وقد جنن بالفعل ، فيسى ! يسى أن الله هو الذي خلقه وأنه لم يخلق هكذا تنعائياً

(١) سورة العلق : ١-٢ (٢) سورة الزخرف : ٨٧ . (٣) سورة المعارج : ٣٩

نعير خلقاً ولكن التعليم يتم والإنسان مدرك ، ويتقبل الإنسان أمام عين نفسه من حالة « جهل إلى حالة لعلم ، فهو حري أن يحس بالعمة ويقدرها وهذا الإحساس الذي يعطيه الآيات الأولى من السورة ، وهو تحريك «وجدان لشكر الله ، يتبين «اصحاح حين يصطدم بحالة ذلك الإنسان المعتم على تلك العمة ، لا في حالة شكر كما ينبغي ، بل في حالة طغيان « كلا ! إن الإنسان يطغى ! » ولماذا يطغى ؟ لأن الله أعطاه ! أي أن ذات السبب الذي كان ينبغي أن يؤدي إلى الإتيان والشكر ، صار يؤدي إلى الطغيان والكفر ! وهذه المعرفة بين «حالة انقذته بالعلم ، ودخله التي كان يسعى أن تكون ، هي التي تحرك الوجدان بالإحساس بقيمة لعمة الربانية رواجب الإنسان السليم انعطوة إزاءه ثم يجيء حتم هذا المقطع الأول من السورة ليحرك الوجدان حركة أخرى ، بالإضافة إلى السابقة « إن إلى ربك الرجوع » فيدو هذا الطاعية الصغير ، المنتفض في الأرض بعبر الحق وقد قُطِعَ عليه الطريق فجأة ! إن يذا جبارة قد قطعت طريقه وهو سائر منتفض متعالي على الخلق ، ثم أمرته بالرجوع ! والرجوع إلى أين ؟ إلى الله إلى « ربك » الذي محدث ذلك كله فكبرت به وطغيت وهب يروى عنه انتماشه الباطل ، وطغيانه المقتون ، فيأخذ مكانه الحق . دليلاً أمام الرب الذي خلق وأعطى ، فما قدر حق قدره

هكذا يتبين لنا كيف انتقلت تلك « المعلومات » من حالتها الأمسية الميتة الباردة ، لتصبح نبضاً حياً في قلب ، لتتحول من ثم إلى سلوك واقعي ! ويتبين لنا كذلك الفرق بين معرفة الرجل الجاهل بأن الله موجود وخالق ، والذي قال الله عنها « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله »<sup>(١)</sup> وبين معرفة لرجل المؤمن بهذه الحقيقة ذاتها ، مدرك لماذا سعى الله عرب « جاهلية » الذين لا يعلمون « رغم معرفتهم تلك المعلومات التي سجلها عليهم ، ولماذا قال سبحانه « هل سئوى الدين يعلمون والدين لا يعلمون »<sup>(٢)</sup> « كلا ! إلهم لا يستوون ! » وإذا تتبعنا كل ما كان عند العرب من « معلومات » عن الله سبحانه نجد القرآن قد عامدها ذات «عملة » سجل عيهم علمهم بها ، لا ليعتبره علم ، ولا يبداً منه ثم يكمل . كلا ! بل ليمحوه محواً ، وبدأ من جديد من ذات المعلومات ، ولكن بطريقة الخاصة التي تمحوف إلى نفس حي وسلوك واقعي ! إنه في الواقع يستتبت بدرة جديدة في قلوبهم ، قد تكون فيها مشاهد من البدرة الأولى التي كانت موجودة من قبل ، ولكنها غيرها على وجه التأكيد ! إن القديمة أسست وتعمنت فما عادت تصبح للاستتبت ! وهذه غيرها . . . جديدة تماماً . . .

(٢) سورة الزمر : ٩

(١) سورة لقمان : ٢٥



سنت من جديد . بعد محرك انقلب ليسر ، لبعد انبذرة الحديد بالقوة و لسياء  
لذلك . فما أصل الذين يكتبون مدافعين عن العرب في اجاهلية نقوضم إنه كانت  
عندهم حصارة و « معلومات » ايريلون لينولو . بل بعضهم يقرب بالفعل - إنهم لم يكونوا  
جاهلين!

ما أصلهم إذ يقيسون الأمر بالمعلومات ا  
فهل كان عند العرب من المعلومات ما عند أوربا اليوم في القرن العشرين ؟ ومع ذلك  
وأوربا اليوم في قمة الجاهلية ، عن طريق هذه المعلومات بالذات ا لأنهم ، كما يقول القرآن ،  
« لم حوا بها عندهم من العلم »<sup>(١)</sup> و « نسوا الله فأنساهم أنفسهم »<sup>(٢)</sup> وأصلهم وأشقاهم  
بعلمهم الذي يتيهون به ، فيتبهون فيه !  
بها ليست المعلومات كما أسلفنا . ولكنها طريقة المعرفة . طريقة تؤدي إلى عبادة  
الله ؟ . أم تؤدي إلى عبادة الشيطان ؟!



قلت إن العقيدة هي الموضوع الرئيسي أو الموضوع الوحيد في السور المكية كلها  
وباب الأكبر للعقيدة هو التعريف بالله ، بالطريقة القرآنية التي تحول لمعلومات إلى  
بعض حي وسلوك . وستحدث إذ شاء الله شيء من التفصيل عن طريقة القرآن في  
التعريف بالله ، والأوتار التي يوقع عندها في القلب الشرى يوقفه إلى حقيقة الألوهة وحقيقة  
الربوبية ، فيتوجه إلى الله بالعبودية الخفية ، ويستقيم على أمر الله  
ولكننا هنا نقول في مقدمة الفصل إن التعريف بالله سبحانه ، وإن كان أكثر أبواب  
العقيدة ، إلا أنه ليس الباب الوحيد الذي يستخدمة القرآن لتثبيت العقيدة وتمكيها . هناك  
إلى جانب ذلك الإيمان باليوم الآخر ، والإيمان بالكتب والرسل والسود والوحى ،  
وهذا قصص الأنبياء ، وهناك قصة آدم وقصة الشيطان مع آدم ، وهناك الأخلاق الإبرية  
التي يسعى الخلق بها بدلاً من الأخلاق الجاهلية التي يسعى بدها . . وكل أولئك  
يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة ، ويؤكدنها ويرسخها ، بحيث يعتبر باباً من أبواب  
وفيما يلي من الحديث تفصيل لتلك الأبواب الستة الكبرى من أبواب العقيدة ، وبين  
الارتباط بين كل منها وبين العقيدة الصحيحة التي جاء القرآن ليبيها للناس

(١) سورة غافر : ٨٣ (٢) سورة احقر : ١٩

## الإيمان بالله

إذا كانت العقيدة هي الموضوع الرئيسي في القرآن كله - مكة ومدينة ، فقصية الألوهية هي الموضوع الرئيسي في العقيدة ، وهي التي تشمل الخير الأكبر من مجموع الكتاب وهذا هو الأمر الطبيعي لدى لا عرانة فيه - حقيقة الألوهية - من جهة - هي الحقيقة النكرى في هذا الوجود كله ، التي يقوم الكون كله بها ، ومن جهة أخرى هي الركيزة الكبرى التي تقوم عليها عقيدة « الإنسان » .

وإذا كان قد قلنا من قبل إن حديث القرآن المتكرر عن العقيدة ليس ناشئاً من إنكار العرب في الجاهلية ، ولا ناشئاً من أن القرآن كتاب « دين » ، إنما هو الأمر الطبيعي بالنسبة لتكوين الإنسان ذاته ، وبالنسبة للأهمية الذاتية للموضوع ، فكذلك نقول من مرة أخرى إن الحديث المسهب عن الألوهية في القرآن ليس سببه انحراف الجاهلية العربية والجاهليات كلها - في تصور ما لله ، فإن السور المدسة التي برزت للمؤمنين - لا للمشركين - طلت تتحدث عن الألوهية باستفاضة وإسهاب ، وتلمس أوتار القلب الشرى بهذه القصبة من كل جانب وفي كل ماسة ، بحيث لا يعود لديها شك في أن القرآن يولي قضية الألوهية تلك الأهمية العظمى لا لذلك السبب المعارض وهو انحراف الجاهلية العربية ، ولكن لسبب يتعلق « بالإنسان » ذاته في كل حالاته ، وأن المؤمنين - وإن كانوا مؤمنين - لا يرايون في حاجة دائمة إلى التذكير

والقرآن يحاطب في قصية الألوهية مجموع « الإنسان » كله ، لا عمله وحده ولا وجدانه وحده ، ويحاطبه في جميع حالاته ، ويتحدث عنه كذلك في جميع حالاته ، عقلاً وملياً ، صاعداً وهابطاً ، حيّ الوجدان ومتبدل الحس ، متفتح البصر ومغلق البصيرة ، مستثراً وهادئاً ، متطلّعاً وحائثاً ، صائحاً وباكياً ، مستكبراً ومستسلماً ، يقطر وغافياً ، مستهيماً على أمر الله وحائثاً عن لسيل - كما أنه - وهو يحاطبه - يحيط به من كل جانب ويدخل إليه من كل أقطار نفسه - من صفحة الكون بعروصه أمامه ، من الأحداث الحارية حوله ، من نفسه وما يجري فيها ، من مشاهد الديق ومشاهد الآخرة ، مما تدركه الحواس وما لا تدركه

أحواس . . . كما يواجه حقيقة نفسه : عاجزاً ضعيفاً محتاجاً ، مقراً بعجزه في ساعة الكرب ملتجئاً إلى الله ساعة الشدة ، مستكبراً طاعناً حين تنتهي الشدة وتقر ، ويظن أنه استعصى عن الله ! إلا المصدين !

وبهذه لمواجهة الدائمة لشاملة لمحيطة يضل بالقلب اسرى حتى يتمتع لحقيقة الألوهية ، ثم يؤمن بها ، ثم يستقر الإيمان في القلب ، ثم يستقيم على الإيمان !



فما إن الله أودع في الفطرة أن تبحث عنه ، وتوجه إليه ، وتعبده . « وإذ لأحد ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى ! شهدوا » (١)

ولسنا نعرف - كي أسلف - كيف تم ذلك الإشهاد . ولكن ملاحظ أشبه تدل على أن الفطرة تنبئ ، فتوجه باحث عن الله لدى أُنشِدتْ عليه في عام اندر ، وقد تهتدى فتعرفه على حقيقته وتعبده حتى عبادته ، وقد تفصل . فتصوره على غير حقيقته ، وتتصور معه آلهة أخرى ، ثم تعبده على غير ما يسمى به سبحانه من إحلاص العبودية ولطاعة له ، فتشرك معه في العبادة تلك الآلهة الأخرى . ولكنها في الخلق تبحث عن الله ، وتوجه إليه ، وتغارس لوتاً من العبودية له

هناك أوتر في القلب البشري أعدها الله سبحانه بشقوى إيقاعات معينة فتعثر فإذا اهتزت انطلقت الفطرة تبحث عن الله . وقد تهتدى في بحثها وقد تفصل . ولكنها في كل حال تطلق إذا اهتزت الأوتار ، والإيقاعات التي غيرها لا تنقطع في ليل أو نهار !  
لكن أعظم إيقاع يوقع على ارتداد القلب البشري .

الكون بصحاحته الهائلة

والكون بدقته المعجزة

كلاهما نوقيع هائل لا يمكن أن يسجو منه قلب إنسان

الكون بصحاحته الهائلة التي لا تصل إلى مداها العيون . بل لا تصل إلى مداها الأفكار !

كان الإنسان يظن بعينه المجردة فلا يصل إلا إلى أبعاد قريبة من الأرض ، وأبعاد قريبة من السماء . وكانت هذه وتلك تهوله بصحاحته !

---

(١) سورة الأعراف ١٧٢ .

ثم بدأ يصنع المفاظير ، فامتدت رؤيته في الأرض ، وأوغل بصره في السماء . فزادت صحامه الكون في حسه ، وطلت تزايد مع كل منظر جديد ، يكشف له من أعوار السماء خاصة ما لم يكن يراه من قبل . .

ثم تعدت الصحامة لمحسوس . . وتحولت إلى أرقام !  
هذا نجم يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية . . ويراه المنظار !  
والحسبة التي تساوي أربعة آلاف سنة ضوئية حسبة لا يتصورها العقل . إلا عن طريق الأرقام

ثم جاء لمطار الإلكتروني . إنه يسجل أعدادًا لا تُرى ! إنها تكتب فقط في لوحة الأرقام !  
ضخامة لا يمكن أن يسجو من وقعها الحس ، ولو أراد أن يتصت ، ولو كان أمام الناس !  
ويتر في القلب . . على هذه الصحامة الهائلة . . فتطلق العطرة تحت من وراء هذه الصحامة المعجزة ؟ من الخالق ؟  
ثم تهتدي . فتعرف الخالق على حقيقته . أو تصل فتسميه « الطبيعة » . . أو تسميه كائنًا من كان !



ومع الصحامة الهائلة دقة معجزة كذلك !  
هذا الكون الضخم الهائل لا ينحرك خبط عشواء  
إنه يسير في حركة دقيقة تلغ حد الإعجاز  
هذه الملايين ، بل ملايين الملايين ، من النجوم في الكون لا يلتقي اثنين منها في هذا الكون العريض ، ولا يقع بينهما صدام . إلا أن يشاء الله  
كل في ملكه يسبحون !  
وتربطها جميعًا تلك الطاقة المعجزة التي تسمى « الجاذبية » . .  
تربطها بحيث تتحرك كلها في حركة منتظمة لا هي تتوقف ولا هي تعطل . إلا أن يشاء الله !

والشمس والقمر يحسان !  
حسان دقيق لا يحصى  
تستطيع أن تشي حدائق هلكية تحسب فيها الكسوف والخسوف لألف عام ما لم يغير الله نظام الكون !

بل الكون هو الساعة لعظمى التى تصبى عليها ساعات الملكية الدقيقة انتى  
تجسب الوت بالسااعة ولدقيقة واثانية والثالثة ( وخذ من ستين من الثانية ) بل هناك  
اليوم ساعات تجسب بحجره من مائة ألف حجره من الثانية مصبوطة كذلك على لأفلاك  
ثم

هذا المعصور الخميل الذى يسقى فى الفضاء !

هل سمعت هذه السقسقة ذات الأبعاد الدقيقة البالغة الدقة !

وعدد العناصر الملون الريش

هل رأيت كن ريشة مفردة كيف لُوئت ؟ كيف تدخلت الخطوط والألوان على مثلث أو  
ألوف من الشعيرات كل واحد مكانها فى اللوحة الدقيقة البالغة الإعجاز ؟  
والوهة الدقيقة الملونة ، وتكنز الدقيق الذى لا يكاد يرى بالعين وهو حتى  
مكتنص الحياة !

أى إحصاء من تلك الدقة البالغة فى ذلك الكون انصحكم الذى يروع بصحاته  
الحس والأنصار ؟

وأى قلب يمكن أن يجزو من توقيعات تلك الدقة المعجزة ولا يبعث يبعث عن الله  
سواء صل بعد ذلك أم وصل إلى هداه ؟



الموت والحياة كذلك من الإيقاعات المؤثرة فى أوتار القلب البشرى

فى مرحلة الطفولة ذات الحيوية الماثمة والخيال الذى لا يميز الحقيقة ، يتصور الطفل  
حياة فى كل شيء ، غير محير حتى الحائط حتى الأرض فصلاً عن النعية المنصورة على  
شكل حيوان أو إنسان ، وحين يقع على الأرض أو يصطدم بالحائط وتؤذنه الصدمة يتصور  
أن الأرض هى التى صرته ! ولذلك يصرى رصاً حقيقياً حين تأتى أمه فتنتقم به بأن تصره  
الأرض سداً ! ويتصور أن صر به الأم ف قد أوجعتها كما أوجعته هى ، فيكف عن لكاء !  
وحين يكرر قلباً يبدأ يعبر بين الأشياء ، فيعرف أن لقطة والكلب والكتكوت والمعصور  
أحياء حقيقة ، لأنها تأكل وتشرب وتحرك مثله ، أن اللعنة والعصا وغيرها فليست حبة  
حقيقية ، ولكنه مع ذلك لفرط حيويته وسعة خياله ، يضمى على هذه الكائنات الجامدة  
حياة من عده ، ثم يصدقها ! فهو حين يكتم اللعنة أو يصر بها أو يربت عليها لا يتعامل  
معها على أنها جامدة ، إنما هى حبة أو شبه حبة ، فى خيال لا يميز تماماً بين الحقيقة

والخيال وحسب حين نكبر عن ذلك ويركب العصب على أنها حصاد ، ونصرها لتجرب ،  
ويعلم أنه هو الذى يجرب فى الحقيقة لا العضا حتى عندئذ فهو يعلم الحقيقة ولكنه يحب  
أن يجمع الحياة على هذه العضا الخمدية ومحت أن يرى الخيال كأنه حقيقة !

ولكنه يفاجأ يومًا بحادثة الموت . . حادثة غريبة فى حبه

نجاحاً بها فى موت القطة التى يدعب بها ، أو فى عصمور ميت أو فى أحد أفراده

بفاجأ بأن القطة أو العصمور لا يتحرك . . ويحزن أن يطعمه أو يسقيه فلا يستجيب

ويسأل عندئذ : ماذا لا يتحرك ولا يأكل ولا يشرب ؟ فيقال له : إنه مات

عندئذ تحدث الله حاة لصحبة . . مات ؟ وما معنى الموت ؟

ويتعجب أن معناه فقد الحركة والقدرة على أن يأكل ويشرب وينطق . . ومعناه أنه مسعيب

عن عابه فلا يعود

هذه لصدمة الخاءه لى تحربه حزنًا بالغًا لا يعيب عن حسبه بعد ذلك أبدًا . . لأنها

تكرر - ولابد أن تكرر فتعيب عن عابه أشخاصًا أو أشياء عزيزة عليه . . ويظل فى كل مرة

يندعه الألم على فراها

ويكبر الطفل ويكبر . . فلا تروى عنه هذه الآثار بل تنعمو . . وكلما كبر ورداد

روايته مؤثقا مع الأشخاص والأشياء رد تأثيره من يعيب منها عن الرخود

هذه المظاهرة ، ظاهرة الموت والحياة ، عميقة الأثر جدًا فى حياة البشر ومشاعرهم . . لا

يجوز منها حتى أبدعهم حنًا . . ولا يمكن أن يمر فى حياتهم بغير اهتزاز بطور أو يقصر

ثم لا يمكن أن تمر دون أن يوقظ فى حسهم سؤالاً عميقاً : ماذا هذه المظاهرة العميقة لتأثير

كيف تحدث الحياة ؟ لماذا ؟ وكيف تكون تلقائية ؟ أنس لأدبها من موجد يسمح الحياة ؟

ولماذا تنهض ؟ لماذا تحدث الموت ؟ لماذا لا تعيش لأحياء إلى الأبد بحفظه بكل حيوياتها ؟

وماذا وراء الموت ؟ هل هى النهاية ؟ ألا يعود الحياة إلى الكائنات أذاً . . فى أية صورة

من الصور ؟

نك لتسؤلات التى لا يجوز من وقعها لكائن لبشرى ، هى توقعات مؤثرة فى أود

القلب ، تبعثه يبحث عن الخالق المحيى المميت . . الذى يسمح بالحياة وبأحد الحياة . . ثم

يهتدى معروف الله على حقيقة ، أو يصل فتصوره لوه من القوى ، أو شيئ من الأشياء

\* \* \*

الأحداث اختارية حتى لا تكف عن حدوث وانتاع . . هى أيضًا ذات توقعات عن

أوتار القلب البشرى

كيف تحدث الأحداث ؟ ماذا وراءها ؟ ومن وراءها ؟

تحدث حبط عشواء ؟ أم تحدث تدبير ؟ وه سر التدبير وما حكمه ؟  
هذا الطفل ، الوليد الذي يموت وأمه في شقة حادثة إلى ولبد . وذلك الشيخ الذي وصل  
إلى أردل العمر ولما يترجح بعد !

هذا الشاب الذي مات في غموان شابه ووراءه أسرة كان يعوها لا عائل لها . في التطور  
غيره . وذلك المريض الذي لا يقوى عن الحركة ولا يأنيه الموت بعد !  
هذا الحادث الذي أصاب السيارة فتح منه فلان . وفلان إلى جواره ثمناً لم يبق منه جزء  
على جزء !

هذا العمى الذي لا يعرف لأمواله حصراً ولا لإفادته حدوداً . وهذا العمير الذي لا يجد  
قوت يومه

هذا الذي يبرق الأولاد والأحفاد حتى تغيب عن طاعة مشاعره . وذلك الذي يتدهف  
على ولد واحد يحملته في الحياة

هذا ملئ الذي هو . . . وملك الذي احتل مكانه

تلك الأيام المتدولة بين الناس .

هل هي خبط عشواء ؟ هل وراءها سر ؟ هل يحكمها تدبير ؟

ومن صاحب التدبير ؟

ألا إنها لشيء عجز حتى أتت الناس حث لا يسحر من الحيرة منه . والتعكير فيه  
ثم يروح يتساءل . من وراء الأحداث ؟ ومدا وراء الأحداث . . ثم يهتدى إلى الله الحق ،  
أو يضل في التيه .



عجز الإنسان إذا تم يلجئه إلخاء إلى التفكير في لقدرة التي لا يعجزها شيء  
يولد انطق عاجراً عن كل شيء . وبولا أمه برصعه ، وبأحده في حصصه ، وتغضى به  
حوائجه كلها ما أمكن أن يعيش .

ثم يبدأ يحس بالقدر على بعض الأشياء . .

يبدأ يحرك أصابعه . ويحرك يده . ويحرك عضلات ساقيه وأصابع قدمه . ويحرك  
رأسه . ولكن هذا كله داخل حصص الأم ، ما استطاع أن يعاينه بعد

ثم يحس بمريد من القدرة . فهو الآن في خارج الحصص يحرك بعض الحركات

ويصرح فرحاً هائلاً ولا شك بمقدرته تلك ولكنه يتطلع إلى المرید .  
 وبأثنى يوم يحبو فيه على الأرض . إنه يتطلع إلى الوقوف والمشي  
 ثم يقف ويمشي يترجح ويسقط ثم يعود فيقوم إنه يتطلع إلى الوقوف الثابت والمشي  
 المتمكن .

ويصل إلى ذلك ذات يوم إنه يريد أن يطول الساعده وأكبره الساب  
 ويطول هذه وتلك ذات يوم . . ثم يتطلع إلى مرید من لغيره ومرید من القوة ومرید من  
 السمكس .

ويكبر كما شاء الله أن يكبر ويطلع من القوة مداه فهل يتوقف عن التطلع  
 لحظة ، ويكتفى بها وصل إليه من التمكن ؟

كلا إنه ليحس بمرید من العجز كلما بلغ مریداً من القدرة !!  
 إن تطلعاته لا تقف عند حد وكلما توصل إلى شيء من القدرة أعراه ذلك بالتطلع إلى  
 المرید ، فيحس بالعجز عن ذلك المرید ويحدون من جديد ويصل إلى شيء مما  
 يريد فيتطلع فيحس بالعجز .

لقد فجر الطاقة النووية . ووصل إلى القمر . . وقد يصل غداً إلى أعوار جديدة في  
 الكون لمسيح ما كان يحلم بها من قبل فهل أشعه ذلك كله فكف عن التطلع ؟ أو  
 لرصاه فلم يعد يحس بالعجز ؟ . .

كلا ! إنه في الحقيقة يريد ألا يعجز أبداً ! يريد أن تكون له السيطرة الكاملة على كل  
 شيء يريد أن يقول للشيء كن . فكن ! ولكنه يعرف أن ذلك لن يكون !

لذلك مما فتى يحس بالعجز . . . وصل إلى الأفلاك ، ومهما سحر من الطاقات  
 وعجزه الدائم ذلك يلحته إلحاً إلى التفكير في تلك القدرة التي لا يعجزها شيء ، من  
 وراء هذا الكون الهائل الذي لا يقدر هو على شيء منه ، إلا فتناً من القدرة لا يعيه ولا  
 يرضيه . .

عندئذ يطلق يبحث عن تلك القدرة القادرة . . فيبتدى . أو يمعن في الضلال  
 البعيد .



الرغبة في استكناه الغيب رغبة حادة ملحة لا يسجو منها بشر في الأرض . .



والعجز عن استكناه العيب أمر لا مفر من لشعوره به في لفتب البشرى  
 ويروح الناس - منذ القدم - يجتالون على معرفة لعيب ، ويجاولون استشفاف ما يأنى به  
 الغد القريب أو البعيد  
 لجأوا إلى انكهاثة والعرفة والتجيم وراحوا يستلهمون الرؤى . ويستلهمون  
 الأحاسيس الباطنة في داخل النفس ، التي لا تعتمد على منطق وصح ولكنها تشبر  
 لجأوا إلى كل وسيلة يجاولون بها إراحة السر عن العيب المحجوب عن الأعين . ضعف  
 بالأستار . .

ولم يصدوا فقد إلى يقين  
 كل ما يصلون إليه تكهنات تخفى أو نصيب .  
 ويظن العجز باقياً كما هو . حدًا كما هو . واللهمة لا تريم . .  
 إنه ليس عجزاً عن استكناه العيب البعد وحده ولا العيب القريب وحده بل هو  
 عجز عن استكناه ما يحدث بعد ساعة واحدة من الزمان بل بعد لحظة بل في هذه  
 للحظة التي أطل جزء منها من علم لعيب ، وبقيتها معلومة بالأستار  
 ويعود الإنسان من رحلته للمهوبة وراء العيب ، وعجزه الكامل عن استكناهه يعود  
 إلى الله المحيط به . لعيب المطلق عن كل حمياه سواء عرف الله على حقيقته أم صل  
 عنه إلى سواء ؟



تلك أوتار فطرية في القلب البشرى ، أودعها الله في الفطرة ، لتتلقى إيقاعات الكون  
 والحياة والوجود . لهر بها تتلقى من إيماعات ، فتطلق تبحث عن الله - إله - كي  
 تستطيع أن تقول . موحيات العقيدة في القلب البشرى  
 والقرآن وهو عرف الناس بالله . يوقع على ذات الأوتار ودعوة في الفطرة . يهرها  
 تستيقظ ويحركها فتعمل وفي لحظة نفعها يقول لها إنه الله . ثم يقول لها  
 «ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه» (١)

إن الله دلق الحب والوى ، يخرج لحي من الميت ويخرج ميت من الحي . ذلكم الله  
 فأنى تؤفكون ؟ فائق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حساباً ذلك تقدير

العرير العليم وهو الذي جعل لكم النجوم تهتدوا به في ظلمات البحر والبر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرج به بهت كل شيء ، فأخرج به خضراً مخرج منه حباً متراكباً ، ومن الحمل من طلعها فتوان دانية وجاب من أعصاب والريتون والرماد ، مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أنثر ويجهه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون وحملوا الله شركاء ، نحن وحلفهم وخرقوا له بين ويات معير علم سبحانه وتعالى عما يصمون بديع السماوات والأرض أي يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير <sup>(١)</sup>

« وعنده مغانج الحب لا يعمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات لأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » <sup>(٢)</sup>

« وسبحان الله حين تمسحون وحين تضحون ، وله الحمد في السماوات والأرض وعشيت وحين تظهرون يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم نشر تنثرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها . وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يفتكرون ومن آياته خلق السموات والأرض وإحلال المسك واللبانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منكم داليل والنهار وابتعواكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ويبرل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون وله من في السماوات والأرض كل له قانس وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ، وهو العرير الحكيم » <sup>(٣)</sup>

« لله ما في السماوات والأرض إن لله هو العلي العظيم ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما ملأت كتابات الله إن لله عرير حكيم ما يحقكم ولا معنكم إلا كنفس واحدة إن لله سميع بصير ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وسجّر الشمس والنجم والنجم كل يجري إلى أجل مسمى ، وأن لله بما تعملون

(١) سورة الأنعام ٩٥-١٠٣ (٢) سورة الأنعام ٥٩ (٣) سورة الروم ١٧-٢٧

حير؟ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه باطل ، وأن الله هو العز الكبير »<sup>(١)</sup>

« والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أرواحاً . وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . وما يصر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب . إذ ذلك على الله يسير . وما يستوى البحر . هذا عذب حرات سائح شره وهذا ملح أجاح . ومن كل يأكلون حياً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها، وتبخرى الفسك فيه مواجر لتستعوا من قصه وبعلكم تشكرون . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وسحر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . ذلكم الله ربكم له الملك . والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطير »<sup>(٢)</sup>

« أو لم يسيروا في الأرض فنظروا كيف كاد عاقبة الذين من قبلهم ، ركبوا أشد منهم قوة . وما كاد الله لمحرة من شيء . في السماوات ولا في الأرض ، إنه كان علياً قديراً »<sup>(٣)</sup>

« أو لم ير الإنسان أن حماءه من نطفة فإذا هو خصم مبين ؟ وضرب له مثلاً وسمى خلقه قل . من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل . يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نازلاً فإذا أنتم منه تقرنون . أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثهم ؟ بلى . وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن . فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء . وإليه ترجعون »<sup>(٤)</sup>

« هو الذي خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم يخرجكم طفلاً ، ثم تسلعوا أمدكم ، ثم لتكنوناً شيوخاً ، ومنكم من يوفى من قبل ، وتسلعوا أجلاً مسمى ولعنكم يعقوبون . هو الذي يحيى ويميت ، وإذ قضى أمراً فإنما يقول له كن . فيكون »<sup>(٥)</sup>

« الله ملك السماوات والأرض ، يحيى ما يشاء ، ويميت لمن يشاء ، وإنا أناء وميت لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراً وإناثاً . ويجمع من يشاء عقيلاً . إنه عليم قدير »<sup>(٦)</sup>

\* \* \*

إن الحس البشري ليتدلى على المنظر المتكرر والمجربة المكرورة ، فلا تعود تهره كما هرنه أول مرة . ولا يستشعر ها لوحيت واخرته انفراديه انتي صاحبها أول مرة وهي تنهي بنسختها لكاملة لفحص المتفتح المتوفر . ومن ها بقدر دلالته ، فلا يعطي بريقه . انصحح على أوتار القلب البشري . لأن هذا القلب قد « ران » عليه ما جعله لا يستجيب

( ١ ) سورة لقاد ٢٦ - ٣٠ ( ٢ ) سورة فاطر ١ - ١٣ ( ٣ ) سورة فاطر ٤٤  
( ٤ ) سورة يس ٧٧ - ٨٣ ( ٥ ) سورة طه ٦٧ - ٦٨ ( ٦ ) سورة البقرة ٤٩ - ٥١

وهذا يأتي المردن بطريقته هذه لمسح تلك القشرة الصلدة التي رأت على الحسن فتبلى ،  
ورأت على القلب فلم يعد يستحيب .

ولكنه - حين يرى تلك القشرة الحسنة - يصل إلى انعصب الحى ، فطبق له الشحنة  
فيتلعب بها كملها كأنها بتلعبها أول مرة فيهترها اهتزاز لتحرره ، فبدله وينفعل  
بها كمن يعيشها أول مرة ، وحين يبلغ الاهتزاز ذروته ، ولافعال بالبحرنة أثناءه ، يقول  
له : يا الله ! يا الله الخالق المبدع المنصور يا الله الرزاق يا الله المحيي المميت يا  
الله مدبر الكون كله بما فيه يا الله عام لعب واشهادة يا الله القادر الذي لا يعجز  
قدرته شيء .

« ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ، ولو شاء لجعله ساكناً ، ثم جعل الشمس عليه ذليلاً  
ثم قبضه إني قبضاً مسبوّحاً . . »<sup>(١)</sup>

نُرى هنا أنت هنا مع الظل الذي تراه كل يوم ، لا يدرك حركته ولا يثر انتباهك ؟  
وهل تستطيع أن تقرأ الآيتين السالفتين ثم يظل إحساسك بالظل كما كان من قبل ؟  
يا هذا كائن حديد ولا مثبث وقد تدخلت حملة عاصر لتمسحه هذه الحدة التي تعطي  
الحسن شحنتها ، فنعطيه دلالتها !

عالم ترى حركة الظل الزبية كل يوم ، وترى لتفعله من مكان إلى مكان ، ولكنك لا  
تخرج به في حركته عن أسسه الثابتة الظاهرة ، ومن أجل ذلك لا يعود يشعل حركته ، ولا  
تدرك به إلا حين تميزه هروفاً من الحر ، أو تنظر إليه لتقدير الوفاء ، وفي هذه وتلك لا  
يشعل من حركته ولا مشعرك إلا بسمحة العذبة التي تنطفئ من فوقها وتروح !  
وبكنك هذا مع الآيتين - في جو آخر ، مختلف تمام الاختلاف

إنك تدرك بدء مع حقيقة قد تصحّوك لأول وهلة ! إن الظل ليس متحركاً من تنقاه  
نفسه ، ولا بدعائنا من حركته الشمس الظاهرة التي يصرها العلم بأنها ثابتة من حركة  
الأرض حول الشمس .

إنه متحرك لأن الله هو الذي حركه !

« ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ، ولو شاء لجعله ساكناً ! »

فحركته إذن ليست وليدة هذه الأسباب الظاهرة التي يحسن تحريكها أمراً حتمياً ، حسب  
« القوانين الطبيعية » وإنما لأن الله هو الذي مدّه وحركه . ولو شاء الله أن يجمعه ساكناً لكن ،

(١) سورة الفرقان ٤٥ - ٤٦

وما استطاعت قوة في الوجود أن تحركه من سكونه الذي أراده له الله

وكون الله سبحانه وتعالى هو لدى أودع لكواكب تلك الصفات التي تشأ منها في البهية حركة الظل ، هذه حقيقة ولكن التعبير القرآني يصيبك رأساً بالمشيئة لأنهيته التي حركت الظل ، متحطياً الأسباب الظاهرة هو لدى يقينه عن رؤية الحقيقة الكبرى من ورائها ، وهي إرادة الله التي تقول للمشيء كمن فيكون ، فيروح يسبب المشيئة لتلك الأسباب ، ويسببها «قوانين الطبيعة» ويقول إنها «حتمية» ، فيتبدل حسه من جراء ذلك ريبعد قلبه عن الله

والتعبير القرآني يأخذه من هناك ، من حيث تبدل حسه وبعده ، ويرده مرة أخرى إلى الله مرة أخرى تسترقعها الآية ، لتردنا إلى الله  
« ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً » ١

إن « العلم » يقول لـ بحسب ما يرى من الأسباب لظاهرة - إن وجود شمس ، وحركة الأرض حوله ، هما لسب في حركة الظل ولكن التعبير القرآني يقول لـ إن إرادة الله هي التي حركت الظل ابتداءً ، « ثم » جعلت الشمس دليلاً على الظل ! فليست الأسباب الظاهرة هي لأصل ، ولكنها تهيء تالية ، من تهيء على لتراخي بلمح « ثم » ، بعد تقرير الله للأمر بمشيئته ، التي تقول للمشيء كمن فيكون !

ثم تتحرك مع السياق حركة جديدة .

« ثم قبضناه إنياباً قبضاً يسيراً »

إن التعبير بصورة حركة الظل ، الوبيدة التي تراه العين فلا تلتصق إليها ، أو لا تنصت إليها ككبتها ولكن الخيال هما - مع التعبير القرآني - لا يملك أن يعذب من أسر الصورة التي تصورها تلك الكلمات لقلقل في إبداع معجز ! إن الظل هنا لا يتحرك راجعاً من تنقضاء نفسه ، ولا من أثر الأسباب الظاهرة التي يعرفها إنما مع السبب الحقيقي مرة أخرى

ولكننا نعرف مهوورين ينظر إلى لصل وهو يفعل راجعاً بعد ما أمسك الداد ؟ ؟ لأن بدا حصة هي نسي تطويه في حركة وثنية كحركة الصل إنما يد الله ! وهكذا توجد مع الله مرة أخرى ، يربط - من خلال حركة الظل - قدرته المقادير ، وهذه الخفية - مسحانه - نتي لا تدركها الأبصار !

هنا أن أودع ما في التعبير القرآني في الآية هو هذه اللمعة . « إني » : « ثم قبضناه إنياباً قبضاً يسيراً »

أندري ماذا عملت هذه اللمعة المفردة في كتاب الصورة كله ؟

لقد كنت - بحالك - تتبع حركة الظل النائمة في دهنه وأوتيه ، ها ! ها ! في الأرض !  
و يمتد بك البصر - أو الخيال - إلى الشمس حين تقرأ ( ثم جعلنا الشمس عبده ذليلاً ،  
و ينهى لك الخبار هناك - ونكثك - فجأة - حين نصل إلى كلمه « إنيما » تجد إطار الصورة قد  
امتد وامتد ، وجاور الشمس والأرض إلى ؟ إلى غير حدود ! « إليما » !  
و يصنع حيالك ما يشاء !

« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو الطيف الخير »<sup>(١)</sup>

\* \* \*

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يقرشون ثم كل  
من كل لشرات فاسلكي سبل ربك ذللاً ، يخرج من بطون شراب مختلف ألوانه فيه شفاء  
لناس إن في ذلك لآية لقوم يعقلون »<sup>(٢)</sup>

نحن هنا مع النحل ، وهي كائنات متحركة دءوب لا تكاد تكف عن الحركة والنشاط  
وبعد بلغت حبسنا بالمثل بحركتها وبشطها حين تراها تطير من رهرة إلى رهرة ، وتخط عبيد  
ترشفت من رحيمها فترة ثم تغير - ونكث - سبيلها بعد لحظة ومضى ! لأب ترهب في إطارها  
القريب الذي تدركه حواسنا فحسب - وقد تشر تأمنا ، وعجبنا وعجبنا ، ولكننا حتى في  
ذلك لا نخرجها من إطارها الذي أتى الذي تأمل من حلاله - وهو في النهاية قريب !  
ولكننا مع الباقى الفرنسي من أول الحصة في محيط آخر !

إننا لسنا مع النحل ، ونكنا مع الله !

« وأوحى ربك إلى النحل »

فليس النحل إذن هو الذي يتحرك من تلقاء نفسه تلك الحركة العجيبة التي قد تستوقف  
عندها في بعض الأحيان مصعب خطت ، أو حتى ساعاب ! من الله « أوحى » إليه ،  
بمعنى أشبه « ربا » الذي أعطى كل شيء حلقه ثم هدى »<sup>(٣)</sup>

ومن هنا لا تنتهي حركة النحل في حبس من قريب ؛ لأنها - نادى دي بده - خرجت في  
حبس من إطارها القريب وانصلت بوحى الله وإلهامه ، وانصلت - من ثم - بتدبير الله لأمر  
الكون بكل ما فيه وكل من فيه ، قد حدث في إطار واسع عميق بعد في الآفاق !  
ثم بـ حركة لنرى ترسمها الأنفاط في لصوره حركة حبه كذلك ، وأوسع مدى في خفيها  
من الحركة التي تراها العين لأول وهلة - ثم يمد في أبعاد الصورة في حبسنا ويعمقها

(١) سورة طه - ٥٠

(٢) سورة النحل - ٦٨ - ٦٩

(٣) سورة الأنعام - ١٠٣

فالنحل تتلقى الإلهام من الله أن تتخذ بيوتاً لها من الخصال ومن الشجر ومن العرشون ، أي  
 كما يزرع لبشر من سات ذي عروش كالكروم ثم هي - كما توحى الصورة إلى حيال - تتخذ  
 الأمر فتتخذ بيوتها هناك !  
 وهناك فرق واضح في « عمق » الصورة في جسدنا عن رؤية العين لنحل نسي عشوشها  
 هو وهناك ، وبين رؤيتها في الإحدر الذي رسمه لفظ الآية ، تنفى من الله الوحي ثم  
 تصدع بأسباب !

وتُخذ آخر يمتد في الصورة من قوه : « وما يعرشون » !  
 إنها علاقة الأحياء بالأحياء !

فالوحي يصدر إلى النحل - وهي كائنات حية - أن تتخذ بيوتاً لها يعرش البشر - وهم  
 كائنات حية - فيبدو هناك نوع من التعاون والتأزر بين هذه الأحياء يقدره الله ويريد به فيتم في  
 واقع الحياة !

ويستمر السياق بفضل الوحي الصادر إلى النحل :

« ثم كل من كل الثمرات ، فاسلكي سبل ربك ذللاً »

ومره أخرى ترى الاختلاف في عمق الصورة بين أن تكون النحل من بلقاء نفسها بأكن من  
 كل الثمرات كما يبدو نظاهراً أعين حين يحصر الصورة في أنعاده القريبة ، وبين أن تكون  
 هذه الحركة ذاتها بلية للوحي الصادر إليها من الله ثم بين أن تكون حركة النحل حركة  
 عشوائية كما تبدو في صاهرها ، أو حتى مسقة عن وتيرة معينة يمكن للعالم أن يكتشفها  
 ويسجنها ، وبين أن تكون سالكة في حركتها سبل ربها المذللة لها بأمره سبحانه ومشيتته !  
 فأنت في الصورة الأولى تتعامل مع النحل ، بينما أنت في الصورة انقرائية تتعامل - في كل  
 جرتية من جزئيات - مع الله ! والنحل موجود في صورتين - ولكه في الأولى نهاية المنظر ،  
 ونهاية المطاف ، بينما هو في الثانية بداية المنظر ، وبداية المطاف !

\* \* \*

هن تعبرت « معلوماتك » عن الطل أو عن النحل حين قرأت هذه الآيات ؟  
 كلا ! بـ « المعلومات » في ذاتها ليست جديدة - لقد كانت معلومة من قبل ، ولكنه  
 ذلك العلم الميت البارد الساكن الذي لا يتحرك - ولكن القرآن يحيي هذه المعلومات حين  
 يعرضها في حقه الوجودي بطريقة المعجزة فتتعض حية كأنها سست هي التي كنا نعرفها من  
 قبل ! وما تعبرت هي - إنما نحن الذين نغير ! حين رل عن حسنا لتلد للتجربة المكرورة  
 ولتنظر المكرور .

\* \* \*

وكما يصنع القرآن هذه العجبة في مشهد الكون لظوره فهو يصنعها كذلك مع أحداث الماضي الذي مر ، والمستقبل الذي سيحيى !

« نحن نقص عليك بأسهم بالحق أسهم قنية أسود برهم وردناهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه يقا ، لقد قضا إذا شطط هؤلاء قوما تعدوا من دونه آفة لولا بأنون عليهم سلطان من ؟! فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ؟ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون لا الله فأووا إلى الكهف بشرككم منكم من حخته وبهينكم من أمركم مرفقاً وترى للشمس إذ طلعت راور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرصهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ، ذلك من آيات الله ، من بهد الله فهو لمهت ومن يصل من نجد وبث مرثداً وحسبهم أيقص وهم رقود ، وبليهم ذات اليمين وذات الشمال وكلهم بأسط دراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم بولب منهم فراراً ومنت منهم عتاً وكذلك بعثناهم لنبءلوا بينهم قول قائل منهم كم لستم ؟ فانو لست يوم أو بعض يوم فانو ، بكم أعلم بيا بشم فبعثو أحدكم بوق فكم هذه إلى المدينة فليظرب أركب طعاف فليأتكم بريق منه ، ويتلطف ولا يشعرن بكم أحداً إنهم يبظهوروا عنكم يرحمكم أو يعيدوكم في مشهم ولن تعدووا إذا أنبا وكذلك أعثرنا عليهم يعلموا ان وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ، إذ يتدعون بينهم أمرهم ، فقالوا ربنا عيهم نبأنا ، وهم أعسم بهم قال الذين علموا عن أمرهم سجدوا عليهم مسجداً ١

تلك قصة من قصص ماضي فمن نحن أب قصة ؟ ترى ؟ أ ، واقع شهده أمامك اللحظة وتنممل بأحداثه ؟

إن سباق لحبي شهد إحياء هذا هو شخص أمان بركة ويعيش معه مطراً مطراً وخطة خطة

وبدا العصية في الماضي كما هو ظاهر ، ونستخدم صيغة العن الماضي تؤكد ذلك وبكس يحدث ذلك فقط ريش تمثل أشخاص القصة وموضوعها وعمرها انما حتى يستطيع أن يعيش معها في ذلك الحو . . وهذا يتحول السياق !

« وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف »

ماذا تحس من التفسير ؟ هل هي رواية عن ماضي أم إن الخطاب يوجه اللحظة إلى الغية فقال لهم - الآن - ورو إلى الكهف ما دمتم قد اعزلتم قوماكم وما يعبدون إلا الله ؟

(١) سورة الكهف ١٢ - ٢١



إن تعبراً طمعاً في السبق هو الذي عثر أشهد من المصطفى لمرؤى إلى خاضر المشهود  
 فهو لم يقن ، و قد اعتربوهم وما بعدون إلا لله قداهم أووا إلى كهف ، إني قل « و قد  
 اعتربوهم » ثم قال « فأووا إلى الكهف » فالسبق يخاطبهم ولا يروى عنهم  
 يخاطبهم كأهم حضور في هذه اللحظة يستمعون الخطاب ويتلقون التوجيه !  
 ثم يستمر السباق في الحاضر باستخدام الفعل المضارع :  
 « وتري الشمس . . » « تراور عن كهفهم . . » « تقررهم . . » « وتحسبهم إيقاظ وهم  
 رقود » « ويقلهم . . » .

حتى إذ وصلت لقصة نهاية المرحله التي تصور فترة الرقود ، وبدأت مرحلة جديدة هي  
 عنهم من رقدتهم ، عاد استخدام الفعل الماضي « وكذلك بعثاهم » ولكنه هنا  
 كذلك لا يُستخدم للرواية عن الماضي بقدر ما يستخدم لتقديم حقيقة جديدة ، أي لتعبير  
 « حوًا وتبيينًا للمشاعر لمشاهدة هذه الحلقة الحديدية المغيرة للسابقة بكن أحداثها ، والتي  
 تعرض هي بدورها كأنها حاصر مشهود وذلك باستخدام أسلوب أقرب إلى الحوار المسرحي  
 منه إلى الرواية القصصية ، فنعش مع الحوار كأنه واقع براه أمامنا لحظة ، وسابعه في ذات  
 اللحظة التي يدور فيها بين أصحاب الحوار . وهذا كله تظل القصة حية في حوارنا ، لأب  
 « شهدناها » تعرض أمامنا ولم نسمع عنها مجرد سماع !

عن أن القصة بكل حيويتها تلك لا تأتي في السورة هن من أجل المتاع المسمى ، وإن كان  
 المتاع لعمى يتحقق بكماله ، وإنما هي - ككل شيء في القرآن - تأتي مرتبطة بقضية الألوهية ،  
 تابعة لها ، ومؤدية إليها . وهذه الخيرية الملحوظة ، المشوثة في كل كيان القصة ، إنما هي  
 وسيلة مقصودة لإحياء هذا الارتباط بقضية الألوهية في قلب الإنسان  
 فالمقدمة المنشرة التي جاءت لقصة لبسطها وتبسيطها هي هذه

« فاعلمك ما حج نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً »<sup>(١)</sup>

وهي - كما ترى - تنصص حقيقتين - لأول أن القوم مكذبون ، لا يؤمنون بالقرآن وما يرد  
 فيه من ذكر البعث - وذلك بالرجوع إلى ما تضمنته الآيات الأولى من السورة « الحمد لله  
 الذي أرسل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا ، قبيًا لينذر بأسًا شديدًا من لدنه ، ويبرر  
 المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا ، ما كثر فيه أبدًا ، وينذر الذين قالوا  
 اتخذ الله ولدًا »<sup>(٢)</sup>

(٢) سورة الكهف : ٤ - ٦

(١) سورة الكهف ٦

والحقيقة الثانية أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - مهتم هذا الأمر أشد لاهتمام ، قد اشتد به الأسف لتكذب القوم .

ثم تستمر المقدمة لتصرف عن طلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذا الأسف العميق بتفريغ شيء من الحقائق الكونية أو النسخ الربية التي يتضح من خلالها موقف القوم ، وتقويمه في ميزان الله ، ثم مصيرهم هم في نهاية المطاف .  
« إن جعلنا ما على الأرض رية لها لسلوهم أيهم أحسن عملاً وإن لحاعلون ما عليها صعيداً جرماً » (١) .

فكل « ما على الأرض » قد جعل « رية ها » لايتلاء الشر أيهم نعمته هذه الرية فتصده عن طريق الله وتنعده عنه ، وأيهم يلتزم من هذه الزينة بالطيب الخلال الذي أحله الله ، ثم شكر «سعة بالاستقامة على أمر الله في أمر به وهي عنه » ثم إن « ما على الأرض » كنه يأتي عنه حين من الدهر ينقلب فيه - بأمر الله - « قاعاً صمصماً » أو « صعيداً جرماً » جانباً من الرية التي كانت نفس الناس ، ويعقب ذلك البعث الذي يكذب به المكذبون ، حيث يجري الناس بأعماطهم في حلقة تدب : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (٢)

ثم يستمر السياق ليمون إنه إن كان هناك مكذبون بالبعث فيستمعوا إذن هذه القصة ، التي تؤكد قدرة الله على البعث والإحياء ، وهي ليست « عجباً » من أمر الله ، إنما هي مجرد مظهر من مظاهر قدرته سبحانه .

وهكذا تمهيء القصة في معرض إثبات القدرة الإلهية . . مرتبطة بقضية الألوهية تلك القضية الكبرى في القرآن !



« واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أمها مكاناً شرقياً ، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سوياً . قالت : إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً قال : إنما أم رسول ربك لأهبك لك علاماً ذكياً . قالت : أنى يكون لى علام ولم يمسه بشرى ولم أكن عتيقاً ؟ قال : كذلك قال ربك هو عني حشياً ، وبسجمل أنه لناس ورجة ما ، وكان أمراً مقضياً ، فحملته ، فانتبذت به مكاناً قصياً ، فآجاءها المحاص إلى جدد لرحلة قالت : يا نسي ما قبل هذا ، وكنت نساً مسباً ، فبادها من تحتها . ألا تحمى ، قد جعل

(١) سورة الكهف ٨-٧ . (٢) سورة الزلزلة ٧-٨ .

رمتك تحتك سرّاً ، وهري إنك مدح الحلة نساط عبيك رطناً حياً فكل واشربى وقرى  
 عينا ، فإما سرب من الشتر أحذا فقولى إني ندرت لدرجى صوماً على أكلهم اليوم نسياً  
 فأنت به قومها تحمله قالوا بمرسم<sup>١</sup> لقد حبب شئاً موتاً<sup>٢</sup> أحب هروب ما كان  
 أبولاً امرأ موء وما كان أمب نعتاً<sup>٣</sup> فأشارت إليه ، قالوا كيف تكلم من كان في المهدي  
 صبيّاً<sup>٤</sup> قال إني عند الله ، نى الكتاب وجعدي شئاً ، وجعدي مديك أبي كنت وأوصاني  
 بصلاة وبكة مدمت حباً ، وبراً بولدى ولم تجعدي حماراً شمتاً ، والسلام على يوم  
 وندت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حباً<sup>٥</sup> .

هذه قصة أخرى من قصص المرأة الحرة المؤثرة التي سوفها أنقواً لتحقيق هدفه  
 الخاصه ، وإن كانت لمتعة القصة متحففة فهي كآبة قصة مشاة للمتعة القصة خاصة<sup>٦</sup>  
 والذباب في القصص العربي لأنه كتاب تربية وليس كتاب قصة - أن تُعرض  
 «لقطات» بعينها من حياة لشخصيه التي تتحدث عنها بقصة ، تكون هي موضع العبرة  
 وموضع التأمل ، ولا تُشرد كل فائق القصة ولا كل ملائمتها لأن ذلك لا يفسد الأهداف  
 الخاصه بفران وإن كانت هذه لطريقة داني طريقة عرض نقاط بعينها - تعطى القصة  
 انقراية حيوية خاصة ، لأنها تدع للخيال أن يملأ الصفحة ما بين اللمطة واللقطة ، فيكون  
 سحيب - عمل مردوح - منبغة مشهد المعروض ، ويكمل ما بين المشهد والمشهد من فجواب

وقصة مريم من أبرز نماذج القصص العربي لدى يسير على هذا النهج «انصى»<sup>٧</sup>  
 فهي هي دي الللمطة الأولى بصور مريم لعدراء انتوى في حبوبها ، وبينها وبين أهلها  
 حجاب يمنع دخول أحد إليهم ، وهي «معروفة من طفولتها بالنقل ولا يقطع بعبادة ، إذ  
 ندرتها أمها للمعبد كي جاء في سورة آل عمران<sup>٨</sup> » إذ قالت امرأة عمران رب إني ندرت لك  
 ما في بطني محرراً فتقل مني إنك أنت السميع العليم هي وصعتها قالت رب إني وصعتها  
 أنثى - والله أعلم بما وصفت - وليس لذكر كالأثني ، وإني سميتها مريم ، وإني أعيد بك  
 ودريتها من لشخص الرجيم ، عتقنها رب يقوب حسن وأنتها بناتاً حسناً وكملها زكراً .  
 كتب دخل عندها زكراً محرراً وجد عندها رزقاً ، من باب مريم أتى لك هذا ، قال  
 هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب<sup>٩</sup> .

والى حبوبها تلد لأمه ظهريه يصفوها وحوود رجل لا يعرفه ، ولا ينبغي به مجال أن  
 رجد في مكاب هذا وعنى حاداً لى كان عليها في حلونها ويسرك للمحبات أن يصفو

(١) سورة مريم ١٦ - ٣٣ . (٢) سورة آل عمران ٣٥ - ٣٧ .

فرعها من المفاجأة المدهشة أولاً ، وهرعها من وحود رجل معها في حلوتها ثانياً وهي لعنعة  
 النقية الطاهرة ، وحين تلتقط أنفاسها من هذا المزعج وذاك ، تلتفت إلى هذا الرجل العريب  
 تستجد تنقواه ، وتذكره بالله لعله يتركها في حنوتها ويصرف دون أن يمسه سوء ولكنه  
 يهجمها بمفاجأة أكبر من الأولى وأشد ! إنه يحدد مهمته ، فكأنها هي ذات الشيء لدى  
 كانت بخدرة فيما بينها وبين نفسها وتحشأ ! إنه جاء ليهب هـ علامة ! وعدت لا تجد مهزاً من  
 المواجهة الصريحة بالعمارة الصريحة فقد انكسر حاجر الحياء ولم يعد في إمكانها أن تستر به بعد  
 أن اقتحمه عندها هذا الرجل العريب وعدت يبين هـ مهمته كاملة ، ويشرح له الأمر  
 الرئيس الذي هو مكلف به ، ودورها في حل هذا السبى لدى سيكون رحمة للناس وآية  
 ثم نجىء عجوة في السياق يملؤها الخيال

مشاعرها المختلفة المتداخلة ، المزعج الذي يهنا تدريجاً وتحل محله الظماسة إلى قدر الله ،  
 والخوف مع ذلك من نتائج هذا القدر المنظورة ، من مواجهة أهله بعلام تحمله من غير رواح  
 معلن معروف !

وتستمر العجوة حتى يصحأها بحاص ، و يصحأنا نحن مشهده في حالة المحاص !  
 ومرة أخرى تواجه المزعج وحيدة بعير تجرية يلحظها الألم إلى حدع الرحلة ، لا  
 يدري ماذا تصنع بعبر معين ، ويستولى عليها خوف من المواجهه ولقصيحه المتوقعة كل  
 ذلك في آن واحد ، فتتمنى أن لو كانت ذهبت من لوجود وصادت سبياً مسياً  
 ومرة أخرى سرب عليها انطمأئنة من عند الله ، يهديها حبريل (أو عيسى عليه السلام) ألا  
 نحاي ولا تهرى قد جعل ربك تحنك سرياً فهذا هو الماء تشرب منه وتغتسل به ، وهذا هو  
 لوطب يتبسط ، وهذا هو الأس بالتكلم إليها يسرى عنها ويرين عنها جرعتها ووحشتها  
 وعن عجرة أخرى نجىء بعدها مفاجأة المواجهه وإن كنا نرى مريم هـ - كما نتوقع -  
 ثبته احسان وقد اطمأنت إلى رحمة الله وبنته السانقة معها ، فلم تعد تخاف  
 وينتهي المشهد بالمفاجأة الأخيرة في الموقف الطفل الوليد يتكلم ويقول « يسى  
 عند الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً . . . »

هذه الطريقة في العرض التي تجمع بين الخوار والسرد ، وترسم لقطات لبرزة وتترك  
 الصغوات للبحار ، تعطي القصة كلها حيوية وصحة ، وتجعل أثرها في الدشاعر عميقاً  
 لا يروى

ولكن ميم كانت العصة لتي يبلغ تأثيرها في الرجدان هذه الأعرق ؟

إياها - هما - يحيى في معرضين متداخلين متكاملين (١)

فهى من ناحية قصة قائمة بذاتها تُردّد على قول البصاري إن عيسى ابن الله ، حيث يحيى التعقيب عليها هكذا :

« ذلك عيسى ابن مريم ، قون الحق اندى فيه بعثون ما كان لله أن يتحد من ولد ، سبحانه ، إذا قصى أمراً فيها يقول به كن فيكون وإن الله ربى وربكم وعدوه هما صراط مستقيم واحتلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم أسمع هم وأنصر يوم يأتيون لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين وأندركم يوم الحسرة إذا قصى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون إن يحيى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون » (٢)

وهى من هنا تتعلّق تعلقاً مباشراً بعصه الألوهية وسان حصفه الوجدانية ، وحقيقة وضع البشر جميعاً بما فيهم عيسى عليه السلام أنهم كنهم عند الله ، وما بعى هم أن يكونوا غير ذلك فعسى يحيى على لسانه « أنى عند الله » والتعقيب يحيى فيه « ما كان لله أن يتحد من ولد ، سبحانه ، إذا قصى أمراً فيها يقول له كن فيكون »

ثم هى - من ناحية أخرى - يحيى ضمن مجموعة من قصص الأنبياء من الذين أنعم الله عليهم بعبادته كبره ظاهرة ، منها نعمة الاصطفاء بالرسالة والوحى ، وبعده المعجزات التى أيدهم الله بها لتكون عوناً لهم في أداء الرسالة ، بالإضافة إلى نعمة المشاركة لهم في الأهل والدرية ، ورفع مكانتهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة وتبدأ السورة بذكر زكريا ، فكيف يحصى ذكر رحمة ربك عنده زكريا « ثم تتوالى القصص بعد قصة زكريا مدوئة بقوله تعالى « واذكر في الكتاب إبراهيم » فيحيى على توالى « واذكر في الكتاب مريم » واذكر في الكتاب « واذكر في الكتاب إدريس » . . .

ثم يحيى التعقيب الأخير عليها جمعاً « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، ومن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ، ومن هدانا واحسبنا ، إذ نتلى عليهم آيات الرحمن عروا سجداً وبكيناً فحذف من بعدهم حذف أضاعوا الصلاة

(١) يحدث في مكان آخر من هذا الفصل عن الأعراض التى يحيى القصص من أجلها في القرآن

(٢) سورة مريم ٣٤-٤٠

واتبعوا الشهوات فسوف يلقون عقاباً - إلا من تاب وأمن وعمل صالحةً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً . . . » (١)

وهو صيق متصل بقضية الألوهية كذلك من أكثر من جانب  
فالمعجرات - وأبرزها ما خلق عيسى نبياً - هي من آيات القدرة الربانية ، التي يحىء  
في القرآن في سبق تعريف الناس بربهم أنه هو القادر سبحانه ، الذي لا تقف قدره عند  
حد ، والذي لا يعجزه شيء في الكون ، لأنه يقول للشيء كن ، فيكون  
والنعم التي أنعمها الله على الرسل والأنبياء المذكورين في السورة كالإنعام بالولد على  
زكريا في كثرته وامرأته عاقراً ( وهو يدخل في باب المعجزة كذلك ) والإنعام على مريم بحمل  
واحد من الرسل المكرمين ( وهو يدخل في باب المعجزة كما أسلف ) والإنعام على إبراهيم في  
كثرته كذلك بإسحاق وبرؤية يعقوب من إسحاق في حياته ، وجعلها كتبها سير ، والإنعام  
على موسى بصاحبة ربه في جانب الطور الأبيض وإرسال هرون معه نبياً ، والإنعام على  
إسماعيل بالرسالة وبالمقام المرضي عند الله ، والإنعام على إدريس بالمكانة العادة كل هذه  
لنعم تسرد كذلك في مقدم تعريف الناس بربهم أنه هو المنعم الوهاب  
وأخيراً يحىء موقف هذه الطائفة المضطربة من عباد الله ، كيف كانوا يقفون في مقدم  
العبودية الخفية لله \* إذ تتل عليهم آيات الرحمن حرو مستحد ، وبكياً \* وكيف خلّف من  
بعدهم خلّف حرحوا على مقدم العبودية واتبعوا الشهوات ، وتحتتم الآيات بيان مصدر هؤلاء  
يوم القيامة ، ومخير من يتبع الحق ويتوب إلى الله  
وهكذا نجد هذا العرض الأحادي في القصة سائراً كله في حده القصة الكبرى . قصة  
لتعريف بالله

\* \* \*

وكي نتحدث الكتاب عن أحداث الماضى فيث فيها هذه الخيرة المدعة يتحدث كذلك  
عن أحداث المستقبل

« فإذا نوح في انصور صفحة واحدة ، وحملت الأرض وخبال هكتا دكة واحدة ، ويومئذ  
وقعت الواقعة ، واشتقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملائكة على أرحائها ، ويحمل عرش  
ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تُعرّضون لا تخفى منكم خافية فاما من أوتي كتابه يمينه  
مقول هاؤم اقرأ كتابه إني ظنت أني ملافي حسابة فهو في عيشه راضية ، في جه

(١) سورة مريم ٥٨ - ٦١

عالية ، فتعطيها دابة : كلوا واشربوا هيثما أسلفتم في الأيام الخالية وأما من أوتي كتابه  
شمله فيقرب . يا لئس لم أوت كتابه ! ولم أدر ما حسابه ! يا ليتها كانت أمضيه ! ما أعنى  
عنى ماله ! هلك عني سخطيه ! حدوده فعنوه ! ثم الحبحم صلوه ! ثم في سسنة درعه  
سعود دراعه فاسلكوه ! إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين  
فيسر له ليوم هه هه حميم ، ولا طعام إلا من عسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون ! »<sup>(١)</sup>

ذلك مشهد من مشاهد القدمة الكثيرة في القرآن يبدأ بنصحة الصور يحيى بعدها من  
الأرض ويخيل ودكها ذكة واحدة وهذا هي تصبح هذه الذكة لراحدة « قاعاً صمصماً ، لا  
يرى فيها عرجاً ولا أمناً » كم جاء في سورة طه<sup>(٢)</sup> ونترك خيال أن يتصور القصة الهائلة التي  
تحمس الأرض بها عليها من الخيال فتدكها ذكة واحدة فتسوى أعلاها بأسفلها ! كم يترك  
لنحير كذلك أن يتصور مدى مدى الذي تحدثه هذه الذكة الحارة ، ومدى العسر الذي  
تثيره في النصفاء !

إن منظر انهيار بيت واحد أو حدار واحد من بيت لشير لمرع في القوس ، سوء بالدوي  
الذي يحدثه ، أو انبهار الذي يثيره ، أو بحركة الانهيار دتها ، وهي حركة مفرعة لكل  
انكاثات الحية على السواء ! في تلك بجبل كمل يهار ! وما بانك بحار الأرض كلها تهار  
في لحظة واحدة على غير انتظار ؟!

إن الخيال ليحاول أن يرسم الصورة ، وأن يتخيل اليد الحادة التي يمكن أن تحدث هذه  
الذكة الهائلة ، وبكيفية لن يستطيع ذلك إلا بجهد ، من أقصى المعهود - في عالم البشر - أن  
يتمكن الإنسان من حمل بضع عشرات من الكيلو جرامات ، أو بضع مئات والقرآن  
هول « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيمة واسماوات مطويات  
بيمينه . سبحانه وتعالى عما يشركون »<sup>(٣)</sup>

ونعود إلى سياق الآيات من سورة الحاقة . .

ماد يحدث إذا نهض في الصور نصحة واحدة ، وحملت الأرض والخيال فدكتنا ذكة واحدة ؟  
ماد بعد هذا الموتي المزع والدمار الشامل المرعب للوجدان ؟!  
« يومئذ وقعت الزلزلة » !

ويكفي هذا السان المحنصر بعد ما كان من تلك المقدمات !  
ولكن الهول ليس في الأرض وحدها ، فهو شامل لتكون كنه في ذلك الشيء التي  
انشقت ونهاوت :

(١) سورة الحاقة ٣٧-١٤ (٢) سورة طه ١٠٦-١٠٧ (٣) سورة الزمر : ٦٧

« وانشمت السماء فهي يومئذ واهية »

ثم إن الرهبة تحيط بلوقف من كل جانب :

« والمَلَكُ على أرجائهم ، ويحصى عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية »

ومذا يحدث عندئذ ، في هذه أهول الشامس ، والرهبة للرؤية التي تقطع الأنفاس ، والتي تصفها سورة طه : « وحششت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً »<sup>(١)</sup> « وعيت البرجوه للحي القيوم »<sup>(٢)</sup> .

« يومئذ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ »

ترى أى هولين أشد على نفس<sup>١</sup> ؟ هو لمشهد الذهب من حدرج<sup>٢</sup> أم هول تعرض الذى تكشف فيه حيايا النفوس فلا يملك أصحابها أن يحضوا شيئاً مما بداخلها ، أو يكتموا دليلاً واحداً يذيعها أمام بارئها ؟

إن الكشف لإسناد في أمر واحد من أمور الدنيا يحاول إخفاءه ليحدث في نفسه رجفة عيمة ويهرها هزاً وهو انكشاف أدم بشر مثله فكيف بالانكشاف أمام الله وقى الموقف الذى يترقب عليه كل شيء . . . فإما إلى الجنة وإما إلى النار ؟

ونجى بعد ذلك صورتان متضادتان صورة المؤمن الذى تجاوز الخطر وأدخل النعيم والكافر الذى وقع في الخطر فراح به إلى النار . كلاهما صورة حة شخص حمله بالحركة والحياة المؤمن - في مرحته - يقرب هاؤم أقرأوا كتابه أ ثم إذا هو في حة لعالية ذات المصروف الدنبة يتمتع بذلك النعيم والكافر - في هلعه ويدمه لدى لا يعنى - يقول : يا ليتني لم أوت كتابه أ ثم يقف يولول على ما فاتته وما صار إليه ، وتطون ولولته خطة ثم إذا أنسر صدر من أهلى ، يقطع عليه ولولته عجاة . « حدوده معلوه » أ وعدده يؤخذ أحداً فيقدف به إلى النار !

\*\*\*

« ويرى الله جهنم قد أنصبت للدين ستكرو إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عاً من عذاب الله من شيء ؟ هايرأى لهدى الله هدىناكم سواء علماً أجرع أم صبراً ! ما لنا من محص ! وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ! وما كان ن عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ! ما أنا بمصرحكم وما أنتم بمصرحي ! بى كبرت بما أشركتمون من قبل ! إن

( ٢ ) سورة طه . ١١١

( ١ ) سورة طه ١٠٨



لظالمين هم عذاب أليم ! وأدحر الذين آمنوا وعملوا الصالحات جدًّا تجري من تحتها  
لأنهار جنانين فيها يآذون ربهم ، فيحتبهم فيها سلام» (١)

هذا مشهد آخر من مشاهد القيامة يصف موقف طائفة من الناس كانوا مسضعفين في  
لدنيا ، يطيعون ساداتهم وكبراءهم في المحالفة عن أمر الله ، وتبدوا أوامر ساداتهم في حسهم  
أنفس من أوامر الله ، كأنهم يتوهمون أنهم في حمي من ساداتهم هؤلاء لا يستطيع أحد أن يظولهم  
أو يمتد إليهم بمكروه !

ثم هم أولاء في الآخرة وقد مرر الناس جميعًا لربهم والتعبر بصور الناس وقد قموا من  
قبورهم لملاقاة الله فلا يقول : «جاءوا» أو «مضوا» وإنما يقول «برروا» وهي لفظة يبدو  
فيها الجهد من ناحية ، ومن ناحية أخرى عدم إمكان استحسانهم ، فهم جميعًا «بررون»  
أرادوا أو لم يريدوا ، بها يتصممه ذلك من برور ما في داخل أنفسهم كذلك وعدم إمكان  
استحسانه عن الله «وبرروا الله جميعًا» !

ثم هم أولاء الصعفاء وقد رأوا أهول لمدهل يتوحيهون لكبرائهم - بحكم العادة ! -  
محاولون الانطواء فيهم والاحتباء بهم :

«فقال الصعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعًا ، فهل أنتم معون عنا من عذاب الله  
من شيء» ١٩!

وفي موقف الصيق لدى لا يستطيع فيه هؤلاء الكبراء أن يتعدوا أنفسهم فصلًا عن غيرهم  
بأنى إحتابتهم للصعفاء صيقة مريرة «لو هذان الله لهدياكم» !

ثم يحىء بعقيب ساحر منهم ، يشملون فيه بالسحرية أنفسهم وأتباعهم في آن واحد  
«سوء عليا أجزعا أم صبريا ما لنا من محيص» !

ويبدو الموقف منتهًا عند هذا الحد بين الصعفاء والذين استكبروا ، وقد شتمهم ، أخرى  
جميعًا لمهانة واليأس والضيق ، وعلموا أنهم لا محيص لهم من العذاب .

ولكن عنصرًا جديدًا برز في الموقف يمجؤهم جميعًا ! إنه الشيطان الذي أعوى هؤلاء  
وهؤلاء في الدين «السادة» فأمرهم بمعصية الله وكفره ، وأعوى الصعفاء بطاعة  
السادة فيما أمرتهم به من كفر بالله

به هـ «يبر» لهم من حيث لم يحتسبوا ، في الموقف الذي يبرز فيه كل شيء ،  
ويجئهم بمقالة تريد لهم حصرة على حشرات

(١) سورة إبراهيم ٢١-٢٣

« وقال الشيطان لما قصى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ! »  
مكد ! وفي هذه اللحظة بعد موات الأون يكشف لهم عن هذه الحقيقة ، حيث لا مجال  
للثومة ولا للعودة من جديد !

و يحصى الشيطان في « شيطنته » إلى آخر مدى ، فيقف يعظهم حيث لا يزيد وعظه  
نفوسهم إلا ألماً وحزناً وحسرة !

« وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي »  
وهذه في ذاتها حقيقة ! هاى سلطان كان للشيطان عليهم ؟ ! هل هو قد أمك تلايهم  
وأكرهمهم على عمل من الأعمال ؟ ! إنما هو أعوانهم فقلوا العواية ! فليتحملوا تبعه عملهم كما  
يقول هم

« فلا تلموموني ولوموا أنفسكم ! » .

وبكر من تحلي هو عن شيطنته وصار يقول الحق من أجل الحق ؟ كلا ! إنما يقوه  
لإيلاهم وليرداد شيانة فيهم !

« ما أنا بمصرحكم وما أنتم بمصرحني ! »

حقيقة ! من يستطيع أحدهم بالفعل أن يبعد الآخر أو ينقله من العذاب . ولكنه  
يقوف لهم بكل شيطنة الشيطان ! فهو الذى أوقعهم بالعواية والخدعة والمكر ، واليوم  
يسحب نفسه من الموقف كأنه لم يصنع شيئاً على الإطلاق ، بل يريد لهم دهشة وألماً وحسرة  
حين يتحلى تماماً عن كل كلامه السابق :

« إني كتمت بما أشركتموني من قبل ! » .

وليت يتحلى فقط ! بل هو يلقي التبعة عليهم بل هو « برىء » منه ! فهم الذين أشركوا به !  
وهو يتبرأ لأن من ذلك !

لم تحتتم الآية هذه العبرة « إن الظالمين هم عذاب الأليم » . وسوء كانت تكملة لكلام  
الشيطان من قبل ، زيادة منه في إيلاهم وإعاضتهم في الموقف الخرج ، أو كانت من كلام  
رب العالمين تعقيلاً على الموقف كله ، فهي الحقيقة النهائية التى تحسم الموقف كله بالنسبة  
لأوبك الظالمين .

وفي الوقت الذى يدال فيه الظالمون حراءهم من العذاب الأليم ، يكون للمؤمنين جزاؤهم  
في اتجاه آخر :

« وأدرك الذين آمنوا وعملوا الصالحات حيات تجرى من تحتها الأنهار خالدون فيها بإذن ربهم »

والتميز هنا يحمل القول بالنسبة للمؤمنين ، ويجمعه كله في «ية واحدة ، قصيرة نسبيا ، معلومة للكلمات . ولكنه في الحقيقة يأخذ مساحة أكبر في الحس ، بمقدار ما كان طول العوض بالنسبة للكافرين لأن الإنسان - نوعي « هي » منه أو بعد نوعي - يعهد مقارنة كاملة بين الموقفين ، بمقدار ما أخذ الموقف الأول المطول من مشاعره ، وهو يتبع الحوار المؤم بين الصعفاء والذين استكبروا ، وييسهم جميعا وبين الشيطان ، فإن الموقف الآخر المقاب وإن اختصرت كلماته - يأخذ مساحة مساوية ، تنبث في لمس الراحة والعسائنية واعتدوا والسكينة ، وخاصة حين يحىء الخاتمة

« تحييمهم فيها سلام » أ

وذلك من روائع الطريقة القرآنية في التعبير وفي التصوير .



هذه الطريقة العدة يعالج القرآن لواقع المشهود ، والمناصبي الذي مر ، والمستقبل المنظور . وهذه الطريقة ينهض إلى القلب اشترى من جميع مآلده فيستولى عليه . .

وقد صمغ القرآن ذلك في قلوب الذين تنقوه أن مرة سواء منهم من أسلم وجهه لله وآمن ، ومن كبر وجحد « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم »<sup>(١)</sup> كالوليد بن المغيرة الذي برل في حقه هذه الآيات :

« دوى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مائلا عمودا ، وبين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أريد أ كلا إنه كان لآياتنا عنيدا سألهمه صعودا . إنه فكر وقدر ، فقتل أ كيف قدر ؟ ثم قتل أ كيف قدر ؟ ثم نظر ، ثم عيس ويسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر أ إذ هذا ، إلا قول البشر سألهمه سقر »<sup>(٢)</sup>

وكذلك ظل القرآن يصنع في قلوب الأجيال المتتالية خلال أربعة عشر قرنا وسيظل كذلك حتى تقوم الساعة ، يبعث دوت الهزة في وجدان الذين يتلونه بصيرة متفتحة : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »<sup>(٣)</sup> .



(١) سورة النمل ١٤ (٢) سورة المدثر : ١١-٢٦ . (٣) سورة ق : ٣٧

وبكن انحراف ، وهو يوقع على أوبار القلب المضربة تلك التوزيعات المؤثرة العميقة ، بعد أن يريل عنها « الراد » الذي علق بها من آثار تمدد الحس . لا يصح ذلك من أحسن تكوين « معلومات » جديدة عن الله سبحانه . إنه من أجل « الإيمان بالله » وفوق هاتل بين إنشاء معلومات عن أية قضية من القضايا وبين الإيمان بتلك القصة

إن « المعلومات » مهم كات حيه في حيه ، جديدة ولامعة ، لابد أن ينطوي محاب بعد فترة ، وينطوي معالمها . فتموت ! ولا تعود تعطي ذلك الإشعاع مشرق الذي يمكن أن يعطيه في مسد الأمر فضلاً على أنها عرصة دائمة . أن نحصر في محيط الدهن ، فتصح قصايا ذهبية لا علاقة لها بالواقع . يدور الدهن فيها ويدور . ثم يخرج من الدورة حيث كان ! ويظل السلوك لبشرى سائراً في طريقه لا يتأثر بتلك القصايا الذهبية ولا يتغير .

ولكن « الإيمان » شيء آخر مختلف تماماً . . إنه يستند إلى تلك المعلومات . نعم . ولكن يستند إليها لينطلق منها ، لا يبقى جاثماً عليها ولا محصوراً فيها .  
الإيمان حركة .

الإيمان طاعة

حركة نجيش في القلب فتحركه بوجدانات شتى ، وتبعث به انفعالات حبة مثدا فعة لا تسكن ولا تهمد . . ولا تموت .

وطنة تتحرك في محيط النفس كلها فتحرك منها أدق درعها ، فتلمس ثأرها في داخل للنفس وفي خارجها عملاً وسلوكاً وأفكاراً ومشاعراً . كما تلمس آثار الطاقة لمعطية والكهرية . . في الآلة الدائرة والمصباح المبر .

والذي كان انقرون يشته في العلوب هو الإيمان بالله ، وليس مجرد معرفة الذهبية بالله والدين يعرفون الله على طريقته الإيمان هم الذين يسميهم انقرون « الذين يحسون » ويصنعهم بأنهم « أولو الألباب » .

« أفمن علم أن ما أنزل إليك من ربك الحق هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوقون بعهد الله ولا يتقصون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا من رزقناهم سراً وعلاية ، ويدرون بالحسنة لسيئة أولئك لهم عاقبة انداد »<sup>١</sup>

(١) سورة الرعد ١٩-٢٢

وهكذا يتحوى « العلم » بأن ما أرسل إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - من ربه هو حق ، إلى عمل وسلوك ومشاعر لأنه يتحوى من « معومات » إلى « إيحاء » .



هذا « لإيحاء » بالله هو الموضوع الرئيسى فى انقراء كله وهو بطبيعته لحال الموضوع الرئيسى فى العقيدة

وحيث كان « القراء » فى العهد المكي يشرب حلال ثلاثة عشر عامًا من الرمان لا يحدث إلا فى العقيدة ، كان التركيز الأكبر ولاشك على الإيحاء بالله ، لأنه هو المكنز لأول والأكثر فى العقيدة ، ثم فى ماء الإسلام كله فيما بعد فى استظياف والشريعات والتوجيهات والقرب يوثق هذه الإيحاء فى القلب بأن يربط ذلك القلب بالله فى جميع أحواله لأنه يربط الأحوال كلها والوجود كله بالله والعصب البشرى - فى أى حاله من حالاته وفى أى لحظة من لحظاته - لابد أن يكون مرتبطاً بشيء ما فى هذه الحياة ، وشيء ما فى ذلك الوجود ! فإذا كانت الحياة كلها والوجود كله مرتبطاً فى كل لحظة وفى كل حال بالله ، فقد ارتبط القلب البشرى بالله عن ذلك الضرب حوفاً أو طمعاً رجاء أو حشية مولود والميت بيد الله . .

والرقيق بيد الله سواء كان الرقيق ملاً أو جدهاً أو صحبة أو أبناء أو أى نوع من ألوان الرقيق . . كلها بيد الله . .

والأحداث الجارية بالنعيم والصر كلها بيد الله  
والعيب ، الملعوف ، المستأثر متعص بعدم الله . لأنه من صنع الله . .  
هذا كله فى الدنيا . .

ثم البحث وحساب بيد الله .

والثواب والعقاب بيد الله

فأى شيء يمكن أن يتعلق به القلب البشرى فى أية لحظة من لحظاته ليس بيد الله ؟  
وأى لحظة من لحظات هذه القلب فى ادب أو الأثرة حارجة من علم له أو عن ملكوت الله وتدير الله ؟

ومن ثم يعيش لقلب البشرى فى هذا القرب حينه كلها مع الله ، حين بطمع وحين يحاف حين يرحو وحين يحشى حين يحب وحين يكره حين يكون فى واقعه وحين يكون

في تخياله . حين يعيش في دائرة الحبس وحين يستشرف ما وراء الحبس . حين يكون وحده  
وحين يكون في الجماعة . حين يؤدي شعائر التعمد وحين مكدح في هجاس الأرض .  
وبلث هي « بذرة الإيمان » التي يذرهما القرب في لقلب لتؤتي ثمارها على الطريق  
طريق الإيمان !

\* \* \*

هذه البذرة التي يتعمدها ويسمّيها بالمريد من السوقيات على أوتار لقلب من لمت  
الحس الشري إلى صحامة الكون الهائلة إلى رفته لمعجزة ، إلى الإحياء والإماتة ، إلى  
الأحداث الحارية وما وراءها من تدبير إلى باب قدرة الله التي لا يعجزها شيء في  
السموات ولا في الأرض . . إلى علم العجب .

هذه البذرة تنمو بالتعمد الدائم هذا فتكون منها بنة ذات ثمار

تتكون منها عبادة لله . . وطاعة لله

إن مقتضى شعور القلب لشري الحق بالوهمية أنه وربوبيته أن يشعر بالعبودية الحققة  
لذلك الإله الذي عرفه على حقيقته ، وعرفه في جميع صفاته فتكون لعبودية الحققة مقاب  
لألوهية الحققة والربوبية الحققة

وبشعر انقلب المؤمن بكرامته كلها في تلك العبودية الحققة لله . ومقدار ما يحصع داته  
لدات لله . وبسلم فياد داته لدات الله يكون أسسه ويشره وفرحه وإطلافه وشعوره  
بالرصا وشعوره بالوجود لأنه بكل ذلك يقترب من الله فيشتمه النور الرباني فيتغلغل في  
دراات كيانه فيحس بحقيقة الحياة

ولكن هذه المشاعر مشاعر العبودية ولأسسها والمرح والرصا والانطلاق ،  
ليست هي العادة الأخيرة ولا القرار الأخير<sup>(١)</sup>

لأنه من الطاعة لله وثبت على الثمرة . ثمرة لعبادة لله ، والإيمان بالله

الطاعة لله فيها أمر به وما هي عنه من أمر

انطاعة في التكليف « العبودية » كالتكليف « الشريعة » كتكليف « الجهد » في

لأرض . كلها سواء .

(١) عند هذه الناية تقف معظم خطوات الصوفية أوهم يصلون في هذا الطريق ، طريق « تربية الروح » إلى  
مخالات شاملة انفة مضبوطة حمله ولا شت ولكن الطريق في حقيقته لا ينهي عند هذه الغاية ما م  
يصحبها « العمل » الذي يدرج هذه المشاعر إلى واقع مبدئي في كل مخالات الحياة التي أمر بها الله ،  
وإلا فسيصل كل هذا لحال الروحي قاصراً عن بدوع العباد من العادة « فلا ما يقص ما أمره »

وبعد هذه الطاعة تظل لمشاعر معقلنة لا ورن في واقع الأرض وتظل « العبادة » كذلك عبر محفلة في واقع الأمر !

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »<sup>(١)</sup>

ولا تتم لعباده إلا بالطاعة ولا تتم الطاعة حتى تتحل في عمل وسلوك لا في لمشاعر بحسب . .

\* \* \*

ولم تكن في العهد المكى الذي استغرقه كله ، حديث عن العقيدة ، ومعظمه في الحديث عن الإيمان بالله لم تكن هناك « تكاليف » بالمعنى لدى جاء فيها بعد في العهد النبوي ، سواء التكاليف ( فيما عدا الصلاة ) أو التكاليف التشريعية والتنظيمية أو الجهاد بالأنفس والأموال ولكن كان هناك الإعداد النفسي والروحي لهذه التكاليف كدر بوصول بالبذرة الإيمانية إلى مرحلة التسليم لله والطاعة لله الطاعة من حيث مبدأ الطاعة في الكبرياء كالصغيرة . . الطاعة حيًا لله . . وخشية لله . . وعادة لله

وحين تمت تربية هذه القلوب على الطاعة لله ، وعلم الله منها صدقها وتجردها جاءت التكاليف . فجاءت على قلوب قد استعدت لها من قبل . . فلم يكن هناك جهد في الطاعة ، حتى وإن كانت التكاليف مجهدة كالصوم والقتال ، ولقد احتاجت بعض التكاليف إلى مجاهدة النفس ولاشت ، ولكن تقوى على التكليف ذاته لا لتقرير مبدأ الطاعة الذي كان قد تقرر من قبل واستقر في هذه القلوب !

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أيما معدودات لمن كان مريض أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين . فمن تطوع خيرا فهو خير له وأر تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون »<sup>(٢)</sup>

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن يحوا شيئا وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون »<sup>(٣)</sup>

« ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإحراج لرسل ، وهم بدأوكم أول مرة ؟ أن تخشعهم ؟ والله أحق أن تخشعوه إن كنتم مؤمنين »<sup>(٤)</sup>

(٢) سورة البقرة ١٨٣

(٤) سورة التوبة ١٣

(١) سورة البقرة ٥٦

(٣) سورة المائدة ٢١٦

وهكذا . وهكذا . كانت بعض هذه لتكليف في حاجة إلى المجاهدة المستمرة تقوى  
 النفوس عليها ، ولكن مبدأ الطاعة لم يكن موضع مراجعته من المؤمنين ، حتى وهم يكلون  
 أحياناً عن التكليف ، ويتلقون على ذلك المدير :

« يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم افعوا في سبيل الله تأخضتم إلى الأرض ؟ أُرسيتم  
 بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . إلا تنصروا يعذبكم عذاباً  
 أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً » (١)

« قل : إن كان آبائكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقتربتموها ،  
 وبحجارة تمحشون كسادهما ، ومساكن ترصونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ،  
 فتريصوا حتى يأتي الله بأمره . والله لا يهدي القوم العاسقين » (٢)

\* \* \*

وهكذا كانت التربية القرآنية على الإيمان بالله . التي بدأت بقوله تعالى « اقرأ باسم ربك  
 الذي خلق ، خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان  
 ما لم يعلم . » (٣) ثم طوّفت بالقلب الشرى في مجالات الكون الواسع المسيح . في  
 السماوات والأرض والأفلاك . في المطر الباز من اسماء ليحيي الأرض بعد موتها . في  
 السات لمختلف الألوان والأشكال والمدق . في الليل والنهار والقمر والنجوم . في  
 أطوار الخلق من انطفئة والعنقة والمصعة . في علم الله الشامل اندى يعلم الحة في طلمات  
 النر والبحر ، وابورقة السافطة من عصصها والثمرة المفتحة في كمها . في تدبير الله  
 المحكم . في سعة الرق وقبض . في الإنسان وعجائب خلقه . في تأييد الرسل  
 بالمعجرات وصرهم على الكذابين . في كل ما حول الإنسان مما يقع بصره عنه وما لا  
 يستطيع أب يراه . طوّفت به في تلك المجالات كلها ليرى الله أمامه في كل شيء ، ومعه في  
 كل لحظة ، وريقاً عليه في كل عمن أو فكر أو هاجسة أحصى من السر . ثم لتقول له إن  
 هذا الإله القادر هو الذي سبحانه يوم البامة وليس من لقائه معر ، ولا من حسابه  
 مصر . وأن له على خلقه الذي خلقه حق العودية وحق الطاعة له وحده دون شريك  
 لأنه هو الله الواحد الذي ليس له شريك .

ذلك هي الثمرة .

( ١ ) سورة التوبة : ٣٨ - ٣٩ . ( ٢ ) سورة التوبة : ٢٤ . ( ٣ ) سورة العلق . ١ - ٥



توحيد الألوهية والربوبية      لتوحيد الطاعة وتوحيد العبادة .

إله واحد . . . ومعبود واحد . . .

لا إله إلا الله      أي لا معبود إلا لله      ولا طاعة إلا لله      وإلا فهي عبادة  
الشيطان ، وطاعة الشيطان

وذلك هو المعنى الحقيقي للإله إلا الله ، الذي كان القرآن في العهد المكي كله يشرع  
شيعته في لقب وترسيخه وتوثيقه      لأنه المعنى الذي تقوم عليه حياة الإيمان كله      فلا  
تعبد إلا الله في عقيدة القلب ، ولا تعبد إلا الله في شعائر التعبد ، ولا تعبد إلا الله في  
انشريعات والتطبيقات التي تنظم علاقات البشر بعضهم ببعض . .

وما كان هذا جهداً كله لدى نزل في العهد المكي . واستمر في العهد المدني - ليعلم  
أساس أن هذا إلهاً ، فهم يعرفون ذلك بالقطرة بلا كتاب ولا رسول ، ولا بعد ذلك إلا أنه  
بأي نوع من أنواع العبادة ، فهم يقومون بذلك من تلقاء أنفسهم .

إنما كان لعدموا أنه إله واحد لا شريك له ، فيعبده وحده بلا شريك      ويعبدوه كما  
أمرهم هو سبحانه أن يعبدوه      لا على هوى أنفسهم ثم يرعونهم أنهم عتد      ومخلصون  
« اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء      قليلاً ما تذكرون »<sup>١</sup>  
فالعادة الطاعة . والطاعة اتباع ما أنزل الله . .

---

( ١ ) سورة الأعراف ، ٣

## الإيمان باليوم الآخر

يولى القرآن أهمية بالغة للإيمان باليوم الآخر حتى ليلحقه في كثير من المواضع بالإيمان بالله مباشرة ، إثباتاً وبعثاً . فهو صف المؤمنين بأنهم هم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويوصف الكافرون بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، كما يوصف المنافقون بأنهم يرغمون بأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر .  
جاء في وصف المؤمنين :

« ليس الرأ أن تولوا ، جوهكم قبل انشرق وانغرب ، ولكن الذين آمنوا بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين . . » (١) .

« ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر » (٢)

« يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرؤن بالمعروف ونهون عن المنكر وسارعؤن في الخيرات . . » (٣)

« بعد كان نكم في رسول الله أموة حسنة من كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » (٤)

وجاء في شأن الكفار :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله » (٥)

وجاء في شأن المنافقين :

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » (٦)

« والذين يتعصبون أمواهم رباء للناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . ومن يكن الشيطان له قريبا فساء قريبا » (٧)

(١) سورة البقرة ١٧٧ (٢) سورة البقرة ٢٣٧ (٣) سورة آل عمران ١١٤  
(٤) سورة الأحزاب ٢١ (٥) سورة التوبة ٢٩ (٦) سورة البقرة ٨  
(٧) سورة النساء ٣٨

وهكذا يحىء الإيمان باليوم الآخر مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بالإيمان بالله ومنتجاً له<sup>(١)</sup>.

ولا عجب في ذلك في الحقيقة ، حين نلحظ إلى ثمرة النهائية للإيمان بالله كما رأيناها فيما سبق ، وهي الطاعة الكاملة لله ولقد علم الله - وهو العليم بمرح خلق - أن هذه الطاعة لا يتم تمامها - عند كثير من الناس على الأقل إن لم يقل كلهم - بمجرد الإيمان بالله ، إنما بالإيمان الراسخ بأن هناك بعثاً وحساباً ، وثواباً وعقاباً . فيتجه المؤمن إلى الأعمال التي تقربه من الله اتقاء لعذابه وطمعاً في ثوابه . فإذا كانت الطاعة - وهي ثمرة الإيمان بالله - ترتبط بعقيدة اليوم الآخر ، فلا عجب إذن أن يصدق الإيمان باليوم الآخر مباشرة بالإيمان بالله .



ولقد حسب لأول وهلة أن الحديث المستفصل عن اليوم الآخر في السور المكية كان سببه إنكار العرب انبثاق البعث والحساب وخراء

« وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل يسئلكم إذا مرقم كل مرقم إنكم لمي خلق جديد؟ ! أفترى على الله كذباً أم به حجة ١٩ »<sup>(٢)</sup>  
« أإذا متنا وكنا تراباً؟ ذلك رجع بعيد »<sup>(٣)</sup>

وحقاً لقد كان هذا الإنكار الناتج المخارم في حادثة إلى حد ما مستفيض حتى يراد عنه إصراره العبد

ولكن استمرار الحديث عن اليوم الآخر في أسور المدنية بعد أن قام المجتمع المسلم والدولة المسلمة ، ووجد جيل من الناس يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويجاهد في سبيل الله بقتل ويقتل نتيجة إيمانه بالله واليوم الآخر كي وصفهم القرآن « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعذاباً عليه حقاً في النورة الإنجيل والقرآن - ومن أوفى بعهد من الله ؟ - فاستبشروا ببعثكم لدى مايعتم به وحدث هو الفوز الأعظم »<sup>(٤)</sup>

---

(١) يلاحظ أن هذه الآيات كلها مكية - أي في السور المكية - فقد جاء حديث مستفيض عن اليوم الآخر عن البعث والمساءلة والثواب والعقاب ووصف الجنة ووصف النار - ومعظم مشاهد انقياد هي في الحقيقة في السور المكية - ولكن لم يرد فيها ذلك الربط الجارم بين الإيمان بالله واليوم الآخر لأن عقيدة البعث والآخر كانت من ترال تشأ إشباع في قلوب العرب المكركب فاحس قبل أشد الإنكار ، وجاء الحديث عنها مستقلاً في غالب الأحيان - أي في المدنية فكانت قد استقرت في وضعها النهائي ، وأبرزت كذلك في ميراثها النهائي ، وهي أنها هي التمتعة بالإيمان بالله

(٢) سورة صبا ٧-٨ ، (٣) سورة ق : ٣ ، (٤) سورة التوبة : ١١١

مستمراً أحدثت عبر اليوم الآخر بعد هذا درس على أن أحدثت لمستخلص عم اليوم  
 الآخر في السور المكتبة يمكن كله سبب إنكنا المتكبري لمعت ، ولا كان كنه موحها في  
 أوسك المتكبري<sup>١</sup> إنما كان حواء منه على لأقل موحها لتدبر أموا بالمعنى بالله واسم الآخر  
 ثم هو دليل كذلك على أن المدين أموا بالمعنى سموا في معنى عن التذكير في يوم الآخر ، إنما  
 هم في حاجة دائمة إلى ذلك التذكير ، والله هو لعليم بحلقه ، ولو علم سبحانه أن يحود  
 حدوث الإيين باليوم الآخر يكفى ، فإعداد أمرن لتذكيرهم المزمع بعد المرة ، إنما علم الله أنه  
 لا بد من تذكير ، وإعداده لتذكير<sup>٢</sup> ولابد من سبب رائم يدعو إلى التذكير<sup>٣</sup>

\* \* \*

إن في النفس البشرية كما خلقها الله ذوقاً فطرياً قوية متأصلة  
 في حب الشهوات من لسان ولبس وانفاس طير لمقطرة من الذهب ونمصه  
 والخيال المسومة والألغام والخرث ذلك منافع الحياة الدنيا<sup>٤</sup> .  
 وقد كان لابد في تقدير الله وعلمه - أن نكو لدوافع قوية ومتأصلة ، لتكون حوافر  
 للعمل والشاط والإلتحاح ، ودافعاً لعبارة لأرض وهي جزء من عمليه الخلافة التي خلق  
 من أجلها الإنسان

« و قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة<sup>٥</sup> »

« هو أنشأكم من الأرض ويستعمركم فيها<sup>٦</sup> »

فهو كانت هذه الدوافع ضعيفة بحيث يمكن إسكانها أو إضعافها عن إلحاحها بسهولة  
 لو قصت الحقائق الكثيرة في الأرض بين الإنسان وبين القيام بمهمة العبادة والاستحلاف  
 وإنما كانت قوتها لتستطيع العبادة لهذه المقامات والتعلب عليها . وانتمكن في النهاية من  
 تحقيق ما كبه لله من سحير طغاب الكون بالإنسان ، أو تحقيق العائدة المتحصلة من ذلك  
 لتسخير

« وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه<sup>٧</sup> » .

ولكن الله الخدوس اعلمهم يعلم - سبحانه - أن هذه الدوافع إذا تركت وشأنها تعبر صراط  
 قريباً يتعذب إلى « شهوات » :

« رين للنفس حب الشهوات . »

( ٢ ) سورة البقرة ٣٠

( ٤ ) سورة الحاشية ٣

( ١ ) سورة آل عمران ١٤

( ٣ ) سورة هود ٦١

وعندئذ نصيب الإنسان بالعطف أو لهلاك . ويدلّ من أن تكون عوناً له على عبادة الأرض والقيام بمهمة الخلافة لراشدة فيها ، فإنها تصبح قيلاً يعوق عن الانطلاق ، وشاغلاً يشغل عن مهام الخلافة الحقة .

لذلك وضع الله في الفطرة صواباً تصبى هذه الشهوات ، وتحدد مسبقاً وتنظف محرّمات ، وتبدها من « شهوة » طاعة لا يملك الإنسان نفسه إزاءها ، إلى « رغبة » مصبغة بمكة القياد ، ورسم حدوداً لتحقق هذه الدوافع ، وتحقق بها قسط معقول من المتاع ، وتحوّل في الوقت ذاته دون انعطاف وإهلاك ، بتعدد والحاجة سواء

« تلك حدود الله فلا تعتدوها »<sup>(١)</sup> .

« تلك حدود الله فلا تقربوها »<sup>(٢)</sup> .

ثم علم الله أن هذه الصوابات الفطرية في داخل النفس في حاجة إلى معين بعينها عن القيم بمهمتها ، وبمهيئها ، ويشد من أثرها إزاء طغيان الشهوات ، فوضع لذلك العبادات التي تذكّر بالله ، وتدعو إلى تقواه

« إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمكر » ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون<sup>(٣)</sup>

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم صيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »<sup>(٤)</sup>

بكنه يعلم كذلك سبحانه أن تلك الدوافع أو الشهوات لها ثقله تجذبها إلى الأرض وأنه لابد من ثقل من السحرة الأخرى يعادل هذه الخدبة العيفة التي تثقل الإنسان في الأرض . وذلك هو الإيمان باليوم الآخر

بأنه لا شيء يمكن أن يقنع الإنسان بالترك من المتاع برائد عن الحد ، المدفوع إليه بطرته ، ولا التزام بالحدود التي رسمها الله لهذه الدوافع وأمر الناس ألا يعتدوها لكي لا يعطوا ولا يهلكوا . لا شيء يمكن أن يقنع الإنسان بذلك إلا الإيمان بالحرام بأن ما يتركه هو في الدنيا - من أجل طاعة الله - يبقا في الآخرة مصاعفاً لا في الدرجة محسب . من في النوع كذلك ، حيث النعيم بعد الذي لا يرول ، ورغبة لئلي هيها ما لا عين رأت ولا أدرك سمعت ، ولا يحيط عن قلب بشر . وأن ما يعصى الله به في الدنيا - اندفاعاً وراء شهواته - بعدد عليه عذاباً لا تطيقه النفوس والأبدان . وتصح حوارة حيث تد بين متاع في الدنيا

(٢) سورة البقرة ١٨٧

(٤) سورة البقرة ١٨٣

(١) سورة البقرة ٢٢٩

(٣) سورة العنكبوت ١٥

رائف راتل ، ليس أقل عيونه ما بشونه من لعلق الدائم على انتهاء ورواله ، ومما هالك حالد لا برول . ومن نوع أحل وأعمق وأمنع وأصلى . وموارنة كدلت بين أم من عدم تحقيق لغدر الرئد من لمع ، وهو محتمل في جميع أحواله ، والم في الأخره يعوق طاقة الاحتمال وحس توصع الموارنة في هذه الصورة يكون من الحفاقة الشديدة ولاشك إصاعة العيم لحالد باسم الرتل ، ولدحون في العذاب لأبم الذي لا يطق اتقاء لأبم مؤف لا يلبث أن يرول !

لذلك كان التركيب الشديد على عقيدة اليوم لآخر لأبم هي الثقل الذي يعادل حداية لشهوات

ثم إن العجبة البشرية عجيبة عصية لا يستقر بسهولة في داخل انقاص الذي تتحقق به سلامتها في الدين والأخرة . وإن هي دائمة لتبوى والحرث مدعمة حرج حدود الغالب ، تريد أن تنفلت مع الشهوات . ومن ثم فهي لا تصبط مرة وحلة ويسهي الأمر ويستقر بها المقام ' إنها هي في حاجة إلى عمية صبط دائمة لا تكس ولا تعتر ، لأنها هي لا تهر عن الامتناع والانديلاخ [ إلا أن تستقيم بعد طول مجاهدة ونظم بل طريق الله ] . لذلك لا يكفى أن يدكر الإنسان بالأخرة مرة ثم يتهى الأمر ' إنها يحتاج لأمر إلى التذكير ، له ثم باليوم الآخر وحسابه ، وثوابه وعقابه . وذلك ما يجعله القرآن !

\* \* \*

هذا كله في الحياة للعادية لأبم المنظمة التي يباح ث فيها أن تستمتع بالنفسط المباح من هذه الرغبات . . أو سبها الشهوات !

ولكن حياة الإنسان . المؤمن - لا تستقر على هذه الصورة السهنة الخيبة لليلة التي يتاح فيها المتاع !

إن المؤمن مكلف في الأرض تكاليف . .

مكلف بإقرار منهج الله في الأرض ، لتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون لنظام الردي هو القائم بين الناس

« بعد أرسلنا رسلا بأسيات وأمرنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأمرنا الحديد فيه بأس شديد ومما منع للناس ، ويعلم فقه من ينصره ورسله بالعباد إن الله قوي عزيز »<sup>(١)</sup>

(١) سورة الحديد ٢٥

ولكن احذوه لا تتركوا هذا الأمر سم في سر      ثم تصنع ذلك مرة واحدة خلال اسبوع<sup>(١)</sup>  
ولا بد من جهاد لإفراد صليح الله

جهاد محرم الإسار حتى من الشاع الحاج      ويعرضه لأن يعقد ماله أو راحته أو أمه أو  
أهله      بل قد يعرضه للتعذيب ولشريد      وقد يعرضه للموت بواسطة من وسائل  
القتل      وذلك غير اختار في سبيل الله وه      يصاحبه من المشقة و حرمان الذي يصل إلى  
الموت في ساحة القتال

فما يعوص المؤمن عن ذلك كله ، ويعرضه لتحمل اعداء في حياة الدنيا مشتي  
صوبه ، إلا ذلك الإيمان المحرم بأن كل حرمان معرض به في لأرض - في سبيل مرضاة الله -  
حرارة المعص الخادم الذي لا بعد<sup>(٢)</sup>      ومدا مسعه من التقاعس - خوفاً من عذاب الأرض  
إلا لإيمان المحرم بأن عذاب الله عن ه      التقاعس هو العذاب لأشد ، وندي حل عن  
الاحمال ١٩

« بل      ب كات آبؤكم وأبؤكم وإخوانكم وأرو حاكم وعشيرتكم ، وأمول افرصموه ،  
وتجارة تخشون كسادها ، ومبكر ترصوب ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ،  
فانصروا حتى يأتي الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين »<sup>(٣)</sup>.

« يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثافتم إلى لأرض ؟ أراضيتم  
ماحيه الدنيا من لأخره ؟ هي مباح اخبة لدا في الأخره إلا قليل      إلا تنفروا يعدكم عدا  
إلينا ويسبب قوماً عركم ولا تصرفوه شتاً والله على كل شيء قدير »<sup>(٤)</sup>  
« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتهم الذين كفروا رجما فلا تولوهم الأدبار      ومن يؤم يومئذ دبره  
إلا متحرفاً لقنال أو متحرفاً إلى فئة - فقد باء بعصب من الله ، وماواه جهنم ونش  
انصير<sup>(٥)</sup>

« ولا تنهوا في شعاء لقوم      إن يكونوا تأموا فإنهم يأبون كي بالموت ، وترجون من الله ما لا  
يرجون . وكان الله علياً حكياً »<sup>(٦)</sup>

« ألم تر إلى الذين قيل هم كفروا أبديكم وأفموا الصلاة وتوا الزكاة ، فلم كتب عليهم  
القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لا كتب

(٢) سورة التوبة ٣٨-٣٩

(٤) سورة النساء ١٠٤

(١) سورة التوبة ٢٤

(٣) سورة الأنفال ١٥-١٦

عليها القتال ؟ لولا أحرنا إلى أجل قريب <sup>١٩</sup> قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتلاً <sup>(١)</sup>

لذلك كان التذكير الدائم - للمؤمنين - باليوم الآخر ، لكي يتصوروا على الجهد ، ولا تنفذ بهم مشقاته وعذاباته وحرمانه عن المصطفى به انتعاء مرضاة الله . وهم على ذلك الحجة والسعي المقيم

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن هم الحجة يقتنون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والفرقان . ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستشروا ربكم الذي بايعنهم به وذلك هو الفور العظيم » <sup>(٢)</sup>

\* \* \*

نحمل السور لحكمة مشاهد المقدمة ، والحديث عن البعث والحساب . وقد كان بعض نسيب كما قد إنكار العرب الدنيا لبعث . وبعضه الآخر لضرورة تقرير هذه العقيدة وتوسيعها في نفوس المؤمنين حتى تستقيم حياتهم في الأرض ، لأنها كما علم الله - لا تستقيم بغير هذه العقيدة مستقرة راسخة عميقة

فأما عرب المنكروين للبعث فقد حادهم أحياناً وواجههم أحياناً بأسلوب آخر أفعل في التأثير ، هو تصويرهم هم أنفسهم في نار جهنم يشربون فيها ، أو بين يدي الله يوم البعث يسألهم فيحيون و آخرى يلقونهم ويشملهم . إنهم كانوا كافرين ، وكانوا حاضرين أو يصرح عنهم صراحة ، ويمضي يستعرض مشاهد القيامة غير منتمت إليهم ، وإن كان مقصود في النهاية هو التأثير عليهم

فأما أحد وهو جدل منطقي ولكنه ليس منطقاً بدهش مجرد الذي يجعلها قضية ذهنية باردة لا تخرج من نطاق الدهش ولا تحرق الوجدان . ذلك أن الدهش كثيراً ما « يقتنع » أو على الأقل يعبر عن لمواجهته ومع ذلك لا يعبر الإنسان موقفه إلا عداً . وهو أمر نفسي وحالة نفسية - وربما لأنه لم يقتنع « وجدانياً » بالقدر الذي يحركه من موقفه الجامد إلى موقف جديد . وإن كثيراً من الناس - وخاصة الذين عنتهم « العمالية » الحربية في انقراض لاسع عشر والقرن العشرين - لم يصدقوا بحشور عن « الدليل العقلي » في القرآن ، حتى إذا وجدوه مصورين به كانوا عثروا على الفكر الذي لا يقدر أو كانوا عثروا على الرد المسكت ، الذي يردون



به على أعداء الإسلام ، الذين يهاجمون القرآن بأنه لا يحوى أدلة عقلية ، وأنه لا يصمد للدغدغة العقلية !!

وهؤلاء إن كانوا مخلصين - ولا يحسبهم إلا كذلك - فالله يأجرهم على إخلاصهم ولكن القصة - بعد - في حاجة إلى دراسة من ناحية أخرى لا تتأثر بتأثرات الفكر الجاهل سواء كان هو الفكر اليوناني الفلسفي القديم أو حداثته في الحداثة المعاصرة من عقلانية وما إليها<sup>(١)</sup> .

إن كون القرآن لا يساقص العقل ولا ينافيه هذه قضية وكون « الدليل العقلي » في أمر الدين هو الحذر بالإنكار والتعظيم ، والتفصيل على غيره من الوسائل ، قصة أخرى مختلفة وحديثة بالمراجعة . .

إن القرآن كتاب تربية وتوجيه . . مهمته إنشاء الأمة المؤسسة التي تقوم بالخلافة الراشدة في الأرض ، والتي يتحقق فيها قوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »<sup>(٣)</sup>

ولقد دعا القرآن إلى إعمال العقل على نطاق واسع شامل في جملة مهام من أولها التعرف على الله بتدبر آياته في الكون ، والتعرف على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم بدارسة أحواله وقال « إن في ذلك لآية لقوم يعقلون »<sup>(٤)</sup> « إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون »<sup>(٥)</sup> « أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا »<sup>(٦)</sup> « قل إنما أعطيتكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتصكروا ما مصاحبكم من حجة إن هو إلا سبيل لكم بين يدي عذاب شديد »<sup>(٧)</sup> « أولم يتصكروا ؟ ما مصاحبهم من حجة إن هو إلا سبيل مبين »<sup>(٨)</sup> الح الح ثم كلمه بعد ذلك بمهام تعطيه « عملاً كاملاً » لا بظنة فيه أبدًا ، حيث كلمه بتدبر آيات الله في الكون مرة أخرى للتعرف على المس التي تجرى بها الله هذا الكون ، يتمكن من استخلاص طاقاته ويتحقق معنى تسخير السماوات والأرض من

---

(١) يرد سريري في كتابه مدى يدافع فيه دفاعاً حازماً عن اليهود « تأملات في مشكلة اليهودية » الصادر سنة ١٩٤٨ بأن اليهود هم الذين أنشأوا العقلانية المعاصرة يحاربونها بالعقيدة مما أحران أن تقتص إلى ذلك !

(٢) سورة آل عمران ١١٠ . (٣) سورة البقرة ١٤٣ . (٤) سورة النحل ٦٧

(٥) سورة النحل ٦٩ . (٦) سورة الباء ٨٢ . (٧) سورة صبا : ٤٦

(٨) سورة الأعراف ١٨٤

للإنسان . يبحث عن رفق الله المكون في هذا الكون بالعلم النظري والتطبيقي وكله  
بسر حكمة اشريع ليحس تطبيقه في الأرض وكله بالتدبر في الوسائل والأسباب التي  
يصل بها إلى إقامة المجتمع الراشد ، بعد أن وعاه سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا . الح وكله  
أخيرًا بتدبر سبه الله في الدين حلولًا من قبل ، حتى يتحاشى ما أصابهم من سوء نتيجة بعدهم  
عن طريق الله . وهي مهم أصح بكثير وأشمل مما يخصصه أي نظام بشرى للعقل  
البشرى !

ولكن القرآن مع هذا كله لم يكل أمر الإيها كله للعقل وحده سواء الإيها بالله أو الإيها  
باليوم الآخر . وهذه هي القضية التي دلت انظر إليها !  
إن الإيها يشمل الإنسان كله . ولعن واحد من جوانب الإنسان محسب ، وليس هو  
كل الإنسان !

ولقد حاسب القرآن العقل - في شأن الإيها - بما يمكن أن يدخل في نطاقه . ولكنه لم  
يكن يقصر خطابه على العقل ، كما يريد « العلمانيون » سواء في أول التاريخ الإسلامي أو في  
حده . لأن معنى ذلك إهمال جوانب أخرى من الإنسان تتصل بالإيها ، لا تقل أصاه  
عن العقل ، إن لم نقل إنها - في مجال الإيها - أكثر وأعمق وصولاً إلى الله !

ولا ينبغي أن تعرض صيحات العقلانيين ، القدماء منهم أو المحدثين ، بأن الأمر ينبغي  
أن يعرض كله على العقل فيحيره ، وإلا فهو خرافة لا تليق « بالإنسان » !!

إن العقل نفسه قاصر عن أن يعرف كيف يعمل هو ذاته ! وتلك حقيقة « علمية » قد  
تفاجت لأول وهلة ! ولكنها حقيقة أفاعقل لم يعرف بعد كيف تتم عملية التفكير في العقل  
الشري ، وكيف تتم عملية الذكر وإن كانت هذه ونبت من « البروتين » اليومي لذلك العقل !  
أولاً كان هذا المقصور . فهل يريد أن يسحوذ على عملية الإيها كلها . إما أن تتم  
كلها عن طريقه وإما أن يرفضها !!

كلا ! والله !

وإن الله الخالق لعليم ليعلم أن للإيها مدخل في القلب البشري غير العقل ، فلا يقصر  
الأمر على العقل وحده ، بل يحطط الروح لمعنيتها ويحاطب الواحد ، بالطريقة الربانية  
المعجزة التي تصل إلى مكاس العقيدة كلها ولا سهمل واحناً منها يؤدي إلى الإيها !

ذلك ستطراد ، رب طاب بعض الشيء ! وبكنا اضطررنا إليه بمناسبة الحديث عن طريقة  
القرآن في مجادلة العرب لمكرين للعت ، فم يجادلهم بالمنطق الدهشي لمجرد ، الذي لا

يحرك الإنسان من موقفه الجامد ، إنما صاحب هذا المطلق دائماً حركة في الوجدان ليكون  
التأثير مضاعفاً ، ويكون ذلك أدعى للإيمان . .



« وقال الذين كفروا هل ندركم على رجل يبشركم إذا مرستم كل عمرو إنكم لملئ خلق  
جديد ١٩ أفترى على الله كذباً أم به حجة ١٩ من الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب وبضلال  
سعيد أقسم بربى إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من لواء والأرض ٩ إن مشأ نحسف بهم  
الأرض أو نسفط عليهم كيف من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد مبص ١٠  
« وصبرنا مثلاً ونسى حنقه ١ فاب من يحيى العظام وهى رميم ١٩ من يحيىها الذى  
أنشأها أول مرة وهو مكن حسن عليهم انذى نحن بكم من لشجر الأحصر ما إذا أنتم مه  
توفدون أو يس الذى حبس السماوات والأرض بقدر على أن يخلق مشهم ٩ من ١ وهو  
خلاق العليم بما أمره إذ أرد شئاً أن يقول به كن فيكون فسحات الذى بيده ملكوت  
كل شيء وإليه ترجعون ٢١ »

« بل قنوا مثل ما دل الأوبون قالو إذا ما وكنا تراك وعظمت شأ صموش ٩ لند  
وعندنا نحن وناون هده من قل ١ إن هدا لا أسطير الأولين ١ قل من الأرض ومن فيها إن  
كسم تعلمون ٩ سيقونون لله ١ قل أفلا تدركون ١٩ قل من رب السماوات السبع ورب  
العرش لعظم ٩ سيقونون لله ١ قل أفلا تتقون ٩ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجبر  
ولا يجاز عليه ب كسم معدمون ٩ سيقولون لله ١ قل فأنى تسحرون ١٩ » ٢٢

« رقلنا إذا كنا عظمنا ورفنا أنا صموش حلقاً جديداً ٩ قل كونا حجارة أو  
حديداً أو حلقاً مما يكبر فى صدوركم ١١ فسقولون من يعيدنا ١٩ قل الذى عطركم أول  
مرة ١ فسيقولون إلبك رءوسهم ويقولون متى هو ٩ قل عسى أن يكون قريباً ١ يوم يدعوكم  
فتستجيون بحمده ، ويطون إن لستم إلا قبيلاً ١ » ٢٣

« ووالفران اسجد بل عجبوا أن جاءهم من رهم فقل الكافرون هذا شيء عجب ١  
إذا مت وك براثاً ٩ ذلك رجع بعيد ١ قد علمنا ما تنقص لأرض منهم ، وعندنا كتاب  
حفيظ بل كذبرناحق لما جاءهم فهم فى أمر مريح أفلم يظفروا إلى السماء فوقهم كيف  
نبيهاها ، وريهاها ، وما ها من فروح ٩ والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى وأبنا فيها من

(٢) سورة يس ٧٨-٨٣ .

(٤) سورة الإسراء ٤٩-٥٢ .

(١) سورة سبأ ٧٠-٩٠ .

(٣) سورة المؤمنون ٨١-٨٩ .

كل روح يهيج ، نصرة وذكرى لكل عبد مست - وربما من السوء ماء مبارك فأنت به حات  
وحب المحصيد ، والنحل ماسفات ما طلع بصد ، ررقاً لبعاد وأحب به مدة مثلاً كذلك  
الخروج<sup>(١)</sup>

هذه - ومثلها في السور الملكية كثير - بمادح من الخذل مع المكسب بالبعث إنه يورد  
الدليل العقلي الذي قومه أن الله الذي خلق السماوات والأرض مرة ، والذي يحيى الأرض  
الموات فترجر بالحياة والأحياء بعد أن كانت مقفرة ، والذي خلق هذا الإنسان المعقد التكوين  
أشد التعقيد من النطفة البسيطة . قدّر على أن يعيد الحياة للعظام وهي رميم ، ويبعث  
الناس من رقبتهم مرة أخرى ولكنه لا يورده قصبة منطق حقة ، ولا يحصره في محيط  
الدهش بما يشير معه الوجدان بالتوقيع عن أوتار القلب بقطرية التي أردت ذكرها من قبل في  
الحديث عن الإيمان بالله فيجعل الوجدان ويقتنع الدهش جميعاً في ذلك .

أما الطريقة الثانية في مواجعتهم فهي رسم صورهم هم أنفسهم في العذاب يوم القيامة  
وهي طريقة مفرقة هم لا تتجاوز أدهشهم المكرة ، لا تخاطبها أصلاً ولا تدح في جدل  
معه ، إنما تمحيم عليها إنكارها ، وتعرض عليها الصورة في جهنم ، وكأنها تقول لهم أنتم  
تكذبون بالبعث والحساب ؟ إذن ما دعروا إلى أنفسكم في مرة العذاب إنكم هؤلاء في جهنم !  
وكوهم يوم القيامة في جهنم إذ أصروا على الكفر ، هذه حقيقة ولا شك والقرآن  
يعرضها على أنها حقيقة مفرقة ، ولكنها ما تصدح المكدين أنفسهم ، وطريقة مخاطبتهم  
إنهم منكرون للبعث أصلاً ، لا تصدح عقولهم ولا نفوسهم ولكن الفراء - هب -  
لا يجادلهم ليثبت لهم بالخط - أي نوع من المنطق - حقيقة البعث ، وإنما يلجأ إلى التأثير  
عليهم من جانب آخر - وجدني على الأكثر - وهو عرض صورهم عليهم وهم في نار جهنم .  
لتجعل وحداناتهم - بصرف النظر عن أدهشهم - فتقتنع قلوباً وجدانياً بحقيقة البعث

« قتل الخراصون ، الذين هم في غمرة ساهون ، يسألون أيا يوم الدين ؟ يوم هم من  
النار يفتنون ذوقوا فتكم ! هذا الذي كسم به تستعجلون ! »<sup>(٢)</sup>

« إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع ، يوم يحور السماء موزة ، وتسير الجبال سيرة ،  
فويل يومئذ للمكسبين ، الذين هم في حرج بلعون يوم يدقون إلى نار جهنم دقاً هذه  
النار التي كسم بها تكذبون ! أصح هذا ؟ أم أنتم لا تصرون ! ! اصلوها فاصبروا أو لا  
تصبروا سواء عليكم ! إنما تجرون ما كسم تعملون ! »<sup>(٣)</sup>

(١) سورة ق ١١-١٢ (٢) سورة الدريات : ١٠-١٤ (٣) سورة الطور : ٧-١٦

« أكفركم حر من أولئكم » أم لكم برءة في الرب ؟ أم يصبون بحس جميع مستصر ؟<sup>(١)</sup>  
سيهم الجمع ويولوب اندر من اساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ! إن المحجرين في  
صلا وسعر ، يوم بسحبون ل نار على وجوههم دوقوا من منقر ! »<sup>(٢)</sup>

« قل إن الأوليين والآخرين لمجموعون في ميقات يوم معلوم ثم إنكم أيها الصالوب  
انكذبون ، لاكلون من شجر من رقوم ، فيأثون منها المطون ، فشاربون عليه من الخميم ،  
فشاربون شرب لهم . هذا ترهم يوم الدين »<sup>(٣)</sup> .

« إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين يوم لا يعى مولى عن مولى شيئاً ولا هم يصرون ، إلا  
من رحم الله ، إنه هو العزيز الرحيم . رب شجرة الرقوم ، طعام الأثيم ، كالمهل على في  
اليطون ، كعل الخميم . حدوده فعتلوه إلى سواء الخميم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب  
الخميم دق إنك أنت العزيز الكريم ! إن هذا ما كنتم به تمترون »<sup>(٤)</sup>

وأما الطريقة الثالثة فهي كذلك تعرض صورهم يوم انقيامة في جهنم [ وصور المؤمنين في  
جنة ] ولكن بعير خطاب مباشر للمكبرين حقيقة البعث فكأنها هي تتجاهلهم - في  
نظـهر ولا تعرض هم وجوداً ولا تلتفت إليهم ، وإن تعرض الحقائق قائمة بذات ، فمن  
شاء أن يؤمن فيؤمن ، وهو خير له ومن أصر على إنكاره فلينظر ماذا يفعل بأمثاله يوم  
القيامة ! وهي طريقة كذلك من طرق التأثير لوجداني بقوى المقبول فإن الإنسان بطبعه  
يعقد بين نفسه وبين « بطل » القصة المروسة مقارنة حية - واعية أو غير واعية - فإن ماله  
خير غنى أن يكون مكانه ، وإن ماله شر غنى أن يكون هو في محنة منه ! ومن هنا يد حل  
التأثير في قلوب أولئك المعبدين حين يرب « أمثالهم » بعدون في دار جهنم ، ويروون المؤمنين  
بحس في النسيم ، فتهمو قلوبهم إلى المشاركة في ذلك لبعث ، والفرار من ذلك الخميم ،  
ويسبون في عمرة التأثير إنكارهم للبعث أو على الأقل يهتر موعدهم منه [ وذلك يحدث أيضاً  
في الطريقة السابقة ] فتدبر قلوبهم للتسليم

« يا بني آدم إما يأتيتكم رسل منكم فيقصون عليكم آياتي فمن تقى وأصلح فلا خوف  
عليهم ولا هم يحزنون ولدين كذبوا آيات واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها  
حالدون . فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ؟ أولئك بناءهم نصيبهم من  
الكتاب حتى إذا جاءهم رسدنا يتوفونهم قالو : أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا :

(١) سورة القمر ٤٣-٤٨ (٢) سورة الواقعة ٤٩-٥٦ (٣) سورة الدخان ٤٠-٥١

صلوا عما ! وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين فإن ادخلوا في أمم قد حنت من قبلكم من جن والإنس في الدار كنما دحنت أمة بعث أختها ، حتى إذا أذكوا فيها حمفا قالت أحرأهم لأولأهم رب هؤلاء أصلوا فاتهم عذابا صعبا من النار ! قال لكل صعب وبكى لا تعلمون ! وقالت أولأهم لأحرأهم فما كان بكم عليا من فصل ! فذوقوا لعذاب بما كنتم تكسبون ! إن الدين كدوا بآيتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ! وكذلك نجري للمجرمين ، لهم من جهنم مهاد ومن فرقهم عواش ! وكذلك نجري للظالمين ولدين آمنوا وعملوا الصالحات - لا تكف عنا إلا وسعها - أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون وبرعا ما في صدورهم من عل ، تجري من تحتهم الأنهار ، وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت ربنا بحق وبودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون وبأدى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حق ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حق ؟ قالوا نعم ! فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ، الذين يصدون عن سبيل الله ويعصون عواجا وهم بالأخرة كافرين ويهيأ حجاب ، وعلى الأعراف حان يعرفون كلاً بسيماهم ، وودوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم ألم يدخلوها وهم مضطربون ! وإذا صرفت أنصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا نجعلنا مع قوم الظالمين ! ودرى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفهم بسيماهم ، قالوا ما أعمى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ؟ أهؤلاء الذين أقسمتم لايأهم الله بركة ؟ ! أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون وبأدى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا عليا من ماء أو ري ررقكم الله ! قالوا إن الله حرمها على الكافرين ، الذين اتخذوا دينهم هوا ولعاً وعرثهم الحياة الدنيا فديم ساءهم كما سوا فداء يومهم هدا وما كانوا بآيتنا ينجحون <sup>(١)</sup>

إنه شريط حافر بالحركة والحوار والمشاهد المتقابلة ولعله أطول « عرض » في القرآن كنه لمشاهد القيامة وإنه ليعرض صور المكذبين وصور المؤمنين يوم القيامة على « المخرجين » ما في الدب ليرى المكذبون صور « أمثا لهم » في عذاب جهنم - بل صورهم هم في الحمفة ، وإن كان ما لا يقون هم ذلك ويسعهم يتفرحون لتأثرو بالعرض عن طريق غير مباشر - ويروا صور المؤمنين المصدقين راضين في النعم ، فتأثر وحدانهم وتلين قلوبهم لتصدق !

\* \* \*

على هذا السؤال تجرى « مشهد القيامة » في انشور النكية <sup>(١)</sup> ويبلغت نظرياً فيها ثلاثة أمور بصفة خاصة

الأول : إنها في العلية لعظمى منها دستاءات قليلة جداً - تجمع بين مشهد العذاب ومشهد النعيم في سياق واحد ، وذلك بجيء على خطين مختلفين يلتقيان في النهاية كأسى شيء واحد !

فهذا الحديث أولاً يسس موحهاً للكافرين المكذبين وحدهم ، ولكنه موحه للمؤمنين كذلك وإذا كان المكذبون وحدهم قد احتضوا بالحانب الأول من الحديث ، وهو خدش المنطقى الوجداني لإثبات أن الله قادر على بعث الموتى ومساءلتهم يوم القيامة [ يد المؤمنون مصدقون بذلك وليسوا في حاجة إلى إثبات ] إلا أنهم - ي المؤمنين - حتى في هذا الحديث مدعوون للمشاهدة ! يروا تلك المادح لعصاة من الشر ويتعجبوا من الطمأنينة بصبرتها ، فريدهم ذلك - يوعى أو يعير وعى - تشاً وإيماناً بقصيه البعث ، على نمط ما جاء في سورة المدثر

« وما جعل أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا لينيقن الذين آمنوا الكتاب ويردد نذير أموا رباناً ، ولا يربط الذين آمنوا الكتاب ويؤمنون ويقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ » كذلك يصل الله من يشاء ويهدي من يشاء <sup>(٢)</sup>

أما المواضع التي تعرض فيها مشاهد بعديت الكافرين المكربين مع توجيه الخطاب المباشر إليهم ليرى أنفسهم مباشرة في عذاب جهنم ، وتلك التي تعرض فيها مشاهدهم دون التمتع مباشر إليهم فهي كليهما تحيي صور المؤمنين في النعم - إلى جانب صور العذاب - سوء وجه الخطاط المباشر إلى المؤمنين أم حكى السباق عنهم مجرد حكاية ، لأن الخطاط موجه في الحقيقة - بطريقة مباشرة أو غير مباشرة - لتعريفين معاً : المؤمنين والمكذبين ولذلك تحيي مشهد النعيم إلى جانب مشاهد العذاب ، فيحدد كل فريق ما يخصه من هذه المشاهد هنا هو الخط الأول في تسيح العرص

أما الخط الثاني ، المتداخل معه في تسيح الصورة ذاتها ، فهو أن مشهد النعيم والعذاب واردة بكل شخص بمفرده ، في ذات الوقت الذي يختص فيه كل فريق بجانب من جوانبها !

( ١ ) انظر بالتفصيل - في شت - كتاب « التصوير المعنى في القرآن » و « مشاهد القيامة في القرآن » لسيد قطب

( ٢ ) سورة المدثر : ٣١

إن القرآن يربى النفس البشرية من جميع جوانبها ، ويعد إليها من جميع مآفدها  
والخوف والرجاء هما أعمق خطوط النفس البشرية وأعظمها أثراً في حياتها  
فكل نفس بشرية تولد في أعماقها هذين الخطان المطريان - خط يتمل بالخوف ،  
وخط يتحرك بالرجاء - وهما متجاوران ومتقابلان في بنية النفس ، يتحركان - في الغالب -  
معاً ، ويؤثران معاً في تحديد مسار الحياة ؛ فعلى قدر ما يحاف الإنسان ويرجو ، ويسوع ما  
يحاف ويرجو ، تتحدد قيمه وسلوكه ومسار حياته كله <sup>(١)</sup>  
والفرق - في مساره لشمل المتكامل ، المتوازن في ذات الوقت <sup>(٢)</sup> - يوقع على الخطين  
معاً خط لرجاء وخط لخوف ، بما سببه أحياً - لترعب والترهب - فأحد كل خط  
حظه من التوقع ، ويعمل الخطان معاً فيؤثران في أعماق النفس  
فالشخص - المؤمن - تعرض عليه مشاهد النعيم والعذاب معاً على سبيل الترعب  
والترهب ، يتطلع إلى نعيم الجنة فيسمى إليها سعيها ، ويرجع من صور العذاب عند أن  
يضع فيها ، فيستعد جهده من كل عمل يعرضه لتوقع فيها  
وهكذا ينسقى الخطان في السسخ الواحد ، كل يؤدي مهمة خاصة ، ثم يجتمعان في صورة  
وحددة فلا تكاد تحس أنهما خطان مختلفان ، . وذلك من الإعجاز .



الأمر الثاني الذي يلتفت النظر في مشاهد القيامه في عمومها ، سواء المكى منها والمدنى ،  
أنها تعرض ألواناً من النعيم والعذاب تشمل حسنيات والمعصيات  
في الحسنة والمعصية كلاهما خط من الخطوط المتقابلة في النفس البشرية والقرآن الذي  
يوقع على كل خطوط النفس ويعد إليها من جميع مآفدها ، يستخدم الحسني والمعصية معاً في  
الترعب والترهب

فالعذاب دارة حمي بحث

« إن الدين قسوا مؤمبين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب  
الحريق <sup>(٣)</sup> »

« أدلك خير دلاً أم شجرة الرقوم ؟ إنما جعلها عنة للظالمين ، بها شجرة تخرج في أصل

(١) انظر فصل « خطوط مقابلة في النفس البشرية » من كتاب « مسيح التربية الإسلامية » الجزء الأول

(٢) انظر فصل « خصائص المسحج » في الكتاب السابق .

(٣) سورة البقرة : ١٠



الحجيم . طبعها كأنه دءوس الشياطين . فربهم لا يأكلون منها فيما ثوب منها ليطون . ثم إن لهم عبيها لشويها من حمم . ثم إن مرجعهم لآلى الحجيم» (١).

« إن الذين كفروا بآياتنا سوف يصلبهم بارأ كذا بضجت جلودهم بدللهم جلودا عورها لينذوقوا العذاب . إن الله كان عزيزا حكيما» (٢).

وتارة هو عذاب معوى بحت :

« . . . وللعذاب الآخرة أحرى وهم لا يتصرون» (٣)

« ويوم بعض لظلم على يديه يقون يا ليس اتحدت مع انوسون مسيلا . يا ، يفتنا لمتى لم أتحد فلاننا حليلا . لقد أصلى عن الذكر بعد إد جمانى . وكان الشيطان للإنسان حذولا» (٤).

« يوم يمر المرء من أخيه . وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغمره» (٥).

وتارة هو حسي ومعوى في ذات لوقت ، وهو الأغلب في مشهد العذاب

« والذين كسروا السبث جراه سيئة بمثها وترهمهم ذلة . ما لهم من الله من عاصم

كأنهم أعشى وجوههم قطع من الليل مظلمة . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» (٦).

« من كذبوا بالعمة ، واعتدوا لمن كذب بالساعة سعير . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تفعف ورمز . وإذا ألقيوا منها مكنأ صيقا مقرين دعوا هنالك ثبورا . لا تدعوا اليوم ثورا وحدا ، رادعوا ثورا كثيرا» (٧).

« وبررت الحجيم للعاوين . وقيل لهم . أين ما كنتم تعدون من دون الله ؟ هل يصرونكم ؟ أو يتصرون ؟ فكذبوا فيها هم والعاوين ، وجحد إبليس أجمعون . قالوا وهم فيها مختصمون . نال الله إن كنا لعمى ضلال مبين ، إد بسويكم رب العالين . وما أصبنا إلا لحرمون ! هي لنا من شفعين ، ولا صديق حميم . ولو أن لنا كرة فكنون من مؤمين» (٨).

« وقال الذين في النار لخرقة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب ! قالوا . أر سم تك تأتكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا . نى ! قالوا . فادعوا الكافرين إلا في ضلال» (٩).

\* هذان شخصان اختصموا في رهم . فالذين كفروا قطعت هم ثياب من نار يصب من

(١) سورة الصافات ٦٢-٦٨ (٢) سورة النساء ٥٦ (٣) سورة فصلت ١٦

(٤) سورة الفرقان ٢٧-٢٩ . (٥) سورة عبس ٣٤-٣٧ . (٦) سورة يونس : ٢٧

(٧) الفرقان ١١-١٤ (٨) سورة الشعراء ٩١-١٠٢ (٩) سورة غافر . ٤٩-٥٠

فوق رؤوسهم ، خميم ، يصهر به ما في بطونهم والخلود ، وهم مقدم من حديد ، كلما أردو  
أن يخرجوا منها من عم أعيدوا فيها ، ودفعوا عذاب الحريق <sup>(١)</sup> »

والعيم كذلك . نارة حتى بحث ( أو حتى عالت )

« وأصحاب اليمين ، ما أصحاب اليمين ؟ في سدر محضود ، وطلح مصبود ، وظل  
ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وفرش مرفوعة إنا أنشأهم  
إنشاء ، فجعلناهم أنكاراً ، عرباً أنزلاً لأصحاب اليمين <sup>(٢)</sup> »

« فوفاهم الله شر ذلك اليوم ولقد هم بصره وسروراً ، وجراهم بما صدرو جنة وحريراً ،  
متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا مهجيراً ، ودانية عليهم ظلالها ، ودلت  
قصورها تدبلاً ، وبطاف عسهم نانة من قصة وأكواب كانت قواريراً ، قوارير من قصة  
قنورها تقديراً ، ويسقون فيها كأساً كان مرحها رجلاً ، عينا فيها تسمى سلسلاً  
ويطوف عسهم ولد من مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ، وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً  
وملك كبراً ، عالهم ثاب سدس حصر واسترق ، وحلوا أساور من قصة وسقاهم رهم  
شراباً ظهوراً إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً <sup>(٣)</sup> »

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، إن لا يضرهم عمل أولئك هم  
حات عدل تجري من تحتهم الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب وبنسبون ثياباً حصرأ  
من سدس واسترق ، متكئين فيها على الأرائك ، نعم الثواب وحسنت مرقعاً <sup>(٤)</sup> »  
ونارة معوى بحث

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيحبل هم الرحمن ودا <sup>(٥)</sup> »

« وسيق الذين تقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم  
حربتها سلام عليكم أطمع ما دخلوها خالدين وقائق الحمد لله الذي صدق وعده  
وأورثنا الأرض بشبوا من الجنة حيث شاء معهم أحر لعالمين وترى الملائكة حافين من  
حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وقصص بينهم بحق ، وقبل الحمد لله رب العالمين <sup>(٦)</sup> »

« رب الذين سقتهم من الحسنى أولئك عنها معدون لا يسمعون حسيسها ، وهم في  
ما اشتبهت أنفسهم خالدون لا يحرمهم الثمر الأكر ، وتلفهم الملائكة هدا يومكم  
الذي كنتم تؤفدون <sup>(٧)</sup> »

(١) سورة الحج ١٩-٢٢ (٢) سورة الواقعة ٢٦-٣٨ (٣) سورة الإنسان ١١-٢٢

(٤) سورة الكهف ٣٠-٣١ (٥) سورة مريم ٩٦ (٦) سورة البرحر ٧٣-٧٥

(٧) سورة الأنعام ١١١-١١٣

وتدرة حسى ومعوى في ذات الرقة ، وهو الأعلب في مشاهد العيم

« إن المتقين في جنات ونعيم ، فاكهين بما آتاهم ربهم ، ورفاههم ربهم عذاب الحميم  
كلوا واشربوا هنيئاً بما كسب يعملون ، متكئين على سرر مصفوفة وروجانهم يحور عين  
والذين آمنوا واتبعوهم دبرهم بإيمان أحقبا بهم در ربهم وما آتاهم من عملهم من شيء  
كل امرئ بما كسب رهين وأمددناهم بها كفه وخم بما يشتهون ، يتسارعون فيها كأنك لالعو  
فيها ولا تأثم ، ويطوف عليهم علما هم كأنهم يؤلؤ مكنون وأقن بعضهم على بعض  
يساءلون قنوا إنا كنا فس في أهل متعصب ، فمن الله عيبا وهابا عذاب لسموم إنا  
كنا من قبل ندعوه . إنه هو أبر الرحيم »<sup>(١)</sup>

« حب عدل يدخلون ، يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ، ولبسهم فيها حرير  
وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا حزن ، إن ربنا يعفور شكور ، الذي أحل دار المقامة  
من فضله ، لا يمسا فيها نصيب ولا يمسا فيها لعوب »<sup>(٢)</sup>

\* \* \*

ولمذ كان فريق من المتقين ! لا يعجبه أن ترد مث هذه العذاب في القرآن ! لأن هذه  
عسرة لا يصنها « الصبر الإنساني » الراعي ! وقرين آخر لا يعجبه أن يرد ذكر العيم حسى  
والعذاب حسى لأن هذا يمس الإنسان لذاتي أما « الإنسان الراقى » فمأساة العيم  
النفسى والعذاب النفسى ! وتكفيه الإشارة !

« إن الذين يجدلون في آيات الله غير سلطان أناهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم  
بالعيا فاستعد بالله . إنه هو السميع العليم »<sup>(٣)</sup>

ولا سأل أولئك « المتقين » أين هو الصبر الإنساني الراقى في تلك الأرض التي سعت  
عها السماء وتسمح لأعراص وتسرق لأموال ويعتصب كرامة « الإنسان » في كل مكان ،  
ويأكل القوي الضعيف كوحوش العاب ، يعير « مظاه » الوحش ، الذي يقبل - حائقا -  
لأكل ، وهذا « الإنسان الراقى » يعتل وهو شعبان !

لا يسأهم عن ذلك لأن المرآة بيننا حقيقة أمرهم « إن في صدورهم إلا كبر ما هم  
بالعيا »

ويقول فقط إن هذا المرآة لشرية كافة ، على اختلاف مستوياتها النفسية والروحية  
ولاجتماعية والمحاصرة وأن كل مستوى من الشر يجد فيه حاجته ، ويجد انعكاس نفسه

(١) سورة الطور . ١٧-٢٨ (٢) سورة صاطر . ٣٢-٣٥ (٣) سورة غافر . ٥٦

فيه كما يطر في المرأة . ويتعامل معه هلنر م بفتح قلبه وبصيرته إليه

ثم نقول إنه لا يوجد الإنسان الواحد في الشريعة كلها اندي يعيش بمعصيته وحده دون حساته . وإنه إذا كان الإنسان - في أرقى حالاته - يستطيع أن يعرف في عدم الروح لحظة ، ويهوم في علم لمعويات لحظت ، فإن هذا لا يمكن أن يسه حسده وحواصه ، وإلا فقد شربته وأصبح شيئاً آخر غير « الإنسان » إنما « الإنسان » هو ذلك المزيج الذي من الحسد والروح ، من الخسبي والمعصوي . . لا يفصلان

والقرآن - بواقعية منهجة في معاشه نفس الإنسانية - يأخذ الإنسان كما هو ، ويحاطه بالطريقة التي يعلم الله سبحانه أنها هي التي تؤثر فيه ، وتصل إلى أعماق قلبه وتبره فستحب . ومن هنا يحدنه عن النعم الخسبي والعذاب الخسبي مرة ، وعن النعم النفساني ولعذاب النفس مرة . . ويرأوح بينهما مررت أ

والله هو لعلم مواطن النعوس . . . فيها نعوس أو شك « المثقفين » الذين يرعمون النروع عن لئاع الخسبي وهو يظف ، ثم يعرفون في امتاع الدنس إلى الأذقان أ

\* \* \*

والأمر الذي يلفت نظرياً أحياناً في حديث القرآن عن الآخرة ، أنه - بطريقة التعبير - لعجزة - يحي مشاهد القيامة حتى لكأن الإنسان يره معروضة أمامه اللحظة ، ويهمل بها كأنه يراها في عالم العيان بالفعل ، وليست أموراً يتصور حدوثها في المستقبل بل يصل الإعجاز لبيان في التعبير القرآني إلى حد أن تصبح الآخرة - التي لم تأت بعد - كأنها الحاضر الذي يعيشه الإنسان ، ويصبح الحاضر الذي يعيشه بالفعل كأنه ماضٍ سحيق تفصه عن إنسان آماد وأبعاد

« إن كما من قل تدعوه إنه هو البر الرحيم »<sup>(١)</sup>

« إنهم كانوا قبل ذلك مهينين وكانوا يصرون على الحث العظيم وكانوا يقولون أإد مئنا وكنا برائاً وعظماً أئنا لمبعوثون ؟ أو آتوا الأولون ؟ »<sup>(٢)</sup>

والذين كانوا من قل يدعون الله والذين كانوا قبل ذلك مهينين هم هم لأحياء الذين يحاطهم القرآن في وقت تنزله عليهم . ولكن السياق القرآني يسحب شريط الزمن كله ، حتى ليصبح حاضراً الذي يعيشونه بالفعل هو لماضي السحيق الذي يتذكرونه اليوم مجرد تذكر . ويصبح المستقبل بعيد المنال بأمتر لعب هو الحاضر المشهود الذي يرونه

(٢) سورة الواقعة ٤٥-٤٨

(١) سورة الطور ٢٨

بأعينهم . . . وذلك هو ذات المقصود من التعبير القرآني . فالهدف المطلوب هو أن يشترَّ  
 للناس وهم يقرأون القرآن مصيرهم يوم القيامة محسماً واضحاً بحيث يستطيعون من هذا  
 المصير . فيؤثر ذلك بالتأني في سلوكهم حاصر ، يؤمنون ويعملون الصالحات لينعموا بهذا  
 المعصم الذي يرويه محسماً أمامهم ، ويتركوا ما يجزع عليهم العذاب الذي يشاهدونه محسماً  
 كذلك . ولإعجاز البيان يصر إلى هذا التأثير بكتابات قسده ، تحسن من انبص والإيقاع  
 والصورة الحية الشاحصة ما يطوى الرمن كله في لحظات . أو في كلمات !  
 هذا التصوير يمدح لمشاهد القيامة ، هو الذي جعل الحل الأول من المسلمين يعيش  
 بوجدانه في الآخرة وهو يحطو بجسده على الأرض . وأوجد في نفوسهم تلك الحساسية الهائلة  
 في كل تصرف بتصرفونه ، حسنة أن يحرمهم من النعيم ويؤدي بهم إلى النار  
 وهو الذي جعلهم كذلك يعيشون بوجدانهم في الآخرة فيستظنون خطواتهم على الأرض ،  
 شوقاً للقاء الحنة ، ولقاء الله . . . حتى ليقول أحدهم في ساحة القتال ألسن بيبي وبين  
 الحنة إلا أن أقتل هذا الرجل أو نفسي ؟ ! ويدفع إلى القتال كأنه داهب إلى عرس . ويأخذ  
 أحر تمزات بتقوتها وهو مقدم على المعركة ، ثم يحركة الشوق للقاء الحنة ولقاء الله هللى  
 النمرات من يده ويمول . لن يقيت حتى أكلها . هذا الأمر يطول !  
 وكذلك يفعل الإيوان بيوم . لأحر حين يستقر في النفس ويرسح ، فيعيش الإنسان  
 بوجدانه في الآخرة ، بينما هو بكل طاقته يعمل في الأرض !

## الايمان بالملائكة والكتاب والنبين .. والقدر خيره وشكره

لا تكتمل عميدة ائسم حتى يؤمن بوجود ملائكة [ والحق كذلك ] ويؤمن بالقرآن  
والكتب المنزلة من قبله ، ويؤمن بالوحي والسورة ، ويؤمن كذلك بالقدر خيره وسره ، أنه من  
عبد الله ، وأنه لا يتصرف فيه سوى الله . .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن من آمن بالله واليوم الآخر  
والملائكة والكتاب والنبين . . » (١)

« وإذا صرفنا إليك نفراً من آلهم يستمعون القرآن فما حصرناه قالوا أنصتوا ، فلما قضى  
ولوا إلى قومهم منذرين » (٢)

« قل أرحمى إلي أن أسمع بهر من الحق فقالوا إن سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشـد  
فآت به ، ولن نشرك بربنا أحدا » (٣)

« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بحير فهو على كل شيء  
قدير » (٤)

« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بحير فلا راد لمضده ،  
يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم » (٥)

وملك كلها من « لا يبين بالغيـب » الذى وصف الله به عباده المؤمنين

« ألم ذلك لكتب لا ريب فيه ، هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب . » (٦)



تتحدث السور المكية عن هذه الموضوعات كلها كجزء مهم من عقيدة بعد الإيـان بالله  
والإيمان باليوم الآخر ، المدين يستعرفان - من حيث حجم - أكبر مساحتين في السور المكية  
بهذا الترتيب : الإيمان بالله أولاً ، ثم الإيمان باليوم الآخر .

(١) سورة البقرة ١٧٧ . (٢) سورة الأحقاف : ٢٩ (٣) سورة الحى ١ - ٢

(٤) سورة الأنعام ١٧ . (٥) سورة يونس : ١٠٧ (٦) سورة البقرة ١ - ٣

وإذا كانت هناك ولائحة ملائكة معية في الفترة المكية استدعت الحديث عن هذه الموضوعات

لقد كان العرب يؤمنون بالملائكة ولكن على أنها سائر الله ثم يعبدونها على هذا الأساس !  
علم تصحيح هذا الاعتقاد الفاسد :

« وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ! أشهدو خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ! أم هم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون »<sup>(١)</sup>

« فاستخفهم . ألربك السات ولم لترون ؟ أم حقيقاً الملائكة إناثٌ وهم شاهدون ؟ ألا إهم من إفكهم يقولون ولد الله ! وإهم لكادون أصطفي السات على السب ؟ ما لكم ! كف تحكمون ! أفلا تذكرون ! »<sup>(٢)</sup>

كذلك كانوا يجعلون به سبحانه وتعالى وبي الحسب سناً ، ثم يعبدونهم به على ذلك !  
علم كذلك تصحيح هذا الاعتقاد :

« وجعلوه سواي سباً ! ولقد علمت بحجة إنيهم لمحضرون . سبحان الله عما يصفون »<sup>(٣)</sup>

« وجعلوا لله شركاء ، جن ، وخلقهم ! وحرقوا له بين وبيات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون بديع السماوات والأرض ، أتى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم »<sup>(٤)</sup>

ثم كانوا لا يؤمنون بالقرآن ولا بالكتب المنزلة من قبله  
« وقال الذين كفروا لئس يؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه »<sup>(٥)</sup>  
وكانوا يكرهون الوحي أصلاً .

« وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على شيء من شيء »<sup>(٦)</sup>

كما كانوا بطبيعة الحال يكرهون نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ونبوة موسى وعيسى عليهما السلام إذ لم يتبعوهما وإن كانوا يستخدمون اسميهما في الحدل فقط مع الرسول - صلى الله عليه وسلم -

« فلما جاءهم الحق من عند ربهم قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ! أو لم يكرهوا بي أوتى

(١) سورة الزخرف ١٩ ، ٢٠ (٢) سورة الصافات ١٤٩ - ١٥٥ (٣) سورة الصافات ١٥٨ - ١٥٩  
(٤) سورة الأنعام ١٠٠ - ١٠١ (٥) سورة سبا : ٣١ (٦) سورة الأنعام : ٩١

موسى من قس<sup>١٩</sup> قالو : سحران مظاهرا ! وقالوا : إنا نكل كاهرون<sup>٢١</sup> .  
 « وما صرب ابن مريم مثلاً إذ قومك منه يتصدون . ودلوا : أأطعنا حير أم هو ؟ ما  
 ضربوه لك إلا جدلاً ! بل هم قوم خصمون<sup>٢٢</sup> »  
 أم لقد رجع إليهم لظري بأنه من عند الله ، فقد كانوا يرون أن آهتهم - أو كهسهم -  
 قادرون على رد هذا لقلبر وتغييره والتصرف فيه كيف يشاءون . .  
 وهذه الانحرافات الاعتقادية كلها كانت في حاجة إلى تصويب . فصلاً على كوكب في  
 الخيفة متصلة كلها بأصل العقيدة في الله ، وبانتصوير لصحيح الله



لا يستقيم انصوير الصحيح لله سبحانه إذا لم يسه عن كل بون من ألوان الشرك على  
 الإطلاق . سواء الشرك في الاعتقاد أو الشرك في الانبعاث ، وهم متصلان في الحقيقة  
 وكل تصور بان لله بين أو بواب ، أو شركاء من أى نوع يشركونه - سبحانه - في تدبير  
 الأمر وتصريفه ، هو - بالإضافة إلى مخالفته للحقيقة الربانية - فساد في العقيدة لا تستقيم به  
 حياة البشر على الأرض . ومن ثم فهو يحطن حطبتين ، أو حطبة دلت شقين : حطبه في  
 حق الله لواحد المنزه عن الشريك . وحطبه في حق الإنسان الذي يتصور ذلك التصور  
 بفساد ، فتضطرب حياته في الدنيا ، وهو في الآخرة من الخاسرين . الحسر الذي ولآخره  
 ذلك هو الخسران المبين<sup>٢٣</sup> »

وفي سبيل تصحيح الاعتقاد ، بما يسعى الله سبحانه ونعملي من الإبرار الكامل بالألوهية  
 والربوبية ، والتبرية الكامل عن الشريك تحدث القرآن في السور المكية في كثير من المواضع  
 عن الأولاد والبنات مسويين لله سبحانه من جن وملائكة ، كما تحدث عن الآلهة  
 المزعومة الأخرى التي يعبدونها أصحاحها لتقرهم - في وهمهم - إلى الله رلمي  
 « بارك لذي بول العرقاب على عنده تكون للمعشرين سيرا ، الذي له ملك السماوات  
 ولأرض وم يتحد ويدوم يكن به شريك في الملك وحدث كل شيء - عقده تقديرًا - و تعبدوا من  
 دونه آفاه لا يخلقون شيئاً وهم يُخضعون ، ولا يملكون أنفسهم صراً ولا معلن ، ولا يملكون  
 موتاً ولا حياة ولا شوراً<sup>٢٤</sup> »

(٢) سورة الرحرف ٥٧-٥٨

(١) سورة القصص ٤٨

(٤) سورة الفرقان : ١-٣

(٣) سورة الملح ١١ .



« ويوم يحشرهم وما يعملون من دون الله يقول أأنتم أصللتم عبادي هؤلاء ؟ أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا سبحانك ، كان ينبغي لنا أن نتحد من دوتك من أولياء ، ونكر متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بور فقد كذبوكم بما تقولون ، فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً . ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً » (١) .

« ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة . أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا . سبحانك أنت وليب من دوزهم بل كانوا يعبدون الحق أكثرهم هم مؤمنون فالיום لا يملك بعبضكم لبعض دفعاً ولا ضرراً . ويقول للذين ظلموا دوفوا عذاب النار اننى كشم بها تكذيبكم » (٢) .

« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً - سبحانه - بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشعرون إلا لمن ارتضى ، وهم من حشيتة مشفقون ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين » (٣) .

« ألا لله الدين الخالص وابدن اتحدوا من دونه أولياء ما بعدهم إلا ليقرّبوا إلى الله رضى ! إن الله يحكم بينهم فيهم فيه يحتلّون إن الله لا يهدى من هو كدوب كمار » (٤) .

وكان هذا كله وارداً في سياق التعريف بالله سبحانه ، وبيان حقيقة الوحداية التي لا يدحل فيها شريك

وتحدث القرآن في السور المكية كذلك في كثير من المواضع عن القرآن والوحى والسوة إزاء تكذيب العرب لذلك كله ، واستكثارهم على بشر أن يوحى الله إليه ، ثم تسليمهم بحقيقة الوحى - وقومهم إذ القرآن كلام شاعر أو حى كاهن أو رثى من الحس !

وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراء ، وأعاده عليه قوم آخرون ! فقد جاءوا ظلمات وورداً وقاتوا أساطير الأولين كتبتها ، فهي غملى عليه نكرة وأصيلاً ! قل أنزل الله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، إنه كان عموراً رحيماً » (٥) .

« وقد علم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ! لسان الذى يسمعون إليه أصمى ، وهذا لسان عربى مبين » (٦) .

« وإله لتريل رب العالمين مرن به لروح لأمين ، على قدك ، لتكون من المدبرين ، بلسان عربى مبين وإله لعمى زمر الأولين أو لم يكن لهم إية أن يعلمه علماء بى إسرائيل ؟

(١) سورة الفرقان ١٧ - ١٩ . (٢) سورة مباء ٤٠ - ٤٢ (٣) سورة الأنبياء ٢٦ - ٢٩

(٤) سورة الرمر ٣ (٥) سورة الفرقان ٦ . ٤ (٦) سورة النحل : ١٠٣

ولو برئاه على بعض الأعمى ، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين كذلك سلكه في قلوب  
المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ، فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون <sup>(١)</sup> .

والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا  
وحي يوحى علمه شديد لقوى ، ذو مرة ما استوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ،  
فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، كذب الزناد ما رأى أهباروه  
على ما يرى <sup>١٩</sup> ولقد رآه بزفة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها حة المأوى ، إذ يعشى  
السدرة ما يعشى ما راع البصر وما طعى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى <sup>(٢)</sup> .

فلا أقسم بما تصرون ، وما لا تصرون ، إنه لقرآن رسول كريم ، وما هو بقول شاعر  
قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تدكرون . تنزيه من رب العالدين ولو تقوى  
عليه بعض الأنبياء ، لأحدنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الواس ، فما منكم من أحد عنه  
حاجزين <sup>(٣)</sup> .

ولما جاءهم الحق قلوباً ، هذا سحر ، وإن به كافرون ، وقالوا ' لو لا نزل هذا القرآن على  
رجل من لقين عظيم <sup>١٩</sup> أهم يسمعون ، ربه ربك <sup>١٩</sup> نحن قسمنا بينهم معيشتهم في  
الحياة الدنيا ورفعا بعضهم فوق بعض درجات ليتحد بعضهم بعضاً سخرياً ، ورفعة ربك  
خير مما يجمعون <sup>(٤)</sup> .

وإن يكذب الذين كفروا ويرلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ، ويقولون إنه لمجنون ! وما  
هو إلا ذكر للعالمين <sup>(٥)</sup> .

فلا أقسم بالبحر ، الخور الكس ، وليليل إذا عسعس ، وأصبح إذا تنصص ، به  
بقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطع ثم أمين ، وما صاحبكم  
بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم  
فأين تدعون <sup>١٩</sup> إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاهدون إلا أن  
يشاء الله رب العالمين <sup>(٦)</sup> .

\* \* \*

عن هذا لسق الذي ذكرنا بما ذبح منه يجري الحديث في أسرار المكية عن البين والبيات  
والشركاء ، وعن القرآن والوحي والنبوة وكلها كما ذكرنا متصلة بأصل العقيدة في الله

(١) سورة الشعراء ١٩٢-٢٠٢ (٢) سورة النجم ١-١٨ (٣) سورة الحاقة ٣٨-٤٧  
(٤) سورة الزحرف ٣٠-٣٢ (٥) سورة القم ٥١-٥٢ (٦) سورة النكوير ١٥-٢٩

وكدها يحيى في سياق التعريف بمعنى الحقيقي للإله إلا الله

إن الاعتقاد بوجود آلهة أخرى مع الله - صغيرة أو كبيرة - فو محالفة للحقيقة الربانية ، يحدث سلوك غير إيماني في واقع الأرض والسلوك دائمي مرتبط بالتصور وحين يتصور الإنسان أن هناك آلهة مع الله ، تشركه في أي صفة من صفاته ، وتشاركه في تدبير الأمر وتصريفه ، فيسكون لولاء مورعاً دون شك بين الله وبين هذه الآلهة المدعاة ، ولطاعة والاتباع مورعين كذلك بين الآلهة وبين الله .

بل حقيقة الأمر أنه على الرغم من لتسليم النظري لدى أولئك المشركين بأن الله هو «رب الأرباب» ، أو بدعة الوثنية اليونانية هو «كبير الآلهة» ، إلا أنه في السلوك الواقعي كان الولاء والطاعة هذه الآلهة أكثر من الولاء والطاعة لله ، هذا إن بقيت ثمة طاعة لله من أي نوع بعد هذا الشرك القائم في الاعتقاد والسلوك .

« وجعلوا لله مئ دراً من الحرث والأعنام نصيباً ، فقاتلوا . هذا الله برعهم ، وهذا لشركائهم ! في كان لشركائهم فلا يصل إلى الله أو ما كان لله فهو يصل إلى شركائهم !! ساء ما يحكمون » (١)

وبصرف النظر عن تعديلهم هم لهذا لسلوك بأن الله أعنى من شركاء فلا بأس من تحويل نصيبه إليهم !! فإنه من الواضح أن الولاء الحقيقي - والخوف الحقيقي كذلك - موجه لأوثق الشركاء أكثر مما هو موجه إلى الله . وحدث ما يحدث دائماً في قلب المشرك ، حتى ولو أقر بسببه أن الله هو رب الأرباب ! فليس الدهر هو الذي يقرر لفصية بقدر ما يفرضه الوجدان ! وبناء على هذا لتصور المخرف ، وما يصاحبه من توزيع الولاء - بسبب شئ - بين الله والآلهة ، فإن الشر يحرمون ويخلون ، ويستقبلون ويستحسنون ، ويمسحون ويبسحون به يمليه عليهم هوى أنفسهم أو هوى السادة المتحكمين فيهم . في يخالف ما قرره الله من حلال وحرام ، وحسن وقبيح ، ومباح وممنوع . ومن ثم يتحول التصور إلى سلوك ، وتؤدي انحصار المحرمات - دائماً - إلى الحكم بغير ما أنزل الله ، واتباع غير منهج الله

وإذا كانت لفصية الأولى في القرآن كده هي بيان العميدة الصحيحة ، أي بيان المعنى الحقيقي للإله إلا الله ، في لاعتقاد والاتباع ، أي في التصور وفي السلوك ، فقد كان أمراً طبعياً أن تعرض لسور المكية لما كان قائماً من انحراعات التصور في الوثنية العربية الجاهلية ، وما يشتمها كذلك من انحراعات في السلوك

(١) سورة أنعام ١٣٦ .

أما قصة الوحى والقرآن والسورة فهي من جهة متصلة بالتصور لصحيح خففة الألوهة فإنه لا يكون إسان قد تصور الله على حقيقته إن تصور أنه - سبحانه - لا يستطيع أن يرسل الوحى على من يشاء من عباده ، ولا أن يبعث رسولا ، ولا أن يرسل عليه كتابا من عبده ولكنها قد تكون أكثر انصافا بالحساب السلوكى أو الاتباعى من قصة لا إله إلا الله ذلك أن الإيثار الحق بلا إله ، لا الله معناه طاعة الله ، واتبع أوامره وبواهبه ، وتحكيم شريعته فيها يحرم وما يحل وموسيلة ذلك كله هي الرسول الذى يبعثه الله بيين للناس ما عرض الله عنهم من تكاليف ، وما أمرهم به من عبادات <sup>(١)</sup> فلا يستقيم الحساب السلوكى من الإيثار بلا إله إلا الله ، ولا بالإيثار بالوحى والسورة والكتاب المنزّل ولذلك كاتب شهادة المسلم « أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله » ويعبر ذلك لا يستقيم الإيثار فى التصور ولا فى السلوك



ذلك ما كان من شأن ما يتربى من القرآن فى مكة فى هذه انقصاء مع لعرب المشركين ولكم يرى أن هذه الأمور حرة من لعقيدة دعتها بصرف النظر عن أولئك العرب المشركين ! فإنه يفتان بمؤمنين فى المدينة ، بعد أن زال عنهم التصور المنحرف ودخلوا فى التصور الصحيح والسلوك الصحيح :

« ليس الله أن توبوا وجوهكم قبل مشرق ومن غرب ، ويكن الهم من الله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبين » <sup>(٢)</sup>

إذن فالإيمان بالملائكة والكتاب والنبين (والقدر خيره وشره) . . تذكر لدعاتها ، لأهل حرة من العقيدة ، كالأيمان بالله واليوم الآخر سواء . . فأى دور تؤديه هذه لأشياء فى عقيدة المسلم ؟

فأما الإيثار بسورة الرسول - صلى الله عليه وسلم . ، والإيثار بالوحى المنزّل عليه ، والكتاب الذى نزل عليه من عند الله - سبحانه - كلها من ضرورات الإيثار : فغير الإيثار بالقرآن ، وأنه هو كلام الله الموحى إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - ، لن يكون هناك « سلوك إيمانى » محدد : لأن القرآن هو الذى يحدد معالم ذلك [ والله مكنه ]

(١) « وأنزلنا إليك الذكر بين النام ما نرى بهم ونعلمهم يتعكرون » الحسن ٤٤

(٢) سورة البقرة ١٧٧

وشرحه [ والإيمان - كما علم - ليس مشاعراً فقط - ولو كانت مشاعر توحيد حائض - وإنما هي إلى جانب المشاعر ، سلوك واقعي واتباع عملي صريح محدد منزل من عند الله  
وأما الإيمان بالرسالات السانقة والكتب المنزلة من قبل القراء ، فقد ورد ذكره أكثر من مرة بوصفه شرطاً ضرورياً من شروط الإيمان :

« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله وانكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ صلالاً بعيداً »<sup>(١)</sup>  
« قوبوا أمّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأيصاف وما أنزل موسى وعيسى وما أنزل النبيين من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد هدوا وإن تولّوا فإنما هم في شقاق »<sup>(٢)</sup>  
« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا ، عمرانك ربنا وإليك المصير »<sup>(٣)</sup>  
« قل يا أهل الكتاب هل تفهمون ما نزل أن أمّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل أن أكثركم فاسقون ؟ »<sup>(٤)</sup>

#### ثم جاء في حق أهل الكتاب

« إن الذين يكفرون بالله ورسوله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتحدوا بين ذلك شيئاً ، أولئك هم الكافرون حقاً ، وأعدنا للكافرين عذاباً مهيباً »<sup>(٥)</sup>  
والذين آمنوا بالله ورسوله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم ، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله عفوياً رحيماً »<sup>(٦)</sup>

إنه لابد للمؤمن إيماناً بدخول في « الأمة المؤمنة » من لدن آدم إلى نوح إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - ويحس أنه واحد من هذه الأمة المتجسدة على مدى التاريخ وإن خلت الواحها وألستها وأمكنها وأزمستها ولا بد له كذلك أن يؤمن بوحدة الطريق الذي سلكته هذه الأمة في أطوارها المتوالية وأجبالها المتعاقبة إنه طريق واحد طريق الله وأن الرسل حين أرسلوا من عند الله ، رنحو ما أوحى إليهم من عند الله إنه واحد ، رعية واحدة ، وطريق واحد ، وإن احتضرت الرسل كل نسل نومه وكل في مكان بعبه

(٣) سورة البقرة ٢٨٥

(٢) سورة البقرة ١٣٦ - ١٣٧

(١) سورة النساء : ١٣٦

(٥) سورة النساء ١٥١ - ١٥٢

(٤) سورة البقرة ٥٩

ولكن وجهتهم جميعاً واحدة ، كلهم يلتقون في الله ، وأمامهم كلها تلتقى كدلك في الله  
من تمام إيمان إدر أن يشعر المؤمن بسك الأخوة مع المؤمنين السابقين ، وبذلك الوحدة  
على طريق الإيمان . . المؤدى إلى الله .

ولكن هذه الأمة الخاتمة بصفه خاصة يلزمها ذلك الإيمان برسالات السيفه والرسول  
السابقين !

إياها لأمة الخاتمة والأمة المهيمه . كما أن كتابها هو الكتاب الأخير والكتب المهيمه .  
« وأرسل إليك الكتاب باحق مصداق ما بين يديه من الكتب ومهيماً عليه »<sup>(١)</sup>

ومن وجب الأمة الخاتمة والمهيمه ألا يكون في صدرها خرج من الكتب السابقة ولا من  
الأقوام المؤمنين بتلك الكتب ، الذين علم الله أنهم سيدخلون في ولاية هذه الأمة  
وسلطها . لأن دور المهيمه وقيادة لدى حلق له هذه الأمة . وكذلك جعلناكم أمة  
وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون لرسول عليكم شهيداً »<sup>(٢)</sup> ذلك الدور استدعى أن  
تصح صدرها بالأمر السابقة كلها ، انى استدحل تحت سلطانها ، فتعاملها بالتسامح  
اللائق بالأمة الرائدة انقائده . وبالتسامح الذى يربعها في حكم الإسلام . إن لم يربعها -  
كذلك في عقيدة الإسلام !

ولقد كان كذلك بالفعل تاريخ هذه الأمة مع من دخل في دمنها من اليهود والنصارى ،  
يدفعوا من التسامح الذى لم يلقوه قط في التاريخ ، وما لم يلقه بعضهم من بعض في كل  
التاريخ !

وتلك مريه حيا الله بها تلك الأمة الخاتمة ، وكذا طريقها هو ذلك الإيمان برسالات  
السيفه والرسول السابقه ، فتعاملت مع أتاعهم بذلك لتسامح الكريم برعم علمها بما  
حرفوا في دينهم وكتبهم . ولكن تنفيذاً لأمر الله التى ميرت « أهل الكتاب » بمعاملة  
خاصة وهم في دمة المسلمين

ولقد كان مكان ذلك الحديث هو الكلام من سور المدية وعرض بمادح منها . وبك  
أثراً أن يستكمل الحديث من العقيدة هذا ، ثم شبر إليه بعد ذلك بمجرد إشارة حين يقتضى  
ليبقى

\* \* \*

( ٢ ) سورة البقرة ١٢٣

( ١ ) سورة احزاب ٤٨

أما الإنس والملائكة فهو يؤدي مهمة مردوخة أو حنة مهام في وقت واحد  
 فحين بل عليه السلام هو الذي نرى يابوحى عن سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم -  
 ومن ثم فالإيمان بحده بن وهو أحد الملائكة والشعور بحب وعبادة له ، جزء من الاعتقاد  
 اللازم للمؤمن ، كالأيمان بصدق القرآن سوء ، حتى لا يدخله شك في الطريق الذي وصل  
 به إلي القرآن

ثم إن الملائكة عامة ذات صداقة ومودة للمؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة  
 « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستعجلون للذين  
 آمنوا يسعون في السموات والارض ليكشفوا العيب ويثبتوا الحق ومن وجدوا سوءا  
 للحيمة رب وأدخلهم جنات عدن التي وعدهم ومن صلح من آياتهم وأزواجهم  
 ودرابهم ، إنك أنت العزيز الحكيم وفهم الستات ومن تق السيئات يومئذ فقد  
 رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم » (١)

« ان الذين قالوا ربنا الله ، ثم سفهوا ، فرب عليهم الملائكة ألا تحموا ولا تحموا ،  
 وأشروا بالحق التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكنكم فيها ما  
 تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلنا من عموم رحيم » (٢)  
 « أولئك هم عقى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آياتهم وأزواجهم  
 ودرابهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عندكم بما صبرتم ، معكم عقى  
 الدار » (٣)

ثم إن منهم الممثلة الذين يسجلون على الإنسان أعماله  
 « وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته  
 رسلنا ، وهم لا يخطئون » (٤)

« سوء من أسر القلوب ، ومن جهر به ، ومن هو مسحط ماندين وسارب بالبهار  
 له معصيات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ، من أمر الله . . » (٥)  
 « وإن عليكم حفظة ، كراما كاتبين ، يعلمون ما تعملون » (٦)  
 ومعرفة ذلك كله يؤسس على تلك المودة السورانية التي تحسها الملائكة مع حده كما

(١) سورة عاقر ٩-٧ (٢) سورة فصلت ٣٠-٣٢ (٣) سورة الرعد ٢٢-٢٤  
 (٤) سورة الأنعام ٦٦ (٥) سورة الرعد ١٠-١١ (٦) سورة الأنعام ١٠-١٢

أنه يحاول أن يلنرم بالنسوك ادى يفرضه عليه لإيمان ، حتى لا يسجل الخبطة عليه إلا كل طيب من الأفكار والمشاعر والسلوك . .

ومن هه هه الإيمان بالملائكة يؤدى « مهمة إيمانية » فى حياة المؤمن ، تتصل بالإيمان بالله ، فى الاعتقاد والنسوك سواء ، بالإضافة إلى تلك السعة النفسية التى يكتسبها الإنسان حين يتفصح أمم عالم الكائنات ، فلا يقتصر مهاب على ما تدركه حواسه فحسب وإنه على قدر سعة العالم الذى يرتاده الإنسان بحواطره تكون مسعة نفسه وقدرته على إشاعر العالية التى لا تنحصر فى حدود الأرض الضيقة ، ولا فى حدود دت الإنسان وإن تلك السعة ذاتها لم إردة الله للمؤمن الذى يحسن الأمانة ليحسن عملها ويكون أقدر على تصور أبعادها

وبالإضافة كذلك إلى الإحساس بمظمة الخائق الذى يخلق هذه الكائنات اعلوية الشقيقة

« حمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجحة منى وثلاث ورماع يريد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير »<sup>١)</sup>



وأما الإيمان بالقدر حيره وشره فهو كذلك يؤدى فى حيلة المؤمن عدة مهام فهو من ناحية يتصل بالإيمان بذات الله سبحانه ، وبأنه هو المذبر لكل أمر ، لتصرف به بلا شريك . أى أنه متصل بالخاص الاعتقادى من الإيمان ومن ناحية أخرى يتصل بسلوك المؤمن فى واقع الأرض إزاء الأحداث وهذا أمر ذو أهمية بالغة ، ويستحق منا وفهة لبيان حقيقته ، بعد أن شوها واقع المسلمين المنحرف من جهة ، وكلام أعداء الإسلام من جهة ثانية ، ثم من جهة ثالثة - كلام الجهار من المسلمين ، سواء كانوا من الجهال حقيقة ، أم من الذين يقولون كلام أعداء الإسلام ثم يصمون أنفسهم بأهم « متفقون » !

إن السلوك الإيمانى الصحيح هو « التسليم » لقدر الله

فى معنى التسليم ؟

هل هو - كما يقول أولئك الجهار - المعود عن العمل والقعود عن تعبير البوقع السئ لأنه

« قدر من عند الله » لا ينبغي مقاومته ؟

---

(١) سورة فاطر ١



ومن أين جاء أولئك اجهول بهذا المعنى العريب على الإسلام ؟  
وهل هذا المعنى كان عائناً عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو يتلقى الوحي من  
الله ، ويتعلم الإسلام الصحيح من عند الله ؟  
وهم إذن كان جهاده لتواضع لتعبير الواقع السيئ الذي كست عليه الحرية لعربية  
والأرض كلها وقتذاك ؟  
أم يكن ذلك لواقع السيئ قدرًا من عبد الله ؟ فكيف تجوز مقاومته إذن إذا كان معنى  
التسليم لعذر الله هو هذا المعنى المتكسر الذي لم تعرفه الأمة الإسلامية إلا في عصر انحدرها  
وبدهورها ؟

سيقول فائن مهم - إنه - صلى الله عليه وسلم - قاومه وسعى إلى تغييره بأمر من الله !  
ونقول : نعم ! وهذا الأمر من الله قائم من ذلك الحين ومستمر إلى أن يوم أساعه  
يطرأ عليه تعديل ولا تدين ؟ ولم يقل الله سبحانه ويعني إن هناك أمداً معيناً يطالب الناس  
فيه بالتغيير ، ثم يفض بعد ذلك الأمر ، ويجيء بدلاً منه « لتسيم » للواقع السيئ وانقعود  
عن تغييره !

لم يقل الله ذلك ، وإنما قال سبحانه  
« وقل اصملوا ، فسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنون » (١)  
وقال

« ولا سهوا ولا تعربوا وأنتم الأعنوا إن كنتم مؤمنين إن يحبسكم فرح فقد من الفوم  
فرح مثله وتلك الأيام يداوها بين الناس ، ولبعث الله الذين آمنوا ويتحد منكم شهداء  
والله لا يحب الظالمين » (٢).

والله هو الذي سدد بانكهار الذين يشركون ثم يقولون إن شركون بقدر من  
الله أو مستسلمون لشركا لعذر الله !

« سيهول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشرك ، ولا آبؤا ، ولا حرما من شيء ! كذلك  
كذب الذين من منهم حتى دافوا بأسا ! قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن  
تبعون إلا الظن وإن أنتم إلا لخرصون ! » (٣)

إن التسليم لعذر الله معنى آخر مختلف تمامًا فهجه الرسول - صلى الله عليه وسلم -

(٢) سورة آل عمران ١٣٩ - ١٤٠

(١) سورة التوبة ١٠٥

(٣) سورة الأنعام ١٤٨

وفهمه منه الصحابة رضوان الله عليهم ، فكانت منهم تلك الأمة الصاعدة التي وصفتها حلقها بقوله سبحانه « كنتم خير أمة أخرجت للناس »<sup>(١)</sup> ، التي صنعت بإيمانها بالله وقدر الله ذلك التاريخ القد في تاريخ البشرية كله

فهم منه الرسول صلى الله عليه وسلم أنه مجاهد ومجاهد ومجاهد ثم حين لا يؤمن كهار قريش بعد هذا الجهد كله ، وذلك نذر من الله لا حيلة له فيه ، ولا مسئولية عليه !  
« ولو شاء الله لجمعهم على هدى فلا تَكُوس من المجاهدين »<sup>(٢)</sup>

« إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين »<sup>(٣)</sup>  
ولقد كان صعباً على نفس الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يدعوهم فيعرضوا ، وهو الذي يحب لهم الخير ، وكان الأسى يملأ قلبه الكريم عليهم حتى ليؤاميه الله تعالى

« فلا تذهب نفسك عليهم حسرت إن الله عليم بما يصنعون »<sup>(٤)</sup>  
« لعنك باعع نفسك ألا يكونوا مؤمنين »<sup>(٥)</sup>

« وأصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ، ولا تك في ضيق مما يمكرون »<sup>(٦)</sup>  
« ولقد نعمناك بصيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »<sup>(٧)</sup>

ولكنه في النهاية يعلم أنه قدر من الله مستسلم لهذا القدر بمعنى ما ؟ بمعنى أن يكف عن الجهد والدعوة ؟ إن هذا لم يحدث قط ، ولذا ربح معروف ، وسيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - معروفة ، إنما بمعنى أن يحف الألم الذي يسببه له إعراض المعرضين ، فلا يعود ذلك الألم القاتل . « لعنك باعع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » ثم يمضي في طريقه لا يكف لحظة عن الجهاد

كذلك فهم منه لرسول - صلى الله عليه وسلم - أن مجاهد ومجاهد ومجاهد . ثم يتلقى الأذى من قريش وغيرهم من كهار العرب ، ويتلقى أتباعه مؤسسون به الشريد والتعذيب الذي يعرف انطاقة دون أن يستطيع تغيير الوضع ، ولا كف الأذى عن المؤمنين فيعلم أن هذا قدر من الله فيستسلم له بمعنى ماذا ؟ بمعنى أن يكف عن الجهاد والدعوة ، أو يكف أتباعه - معاد الله - عن الإيذاء ؟ كلا ! إنما بمعنى أن يرضى بنفوسهم وهم يتلقون

(١) سورة آل عمران : ١١٠ . (٢) سورة الأنعام - ٢٥ . (٣) سورة القصص - ٥٦ .  
(٤) سورة فاطر - ٨ . (٥) سورة الشعراء - ٣ . (٦) سورة النحل - ١٢٧ .  
(٧) سورة الحجر - ٩٧-٩٩ .

الأدى والتعذيب ، ويعلمون أن الله قادر على نصرهم إذا شاء ، ولكن قدره شاء الآن أن يتليهم فليصرو . ولا تتحطم أرواحهم تحت الضغط . ولا يتخفوا عن عقيدتهم ، ولا عن انصياعهم عليها ، حتى يعبر الله ما هم بعد حديد ، فيصبرهم على الكافرين . وكيف نَعَدُ القدر الحديد ؟

إنه قدر من عند الله نعم هو الذي نصرهم سدر وهم أدلة . . ولكن كيف كان نصرهم مع هذا القدر ؟

هل قعدوا في بيوتهم وقالوا : إذا كان الله قادر لما النصر فسينصروا . . ولا حاجة بنا إلى العمل والجهد والشفقة ؟

هل ذكر التاريخ شيئاً من ذلك في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ؟ أم ذكر التاريخ لهم الجهاد المتواصل لنصرة الحق ، وهم الذين رُعدوا وعدَّ صرخاً بالنصر ، فعلموا أن قدر الله لهم هو النصر ؟

« وأخرى محبوب : نصر من الله وفتح قريب » (١) .

« وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه . . » (٢) .

نظر هاتين الآيتين من سورة الأنفال :

« ولا يحسب الدين كفراً أسبقوا إهم لا يعجزوا وأعدوهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وأحرين من دولهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم . . » (٣)

إن الآية لأولى تقرير قدر الله في الأمر . إن الدين كفراً لم يسبقوا ولم يعجزوا الله . أي أنهم لم ينتصروا . والآية الثانية مباشرة تأمر المؤمنين بأن يعدوا للكفار ما استطاعوا من قوة لكي يتم هذا النصر المقرر في قدر الله . فعلى الرغم من أنه قدر مقدور ، فإنه لابد من هذا الجهد البشري لكي يتحقق وينفذ . « إن تنصروا الله ينصركم » (٤)

عن هذا النحو كان المسلمون ، وأولئك يفهمون عقيدة القضاء والقدر ويمارسونها . إنها السعى الدائم لتنفيذ أوامر الله . ثم التسليم بما يقع بالفعل على أنه قدر من الله ، لأنه لا

(١) سورة الصف : ١٣ .

(٢) سورة الأنفال : ٥٩ - ٦٠ .

(٣) سورة محمد : ٧ .

(٤) سورة الفتح : ٢٠ .

يتم في الكون كله إلا ما اراده الله وقدره ، وليس معنى التسليم الكف عن نصي في الطريق بل معناه أن الصدمات لا تحطم قلوب المؤمنين ، حين يصطدمون بقدر من عند الله لا يجب هم الخبر الذي يحوي ، إنما يجب هم - أن تديرهم - أشرف ( بمعنى الضرب ) وبن يقومون من صدمتهم بدات العزيمة فيمضون في الطريق ، في انتظر قدر حديد من عند الله كدلف فعلوا حين وقعت بهم هزيمة أحد - بقدر من الله - هم يستسلمون لهزيمة ، إنما استسلموا لقدر الله بالهزيمة . و فرق هائل بين الاثنين استسلموا لقدر الله بالهزيمة أى لم تحطمو إزاءها ثم لم يستسلموا للهزيمة لأنهم خرجوا للقتال بعدها مباشرة وهم مشحون بدخراح

« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم لقرح ، بلدين أحسوا منهم واتوا أجر عظيم » الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ! فإلههم إيماناً ، وقالوا حسنت الله وبعث الوكيل ، فانقلبو، بنعمه من الله وفصل لم يمسههم سوء ، واتبعوا رضوان الله . والله ذو فضل عظيم » (١) .

وهكذا يكون الاستسلام لقدر الله - في معاد الإسلامى الصحيح - حافزاً لمزيد من الجهد ، لأنه يصون الصاغة أن تحطم إزاء الأحداث ، ويصون النفوس أن تنكسر من الحزن والنعم فتتعد عن المسير :

« لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم » (٢) .

كذلك لم يهمل المسلمون أن الاستسلام لقدر الله معناه إعفاء أنفسهم من التبعة إذا كان قدر الله قد أصابهم سبب خطأ وقع منهم . إنما يستسلمون لقدر الله أى يرضون نصيباً بوقوعه مادام قد وقع بالفعل ، ثم يذكرون مسئوليتهم في وقوعه فلا يعودون لهذا الخطأ مرة أخرى ، ثم يحاولون أن يمحوا آثاره بجهد يبذلونه من عند أنفسهم ، ليستحقوا قدرًا جديدًا من عند الله ميعير الشر إلى خير .

« أو لما أصابتكم مصيبة ند أصبتم مثليها قلتم . أتى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير وما أصابكم يوم اتقى لجمعاء فيؤذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا . . . » (٣) .

( ١ ) سورة آل عمران ١٧٢ - ١٧٤ . ( ٢ ) سورة آل عمران ١٥٣ .

( ٣ ) سورة آل عمران ١٦٥ - ١٦٧ .

وهكذا ينتهي ن سبج الأحداث حطان متواريان ، بل ملتحيان ، دون تعارض في حسن  
المسلم بين هذا وذاك هو من صد أنفسكم وهو بإذن الله لحكمة يريد الله . كانت في  
هذا الحادث بالذات تمير المؤمنين من المدغمين ، وكشف أولئك الآخرين في خوفهم لعملهم ،  
ليعلم حقيقتهم من كان ينخدع فيهم من المؤمنين .

ويجري الأمور معاً بلا تعارض تنبئ للمؤمن حكمة الحدث وقد لا تنبئ له في  
لحظتها كما حدث في أحد ، وقد تمر أحوال حتى تنبئ الحكمة . ولكن يعرف المؤمن دائماً  
أن هناك حكمة وراء قدر الله ، فرضى به ويستسلم له ، بمعنى ألا يقصى حدث على  
روحه . ولا يحطم مشاعره ، ولا يبدد عريمته ، ولا يقعده عن المضي في لطريق ، ويعرف  
في ذات الوقت مسئولية هو الذاتية عن وقوع هذا القدر إن كان قد وقع بسبب خطأ منه أو  
تقصير ، فيسعى إلى إصلاح الخطأ ، ويبدل مريد من الجهد لعوض التقصير

ذلك هو المعنى الصحيح للإيمان بقدر الله ، حيره وشره ، وذلك هو أثره في المؤمن  
المؤمن به : دفعة هائلة للحركة والجهد في واقع الأرض ، وهي التي كنت ذلك التاريخ  
ابراحر لأمة الإسلام . .

فأما حين يدأب هذه الأمة تنحرف عن انتصوير الصحيح للإسلام ، وتنحرف كذلك عن  
السلوك الصحيح ، فقد وقع ذلك لانحراف في عصيدة القصاص والقدر . الذي يحسه  
الجهال هو الإسلام !!



ذلك هو جانب من العقيدة المختص بالإيمان بالغيب للإيمان بالله واليوم الآخر  
والملائكة والكتاب والنبين . . والقدر خيره وشره .

وفي جانب آخر تتحدث عنه السور المكية ، متصل بالعقيدة كذبت ومربط بها ، وإن  
كان يتعلق أكثر بالواقع المشهود لا بالغيب المحجوب ، إلا من حيث صله بداد الله  
سبحانه ذلك هو نصص الأباء ، وقصة آدم والشیطان ، والأخلاق الإيمانية بدلاً من  
الأخلاق الخاهلية

## قصص الأنبياء

يحتل قصص الأنبياء حاشاً غير قليل من السور المكية ويذكر بصيغة خاصة في مجموعة من السور يحمل بعضها اسم واحد من الأنبياء ، بالإضافة إلى سورة « الأنبياء » التي يشير اسمها إلى موضوعها . وتلك السور هي لأعراف ويونس وهود ويوسف وإبراهيم والكهف ومريم وطه والأنبياء والشعراء ولهم ولقصص والعنكبوت والصافات وص غير ، شارح عديدة جداً في كثير من السور المكية .

ويجيء القصص في القرآن لأهداف شتى . .

منها إثبات صدق الوحي لمول على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحى إليك هذا القرآن ، وإنا كنا من قبله لمخبرين » (١)

« تلك من أنباء أعجب بوحياها إليك ، ما كنا تعلمها أب ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين » (٢) .

« كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ، وقد آتيناك من لدنا ذكراً ، من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً » (٣) .

« وما كنا نجانب لغيري إدا قصينا إلى موسى الأمر ، وما كنا من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا ديوماً فتطاول عليهم العمر ، وما كنا شواي في أهل مدين تتلو عليهم آيات ، ولكنا كنا مرسلين ، وما كنا بجانب الطور إدا نادى ولكن رحمة من ربك لتسر قوماً ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » (٤) .

ومنها انتسرية عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يلقاه من قومه من تكذيب وأذى واتهام بالسحر والجنون ، فقد كُتِب الرسل من قبل ورجَّه هم نفس القول ، ثم صبروا حتى جاءهم نصر الله وإهلاك المكذبين :

(١) سورة يوسف ٣ (٢) سورة هود ٤٩  
(٣) سورة عبه ٩٩ - ١٠٠ (٤) سورة القصص : ٤٤ - ٤٦

« ولقد كذب رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا ، وأودوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا  
مبدل لكلمات الله . ولقد جاءك من نبأ المرسلين » (١) .

« تلك الأنبياء نكص عليك من أسائها ، ولقد جاءهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا  
بما كذبوا من قبل . كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد ،  
وإن وجدنا أكثرهم لفاشين » (٢) .

« وكلأ نكص عليك من أساء الرسل ما ثبت به فؤادك ، وحاءك في هذه الحق وموعظة  
وذكرى للمؤمنين » (٣) .

« حتى إذا ميسأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من شاء ولا يرد  
بأساعن القوم المجرمين » (٤) .

« وكذلك جعل لكل من عذَّبنا من المجرمين . وكفى بربك هدًى وبصيراً » (٥) .  
« وعصوا أو جاءهم من دبرهم وعد الكافرين هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة أهلاً  
واحداً ١١٩ إن هذا لشيء عجاب ! وانصت ابتلاً منهم أن امشوا واصبروا على آفتكم إن هذا  
شيء يراد ! ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ! إن هذا إلا اختلاق ! ١٢ أنزل عليه الذكر من  
بين ١١ مل هم في شك من ذكرى . بل يدبوقوا عذاب ! أم عددهم حرائر رجة ريت لعزير  
الوهاب ؟ أم هم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليترقا في الأسباب . حمد ما هالك  
مهزوم من الأحزاب . كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط  
وأصحاب الأيكة ، أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب . وما ينظر هؤلاء  
إلا حبيحة واحدة ما لها من فواق » (٦) .

« ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك . إن ربك ل ذو معرة ودو عقاب أليم » (٧) .  
« كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتوصوهم ١٩ من  
هم قوم طاعون » (٨) .

ومع التسريه عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - التسرية عن المؤمنين كذلك وهم يلقون  
العتب والتشريد والعداب بسبب إيمانهم ، فيعرض عليهم قصص الأمم السابقة يعلموا أن  
هناك مؤمنين قبلهم أديقوا ألوان العذاب والتشريد ثم صبروا على عقيدتهم ، ثم يحبرهم

(١) سورة الأنعام - ٣٤ (٢) سورة الأعراف - ١٠١-١٠٢ (٣) سورة هود - ١٢٠  
(٤) سورة يوسف - ١١٠ (٥) سورة العنكبوت - ٣١ (٦) سورة ص - ٤-١٥  
(٧) سورة الصافات - ٤٣ (٨) سورة الداريات - ٥٢-٥٣

أن العاقبة للمتقين ، إما ينصر في الحياة الدنيا بقدره الله ، وإما بالخزاء الأولى في الآخرة  
وهنا ترد - كثيراً - قصة قوم موسى مع فرعون وهو يسومهم سوء العذاب ، يدبح أساءهم  
ويستحيي ساءهم ، ثم مَسُّ الله عليهم بالبحاء والتمكين جزاء ما صبروا - وترد كذلك -  
مرات كثيرة - قصة لسحرة الذين آمنوا لموسى ، فقضى عليهم فرعون بالصلب والقتل فثبوا  
على عقيدتهم رغم التهديد ، وزعم التنديد ، كما ترد قصة أصحاب الأحود ، السودج  
الأعلى في الصبر على العقيدة إزاء الفتنة التي تفوق كل احتيا ، فتنة الحرق بالنار ، والمهادج  
كثيرة ومتعددة نحترق ببعضها :

فهؤلاء قوم موسى يقولون له في سورة الأعراف : ( أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما  
جئتنا ) ويقول لهم ( عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فنظركم كمن  
نعملون ) ثم ينتهي السياق بقوله تعالى : ( وأورث القوم الذين كانوا يستضعفون  
مشارق الأرض ومعاربها لنبي باركا فيها ، وثبت كلمة ربك الحسى على نبي إسرائيل بما  
صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون )<sup>(١)</sup>  
وتبدأ سورة القصص هكذا

« طسم تلك آيات الكتاب المبين تنزل عليك من رب موسى وفرعون نحق لقوم  
يؤمنون إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح  
أبناءهم ويستحيي ساءهم إنه كان من المفسدين ويريد أن يرض عن الذين استضعفوا في  
الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الورثين ، ويمكن لهم في الأرض ، ويرى فرعون وهامان  
وجودهما منهم ما كانوا يحذرون »<sup>(٢)</sup>  
ويجيء في سورة طه

« فالتقى السحرة سجداً قالوا : آمنا برب هرون وموسى قال آمنت له قل أن آذن  
لكم؟ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ! فلا تقطع أيديكم وأرجلكم من خلاف ،  
ولأصلبكم في جذوع النخل ، ولتعلمن أيب أشد عذاباً وأبقى ! قالوا لن نؤثر على ما  
حاء من اليبات والذي فطرنا ، فاقض ما أنت فاض - إنه تقضى هذه الحياة الدنيا - ما  
آما برنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهنا عليه من أسحر - والله خير وأبقى »<sup>(٣)</sup>

ويجيء في سورة القمر ، بعد سرد قصص نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط -  
( أكنزكم خير من أوشكم ! أم لكم براعة في الزبر ؟ أم يقولون نحن جميع منتصر ؟

(١) سورة الأعراف ١٢٩ - ١٣٧ (٢) سورة القصص ٦ - ١ (٣) سورة طه ٧٠ - ٧٣



سيهرم الجمع وبوبون الدبر من الساعة موعدهم والساعة أذهى وأمر إن مجرمين في صلال وسعر ، يوم يسبحون في النار على وجوههم ذوقوا عسّ سقر إن كل شيء حلفاء بقدر وما أمرا إلا واحدة كلمح بالبصر ولقد أهلك أسياءكم ، فهل من مدكر ؟ وكل شيء فعلوه في الزمر وكل صغير وكبير مستطر إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر <sup>(١)</sup>

كذلك من أهداف الفصص القرآني إبراز حقيقة عقديته هامة تُبرز من خلال لسرد التاريخي ، هي أن الأنبياء والرسل جميعاً عليهم صوات الله وسلامه جادوا بكلمة واحدة وقضية واحدة على تتبع الأحوال كلمة واحدة هي لا إله إلا الله وقضية واحدة هي اعبدوا الله ما لكم من إله غيره

هذه أهداف من أهم أهداف الفصص القرآني في الحقيقة ويبدو بارزاً شديد الضرر من خلال السرد القرآني ، وتتخذ له وسائل شتى فأحياناً يُؤخذ أسلوب الفصص [ مع لسريع لوضح في القرآن ] <sup>(٢)</sup> بحث تحييء العذرة موحده على سائر كل رسول ، في الشرح المتتابع للرسول كل رسول يقول لكلمة ويمضي ، ويأتي من بعده نفس الكلمة بلا تعبير وبإشارة يقال عن قوم معينين إهم كذبوا \* لرسول \* مع أنهم لم يرسل إليهم إلا رسول واحد ، ليوحى للتعبير بأن تكذيب الرسول الواحد هو بمثابة تكذيب الرسل كلهم ، لأنهم كلهم يقولون ذات الشيء بلا تغيير فمن كذب واحداً منهم فقد كذبهم جميعاً وتارة يقال عن أقوام متعددين إهم عصوا \* رسول \* ربهم ، فيوضح ذلك أن كل أمة كذبت رسولها ، ويوحى في ذات الوقت أنه كاذب هو رسول واحد الذي بعث إلى هذه الأنواع جميعاً ، لأنهم على اختلاف أقوامهم ، وأربابهم وأماكنهم وبعثهم - قد قاموا ذات الكلمة ، وعرضوا ذات القضية ومن هنا فانرسل جميعاً كأهم رسول واحد يتكرر لكل قوم من الأقوام

ومن أمثلة النوع الأول ما جاء في سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة الشعراء بصفة خاصة \* لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إلى أحواف عليكم عذاب يوم عظيم . ومن بعد أحاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون ؟ . وإلى نوح أحاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية . وإلى مدين أحاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم فأتوا لكيل والمير <sup>(٣)</sup>

(١) سورة القمر ٤٣ - ٥٥

(٢) انظر بشأن التوزيع فصل \* ظاهرة التكرار في القرآن \* في باب من فصوص الكتاب

(٣) سورة الأعراف ، من ٥٩ - ٨٥

« وفقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إلى نكح مديراً ، ألا تعدوا إلا الله إني أخاف عبيكم عذاب يوم أليم وإلى عاد أحدهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إن أسم إلا مفترون وإلى ثمود أحدهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أشاكم من الأرض واستمركم فيها وإلى مدين أحدهم شعيب قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكاب والميزان . » (١)

« كذبت قوم نوح المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ، إن أخرى إلا على رب العالمين . كذبت عاد المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ، إن أخرى إلا على رب العالمين . كذبت ثمود المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر ، إن أخرى إلا على رب العالمين . كذبت أصحاب الأيكة المرسلين ، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر ، إن أخرى إلا على رب العالمين . . . » (٢)

ومن أمثلة النوع الثاني صورة الشعراء دانت ، التي جمعت بين لوسيلين ، إذ وجدت قول الرسل كنهم في عبارة واحدة يكررها كل رسول ، ثم جعلت كل قوم بمفردهم يكذبون « المرسلين » جميعاً ، نكديهم للرسول الخاص الذي أرسل إليهم وكذلك ما جاء في سورة الفرقان من قوم نوح من أنهم كذبوا « الرسل » مع أنهم كذبوا رسولهم الخاص وحده وهو نوح . ويكن ذلك بمثابة مكديب الرسل جميعاً

« وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم ، وجعلناهم للناس آية وأعتدنا لظالمين عذاباً أليماً » (٣)

ومن أمثلة النوع الثالث ما جاء في سورة الحاقة

« كذبت ثمود وعداد بالمرعة فأما ثمود فأهدكوا بالطاعة وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سحرها عنهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم منها صرعى كأنهم أعجاز مقل حادوية فهل يرى لهم من باقية ؟ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم ، فأخذهم أخذة رابية » (٤)

(١) سورة هود ٢٥ إلى ٨٤

(٢) سورة الشعراء ١٠٥ - ١٨٠

(٣) سورة الفرقان ٣٧

(٤) سورة الحاقة ٤ - ١٠

والتعبير وإن كان يفهم منه كما قلنا أن كل فرقة من هؤلاء قد عصت رسولها - إلا أن اللغة فيه واضحة ، أن الرسل كلهم الذين أرسلوا إلى فرعون ، ومن قبله ، وأمرتهم ، قد جُئوا في رسول واحد ، لأن مهمتهم كلها واحدة ، وقضيتهم كلها واحدة فكأنهم رسول واحد يكرر بعثه لكل فرقة منهم في حينها

وكذلك ما جاء في سورة الشعراء عن موسى وهرون معاً أيهما رسول رب العالمين  
 « قال كلاً ! عاهد بآياتنا إن معكم مسمعون » فأتا فرعون هؤلاء إن رسول رب العالمين ، أن أرسل معاً أيهما إسرائيل <sup>(١)</sup>

وليس هناك لسبب الإطلاق في أن المنكس نادى معاً لا واحد ، لأن الأمر صادر إليهما معاً « فقولا » ، ولأنهما يعولان « أن أرسل معاً أيهما إسرائيل » فموسى وهرون يتكلمان معاً ومعنى لو فرضنا أن موسى وحده هو الذي يتكلم باسميهما معاً فهو يقول « رب » ولا يقول « أنا » . أي أنه يتكلم بصيغة المثني لا المرد ، ومع ذلك يقول « إنا رسول رب العالمين » لأنهم - وهم شخصان - يعومان بمهمة واحدة ورسالة واحدة فكأنهما رسول واحد ! هذه القضية كما قلنا ذات أهمية خاصة في القرآن ، وهي فضلاً على أهميتها العقيدية في تقرير وحدة رسالة ، ووحدة الألوهية ، وأن توحيد الألوهة هو القضية الكبرى في حياة البشرية ، بحيث يرسل الرسل المتتابعون من أجيالهم وحدها ، وكل شيء بعد ذلك مرتبط عليها

فضلاً على هذا الجانب الاعتقادي ، فإنه يعطى شعوراً « بالانتماء » إلى أمة كبيرة موحدة على تتابع الأجيال

« إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » <sup>(٢)</sup>

ويبدو الذين لم يؤمنوا برسولهم ، أو كذبوا أي واحد من أمه الرسل امتناعه الموحدة ، شراً في هذه لخط المتتابع المتصل لموحد . . . شراً لا ورن له وإن كثر ، ولا اعتبار له وإن بعدد . . . لأنه خارج عن « النظام » !

ومن الأهداف العامة كذلك ، المؤدية في أهميتها تقضية وحدة الرسالة ووحدة الرسل إبراز الموقف الموحّد الذي نقفه الجاهليين جميعاً من رسلهم الذين أرسلوا إليها !

فكما أن رسالة واحدة مكررة ، وإن اختلف الأشخاص واللغات ، والرموز والمكان ، فهي كذلك جاهلية واحدة مكررة ، وإن اختلف الأشخاص واللغات ، والرموز والمكان !

(١) سورة الحاقة ٤ - ١٠ (٢) سورة الشعراء ١٥٠ - ١٧٠ (٣) سورة الأنبياء ٩٢

« كذلك ما أتى الدين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون » أنصوا به ١٩ بل هم قوم طاعون ! » (١)

إن موقف الجاهلية واحد من كل رسول التكذيب والإعراض ثم لتشهير بالرسول حين تنصح أنه مصرّ على دعوته لم يشه عنها إغراض ولا تكذيب ثم « تهديد بالأذى له ولدين آمنوا معه » ثم تهديد التهديد أحياناً أو الخيلولة دون ذلك مصدر من الله قصة مكرورة لم تتحلف مرة إلا مرة واحدة في التاريخ كله سبحانه لقراء لعمرة « فلولا كانت قرية آمنت مصعباً يبايها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتبعهم إلى حين » (٢).

والآية مع ذلك م تنف موقف لإعراض الأول لدى كان من قوم يونس ، بما تسجل فقط أنهم - في النهاية - آمنوا ! فلما آمنوا كشف الله عنهم ما هددوا به من عذاب الخزي في الحياة الدنيا . . .

ما لست يا ترى في هذا الموقف الواحد المكرر الذي تقعه لجاهلية من رسائلها « لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قال الملأ من قومه إنا لبرك في ضلال مبين ! ، وبن عاد أحاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لبرك في سفاهة وإنا لبطك من الكاذبين ! وبن ثمود أحاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم هذه دابة لكم آية قدروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فإياحكم عذاب أليم قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا ، يا بني أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كفرون . وبنى مدين أحاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءكم سنة من ربكم ، فأوفوا بنكيل وإيمان ولا تحسوا الناس أشياءهم ولا تعمدوا في الأرض بعد صلاحها دنكم خير لكم إن كنتم مؤمنين قال الملأ الذين استكبروا من قومه سحرجك يا شعيب ولدين آمنوا معك من هربت أو نتعود في ملت ؟ قال ، أو لو كنا كرهين ؟ » (٣)

« كذبت قوم نوح المرسلين ، إذ قل لهم أحوهم نوح ألا تتقون ؟ ، إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون . . . قالوا لن لم تنته يا نوح بتكول من المرجومين ! . . . كذبت عاد

( ١ ) سورة الذاريات : ٥٢ - ٥٣ . ( ٢ ) سورة يونس - ٩٨ . ( ٣ ) سورة الأعراف ٥٩ - ٨٨

«مرسبين ، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ؟» نبي لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعوا  
 دلو سوء عليا أو عطت أم م تكن من لواطين ! إن هذا إلا خلق الأريين ، وما نحن  
 بمعدين ، فكذبوه كذبت ثمرة المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ؟ نبي  
 لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعوا قالوا إنما أنت من المسحرين ! وما أنت إلا بشر  
 مثلك وإن نطق لك الكاذبين ! فأسقط عليك كسفا من أنسباء إن كتب من الصادقين «<sup>(١)</sup>» .  
 وحتى حين طلب شعيب من قومه المهادنة حتى يحكم الله بينهم م يقبلوا منه ذلك وأصروا  
 على إخراجه .

« و إن كان طائفة منكم آمنوا بآي أرسدت به طائفة م يؤمنوا فاصرو حتى يحكم الله  
 بين وهو خير الحاكمين . قال الملأ لدين أسكروا من قومه فخرجك يا شعيب والدين  
 آمنوا معك من قريتنا أو لتعردن في ملأ ! »<sup>(٢)</sup> .

ما لسر في هذا الموقف الموحد من اخاهته تحه الرسول الذي بدعوها لإله إلا الله ؟  
 لاحظ في الآيات دأيا أن الملأ هم الذين يدأون بالتكذيب ثم هم الذين يسحرون  
 ويهددون .

ولي كل مجتمع جاهلي لاند أن يوجد « ملأ » هم لسانه و « شعب » من العبيد . والملأ  
 في المجتمع جاهلي هم الذين « يملكون » و « يحكمون » وهم بطبيعة الحال الذين  
 يشرعون من عند أنفسهم ، بما يحفظ سلطانهم على أولئك « العبيد » ، يسحرونهم  
 لمصالحهم ، ويستعبدونهم لأنفسهم . كان ذلك في كل جاهلية من جاهليات التاريخ بلا  
 استثناء . .

وهؤلاء الملأ المستويون على اسلطة بيده لصوره يكرهون - دائما - دعوة لا إله إلا الله ، ولا  
 يطبقونها ، ويتصدون خربا ، ويصرون على القصد عليها بكل وصيه في أنفسهم . الا أن  
 يتدخل قدر حاسم من عند الله فيهلكهم ويقعد المؤمنين منهم فأى شيء في دعوة لا إله إلا  
 الله يبيجهم إلى هذا الحد إلى حد أن يرتكبوا كل حريمه في ذلك جرائم القتل والاعتقال  
 بنقصاء على هذه الدعوة ، فصلا على تسخير طائفتهم كلها في التشيع عليها وعلى دعتها ،  
 وتغير الخبايا منها ، من كدك استعلان « الدهماء » في الحرب صده ومحوه لنصاء  
 عليها؟!

(١) سورة الشعراء ١٠٥ - ١٨٧ (٢) سورة الأعراف ٨٧ - ٨٨

إنه لا يبين لنا السر في ذلك موقف لعجيب ، الذي يتكرر بصورة أعجب ، لا إذا أدركنا المعنى الحقيقي هذه الكلمة التي يبعث بها كل يسوع لا إله إلا الله اعبدوا الله مالكم من إله غيره

وإنها كانت كلمة « تعال » ، فإذا يصير ملأ منها فيحشدوا طقتهم لحرها هذه الصورة المعصية التي لا تفن ترقف ولا تعافاً ولا مهادة ؟

إنما مدلول هذه الكلمة البسيطة غاية البساطة ، الخطيرة غاية الخطورة ، هو الذي يهيج ملأ في المحولية بل هذا الحد !

إن مدلولها بسيطة أن الولاء لله وحده ، والعبادة لله وحده ، والطاعة لله وحده وإلأ في العهبة يريد بساطه أن يكون الولاء له وحده ، ولطاعة له وحده ومن ثم فالعبادة له وحده ، حتى وإن لم يصحبها في كل حالة شعائر اشهد التي كدت توجه إلى موعون وإنما هي عهدة لطاعة وعادة الولاء<sup>(١)</sup>.

ومن ثم يقع الصدام - الختمى - بين الملأ وبين دعوة لا إله إلا الله لا إله إلا الله معناها أن « السلطة » لله وحده وأن الذي نحو له أن يحكم ، وأن يحل ويحرم ، ويجتس ويقترح ، ويبسج ويمسج . هو الله

والملا يريد أن تكون السلطة لله ، وأن يكون هو الذي يحكم ، ويجل ويحرم على هواه . ومن هنا لا يعطى ملأ أن يرى ذلك الرجل الذي يقول لا إله إلا الله ( عليه صلوات الله وسلامه ) . إن مجرد رؤيته يثير أعصابهم ! وعصرهم لمخاربتة . . .

إنهم كالنص الذي يرى جل الشرطة ! إنه تصور في الحال أنه جاء يسرد ما في يديه من المال المعصوب !

وهم قد تحوهم السلطة فيسبون مرة أنها مرفوعة ومادام لا يوجد من يطالب بها على أمة في أيديهم ! ولكن ظهور هذا الرجل الذي يقول لا إله إلا الله ، يرددهم في الحال إلى الحقيقة ، إن كانوا سوف أو تدسوف يرددهم إلى أن صاحب السلطة التي في أيديهم هو الله . وأهم إن عتصوا هذه السلطة من صاحبها الحقيقي وهو الله .

( ١ ) تقول الشيوع إن البشرية كانت في عبودية مسمرة - وإن حثفت صورها - في جميع عهود العبودية الأولى ثم الإقطاع ثم الرأسمالية ومنح نصيب ثم الشيوعه كدنت ألسا بواقعهم على حصر عبودية في الاستغلال الاقتصادي ، فهو لون واحد من ألوان العبودية وبس هو وحده الذي يدعى كرامه الإنسان . إنما تلغيها العبودية بغير الله أبا كانت . إن من سجل فقط ظاهرة العبودية في كل جامليه في التاريخ

والنصر العادي قد يتورى ويهرب . ولكن مختصب السلطة هـد يعريه ما فى يده من  
سلطة منتصبه بمقابلة ذلك اسدير لـدى جاء ليعرـد لسلطة بلـى صاحبها . ويرى المدير  
أهرل من كل سلاح . جاء فقط بشخصه ، وبالتكلام الذى يتكلم به . فيحاول أن يهون  
من شأنه ، وإن كان بعدم فى دحيـلة نفسه أنه خطير ! ومن ثم يـدجأ إلى « تشويه سمعته » فى  
بادئ الأمر . سحر محبون كذاب أو يريد أن يستولى على الحكم ؟! كما قال  
ملاّ فرعون لموسى وهرون :

« والو أحتب تنفصا عىا وحدا عليه أباء ، وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ؟! » (١)  
ولكن لرسول المبعوث من عند الله ، لمطمئن إلى الحق الذى يدعو إليه ، المستوثق من  
حقيقة الألوهية ، لا تشبه تلك « الدعاية » لى يقيمها الملائكة . هيمضى فى الدعوة .  
ويؤمـس به نفر من الناس قليلون فى ماديّ الأمر . ولكن هذا النفر - رغم قـلته - يـزج  
أصحاب السلطة إرعاجاً يفقدون معه أعصابهم !  
إن الأمر لو ترك على هذه الصورة فسوف ينقلب « العيد » من بين أيديهم واحداً إثر  
واحد . وينحرون من ريفتهم . فهل يسكنون على هذا الأمر الخلل ؟ وماذا يبقى هم من  
السلطة إذا استمر هذا الأمر ؟ وكيف يتحقق لهم « الكبرياء فى الأرض » إذا لم يس من  
يكررون عليه ؟!

لأنه من إجراء ليقف هذا الأمر . .

فدكن الله هو مـؤلة تنهير « اندماء » من هذه الدعوة

بها دعوة جاءت لتفريق وحده الشعب ! أستم برون أن الذين يعتنقونها يكونون  
لأنفسهم فريقاً مميّزاً عنكم ؟! أستم برون أنهم يفسدون عليكم أبناءكم فلا يعودون  
طيعونكم ؟! ثم إنهم يفسدون فى الأرض ؟!

ولكن الحق له جاديتـه . ومهما شوه فسيضل يجذب الناس . .

لأنه من إجراء أشد حسياً . . التهديد !

كر من يقرب من هذه لدعوة فهو « خارج » عليه . وسعاده بأقصى درجات  
العنف !

وى !! لكأن التهديد لا يجدى ! فالذين آمنوا باقون على ما هم عليه ، ريتايدون !

إذن لأنه من تهديد التهديد !

وهنا يبدأ الاصطهاد بشتى صوفه وصوره . تخلف من جاهلية إلى جاهلية ولكنه في جوهره واحد ! بدأ « باحراج » المؤمنين من أموالهم وديارهم وأمنهم وراحتهم . وينتهى بأمر فرعون « لأنظر من أسديكم وأرحلکم من خلاف ولا أضلکم أحسن » . دورة واحدة ودور ، حد تقوم به الجاهلية دائماً إزاء هذه الدعوة البسيطة عادة البساطة ، الخطيرة عادة الخطورة . دعوة لا إله إلا الله !

والقرآن يبرز هذا الدور إبرازاً شديداً في قصص الأنبياء .

وقد كان من أهداف هذا الإبرار ولا شك أن يقارن للرسول - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين إن ما تفعله بكم جاهلية قريش من اضطهاد وتعذيب ، هو هو لدى صعبه كل جاهلية من قس في التاريخ . ثم كنت النهاية دائماً هي انتصار الحق والتدمير عن المكذبيين

« فكذبوه فأنجيئهم ولدين معه في القلث وأعرفوا الدين كذبوا بآياتنا بهم كانوا قرون عيسى » <sup>(١)</sup> [نوح]

« فأنجيئهم والدين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين » <sup>(٢)</sup> [هود]

« فأحدثهم الرحمة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أيسر لكم رسالة ربى وبصحت لكم ولكن لا تحبون الإنصاحين » <sup>(٣)</sup> [صالح]

« فأنجيئهم وأهلكهم لا امرأته كانت من العاصرين ، وأمطرنا عليهم مطر فأنظر كيف كان عقوبة المجرمين » <sup>(٤)</sup> [لوط]

« فأحدثهم الرحمة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، الذين كذبوا شعباً كان لم يعس فيها دين كذبوا شعباً كانوا هم الخاسرين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أيسر لكم رسالات ربى وبصحت لكم ، فكيف أنسى على قوم كافرين ؟ » <sup>(٥)</sup>

كان هدف قائماً بالنسبة للمؤمنين إزاء اضطهاد قريش لهم وقت نزول هذا القرآن . ولكنه هدف قائم أبداً طالما كانت في الأرض جاهلية من أى برج ، ودعوة بدعوة للإله إلا الله ، فاضطهدون ويعذبون ويقتلون . .

\* \* \*

(١) سورة الأعراف ٦٤ (٢) سورة الأعراف ٧٢ (٣) سورة الأعراف ٧٨-٧٩

(٤) سورة الأعراف ٨٣-٨٤ (٥) سورة الأعراف ٩١-٩٢



هدف آخر من لقصص القرآنى ربما لم يكن منصوفا عليه فى القصص دته ، ولكه مفهوم من سياق القصص أولاً ، ومنصوص عليه كذلك فى مواضع أخرى من القرآن ، كما جاء فى أول سورة العنكبوت .

« أَلَمْ . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ، وهم لا يفتنون ؟ وبقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »

بما رذن سنة دائمة ، وليست حادثاً عارضاً يحدث لبعض المؤمنين !

الاستلاء لابد أن يحدث للمؤمنين ! لابد أن تراحمهم اجاهلية بالأيذاء بشئى صوفه ثم يقولون فى هذا الأيذاء فترة لا يصبرهم فيها الله ، إنما يملئ للطاعة فيستعشون ، ويزيدون طوعاً بما يحدث لهم من العلية على المؤمنين !

والله هو لقادر على كل شئ !

ولو شاء الله سبحانه أن يدمر على الطاعة مد أول لحظة يتعرضون فيها لدعوته لفعل لا يعجزه شئ فى السماوات ولا فى الأرض ولكنه سبحانه لا يشاء ذلك !

وليس فى مرة عارضة ، ولكن فى كل مرة !

فى كل مرة يترك المؤمنين يقولون من صتوف العذاب ما يقولون ثم لا يصبرهم وهم على الحق ، وإنما ينصر الطاعة وهم على الباطل !

نعم ولحكمة يصنع الله ذلك لا مفارقة للمؤمنين من عباده ولا فلي لهم « ما ودعك ربك وما قلى ! »<sup>١٩</sup>

وإنما رحمة بهم ورعاية !

نعم ! إن يعتصم الأمر لحسيم يعتصم لحمل دعوته يعتصم لأخطر مهمة فى هذا الكون كله . . لحمل الأمانة !

وليس من الرحمة ولا الرعاية أن يحملهم الحمل وهم بعد فى غضاضتهم وليونة عضلاتهم ! لابد من تدريب

إنه تدريب حش محم ! وبكى العبرة ، لحواتيم ! فكيف هم بعد التدريب ؟ ! تعال فانظر إليهم ! هل معجبت اليوم متدة تركبهم وقوة سباتهم ؟ ! هل تطمئن إلى قوة حملهم ؟ !

نعم تلك رحمة الله ورعايته

بصهم صناً متناً لنقيم لساء فوقهم ، فلا لساء يتهدم ولا هم يستقيمون الحبل فوق  
أكتافهم فقد تدرىوا علمه !

وفي الوقت ذاته يردد انطعة طعياناً \* يحميها أوارهم كاملة يوم لقيامة ومن أوزار  
الدين يضلونهم بغير علم ! (١)

ويقدر واحد يد دالدين عواييناً والدين طعو طعياناً وكهراً  
ويكون لأولئك النعيم الخلد الذي لا يبعد ، وهؤلاء عذاب لا يفر .  
أهي صفقة خاسرة في النهاية ؟

وهب أن إنساناً قد حتم من اعداب ثم واه أحله قبل أن يرى النصر فهل هي  
صفقة خاسرة في النهاية ؟

\* يترى بأشد أهل الأرض شقاء يوم القيامة فيعصم عمة في اسعيم فيقال له هل رأيت  
شقاء قط ؟ يقول لا يارب !

وهذا من أول عمة . . ولم يتذوق بعد حلاوة اسعيم  
\* ويترى بأشد الكفار بغيماً يوم القيامة فيعصم عمة في النار فيقال له هل رأيت بغيماً  
قط ؟ يقول لا يارب ! (٢)

وهذا من أول عمة . . ولم يتذوق بعد مرارة العذاب !  
إن لقصاص القرآني يقول لنا من خلال السياق . إن الابتلاء هو سنة الله للمؤمنين  
ثم يقول إن الله هو الذي يضع المؤمنين في الابتلاء بقدر مه . ويضع انطعة في موضع  
العدة بقدر مه . حتى إذا جاء أمر الله جاء لنصر للمؤمنين بقدر من الله ، ووقع الهلاك  
بلكدين بقدر كذلك من الله

إن الله هو الذي يدير هذه وتلك . . ولا يحدث في انكون إلا ما يريد .  
ومن هنا تتعلق القلوب التي يريها القرآن دائماً بالله  
في الشدة تتعلق قلوبهم به لأنه هو وحده ابدي يكشف الشدة ولا أحد سواه  
وفي الرخاء تتعلق قلوبهم به شكراً له على نعماته ، وحرصاً على رصده  
ومن ثم يكون انقص القرآن دروساً في الحميدة . دروساً في حقيقة لا إنه إلا الله  
وإن كان ثوبه ثوب القصة ، وإن كان فيه من احوال لتعيرى والتصوير المي ما بأحد  
بالألباب .

(٢) أخرجه بن ماجه في كتاب الزهد

(١) سورة النحل ٢٥

## آدم والشيطان

نحيء قصة خلق آدم من قبضة من طين لأرض ونفحة من روح الله في أكثر من موضع في السور المكية . كذلك ترد قصة الشيطان مع آدم في أكثر من موضع . أحياناً نحيء بكل تفصيلاتها كما في سورة الأعراف ، وأحياناً نحيء بعض هذه التفصيلات كما في سورة الحجر والإسراء وطه وضم ، وأحياناً نحيء في صوره إشارة عذرة ، وهذا كثير جداً في القرآن ، وتنفرد سورة إبراهيم بذكر موقف الشيطان يوم لقائه من سي آدم الذين استجابوا له في الديق ، وتنصبه الكامل من تعنتهم !

جاء في سورة الحجر :

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ولحدّد خلقه من قبل من نـ السموم » وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سويته ونفخ فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال لم أكن لأسجد لشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون قال فخرج منها فورك رحيم ، وإن عليك لعنة إلى يوم الدين قال . رب فأظرني إلى يوم تبعثون قال فبك من المظيرين ، إلى يوم الوقت المعلوم . قال . رب ما أعويشى لأرى لهم في الأرض ، ولأعويهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين قال هذا صراط عليّ مستقيم رب عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من العاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين ها سبعة أبواب لكن باب منهم جزء مقسوم <sup>(١)</sup>

وجاء في سورة الإسراء :

« وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس قال : أأسجد لمن خلقت طيناً قال : أأأبتك هذا الذي كرمت عليّ ؟ لنس أخرتني إلى يوم القيمة لأحتكن دريته إلا قبيلاً قال اذهب ! فس تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موقوراً واستعبر من استطعت

(١) سورة الحجر ٢٦-٢٤

مهم بصوتك وأحسب عليهم بحبك ورحلت وشاركهم في الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا عرورا إن عبادي ليس بك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا<sup>(١)</sup> وجاء في سورة الأعراف :

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قبضنا لئلا تكونوا لأدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، قال ما معك ألا تسجد ، أمرتك ؟ قال أنا خير منه ! خلقتني من نار وخلقته من طين ! قال فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ! فاحرح بك من الصاغرين قال أنظرني إلى يوم يبعثون ! قال إني من المنظرين ! قال فبما أعورتي لأقعدرهم صراطك المستقيم ، ثم لأنبيهم من بين أيديهم ، ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، ولا تحبأ أكثرهم شاكرين ! قال اخرج منها مدعوماً مدحوراً من تعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويا آدم سكن أب وروحك الجنة فكل من حيث شئت ولا تقرب هذه الشجرة فتكون من الظالمين فوسوس لها الشيطان بيدي ما ووري عنها من سوءاتها وقال ما نهاكم ربك عن هذه الشجرة إلا أن تكونن مكس أو تكونن من الخالدين ! وفاسمها . يس لكما لمن لأصحب ! فدلها بعرور ! فلما دقا الشجرة بدت لها سوءاتها وطفقا بحصص عبيها من ورق الجنة وداهما زمها ! أم أمها عن تلكما الشجرة وأئل لكما ، الشيطان لكما عدد ميين ١٩ فلا ربا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم نعهز له وترهما لكونن من الخاسرين ! قال اهبطوا بعضكم بعض عدد ولكم في الأرض مسقر ومتاع إلى حين . قال فيها تحبون وبها تموتون ، ومنها تخرجون . يا يس آدم قد أنزلنا عليك لباساً يوارى سوءاتكم وربنا . ولست التقوى دنت خير . دنت من آيات الله لعلمهم يذكرون . يا يس آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أنبيكم من الجنة يزع عنها لباسها ليربها سوءاتها ! إنه يركم هو وقيله من حيث لا يرونهم . إن جعلنا الشياطين أرباباً للذين لا يؤمنون »<sup>(٢)</sup> .

وجاء في سورة إبراهيم

« وادعوا لله جميعاً فقال انصعدوا للذين سكبوا . يا كذا لكم تبعاً ، بهن أنتم معبون عما من عذاب الله من شيء ١٩ قالوا لو هذان لله هديناكم ! سواء عليا أخرج أم صبريا ما لنا من محص ! وقال الشيطان في قضى الأمر . إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتنكم ! وما كان في عنكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجتم لي ! فلا تلموني وبوموا أنفسكم ! ما أنا بمصرحكم وما أنتم بمصرحي ! يس كفرت بي أشركتموني من قبل ! إن الظالمين لهم عذاب أليم »<sup>(٣)</sup> .

(١) سورة الإسراء ٦١-٦٥ . (٢) سورة الأعراف ١١-٢٧ (٣) سورة إبراهيم ٢١-٢٢

لا يأتي القصص في القرآن للمتعة العسية وإن كان فيه ولاشك متعة فيه هائلة لمن أراد!

إن يأتي القرآن كله للتربية والتوجيه لئلا الأمة لراشدة التي تقوم بمهمة الخلافة الراشدة في الأرض ويحيى القرآن في الفترة المكية بصفة خاصة - كما ذكرنا - لتأسيس العصيدة الصحيحة وبرسيعها ، لتكون بعد ذلك الأساس لدى يقوم عليه البناء كله السياسي والاقتصادي والاجتماعي والحربي والمسي والخلقى والفكرى والتعديى إلى آخر ما يقوم عليه نظام في حياة الناس

والقصص الواردة في السور المكية [ وحديثه كذلك كما سرى في بعد ] هو جزء من هذه التربية وهذا السوجيه وجزء في الوقت ذاته من البناء لعقيدى للإنسان المسلم وقد رأينا ذلك من قبل في قصص الأنبياء مع أقوامهم ، ونراه الآن في قصة آدم والشيطان به عديهم لشر ولاشك أن يعرفوا تاريخهم ولكن يعرفوه للمرة لا مجرد التسلسل وقصة آدم والشيطان قصة ذات دلالة خاصة بين القصص القرآنى كله ، فهي تحدد لشر مذاهب ومنهاهم ودورهم في الأرض وحطة سيرهم فيها ، وانعكاسات التي تقاسمهم في أثناء رحلتهم ، وطريقة تجنب هذه العنقات وتخطيها !

الإنسان مكون من قبضة من طين الأرض ونبضة من روح الله هذان هما العنصران المكونان له وبعد التكوين دلالة في طبيعته المتمردة ، ودوره المنفرد كذلك « ولقد كرمت بنى آدم وحلناهم في ليل والحر رزقناهم من لطبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفصيلا » (١)

إنه مخلوق ذو طبيعة مزدوجة ، مادية وروحية في ذات الوقت ، قبضة الطين تمثل حاسه المادى ، ونبضة الروح تمثل جانبه الروحى ولكنهما غير منفصلين

« إن قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (٢)

فالتسوية أعطته شكله الأدمى ، ولكن سفعه العلوية التي امتزجت بهذا الكيان المادى هي التي أعطته صورته النهائية التي أمر للملائكة بالسجود لها صورة « الشر » المكتملة لتكون

(١) سورة الإسراء ٧٠ (٢) سورة ص ٧١-٧٢

ومد هذا المود في التاريخ السحيق ، والبشر هم كم جميعهم الله كيون مادي وكيان  
روحي متمرحان في كيان واحد ، مربوطان لا يفصلان وحيوة الإنسان - مد تلك  
اللحظة في هذه اللحظة ، وفي كل لحظة - ذات طابع مادي روحي في ذات الوقت  
إن يسبح نفسه ، ويسبح حياته كذلك ، يتكون من حيطين معاً في وقت واحد ، حيط  
مادي وحيط روحي ولا توجد رقعة في ليسبح كله ، ولا توجد لحظة في الحياة كلها ،  
مكونه من أحد الحيطين دون الآخر

هناك رقعة في انسبح وخطة في الحياة يكون الحيط المادي فيها أكتف وأعر ، فتكون  
أكثر عدمه ، ورقعة أخرى يكون فيها الحيط الروحي أثر وأظهر فتكون أشف ولكن لا  
هذه ولا تلك بتكون سيجها من حيط واحد منفرد ، ولو بد ذلك بنظرة السريعة لتي لا  
تفحص ولا تنعم النظر في الأشياء !

لحظة المتاع الحسى ، العلط ، من طعام أو شراب أو حسن ، تندر - عند بعض الناس  
على الأقل كأنها لحظة جسد حالصة ، رفعة يسبح مادي معتمة لا ينفذ منها نور  
ولحظة العبادة ، الخشعة ، وخطة الساحة الروحية المرفوعة في مذكوب الله ، ولحظة  
المطعم المستعمدة ، التي يستعنى بها الإنسان على ذاته ، ويسعى بها على مدح لأرض ،  
ويؤثر أحماء على نفسه ، ويصحبى بنفسه أو ماله أو أمه أو راحته في سبيل شيء أكبر من  
ذاته لحظة نبدو كأنها لحظة روح حالصة ، شفيعة ورائقة لا أثر فيها لمضخة بطين !

واخفيقة أنها مبالغة تعبيرية لا تمش انواقع !

فحي تلك الرقعة المعتمة لم تحل من عصر الروح وحي تلك اللحظة الشففة لم  
تحل من قبضه الطين !

إن منراح هدين لمصربين في كيان واحد مترابط متكامل لا يفصل منه جزء عن جزء ،  
قد أعطى لإنسان صورة منفردة في أعماله وأحواله تتميز عن الكائنات الميامين به من هد  
احباب ودال - ملك راخيوان - وإن تشابه في نقطة الشمس مع هذا ودك - مجرد تشابه  
فقط ، ولكنه ليس تماثلاً هنا أو هناك

في لحظة الطعام والشراب والحسن قد يشبه اخيوان ويكبه لا يكون حيواناً أبداً ، لا  
عن سبل المجار !

الحيوان يأكل حين يجوع ، ويكف حين يشبع والمريزة هي اسي تحدد له وقت  
جوعه وتحدد له نقطة شبعه لتي يكف بعدها عن الطعام ، كي تحدد له أروع معنة من  
الطعام لا يتعددها . .

والإنسان يأكل حين يجوع ، نعم ، في الغالب ! ولكنه قد يأكل كذلك - بإرادته - وهو شعبان ! وقد يمتنع عن الطعام - بإرادته - وهو حائض ، الأمر من الأمور الصحية أو العبدية - أو لاعتصادية ! وهو ندى يحدد لنفسه وقت طعامه ، والقدر ندى يأكله من الطعام ، سوء كان معتلاً أو رائداً عن أحد أو أقل من الألام كما أن أنواع الطعام أمدمه غير محدودة ، وما زال يستحدث منها كل جديد

ودلك كله هو أثر الصحة لعبودية في قصة الطير ، الرعى والإرادة الصبغة والقدرة على الاحتبار

واحسن كذلك هو عبد الحيوان دفعه الحرية هي التي تحدد له الموسم لمعين للإحصاء وهي التي تحدد نقطة الانطلاق ونقطة السكون ولكف عن الشط لا وعى به في ذلك ولا إرادة ولا اختيار وهو عبد لإنسان دفعة شبيهة بدفعة الحرية كذلك ولكنه حتى في أدنى حالاته ذو هدف محدد - ولو كان المتع الخسدي - ويصحه بوعى للهدف المحدد ولطريقة الحصول عليه والتدبير له ، ويصحه الاختيار وهو في أعلى حالات عواطف نفسية ومودة ورحمة تصاحب الرعة الخسدية ، والتزم روحى بالحلل والحرام ، وهدف واضح هو الإحصاء من جانب ، والدرية الصاخة من جانب وهو اختيار دقيق بموصفات معينة . . وهو في النهاية شئ يذكر عليه اسم الله .

ودلك كله هو أثر النسخة الروحية في قبضة الطير حتى في أقرب اللحظات لصوتاً بنقضة الطير !

والعبادة الروحية الشقيقة من جانب آخر تنه عبادة المثلث ولكنها لا تماثلها ، ولا تستطيع أن تماثلها !

الملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون<sup>(١)</sup> \* لا يعصون الله ما أمرهم ، ويعملون ما يؤمرون<sup>(٢)</sup> .

والإنسان لا يطبق ذلك ولا يقدر عليه وإن يعبر عن العبادة - ولو رغب فيها - حين يعبر جسده ويكمل من الجهد ، ثم هو عرضة دائماً للخطأ والنسيان والعصيان \* كل مني آدم خطاء ! وحير الخطئين التوايرون<sup>(٣)</sup>

(٢) سورة النحل ٦

(١) سورة الأنبياء ٢٠

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب العيمة

وبذلك هو أثر قصة الطير في صحة الروح حتى في أشد المحطات اقرباً من صحة

الروح !

إنما نقول على سبيل المجاز فقط إن فلاناً حيوان أو كالحوان ، حين يشتد لصوقه بالطير حتى يسهم في ملاحه أثر قصة طير . ولكنه في كلا حاله « إنسان » . لا ملب ولا حيوان .

غير أنه في المحطة التي يشتد فيها لصوقه بالطير حتى يقول إنه كحيوان يكون في الواقع أمراً من الحيوانات « أولئك كالأنعام ، بل هم أضل » لأن الحيوان لا إرادة له ولا وعي في فعله ، وليس له إلا طريق واحد يسلكه هو طريق الحسد ودفعه العريضة ، ولكن الإنسان له سمع وبصر « وهؤاد » سمع يسمع به ليعقل ، وبصر يبصر به ليعي ، وهؤاد أي عقل وإرادة صالحة يتحكم بها في تصرفاته . فحين لا يُفعل هذه الأدوات كلها يكون أضل من الحيوان « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم العاصون »<sup>(١)</sup>

وحيث يشتد علوه حتى نقول عنه إنه مثل الملك يكون في الواقع أفصل من الملك « وفصلناهم على كثير من خلقنا تفرساً »<sup>(٢)</sup> لأن الملك يعبد لله دون أن يملك عصبية . وسر له ، لا طريق واحد يسلكه هو طريق الروح والعبادة والطاعة . أما الإنسان فهي كيانه دوام لا تتمر ، ورعبات لا تكف ، وله طريقان يمكن أن يسلكهما لا طريق واحد « وهدىناه السبيل »<sup>(٣)</sup> « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكها ، وقد خاب من دساها »<sup>(٤)</sup> فحين يعمل - بإرادته - على تركية نفسه حتى تستقيم على الطاعة ، يكون في مرتبة أعلى من الملك الذي يطبع ، وهو لا يستطيع ألا يطبع ، ولا يجد في كيانه ما يدفعه إلى العصيان !

\* \* \*

دلت من حيث حق آدم ، وطبيعته مردوخه انماشئة من دحور عشرين اثنين في تكوينه قصة طير وبصحة الروح ، وما شأ عن ذلك من وجود طريقتين اثنين أمامه لا طريق واحد . طريق لطاعة وطريق العصيان ، طريق التركيبة وطريق التندسية ، طريق الهدى وطريق الضلال . أولهم يكون حين تكون الروح - في الكيان الموحد المترابط - هو صاحبة السلطان ، والآخر يكون حين يكون الحسد - في الكيان الموحد المترابط - هو

(١) سورة الأعراف ١٧٩ . (٢) سورة الإسراء ٧٠ -

(٣) سورة البلد ١٠ . (٤) سورة الشمس ٧ - ١٠



صاحب السلطان . ولكنه في كل حالاته روح وجسد متراضان لا يفصلان !

أما من حيث الهدف من خلق آدم فيبيته القرآن بوضوح

« وما خفقت الحن والإنس إلا ليعبدون »<sup>(١)</sup>

والإنسان إذن محبوق لمعبود الله . وليست له مهمة غير ذلك ! والنمى والاستثناء « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » معناه لقصر قصر الهدف من خلق الإنس وإحس عن العبادة وحدها ولا شيء إلى جانبها ! وتلك أكد صيغ القصر في النسخ العري . ولكنا نرى - في القرآن كذلك - أهداف خلق الإنسان قد تبدو لنا لأول وهلة متعارضة مع هذا القصر الذي نحدثنا عنه ، أو خارجة عنه !

« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »<sup>(٢)</sup> أي كلمكم بعمايتها ويشر لكم طريق

عمايتها

« هو الذي جعل لكم الأرض دولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه »<sup>(٣)</sup>

« وهو الذي سحر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى

الملك مواجر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »<sup>(٤)</sup>

« ربكم الذي يرجي لكم الملك في البحر لتتموا من فضله إنه كان بكم رحيم »<sup>(٥)</sup>

حتى يقوم الإنسان بعجارة الأرض - إذ كانت عمارة الأرض خارجة عن معنى العبادة التي اقتصر عليها الهدف من خلق الإنسان . وهي تستغرق الوقت والجهد ، وتشغل الإنسان مشغله حمة ، سواء في استمراح الطاقات المكتوبة في الكون و استحداثها في عماره الأرض ، أو في « تنظيم » شئون هذه العمارة ، وهي محتاجة إلى تنظيم سياسي وتنظيم اقتصادي وتنظيم اجتماعي وتنظيم فكري ؟ !

ومنى يمشى لإنسان في مناكب الأرض أو يحرض المحار ليمحس عن البرق كما يأمره القرآن ، مرة بقوله « وكلوا من ربه » ومرة بقوله « لتبتغوا من فضله » و ابتغاء فضل الله هو البحث عن البرق سواء .

بل متى يسمى إلى « الرينة » التي أحدها الله بعباده وقررها لهم بوصفها لونا من ألوان شأهم المشروع

« وتستخرجوا منه حلية تلبسونها »<sup>(٦)</sup>

(١) سورة الداريات ٥٦ (٢) سورة هود ٦١ . (٣) سورة الملك ١٥

(٤) سورة الحل : ١٤ (٥) سورة الإسراء ٦٦ (٦) سورة الحل ١٥٠

« والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة »<sup>(١)</sup>.

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . . »<sup>(٢)</sup>

« يا أيها آدم خذ زوجتك معك كل مسجد »<sup>(٣)</sup>

بل في الكون والحياة والأحياء « جمالاً » يلفت الله نظر عباده إليه ، ومن عبدهم  
بخلقهم لهم

« والأنعام خلقها لكم فيها ذمء ومساغف ومساغف تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون  
وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف  
رحيم »<sup>(٤)</sup>

فمتى يتدقق الإنسان هذا « الجمال » إن كان خارجاً عن معنى العبادة التي خلق  
الإنسان من أجلها . . ومن أجلها وحدها !

من إن سباً من الأنبياء هو داود عليه السلام يُفَلِّمُ « صعة » من انصائع فيمن الله به  
على عبده .

« وعدماء صعة لموس لكم لتحصوكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ؟ »<sup>(٥)</sup>.

في وضع هذه الصعة - أو غيرها من الصنائع - من « العبادة » ؟ هل هي داخلية فيها أم  
خارجية منها ؟ وهل هي متقية أم متعارضة معها ؟ وأين « وقتها » من هذه العبادة التي  
تستغرق حياة الإنسان كلها كما هو المفهوم من سورة « الدريد » ؟

لا بد إذن - مادامت هذه كلها أو من ربانية ، أو مباحات أو مدونات ربانية - أن تكون  
كلها داخلية في العبادة التي خلق الله الإنسان من أجلها ، ومن أجلها وحدها ، وإلا كان  
معنى ذلك - وحاش لله أن يكون - أن الله خلق الإنسان لعبادة وحدها ، ويعلم بذلك  
ويكلفه به ، ثم يكلفه أن يصنع أشياء يخرج به عن عبادته ، فيقع في معصية الله حين يطع  
أمر الله !

كلا ! لا يكون ذلك أبداً .

إن الذي تسمه آيات القرآن محتمة أن عبارة الأرض جزء من عبادة الله ، وانتعاء الرزق  
جزء من عبادة الله ، واستخدام الرية عطية جزء من عبادة الله ، وتدقيق الخيال والبحث عنه  
في ملكوت الله جزء من عبادة الله ، وتعلم الصنائع المختلفة جزء من عبادة الله . جزء

(٢) سورة الأعراف . ٣١

(١) سورة الأعراف ٣٢

(١) سورة النحل ٨

(٥) سورة الأنبياء ٨٠

(٤) سورة النحل ٧-٥

أصيل منها لا على هامشها - فصلاً عن أن يكون متعارضاً معها - مادام تكليفاً من عند الله ،  
أو أمراً تله الله أو أباحه الله .

ولكن كيف نوفق إذن بين هذا التعارض الذي يسيق إلى وهم بين « العمل »  
و« العبادة »؟ إن القرآن هو الذي يبيّن لنا ، ويجيب على تساؤلنا  
« اعملوا آل داود شكراً ، رقبيل من عبادي الشكور ! »<sup>(١)</sup>

« قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قبيحاً مله إبراهيم حنيفاً ، وما كان من  
المشركين . إن صلاتي وسكوتي وعيائي ونمائي لله رب العالمين ، لا شريك له ،  
رسلك أمرت ، وأنا أول المسلمين »<sup>(٢)</sup>

ذلك هو لتفسير الرباني للعبادة التي خلق الإنسان من أجلها ، ومن أجلها  
وحدها « اعملوا آل داود شكراً » قل . إن صلاتي وسكوتي وعيائي ونمائي لله رب  
العالمين .

إن العبادة ليست فقط كما يتبادر إلى وهما أحياناً هي الشعائر التعبدية التي يقوم بها  
الإنسان في أوقات محددة من النهار واسيل كالصلاة ، أو أوقات محددة من العام كالصيام  
والزكاة ، أو مرة واحدة في العمر لمن استطاع كالحج .

وما يسكن أن تكون هذه الشعائر المحدودة ، التي تستغرق ذلك الوقت المحدود ، هي  
كل « العبادة » التي خلق الله الإنسان من أجلها . وإلا فما حكم بنية الوقت الذي لا يقوم  
فيه الإنسان بهذه الشعائر ؟

إن العبادة هي العمل شكراً لله - أي بتقوى الله وذكره - وهي أن تكون الصلاة  
والسكوت والحياة والمهمات كلها لله !

بدنك يستقيم معنى العبادة ، ويتضح معنى التكليف !

كل عمل كل عمل على الإطلاق يقوم به الإنسان وقلبه متوجه إلى الله ، شاكراً  
لأنعمه التي تفصل بها عليه . فهو هو العبادة لله !

الصلاة والسكوت والحياة بما حوت من العمل والحركة والشباط . . إلى آخر قطرة من  
الحياة حين يحيى الموت . . حين يتوجه بها القلب لله ، ويستمع بها رصاه . وحده دون  
شريك ، أي حين يلتزم فيها بأوامر الله فهذه هي العبادة لله وهذا هو الدين القيم  
والصراط المستقيم ، الذي هُدي إليه الأنبياء من قبل ، وأمرنا نحن باتباعهم فيها هداهم الله  
إليه .

(١) سورة سبا : ١٣ . (٢) سورة الأنعام ١٦٦ - ١٦٣

وبذلك تتصح رحمة الله بالخلق إنه لا يكلفهم فوق طاقتهم ! به يكتفهم شيئاً واحداً  
تتحقق به العودة للصحيحة التي طبعها فيهم وكلهم بها حين خلقهم أن يكونوا في كل  
أعمالهم ذاكرين لله شاكرين لله ، ملتزمين بأوامر الله سواء كان هذا العمل سبباً وصلاة ، أو  
مألاً تقوم به الحياة ، أو صنعة تتقدم بها الحياة ، أو علماً ييسر حياة ، أو رية طيبة مسخرة  
تجمل بها الحياة !

ما أيسر التكليف ! . . وما أصعبه في آن

فلننظر من أين جاءت الصعوبة في ذلك التكليف البائع اليسر أو بعبارة أخرى  
فلننظر لم لا يشكر الإنسان ؟



نمضي مع قصة الخلق ، نعرضها بقية الآيات في القرآن ، فنجد أن الله حين خلق في هذا  
الإنسان من روحه قد وهب له مواهب حمة ، مهيبة لمخلوق آخر .  
« وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »<sup>(١)</sup>

والسمع ليس مجرد الأذن التي تسمع - وإن كانت هذه من نعم الله ولا شك - ولكنها  
لتي تسمع وتعي - والأبصار كذلك ، ليست مجرد الأعين التي تبصر ، وإن كان مجرد  
لأبصار نعمة من نعم الله الكبرى ، ولكنها الأعين التي تبصر فعي ما تبصر ، وتذكر  
دلالاته وما وراءه من حكمة .

والأفئدة - وكذلك القلوب - تذكر دائماً في القرآن بمعنى القوة الواعية المدركة ، والإرادة  
لصياغة كذلك

« لهم قلوب لا يعقلون بها »<sup>(٢)</sup> .

« أفلم يسيروا في الأرض فتكون هم قلوب يعقلون بها أو أذان يسمعون بها ؟ لوها لا  
تعي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور »<sup>(٣)</sup> .

ثم ، كما جاء في سورة العلق ، « علم الإنسان ما لم يعلم »<sup>(٤)</sup> .

ثم أمر الملائكة أن يسجدوا لهذا الإنسان الذي خلقه الله وصوره ، ومعه ما معه  
من مواهب التي معها تلك القدرة على التعلم<sup>(٥)</sup> ، ومنها الوعي والإدراك والقدرة على  
الاحتبار . فسجدوا .

(١) سورة النحل ٧٨ (٢) سورة الأعراف ١٧٩ (٣) سورة الحج ٤٦

(٤) سورة العلق ٥ (٥) جاء في سورة البقرة « وعلم آدم الأسماء كلها »

«إلا إبليس لم يكن من الساجدين !»<sup>(١)</sup>

وإبليس لم يكن من الملائكة بل من الجن :

«إلا إبليس كان من الجن ههنا عن أمر ربه»<sup>(٢)</sup>

ولكن السياق يذكره مع الملائكة لأنه كان حاضراً في ذلك مشهد ، وتلقى لأمر كما تلقاه الملائكة .

« قال : ما معك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ »<sup>(٣)</sup>

وإنما يستلزم بيانا « فسجدوا إلا إبليس » لا بمعنى أنه واحد منهم ، ولكن « استثناءً مقطوعاً » كما بقول النحويين بمعنى « وبكى » أى « فسجدوا وبكى ، إبليس لم يكن من ساجدين » (هذا على أحد التفاسير)

وهنا تبدأ العقدة الماثلة في قصة آدم . .

لقد طرد إبليس من الجنة انتهى كان يعلم فيها ، جراء عصيانه وسجده للعصيان

« قال : أنا خير منه ! خلقتني من نار وخلقته من طين ! »<sup>(٤)</sup>

طرد مدموماً مدحوراً ولكن بعد أن طلب إنذاره إلى يوم يبعثون وأجيب إلى طلبه

« قال : أنظري إلى يوم يبعثون . قال : إنك من المنظرين »<sup>(٥)</sup> .

فهو حرج صاعراً في صمت أم إن الصعينة التي ملأت قلبه حسداً وحقدًا قد

تفحرت وهو يخرج ، فتأثر منها ابوعبد لأدم ربه ؟

« بل هما أعوينى لأقعدنهم صراطك المستقيم ! ثم لآتيهم من بين أيديهم ومن

خلفهم وعن أيهم وعن شئائهم ، ولا تحذأ أكثرهم شاكرين ! »<sup>(٦)</sup>

هم بهم - بصورة مدنية - لماذا لا يشكر الإنسان لماذا لا يؤدي ذلك التكليف ليسر ،

وهو العبادة ، بمعنى الشكر ، للرحمن !

ولكن كيف استطاع الشيطان أن يتسلل إلى قلب آدم - وسبه من بعده - فيصرفهم عن

الشكر الواجب . « ولا تحذأ أكثرهم شاكرين » ؟

هنا تنبى لنا قصة بقعة الضعف في قلب آدم ، التي يتسلل منها الشيطان

« يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا

من الظالمين » فوسوس لها الشيطان لسدى لها ما وورى عنها من سوءاتها ، وقال ما

(١) سورة الأعراف ١١ . (٢) سورة الكهف ٥١ . (٣) سورة الأعراف ١٢٠

(٤) سورة الأعراف ١٤ ١٥ (٥) سورة الأعراف ١٦ - ١٧

هاكيا ربكما عن هذه الشجرة ، لا أن تكون ملكي أو تكون من الخالدين . وقاسمها إني  
لكم من الناصحين ، فدلأهما بمرور . . . ١ » (١)

هذه هي مسألة المسائل في حياة آدم . وبه . وتلك هي « نغمة الصعف » العظمى  
في ذلك الكيان الموهوب بشتى الموهب والقدرات !

إن « صنوع » تحول في الحال إلى « شهوة » . ومن الشهوة يتسلل الشيطان

لقد أبيع لأدم وجواء كل ثمار حبة ما عدا شجرة واحدة ممنوعة

ولكن هذه الشجرة الواحدة للمنوعة صارت هي موضع التطمع ورغبة وصعرت إلى  
جانبا كل الشار !

وهنا تسلل الشيطان في فرصته السابعة ليمد ما توعد به آدم من قس . يحرجه منه  
من الحبة !

تتطلعن ين هذه الشجرة ؟ فما يمنعكما أن تأكلا من ثمارها الشهية ؟ أوامر الله ! ما  
هاكيا ربكما عن هذه الشجرة إلا لحرمكما من فيها من خير ومتعة ! إنكما إن أكلتي منها  
بصحا ملكي ، تطرد في حفة كالملائكة ، وتكون لكم قدرات ملائكة ! ثم إنكما لن  
تمون أبدا ! بل ستكونان خالدين ، ويكون لكما ملك لا يبلى !  
يا له من إغراء !

« فدلأهما بمرور ! فلما دافا الشجرة بدت هما سوءاتها وطعما يحصمان عليهما من ورق  
الحبة . . » (٢)

انكشفت نعمة الشيطان عن مارق محرج أوقعهما فيه ولا ريادة !  
« وبداهما رمي أم أهكي عن تلك الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان نكبا عدو  
مبيي ؟ » (٣)

بن ! ولكن وقعت الواقعة !

« قلأ ريت ظلمت أنفسا ، وإن لم تعرفن وترجما لأكوس من الخامرين » (٤)

ولقد عمر الله هما وتاب عليهما من المعصية التي ارتكباها

« وعصى آدم ربه فغوى ، ثم احتباه ربه فتاب عليه وهدي » (٥)

ولكنها هبطا من الجنة كي دير لها الشيطان ! هبط إلى الأرض ومعهم ذلك الشيطان !

(١) سورة الأعراف ١٩٠ - ٢٢

(٢) سورة الأعراف ٢٣

(٣) سورة طه ١٢١ - ١٢٢

(٤) سورة الأعراف ٢٢

(٥) سورة طه ١٢١ - ١٢٢

« قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو . وبكم في الأرض مستفرومتع إلى حين »<sup>(١)</sup>  
 وأي عداوة متدلة أكبر من نسب كليهما في إجحاح الآخر من جهة ؟ ! بليس بحقده  
 على آدم ، وآدم بطاعته للشيطان ! !

\* \* \*

تلك حلقة من القصة . . ولكن القصة لم يتم تمامها بعد .  
 لقد هبط للمريقان . . كل بيا هو عبه !  
 الشيطان يكن حقه وتربصه . والإنسان يكن مواهبه وقدراته . ونقطة الصعب  
 المتأصلة في كيانه التي يتسلل منها الشيطان !  
 « قال فيها تمحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تُخْرَجُونَ »<sup>(٢)</sup> .  
 هما ستكون حياة آدم وبنيه .

وهما سيتلقى التكليف

« قال اهبط منها حيثما بعضكم لبعض عدو »<sup>(٣)</sup> ، فإما يأتيكم من هدى فمن اتع  
 هداى فلا يضل ولا يشقى »<sup>(٤)</sup>

والتكليف هو عبادة الله وحده بلا شريك العادة بمعناه الواسع ، الذي يدخل به  
 شعائر لتعدد ، وعمارة الأرض ، والسعى في مكاب الأرض ، والابتغاء من فضل الله ،  
 والريئة الحلال . واحتمال الحلال .

ولكن . . هو كذلك مجال الشيطان !

« إنا جعلنا ما على الأرض ريئة هـ ، لنلوهم أيهم أحسن عملا »<sup>(٥)</sup> .

ريئة فيها الطيب الحلال . وفيها الخبيث الممنوع

فأما التكليف الربى - الذي يتمثل في الهدى الآتى من عند الله - فهو يأمر بالطيب  
 ويمنع الخبيث . وأما إغراء الشيطان فهو بذلك الخبيث عبه ، يزينه لئلا يبقوا فيه  
 « قال رب بما أعويتى لأريتني هم في الأرض ، ولأعويهم أجمعين ! إلا عادك منه  
 لمخلصين »<sup>(٦)</sup>

وبذلك هي معركة حياة . أو هي الملحمة العظمى التي يحوصها الإنسان  
 يتخذ طريقه في الأرض فيبرر له المغريات من كل جانب ، يقف إلى جانبها الشيطان  
 يزينها ويعزى بها ويهتد بالناس إليها

(١) سورة الأعراف ٢٤ (٢) سورة الأعراف ٢٥ (٣) اهبط أى آدم والشيطان  
 (٤) سورة طه ١١٣ . (٥) سورة الكهف ٧ . (٦) سورة الحجر : ٣٩ - ٤٠

« واستغفر من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بحبلك ورجلك وشركهم في الأموال والأولاد ، وعدهم ! وما يعدهم الشيطان إلا عرورا ! » (١)

فمن حانت منه المصيبة إلى المقربات فقد أوشك أن يقع في الفخ ! إن لم يقع بالمحل ! بل ، الشيطان لا يقف ساكتا ينتظر من يقع ! إنه دائم الحركة « الشيطانية » لا يمتز « ثم لا يسهم من بين أيديهم ، ومن حلمهم ، وعن آياتهم ، وعن شيائيلهم » (٢) تلك عقبات الطريق عقبات يرينها للشوق ، وتدفع إليها الرغبة ، ويؤثر إنيها الشيطان .

ومع ذلك في أصعب كيد للشيطان للمدين يستعصمون منه هدى الله ، ويلجأون منه إلى حمه :

« إن عبادي ليس بك عبديهم سلطان ، لا من اتعك من العاوين ! » (٣)  
« إنه ليس له سلطان على الدين اموا وعى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الدين يتولونه ، والدين هم به مشركون ! » (٤) .

فتلك هي عدة الإنسان في الطريق ، التي يسجوها من عقبات الطريق ! وليس معنى السحابة من عقبات الطريق ، باتباع هدى الله ، والإيمان به والتوكل عليه ليس معناها « الراحة » بمعناها الحسى الغريب !

كلا ! « يا أيها الإنسان إنك كدح إلى ربك كدحا فملاقيه ! » (٥)  
فالحياة كلها كدح سواء منها الكدح في سبيل الله ، والكادح في سبيل الشيطان ! والعارق ليس في الكدح ذاته ولا في درخته ! إنما العارق في نوع الكدح وشيخته « فاما من أوتى كتابه يمينه ، فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب إلى أهله مسرورا وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثورا ، ويصلى سعيرا » (٦)

\* \* \*

ههنا تأتي الحلقة الأخيرة من الفصل . أخطر الحلقات في الحقيقة !  
إن الحياة الدنيا مجرد حلقة من حلقات القصة ولكنها ليست هايتها !  
« أفحسبتم أنها حلقاتكم عبثا ، وأنكم إلي لا ترجعون ! » (٧)  
إن انتهاء القصة في الحياة الدنيا يجعلها قصة عائشة لا تليق بحلال الله الخالق العظيم .

(١) سورة الإسراء ٦٤ (٢) سورة الأعراف ١٧ (٣) سورة الحجر ٤٢  
(٤) سورة النحل ٩٩-١٠٠ (٥) سورة الأنشاق ٦ (٦) سورة الإسحاق ٢-١٢ .  
(٧) سورة المؤمنون ١١٥



هذه الشتات المنتثر المتناثر من أحداث لأرض هذه الظلم والسعي بغير الحق هذه  
لدماء أنتى تسبك والأموال التى نعصب والأعراض لى تنتهك والكروامات التى  
تهان... هل هى نهاية الصورة ؟

يظل الظلم يظلم حتى آخر قطرة من حياته وتنتهى لصورة ؟ يظل المظلوم وقف في  
العسف والاضطهاد والنشر بدلى آخر قطرة من حياته وتنتهى الصورة ؟  
و يكون ذلك عدلاً صادراً عن إله عادل ؟ !

كلا ! كلا ! .. « إن إلى ربك الرجعى » <sup>(١)</sup>

« وضع الموريس القسط ليوم القدمة فلا تطعمهم نفس شيئا ، وإن كان مثقب حده من  
حردن أتينا بها ، وكفى بنا حاسين » <sup>(٢)</sup>

هنا تكتمل لقصة بلى نهايتها :

« كما بدأكم تعودون عريقاً هدى وعريقاً حق عليهم الصلابة لهم اتحدوا الشاطين  
أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون » <sup>(٣)</sup>

\* \* \*

تلك قصة آدم .. إنها قصة القصص فى القرآن !

فانزل كل من الحكمة لأحيرة لأساء آدم عند هبوطهم إلى الأرض وإلى أن يرث الله  
الأرض ومن عليها .

وكل ما فيه من القصص والمواعظ ، والأوامر والنكاييف ، هو هداية لى آدم ،  
ومعاونتهم فى معركتهم الطويلة مع الشيطان .

وإن فى هذه القصة لدروس عديدة حدير بنا أن نلصق عليها وتدبير

ومن حقيقة خلق آدم من قبضة من طين الأرض وبخفة من روح الله ، بنس لى ذكرى  
أنه لا يمكن فصل عنصر فى حياة الإنسان عن عنصر ، لأنها مترجحة مترابطان ومن  
ثم فكك نظام أو فكرة أو تصور يتصور الانسان مادة وحسب ، أو روحاً وحسب فهو  
مخطن من حيث فهم الحاسب الآخر فى كبد الإنسان ، ويسرى لخطأ فى كل خطوطه  
وتخطيحاته ، سواء كانت سياسة أو اقتصادية أو اجتماعية أو فكرية أو تربية أو علمية  
أو فية لأنها من ابدية تقوم على أساس تصور خاطئ لحقيقة الإنسان .

(٢) سورة الأنبياء ٤٧

(١) سورة العلى ٨

(٣) سورة الأعراف ٢٩ - ٣٠

ومن ثم كذلك فأى محاولة لفصل أعمال الإنسان عن دلالتها الخفية ، أو لرغم ما أن سياسة لا علاقة لها بالأخلاق ، أو أن لاقتصاد لا علاقة له بالأخلاق ، أو أن علاقة تحسين لا علاقة لها بالأخلاق ( 11 ) أو أن الفن لا علاقة له بالأخلاق كلها محاولات خاطئة وتصورات خاطئة ، لا تستقيم إلا حين يكون للإنسان طريق واحد لا يملك إلا أن يسير فيه . فأما إن كان له طريقان ، وله القدرة على أن يختار أيًا من الطريقين ، فقد حددت إذن دلالة حقيقة مصاحبة لكن غير فهذا حسن وهذا رديء . وهذا صواب وهذا خطأ . . . وهذا عالٍ ودلّك دنى . . .

ومن ثم أيضًا فإن كل محاولات عدم المنس التحليلي لتبرير الجريمة - بصرف النظر عما وراءها من تحطيط شرير لا تعرض له - هي قائمة كلها على أساس تصور - أو تصوير - خاطئ للنفس الإنسانية ، يدعى الإرادة الصاعدة التي تختار طريقًا من الطريقين ، ويسد طريق الخير كله ، طريق الله ، ولا يدع إلا طريقًا واحدًا هو طريق للشيطان !

ومن تدبر المعنى العربي للعبادة يتبين ما مدى ما وقع فيه المسلمون في استبدادهم من تحريف للمعنى ، لعبادة حتى قصرت على شعائر التعبد . وألقى منها العناء بأمّا كل من « العمل والاسمك » وتبين لنا الجهد الواجب في إعادة المسلمين إلى المهتم الصحيح للعبادة ، الذي فهمه الرسول - صلى الله عليه وسلم - ودخل الأول من الصحابة فصنعوا « بعبادتهم » ذلك التاريخ لعد في كل تاريخ لشرية ، في كل مجاز من مجالات الحياة الشرية !

ومن تدبر معصية آدم ومعصية الشيطان بعد فرقًا حدريًا بين المعصيتين الأولى معصية الشهوة التي تعمى بصيرة الإنسان لحظة وقوعها أمام الله عنه . ثم يبق من قريب ، فيعرف أنه أخطأ في حق ربه فيتوب . والثانية معصية التكبر على طاعة الله ، وإبداء « وجهه نظر » تخالف ما أمر به الله . أو هي تعبارة أخرى الحكم في أمر من الأمور بعين ما أزل الله من تعاليم . وهذه هي التي سماها الله كفرًا بالنسبة لإبليس ، وكفرًا كذلك بالنسبة للإنسان الذي يقع في ذات ما وقع فيه إبليس ، فيخالف الله تكبرًا عن طاعته ، أو يبدى « وجهة نظر » له تخالف ما أمر به الله ، أو يحكم في أمر من الأمور بعين ما أزل الله لأنه لا يعتبر أن ما أزل الله واجب التنفيذ !

ونكر يلعب بطرا - بالإصافة إلى ذلك - أن القرد سمي ذلك انكفر عبادة للشيطان

( ١ ) تحدث عن السلوك فيما بعد

« ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعدوا الشيطان إله لكم عدو ميّس ؟ وأن اعبدوني ، ههنا صراط مستقيم ؟ ولقد أضلّ منكم جنّاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ؟ » (١)

وليست ههنا عبادة للشيطان بمعنى إقامة المعبود له ، وإقامة انشعائر التعمدية له في تلك المعبد !

ولكنها العبادة بمعنى الطاعة والانساع .

وعبادة الله كذلك معناها الطاعة والاتباع . . .

هو معنى واحد لها وههناك

فمحاولة تحرير العبادة بالنسبة لله سبحانه وتعالى إلى مجرد الإقرار بوحديته وتقديم شعائره لتعبد إليه ، دون الطاعة والاتباع في أمر به من شريعات وتنظيمات تصمم حياة البشر على الأرض ، هي معالطة « يعرية » للمعجم القرآني ، فصلاً عن ربها العقيدى وصلاته السلوكي . ولكنها معالطة مكشوفة حين مرجع إلى معنى العبادة بالنسبة للشيطان !

ومن ثم فإن لا إله إلا الله لا ينتهي مدلوله - ولا معنوه - عند الإقرار بوحديته لله وتقديم لشعائره لتعبديه وحسب . إن معناها هو الطاعة لله ، والحكم بآمر الله ، وتذرع منهج الله . . ولا فإياها ليست لا إله إلا الله !!

ومن تدبر وصح « عمارة الأرض » في المنهج لرباني يتبين لما أمرنا في وقت واحد الأمر الأول أن عمارة الأرض في طر من منهج الله تختلف اختلافاً رئيساً عن عمارة الأرض في ظل منهج الشيطان . كلا المنهجين يستخدم قدرات الإنسان ومواهبه وقدرته على الإبداع ، فستخلص بذلك كنه طاقات مكنونه في الكون ، ويسمى بالعلم النظري والتطبيقي إلى تسخير هذه الطاقات لتعمير الأرض وتسيير الحياة للإنسان

ولكنها - من الوجهة - مختلفان في أهداف ، مختلفان في النتيجة .

أولها ينظر إلى الأمر على أنه عبادة فيتقّى الله فيها يصنع لا يظلم ليسيّطّر لا يظلم ليشترى لا يظلم ليقبض « حصارة » لا يظلم ليستمتع بشمار « حصارته » على حساب الآخرين ثم مرة أخرى يتقّى الله فيها يصنع ، فلا يفسد « لأخلاق » يسيّطّر ، ولا يفسد الأخلاق ليشترى ، ولا يفسد الأخلاق ليقبض حصارة ، ولا يفسد الأخلاق ليستمتع بشمار حصارته أو لا يجعل ثمرة ذلك كله فساد الأخلاق ، بمعناها الواسع الذي يشمل حسن ويشمل كن تعامل بين البشر بعضهم بعض ، بما في ذلك تعامل السيئة وتعامل الاقتصاد

(١) سورة يس : ٦٠ - ٦٢

وبعامل الفكر ومن ثم بتنى الله مرة ثالثة فيها يصنع ، فلا بعدد ، المفطرة البشرية ، لسيطر أو يثرى ، أو يفيم حصرة أو ستمتع شها إحصارة ، وإفساد المفطرة أبعد مدى من إفساد لأحلاق ، فطرة الذكر لدى خلقه الله ذكراً ، والأنثى التى خلقها الله أنثى ، ومفطرة لإفساد عذمة ، الذى خلقه الله من نصة من طين الأرض وبمحة من روح الله فلا يسمى حصرة فى عام المادة وعام حسن بحجة تعمير الأرض وإقامة الخضار ، وأما الشئ فلا يباى شيئاً من هذا كنه ، إنه يعمر الأرض نعم . ولكن لشيء واحد فقط - هو الاستمتاع ! ومن ثم تهوى فى نظره النقيم كنه أو تُسقى ، لأن النقيم كلها . مد اليد - قيد على المتاع !

حصرة ، إنه قيد مقصود به دفع هذا متاع عن أن يكون متاعاً حيوياً ، وتظهره ليكون خلقاً للإنسان ، دون كنه ولا مضادة مناعه . ولكن حين يكون هدف هو المتاع ولا ردة ، فإن القيد كله يصبح شيئاً كريهاً فى ذاته ، ولو كان سابقاً من ذات المفطرة ، ولو كان هو القيد الذى يجعل الإنسان إنساناً ويحول منه وبين أهوى إلى عالم الحيوان !

ومنهج الشيطان هو « تزيين » الأرض للمتاع ، « لأرض هم فى الأرض ولأعويهم أنعمى ! » وهو هو منهج الجاهلية فى تعمير الأرض بدعوى تعميرها وتفتن . ولكنها تحطم « الإنسان » الذى نُعمّر الأرض من أجله ، وتتكسر به دئماً إلى حطأة يعف عنها الحيوان ! ! وأوقع مثال ذلك هو جاهلية القرن العشرين ، التى « عمرت » الأرض كما لم تعمر فى تاريخها كله ، و « خربت » الإنسان بما لم يحدث له مثيل فى التاريخ !

والأمر الثانى الذى يتبين من تدبر وضع « عمارة الأرض » فى المنهج الربانى ، أن هذا المنهج لا يصنع فرقاً بين « العمل للرب » و « العمل للأخرة » ، ليس هناك أعمال تعمل من أجل الرب ، وأعمال أخرى تعمل من أجل الآخرة . وإنما هى كلها أعمال من « نوع » واحد . و « اختلعت » أشكائها « لأنها كلها « عبادة » العمل فى خلق عبادة والعمل فى تصنع عبادة والعمل فى الدرس عبادة والرواح عبادة والسعى إلى لورق عبادة . ومعدن التعبد عبادة ! وكلها للدين وكلها للأخرة فى أن ! حتى شعائر العمل انسى نظر أنها للأخرة وحدها ، فهى للدين كذلك ، لأن « تهى عن العيشاء والمكر » فى الدنيا ، وسعت على التقوى فى الدين . فتستقيم معاملات الناس بعضهم مع بعض فى خبابة الدنيا ، فى ذات الوقت الذى يقصد بها وجه الله فى الآخرة .

وكما لا تسعى عبادة الرواح عن عبادة العمل فى المصنع - والعكس - فكذلك لا تسعى

عبادة الشعائر عن عبادة العمل في المصنع والعكس ! كل العبادات مضمونة كل في مكانها ووقتها المطوب . . وكلها للدينا والآخرة في آن  
تلك بعض الدروس من قصة آدم . . وكثير غيرها لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد  
ولعله قد تبين لها أنها كلها دروس في « العبادة » . وليس شيء منها عن العقيدة بعيداً

## أخلاقيات لا إله إلا الله

لموضوع لسادس من موضوعات السور لكية - ولا نقول الأخير - هو أخلاقيات لا إله إلا الله . . الأخلاقيات الإيمانية التي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون بلا إله إلا الله ، والأخلاقيات الحاهلية التي ينبغي أن يسدها المؤمنون واحقيقة أن شديد « بأخلاقيات » الجاهلية قد بدأ منذ اللحظة الأولى ، مع التثبيد بفساد تصورهم الاعتقادية ، واستمر معه حتى لهاية وفي ذلك دلالة معية لا يسعى أن تعيب عن أذهاب ، وهي أهمية العصر الأخلاقي في هذا الدين ، وتعمقه إلى الجذور الجذرية العقيدية ذاتها . وارتبط التصور الاعتقادي بسلوك الأخلاقي في شتى مباحي الحياة

إن الأخلاق ليست شيئاً ناموياً في هذا الدين . وليست كذلك محصورة في نطاق معين من نطاقات السلوك البشري . إنما هي ركيزة من ركائزه ، كما أنها شاملة بسلوك البشري كله يندد القرآن بأخلاقيات الجاهلية منذ السورة الأولى سورة العلق . بل يندد بها قبل أن يتحدث عن لفساد العقيدة ذاته وكأنه يسهب بذلك إلى أن لفساد العقيدة ليس فسداً « ظهرياً » ولا فساداً في « التصور » المتكون في داخل الصميم بحسب ، بل إن له آثاراً سلوكية عملية يعرف بها وينمير

« كلا ! إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » (١)

والطغيان « حيق » ، حيق جاهل يشأ من فساد عقيدتي تصوري « أن رآه استغنى » ! فحين يتصور الإنسان - بلوهم - أنه قد استغنى بما في يده من مال ولبين و لسلطان الممدود في الأرض ، فإنه يطغى ويتجبر

ولكن ما هي حقيقة « الاستعناء » هنا ؟ إن الآية تقول « استغنى » وترك مفهومها فهم من بقية السياق . وواضح أنه قد « استغنى » عن الله سبحانه وتعالى ! فإنه حين يكون تحت يد يذكر الله ويدعوه ! فهذا أعطاه الله نسي ! نسي أن هذا الرزق الذي بين يديه هو من عند الله !

(١) سورة العلق ٦ - ٧

ثم سئى حقيقته أخرى أن الله الذى أعطى ما أعطى قدر على أن يسرد ما أعطى ، ويعيده  
إلى حاله قبل هذا العطاء !

كلا ! إن الإنسان لينسى هذه الحقائق ويطمى

يتوهم أن ما بين يديه من لرق هو من صبح نفسه ولا يد الله فيه ! ويتوهم أنه باق بين  
يديه لا يبرول ، ويسئ لله عنه سبصار فيحرقه هـ ابوهـم وذلك إلى بصور خاطئ ، هو أنه  
قد استعنى عن الله سبحانه وم يعد فى حادثة إله ومن ثم يطعمى فلا يلتزم حد من  
الحدود .

وهذه الأوهام كلها ناشئة عن فساد فى التصور لاعتقدي

فرو أن هذا انطاعية عرف الله عن حقيقته بقدر الله حق قدره ولعمم أنه لا يمكن أن  
« يستعنى » عن الله لحظة واحدة لأنه هو وكل ما يملك د حـ فى منكوته الله سبحانه  
وبعالى ، حاصع سلطانه ، ورهن خشيته إن شاء أباه وإن شاء أزاله ولا تستطع  
قوة فى السماء ولا فى الأرض أن تمنعه من الله

لو أنه عرف هـ على حقيقته لرب عنه وهم « الاستعاء » عن الله وروى عنه بالتالى  
ذلك الطمع الذى أحدثه وهم الاستعاء ولاستقام سبوكه على الأرض نحو الله وبحو  
ناس .

وهكذا يح لسوك من التصور ، ويؤدى التصور إلى السلوك

وب السبق ليلعبنا إلى هذه الحقيقة حتى من أن يشير إشارة مباشرة إلى المصداق  
المعصدي

« أرايت اندى يهـ عبء إد حـى ١٩ أرايت إن كـى على الهدى ، أو أمر بالتقوى ؟  
أرايت إن كذب وتولى ؟ ألم يعلم بأن الله يرى ١٩ » (١)

فالأصل فى ذلك الانحراف كله أنه كذب وتولى كذب بالالهية الحقه والربوبية  
الحقة ، وأدر طهره بللهدى الربانى اندى يأمر بالتقوى بصار بهى صدا إذا صلى ،  
وبصار يطعمى لأنه يعل نفسه استعنى !

وهكذا يرتد القرون هذه السلوك سـهل بالتصور الماهلى للعاسد ويرر ذلك  
السلوك العاسد تداءً بحصل منه فى النهيه إلى الأصل الذى سـع منه وهو تصور لعاسد  
للألوهية والربوبية .

\* \* \*

(١) سورة العنق ٩-١٤

فإذا انتقينا إلى سورة تالية بعد « العنق » وهي سورة « القلم » وجدنا نفس التوكيد على معنى ذاته :

« وَ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُورُونَ مَا أَنْتَ سَعْمَةٌ رَبِّكَ تَعْجِبُونَ . وَإِنَّ لَكَ لَأُخْرًا عِبرَ مَنْثُورٍ وَإِنَّكَ لَعَلى حَقِّ عَظِيمٍ فَسْصِرْ وَبَصِّرْ بِيَكُنْ مُبْشِرًا وَادْعُ إِلَى تَطْعَمٍ مَكِيدٍ وَلَا تَطْعَمِ الْمَكِيدِينَ هَمَّازٌ مَشَاءٌ نَمِيمٌ ، عَنَلِ بَعْدَ ذَلِكَ رَبِّيمُ أَنْ كَانَ دَا مَلٌ وَبِينَ ، إِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِ آتَمَ قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ سَمِعَهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ! ! »<sup>(١)</sup>

هنا - كما هناك - إبراء واضح للعنصر الأخلاقي من الحسن جانب الإيمان وحاسب الكفر

والرسول - صلى الله عليه وسلم - يقال له « وإِنَّكَ لَعَلى حَقِّ عَظِيمٍ » وقد يكون هذه خصوصية للرسول - صلى الله عليه وسلم - من حيث الدوغة « على خلق عظيم » أما من حيث كونه صلى الله عليه وسلم - على خلق ، فذلك من خصوصيات الإيمان لنى يبررها السياق القرآنى فى مواجهة « أخلاقيات » الكفر فى الجانب الآخر « خلاف مهين ، هَمَّازٌ مَشَاءٌ نَمِيمٌ ، مَبَاعٍ لِمَعِيرٍ مَعْتَدٍ أَثِيمٌ ، عَنَلِ بَعْدَ ذَلِكَ »

وكانها يقدم السياق القرآنى مواجهة كاملة بين أخلاقيات الإيمان وأخلاقيات الكفر ، مثلة فى شحوص شحوص الرسول صلى الله عليه وسلم - مثلاً للإيمان ، وشحوص الوليد ابن الحيرة الذى نزلت به هذه الآيات مثلاً للكفر ، أحدهما فى لقمة من الأخلاق لأنه فى لقمة من الإيمان ، والآخر فى الخصيص من الأخلاق لأنه فى لدرك الأسفل من الكفر

رواضح أن هناك مقابلة بين الإيمان ذاته وبين الكفر

من جانب « ما أَنْتَ سَعْمَةٌ رَبِّكَ تَعْجِبُونَ » [ أى أَنْتَ مُؤْمِنٌ بِرَبِّكَ عَلَى وَجْهِ وَدِرَاكٍ وَالرَّسَالَةِ حَقٌّ ، وَلَوْحَى حَقٌّ ، وَالسَّعْثَةُ حَقٌّ ، وَلَيْسَ قَوْلُكَ لِلنَّاسِ إِنَّكَ بِنِى مَرْسِلٌ أَثَرًا مِنْ ثَرَارِ الْحَمُونَ ، إِنَّمَا هُوَ حَقِيقَةٌ ] .

ومن الجانب الآخر « فَلَا تَطْعَمِ الْمَكِيدِينَ » .

ولكن هذه المقابلة العقيدية لا تعرض من حلال تصور عتفدى محسب - على أهمية لتصور الاعتقادى فى ذاته - وإن تعرض فى صورة سلوك حقيقى فى ذات الوقت ، ويتوسع مدحوظ فى جانب الكفر ، الذى يركز عليه السياق



وأحياناً نتصور أن هناك ملائسات محبة في سير الدعوة هي التي تطلب هذا العرض في السياق أو ذاك . كتعرض أحد كبار المشركين للرسول - صلى الله عليه وسلم - بالأذى ، وتصدى القرآن للمواجهة معه ، أو تكتل قريش كلها لعملية لإيذاء وتصدى القرآن بتردها عنها .

ولا شك أن ملائسات المحلية كان لها في عزم الله السابق مقصديات . وأن الله قد أمرل آيات معينة بشأن . ولكن للملائسات المعارضة فدا انتهت ، وبقي القرآن يبقى كما هو في اللوح المحفوظ ، لم تنسخ منه تلك الآيات التي برزت بشأن الملائسات المعارضة . وفيه هي أصل دائم ، لا تتعلق بالمسألة المعينة التي برزت فيها الآيات ، إنما يتعلق بحالات دائمة في حياة لبشرية . تتعلق بالكفر والإيمان ، وأخلاقيات الكفر وأخلاقيات الإيمان . ومنها يكن من أمر الملائسات المعارضة . فرب كون القرآن يندد بالمكذبين من جهة صوبكم الأخلاقي ، ويرر من المؤمنين حاسهم الخلقى ، هو ذاته الشيء الذي له دلالة في الموضوع . ودلالته أن هذا الدين يربط ربطاً كاملاً بين التصور الاعتقادي والسيوك الخلقى ، سواء من جانب الكفر أو من جانب الإيمان .

\* \* \*

فإذا انتقلنا إلى سورة أخرى مما نزل في السوراء الأولى لدعوة ، كسورة « الفجر » ، وجدنا استمراراً لنفس الخط .

« والفجر ، وليا - عشر ، ولشع والوتر . والليل إذا يسر . هل في ذلك قسم لذي حجر ؟ » ألم تركب فعل ربك بعد ، إرم دت لعماد ، التي لم تخلق مثله في البلاد ، وثمود الذين جابوا لصحر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، عصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك بالمرصاد . فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول . ربى أكرم من ا وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول . ربى أعانس ا كلا ا بل لا تكرمون أيبم ، ولا تحاصرون على صعم المسكين . وتأكلون ثروات أكلاً لا ، وتحبون المال حباً جماً . كلا . » (١)

إن مقدمة اسورة بعد القسم الذي يهدف للإشعار بأهمية ما يجيى بعده - تتحدث عن مصارع الأمم السابقة المكذبة . وعد وثمود وفرعون ، الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، عصب عليهم ربك سوط عذاب . وذلك من باب التهديد لقريش ، باستعالية في

(١) سورة الفجر . ١ - ٢١

الأرض ، المستنكرة على الأيوان ، الطاغية كطغيان عاد وثمود وفرعون وإن كان ما بيدها من متاع الحياة لمسا ، الذى يُبْسَى فَيُطْعَمُ ، لا يقاس بشيء من ما كان عند هؤلاء كما جاء في سورة سبأ .

« وكذبت الدين من قبلهم ، وما بدعوا معشار ما أتياهم فكذبوا رسل فكيّف كان نكيره »<sup>(١)</sup>  
وكي يوحى السؤال الاستنكارى في سورة القمر ، بعد الحديث عن عاد وثمود وقرم لوط وقوم فرعون .

« أكفركم خير من أولكم ١٩ »<sup>(٢)</sup>

هذا التهديد يأخذ صورته الصريحة في قوله تعالى « إن ربك بالمرصاة » أى به بالمرصاة لقريش ، يفعل بها ما فعل بالكذابين من قبل ، المعروف تاريخهم - إجمالاً على الأقل - عند العرب ، بحيث يكفى التذكير : « ألم تر كيف فعل ربك . . »

ولمفروض بطبيعته محال أن التهديد يأتى سب التأكيد ، عقيدى الذى يحاربه قريش وتصر عليه . . ولكن كيف يقرب السباق ؟

إنه يعرض قضية تدور - في ظاهرها - بميدة الصلة بقضية الاعتقاد في الله الواحد ، التى هى المشكلة الأصلية للنسبة بقريش التى تقول « أحعل الألفه إلهًا واحدًا ١٩ » إن هذا شيء عجاب ! »<sup>(٣)</sup>

القضية هى موقف الإنسان - الجاهل - من عطية الله إن وسع عليه في الرزق وإن قدر عليه رزقه :

فأما الإنسان إذ ما انتلاه ربه فأكرمه ونعمه وسط له في الرزق فإنه كما يقول عنه القرآن في سورة « هود » « فارج محبور ! لا ينظر إلى العمة على أنها انتلاه من عند الله ، كما أحسن العبد المؤمن سليمان عليه السلام فقال « هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم »<sup>(٤)</sup> إنما « يفرح » بما بين يديه من الرزق (وتعبير القرآن بالفرح لا يعنى لسعادة إنه يعنى الخلاء والاستنكار في الأرض بغير الحق ) ويسبى أنه ابتلاه ، ويوهم أن الله أعطاه لأنه راضى عنه « فيقول ربي أكرمى ! » وإذا فلا عليه أن يتصرف في ماله كما يشاء ! يعيش به في الأرض فسادًا ، ويرصده لخدمة الشيطان ويعطى مادام تزعم أنه استعصى ! « كلا ! إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استعصى »<sup>(٥)</sup>

(٣) - سورة ص ٥

(٢) سورة القمر ٤٣

(١) سورة سبأ ٤٥

(٥) سورة العلق ٦-٧

(٤) سورة النمل - ٤٠

وأما ما اتلناه فقد رزقه عليه رزقه فهو كما يصمه القرآن في سورة « هود » أيضًا « يثوس كهور » يقول ربى أهانس ! « ولا يصبر للصائفة حتى تمر ، ولا يوجه إلى الله ليرفعها عنه ، من يولى ظهره لله قانطاً من رحمته كافراً به

إنه في كلا الحالتين إذ يتصرف تصرفاً معيناً مئاً على تصور خاطئ ، والسياق يبرز الجانب السلوكي المنحرف الذي يترتب على لتصور المنحرف ، وإن كان التصور لفاسد هنا لا يتحقق بوحداية الله بما يتدبر الله وأحكامه الكامنة وراء التدبير

ثم يفضى السياق فيندد بالسوءك لجاهل تجاه المال ، لتسم بالشح على الصعفاء والمساكين ، والافتئات على أصحاب الحق في هذا المال .

« كلا ! بل لا تكرمون ليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلاً لما ، وتحبون المال حباً جماً »

وكنها انحرافات أخلاقية ، تسبب من قلب لا يخشى الله ولا يتقيه ، ولا يحس أن المال مال الله ابتداء ، وأن الله يمحاه خلقه على سعة أو صيق - ليلوهم فيها آثامهم ، ويظهر كيف تكون مشاعرهم وسلوكهم تجاه ما أعطاهم إنما يجعل المال هدفاً في ذاته ، فيتحول الاستحواذ عليه إلى شهوة مطلقة تسببه وتفسد مشاعره وسلوكه

فالأصل في هذه التصرفات جيمع هو انحراف في لتصور الاعتقادي ، ولكن القرآن يبرزه من خلال الجانب السلوكي الأخلاقي ، ليؤكد أن انحراف التصور يتبعه انحراف حتى في السلوك .

\* \* \*

هكذا جئنا إلى آخر سورة نزلت في مكة ، وهي سورة « المطففين » وجدنا نفس التوكيد على الجانب السلوكي .

« ويل للمطففين الذين إذا اكئالوا على الناس يستغيثون ، وإذا كئالوهم أو وروهم يحسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ كلا ! إن كتاب العجاء لفي صححين - وما أدراك ما صححين ؟ كتاب مرقوم - ويل يومئذ للمكذبين ، الذين يكذبون بيوم الدين - وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ، إذ تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ! » (١)

تبدأ لسورة بالسديد بهذا السلوك الأخلاقي المنحرف الذي يراوله المطففون الذين يستغيثون

(١) سورة المطففين ١-١٣

حقوقهم كاملة إذا كانوا هم المشتريين أم إن كانوا هم الذين يبيعون فإنهم يُجبرون لتكبل ولميراث ليحددوا ما ليس حقاً لهم ، ويستحدوا بالباطل على مريد من المال .  
إنه مرة أخرى سلوك جاهل منحرف إزاء المال ، يتسم بالخشع والافتئات على حقوق الآخرين من أجل تصحيح الثروات . ويأبى كذلك من انحراف في التصور الاعتقادي ، إذ لا يحظر في ذات هؤلاء أنهم معوثون ، نذرك ليوم العظيم الذي يقوم فيه الناس رب العالمين فيحاسبهم عن أعمالهم في لدي ، بل إنهم يكذبون صراحة بيوم الدين ، ويقولون عن الآيات التي تذكرهم به إنها أساطير الأولين ! وهذا هو منحرفهم العقيد الأصيل الذي يبرره لسياق ، ولكنه يبرره نادى بدء من خلال سلوك أخلاقي منحرف ، ويصل في النهاية إلى جدوره العقيدية الباسدة



هذه العناية الواضحة بإبرار الحاسب السلوكي الأخلاقي للعقيدة المنحرفة ، يقابلها عناية واضحة كذلك ببروز السلوك الأخلاقي الصحيح ، المصاحب للعقيدة الصحيحة .  
« قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم بأموالهم حافظون لا على أرواحهم أو ما ملكت أيديهم ، فإنهم غير ملمومين ، فمن اتقى وزء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم رعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الورثون الذين يرثون الفردوس ، هم فيها خالدون » (١)

بالسورة تبدأ تقرير الفلاح للمؤمنين بهذا التوكيد « قد أفلح المؤمنون » ثم تصف هؤلاء المؤمنين تحت الوصف المطول المفصل الذي يُغنى بإبرار الحاسب السلوكي لأولئك المؤمنين ، موجهاً إيماناً واضحاً أن هذه الأخلاقيات من جهة هي ثمرة الإيمان ، وأن الإيمان - من جهة أخرى - هو سلوك عملي ملموس يترجم عن عقيدته المكنونة .  
« هم نادى بدء خاشعون في صلاتهم . فذلك أول مظهر للمؤمن الصادق أن يكون صلاته - وهي اللحظة التي يقف فيها متصلاً بربه ، ذاكرة له في قلبه ، متصلاً به بروحه . تكون صلاته هذه حاشعة بما يستل عن صدق الصلة بالله ، التي يرتفع بسببها وحرارتها في أثناء لصلاة

ثم تشي السورة بصفة سلوكية أخرى ذات دلالة ، هي أنهم عن اللغو معرضون « واللغو

(١) سورة المؤمنون ١-١١

لا يسن عن نفس جاده والإيمان الصحيح يورث النفس الحد ، به يشعروا من ثقل التكليف وحديثه والحد ليس تقطيعاً دائماً ولا عبثاً ولكن النعم من جانب آخر لا يستقيم مع جديده لشعور بعظم الأمانة التي يحملها الإنسان أمام حالقه .

ثم إن هؤلاء المؤمنين لابد أن تكون في قلوبهم الحساسية لحق الله في أموالهم ، وهو الركاة ، وهو الحق الذي نعره سورة المعارج أيضاً « والذين في أموالهم حق معلوم ، لنساءل واسحروم »<sup>(١)</sup> وذلك في مقاس « كلا ! بل لا تكرمون اليتم ولا تحاصرون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلاً لما ! »<sup>(٢)</sup>

ولابد أن يكونوا ملتزمين بأوامر الله في علاقات احسن فلا يعدون حدود الله وملتزمين بأوامره في علاقاتهم « لاجتماع » فيحفظون الأمانة ويرعون العهد ثم يعود السياق لمصلاة مرة أخرى ، من ناحية المحافظة عليها في مواعيدها هذه المرة بعد أن ذكر صفتها الواجبة من قبل .

وينتهي السياق بيان مكان أولئك المؤمنين يوم لقيامة في الفردوس ، يرثونها ، كأها حق لهم محفوظ !

إن هذه المظاهر السلوكية كلها ، ذات الصبغة الأخلاقية الواضحة ، هي الزخمة العملية للإيمان . فالإيمان ليس مشاهير مكنونة في داخل الصمير محسب . إنما هو عمل سلوكي طاهر كذلك ، بحيث يحق له حين لا يرى ذلك انسلوك العمل ، أو حين يرى عكسه ، أن نسأل أين الإيمان إذن ؟ وما قيمته إذا لم يتحول إلى سلوك ؟ !

\* \* \*

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً . والذين يقولون ربنا صرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ، إنها ساءت مستقراً ومقاماً والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك فواظماً . والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا باحق ولا يربون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويجد في مهان ، إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأؤنث يبدل الله سيئاتهم حسناً وكان الله عفواً رحيماً ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يحروا عيها صماً وعمياناً والذين يقولون

(١) سورة المعارج ٢٤-٢٥ . (٢) سورة الحجر ١٧-١٩ .

ربما هب لنا من أرواج ودريات قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ، أولئك يجرون العرفه به صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما ، خالدون فيها ، حسنت متسقرا ومقاما »<sup>(١)</sup>

« وما عند الله خير » أبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون والذين يجتسئون كثائر الإثم وفساحش ، وإذا ما عصوا هم يعصون . والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ، وما ردقهم يعقوب والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون . وجزاء حسنة ستة مثنها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين . ومن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عندهم من شيء إنما السبيل على الذين يظلمون أساس ويبيعون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم . ومن صبر وعمر إن ذلك لمن عزم الأمور »<sup>(٢)</sup>

« إنهم كانوا قبل ذلك محسبين كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسباح هم يستمعرون . ومن أموالهم حق للسائل والمحروم »<sup>(٣)</sup>

إنها مجموعات مختلفة من الصفات تتألف من مجموعها الصورة لصحيحة للإيمان وهي صورة مجمع بين العقيدة المستقرة في النفس ، والسلوك الأخلاقي لمصاحبها في الواقع لشهود ونكها كما ترى تكرر السلوك الأخلاقي إبرازا واضحًا ، وتعطيا ذلك الإيجاء انتهى بأن الإيمان - الذي كثيرا ما يجمع إلى عشرة عقيدة محسب - هو في حقيقة سلوك وامى ، وإلا . فلا قيمة هذا الإيمان ! .

\* \* \*

شيء هام في الأخلاقيات الإسلامية يلتفت النظر لأول وهنه، حين تقابل بينها وبين السلوك التهديبي الذي تفرص عليه الجاهلية المعاصرة ، ويخدع الناس كثيرا فظنوه هو « الأخلاق » ! إن الجاهلية المعاصرة تفرص على كثير من الصفات السلوكية القرينة جدًا - في صورتها الظاهرة - من الأخلاقيات الإسلامية ، حتى ليسهر بها كثير من الناس ، خاصة وهم يرون الخواء الخالي الذي يعيش فيه الذين يسمون أنفسهم مسلمين ، دون أن يعنوا أنفسهم بأنهم شيء من الأخلاقيات الإسلامية على الإطلاق ! فكذبون ويعشون ويسرقون ويهجون ويظلمون ويظفون ويخونون الوعد ويأكلون حقوق الناس ثم تصف أنفسهم الكذب أن لهم الحسنى !! بينما يرى الناس في تلك الجاهلية العربية قوماً يحرصون على نظافة التعامل لا يكذبون ولا بعشون ولا يخلفون الوعد . وإذا عملوا عملاً أتقوه وأتقوه فيقولون في أنفسهم ، هذه والله أخلاقيات الإسلام ، تحمينا نحن عنها ونحسك بها القوم !

(١) سورة المرقاة ٦٣ ٧٦ (٢) سورة الشورى ٣٦-٤٣ (٣) سورة الداريات ١٦ ١٩

فأما تحسس عنها - معمم ولا شك <sup>١</sup> وأما أن هؤلاء يتمسكون بها - فهذه موضع لبيان  
 إن لأخلاق في المفهوم القرآني شيء شامس يشمل كل تصرفات الإنسان وكل مشاعره  
 وكل تفكيره - حتى لها حس أدنى بهجس داخل الصمير - فهي ليست محددة بمساحة  
 معينة ولا بعمل معين - ولا يوجد - في الإسلام - عمل واحد يمكن أن يخرج عن دائرة  
 الأخلاق - فالصلة - كما رأينا في الآيات - لها أخلاق هي الخشوع - والكلام له أخلاق هي  
 الإعراض عن اللغو - وبجس له أخلاق هي الالتزام بحدود الله وحرماته - والتعامل مع  
 الآخرين له أخلاق هي ابوء بالأمانة ورعاية العهد - والإنفاق له أخلاق هي التوسط بين  
 التقدير والإسراف - والحياة الجماعية له أخلاق هي أن يكون الأمر شوري بين الناس  
 والعصب له أخلاق هي انعمو والصمخ - ورفوع العدوان من الأعداء يستتبع أخلاق هي  
 الانتصار <sup>٢</sup> أي رد العدوان - وهكذا - وهكذا لا يوجد شيء واحد في حياة المسلم ليس  
 له أخلاق تكيّفه ، ولا شيء واحد يست له دلالة أخلاقية مصاحبة  
 هذا أمر - والأمر الآخر - وهو الأهم - أن الأخلاق في المفهوم القرآني هي لله وليست  
 للنفس ، ولا لأحد غير الله !

الصدق لله . والوفاء بالعهد لله وانتقاء المحرمات في علاقات لحسن . لله .  
 والزكاة . لله والعمو والصمخ لله والانتصار من الظلم لله وإنصاف العمل .  
 لله كلها كلها عبادة لله تقدم له رحمة . حشبة وتقوى وتطلعا بين رضاء .  
 « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه » <sup>(١)</sup>

إنها ليست صفقة بشرية بالكسب والخسارة - إنما هي صفقة تعند مع الله  
 « قل - تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم ' ألا تشركوا به شيئا وبانرا الذين إحسانا ولا تقتلوا  
 أولادكم من إيمان بحس بر ربكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا  
 تقتلوا النفس التي حرم الله إلا باحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا ما  
 اليتيم ، لا بآتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفسا  
 إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم  
 تدكرون . ولن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم  
 وصاكم به لعلكم تتقون » <sup>(٢)</sup>

(٢) سورة الأنعام . ١٥١ - ١٥٣

(١) أخرجه السائي - كتاب الجهاد

ذلك هو الميثاق الأخلاقي الشامل الذي يلتزم به المؤمن اتباعاً لصراط الله المستقيم فهو إذن جزء من العقيدة ، مرتبط بها ارتباطاً أساسياً لا يتفصل عنها بحال وإذا عرفنا هذين الأمرين عن الأخلاق الإسلامية فسنطرح في «أخلاقيات» الجاهلية المعاصرة .

نقد كان لأوروبا في وقت من الأوقات - وقت دخول المسيحية إليها - مفهوم شامل للأخلاق . ولكنه لم يعيش طويلاً ، أو قل إنه لم يطبق أبداً في واقع الأمر ! ثم جاء مكيا فيليني مبتدع مبدأ «قول القانون» إن السياسة لا علاقة لها بالأخلاق ! ثم جاءت الثورة الصناعية مع مولد الرأسمالية لرؤية وقامت اعتراضات على استخدام الربا وهو محرم من عند الله ، فقامت النصيحات تقول إن هذه أمور اقتصادية والاقتصاد لا علاقة له بالأخلاق !

ثم جاءت حركة التحلل الجنسي البشعة التي تعم وجه الأرض اليوم وقال العرب هذه مسألة بيولوجية ! وليس لها علاقة بالأخلاق ! فماذا بقي صلهم من «الأخلاق» ؟

بقي هذا التعامل السمج ، والصدق في القرون ، وأمانة الأخذ والعطاء ، والوفاء بالمواعيد ، وإتقان العمل . .

وهذه كلها أشياء جميلة ولا شك ولكن أوروبا لا تصنعها بوازع أخلاقية أكلا ! إنما هي «أخلاق تجارية» إن صح التعبير هدفها احترص على الربون ، والربح المتوقع من وراء ذلك السلوك !

أما إذا كان الربون «مريسة» مضمونة ، أو رأى الأودبي أن الربح ممكن بطريق آخر ، فلا أخلاق إذن بل لا مسؤولية على الإطلاق ! وانظر إلى «أخلاق» أمريكا مع الربون ، و«أخلاق» البيض في جنوب إفريقيا ، وعشرات غيرها من صور «الأخلاق» التي تكشف عن المعدن الحقيقي لهذه الجاهلية الموحنة في الظلم والظلمات !

\*\*\*

أما نحن . . فمستوليتنا أكبر !

نحن نملك هذا المهاج الرباني الشامل ، ثم نعيش في جاهلية أكثر ظلاماً من جاهلية العرب الذي ليس له مهاج رباني ، ولا صراط مستقيم يهتدي إليه . منذ رفض في القرون الوسطى أن يدخل في هدي الله .



نحن نحلف في حياتنا العملية كل تعاليم الإسلام ثم برعم أسا - نحن - أمة محمد !  
وأما مسلمون !

ثم بروج تسأل ما بال « المسلمين » هكذا ، يتناوشهم لنذل والهوول في كل الأرض ،  
ولا معب لهم ولا بصير ؟  
مسلمون بلا أخلاق ؟  
كيف بالله ذلك يكون ؟

ومنى ومنى كان هذا الدين مثاير مكنونه في القلب ، ليس هذا رصيد سلوكي في  
واقع الأرض ؟

حين كان المسلمون يترجمون إسلامهم إلى سلوك عمس دى طابع حلفي كانت لهم  
الغلبة في الأرض ، وكان لهم نفاذ البشرية

وحين صار « المسلمون » يرون أنهم يستطيعون أن يكونوا مسلمين بلا سلوك عمس ولا  
أخلاق إسلامية أصابهم ما أصابهم من الهول والذل في الأرض وتداعت عليهم الأمم  
كم تداعى الأكل إلى فصعتها . كما حدث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منذ ألف  
وأربعمئة عام !

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى لأكلة إلى فصعتها ، قالوا . أمس قة نحن  
يومئذ يا رسول الله ! قال من أنتم كثير ! ولكنكم غداء كغذاء السبل ! » (١)

إننا في حاجة لأن نتعرف على ديننا من جديد . . .

نعرف عليه من مصادره الصافية الأصينة كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -

ثم نحتاج أن نربى أنفسنا على الإسلام من جديد

إن الإسلام ليس أمانى . وليس كلمة تقال باللسان

« ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب ! من يعمل سوءا يُجْزَ به ولا يُخَذَّ له من دون الله

وَلَا يَصْبِرُ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة  
ولا يظلمون شيئا » (٢)

عميدة في لقلب ، وعمل صالح في واقع الحياة . . .

هذا الذى يعطى الإسلام صورته الحقيقية وهذا الذى يرفع عن المسلمين ما وقعوا فيه

من مدله وهول في يد عدو لا يرقب قبيهم إلا ولا دمة كما ورد في القرآن

(١) أخرجه أبو داود - كتاب الملاحم (٢) سورة النساء : ١٢٣ - ١٢٤

« لا يقرن في مؤمن إلا ولا دمة »<sup>(١)</sup>

« ولا يرلون مقتلوبكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا »<sup>(٢)</sup>

« ودو ما عنتم قد مدت البعضاء من أفواههم ، وما نخى صدورهم أكر »<sup>(٣)</sup>

ولم يتم الأمر بعد تربية فانسلك العمل والأخلاق التي هي حقيقة الإسلام ونمته لا تتم بعد تربية عملية يبدل فيها كل الجهد لكي تؤتي ثمارها المرجوة بتوفيق من الله .

إنك لا تستطيع أن تشي طمك على الصدق والأمانة والوفاء بالعهود والاستقامة في التعامل والحد في العمل - ونك بعض أخلاقيات الإسلام - بمجرد أن تقول له بعتك كن صادقاً كن أميناً كن وفياً بالعهود . . . إلخ

إنما محتاج الأمر إلى المثابة الطويلة حتى تعود على الصدق والأمانة والوفاء بالعهود . الخ . مع التذكير الدائم برقابة الله وثواب الله وعقاب الله

كذلك كان بعض الرسول . صل الله عليه وسلم - معطياً من نفسه القدوة والأمثلة حتى رتب الخيل الأول من المؤمنين . . صحابته رضوان الله عليهم

وهذه التربية صعدوا ما صعدوا في التاريخ ونفتحت للإسلام قلوب البشر حين رأوا سلوكه والعمل وأخلاقياته العالية ممثلة في تصرفات هؤلاء النجوم وأفكارهم ومشاعرهم والطريق هو الطريق . . لا يتعب ولا يتبدل

وحين يحدث انقراض عن أخلاقيات المهادية الكريمة ، وعن أخلاقيات الإيمان العالية ، يوحى إلي أن الماهلية تكون بتلك الأخلاق ، وأن الإسلام يكون بهذه الأخلاق وبذلك يكون درس الأخلاق جزءاً من درس العقيدة وثيق الصلة بلا إله إلا الله

(١) سورة البقرة ٢١٧ . (٢) سورة البقرة ٢١٧ . (٣) سورة آل عمران ١٠٨

نماذج من السور المكيّة

## نماذج من النور المكيّة

تحدثنا في سبق عن الموضوعات الستة الكبرى التي تتناولها السور المكيّة ، وكيف إلهامها متصلة بالعقيدة ، وكلها وسائل لتوضيح العقيدة النصيحة وترسيخها في النفوس ، سواء منها ما يتصل بالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبين ، أو يتصل بقصص الأنبياء أو قصة آدم والشيطان أو أخلاقيات لا إله إلا الله

ولكن ينبغي أن نعرف باديء بدء أن هذه التفسيرات الموضوعية التي نسميها هي من ضرورات البحث فقط ، وليس لها وجود على هذه الصورة النبوية المعنوية في القرآن ! أي أنه لا يوجد باب مستقل في القرآن للإيمان بالله ، وباتّحاد الإيمان باليوم الآخر . وهكذا إنما نحن بصطر هذه التفسيرات والتجريدات لضرورة البحث ، ولأننا نعود بعد ذلك إلى القرآن ذاته ، نلوه على صورته الواقعية كما أمر ، وبأحد تأثيراتها مباشرة منه . وسجد حينئذ أن السور المكيّة هي مرجع محكم من هذه النصوص كلها التي تحدثنا عنها ، يودع في كل مرة توقيف متكامل على أوتار القلب البشري ، يعمم سطيف الخير مدحه إلى هذا القلب وتأثيره فيه . .

وليس من الضروري أن نتحدث كل سورة مكية عن هذه الموضوعات الستة التي أشرنا إليها من قبل وإن كان من المؤكد أن تتناول واحدًا منها على الأقل . كما أنه ليس من الضروري حين تتناول السورة أحد الموضوعات أن تتناولها بكل تفصيلاته التي تحدثنا عنها في القسم الأول من هذا الكتاب ، ولكنها لابد أن تتناول بعضها على أقل تقدير . وهذا الأمر ذاته هو لب من ألوان التنويع المنحوت في القرآن ، بحيث لا تتأثر سورتان اثنتان من سور القرآن وإن تشابهتا في بعض الخواص . بل حتى حين تكون الخواص واحدة في سورتين أو أكثر ، فإن طريقة عرضها تختلف في كل مرة ، بحيث تعطى جواً خاصاً في كل مرة ، كما تعطى لونها من التخصص لكل سورة من السور تميزها عن السور الأخرى والأهمية هذه الظاهرة أفردنا لها فصلاً خاصاً من الكتاب .

وإذا تتبع السور المكيّة برتبتها في المصحف فسجد سورة الأندلس مخصصة . على طوله

- في نصيه الألوهية ولا ينهي ذلك ورود إشارات عن مشاهد لقائه ، وعن الرسل السابقين ، وعن أخلاقيات لإله إلا الله ، وغيرها . ولكن المساحة الكبرى مخصصة لقضية الألوهية من جميع جوانبها

وأما سورة الأعراف فتحتري عن أطول عرض لعصاة آدم والشيطان والمشاهد القيامة ثم يحىء بعد ذلك مجموعة من قصص الأنبياء مع تفصيل مفضل لعصاة موسى وفرعون ولا ينهي ذلك أن يرد فيها حدث مباشر عن الألوهية وإشارات إلى الحق والملائكة إلح وسورة يونس تتحدث في القسم الأكبر منها عن قضية الألوهية وموقف مشركي العرب منها ، ثم تعرض على نوح . ثم تعرض جزءاً من قصة موسى وفرعون ينتهي بعرق فرعون وتجننه بجسده ثم تعود إلى قضية الألوهية وموقف لمشركين منها .

وسورة هود مخصصة في قصص الأنبياء مع تفصيل في الحوار بين الرسل والمكذبين من قومهم وهذه الماسة بذكر أن سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء تورد ذات القصص - قصص نوح وعاد وثمود ولوط وشعب ، ومع ذلك هناك فرق واضح بين صور العرض في كل من السور الثلاث في نحو لعمري والتمصيلات ونقط التركيز . وهكذا تشابه السور ولا تتماثل مهما تكررت ورود الموضوعات ذاتها في القرآن<sup>(١)</sup>

ثم تأتي بعد ذلك سور أقصر ، فيها ذات المراح من الموضوعات المتعلقة بالعقيدة بسبب محتلفة في كل مرة ، ويعرض حديثاً كل مرة . بحيث يحس الإنسان دائماً مع القرآن أنه في حوار متجدد على ادوام ، وأنه يعيش مع الله في كل لحظة وفي كل عرض جديد . وسوف ستعرض ما بعض السامع من السور المكية ليرى كيف يعالج القرآن قصص العقيدة « عن الطيعة » لا على طريقة العقيدة التجريدية التي تقسم الموضوع إلى عناصر ومفردات ، وكيف تتجمع التوقيعات لتعطي لحاً متوفاً متكاملًا يختلف في كل مرة ، ولكنه يصل في النهاية إلى نفس العاية يصل إلى الله

وليس المقصود من عرض هذه السامع ولا السامع المدنية حين تأتي في موضعها إعداد أي لون من ألوان « التفسير » فمن أراد التفسير فليرجع إليه في مصادره المعروفة ولكن أعرضها فقط كسامع لبيان طريقة القرآن في معالجة الموضوعات التي يتناولها ، وبيان اختلاف طرائق العرض وإن اتحد أهداف واتحد الموضوع

(١) انظر الفصل الثاني

ولقد احترت في مقدمة ما احترت من السهاذح سورة الرعد وفي السورة خلاف بين المفسرين في كونها مكية أو مدنية وقد رجع صاحب الظلال أنها مكية وهناك من الدلائل ما يرجح هذا الظن ، وإن كان انقطع الكمل غير ممكن وقد احترت - مع السهاذح الأخرى المصحق على كونها مكية - لأنها ، مع صغر حجمها نسبياً ، تشتت على حشد رائع من التوقعات المتصلة بالعقيدة قد لا يتجمع في صورته هذه في السور الأخرى المساوية لها في الطول ، بالإضافة إلى أن لها في نفسها يقدمات خاصة أحست أن أشرك لقاى فيها معنى ! فإذا بين في أى يوم من الأيام أنها سورة مدنية على سبيل القطع [ وكونها مكية هو الأرجح عندى حتى هذه اللحظة ] فإن ذلك لن يغير شيئاً في لوضع فقد قل من قل إن حديث لعقيدة لم ينته مانتها الفترة المكية ، بل ظل لقرآن في الفترة المدية يتحدث عن العقيدة حتى آخر آية نزلت من القرآن !

واحترت كذلك سورة لقمان وسورة فاطر لتأثرات خاصة عندى لا يتحتم أن تكون موحودة عند كل قارئ ! ونكن لقرآن كله قرآن ! وحينما أردت مستجد السهاذح التى تعطيك ما تريد بل تعطيك بقدر ما نطيق أنت أن تأخذ ، وبطل فيها دائماً جديد لكل مسترشد . هى البحر الزاخر تذهب إليه لتعترف به فعطيك عن قدر الإباء الذى أتيت به ، ولو جئت بإناء أكبر لأعطاك !

بل نعد البحر ولا نعد كذبات الله .

« قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لعد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئت بمثله مداداً » (١) .

« ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم » (٢) .

وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إديقول فى وصف القرآن « لا نبي حدثه ولا تنفذ عجائبه » (٣) أر كما قال عليه الصلاة والسلام

(٢) سورة لقمان : ٢٧

(١) سورة الكهف : ١٠٩ .

(٣) أخرجه الدرهمى - كتاب فضائل القرآن

## سُورَةُ الرَّعْدِ

### سُورَةُ الرَّعْدِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . الله اندي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسحر الشمس واقمر كل بجري لأجل مسمى . يدبر الأمر بفصل الآيات لعلكم بلىء ربكم توقنون وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأسهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين ثنين ، يعيش لليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات ، ووجدت من أعشاب ، وورع وبحيل صوان يسقى بهاء واحد ويفصل بعضها على بعض في الأكل . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . إن تعجب فعجب قومهم ، أإذا كن تراءنا أنا لنهي حل حديد ١٩ أربك الذين كفروا برهم ، وأولئك الأعلال في أعينهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

القصد الرئيسية التي تعالجها هذه السورة هي إنكار العرب المشركين للوحي ورسالة ، وإنكارهم للنعت ، ثم طمسهم المسيح من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يأتيهم بآية وتعليق إيمانهم على نزول تلك الآية .

وهذا هو الذي يرجح أنها سورة مكية . فقد كان الإلحاح في طلب الآية ، واهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الطلب وثنيه لو أن الله استجاب هم فأقول هم الآية التي يريدونها . كل هذا كان في العهد المكي كما تشير إليه هذه الآيات المكية على سبيل المثال « وإن كان كبر عسك إعراصهم ، فإن استطعت أن تبغى بقفا في الأرض أو سلباً في السماء فتأنيهم نية ! ولو شاء الله جمعهم على الهدى ، فلا تكون من الجاهلين إنما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى بعثهم الله ثم إليه يرجعون وقالوا ، لو أنزل عليه آية من ربه ! قل . إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ! » (١)

(١) سورة الأنعام ٣٥-٣٧

« طَسَمَ تلك آيات الكتاب المبين - لعنك ناصح نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن شأ  
 رب عيهم من لساء آية فظلت أعينهم ها حاصعين »<sup>(١)</sup>  
 « وما معنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون . . »<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

على آية حل فتلك هي الفصايا التي تعالجها السورة وتتصدى للرد عليها ، سواء كانت  
 مكية أو مدنية . . فكيف عالجتها ؟

إن للقرآن طريقته الخاصة في معالجة هذه القضايا - طريقة لا تخاطب الذهن المجرد  
 ولكنها تخاطب « الإنسان » كله - وتخطبه - أول ما تخطبه - من طريق الوجدان . ولا يجمع  
 هذا أن تدعو عقله للمشاركة في الأمر ، ولكنها لا تخطبه منعداً ، إنما تخطبه دائماً ولوجدان  
 مسحاش ، فأحد دوره في التلقى متفعلاً بانقضية ، متحركاً للإيمان ، لا مجرد مُسَاحِل  
 فيها بالمنطق والبرهان !

والقرآن حين يصنع ذلك فهو يستحب لمطورة الشربة كي حنعها الله . والله لدى خلق  
 هذه المطورة هو الذي رب هذا القرآن مفصلاً على قده ، مستحباً لها ، ومحباً لها وداعياً  
 ومقرباً في أن

والعمل جزء من هذه المطورة ولا شك ، وله دوره في قضية الإيمان . . ولكن الله يعلم  
 الشروط اللازمة لهذا العقل حين يتناول قضية من قضايا « الحياة » أنه يمكن أن يعمل وحده  
 بل يسعى أن يعمل وحده - حين يكون دوره هو التعرف على سنة من سن الكون - فهو لا  
 يسعى أن يكون للوجدان مجال ، لأن الإنسان لا يتحد « موقف » معياً تجاه هذه القضية إنما  
 هي حقائق كونه لا دخل للإنسان فيها ، ولا يستطيع تغييرها أو التأثير عليها إنما « يتعرف »  
 عليها محب

الماء يتجمد في درجة أربعة تحت الصفر ( - ٤° )

الماء يتكون من قدر من الأوكسجين وقدرين من الهيدروجين ( ايد ٧ )

ما دور الإنسان في هذه القضية أو تلك إلا دور المدبر التي تهيئ له - إن أراد أن  
 يستعملها في عمارة الأرض ؟

ولكن موقف الإنسان من قضايا « الحياة » يختلف عن ذلك - إنه هنا يتعرف  
 ليحتار « إن هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً »<sup>(٣)</sup> « ونعسى وما سواها ، فألمها فجورها

(١) سورة الشعراء [ ١ - ٤ ] (٢) سورة الإمراء ٥٩ . (٣) سورة الإنسان ٣



وتقواها ، قد أقبلح من زكاها ، وقد حاب من دساها <sup>(١)</sup> .

والله خالق هذه العطرة يعلم أن العقل ليس هو في الحقيقة الذي يختار ١ أو ليس وحده  
لدى يختار ١ إنما يختار ١ لإنسان ١ في مجموعه ، وأن خطة لاختيار ، أو خطة اتحاد القرار ،  
هي للحظة التي يصل فيها الوجدان إلى قمة انفعاله ، والعقل عندئذ حادم يخدم اتحاد  
القرار ١١

وأن أعدم بطبيعة الحال أن هذا الكلام لا يعجب ١ العقلانيين ١ الذين يجعلون للعقل  
مكان الصدرة في كل نصيب الحياة ولكن فليقل لـ للعلايين إن استطاعوا أين كان للعقل  
والبشرية تحبب في جاهليتها من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال ، وتعدم في كل مرة من  
ابراهيم ما ترو به تحببها من هيا ومن هياك ؟ ١ ١ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ١ كما يقرر  
القرآن <sup>(٢)</sup> ، والعقل هو أداة الخد ، التي تسوق له الحجة والبرهان ١١

إنما الوجدان المتحرك هو الذي يقرر في الحقيقة موقف الإنسان من قضايا الحياة أو هو  
العقل المنفعل مع الوجدان . . في اهتدي وفي لصلال سواء ١

وبذلك مهمتهم انفراد بأن يكون الوجدان مستقيماً على طريق اهتدي ، فستقيم . من ثم -  
موقف الإنسان من قضية الإيمان

والباب الأكر لتحريك الوجدان وتحريك العقل كذلك ليعمل مع الوجدان - هو  
عرض آيات القدرة الربانية في كل مجاز ١ سرهم آياتنا في لآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين  
لهم أنه الحق <sup>(٣)</sup>

وعلى هذا المنهج الذي تبينه هذه الآية تعالج السورة التي بين أيدينا بضايا الوحي  
وإرساله ، وابعث ، ولآية التي يعنى المشرك ، عليها قضية الإيمان ١

« تذكر تلك آيات الكتاب ، ولدي أنزل إليك من ربك حق ، ولكن أكثر الناس  
لا يؤمنون ١

الكتاب مكون من هذه الأحرف التي تحطون بها وتصرون كلامكم بها <sup>(٤)</sup> من نفس  
الخفامات التي تستخدمونها في بابها - على ألسنتكم - غيرها في هذا الكتاب ١ ألا يدللكم  
ذلك على شيء ١ ١ ألا يدللكم على أن القائل هذا القرآن ليس أحدًا من البشر ١ إن الإعجاز

( ١ ) سورة الشمس - ٧ - ١٠ ( ٢ ) سورة الكهف - ٥٤ . ( ٣ ) سورة فصلت - ٥٣

( ٤ ) هذه الدلالة التي أستريح إليها في تفسير لأحرف التي تحي في مفتتح بعض السور ، ونهى بعدها  
مباشرة إشارة إلى ١ القرآن ١ أو ١ الذكر ١ أو ١ آيات الكتاب ١ وهو دليل ظني على أي حال ، واليقين  
يعلمه الله

في هذا القرآن ليس مانعاً من أنه ستخدم حروفاً أخرى غير التي يتكلم بها العرب المحاطون به أول مرة إنما هو مانع من «الاستخدام الروائي» هذه الحروف ذاتها الموجوده في ساسهم ، فودا من نفس الخامة ساء عريد معحر لا يتسنى بشر أن يأتي بمثله فهو إذن مبرر إثبات «من ريت» وهو «الحق» وبكى أكثر الناس لا يؤمنون «مع سادته القصبة وعدم حاجتها إلى عريد من البرهان»

هذا الأسلوب الهدى الخاسم في ذات الوقت ، يقرر القصبة الأولى التي سكرها لمشركون وهي قصبة لوحى ، ويفرر كذلك موقفهم منها ، وهو أنهم «لا يؤمنون» بها ثم بدلاً من أن «ينافسهم» في موقفهم ذلك يبين هم - باندل العقل - أنهم محظنون وأهم ليسوا على شيء ، إذ به كأه بترك لقصصه حمله وينقل إلى قصبة أخرى جديدة سادته «قصية الخلق» والاستواء على العرش ، وسحبر لشمس والعم «الله» الذي رفع أنسوات بعير عمد تروپ ثم اسوى على العرش وسحر الشمس والعم كل يجرى لأجل مسمى»

ولكن أهى حقاً قصة جديدة مختلفة ؟ وهل تراء القصبة الأولى معلقة بعير رد ؟ كلا ! إنها انقصبة ذاتها في الحقيقة ولكن انقرآن بعالحها على طريقتة ! إن الآية لثبة سداً لفظ ، خلافة «الله» وحدث هو معبر القصبة «القصبة» في طاهرها هي بكار لعرب لوحى ولكنها في حقيقتها - كما يعلمها الله - هي جهلهم بحقيقة الألوهية ! فلو أنهم عرفوا الله حق المعرفة ما استعربوا أن يرسل الله كذباً على أحد من خلقه بطريق الوحي ، وما أنكروا كل ذلك الإنكار

وما دمت لقصصه في جوهرها هي جهلهم بحقيقة الألوهية ، فالجذب - أو حتى اليأس - في جانبها الآخرى المتعلق بالوحي لا يعنى الغناء الكامل ، اندى يعبه الحديث عن الألوهية ، وبيان امدره الربانية لمعجزة التي لا يعحرها شيء في السماوات ولا في الأرض ومن ثم فاستدأ الآية لفظ خلافة «الله» في معرض الرد على بكار لوحى - ليس عرباً ولا معاجناً ، إنه هو يلفت حسنا وحشاً أو شئ اسكري كدلت - إلى جوهر القصبة ، وإلى سبب ذلك الإنكار

ثم يمضى لسباق يعترف بالله سبحانه وتعالى .  
«الله» الذي رفع السماوات بعير عمد تروپ . . .  
وهيام السماوات مرهوعة بعير عمد - أو بعير عمد منظوره حقيقة مشهودة وبكى الخس

يتبدل عندها تدافع الإلف ولعادة فلا يعود يحدد منها دلالتها الحقيقية على عظمة الخائق التي لا تقف عند حد .

ولكن القرآن يندد بها الحسن فيربل عنه الركام الذي يعشيه فيمعه من تلمى انشحة الكاملة لهذه الحقيقة

والله حاة التي تنقيها لأول وهلة هي واحد من عوامل الإيماظ التي يوقظ بها القرآن لحسن التبدل . مع جاة الرد على نصية إنكار انوحى بلفظ الجلالة الله .

نقد علم الآد سرها ، وعمما أنها ليست بما جاة في الحقيقة ، ولكنها لفت نظر إلى الجوهر الحقيقي للقصة . ولكن ذلك لا ينمى أب و جأتنا لأول وهلة . وذلك أمر مقصود في السياق ، ليسيقط الإنسان من عملته ، ويتدبر القصة بنقد مفتح

الله الذي رفع السموات بحير عند ترونها ثم استوى على العرش .

وحسن لا تعلم كيف استوى على العرش . ولا المخاطبون المكرون يعلمون . وليس المقصود من يرد هذه الحقيقة أن تعرب أو يعرفوا كتبها . ولكنها حقيقة غبية تحيى بعد الحقيقة الأولى المشهودة ، وتعطى شحها من خلال إيمانها ، فهي توحى بالتمكن الكامل ولسيطرة الكاملة والإشراف البام على كل الخلق .

« وسحر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . »

وحريان الشمس والقمر حقيقة مشهودة كذلك ، ولكنها من الخدائق الكونية الكثيرة التي يتبدل عنها الحسن بالإلف والتكرار

ولكن التعبير القرآنى يربل عنها إلهها ، وبمسحها الخدة التي تجعلها تعطى للحسن شحنتها . إنه لا يقرب من الشمس والقمر بحريان ، ولكنه يصع بل هذه الحقيقة المشهودة حقيقة أخرى هي التي سدها نقب العدل فسلد عن دلالتها « وسحر الشمس والقمر » فالشمس والقمر لا يجريان من تلقاء نفسها كما تخيل الب في حالة العملة والتبدل . وما كان هما . بأى قوة . أن يجرب ، لو لم يلقيا الأمر من الله الذي سحرهما لأمر يريده سبحانه

وإذن فالأمر كله مرده إلى الله . والمطلوب من الإنسان العاقل أن يتقسط الآن لهذه الحقيقة لكي لا يعود إلى العمله التي تؤدي إلى الإنكار .

« كل يجري لأجل مسمى . »

الإشارة إلى الأجل المسمى عند الله ، الذي تتوقف فيه حركة كل الأفلاك ، وهي مما

يساعد على إيقاف الحس وإزالة تلبده ، لأنه يلصق النظر إلى شيء رائد على مجرد الحركة التي تراها العين فتألفها وتسببها !

« يدبر الأمر . . » ،

عود إلى التعريف بالله . إنه هو الذي رفع السماوات بعير عمد ثم استوى على العرش وهو الذي سحر الشمس والقمر كل بحري لأجل مسمى . ثم هو يدبر الأمر

هل المقصود هو مجرد لإعلام بأنه يدبر الأمر ؟ أو بعبارة أخرى - هل هي مجرد « معلومات » جديدة في سبيل التعريف بالله ؟

إنني ألمح من ورائها معنى آخر

فالسبق قد ذكر أمورا حدثت في الماضي السحيق لا يحتم مدها إلا الله ، من رفع السماوات والاسواء على العرش وتسحير الشمس والقمر .

ولقد يحيل للحس العبد أن ذلك قد تم - ذات مرة - وانتهى الأمر ! ثم أصبح الكون من تلقاء نفسه يسير ، مدفوعا بسلوك الدفعة الأولى بغير إرادة مباشرة من الله ! ومن ثم يصح الله « غائبا » في ذلك الحس الغافل ، لا يسه بوجوده ، ومن ثم لا يتوجه إليه ، أو لا يتوجه إليه التوجه الحقيقي المطلوب .

والسبب يرد به حقيقة أن الله « حاصر » في تدبير الكون في هذه اللحظة ، كحصوره في ذلك الأرض الذي لا يستوعبه إدراك البشر ، وفي الأند الذي لا تستوعبه لأفهام وعندئذ فلا مجال للبسيان ! فتدبر الله للكون أمر ثم في كل لحظة ، وفي هذه اللحظة ، وقدر الله حاضر دائما في كل حدث يتم في هذا الكون . .

« يفصل الآيات لعلكم توفقون »

وقد كان الله سبحانه وتعالى يملك أن يرفع السماوات بعير عمد ، ويستوى على العرش ، ويسحر الشمس والقمر ، ويدبر الأمر . ثم لا يفصل للناس الآيات ، ويلزمهم مع ذلك أن يعبدوه ويطيعوه ، وهو ربه المتصرف فيهم كيف يشاء . ولكن من رحمته بآداس يفصل لهم الآيات ولا يتركهم بشأنهم فضلوا . يفصل لهم الآيات يعلمهم يوقون بقاء ربه ، وحسابه وثوابه وعقابه ، فيطيعوه فيما يأمر من أمر ، فيصلح أمرهم في الحياة الدني وفي الآخرة . فلمصلحتهم هم إذن يفصل الآيات ، ويُعَلِّمُهُمْ بحقيقه للسماوات ، واستوائه على لعرش ، وتسحيره الشمس والقمر ، وتدبيره الأمر . لعلهم أن تتفتح بصيرتهم فيصبروا

وهذا الكتاب العرب لدى يجدلون فيه هو هو تفصيل الآيات الذي أرسل لتعريف  
لناس برسم . يوفونوا بقائه فيعدوه

و يسوفف التعير « بلجر الأمر يفصل الآيات . . »

إنه لا يعرف يدبر الأمر يفصل الآيات ، بل يقول بعد عطف « يدبر الأمر يفصل  
الآيات لعلمكم بقاء ركنكم بقبول » وكأني الأمر هدف واحد يدبر الأمر لعلمكم بقاء  
ركنكم بقبول و يفصل الآيات لعلمكم بقاء ركنكم بقبول <sup>1</sup> ولذلك يجمع بين  
السياق بعد فصل ، لأن سبب . كما يقول البلاغيون . تمام الانصاف  
ثم يستمر السياق يفصل الآيات

« وهو الذي مد الأرض وحمل جبهه راس وأهواز ، ومن كل اشجار حمل جبهه راس  
اشين ، يعشى النيل جهر إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »  
والقوم الذين « يتفكرون » هم في هذه الآية محمل وسع

وربما لم يكن العرب الذين خاطبهم لقراء هذه الآيات أول مرة مدركين لكل ما فيها من  
آيات ومع ذلك فهم فهم وحدانهم إذ تعرض على حسهم هذه « للموجودات » الأرض  
المدودة ، والبروسى والأهواز ، والاشجار ذات لروجين أى الساقات ذات أعصاء والتدكير  
والآيات التى يتم فيها الإحصاء فتخرج اشجرة يعرضها على حسهم بكل حدثها ، بعد  
أن يزيل بين حسهم إراءه سكر المشهدة ، فتعطى شحنها انكامله في وحدانهم ، ثم  
يذكروهم بأن الله هو الذى صنعها « وهو الذى مد الأرض » فسقط العطرة خالقها ،  
وتوجه إليه ، وحده ، مدام هو الذى صنع هذه الأشياء كلها بغير شريك

ولكننا اليوم ربما كنا أكثر « عدماً » بالآيات المفصلة في هذه الآية ، لأن البشرية حلال قرون  
طويلة قد عرفت من شأن هذه الأمور أشياء لم تكن معروفة للمخاطبين الأوائل بهذا القرآن ،  
أو لم تكن معروفة لهم بهذا الوضوح ويتبين لنا اليوم أن السياق في الآية ، لم يكن مجرد سرد  
للموجودات بعضها مع بعض ، أو بعضها بدو بعض ، ولكنها جاءت متوازية في ترتيب  
« عمى » مقصود ، وصحت المفردات فيه في تسلسل معين لعاية معينة !

فالأرض المدودة . سواء كان معناها الكرة الأرضية التى تبدو ممتدة لاتساعها ، أم كان  
معناها الجزء المسطح من الكرة الأرضية . جُعِلَتْ فيها رواسى ، وهى الجبال الشامخة ، وعلى  
إثر جبال يذكّر الأنهار ونحن نعلم اليوم أن الجبال ذات صلة مباشرة بكون الأنهار ، لأنها  
هى التى تصدم لتسحب فسقط ما فيها من ماء ، فتكوب منها الأنهار ومن ماء حار

يبيت البسات في الأرض ، فالصلة إذن موصولة بين الأهر وبين الثمرات التي تجيء ، نالية هـ  
في الآية ، والتي يلمت لسبق الحس إلى طاهرة الأروح فيها ، « ومن كل الثمرات جعل فيها  
روحين اثنين » كما قال في سورة يس [ آية ٣٦ ] .

« سبحانه الذي خلق الأروح كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون »  
فيؤكد على ظاهرة الروحية في بناء الكون كله ، ويلمت الحس إلى عظمة لله العادر الذي  
خلق هذه الأروح

ولكن السياق بضيف هنا بعد ذكر الثمرات : « يغشى الليل النهار » . ولم يكن لباس  
أيام مرور هذه الآيات يعرفون أن هناك صلة على الإطلاق بين الثمرات وبين غشيان الليل  
النهار . ثم تيسر لهم هذه الحقيقة منذ عهد قريب وتبين لهم على وجه التحديد أن نمو  
الرهرة - التي سجد الثمرة - يحدث في الليل في الفترة التي يغشى الله فيها الليل النهار بل  
حدثت قصة طريفة في منتصف هذا القرن كشفت عن حقيقة أدق لم تكن معروفة لشرية  
طوال هذه لقرون فقد أقامت إحدى الشركات إعلاناً مصيئاً هـ في وسط مزرعة أرده في  
اسبان ، فلاحظ صاحب المزرعة أن أرده يذبل ولا يؤتي محصوله الذي كان من قبل ، فرفع  
قضيه على الشركة صاحبة الإعلان بظالمها فيها بالتعويض عما خسر أرده من نقص في  
المحصول بسبب وجود هذا الإعلان المصيء ! ودخل الراج في مرحلة من التحوث العلمية  
لإنقاذ الدعوى أو نهيا فتقدمت الدوائر العلمية لإجراء التحوث وكانت النتيجة  
العجيبة التي وصلوا إليها أن هذا الإعلان المصيء قد « أفلق راحه » البسات بالفعل ، لأنه  
« يزرقه » في انيل ، وهو فترة راحته ! والفترة التي تتكون فيها الرهرة كذلك ونمو ! ثم اكتشفوا  
ما هو أدى أن كل رهرة من رهوز البسات المحتضنه تمحاج إلى فترة إظلام معينة لكي تولد  
وتنمو فإذا نقصت فترة الإظلام خرجت لرهرة ضعيفة أو لم تخرج على الإطلاق ! كما اكتشفوا  
أن توزيع البسات على ظهر الأرض ليس ساعاً منتظمة واختلاف ، وحرارة والبرودة فحسب ، كما  
كان معروفاً من قبل ، ولكن تابع كذلك لطول الليل والنهار ، لأنه لابد لكل سات من فترة  
إظلام معينة لكي يشمرأ وأن فصب اسكر مثلاً يحتاج إلى فترة الإظلام الموجودة في المنظمة  
الاستوائية لكي يخرج رهوته التي تحمل حبوب البقاج ، وبذلك بنمو هناك نمواً طبيعياً ، فإذا  
نقل إلى بلاد في الشمال - كمصر مثلاً - حيث فترة الإظلام مختلفة ، فإنه ينبت ولكنه لا يخرج  
رهرة ! وبذلك يزعره بطريق « التعميل » فإذا بعد أكثر من ذلك لم ينبت على الإطلاق !

وهذه الحقائق الطريفة والعجيبة في ذات الوقت لم تكن كلها معروفة وقت تول هذه الآية ،

ولا كانت الصفة بين الثمرات وإعشاء الليل النهار معروفة . وإن من معجزات هذا الكتاب أن يعثر الدرس على أسرار حفية فيه كلها زادت معبوداتهم عن الكون<sup>(١)</sup> وإذا كانت الآية قد هزت مشاعر سامعيها من قبل ، وهم لا يعرفون كل أسرارها ، فأحرى بها أن تهر وجدانهم اليوم أكثر ، وقد تكشف من أسرارها ما لم يكن معروفاً من قبل : « إنها يحشى الله من عباده لعلمه »<sup>(٢)</sup> « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . ويمضي لسياق بعدد عجائب الأرض التي كان يسعى أن تلبس الإنسان إلى عظمة الله الخالق . بولا تملك حسه عليها :

« وفي الأرض قطع متجاورات وحيات من أعشاب ووزع وبجبل صووان وغير صووان ، يسقى بماء واحد ونقص بعضها على بعض في الأكل . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون »  
 في الأرض قطع متجاورات ولكنها تختلف بعضها عن بعض هذه رملية وهذه طيبة وهذه صحيرية هذه سوداء اللون وهذه صفراء وهذه حمراء .<sup>(٣)</sup> ولح والسبق يلفت الحس هنا إلى ظاهرة الاختلاف ذاتها بوصفها دليلاً على عظمة الخالق سبحانه . هي يصنع هذا لتتوهم العجيب إلا إله قادر عظيم

والتوهم ليس في القمع المتجاورات من الأرض ، لمحتمة الطبيعية والنباتية وحسب ، بل في أنواع المزرع كذلك « وحيات من أعشاب ووزع وبجبل » . ويسرح الخيال في الرقعة الممتدة التي ترسمها الآية ، ينظر إلى أنواع النبات ، المختلف الألوان والأحجام والأشكال وكذا امتد البصر وجد أنواعاً مختلفة « متجاورات » كقطع الأرض ، وبمختلفات كاختلاف الأرض

( ١ ) هذه ظاهرة - وهي تكشف مراد من الأسرار كلها تقدمت معرفه الإنسان بالكون - تجري بعض الناس لفتويين بالعدم أن يشتوا تفسيرات علمية لنقار . وهذا اتجاه خطم وخاطن في نفس الوقت . هي القرآن إشارات كوبة لا شك فيها ، وبعضها يحمل أسراراً لم يكشف العلم عنها حتى اليوم . ولكن هذا حس معناه أن بعض القرآن على أنه كتاب نظريات علمية ، ومعنى يقول إنه تباً تصجير اندره ، وبالصعود إلى نعيم أو مجرى نهث وراء كل نظرية علمية جديدة بنقول إن العرب تباها : هي موقفنا عند إن تبين أن النظرية م تكن صحيحة ! كلا لا يجوز أن نربط بظواهر الكونية التي يشير إليها القرآن بنسب النظريات منتقبة . أما ما ثبت صحته من المعلومات العلمية التي تفيد في فهم آية معينة فلا بأس بالاستشهاد به على سبيل توميع تصوراتنا لمعنى الآية فمضب .

( ٢ ) سورة قاطر : ٢٨ انظر كتاب « العلم يدعو للإيمان »

وحتى التحل مختلف ما بين صوان وغير صوان ! أى أن السياق بلغت أنظر إلى  
الاختلاف لا من الأنوع فحسب ، بل فى داخل النوع الواحد كذلك (١) !  
ثم هذه لعجبة هذا الرزع المختلف كله ! يسقى بماء واحد ! ! ومع ذلك يختلف هذا  
الاختلاف ويتنوع ذلك النوع ألا إنها لقدرة القدرة التى تشئى هذا الخشد من النوع  
والاختلاف . .

بل إن التنوع لنصل إلى الدقة المعجزة إن الاختلاف ليس فى النوع واللون فحسب  
إيه فى الطعم كذلك « ونفصل بعضها على بعض فى الأكل » وبذلك وحدها ية معجزة  
أن يخلق الطعوم المختلفة ، ثم يخلق للإنسان الأعصاب التى تحس بالطعوم المختلفة ، ثم  
يجعل بعض الطعوم أفضل من بعض ، ثم يحسن ، حس مختلفون فى تفصيل تلك الطعوم  
بعضها عن بعض ! ألا إيه إعجاز الخلق وكذلك إعجاز التعبير !  
« إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » !

إن العجب فى سياق هذه الآيات لا يقف عند هذه الدقة العجيبة فى السرد ، والقدرة  
العجيبة على الإحياء « اتى تجعل هذه المشاهد كلها حية فى الوجدان ، تنهز من أعماقه  
ليشمر معظمة الله الخالق الذى أشأ كل هذه العجائب

إن هذه عجيبة أخرى تدنى ، لتقاء كاملاً مع حال « الص » ولتعبير القرى المعجز  
كذلك حال « وكه من أليس الص هو التعبير الجميل عن المعنى الجميل بطريقة موجبة  
توقع الواحد ؟ ! وهن الأسلوب القرآنى غير ذلك ؟ بل الصفة المعجزة فى ذلك ؟ !

انظر إلى ليق مستمراً إياه منذ البدء ، وخط « الخشب الص » من العرص

رفع السماوات بعير عند تروها ثم اسرى على العرش وسحر الشمس والنهر

مذ الأرض وجعل فيها رواسى وأهلاً

وفى الأرض قطع متجاورات

وجبات من أعصاب وروع وبخيل صوان وغير صوان .

( ١ ) هذا الاختلاف فى الأنوع هو الذى لعب دارور بشده ، وجمعه أن يكتب كتابه الشهير « أصل الأنواع  
The Origin of Species » ولكن مصيرته لمطموسه لم تصح به ما كان يسعى أن يتركه فى هذا المجال  
الدقيق بالذات من عظمة الخالق لمسر وراء هذا الاختلاف العجيب ، بل مصير يقرب من الطبيعة ! ثم  
يقول فى سداحه أو فى حدود عجب إن طبيعته تخلق كل شيء ولا أحد لقدرة ! سبحانه الله ! وما  
الله بذي ! ! ألا إنها العفة وانطس البصيرة أو بعدد تكاثر الذى يدعى الإنسان أن يستكبر عن ذكر الله  
حيث ينفع وجدانه من الداحل بعظمه الخلق !



وفصل بعضها على بعض في الأكل

ألا تلاحظ نسقاً معيناً في العرض ١٩!

انظر مرة أخرى!

بدأ بالسماوات والشمس والقمر أحرام كبيرة كبيرة . خطوط عريضة ولكنها تتدرج بحوالدة السماوات ، ثم الشمس ، ثم القمر . . .  
ثم أخذ الأرض من بين هذه الأجرام الكونية ، أي أنه بدأ بحمد أدق مما بدأ به المرحلة السابقة من اللوحة ، ثم أخذ يفصلها مندرجاً من الكبير إلى الصغير الأرض المسطحة الممدودة والحداب ثم الأنهار الأصغر حجماً ثم الثمرات ثم الأرواح داخل لسان الواحد وكل ذلك ملفوف في رداء الليل والنهار فكان الليل والنهار هم اللوحة . لوحة الأنهار والأسود ، ترسم عليها تلك الخطوط الدقيقة المتدرجة في لدقة واحداً إثر الآخر . . .

ثم أخذ جازاً واحداً من الأرض ، التي بدأها خطوط المرحلة السابقة ، أي أنه بدأ بحط أدق مما بدأ به المرحلة السابقة ، ثم أخذ يتدرج منه إلى ما هو أدق حداب من أعاب ودرع وبحيل حتى وصل إلى غاية الدقة في انطعوم لتي فصل بعضها على بعض ، وهي شيء حصي في مظهره ، لا تشبه إلا أعصاب الدوق ، وهي من أدق ما في تكوين الإنسان !  
هذا التدرج المنحوت من الكبير إلى الصغير في الخطوط لتناوذة عامة ثم في كل خط عن حده فهو محص صدفة ؟ وهل هكذا تكون انصبب فضلاً عن أنه لا صدفة في الوجود كده عن تحقيقه لأن كل ما في الوجود قدر من عند الله مدور ٢١  
كلا ! إنها ليست « صدفة » حتى على المحار ! فسجد بعد أيام قليلة أن السبق ذاته قد روعي في اللوحة الباقية ٢١

وتمضي الآن مع السياق حتى يصل إلى تلك الآيات

« وإن تعجب فعجب قوهم إذا كب ترونا أثنا لمي خلق جديد ٢٢ أوئثك الدين كفروا برهم ، وأوئثك الأعلال في أعناقهم ، وأوئثك أصحاب النار هم فيها خالدون »  
في الملاحظة المسببة ، بل في أسبب خطه ، وقد انعمل الوجدان بتلك الآيات المعجزة كلها . يعجب من أمر الدين ينكرون البعث ، فعجب منهم حقاً ، وتستعجب موقفهم حقاً!

أنشد هذه الآيات كلها ، التي تهر الوجدان هراً بعظمة الخالق وقدرته المطلقة لدقعة

المعجزة بعد هذا كله يسأل سائل : أإذا كانت تراثاً فلهي خلق حديد ؟  
يا به من سؤال شديد السخف بعد هذه الآيات ، ويا من عقله عجزه تلك التي يشأ  
عنها النساء !

وفي أسب لحظة ينطق بالحكم الحاسم عليهم ويحدد مصيرهم : « أولئك الذين كفرو  
بربهم ، وأولئك الأغلال في أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » !  
ولا تجد نفسك لا مؤمناً تماماً على هذا الحكم بل منعلاً معه تمام الانفعال . نعم !  
هذا هو الحراء الذي يستحقون !

إنه الإعجاز في منهج العرض ، فرق الإعجاز في دقة التعبير  
لو قدم قصية العث - أو ينكار العث - قبل يبراد هذه الآيات المعجرات ، وهن أن  
ينفعل به وحسانك كن هذا الانفعال ، فلربما مرت عليك الفصصة « باردة » لا تثير انفعالك  
ولا عجبك ولا استكراك !

ولو عاينها علاجاً منطقياً ذهبياً على أنها قصية فسسية فقال : كيف ينكرون لبعث ودين  
قدرة الله لا تجد لأنه هو الذي خلق السموات والأرض والشمس والقمر وأخرى الأنهار وأنت  
النهار . لح فلن يعجزه أن يبعث الموتى . وهو الكلام الذي ستجده نحن بصورة أو  
أخرى في حديثنا لشري عن قصايا العقيدة . فلربما مرت باردة كذلك ، يتحرك به الدهر  
ليقتشها وينظر في « أدلتها العقلية » ومدى سلامة المنطق لاحتوية عليه . !

فأما في صورتها القرآنية الفريدة ، وفي مكانها هذا من اسباق ، فحين يقول لك : « وإن  
تعجب فعجب قوهم . . . » فإن انفعال العجب والاسكار يبعث مع السياق حقاً ،  
ويصل معه في النهاية إلى استحقاق هؤلاء الكاس لما وضعوا به ، وما حكم عليهم به  
و « الدليل لعقبي » كما ترى موحود . إذا شاء البعض أن يتنبهه فسجد فيه بحاله لك من  
للتنبيه .

ولكن لمسألة ليست هي وجود الدليل لعقبي أو عدم وجوده . إنها أهم من ذلك : إنها  
« الجهار » لدى يتحرك تلهم الإتيان : « هو العقل » أو « هو العقل بادي ذي  
بده ؟ . . . هل هو العقل وحده ؟ »

كلا ! فيتحرك العقل كما يشاء و « لياقش » من لقصايا على من يشاء  
ولكنه ليس المحاطة الأول بهذا السياق ! لا لأن انقرب لا يحصع بعقل أو لأن فيه ما لا  
يتفق مع العقل ! ولكن لأن فيه ما هو أشمل من العقل . فيه ما يحاطب كل كيان الإنسان !

\* \* \*

ويعصى السياق يعجب من أحوال هؤلاء انقرض وسلوكهم ، بعد أن دمعهم في أنسب  
لحظة بوصفهم الحقيقي ، ودفعهم إلى مصيرهم الذي يستحقونه بجدارة ، و « المتخرجون »  
يعنون موافقتهم التامة على الحكم والمصير

« ويستعجلونك بالنسيئة قبل الحسنة وقد حلت من قبلهم المثلاث ، وإن ربك  
بذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب »

هؤلاء القوم العجبيون ، الذين دعى « المتخرجون » من قبل إلى العجب من حالهم ،  
ستعجلون الرسول - صلى الله عليه وسلم . أن يهلكهم إن كن صادقاً حقاً !

« وقدوا لن يؤمر لك حتى تفجر لنا من الأرض يسوعاً ، أو تكون لك جنة من محل  
وعسب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما رعمت علينا كسفاً . » (١)

« ورد قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر عنا حجارة من السماء أو  
اتنا بعد رب أليم ! » (٢)

وذلك بدلاً من أن يطلبوا « الحسنة » وهي الهدى ولعيم الرباني الخالد للمهتدين

« ويستعجلونك بالنسيئة قبل الحسنة »

ولو أنهم أول قوم يرسلهم رسول ، فربما يكون هم حينئذ عذر ! أمّا وقد حلت من قبلهم  
« المثلاث » ! فإن أمرهم عجيب حق ! إلههم يعلمون من توارىح الأمم السابقة أنهم طلبوا من  
رسلهم مثلي طلبوا هم من رسلهم فكان عاقبتهم أن دمر الله عليهم بالفعل

« وإن عد أحاهم هون قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ألا تتقون

فانور أجبنا لعبد الله وحده وبدر ما كان يعد أنابوا ١٩ فأتنا به تعدنا إن كنت من  
الصادقين فأنجاه والذين معه برحمة منا ، وقطع دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا  
مؤمنين » (٣)

« وإلى ثمود أحاهم صالحاً ما يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة  
من ربكم ، هذه ناقه لله لكم آية فدروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم  
عذاب أليم معقرو الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا يا صالح نسايا نعد إن كنت  
من المرسلين ، فأتخذتهم الرجعة فأصبحوا في دارهم جاثمين . . . » (٤)

( ١ ) سورة الإسراء ٩٠ - ٩٢

( ٢ ) سورة الأنفال ٣٢ وهي من الآيات المكية في سورة الأنفال المدنية

( ٣ ) سورة الأعراف ٦٥ - ٧٢ ( ٤ ) سورة الأعراف ٧٣ - ٧٨

« كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، إذ قال هم شعيب ألا نتعاون؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وطيعوا قالوا : يا أنت من المسحريين ! وما أنت إلا بشر مثلك وإن نطق من الكذابين وأمسق عليك كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ! قال ربى أعلم بما نعملون فكذبوه فأحدهم عذاب يوم اضطره ، إنه كان عذاب يوم عظيم »<sup>(١)</sup>

نلتك بعض المثالات التي حبت من قبلهم وإنني يعرفوها أليس من المحب إذن أن يرتكبو ذاب الحمية التي ارتكبتها من قبلهم بوقع عندهم لهلاكك بالفعل ؟!

« وإن ريتك لدو معصرة للناس على ظمئهم » بمهلهم بعلهم يتوبون ؟ وإن ريتك شديد العقاب ؟ حين يصررون ولا يشوبون !

« وبمقول اندين كهرو لولا أنزل عليه آية من ربه ! يا أنت مندر ، وبكل قوم هاد »  
تلت هي القصبة التي أشادت إليها الآية السابعة من خلال ذكر « لسيته قبل الحنة »  
بهم يريدون آية تنزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ويعتقون إيمانهم - في رعمهم  
رسول تلك الآية ، ولو جاءتهم الآية ما آمنوا !

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم من جاءهم بآية ليؤمنن بها قل إني الآيات عند الله : وما بشعركم أم ، إذا جاءت لا يؤمنون ، وبقلب أثبتهم وأصبارهم كي لم يؤمنوا به أول مرة وبندهم في طغيانهم يعمهون ؟ ولو أمنا ترك إيمانهم الملائكة وكنهم الموتى وحشريا عليهم كل شيء - تبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون »<sup>(٢)</sup>

ولكن السياق هـ يحجبهم ، حانة غير مباشرة تعرفهم بطبيعة الرسالة ودور الرسول وإن لرسول كل رسول - بسبب مهمته أن يبرر الآيات ، ولا ذلك من شأنه « إيا أنت مندر » ، تلتك هي مهمته الإندار

ولكن نصف وقعه عند لمة « آية » في السياق

« إيا أنت مندر ، ولكن قوم هاد »

إن الإندار واهدائه بمعنى الدعوته إلى الهدى - هم - معاً - مهمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما أنها مهمة كل رسول

« إن أن إلا تدبر وبشير لقوم يؤمنون »<sup>(٣)</sup>

(٢) سورة الأنعام ١٠٩ - ١١١

(١) سورة الشعراء ١٧٦ - ١٨٩

(٣) سورة الأعراف ١٨٨

« يا أيها لبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا » (١١)  
فكان المتوقع أن يكون اسحاق : «إني أنت منذر وهدي هؤلاء القوم ولكن الذي يقوه  
بأنفعل هو : «إني أنت منذر . ولكل قوم هدي» !

وكأنهم السيوف يوحى بأنهم لن ينلقوا من الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا الإنذار فقط!  
وإن قوماً آخرين هم الذين سيكون نصيبهم الهداية على يد الرسول - صلى الله عليه وسلم -  
وفي ذلك إندار هم حتى وهم الذين يدركون من أسرار البعثة ما يدركون<sup>4</sup>  
ثم تبدأ الحلقة الثانية من عرض آيات الله المعجزة ، التي لو تدرسها تقوم ما طلبوا تلك  
الآية المخافة التي يعلقون إيمانهم عليها !

« الله نعم ما تحمل كل أمة ، وما تبص الأرحام وما ذود . وكل شيء عنده بمقدار »  
 ويعمل الخيال جهداً لتسع ما تحمله هذه الكائنات القليلة من معجزات .  
 « الله يعلم ما تحمل كل أمة » هكذا على الاتساع . اتساع الأرض التي يعيش  
 عليها على الأقل !

كل أنثى . . . فبعمل الخيال حاهداً لإحصاء كل أنثى . . . إذ استطاع  
إن « كل أنثى » لا تشمل إناث الإنسان وحده ، فالسياق أشمل ، بل تشمل كما يحدد  
اللفظ بالصيغة « كل أنثى » ! إناث الإنسان وإناث الحيوان وإناث الطير وإناث الأسماك  
وإناث الحشرات . . . وكل أنثى تخطر على البال  
فليجر الخيال لاهك لا لإحصاء كل أنثى . . . فذلك محال بل لإحصاء الأجسام والأنواع  
فقط ، التي لها إناث ! وليتحيل هذه الإناث مجموعات مجموعات كل مجموعة تحمل اسم  
الجنس لدى تتبعه أو النوع  
ثم يركز الخيال على حط من الناحية أدق . . . على أرحام هذه الإناث ، لا على الإناث  
ككلها !

ثم يركز على حط أدق على ما تحمل هاتيك الأرحام  
ويسحر لاهناً مرة أخرى لا للإحشاء فذلك محال بل لتصور تعصبات ما تحمل كل  
أنثى ورحمها

تفصيلات كل نوع على حدة . هذه إناث نحمل أجنة أناسي . . وهذه إناث تحمل أجنة حيوان . . وهذه إناث تحمل أجنة طير . . وهذه . . وهذه . . وهذه .

(١) سورة الأحزاب ٤٥-٤٦

ثم انتقل إلى حظ أدق . حد عالم الأناسى . وارقب التفصيلات .  
هذه أشئ تحمل ذكرًا . . وهذه تحمل أنثى . تتبع حيالك هذه الخربة ومص بها في أرجاء الأرض !  
تعال إلى حظ أدق . هذه تحمل جيباً أبيض اللون . وهذه تحمل أصفر . وهذه تحمل أسود . .  
تعال إلى حظ أدق . هذا الحبيب كبير الحجم . وهذا متوسط الحجم . . وهذا صغير الحجم . .  
تعال إلى حظ أدق . هذا حين أرقق العيين . وهذا عسلى . وهذا أسود .  
هل تعب حيالك ؟ إن التفصيلات مارال فيها مريد .  
تعال إلى حظ أحصى ! هذا حين دكى . وهذا متوسط الدكى . وهذا يلبد الدهن .  
وسبا نحن الذين نرى ذلك أو نعلمه ، الآن وهو حين . ولكننا نتحدث عن علم الله !  
ويتابع بحيالنا قول الآية : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى . . »  
تعال إلى حظ أكثر حماء ! هذا حين كتب له في اللوح المحفوظ أنه طويل العمر .  
وهذا ينقص من عمره . . وهذا شقى . وهذا سعيد . . .  
هل ما يزال في حيالك بقية من قدرة يتتبع بها ذلك العالم الهائل لعجز الذي فتحه تلك  
الألفاظ الستة من الآية ؟  
فليس بقية تسع بها بقية الآية : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد » !  
كل رحم تنتفخ بالحمل . وتغيض بانوصع . كل رحم من ملايين الملايين من  
الأحاسيس والأنواع كلها . وفي علم الله الشامل الذى لا يند عن علمه شيء .  
هل أصابك السور وأنت تطلق حيالك هـ وهـاك وهـالك تتبع كل أنثى ويتابع حملها  
ويتبع نمو كل جن ويتابع وصع كل جن ويتبع كل رحم وهى تعيش ؟  
حد هذه البقية السابعة من الآية قس أن يكف حيالك عن المتابعة عجزاً ولهاً وعجبا  
كذلك !

« وكل شيء عنده بمقدار » !

وعد من جديد إلى كل شيء . . لتابعه مرة أخرى . في محال آخر !

« بمقدار »

وسوء كان المقدار أى القدر « إنا كل شيء خلقناه بقدر » <sup>(١)</sup> بمعنى أن هناك قدراً

خاصة مفردًا لخلق كل شيء - أو كانت الإشارة إلى التقدير بمعنى الكميات والأحجام بمعنى أن لكل شيء من المخلوقات حجمًا معينًا ، موزونًا في تقدير الله « والأرض مددناها وألقينا فيها روسنا ، وأبنا فيها من كل شيء موزون »<sup>(١)</sup> .  
 سواء كان هذا المعنى المقصود أم ذلك - أم كلاهما معًا - فليحاول الخيال أن يمتص  
 بتامع كل شيء قدره ومقداره - حتى إذا ارتد عجزاً عن متابعة شيء على الإطلاق  
 فهناك علم لله الشامل ، الذي يشمل ما عجز الخيال عن تصوُّره مجرد تصور ، ولا نقول عنه  
 وأحصاه !

« عالم الغيب والشهادة تكبير المتعال »  
 وبالله من إله كبير وبالله من إله متعال يقر الوحلان بعظمته وتعاله ، بعد أن  
 يعود من تلك الرحلة الشاقة الممتعة في آن !  
 ولكن عن أي شيء يعود - أو إلى أي شيء يعود ؟  
 « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسار بالنهار - ل  
 معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله . . . »  
 أرايت إلى علم الله الشامل ذلك إلى أين ينتهي ؟ إنه ينتهي إليك أنت ! إنه يشير إليك  
 أنت بالذات ! « سواء منكم . . . »  
 ولن تكون في وقت من الأوقات إلا واحدًا من المشار إليهم « منكم » - لأنك لابد أن  
 تكون في أية لحظة إما مُسَرٍّ بالقول وإما حذرًا به - إما مستخفًا بالليل وإما سارًا  
 بالنهار . !  
 وتحمل يدًا حارة قد انتفتحت معناه من بين أسس وأشرت إليك وقلبت . أنت ! قف  
 مكانك ! نحن نسبحك عليك !

« له معقبات من بين يديه ومن خلفه » فهي أي رصع به أو أي ساعة به « معقبات » من  
 الملائكة تتعقبه !  
 « يحفظونه » أي يسجلون عنده أفعاله « وإن عبيكم لحافطون ، كرامًا كائين ، يعلمون  
 ما تعملون »<sup>(٢)</sup> .  
 « من أمر الله » أي بأمر الله أي أن هذا الحفظ - بمعنى التسجيل - هو من أمر الله  
 للملائكة

(١) سورة الحجر . ١٩ (٢) سورة الانطار ١٠ - ١٢

إنه لشعور رهيب أن تحس فجأة بأنك موصوع تحت المراقبة المراقبة الدقيقة التي لا تنزل صغيرة من عملك ولا كبيرة إلا أحصتها وسجلتها عليك

وإن هذه الخولة الواسعة في علم الله الشامل ، حين تنتهي إلى هذه النهاية ، لتهرج الوجدان هرة عميقة عبر كل ما انفع به الوجدان من قبل ! فإن تتبع عدم الله الشامل في الكون الواسع ، في ما تحمل كل أنش وما تعيض الأرحام وما ترداد هذا كله شيء ، وأن تكون أنت ناداب ، وفي كل لحظة ، موصوع تحت هذه المراقبة بدائمة الدقيقة شيء آخر ! الأول قد يهر له وجدانك عجا ، وإقراراً بعظمة الله ، أم الآخر فيهر به وجدانك رهبة وحشة . وكأن علم الله لشامل هذا كان موراً كشافاً تستمتع به وهو يجرد بك في أرجاء الكون يكشف لك عن مخبئاته وأسراره . ولكنه فجأة يسلط عليك أم ، وأب واقف تخرج ، فتحس أنك منكشف تماماً في هذا السور

وتأمل - مرة أخرى - النسب « المعنى » الذي جرى به السياق في هذه الخولة الثانية أو الموحة الثانية . هل ترى فيه شيئاً مما كان في الخولة الأولى ؟ إن الشبه يظهر أحياناً وبدق ويعمى أحياناً أخرى . .

هناك شبه ظاهر في بدء السيان بخطوط عريضة تنهي إلى خطوط دقيقة . « الله يعلم ما تحمل كل أنش » خط عريض شامل يتدرج إلى « ما تعيض الأرحام وما ترداد » وهو خط أدق

ثم . « عالم العيب والشهادة » . خط عريض شامل يتدرج إلى « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به . . . » وهو خط أدق

وهناك شبه دقيق حمى ، في أن الخط العريض ذاته محبو على خطوط دقيقة ! فإن « ما تحمل كل أنش » خط عريض يحمل في عطياته مئات أو آلاف من الخطوط الدقيقة المتناهية في الدقة ، هي « تفصيلات » ما تحمل كل أنش من نوع ولون وشكل وخواص ! وهكذا تجد حل الخطوط العريضة والدقيقة في الموحة الواحدة ، وتنتج الصحامة المعجزة مع الدقة المعجزة كلها في آن !

\* \* \*

ولكن هذه الآية تحمل ثلاث قضايا مختلفة يبدو كل منها لأول وهلة كأنه منفصل تماماً عن القضية الأخرى

« به معفيت من بين يديه ومن خلقه يحفظونه من أمر الله » إن الله لا يعير ما يقوم حتى يعيروا ما بأنفسهم « إذا أورد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما هم من دونه من وال » .



هنا الصلة ب ترى بين أجزاء الآية الثلاثة ، أو بين تلك القصص الثلاث مواءمة في الآية ؟

ب هذا جسرٌ حقيق يربط بينها جميعاً ، وإن لم يبد واضحاً من أول وهله

فهذه علم الله الشامل يطلع على ما في العلوب هذه هي القصة الأولى والقصة الثانية أنه مقتضى هذا العلم الشامل يعلم الله ما بأنفس الناس ويعلم أنهم غيروا ما بأنفسهم وإذا علم أنهم عمرو، فإنه يعرف هم حالهم ولا يعبر الله بخلاف إذا علم أن ليس قد عثروا ما بأنفسهم سوء ين «خير» ، «مخير» هم «خير» ، أو إلى الشر فيعبرهم شر وب نأني القصة الثالثة متصلة بها قلبها تماماً « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » إذا علم أنهم عمرو غيرو غير هم بشر ، وعددهم عددهم يريد هم سوءاً حواء ما عمرو بالسوء - فلا مرد لأرادته ، وما لهم من دون الله من ولي يحصهم من إرادة الله وهكذا تنهى الخوذة مع علم الله الشامل من هذا التهديد للدين « يستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة » ذلك أنهم إذا أصروا على موقعهم فإن الله سيريدهم بسوء لا مرد له ، ولن يكون هناك من يحميهم عما أراده لهم الله

وهنا بد حوله نأنته مع قدره الله المعجزة كتاب الأولى في الخلق المعجز ، والثانية في علم الله الشامل إلى الدرحة المعجزة ، ثم نحىء هذه في لون حديد من قدره ، تتضح لنا صامته حين تتلو آيات :

« هو الذي يريك البرق خوفاً وطمعاً ويسئ استجاب الثقل وبسبح لرعد بحمده وملائكة من خيافته » ويرسل الصواعق فصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال »

هل أحسست خو انحنف ولهفة معاً في لبرق والرعد والصواعق . والملائكة التي تسبح من خيافته ؟

إن هذه الخوذة تحيى في خو التهديد ، فيرتفع بصها وترتفع حدة الأصوات فيها حتى يصبح المسيح صوتاً بصم الأذان ، فما دل الوعيد ؟ ويعرض الملائكة مدعورة حائفة تسبح من الخوف في هذا الخوذة بالبرق والرعد والصواعق لنى يرسلها الله فيصيب بها من يشاء ؟ وببما ذلك كله حادث . إذا هم يجادلون في الله ؟

واحدل في الله ، وقدرته سبحانه وتعالى على العث وإحياء ، وقدرته على إنزال آية حين يشاء ، وقدرته على تربس ما يرسل من الوحي ، هذا الخوذة كله أمر سحيق بالغ السخف بعد الآيات والمعجزة التي جاءت في الخوذة الأولى والثانية ولكنه أشد سحفاً وأشد صياغاً

كذلك في جو الرق والرعد والسحاب ينقل الذي يحمل في طياته الصواعق اسقطه الى  
يمكن ان تصيهم في أية لحظة !

« وهم محادلون في الله وهو شديد محار » شديد القوة لا يُعْنَب ولا يسهج من بعده

ثم تتجسم صورة لصباع الكامل في الآية التالية

« به دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم شيء » لا كاسط كعبه إلى  
ماء ليبلغ منه وما هو ببالعه ! وما دعاء الكافرين إلا في ضلال .

أرأيت إلى الصبّاع الكامل ؟ هؤلاء لقوم يتركون الله الذي له دعوته الحق الله الخائن  
القادر المدمر ، الذي خلق هذا الكون هائل ، والذي عممه هو ذلك العلم الشامل ، والذي  
يرسل الرق والرعد والصواعق يتركون دعوة الله ويدعون من لا يستجيبون لهم شيء  
فأي ضلال بعد هذا ؟

ولكن السياق يستدرجهم !

« لا يستجيبون لهم شيء » هل انتهى الأمر ، وانتهت الصورة التي يصورهم بها ؟

كلا ! إنه يقول عنهم : « لا يستجيبون لهم شيء » إلا

وهو تفتح لعيون رؤيتك الاذن السمع من ستحدث ستعدة من نوع ما ؟

نعم ! ولا . إنها امتحانة أسوأ من عدم الاستجابة !

« إلا كاسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالعه » .

إنها صورة عجيبة حقاً هذا شخص عطش يريد أن يشرب . ولكنه لا يشرب  
أبداً لأنه لا يتجه الاتجاه الصحيح الذي يوصله للشرب رغم وجود الماء ! إنه يسط كفه  
إلى الماء ليبلغ فاه ولكن يسط الكفين هذه الصورة لا يرفع فاه إلى فمه أبداً . فيظل  
واقفاً هكذا . الماء في منادوله وهو عطش ولكنه لا يتجه الاتجاه الصحيح إليه فيظل  
على الدوام عطشان !

هل زادت هذه الصورة العبية شيئاً على المعنى ؟

نوقل « لا يستجيبون لهم شيء » وانتهى السياق هنا ، ألم يكن ذلك يؤدي المعنى ؟

بلى ! ولكن الريادة أضافت معنى جديداً ولا ضئيل .

إن هذا الاسدراج الذي يستدرجه هم الساق ليُقصِرُ معنى بصياً دقيقاً في صورة  
حسية

فكأننا نطمعهم في الاستجابة حين يقول . « لا يستجيبون لهم شيء » إلا . فإذا

طمعوا استدراجهم إلى هذه الصورة السائسة - كما سطر كميته إلى الماء يسلم فاه وما هو بيانعه !  
 إنها تصور طمعهم في أن تستجيب لهم تلك الأصنام التي يعبدونها من دون الله ،  
 وتوهمهم أن من وراء اتباعها حكمة يروى علة الظنون - والإنسان في الحياة لديها يظن دائماً إلى  
 متاع الأرض ! - فإدبها تنتهي بهم في النهاية إلى الحرمان !  
 « وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » . .



وفي الوقت الذي يقف فيه الكافرون عند الموقف لصل لعاتك ، يدان أمام مطر  
 حاشع مستسلم لله

« والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالعدة والأصنام » .  
 فسيرى أن أثر تلك الحصة من الكافرين هم وحدهم تشددون في تكون كله عن عبادة  
 الله ، يقفون وحدهم في ستكبرهم التراف ، بينما الكون كله ومن فيه خاضع مستسلم لله  
 بمرادته أو قهراً عنه .

« ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قلنا أتينا  
 طائعين ! » (١)

وكل يملك أحد إلا أن يحصه لإرادة الله ومشيئته ؟

أما تلك الحصة من البشر نصالين المستكبرين منهم يظنون أنهم يستطيعون أن يعجزوا الله  
 ويخرجوا على سلطانه ! ويسبون أن إمداد الله لهم إلى حين ليس عاجزاً من الله سبحانه عن  
 سحقهم لساعتهم ! إنها تلك مشيئته - سبحانه - أن يمتلي للكافرين يوماً ما « ليحملوا  
 أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ! » (٢) ثم يأخذهم « أحله  
 رابية » (٣) فدمرهم تدميراً

كلا ! إنهم في شدودهم ذلك يسبون خارجين على إرادة الله ومشيئته ، وإن توهموا ذلك  
 لفترة من الزمان !

أما بقية الكون مستسلم كله ، وراض عن عبادة الله . فمن لم يرض فسيفهر قهراً  
 فيستجيب !

ولكن الآية تعرض لنا صورة عجيبة تغايرنا مفاجأة دمة ! إنه ليس « من في السموات  
 والأرض » وحدهم هم الساجدين لله في هذا المشهد العرید - وإنما عبادهم أيضاً ساجدة !

(١) سورة فصلت : ١١ (٢) سورة النحل : ٢٥ (٣) سورة الحاقة : ١٠

وما يحظر للإنسان . عادة - أن انظر له وجود قائم بذاته ' فهو أبداً تابع لصاحبه ، يصحبه  
 ههنا لأنه ظله ! بل لا تتصور الإنسان أن انظر وإن كان متحركاً ، هو « كائن » متصل  
 له حركة ذاتية يمكن أن يسجد بها لله ! ولكن السباق يجبي لظن ، ويمسحه الحركة الذاتية  
 استغفلة ، ويفرحوا بأنه ساجد لله كأنه لحسابه الخاص ! لأن نعمته هي لله مباشرة وبسبب  
 لصاحبه الذي يحركه معه حيث يتحرك !

ألا إن بصورة مبدعة ! إن بلمطة واحدة « وظلالهم » تصاعف عدد الساجدين لله في  
 الكون كله ! فبعد أن كانوا هم وحدهم الساجدين كي يسودوا إلى أدهان ، إذا هم أشان  
 ساجدان ، الشخص وصده والشئ وظله !

من إنه لم يتضاعف مرة واحدة ! والحركة الدائمة للظن ما بين العدو والآصال يجعل الظن  
 شحوصاً كثيرة جداً وإن كان صاحب انظر لم يرد عن واحد ! وتجمع لساوات والأرض  
 مسرحة ههنا لسجود الطلال في كل لحظة ، حتى ما يوجد مكان في السماوات والأرض قد  
 خلا لحظة من الساجدين !

ودلت كله بكنيات معدودة لا تريد على ثلاث أو أربع . « وظلالهم ياعدو والآصال »  
 ثم يعود ليقا في أولئك المكذبين يوجه الخطاب إليهم لا يقصد بقايعهم وإنما  
 لشكيتهم . فإن من لم يقتنع بكل تلك الآيات ، معشودة من أول السورة لا يستحق أن يُصنع !  
 « قل من رب السماوات والأرض ؟ قل الله قل أفأحدثكم من دونه أولياء لا يملكون  
 لأنفسهم نعماً ولا صراً ؟ من هل يستوى الأصمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات  
 والنور ؟ أم جعلوا شركاء خلقوا كخمسة مثله الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شيء  
 وهو الواحد القهار » .

إنه يسأهم ولا ينظر إجابهم ! « قل من رب السماوات والأرض ؟ قل الله ! » وهم لم  
 يكونوا مكروب أن الله هو رب السماوات والأرض « ولئن سألتهم من خلق السماوات  
 والأرض ليقولن الله ! »<sup>(١)</sup> قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون  
 الله !<sup>(٢)</sup> ولكن السياق لا ينتظر عندهم حتى يأخذهم بعتابهم ! إنه يسأهم للسكيت فقط  
 ويبين سخف مصرهم القائل على غير منطق ولا برهان ! « قل أفأحدثكم من دونه أولياء لا  
 يملكون لأنفسهم نعماً ولا صراً ؟ » .

ثم سيبدد أفتد « قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ ! »

(١) سورة لقمان ٢٥ (٢) سورة المؤمنون ٨٦-٨٧

هم . يسوى هذا الموقف الصل وموقف المؤمن مدى يرى لآيات فتفتح له بصيرته فيؤمن  
ويستحب : أم هل تستوى ظلمات الكفر ونور الإيمان ؟

ثم فصل التكذيب والفساد إلى معمة السحرة ١٥ : « ثم جعلوا لله شركاء خلقوا كحلقة متشابهة  
خلقوا عليهم ١٦ » وحتى هم لم يكونوا يرغمون أن هناك خالقاً مع الله أياً كانوا بشركوا مع  
الله في صفات أخرى غير الخلق . ولكن السارق يسحر بهم لأهم غمو عن حقيقة انكبرى .  
وهي أن الخالق وحده هو الذى يسمى أن بعدد . وأنه مادام هو الخالق فهو المتصرف وهو  
صاحب الأمر . « ألا له الخلق والأمر ١٧ » فهم لا يكرهون أنه سبحانه هو الخالق وحده .  
ومع ذلك لا يرتبون على ذلك تيجته المنطوية . وهي أن يعبدوه وحده دون شركاء . ومن هه  
تجىء السحرية الخادة بهم . كأنها يقول لهم إنه لا يعنى لهم أن يفهموا موقف لشركاء والتكذيب  
إلا في حالة واحدة . هي أن يكون لله شركاء يخلقون كحقيقه فينشابه عبيهم الخلق . ولا  
يستطيعون أن يميزوا بين ما خلقه الله وما خلقه الشركاء فيعبدوههم جميعاً على سواء . وما دما  
هم لا يرغمون أن هناك خالقاً غير الله . فشركهم إذن ليس به معرر . وليس له برهان  
وهو . إذا شاء العقلاء يوب ديل عقل أ ويستطيع لعقل أن يجعل منه قضية عقلية  
مطلقة ذات مقدمات وبراهين . ولكن السباى لا يسوفه من هذه التروية . إنما يجعله  
سحرية لادعة تثير الصبحك من موقفهم الشاد دون مجريد ذهبي لا يعنى شيئاً في الموقف  
ولا يقدم ولا يؤخر .

ومرة أخرى يسأله ولا ينتظر إجابهم . مما سألهم لكي يجيبوا أصلاً . وبها ليسهر من  
بصورتهم العاسدة

« قل الله خالق كل شيء وهو لواحد لفهر » وهكذا يحسم تقصير رصوا أم م  
يرضوا . واقتنعوا أم ظلو في ضلالهم الملقبم

\* \* \*

ثم يأتي هذا المثل . وهو من أجمل الأمثال المصروية في القرآن .  
« أنزل من السماء ماء فسالت أودية بمندها . فاحتمل المسيل ريداً رانياً . وما يوفدون  
عليه في ندر بنبعاء حلية أو متاع ريد مثله . كذلك يصرب الله الحق والباطل . فأما الريد  
فيذهب جماءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض . كذلك يصرب الله للأمثال »  
وسأل أولاً . هل هو مثل يضرب ؟

( ١ ) سورة الأعراف . ٥٤

واحسب نعم ولا شك ! فقد نصبت الآية نصاً على أنه مثل بصرب « كذلك يصرب الله  
لأمثال »

ولكن متى يعطى هذا المثل حمالاً خاصاً لفئة « فيه » رب لم ترد في موضع آخر منه  
لصورة

إن للأمثال في دانتها حاديه ليست لغيرها من أنواع التعبير وليس تحت المثل وتأثير به  
أكثر من الصور المباشرة في التعبير لأن فيه حمالاً « ها » رائداً عدلاً من أن يعرض المعنى  
مباشرة ، فيه يعرض معكوس من خلال مرآة خاصة لا كالمرويا لعدديه ! فإدراك العدديه بعكس  
أشياء في نفس صورته بلا مرق . ولكن هذه المرآة ذات حصصية عبر عادية ! فهي لا  
تعكس الشيء على صورته الأصلية ، وإنما على صورة أخرى مشابهة . ولكنها أسوأ رويًا  
وأكثر وضوحاً وأشد حاديه ومن ثم يعين على إدراك المعنى الأصلي بعدد المقاربة بين  
الأصل والصورة ! ومن ثم يصاعف المعنى في حسن حين يصح أصلاً وصورة ، كل منهما  
قائم بذاته ، ومتصل بالآخر في ذات الوقت ، ويجد لإسناد معية في معنى المعنى بحاله بدلاً  
من أن يتملأ بهه وحسب

هذا بالسنة للأمثال جميعاً ولكن هذا المثل يصفه خاصة له جمال رائد !

به بدأ وكأنه ليس مثلاً ! وإنما هو امتداد للسبب في الآية السابقة !

« قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار أنزل من السماء ماءً فصالت أوديه  
بقدرها فاحتمل السيل ربداً ربيداً . »

أي هنا هل يحس أنه مثل بصرب ؟ كلا ! إنما تحس أنه استمرار لمحدث عن قدره الله ،  
كما يرد في كثير من آيات القرآن ، خلق كل شيء ، أنزل من السماء ماء ! أو تحس أنها  
قصة واقعية حدثت ذات يوم : أنزل من السماء ماء ، في بقعة معينة من الأرض ، فصالت  
أودية بغيره ، فاحتمل السيل ربداً ربيداً ! وبكيفية يهول « وما يوقدون عليه في النار  
انتعاء حية أو متاع رند مثله » تند تحس أنها ليست قصة واقعية تروى ولكبك لا يعرف  
بعد ما هي ! ثم هذه الثابتة حقيقة قائمة بذاتها لا يعرف بعد فهم تساق ، إلا في أنها مشتركة  
مع الأولى في وجود لربد . وهجأة يقال لك إنه مثل بصرب ! « كذلك يصرب الله يحس  
والباطل ! » وعددد يعود ترجع من جسد ، لتفحص بين ما خضته متصلاً من السياق ، ثم  
لتعطي الأصل والصورة في المثل المضروب !

ونكن هل تفصل الساق إذا فصلته ؟ « قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ،  
أنزل من السماء ماء . . »

كلا ! إنه متصل ما يراد ! وتلك هي اسفلة العية انى تعطى جمالاً رائداً هـ المثل بالذات !

إنه من ذات الخط الذى سحت به الآلة اسابقة « قل » الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار « يبدأ يسبح بصورة الجديدة ، دور أن يشعره فى مبدأ الأمر أنه سيججد وصورة جديدة حتى تفاحاً بالصورة بعد اكتهاها فإد ، هى حقاً قائمة بساتها ، ولكن الخط الذى سحها يظل متصلاً بها قبله بغير انقطاع !

ثم يأخذ فى تم الأصل والصورة ، فتردد تدوق تلك اللمعة لعية الحميلة إن الصورة القائمة بداتها المعكوسة من خلال مرآة ذات الخصصة العية الخاصة ، هى الماء النازل من السماء حتى يعص به الوديان . كل واحد يحمل بمره عهد واحد عمين فيمثل امتلاء ، وذلك واحد صحل لا يمكنه من الماء ، بها يمر عليه مروراً ولا يمكنه فيه ثم إن السيل يحمل فى طريقه ريداً رايياً ، مما كان فى الوديان من أوساح ورواسب ، فيظهر الريد على السطح فترة يعطى على الماء ، فإد رأى الرانى فيه يرى ذلك لزيد القوار الجياش على السطح ثم يستقر السيل بعد فترة ، فإد الريد المنتش القوار الجياش قد اختفى ويبقى الماء مستقرًا فى الأرض ، صافياً رائقاً ، يستمتع به الناس

أم المعنى الأصل ، المراد انتمثل له فهو هكذا أن الله يرسل من السماء هدى رانيًا على القلوب البشرية - الهدى يقابل الماء ، وانقلوب تقابل الوديان - فأخذ كل قلب حسب طبيعته - قسب يمثل الإيمان ، وقت ينزل عليه الهدى فطرده فلا يتلث به ثم إن الباطل الذى لا يؤمن ينتمش ويفوز فترة من الزمن فى صراعه مع الحق انزل من السماء ثم لا يلبث أن يستقر أمر الله فى الأرض ، فإد هذا الباطل المنتمش قد دمر لله عليه ، فذهب ريداً بعد أن كان يهر الناس بقوته الرائعة ، ويبقى الإيمان مستقرًا محكمًا فى الأرض

هذا هو الأصل وتلك هى الصورة المعكوسة من خلال تلك المرآة « العية » الخاصة وإنها بصورة حيلة فى داتها سملام الخيال فيتحرك معها ويشطها فإد بررت لصورة الأصلية ، وعمدت المقدرية بين الأصل والصورة رادب الأولى وضوحاً وجمالاً ، وتضاعف إحساس الإنسان بها ، وهو ينظر فى الأصل ثم ينظر فى المرآة !

ثم لأن . يتبين لنا الجمال الخاص فى هذا المثل بصورة أوضح

إنه فى المثل يقول « أنزل من السماء ماء » ولا يسهها ، كما يسه فى مواضع أخرى إلى

بداية، لئلا<sup>١</sup> ، لأن الخطب مشترك بين الأصل والصورة<sup>٢</sup> إن الله يرسل من السماء ماء على وجهه  
 خفيه . والله يرسل من السماء هدي في كتاب مرسل<sup>٣</sup> ومن ثم مستخدم السياق ذات الخطب ،  
 فوسم به الأصل والصورة على السواء .

ثم إن هذا المثل أيضاً يصيب جملاً آخر . إن المرأة بعكس صورتين للمعنى المقصود لا  
 صورة واحدة . « وما يوقدون عليه في النار سعاء حلة أو متاع ريد مثله » . فمثل صورة  
 أخرى نملاها الخيال ويشط لها ويعقد انعكاسه بينها وبين الأصل . فهذا ذهب ثمين أو قصة  
 مما يستلهم في الحى والريه . ولكنه لابد أن يُفَسَّ في النار ، أى يوقد عليه حتى يصهر  
 فينمض عنه الخبث الذى كان محتويًا عليه أو كان مصاحبًا له . وتتميز هذا عن ذلك  
 وبكده في أثناء نفسه يعلو الخبث . الذى يأخذ اسم الريد هنا كذلك . فيعطى على المعدن  
 خفى ، حتى إذا هدأت الأمور وسترعت كان الريد قد بقي وحده وألغى بعيدًا ، ويظل  
 المعدن لثمين نحلى به الناس ويتزبون

ومع أن الصورتين هم انعكاس لأصل واحد ، ويصوب المثلان لشيء واحد . « كذلك  
 يصوب الله الحق والباطل » ، إلا أن كل صورة تُعكس من زاوية غير الأخرى وإن كانتا في  
 نهاية تؤديان إلى عايد واحدة . فهذه لصورة هي صورة النار التى يفتى فيها المعدن  
 ولإشارة إلى الفتنة التى يتلى بها المؤمنين

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم ،  
 فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »<sup>(٢)</sup>

ففى أثناء الابتلاء يكون الباطل هو المنتمخ المتحرك الموار ، والحق معمورًا تحت سطوة  
 الباطل لا يظهر . حتى إذا انتهت حكمة الابتلاء ، وتغير الخبيث من الطيب ، ذهب  
 الخبث بدذا وبقي الطيبون في الأرض

أرأيت إلى إبداع الصورة . بل الصور المتعددة الموحية المعبرة جميلة ؟  
 ألا إنه لإعجاز



كان المثل المضروب بصور الهدى . الرامى لمزل في القرآن على رسول الله صلى الله عليه

(١) يقول في سورة البقرة مثلاً : « إن الله لا يستحي أن يصرف مثلاً من بعوضه في فوقها » ويقول في سورة  
 النحل : « ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يعذر على شيء . ومن رزقناه من رزقاً حساً فهو يعق منه سراً  
 وجهراً من يسرون ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » فتعرف من البداية أنه مثل مضروب

(٢) سورة العنكبوت ٢-٣



وسلم - ، ويصور القلوب التي تستجيب والتي لا تستجيب :

« ندين استجابوا لرهم لحسى والدين لم يستجيبوا له لو أن هم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لاقتدوا به ! أريث لهم سوء الحساب وماؤاهم جهنم ونشس انهاد »  
وهنا وقع فيه كذلك تين لنا حال التعبير بالتصوير لو قال والدين لم يستجيبوا له  
لن يصنعهم شيء يوم القيامة لأدى التعبير معناه ولكن أين هـ معنى الدهى من تلك  
لصورة « لو أن هم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لاقتدوا به ! » ؟

إن الخيال هنا يعمل في تنح الصورة صورة إنسان يمتلك ما في الأرض جميعاً وذلك  
مستحيل في عالم الواقع لأنه فوق قدره الإنسان على التملك ، ولو لم يصنع أحد ولم سافسه  
أحد ولكن الصورة تريد الأمر استحاله « ومثله معه ! » ومن أين باتى بشر حتى لو  
أرد ! ثم الانتداء ذاته كيف يقوم به ! كيف يتقدم إلى الله بملء الأرض ومثله معه ؟ ! إن  
الخيال لرسم صورة إنسان يحاول أن تأبط الكوة لأرضية جميعها - فضلاً عن مثلها معاً ! -  
ليحاول تقديمها إلى الله فديه عن نفسه بكى لا يدخل جهنم ! فيجسم معنى الاستحالة  
باصعاف ما يتمشه الدهى المحرد لدى التعامل مع معنى لتجريدية الألفاظ !



ثم يصح السياق في حوة جديدة يعقد فيها مقارنة بين المقتضى من البشر الذين ذكرهم  
من قبل « الذين استجابوا لرهم » « والدين لم يستجيبوا له » والذين صرنا هم المثل من قبل  
بالأودية التي تحتل السيل كل بقدره .

« أعمى يعلم أنه أعمى من ريث الحق كمن هو أعمى ؟ ! »  
إنها فرقان أحدهم يعلم أن ما أترل إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الحق  
وثاني بوصف بأنه أعمى ومقتضى المقابلة أن يكون الفريق الأول هو البصير ، كما صار  
من قبل « قل هل يستوى الأعمى والبصير » ولكنه لا يصفها بصفته إنما يصفه  
بحالته يعلم أن ما أترل هو الحق ثم يطلق عليه وصفاً آخر « أولو الألباب » ومقتضى  
المقابلة أن يكون الفريق المكذب لا ألباب له ، أو كما يصفهم لفران في غير هذا الموضع  
« لهم قلوب لا يعقلون بها »<sup>(١)</sup>

وهنا يأخذ السياق يصف لنا أول الألباب هؤلاء .

« الذين يوفون بعهد الله ولا ينقصون الميثاق » والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقاهم سراً وعلانية ويذرون ما تحسنة أولئك هم عقبى الدار حساب عند مدخلوها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم وأمالئكة يدخلون عليهم من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم فنعيم عقبى الدار »

وإن هذا الوصف الرائع خميل الشفاف يستوقفنا في أكثر من موضع منه ، بل في كل موضع !

إن أولى الألب هؤلاء هم الذين وصفهم السيف من قبل باسم يدين يعلمون أن ما أنزل إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الحق ثم هم الذين يوصفون بها بأنهم « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقصون الميثاق » والذين . . . والذين . . .

فأول ما يجب حسنا هنا أن هذا « العلم » بأن ما أنزل الله هو الحق ، ليس ذلك العلم ليهي الدرد الذي لا تتحرك ولكنه علم متحرك مشع ، ينتج آثاراً معينة في سلوك أولي الألب

فعلمهم بأن ما أنزل إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الحق ، قد انتقل من الذين انبى علم ، إلى القلب الذي يمس بالوحدان الحي ، لكي يتحول منه إلى سلوك « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقصون الميثاق » . . .

« يوفون بعهد الله ولا ينقصون الميثاق » أى ميثاق هو ؟ أهو الميثاق الذى أحده على سى آدم في عالم لدر . . . « وإد أحد ربك من سى آدم من ظهورهم دربتهم وأشهدهم على أنفسهم - ألسنت ربكم ؟ قالوا بلى ! شهدنا ! » أم الميثاق الذى عقده مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - إد شهدوا إلا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، بما معاه ألا يعدوا إلهاً آخر غير الله ، ولا نطيعوا أحداً غير الله [ والرسول لمبلغ عن الله ] ولا يستمدوا من أحد غير الله ؟ هذا وذاك ميثاق . . . أو هو ذات الميثاق . . .

وإن التعبير إد يقول . « عهد الله » ويقول « الميثاق » ليعنى كل عهد مع الله ، وكل ميثاق مع الله

ثالث أول صفة يوصف بها أولو الألب وأول أثر من آثار هذا « العلم » انبى عدمه ، فتحول إلى سلوك .

« والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل . . . »

إن « م » بهذا التعميم تعنى كل ما أمر الله به أن يوصل . وإن هذا التعميم بالذكر هنا  
 لعظم مساحته وسعة للمعنى يدخل فيها أمور لا تخصى . والسبق هنا لا يخصيها ، ليبقى  
 هكذا عامة شاملة موحية ! فالتصال القلب بالله فى الصلاة والذكر بما أمر الله به أن يوصل .  
 والاتصال بدوى القربى بالمودة والإعناق عديهم ما أمر الله به أن يوصل . وتصل الأرواحين  
 بنودة والرحمة ما أمر الله به أن يوصل . واتصال لعلوب المتألقة بالمتحابة فى الله بما أمر الله به  
 أن يوصل . . . وغيرها مما يشمل كل أعمال الإنسان !  
 « ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب »

إن العلم بأن ما أنزل الله هو الحق لابد أن يؤدى فى القلب المؤمن إلى الخشية من الله ،  
 وإلى الخوف من سوء الحساب ، وإلا فإنه يظن علماً معدوماً ، لا رصيده له فى المشاعر ، التى  
 تؤدى إلى السلوك . ولكن أرى الأكتاب موصوفين هنا بدركون من هذا العلم جلال ربهم  
 فيخشونه ، ويؤمنون باليوم الآخر وبه فيه من حساب فيؤمنون سوء الحساب  
 « ولدين صبروا انتعاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلاية ويدرءون  
 بالحسنة لسنة . . . »

وهذا كله سلوك عمى نشأ من تلك المشاعر الخاشعة لله ، التى بدأت بدورها عن ذلك  
 العلم بأن ما أنزل الله هو الحق .

إنه لابد أن يصل هذا العلم فى النهاية إلى سنوك ، بعد أن يتحول إلى مشاعر . والا فهو  
 علم كعلم الجاهلة الذى لا تقدم ولا يؤخر ، والذى من جده سمي الله لعرب فى جاهليتهم  
 « الذين لا يعلمون » . أما هنا فصفت « الذين يعلمون » وسنوكهم ، تبيين ما الفرق بين  
 العلم الربانى والعلم الجاهلى . وشتان ما بين علم وعلم  
 « صبروا ابتغاء وجه ربهم »

إنها صورة شعبة للنصر . كأنها نور . وكأنها أنوار الربانى من « وجه ربهم » يتألق فى  
 قلوبهم وعلى قسما وجوههم فتصير « ألسنا قد صبروا ابتغاء « وجه ربهم » ؟  
 يا هذا من شفافية ! لم يقل هنا صبروا ابتغاء نعيم دخرة . وهو من حشهم ! إن  
 يقول « صبروا ابتغاء وجه ربهم » . إنها أشعب صورة للنصر . وأروع صورة للإيمان .  
 « وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلاية »  
 إنها تكلمة لصورة الشفاعة الرضاء السامة . أقاموا الصلاة ، يصنعون ما بين

قدوسهم ويبي الله وأبصر سرّ وعلاسة لا يتبعون ببعافهم إلا وجه الله وبعظة « سرّا » هـ  
تشارك في رسم الصورة الوصيّة لأولئك المعصين ابتداء وجه الله  
« ويدرون بالحسنة السيئة »

وتلك فمه الشفافية وقيمة الصبر وقمة الاربع يتلمون السئة فبدروها  
ولكن كيف ؟ بتقديم الحسنة إلى السيئة !  
إيها صورة شفافة ولا شئ ولكنها تستوقف هـ إلى هذا المجال نفون بها من من  
الأمور التي ترجع أن السورة مكية لا مدنية !  
فقد كان كف الأندى ، ومعادلة السنة بالحسنة هو أم الله للمسلمين في مكة فأما في  
المدنية فقد أمرهم برد العدوان ، ثم أمرهم بعد ذلك بأن يبدأوا هم بالعدل حتى يدرو  
الفتنة « وقائلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » (١) .  
ولكن مكنه دره السيئة بالحسنة له مكان وبجان ، وده السيئة بالقتال به مكان  
وبجان ولا يصح هدام يصح له كـ والله أعلم حيث يرل وجهه وأوامره  
إنما اندى يهنا هـ أن هذه الآية مع غيرها ترجع أن السورة مكية والعلم ليهم  
عبد الله

ويحسم السياق تلك الصورة الشفافة الوصاء بخراء اندى يستحفه هؤلاء عبد الله  
« أولئك هم عقبى الدار »  
لهم العقبى الحسنة في الدار الخالدة :  
« جناب عدن يدخلوها ومن صلح من آبائهم وأرواحهم ودرياتهم »  
فهذه نعيم نفس مصاعف نعيم دحور الحنة ، ونعيم التلاقى مع الآء والأرواح  
ودريات الصالحه هناك في الحنة وليس هد فقط وإنما تكمل صورة هذا النعيم  
لروحى الشفاف بدحور الملائكة من كل باب مرحين :  
« والملائكة يدخلون عليهم من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم فنعيم عقبى الدار » ! .  
أى نور يعمر الصورة كلها في نهاية المطاف !  
ب الصورة كلها مصيئة شفافه رائقة بكل صفة فيها وكل شعور ثم  
تتلاقى الأصواء كلها فتعمر الصورة عمرا هـا النور الملائكى ، والملائكة يدخلون عليهم  
من كل باب من كل باب ! إيها صورة أحاده بترحيب « بالصوف » وإهم لصيوف  
الرحمن حق في تلك الدار الخالدة ذات النعيم النقيم . . .

وهل ب أن نقف وقفة سه سريعة وراء هذه اللوحة المرافقة قبل أن نكمل إلى المدحة المقدسة

أرأيت إلى هذا التنسيق في اللوحة ؟  
يؤمن بعهد الله ولا ينقصون ميثاقه ويصلون ما أمر الله به أن يوصل . خطوط عريضة !

محشون ربههم ومحافظون سوء الحساب . . خطوط أدق !  
أدوموا الصلاة وأفقوا عرقهم سرًا وعلاية ويدرون بحسنة السيئة خطوط أدق !  
سقى مدحود في كل لوحات السورة من البدء إلى الختام !  
\* \* \*

ثم تأتي الصورة المقابلة  
« والذين ينقصون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم النجسة وهم سوء الدار »  
إنها الصفحة المقابلة تمامًا ولا شك ولكن أرأيت إلى صورة العرص وإيجاءاتها ؟  
هناك عرص متمهل ، يصف أولى لألياب بأوصافهم الخميعة الشفعية وصفًا تفصليًا ، مع لعبة العائقة بهم والاحتعار انتم بوصفهم ، مدى يتبدى في تقديمهم من جديد في كل مرة الذين والذين والذين يسب هنا يقدمهم دفعة واحدة بكل أعيانهم السيئة في سياق واحد سريع بغير احتمال ! ولآية واحدة يصنعهم ، ثم يلعنهم ، ثم يوصلهم إلى جهنم ! ! يسب هناك وصفوا في ثلاث آيات متواليات ، ثم أعطيت هم البشرى في الآية لثالثة ، وفصلت في آيتين بعد ذلك !  
والحناية هناك مقصودة والإهمال هنا مقصود !  
\* \* \*

« الله يسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ورحوا بالحياة الدنيا ، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع !

آية محيية - مفاجئة - في الطاهر - بعد وصف الذين ينقصون عهد الله من بعد ميثاقه .  
كأنها تقطع السياق !

كلا ! إن هناك جسرًا حث يربط الآيتين بربط وثيق . إنها محتاج الأمر إلى إنعام النظر لكي يرى الحسر الوسط

إن هؤلاء الكفار يكفرون حرصاً عن منافع الحياة الدنيا ! يخافون أن يحرمهم الإيمان من متاعهم ! لأهم يرون المؤمنين في محبة وانتلاء ، لا مان عندهم ولا مناع ! ويسوون أن الله هو الذي ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر ! إنه ليس الإيمان هو الذي يصنع المال والمتاع ، ولا الكفر هو الذي يبقى على المار والمتاع كما بطن السحبيون دائماً في كل جاهلية ! إنما الله هو الذي يورع الرزق ، وحكمة يريد بها وفي النهاية - سواء سيط الرزق للإنسان في الدنيا أو قدر عليه - فإنه متاع زائل رائف ، لا ورن له في الآخرة والمتاع لحو هو ذلك المتاع الأحمري الذي لا يشبه تملك المتاع في الدنيا إنما يشبه الإيمان ! ومن ثم فإن هذه النظرة التي ينظر بها الكفار إلى الأمر فكفرون ، إنما هي نظرة عبية لا تستحق الاحترام !

ثم يعود إلى تسجيل ما يطله الكفار من تبرير آية وهذه هي المرة الثانية في السورة التي يسجل فيها طلبهم ، بما يدل على إصاحهم لشديد في ذلك [ جاء ذكر الطلب مرة ثالثة في السورة ] كما يدل على اهتمام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالأمر [ وهذا ما يرجح عدد كذلك أن أسورة مكية لا مدنية ، فإن هذا كان يقع في مكة لا في المدينة ] ولكنه لا يرد عليهم بالاستجابة

« ويقول الذين كفروا : لو لا أمر الله به من ربه ١٩ قل : إن الله يصل من يشاء ويهدي إليه من أناب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين يذكرون الله . ألا تذكرون الله تعظم القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب . »

إن الله لن يرد عليهم الآية التي يطلبونها لحكمة يراها الله سبحانه . ولكنه لا يرد عنهم ذلك مباشرة ، بل يرد بذكر حصة لا يجعود ما هم إليها ! إن الإيمان ليس متعلقاً بنزول آية ! إنما يهدي الله الذين يتوجهون إليه متطلعين إلى الحق ، ويصل الذين تصرف قلوبهم عن الحق .

« قل : إن الله يصل من يشاء . »

والله يهدي من يشاء ويصل من يشاء . إن المشيئة الربانية طيبة لا يهده قيد . ولا يوجد من يعرض عليها المبدأ . تلك حقيقة قائمة بذاتها ، وسجدها الآبه ولكن لسياق يوحى في ذات الوقت - عن طريق المعاملة مع « من أناب » أن الذين يصلهم الله هم الذين لا ينسبون إلى الله ولا يتوجهون إليه أم « من أناب » فأرثت هم الذين يهديهم الله

« الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين يذكرون الله . ألا تذكرون الله تعظم القلوب »

نعم . إنها الصماسة إلى الله . إنها قمة المشاعر الإيمانية وأروع ثمارها . . الصماسة إلى

الله وقدره وإلى كل ما يأتي من عند الله . انطمانية إلى معية الله الطمانينة إلى أن الله مع المؤمن في كل لحظة لا يساه ولا يقلاه حتى في ساعة العسرة حتى في ساعة المحنة حتى في ساعة العذاب يحس المؤمن الحق بالطمانينة إلى الله وعلى قدر إيمانه وتأصل هذا الإيمان تكون إحساسه بالطمانينة إلى الله ألا يذكر الله تعظم القلوب . ألا بهذا التسيه الذي يعبد لقصر أيق . . أي أن الطمانينة الحقيقية لا تستمد إلا من ذكر الله ! لا تستمد من القوى المادية ولا القوى الشرية ولا أى ستار ولا أى تحصى ! لا تستمد من ذكر الله لأنه هو الذي يفتح الطمانينة الحقة وهو الذي يملك الأمان الحق وهو أكبر أكبر من لقوى والحصون والبشر والأموال والسلاح !

« الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » .

نعم . الذين آمنوا وعملوا الصالحات . لقد ذكر الإيمان وحده في الآية السابقة ليصف أثر الإيمان في مشاعر الإنسان ، ثم أردفها بهذه الآية ليبين أثر الإيمان في السلوك العملي أولئك طوبى لهم . . الطيبات لهم . . وأما الجميل إلى الله



« كذلك أرسلناك في أمة قد حلت من قبلها أُمم لتبين عليهم الذي أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله الا هو عليه توكلت وإليه متاب ولو أن قرأتا سرت به الخيال أو قطعت به لأرض أو كلم به الموتى ! من الله الأمر جميعاً أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله هدى الناس جميعاً ؟ ولا يرل الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد وقد استهزئ برسول من قبلك فأعدت للذين كفروا ثم أحدثهم فكيف كان عقاب ؟ »

« كذلك » .

بالإضافة إلى ما سبق في السورة كنه من تفصيل الآيات « أرسلناك »

لقد سبق في أول سورة موله تعالى « يفصل الآيات لعنكم بقاء منكم توفون »

وإلى جانب تفصيل الآيات الذي كانت السورة تعرضه حتى الآن ، يرسل الله رسولا إلى هذه الأمة ليقوم بالتبليغ عن الله ويقوم بالبيان .

« كذلك أرسلناك في أمة قد حلت من قبلها أُمم لتبين عليهم الذي أوحينا إليك »

وقد كان مقتضى هذا كنه أن يؤمن هذه الأمة . وقد حلت من قبلها أُمم أرسل إليها رسل ، فليست هي أول أمة أرسل إليها رسول حتى تنكر الرسالة والوحي وتنكر

الكتاب المنزل - ولكنهم مع ذلك لا يؤمنون

« وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب »  
إن نعمة الحديث قد تعرت هنا بعد البيان لطويل والعرض والتفصيل ، وبعد الإندراجات  
الموجهة بالكفار بالنعمة وسوء الدار - إنها تعنى المفصلة بين الرسول - صلى الله عليه وسلم -  
وبين الكفار « قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب » كما قال من قبل  
« لكم دينكم ولي دين »

وللمفصلة التي تعنى نقص الأيدي من الكفار لإصرارهم على كفرهم نعمة متميزة  
حيثما أنت في ساق القرآن ، لا هي بالحادثة كلها لتهدد ، ولا هي بالمقدمة عما كتبها  
التقريب

« وما قدرنا الله حق قدره ، وقالوا ما أمر الله على شر من شيء ! قل من أئوى لكتاب  
الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس فجعلوه قرطيس تدوسها وتحفون كثيراً ، وعلمتم ما  
لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » ١٩ قل الله ثم درهم في حوصهم يلعبون ! » (١)  
« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا شرك به  
شيئاً ولا يتحد بعضنا أرباباً من دواب الله فإن تولوا فقولوا : أشهدوا بأنا مسلمون » (٢)  
وهنا كذلك يقول لهم « قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب »  
ويستوقفاً أمر الله سبحانه وتعالى إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يقول « عليه  
توكلت وإليه متاب » ٢ فإذا كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول إلى الله متابى ،  
فكيف ينبغي أن يصنع بغير لعاديين الدين لم يرتفعوا إلى مستوى الأنبياء فضلاً عن حاتم  
الأنبياء عليه الصلاة والسلام ١٩

ثم يعود إليهم ، مشيراً إلى عدلهم الآية ، ومشيراً إلى أن القرآن هو آية الرسل العظمى ،  
عنه الصلاة والسلام ، ولكن عدلهم هي التي تعميهم عن ذلك فيصرون على طلب  
الخارقة الحسية ولكن الحديث ليس موجهاً في هذه المرة إليهم ، إنما هو موجه إلى الرسول  
- صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين الذين ما زالوا يطمعون في إيمان الكفار ، ويسمون أن مو  
برئت آية فتشجع أوثك الكفار على الإيثار أو تقنعهم بالحق

« ولو أن قرناً سبرت به الحبل أو قطعت به الأرض أو كنتم به لموتى ١٩ هـ  
والكلام له نكسة معدرة لم يدكرها النص ، كأنه قال لو أن قرناً كان يمكن أن تسبر به

(١) سورة الأنعام ٩١ (٢) سورة آل عمران ٦٤



الحبال أو تقطع به الأرض أو يكسب به الموتى لكان هو هذا القرآن !

ولنص بصورته المعجزة هذه بحمل عدة معاني في وقت واحد :

أن القرآن هو المعجزة التي شهدت إرادة الله أن يرسلها على - الرسول صلى الله عليه وسلم - دون غيره من المعجزات ( لا يصح هذا وجود معجزات أخرى للرسول غير القرآن ، ولكن معجزة التحدى هي القرآن كما هو واضح من سياق الآيات ) .

أن الله سبحانه وتعالى لم ينزل خارقة حسية !

أن القرآن المعجزة المحتدرة - لحكمة ربية - بدلاً من الخوارق حسية التي أرسل بها الرسل من قبل ، ليس من شأنه أن يصنع خوارق حسية كتفسير الحبال أو تقطيع الأرض أو تكليم الموتى إنما هو معجزة معنوية تخاطب القلوب والعقول لتصل بها إلى الرشد عن طريق الوعي والإدراك وانصهم لا عن طريق الإحساس لمخارقة الحسية [ « إن شأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها حاضعين » <sup>(١)</sup> ]

هذه هي المعاني المتضمنة مباشرة في النص - ولكن النص مع التكملة المقدره يوحى بمعنى آخر :

إن هذا القرآن لا يصنع خوارق حسية كتفسير الحبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى ولكن المخارقة المعنوية التي يصنعها هي كتفسير الحبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى ، بل هي أعظم وأخطر ! به يصنع الإيمان في القلوب ! والإيمان - وهو قوة معنوية - أعظم خطراً من انهوى الحسية ، ثم إنه - بما يولده في قلوب البشر من طاقة - ينتج آثاراً حسية في الأرض تشبه تفسير الحبال !

ولذلك المعاني كلها يحتملها أنماط معدودة محدودة يفهمها جيداً أولئك المحاطون لأوائل جهداً القرآن ، فقد كانوا يعرفون أسرر عتهم ويعرفون كذلك مدى الإعجاز في تلك التكلمات !

« بل الله الأمر جميعاً »

هو لدى بحار نوع المعجزة التي يرسلها عن رسوله ، إذ كانت حسية أو معنوية وليس للبشر جميعاً بي فيهم رسول الله صل الله عليه وسلم أن يقترح على الله صورة معينة للمعجزة والله - سبحانه - أعلم بما يريد « والله أعلم بما يرسل » <sup>(٢)</sup>  
« أعلم بيأس الدين آمروا أن لو شاء الله هدى الناس جميعاً ! »

(١) سورة الشعراء . ٤ . (٢) سورة الحمل : ١٠١

عد كان ، مؤمنون ما يرأسون نظمهم في أن يؤمن الكفار ، ويؤمنون أن يرأس الله به تقطع حجة المكذبيين . ولكن الله يقول هم إن الله لم يرد هم الهدى ، لأنهم أضموهم ، دأبهم عن الحق . فليست المسألة أن يرسل الآية أو لا يرسل . ولو رتب الآية بعد ذلك على كفرهم « ولو أناس ربنا إليهم ثلاثون وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء فلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله . ولكن أكثرهم يجهلون »<sup>١</sup> . ولو شاء الله هدى الناس جميعاً ، فخلقهم كالملائكة . كدعهم مؤمنين . ولكن مشيئته قد اقتضت . سبحانه . أن يجبر الإنسان محذوراً بطريقه<sup>٢</sup> . وهدية المحذور<sup>٣</sup> . ورتب على ذلك أن يختار طريقاً هدى ، ويختار طريقاً آخر طريق الضلال . . . وهؤلاء قد احتاروا طريق الضلال .

« ولا يزال الذين كفروا ننصهم بها صغوا فارغة أو تحر قربت من دارهم حتى تأتي وعد الله . إن الله لا يخفى الميعاد »

وهذه الآية بالدأب يمكن أن تكون مدنية . وكثيراً ما تأتي آيات مدنية في سور مكية . وسواء كانت مدنية أو مكية فهي تهديد بالكفار بأنهم سلافة مصائب تحمل بهم أو قرية منهم حتى تأتي الهزيمة الساحقة لأخيرة التي يقص عليهم .

ثم يتوجه بالحدث إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . موسياً له عن تكذيب المكذبيين . إن هذا امر تعرض له الرسول من قبل . وفي كل مرة كان يحدث شيء معين . هو الذي يحدث الآن مع الرسول صلى الله عليه وسلم . حكمة يريد بها الله ، وهي أنه يملئ للكافرين فترة<sup>٤</sup> .

« ولقد استهزئ برس من قبلك . فأمليت للذين كفروا ، ثم أخذتهم ، فكيف كان عقاب »

رب الإملاء للكفار لابد أن يحدث<sup>٥</sup> . والثاني من الامتحان للمؤمنين لابد أن يحدث . وفي مرة الإملاء يكون لاجل تمتك حياء ، وهاهنا على السطح ، كالريد الذي يعلو السيل ، وكالريد الذي يعلو الذهب والفضة حين يفتان في البر<sup>٦</sup> . وفي تلك الفترة يتم امتحان المؤمنين و « فتنتهم » بما يشاء الله . « أحسب الناس أن يتركوا أن يقول آمناً وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فنعلم الله الذين صدقوا وعلعلمنا المكذبيين »<sup>٧</sup> .

ولكن هذه الصورة . صورة الباطل ، تمتش السعي الخياش ليست هي الصورة لأخيرة<sup>٨</sup> .

(١) سورة الأنعام ١١١ (٢) سورة البقرة ١٠ (٣) سورة العنكبوت ٢-٣

« ثم أحدثهم فكيف كان عقاب ١٩ » .

إن الربد يذهب جفاء ! سواء ربد لسيل أو ربد المعدن النصية . وأما ما يقع للناس فيمكنك في الأرض . . . ويأخذ الله الكفار بعداب أليم . . . وكذلك أحد ربك إذا أحد القرى وهي مدلة . إن أخذه أليم شديد » (١) .

فإذا كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يلقي الإيداء والاستهزاء من الكافرين اليوم ، فسبحان هؤلاء الكفار بالعقاب الأليم كما فعل بغيرهم من قبل . ولن يعصوا في طغيانهم بغير عقاب

ثم عود إلى مناقشة الكفر

« أقم هو قائم على كل نفس بما كسب ؟ وحمد لله شركاء . قل سموهم ! أم تنسوه يا لا يعلم في الأرض ؟ أم يظفر من لقول ؟ ! بل ربي للدين كفو ، مكرهم وصدا عن السيل . ومن يصل الله في له من هاد لهم عدب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق ، وما هم من الله من واق »

مناقشة شبيهة بمناقشة التي مرت من قبل « قل من رب السموات والأرض ؟ قل الله ! قل أفأنزلهم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضررا ؟ قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تسترى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل . الله خالق كل شيء وهو الواحد المهار » .

شبيهة بها في أنها لا ترد للمناقشة الحقيقية ولكن لسكبت واستحارية مفهوماتهم لصاله لقائمة على غير أساس . ولكنها هي تختلف عن السابقة في أنها تبين لسبب في أقوالهم المضادة التي يقولونها ، وتصورتهم المتحرفة التي بتصويرها ، ثم تريد على ذلك بين هابهم في الآخرة .

« أقم هو قائم على كل نفس بما كسبت . . . ٢٠ » .

قائم على كل نفس بما كسبت ، أي مسجل عليها أعمالها ، ورفيق عليها ، ومحاسب إياها بما كسبت . . . والكلام تنمة مقدرة ، كأنه يقول . أقم هو قائم على كل نفس بما كسبت مثل أولئك الشركاء الذين لا يعدمون شيئا ولا يملكون حسابا ؟

« وجعلوا لله شركاء ! قل سموهم ! »

وهو تحد لهم أن يسمو أولئك الشركاء . . . ولكن المقصود ليس التسمية اللفظية . . . وإلا فقد كان لأولئك الشركاء أسماء ! كان منها اللات والعزى ومناة « أفرايم اللات والعزى ،

ومائة الثالثة الأخرى ' ' ' وكان منها حق ، وكان منها اللاتكفة ، إلى غيرهم من معبودات  
لتي يرغم أولئك المشركون أنها تشفع لهم عند الله أو يقرهم عنده ولهم ؟  
فليس المقصود إذن هو التسمية المقطعة . إنما هو يتحداهم أن يسموا أحداً من هؤلاء أو  
من غيرهم به ألوهية حقيقية ؟ قائم بدته [ قيوم ] أو خالق أو رزق أو حي أو مميت أو مدبر  
لشئون الكون ! أو قائم على كل نفس بما كسبت !  
« أم تستوبه بما لا يعلم في الأرض ؟ » .

وبذلك قمة السحرية بهم ! فهو يقوونهم أن الله يعلم أنه لا شركاء له سبحانه في ملكه  
فهل هم يعلمون أكثر مما يعلم ؟ وهم لم يكونوا يرفعون أنهم يعلمون أكثر مما يعلم الله ! ومع  
ذلك فسلوكهم بعمل المحرف كأنه يقول ذلك ، إذ يصرون على كون هؤلاء شركاء لله ، بسبب  
الله سبحانه . « صاحب الشأن » . يقول إنه ليس له شرك !  
« أم يظهر من القول ؟ »

أم هي مجرد أساء لا رصد لها من الواقع ؟ « إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وبناؤكم ما  
أمر الله بها من سلطان » (٢) .  
أم ماذا ؟ كلا ! إن الأمر - في حقيقته - ليس ذلك كله

« بل رين للذين كفروا مكرهم وصد عن السبيل » ومن يضل الله فما به من هاد .  
تلك هي الحقيقة الكامنة وراء تصرفهم لصل كل ، وبصورهم المحرف كله . لقد  
رين الشيطان هم مكرهم ! ومكرهم ما هو مكرهم . هو انصرفهم عن هدى وإصرارهم  
على التكديس ، وعلى الالتفاف حول أولئك الشركاء المزعومين . ولقد رين الشيطان هم  
ذلك وصد هم عن سبيل الهدى . وكان السباق يصورهم قد دعوا إلى الإيمان ولتفتوا  
يستمعون إلى الداعي ، فجاء الشيطان « فصد هم » وأبعدهم وسار بهم في الطريق الآخر  
وإذ فعلوا ذلك فقد أضلهم الله فما عادوا يهتدون أبداً  
« ومن يضل الله فما له من هاد »

ثم يبين ما سوف يصيبهم في الدنيا والآخرة ، تهديداً واقعياً بهم فما وهماك  
« هم عذاب في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشق ، وما هم من الله من واق »  
وإنطق كنمة « أشق » وخصه ، إذ وقفت على آخرها بالسكون ، مع القلقلة التي تشه  
لشديد « أشق » . إنها نقطة معرة ، مصورة للمشنة حتى في نطقها . . . وذلك من  
الإعجاز !

(١) سورة الحج ١٩ - ٢٠ . (٢) سورة الحج ٢٣ .

وإذ نتحدث عن مصير الكفار فهو بين - للمقارنة - مصير المؤمنين .  
 « مثل حبة ابي وعدد المنقوب تجري من تحتها الأنهار ، أكلها دائم وظلها ، ذلك عطى  
 لدين اتقوا وعقبي الكافرين الدار »<sup>(١)</sup>  
 وما أبعاد الفرق بين العذاب الأشق ، وبين الظل لطيف والأكل الدائم في حبة التي  
 تجري من تحتها الأنهار



« الذين تبوءوا كتابك يفرحون بها أول البث ومن الأحراب من يكرهه قل إنما  
 أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه ادعوا فإنه من الله ما وعدكم وأنتون تعلمون  
 اتبعوا أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق »  
 والآية الأولى قد تكون مدنية ، إذ أنها تتحدث عن أهل الكتاب ، ومع ذلك فهي ذاتها  
 مما يرجع عندى أن تكون مكة لأن أهل الكتاب لم يعودوا يفرحون بها أنزل على الرسول  
 صلى الله عليه وسلم بعد أن انتقل المسلمون إلى المدينة وقامت الدولة الإسلامية! جاء في  
 سورة البقرة « وكذبوا من قل يستمخرون على الذين كفروا ، فلي جاءهم ما عرفوا كفروا  
 به » وجاء في سورة النساء « ألم نر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالحديث  
 والطعوت ويهولون الذين كفروا هؤلاء أهلى من الذين آمنوا سبيلا »<sup>(٢)</sup> إلا أن يكون  
 المقصود هو المؤمنين من أهل الكتاب ، الذين آمنوا بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وهم فيه  
 عليه ، ولذا قولهم « لأحراب » التي تذكر بعصه وعلى أى حال فهم إعلان حر  
 بلصصلة بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبين المكذبين من كل نوع ، يريد على  
 المقاصدة الأولى أنه يتحدث عن دعوة إلى الله « إليه ادعوا »

والآية الثانية كذلك قد تكون مدنية لأن القرآن فيها يسمى « حكيم » عربيا ما قد يشير إلى  
 حوائه على « أحكام » ولأحكام أو النشروعات نزلت في المدينة ولكن أنسور المكية جاء  
 فيها « وما ختلفتم به من شيء فحكمه إلى الله »<sup>(٣)</sup> كما وصف القرآن ذاته بأنه « حكيم »  
 وهو ذات المعنى الذى تتضمنه كلمه « حكم » « إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون  
 وإنه في أم الكتاب لذيى لعل حكيم »<sup>(٤)</sup> فكون المقصود بقوله تعالى « حكيم عربيا » أى  
 حكمه صرنه باللسان العربى .

والآية فيها تنبيه شديد بالرسول - صلى الله عليه وسلم - يصل إلى حد التحذير من لىدير

(٢) سورة النساء ٥٦  
 (٤) سورة الرخف ٣-٤

(١) سورة البقرة ٨٩  
 (٣) سورة الشورى ١٠

« ولئن أنشئت أهواءهم بعد ما جاءك من لعنم ما لك من الله من ولى ولا وقى »  
وما كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - متعاهوى أحد منهم ، وإن رغب أشد الرغبة  
فى أن يؤمنوا ويتبعوا ما أنزل الله - سبحانه - لإنداد فى الحقيقة للمؤمنين ، أن ثبيل قلوبهم إليهم  
سبب صفة العزى أو أية مصلحة من مصالح الأرض كما قال لهم فى سورة التوبة « ما أيب  
الذين آمنوا لا تحذرواكم وإحريكم أولياء إن استحبوا الكفر عن الإيمان ومن يتوهم  
منكم فأولئك هم الظالمون . قل . إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأرواحكم وعشيرتكم ،  
وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسبها ، ومساكن ترصونها أحب إليكم من الله  
ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، فترصون حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الضالين »<sup>(١)</sup>



« وقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجمعنا لهم أرواحاً ودرية . وما كان لرسول أن يأتى بشئ إلا  
بإذن الله . لكل أجل كتاب . يمحوا الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب . وإما يريدك  
بعض الذين بعدهم أو تنويعك فى عبيك للملاع وعلب الحساب . أو لم يروا أن يأتى الأرض  
منفسها من أطرافها ؟ والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب . وقد مكر الذين من  
قبلهم . فقل للمكر حيثما يعلم ما تكسب كل نفس . وسيعلم الكفار لمن عقبى انداد  
ويقول الذين كفروا \* لست مرسلان . قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، ومن عنده علم  
الكتاب »

هذه هى الآيات الأخيرة فى السورة وما جو خاص وبعم خاص كذلك  
إياها « تلخص » موضوع السورة كلها ، بعد أن عرّض تفصيلاً من قبل  
تتخلص القصصا لمشارة من جانب الكفار ، ثم ترد عليها ردّاً سريعاً حاسماً ، لا يفتح  
محالاً للجدل والمناقشة ، فقد انتهى زمن المناقشة من قبل  
إياها أشبه شئ بفاصل بقصى فى قصة شرحت تفصيلاً ، وذكر فيها الأقوال المطولة  
من قبل ، وأن أوام تتخلص موضوع القصة لإصدار الحكم الأخير . بل فقد وردت فى  
هذه « الملخص » الأخير جريئة لم تذكر من قبل ، وهى اعتراض الكفار على أن يكون  
لرسول - صلى الله عليه وسلم - أرواح ودرية . وكأنها هذا الاعتراض لم يستأهل أن يذكر  
مع « لقصاب الرئيسية » التى هى إنكار الروح والرسالة ، وإنكار المعث ، وطلبهم  
للأية . ولا أن يناقش تفصيلاً ، فجاء ذكره فى « الملخص » الأخير فحسب !

« ولقد أرسلت رسلاً من قبلك وجعلناهم أرواحاً ودرية » .

فلا عراه إذن في أن يكون لرسول - صلى الله عليه وسلم - أروح ودرية ! ولا موضع للاعتراض على ذلك ، ولا يرفض الإتيان بهذا السبب إنما هي مما حكمة فارعة من الكفار يروون بها موقفهم . وما يلفت النظر أن السياق لم يُغْنِ حتى بإيراد الاعتراض ذاته ، إنما أُنشِرَ بالرد عليه أنه ورد في « صنف لقضية » وحسب . وذلك منتهى الإهمال لأعراضهم ولا شعار بأنه لا يستحق حتى مجرد الذكر !

« وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله »

وهذه هي المرة الثالثة التي يرد فيها ذكر الآية ذكرًا صريحًا في السورة ، بخلاف الإشارة الرابعة الصميمة في قوله تعالى « ولو أن قرآنًا سبّرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى » وفي ذلك دلالة على شدة إلحاح انكسار في طلب الآية وشدة هتمام الرسول - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين بهذا الأمر ولكن السياق لم يرد ردًا مباشرًا على الاعتراض ، لأنه يصدد إصدار الأحكام الأخيرة في الأمور كلها

في المرة الأولى جاء قوله تعالى « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه . أنت منذر ولكل قوم هاد »

وفي المرة الثانية جاء قوله تعالى « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه . قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب » .

وفي كلا القولين تعميم وبيان أمهما فرد مباشر بحسم الأمر . « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » فلا عيبه إذن لطلب الآية من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، لأنه لا يملك ذلك ولو أراد . إنه ليس « حجة اختصاص » في هذا الشأن !

« لكل أجل كتاب » يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب »

ولمعد من بعض المفسرين إن الحديث هو عن النوح المحفوظ الذي فيه « سجلات » الخلق كلهم ، وما سجل لهم من رزق وعمر في الحياة الدنيا ، وما سجل لهم من سبابة في الآخرة ، أهم من أن الذين شقوا أم من الذين سعدوا .

وبهذه الصورة يكون ملاحظة تامة في السياق ليس لها صلة بـ قبلها . إنما الأرجح عندي - والله أعلم - أنه استمرار للحديث عن الآية التي بطنها لكفر ، وإشادة إلى ما كان يزل عن الرسل السابقين من آيات ، فقد جاء في سورة القصص : « فلما جاءهم الحق من عندنا

قالوا لولا أرى مثل ما أوتى موسى ١٩ ﴿١﴾ وحاء في سورة الأنبياء ﴿٢﴾ بل قالوا أصعبت أحلام ، بل افتره ، بل هو شاعر ! وليأت بآية كما أرسل لأولون ! ﴿٣﴾

والسياق يرد عندهم بأن كل عهد له كتابه وله معجزاته وقد انتهى عهد المعجرات الحية التي كانت تنزل على لرسل السابقين ، وحاء أرا أن هذه المعجزة المعنوية التي احتارها الله سبحانه وتعالى برسونه الأحبر حاتم الأنبياء - صلى الله عليه وسلم - والله سبحانه وتعالى يسبح ما يشاء من الرسل والآيات ويشت ما يشاء - وعنده أم الكتاب ؛ الأصل الذي يرسل الله فيه ما يشاء حين يشاء

﴿ وإما برئت بعض اندى بعدهم أو تتوفيت فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وقد تكرر ذكر هذا المعنى في السور المكية ثم يرجح كذلك أن هذه السورة أيضاً مكية وإن هذه الآية وأمثالها في السور المكية الأخرى <sup>(٣)</sup> لتلقى على لدعاة بصفة خاصة برماً عميقاً لا بد لهم من الالتفات إليه

إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، المكلف الأول بالدعوة ، والمؤيد بالوحي ، لا يُنطى - في العهد المكي ، عهد بدء العقيدة وبريحتها - وعداً بأن يرى هو يشخصه عن العقيدة في الأرض والقضاء على الكافرين ! إنما يؤمر بالبلاغ فقط ! ولا شأن له بالتأنيح ! ولا صيانة له أن يرى النتائج في عمره البشري المحدود على الأرض !

فما زال الدعاة إذن ١٩ أبحث لأحد أن يقول : بما أن أرى انتيحه المرتبة في حياتي وإما فلا دعوة ولا جهاد ١٩

كلا ! إن عمر الدعوات لا يمتد بعمر الأفراد - وبسمي لفرد أن يشترط على الله أن يبره نتائج جهاده في الحياة لنسب ' فليس أحد من المخلوق أكرم على الله من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، اندى يقال له : ﴿ وإما برئت بعض اندى بعدهم أو تتوفيت فإنما عليك البلاغ ﴾ ! إنما يسعى على الدعوة أن يعملوا لا يرحلون شيئاً إلا أحر الأحره فأما إن جاء النصر من عند الله وهم أحياء ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء - ولكنه ليس شرطاً مسبقاً للجهاد في سبيل الله !

ولكن انتيحه مؤكدة في جميع الحالات ، سواء شهد بها الرسول - صلى الله عليه وسلم - في عمره المحدود أم لم يشهد بها

(٢) سورة الأنبياء ٥

(١) سورة القصص ٤٨

(٣) راجع سورة غافر ٧٨ ، وسورة الحجر ٩٧-٩٩



« أو لم يروا أن تأتي الأرض بنقصها من أطرافها ؟ »  
« أو لم يروا أن ندبل الدول وبريل سلطان ذوي السلطان ؟ »  
« والله يحكم لا معقب لحكمه . »

فلذا حكم على قوم بالدمار تكديبهم بالحق فلا معقب لحكمه . « وإن أراد الله بقوم  
سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من رال »  
« وهو سريع الحساب »

وذكر الحساب لسريع يأتي أحياناً إشارة إلى الخراء السريع في الحياة الدنيا ، كما يأتي  
أحياناً أخرى إشارة إلى جرة الآخرة وكلاهما سريع بما يقاس به الله سبحانه وتعالى ، وإن  
اختلف القيس بلبسة للبشر في «خولة السريعة» ، أب في «خولة الآخرة» فالشئ أنفسهم  
يحسبون أنه سريع ! « قل كم لستم في الأرض عدد مئين ؟ قالوا لئلا يوماً أو بعض يوم ! »  
« وسأل العاذين ! »<sup>(١)</sup> « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ! »<sup>(٢)</sup> .  
والحساب السريع إذن يستوي فيه في النهاية أن يكون هذا في الدنيا أو هناك في الآخرة !  
« وقد مكر الدين من قبلهم » .

إن هذا يرد في «التدخيص» لتلخيص ما بقوله الكفار من تكذيب بالرسالة وتكذيب  
بانبثاق وإلحاح في طلب الآية وتعليق الإبرار عليها والساق يختصره في كلمة واحدة  
«مكر» لأننا نحدد تدخيص القصيدة ! ثم يقول إن الدين من قبلهم قد مكروا كمكروهم هذا  
« والله لمكر جميعاً »

إن كانوا يظنون أنهم بمكروهم يعجزون الله سبحانه وتعالى ، فانتدبر كله الله التدمير  
المحكم انتهى لا يقف أمامه ذلك المكر «الصغير» لدى يمكرو الكفار  
والمكر في اللغة هو انتدبر ولكنها تطلق في حشنة - عادة على المكر السيئ ، ومن  
مات «المشاكلة للمطية» يأتي وصف تدبير الله بأنه مكر «ويمكرون ويمكر الله والله خير  
المكربين»<sup>(٣)</sup> وإن كان لا يخالف المعنى اللغوي الأصيل .  
« يعلم ما تكسب كل نفس »

وخصى على كل نفس ما تكسب ، فيجاريها به فيس العدم لمخرد التسجين ، إنما  
للجراء أيضاً

(١) سورة الأنعام : ٣٠ .

(٢) سورة الروم : ٥٥

(٣) سورة المؤمنون - ١١٢ - ١١٣

« وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار » .

وهذا التهديد يجرى في نهاية السورة كأنه إعلان للحكم الأخير على الكفار جزاء مكرهم

ثم ينتهى السياق بذكر القصيدة الرئيسية التى جاءت السورة كلها ليرد عليها

« ويقول الدين كفروا ست مرسلا . . »

ولكن السياق لا يوردها هـ لما نشأتها ، فقد مضى أول المناقشة من لإصدار الحكم

فقط

« قل - كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب » !

وكأنها انتهى عرض القصيدة ، وأصدر الحكم ، فطويت الأوراق ، وختمت الحسنة ،

ومضى كل فريق في طريقه لرسول - صلى الله عليه وسلم - لدعو وانكمار بتهديد

الحكم الذى أصدر عليهم . .

« وانتفحون » الذين يتبعون القصيدة من أولها إلى حين إصدار الحكم فيها ، قد دعوه

كفها ، وانفعت أفدتهم بها ، ثم أحسوا بالراحة النفسية لصدور الحكم ، فانصرفوا كذلك

إلى حال سبيلهم ، ولكن هموسهم حادده بالمشاعر المظلمة إلى الله ، انتطبعة إلى رصاه !

## سُورَةُ لُقْمَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« أَلَمْ تَكُنْ مِنْ أَنْبَاءِ الْكُتُبِ الْحَكِيمِ ، هَدَىٰ وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ، الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُؤْتُونَ أُولَئِكَ عَلَىٰ هَدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يَشْتَرِ بِهِ نَفْسًا فَهُوَ خَدِيعٌ لِيُفْلِحَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بَعِيرٌ عَمِيعٌ وَيَتَّخِذَهَا مَرْوًا ، أُولَئِكَ هُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَإِذَا تَلَّىٰ عَلَيْهِ آيَاتَهُ وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَنَّهُمْ يَسْمَعُهَا ، كَأَنَّهُ فِي أَدْبَارِهِمْ وَقَرَأَ ! فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ، خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِعَمَدٍ تَرْوَاهَا ، وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَنَاءٍ ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ . هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ! عَارِضِي مَادَّةٍ خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِنْ أَنْظَرْتُمْ فِي صِفَاتِ اللَّهِ مِنْ »

هذه لسورة ككل السور المكية تعالج قصداً لعقيدة . تتحدث عن الألوهية ، وتناقش المشركين في موقفهم من الألوهية لتبين انحراف تصوراتهم وانحراف سلوكهم ، وتدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد الذي لا شريك له

ولكن لكل سورة من سور القرآن كما أسفنا حوها الخاص ، وإن تشابهت مع غيرها في الموضوع ، بل حتى في بعض المفردات <sup>(١)</sup> . ومسجد هذا بعض التشابهات مع سورة الرعد ، في السماوات المرفوعة بعير عمد <sup>(٢)</sup> ، والرواسي والأهبار والأحياء الموحدة في الأرض ، ولكن لخواص عام أولاً يختلف في كل منها عن الأخرى اختلافاً كاملاً ، ثم إن المفردات ذاتها تختلف في طريقة تعرضها . يضاف إلى ذلك أن « لتحصصات » في كل سورة مختلفة عن الأخرى وبو كان العنوان والعرض الشامل لها جميعاً هو « فصايا لألوهية »<sup>١</sup>

\* \* \*

« أَلَمْ تَكُنْ مِنْ أَنْبَاءِ الْكُتُبِ الْحَكِيمِ »

(١) انظر الفصل التالي « ظاهرة التكرار في القرآن »

(٢) سورة الرعد وسورة نوحان هما الفتان يرد فيهما ذكر السماوات المرفوعة بعير عمد في القرآن كله

ونكتفى بها بما قلناه في سورة الرعد عن الأحرف المرحودة في مفتاح السورة ، بتلوها ذكر  
 «آيات الكتاب» . وتذكر هذه لماسة أن كل المواضع التي جاءت فيها هذه الأحرف في  
 مفتاح السورة ، جاء بعدها ذكر الكتاب وآياته أو كلمه «ذكر» وحدها كما في سورة مريم .  
 وأنه لا يوجد سوى موضعين اثنين لم يذكر فيها الكتاب مباشرة هما سورة العنكبوت وسورة  
 الروم :

«الْم أَحْسِبَ أَنَسْ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا ، وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ ؟» [العنكبوت]

«الْم . غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ مُسَيَّلِيُونَ» [الروم]

وهاتان يمكن أن تحملتا على المواضع الأخرى التي يرد فيها ذكر آيات الله بعد هذه  
 الأحرف ، لأنها قاعدة مطردة في القرآن

هذا الكتاب من نوع هذه الأحرف التي تنطقون بها ، ولكنه سبق فريد متميز ، معجز  
 لأنه من صدرت العالمين :

« هَدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ »

هدى لأنه يهديهم إلى الحق - سبحانه - وإلى طريق الحق - ورحمة لأنه - [يهدى بهم الطريق  
 - ينقذهم من اهلاك في نار جهنم - وأي رحمة أكبر من الوقاية من ذلك لعذاب ؟ وذلك  
 فوق أنه رحمة في الحياة الدنيا لأنه يعرض لسان المصحح الصحيح الذي تصلح به حياتهم على  
 الأرض وتستقيم - ولكنه - وهو رحمة في الحقيقة للسان كافة - لا يظل بظله الرحيم إلا  
 المحسنين

« لَدِينٍ يَّقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » .

وهذه بدتها هي صفات « المؤمنين » ولكنه هنا سميهم « المحسنين » إشارة إلى أن  
 «الإحسان» في القول والعمل هو حقيقة الإيمان <sup>(١)</sup> ولأنه للإيمان - الذي يوصف بها  
 بالإحسان - من واقع عملي ، وسلوك واقعي ، فهو ليس كلمة تقال باللسان ، ولكنه حقيقة  
 في الوجدان وحقيقة موازية في العيان . فهؤلاء المحسنون هم الذين يقيمون الصلاة فيصلون  
 قلوبهم بالله ، ويؤتون الزكاة ، فيؤتون حق الفقير الذي أمرهم به الله ، ويوقنون بالآخرة يقيناً  
 فبسي على هذا اليقين أنهم « يحسنون ربهم ويحافظون سواء الحساب » كما وصفتهم سورة  
 الرعد <sup>(٢)</sup>

(١) جاء الإسلام والإيمان والإحسان في حديث « هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم » على أن درجات  
 موابله أصلاها الإحسان وهذه الألفاظ الثلاثة تحيى في القرآن أحياناً بمعنى واحد ونحيى أحياناً على  
 أنها درجات متفاضلة

(٢) سورة الرعد ٢٦

« أودنك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

أفلحوا في الدنيا باتباع المهج الحق ، لدى يظهر القلوب ويظهر السوء ، ويرجع الإنسان فون الدس لدى تعيش فيه إيجابية كاستمتع الأس ، ومع ذلك لا يحسبون بالنسب الذي يعيشون فيه

وأفلحوا في الآخرة الفلاح الأكبر ، حين تنهوى أحاسم انكاهرين في جهنم بلتهم النار ، ويجوز هم بأحسانهم وأرواحهم من العذاب ، تتلقاهم ملائكة بالترحيب ، ويرفدون في جنات النعيم .

وفي مقاس هذه لصورة الوصية بوجد صورة أخرى صالحة مظلمة كريمة

« ومن الناس من يشتري هو الحديث بصل عن سبيل الله بغير علم ويتحدث هرواً »

ونقصد بقصة عبد « يشتري »

إنه ليس من الضروري أن يكون انشاء بامال فلسو امدل هو الشيء الوحيد في الحياة

إنه شراء تدفع فيه انشاء والأفكار والأهيامات والوايا بدلاً من المال ! فهذه كلها أشياء « تنفق » ليشتري بها الحق أو يشتري بها البطل فصلاً عن كون الإنسان يعمل في الدنيا « يشتري » بعمله نصيبه في الآخرة . . في الحجة أو الخجيم !

فهذا الذي « يشتري » هو الحديث ، يشتريه بنصراف مشاعره وإهنيامانه إليه ، وبسته الخبيثة أن يمتس للناس عن الوحي (درب من عند الله على رسولك - صلى الله عليه وسلم ، ويقولون هم إنه هو الآخر قد أوحى إليه - ويقصص عليهم ما « اشتراه » من هو الحديث !<sup>(١)</sup> « ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتحدث هرواً »

وكن من كفر لأي سبب من الأسباب - فهو « بغير علم » ! ولو كان عالماً ! « واتل عليهم بآ الذي آتينا آياتنا ونسلط بها فأتبعه الشيطان ، فكان من لجاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخذ بالآرض وانع هواه - فمشه كمثل الكذب إن تحمل عليه يهث أو تتركه يلهث ! ذلك مثل لقوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص لقصص لعنهم يتفكرون »<sup>(٢)</sup> « أهرأيت من اتخذ إلهه هواه وأصله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره عشايرة ١٩ »<sup>(٣)</sup>

لست المسألة هي « المعلومات » التي يعتمدها . ولو كانت متعلقة بالله سبحانه وتعالى .

(٢) سورة الأعراف ، ١٧٥ - ١٧٦

(١) نزلت هذه آيات في النصر بن الحارث

(٣) سورة الحاشة ٢٣

ولو كانت « بطريركاً » صحيحة ! رب هي ملوكة العمل بهذه المعلومات ! فهذا الذى « آتاه »  
 « آياتنا » قد عرف حقيقة الألوهية وعمل بمقتضى علمه هذا فترة من عمره ثم انسحق منها .  
 تجرد منها وعمل بغير مقتضاها فكيف صار « غنمه » السابق ؟ وأم المعلومات « فقد  
 نقت كما هي في ذهنه لم تتعب . وأما المشاعر واسموك فقد مصت في طريق آخر . ومن  
 ثم أصبح « بغير علم » وهذا الآخر الذى اتخذه له هواه . إنه لم يكن يحس حقيقة  
 الألوهية فقد كان « على عدم » بها . ولكنه على علمه هد أبى أن يسير في الطريق الذى  
 رسمه الله ، واتخذ له هواه . أى أنه صار يتبع هواه نفسه ويطيعه بدلاً من الله . ومن ثم  
 أصبح كذلك « بغير علم » !

فيستوى إدراكه حين لا يتبع الإنسان ما أنزل الله أن تكون « معلوماته » عن الله صحيحة  
 أو غير صحيحة . إنه في الخاليل من « الذين لا يعلمون » ثم قد تكون بعد ذلك صلاً في  
 نفسه فحسب ، أو يكون صلاً مصللاً كهذا الذى تحدث عنه الآية . ليصل عن سبيل الله  
 بغير علم ويتخذها هرواً !

« أولئك لهم عذاب مهين »

وترسم الآية الثانية صورة هذا الإنسان في صلاله وإضللاله ، تشخصه بجميع حركاته ،  
 وتصور حركات نفسه وحركات جسده سواء :

« وإذ تلى عليه آيات ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً ۝ ١ »

وإنك لتقرأ الآية فتمثل صورة هذا الشخص بسمع آيات القرآن على قفوف شاعراً بأنه  
 مستكبراً ، مملأ الحمد قبه من الساحل ولكنه يظهر بالعظمة اننى لا نظيف أن تستمع لمثل  
 هذا القول . ثم يتولى بكرياته الرائعة هذه متظاهراً بأنه لم يسمع . وقد حرق الكلام أذنيه .  
 « كأن في أذنيه وقراً » ولا وفر في الحقيقة ولكنه التصاخم الكاذب والكبر عن الله  
 « فبشره بعذاب أليم »

والتبشير أصلاً هو ما اقترب حتى لامس البشارة ، فيستوى في الأصل اللعوى . أن يكون  
 حساً أو ميتاً . ولكن العرف لللعوى جرى باستخدام البشرى والتبشير للشيء الطيب  
 فالسباق يستعملها هنا للسحرة بهذا المستكبر المنتعج الأوداح حتى يدوق العذاب لمثل  
 الذى يذهب عنه كبرياءه الرائعة ويحطمها . . وإن كان التعبير . مع ذلك . لا يفارق لأصل  
 اللعوى !

وفي مقابل صورة الكفر التى تنتهى إلى العذاب الأليم تحمى صورة الإيمان التى تؤدى إلى  
 العليم المقيم :

« يا الذين آمنوا وعمرو الصالحات هم خير الانبياء ، حامدين فيها وعد الله حقاً  
وهو العزيز الحكيم »

بِه وَعَدَ حَقٍّ عَنِ يَمَلِكُ لَتَنْفِذِ «الرَّعِيزِ الْحَكِيمِ» الَّذِي حَبَسَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَمْ يَشْرِكْهُ أَحَدٌ فِي الْخَلْقِ :

« خلق السماوات بعير عمد ترونها ، وألقى في لأرض رواسي أن تحمد بكم وث فيها من كل دابة وأمرنا من السماء ماء فأنبت فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله بأروى ما ، حتى الدين من دونه أس الطيبون في صلاتهم » .

والسماوات القائمة بعير عمد [ أو بعير عمد مرثية ] والحدال لقائمة في الأرض ، والحياة  
مشوقة في أرحابها ، والماء النور من لسماء يخرج به برزخ كل هذه مرثيات مشهده يراها  
لباس كل يوم فتتبدل حوسهم عليها ، ولا يعودون يرون معها ودلائلها ، ولا يفعل  
وجداسهم برحودها ، وبها كلها لعجائب لو لم تكن يراها كل يوم لشدهت حبها وأيقظت  
بل لو كانت في كوكب آخر يراه لأول مرة لهرب وجداسها هراً ولو كانت مثل ما سددت حواسها  
عليه في كوكب الأرض !

أرأيت بى رحلات الغصاء كم هرب وجدان الس ؟ ! أرأيت حين هبط الرواد على القمر  
ورأوا أرضاً كزبد ؟ ! كم هرب وجدانهم ووجدان الس - أول خطوة خطوها على أرض  
القمر ؟ ! إنهم ليحطون مناب الخطوات وألوفها كل يوم على أرضهم فلا تهر من وجدانهم  
ولا وجدان الس شيئاً على الإحلاق !

وبو أن وحقًا من سكان الكوكب - إن كان هناك من يسكنها - هبط مرة على الأرض  
كم تروعه وتدهله ؟ كم تشده حسه ؟ كم يرى فيها من غرائب وعجائب يدهل له فكره  
ويتعرك له وجدانه ؟ ولكن نحن نمر عليها كأننا لا نراها لا لأننا لا نستحق لعجب ،  
ولا نثير الوجدان ، وإننا تعودنا رؤيتها فتبلى حسنا عليها !

وَيَقْرَأُ يَأْتِي إِلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ بِالْمَوْفَءِ ، لَتَنِي نَسِيتُ حَسْبًا مِنْ رَحْمَتِهَا شِدَّةَ إِنْصَافِهَا ،  
فِيرِيلُ عَنْهَا لَهَا أَوْ يَرِي عَمَّا بَلَدُنَا بِحُجُوهٍ وَيُرِدُّهَا حَدِيدَةً كَأَنَّمَا رَأَاهُ اللَّحْظَةَ  
كَأَنَّهُ سَطَنَاهُ هَذِهِ الْكُوكَبِ الْأَوَّلِ مِنْهُ وَمَنْ ثُمَّ يُعْطَى لِلْحَسَنِ شِعْبَتِهَا لِكَامِهِ أَنْتَى تَعْطِيهَا لَهُ  
وَهُمْ حَدِيدَةٌ تُوَلِّفُ بَعْدَ وَحْسٍ يَفْعَلُ خَسْبًا يَقُولُ لَهُ إِنْ حَقَّقَ اللَّهُ !

\* وهو التعرير الحكيم ، خلو انساوت بعد عمد يروپ وألقى في الأرض رواسى أن  
تفيدكم

وهذا مشابه من سورة نوح في إقامة السماوات بعد عمد مربعة وإقامة الجبل الرومي في

لأرض ولكن صورة لتعبير مجازية<sup>١</sup> وهنا أضاف بالنسبة لعموم « أن تمجد بكم » وهذا أمر لابد أن لاحظ طين الأوتس بهذا القرآن قد فهموه بصورة ما ولكن معطوب الإنسان المتزايدة عن الكون قد حدث المعنى الدقيق هذه لعبارة ، إذ أثبتت أن هذه الجبال ليست هي التي تحمط لتوارى في الكرة الأرضية ، وأنه بولا هذا التورن مادت الأرض من البرلازل أو التراكين

« وبث فيها من كل دابة . . . »

والتعبير بروحي كأنها بد حفية هي التي تمسك هذه الدواب فتشها هذا وهناك في كل مكان على الأرض وأنه لكذلك بالعمل ! فمن ذا الذي يث هذه الدواب كلها في أماكنها إلا الله ؟ إله يدعو للدين لا يعدمون كأنهم تسعت من دانت معها في أرض الأرض أو يقول أولئك الجاهلون إنها « الطبيعة » !

وم « الطبيعة » ! تلك التي يقول عنها درون بها تخلق كل شيء ولا حد لقد رتها ؟  
أشياء هي غير الله وقدره الله ؟

« وأنزلنا من السماء ماء فأنبثا فيها من كل زوج كريم »

وم يمكن أن نمر بذلك التعبير للعجيب لموحى . « من كل زوج كريم » دون أن يستوقع . وقد نخطر في قلب البشر أن بوصف السات بأي وصف من زوج هيج كما جاء في سورة خج وسورة في « وتري الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج هيج »<sup>(٢)</sup> « والأرض مددنا وألقينا فيها رواسي وأستنا بها من كل زوج هيج »<sup>(٣)</sup> أو « . . . حنا وبيانا ، وجات العاما »<sup>(٤)</sup> أو « . . . حنا ، وعبا وقصبا ، وريتون وبحلا ، وحدائق عدا ، وفاكهة وأنا »<sup>(٥)</sup> . الح أم ذلك الوصف « من كل زوج كريم » فما أظه خطر عن قلب بشر قبل أن ينزل هذا القرآن ؟ وما زال القرآن يتلى كل يوم ، وما زال هذا الوصف يوقف الحس كل مرة كأنه جديد !

« كريم » لأنه من عمل أيد كريمة : « وآبى هم الأرض المنه أحيد ، وأخرج منها حنا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها حبات من بحيل وأعصاب وفجريا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما جعلته أيديهم أفلا يشكرون ؟ »<sup>(٦)</sup> أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ؟<sup>(٧)</sup>

(١) انظر الفصل الثاني . (٢) سورة الحسج ٥٠ (٣) سورة في ٧  
(٤) سورة العس ٢٧-٣١ (٥) سورة عس ٣٣-٣٥ (٦) سورة عس ٧١  
(٧) سورة عس ٧١



وكريم لأنه طلب طاهر

وكريم لأنه يعطى يعطى أصعافه يا أحد ! الحبة تبت سبعائة حبة !!

« هذا خلق الله »

« هذا » . . . على الانساع من أول السماء إلى الأرض ، إلى الخسار إلى « كل دابة » إلى « كل روح كريم » « هذا خلق الله » ! وما يشك أحد من قبل أن هذا خلق الله وما كان العرب المشركون يذكرون ذلك ولكن لتعبير مع ذلك يحتاج الخس كأنه جديد ! ويرى عن الوجدان تلبس المعهود ويهره - هذه المفاجأة - ليتأمل هذا الكون من جديد ! وقد ينبع الانفصال هذا المدى ، يحتاج الخس بحقيقة أخرى « فأروني ماذا خلق الدين من دونه ! »

حقاً ! ماذا خلق الدين من دونه ! وما كان العرب يرعمود أ. هناك حدثاً من دون الله وإن كانوا يعقلون عن دلالته ذلك ومع ذلك فإن لتعبير له هرة لا ينجو الخس منها ! ويروح الإنسان يتفقد الكون كأنه يحث حقاً عن شيء في هذا الكون خلقه « الدين من دونه » ! واسترجعه معروفة سلفاً ولكن لتعبير يعنى إحساس الإنسان بحقيقة الأولى « هذا خلق الله » ويررها يمكن حلالاتها لتعمل عملها في داخل النفس ولا تكون مجرد « معومات » في اندس ، بل وحدانات متحركة في القلب ، مشعر بمعصمة الخالق ، وتفرده سبحانه بالخلق . . . وبها ينبغي لعظمته وجلاله من خشوع وهاعة وتسليم « بل الظالمون في ضلال مبين »

من يتعلم عن هذه الحقائق كلها وما يصمم قلبه عن إيقاعاتها ، لا شخص مطموس البصيرة . . . وإلا شخص « في ضلال مبين »

\* \* \*

« ولقد أتينا لقمن لحكمة أن اشكر لله ، ومن يشكر فإنني يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله عى حديد » وقد قال لقمان لاسه وهو يعظه يا سى لا تشرك بالله إن لشرك لظلم عظيم . ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهماً على وعن ، ومصائبه في عاصم أن اشكرى ولوالديه إلى المصير وإن ساهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً ، واتع سبيل من أتاب إلى ثم إلى مرجعكم فأنكمم بيا كنتم تعملون يا سى بها إن تك مثقفاً حبه من حردن ، فنكى في صحرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير . يا سى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر

واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور - ولا تصقر حدك للناس ولا تمنى في الأرض  
مرحاً ، إن الله لا يحب كل مختال فخور - وانصد في مشيك وعصص من صوتك إن أنكر  
لأصوات لصوت الحمير »

إن قصة نوح الحكيم ، الذي سميت السورة باسمه ، تستغرق جزءاً رئيسياً من  
لسوره ولكنها تحيى في مكانها من السورة مرتطة تماماً قبلها ، كأنها امتداد له  
إن السياق من قل تعرض صوراً من انكون يهر بها القلب الشرى ، يرى عقمة الخالق  
فيحسب له رخص - ولكن « الظالمين » لا تتمتع بصيرهم لآيات الله في انكون ، ولا لعلم  
الله السبعة ، في خلق السماوات والأرض ولرواسي التي تجمع توارى الأرض فلا تميد  
والدواب المشوثة ، وانه الدار من السماء ليسب من كل روح كريم - لأنهم في ضلال  
مبين

هذه قصة واحد من خلق الله لا كأولئك الظالمين - تفتحت بصيرته لتلك الآيات وهذه  
التعم فاستجاب له فشكر - وراح يوصى انه كذلك أن يكون من العبدى الشاكريين ،  
ولا يكون من الظالمين

إنه نموذج مقاس - يعرض - في مكانه من السياق - يعطى شيئاً في ان واحد  
يعطى الصورة الصحيحة التي يسعى أن يكون عليها عبد الله ، محبتين لله عديدين  
شاكرين

ويظهر مهارته الصخمة في ملوك أربك الذين لا يقدرون الله حق قدره ، ولا يعدونه  
حق عبادته ، وبصفة خاصة ذلك الذي يشتري هو الحديث ليصل عن سبيل الله عبر علم  
ويتحدثها هرواً ، وإذا تنلى عليه آيات الله ولى مستكبراً كأن لم يسمعها !  
إنها صورتان متقابلتان تماماً .

هذا « يشتري » الهدى الربانى . . وهو الحديث الحاد الحكيم الموصل إلى كل خير  
وداك يشتري هو الحديث .

وهذا يشتري الهدى يهدى إبه ، وعيره وداك يشتري هو الحديث ليصل عن سبيل  
الله

وهذا يتحدثها موعظة وحكمة . . وداك يتحدثها هرواً  
وهذا تنلى عليه الآيات فيقبل عليها بكل قلبه محناً حاشعاً مطيعاً - وداك تنلى عن  
الآيات فيولى مستكبراً كأن لم يسمعها !

هل بقي شيء في الصورتين لم يوضع موضع التقابل لك من التفصيل ١٤

«وبقد آتينا لقمان حكمة أن أشكر لله»

إن هذه هي خلاصة الحكمة «أن أشكر لله»

والقرآن كثيرًا ما يحذر من العبادة بالشكر وبها لكذلك «فمن يشكر فلي لله حمداً  
شكراً حتى يكون قد صدق عباده حتى عبادته حتى يكون قد شكره على  
كل نعمة أنعمها عليه

وهو يحظر على البخل ما قاله الشيطان متوعداً بني آدم «قال «فيا أهرقيني لأفعلن بهم  
مراحتك استغنى . ثم لأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أييمانهم وعن شئانهم ، ولا  
تجد أكثرهم شاكرين اء (١)»

فالشكر والإيمان صنوان والكفر وعدم الشكر صنوان

وليس أشكر كلمة تقال باللسان شكرًا لك يا رب ! كما أن الإيمان ليس كلمة تقال  
باللسان «أشهد ألا إله إلا الله ا

كلاً ! إن الشكر سلوك عملي ، كما أن الإيمان سلوك عملي «احملوا آل داود شكرًا ،  
وقبيل من عبادي الشكور !» (٢).

إن الله قد منح الإنسان جسده وشكر هذه النعمة أن يعمل بعبادته في طاعة الله لا في  
معصية

والله قد منح الإنسان عقلاً مفكرًا وشكر هذه النعمة أن يعمل بمفكره في طاعة الله لا في  
معصية

والله قد منح الإنسان بصيرًا . وشكر هذه النعمة أن يستخدم بصره في طاعة الله لا في  
معصيته

والله قد منح الإنسان سمعًا وشكر هذه النعمة أن يستخدم سمعه في طاعة الله لا في  
معصية

والله قد منح الإنسان مالاً وشكر هذه النعمة أن يستخدم ماله في طاعة الله لا في  
معصية

وهكذا . منات وألوف من نعم الله لا تحصىها (٣)

ومنات وألوف من الطاعات هي الشكر على هذه النعم وفي النهاية يصحح الشكر هو

(١) سورة الأعراف ١٦-١٧ (٢) سورة سبأ ١٣ (٣) سورة النحل ١٨٠

العبادة الخفية ، وهو تبايع ما أنزل الله !

ومن هنا نفهم خطورة التهديد الشيطاني لى آدم « ولا تجد أكثرهم شاكرين ، أى لا تجد أكثرهم عاصين أى لا تجد أكثرهم متبعين لما أنزل الله » ونفهم كذلك جهد الشيطاني الصحيح المدلول هذه العديّة ، « لأفعدب لهم صراطك المستقيم ، ثم لأتيهم من بين أئبلهم ، ومن خلفهم ، وعن أئبابهم ، وعن شئائهم » ، ولا تجد أكثرهم شاكرين « ومن يشكر لئسا يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله عئى حميد »

إن الله عئى عن عبادة العباد وعن شكرهم ! ومن تولى عن عبادة الله وعن شكره فلى نصر الله شئنا . ومن أقبل عليه شاكرًا عابداً فلى يمد الله مسحاته شئنا . ! « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » (١)

لئسا يشكر لإنسان نفسه ، ويمد لنفسه . لأنه هو انكاسف فى النهاية حياة مستقيمة بطيعة طيبة فى الدنيا ، وحياة معمه فى الخند يوم القيامة « ومن جاهد فربا يغجد لنفسه إن الله يعئى عن العالئى والذئى امسوا وعملوا الصالحات لنكفون عنهم سئئاتهم ، وسجربهم أحس الذى كانوا يعملون » (٢) من عمل صالحا من ذكر أو أنى وهو مؤمن فسحئبه حياة طيبة ولنكفربهم أحربهم بأحس ما كانوا يعملون » (٣) وجد وعئ نفون الحكيم هذه الحكمة وعمّا عئما فسقامت بممه عئ شكر الله وعبادته ، وهم يعظ به بيا وعظه بدرمه ووعده قلبه

« وإد قل لقمان لأبه وهو يعطه يا سئ لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم » إن الظلم وللكفر فى اللعة من معئ واحد هو لتعطية والسر ثم علب استخدام الكفر بمعئ ستر الحق لرماى والتعطية عده أى الكفر بعبادة الله والظلم بمعئ الافتئات عئ لحق بصفة عامة والصرب بستخدمه فى كئرب من انوصح بمعئ الكفر سوء واشرك هو أعظم الظلم سوء بمعئ لتعطية على الحق الربانى وحجبه ، أو بمعئ لاصطلاحى وهو لافتئات عئ الحق ، فالمشرك بظلم نفسه أول ما يظلم ، إد يوردها مورد اهلاك فى النار

ثم يسمر السباق ، كأسا يكمل الآية الأولى التى أوتئ فىها لقمان حكمة لشكر لله « ووصبنا الإنسان بوالديه ، حملة أمه وهما على وهن ، وفصاله فى عامين ، أن اشكر لئ وبوالديك إلى المصبر »

( ١ ) سورة الدارئات . ٥٧ . ٥٨ ( ٢ ) سورة العنكبوت ٦ - ٧ ( ٣ ) سورة النحل ٩٧

إنه سمرار للموعظة أسي لُقَّه لقرن ولكن يستوفى الوصية أمران والديه

لأمر الأول هو الحمل المعترضة « حبه أنه وه عى وهن وقصه فى عامين » بقدر كانت الوصية للوالدين معاً ، ولكن لأمر رحدى هى أسي سميت من بين الولدين ١ ولديك دلالة الوصية بطبيعة الحال فلكل كانت لوصية لكل الوالدين ، لأن يرهما الإنسان ، وقد الأمر به ، لأمر أشد ، لأنها هى لتي حصص لساق ناشئة ، والحديث المفصل ، وذكر موحيات امر ، فقد حمده وهما على وهن - ولتغير بشير إلى انوهن الخريد كلها تقدم الحمل ثم أوصيته عامين كامدين ، وفى ذلك من الجهد المعنى ما فيه ، مما يستوجب زيادة امر ولقد ذهب رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم سألته من أولى الناس بحسن صحبى ؟ قال أمك قال ثم من ؟ قال أمك . قال : ثم من ؟ قال - أمك قال : ثم من ؟ قال : أبوك (١) . والحديث يعبر الآية أدق تفسير .

أما الأمر الثانى - بصرف النظر عن هذه الحملة لمعرضة - فهو أن السابق بينه بقوله تعالى « ووصينا الإنسان بوالديه » ولكنه عندما ينص على الوصية يقول « أن اشكرى ولوالديك » أى أن السابق بمعنى هكذا غير الحملة المعترضة ووصيا الإنسان بوالديه . أن اشكرى ولوالديك إلى بصير ١ وكأنها لوصية بالوالدين هى شكر الله أولاً ثم شكر الوالدين !

إن هذا من لطائف التعبير القرآنى داب الدلالة !

فى سورة الإسراء وان مباشرة « وقصى ربك ألا تعدداً إلا إياه وبالوالدين إحساناً .. » (٢) .

وهما يقول نفس المعنى ولكن بهذه الطريقة لموحية ، التى تجعل الوصية بالوالدين ثم شكر الله أولاً قبل شكر لوالدين وفى ذلك دلالة وضحة بطبيعة الحال على أن شكر الله يسبق أن يسو كل عمل على الإطلاق ، ولكن هناك دلالة أخرى يسبق أن تكون واضحة لنا ، هى أن كل « أخلاقيات » لإسلام ، هى مبنية بين الإنسان وبين الله مباشرة وهى تصل بالآخرين من خلال صلة الإنسان بالله فأخلاقيات الإنسان نحو والديه - وهى البر بهما - تصل إلى الوالدين من خلال شكر الإنسان لربه أى عبادته وكذلك أخلاقيات أى أمر من الأمور فالصدق مع الناس هو لله أولاً ثم للناس . والوفاء بالعهد هو لله أولاً ثم

للناس وهكذا وهكذا، كل عمر يتصل فيه الإنسان بالآخرين ، فهو صلة بالله أولاً ثم بالآخرين . . .

« إلى المصير »

وما دم المصير لله لا لأحد آخر ، فإنه تقدم العباد، وإليه يقدم لشكر وعن طريق الصلة به يمر الشكر للوالدين !

وأي آية واحدة دقيقة لمركب يذكر شكر الله مقدماً على شكر الوالدين، وشكر الأم مقدماً على شكر الأب ، طريقه « فية » موحية ، لا باللمظ المباشر وذلك من الإعجاز « وإن جاهدك على أن تشرأبى ما ليس لك به علم فلا تطعه »

وهذا أمر حارم لا سبيل إلى مخالفته ومعها مكس من أمر الله بالوالدين ، اندى يكرر كثيراً في القرآن ، فإن الله يأتى دائماً تلياً لعبادة الله فعنده الله وعدم الإشراف به مقدمه على كل شيء على الإخلاص ولا بطع في محاسنها أى أحد على الإطلاق ولكن السياق هنا في مكة يأمر باستمرار مصاحبتها بالمعروف رغم ذلك . . . فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدين محروفاً »

ويصعب نظراً أن الأمر انشائه لديك ، الوارد في الآيات الأولى من سورة العنكبوت ، وهي آيات مدنية في سورة مكية ، ثم تأمر - في مدنيته - هذه المصاحبة ! « ووصيت الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهدك لنشرته ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنسكم بها كنتم تعملون »<sup>١</sup> فالأمر بالمصاحبة بالمعروف كان في المجتمع المكي ، الذي لم ينفصل فيه المسلمون بصفالاً حسناً ، إنما كانت مصاحبة شعورية بحسب أما في المدينة فقد انفصل المجتمع انفسالاً كاملاً وصلوا له قبحه الحسى والمعنوى

« وسع سبيل من أمان يؤي ، ثم إلى مرجعكم فأنسكم بها كنتم تعملون »

لا تطعهما حين بأمر بك بالشرا ، وتبع سبيل من أمان إلى فهذا السبيل هو الذى يسعى نباعه ، معها جاء الأمر بمخالفة من أقرب الأقربين وفى النهاية تكون إلى الله الرجعى ، فببئ الإنسان بما كان يعمل ، ونحاسبه بمقتضى عمله في الحياة الدنيا وتلك الرجعى هى التى تقرر مصير الإنسان ، فهى الأولى بالاتباع

ثم تحدث معاشاة في السياق قد غمر عليها كثيراً دون أن ندحظها لظلمها ودقتها !

« يا سى إنها إن لك مثقل حسه من حردن ، فنكن في صحره أو في مساوات أو في الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير »

( ١ ) سورة العنكبوت ٨

إن المتكلم هنا هو لقمان . عاد يكمل موعظته لابنه بعد أن أوصيه بعدم الشراء لأن  
الشرك ظلم عظيم . ولكن الكلام يأتي متصلاً بعد قوله تعالى « ثم إلي مرجعكم فأنبئكم  
بما كنتم تعملون » بطريقة قد لا ملحظ معها تعبر المتكلم في الآيتين . فالتكلم في الآية الأولى  
هو لله سبحانه وتعالى ، والتكلم في الآية هو لقمان . ولكن الكلام يجري جرياناً واحداً  
كأنه سياق واحد لتكلم واحد !

مثل هذا تجد في سورة طه ٠ « قل فمن ربكم يا موسى ؟ قل : ربنا الذي أعطى كل  
شيء خلقه ثم هدى . قل هي إن القرون الأولى ؟ قل : علمها عند ربى . قل لا  
يصل ربى ولا بسى . الذى جعل لكم لأرض مهاداً وسبك لكم فيها مسلاً ، وأرسل من  
السماء ماء فأخرجنا به أرزاقاً من بين يدي »

فأين تنهى كلام موسى فرعون ، وأين بدأ الكلام الموجه من الله سبحانه وتعالى لبشر  
حيث ؟ إنك لا تحس تعبر المتكلم حتى يصل إلى لفظة « فأخرج » التى يتصح فيها أن  
لمتكلم هو الله سبحانه وتعالى .

كذلك هو . لولا كدمه « يا سى » ما شعرت أن المتكلم في السياق قد تغير ! لأن لقمان  
يبدأ من حيث انتهى السياق السابق كما ، فتحدث عن إيمان الله لبشر بما كانوا يعملون ،  
ولو كان مثقال حبة من خردل !  
ما دلالة هذا ؟

لقد سار السياق هكذا . ولقد أتيت لقمان بحكمة . . . وإذ قال لقمان لابنه . روصيب  
الإنسان نواله به . بسى إنها إنك مثقال حبة من خردل  
أى أن هناك انتقالاً مستمراً - حتى الآن - من سياق يكون المتكلم فيه هو الله سبحانه  
وتعالى ، إلى سياق يكون المتكلم فيه هو لقمان . في دلاله ذلك ؟  
أما أنها من لوجهة لفظة جميلة ، فلا شك في ذلك ! ولا شك في أن أشهد هكذا أحسن  
بالحركة والإيجاء

أما الدلالة فأنلى يحرصى الآن منها - والله أعلم بما يريد - أن ما يطق به الشر من  
حكمة ، سواء كانوا أنبياء كما في قصة موسى ، أو مجرد حكماء كما في قصة لقمان ، هو من  
إيجاء الله . فيستوى أن يرزله الله مباشرة أو يُسْطَقَّ به بعض حقه . ومن ثم يجيء الكلام  
متداخلاً ، لأن هذا وذاك من عند الله ، ومن مراد الله الذى يريد - سبحانه - أن يبلعه  
لعباده .

ويعود إلى الصورة ذاتها التي ترسمها الآية : إنها من أروع الصور في لفرد  
« يا سيدي ، إن تلك مثقال حبة من خردل ، فتكن في صحرة أو في السماوات أو في الأرض  
يأت بها الله »

إن علم الله الشمس المديقة الذي لا يبد عنه شيء في السماوات ولا في الأرض ، بأن  
مصوراً في صور رائعة في القرآن تهر الحس الشري هراً وتوقفه من مسنة وهذه من أروع  
الصور جمعاً تصور مثقال حبة من خردل ! أي ثقلها وأي حجم ؟! وهي ليست  
مكتشفة حتى تراها العين المدققة - ولو بمظار مكبر ! - إنها في صحرة ! وكم من ملايين  
الملايين من النجوم في الأرض ؟! هي واحدة من هذه النجوم التي لا تحصى توجد حبة  
الخردل أو في السماوات ! هكذا على إطلاقها ! في سماء من السماوات وما أوسع  
السماوات ! إن لسماء الدنيا وحده ، أربعة بنصايح ، يدهش العلم حتى اليوم وراء  
أبعادها فيعد من نجمها الملايين ثم يقول هذا نجم تفصل بينا وبينه أربعة آلاف سنة  
ضوئية ! أي أن الضوء - السالط لسرعة<sup>(١)</sup> - يقطع المسافة بينا وبينه في أربعة آلاف سنة .  
ثم يقول العلم إن هذا آخر ما وصل إليه الإنسان ولكن في الكون مريد \* وحده الخردل في  
واحدة من السماوات ! أو في الأرض ! محتوية في لأرض غير طاهره للنظر إطلاقاً وانظر  
إلى حجم لأرض وحجم حبة الخردل ويطر كم من ملايين الملايين من مثل حبة الخردل  
يمكن أن تحتوى في الأرض فلا يبين . . ولكن الله يأتي بها يوم القيمة

« إن الله لطيف خبير » لطيف أي يحيط علمه بأدق الأشياء وأخفها

وهي بقى لديك شك في هذه الحقيقة بعد الإنسان بحبة الخردل من لصحرة أو من  
لسماوات أو من الأرض ؟!

كلا ! ما يطبق لوحدها بعد هذه الروعة الهائلة أن يشك ، إلا أن يكون مطموس البصيرة  
معلق الروح .

ويستمر السياق - من هنا - على لسان لقمان يعظ ابنه :

« يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف ونه عن المنكر ، وصبر على ما أصابك ، إن ذلك  
من عزم الأمور ولا تصغر حدداً في الناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال  
فخور وافصد في مشيك واعصص من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت حمه »  
« أحلاصات لا إله إلا الله » يعظ بها لقمان المسلم ابنه إنه لا إسلام غير  
أحلاصات ولا إيمان غير سلوك عملي في واقع الحياة سلوك ينظر إليه الناس  
ويقولون : هذا من أثر الإيمان !

(١) سرعه الضوء هي ٣٠٠ ٠٠٠ كلو متر في الثانية



بلغت نظرنا أن من وصايا لقمان لابنه « واصبر على ما أصابك » ، إن ذلك من عزم الأمور . . . إن هذه أيضًا من أخلاقيات لا إله إلا الله ، بجانب الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو لا يحدد « ما أصابك » إن كان بسبب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ( وإن كان ذكره بعدهما يرحى بذلك ) أو كان عدمًا ، من قضاء الله وقدره ، فهذا وذاك هما من قضاء الله وقدره ، وانصبر على لقضاء هو من أخلاقيات لا إله إلا الله ولكن لسياق يعطيان إحياء وصحة . به ليس انصبر الخانع لدى يستدر الإنسان ويمهده فيبعد عن العمل والجهاد ! كلا ! إنه يقول « إن ذلك من عزم الأمور » وهو انصبر الذي يعطى العزيمة ويتوهمها ، وليس هو الذي يوهن العزيمة ويضعفها

✻ ✻ ✻

ويستقل السياق مرة أخرى من وعط لقها لاسه إلى حديث مباشر من الله سبحانه وتعالى  
لبشر كفة ، أو لمكديين من قريش خاصة

« أَمْ تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سَحَرَ نَكَمٍ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَأَسْبَحَ عَلَيْكُمْ بَعْمَهُ ظَاهِرَةٌ رَابِطَةٌ ؟ وَمَنْ الْمَسْ مَنِ يَجِدُ فِي اللَّهِ تَعْبِيرَ عِلْمٍ وَلَا هِدَى وَلَا كِتَابَ مَبْرُورٍ وَبَدَأَ قَبْلَ هَمْ أَنْبِئُوا مَّا أَمَرَ اللَّهُ قَالُوا مَنِ يَتَّبِعْ مَّا وَحَدَّثَنَا عَلَيْهِ أَدْعَاةُ أَوْ بَوَكَاةُ الشَّيْطَانِ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ النَّسْفِ ؟ ! وَمَنْ يَسْتَمِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ، وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا تَحْرِيكَ لَهُ إِنْ يَمْرُجْهُمْ مَعَهُمْ مِمَّا عَمِلُوا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ سَمِعْتَهُمْ قَبِيلًا ثُمَّ مَبْطُورَهُمْ إِلَى عَذَابٍ عَلِيمٍ . وَلَوْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَخَبَسَ اللَّهُ أَفْئِدَ الْحَمْدَ لَهُ مَنِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ! »

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَحَرَ نَكَمٍ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْخَ عَلَيْكُمْ بَعْمَهُ ظَاهِرَةٌ رَابِطَةٌ ؟ ٤٩ .

« أم تروا؟ » يعنى أن الأمر واضح . وإنه كذلك . فيما من أحد يعنى عن تسخير  
 في السماوات والأرض للإنسان إلا أن تكون قد علمت بصيرته واعظمته وهذه النعم  
 السامعة ظاهرة وباطنة . يعجز الإنسان عن إحصائها « وإن تعدوا نعمة الله لا  
 تحصوها » (١)

ويستوقعنا التعبير : « وأسبح عبيكم بحمة ظاهره وباطنه » كأنه ثوب يكسو الإنسان من  
أزله لآخره . . ولكنه ثوب عجيب يكسو الظاهر والباطن أيضًا في ذات الوقت ! ومع ذلك

( ١ ) سورة البقرة ، ١٨ .

فاناس لا يشكرون الله ولا يعبده حق عبادته .

« ومن الناس من يهدى في الله بعد علم ولا هدى ولا كتاب مبر »

والعلم الحق بالله لا بد أن يؤدي إلى الإيمان هؤلاء الذين يجادلون في الله يجادلون بغير علم ولا هدى ، ولا يمسكون إلى كتاب ديني يستخرجون منه الحقائق

« وإذ قيل لهم اتبعوا ما أمر الله فقلوا بل نتبع ما وجدنا عندنا »

الإيمان إذن هو اتباع ما أمر الله وهو الذي يقتضيه العلم الحق بالله . أما هؤلاء الذين يجادلون بغير علم غير مصوب اتباع ما أمر الله ، ويقولون من نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ؟ من المصود إذن ؟ الله أم آباؤهم ؟

وما به حجب اسباق ، ونحن سطر إليهم وإلى آباءهم على أنهم لوحدون في الصورة ، بإدخال الحقيقة أنهم ليسوا واحد هم !

« أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟ »

ب للمصاحف ، إن إصرارهم إذن على رفض اتباع ما أمر الله ، وفهم من سبع ما وجدنا عنده آباء ، هو في الحقيقة استجابة لـ « الشيطان » الذي برز في الصورة فجأة ، ولم يكن ظاهراً من قبل ! وإلى أين يدعوهم ، وهم مستسلمون هكذا ومستجيبيون ؟ إنه يدعوهم إلى عذاب السعير !

يا معجب ! وما تسحرية ! الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير فيستجيبيون له بهذه السهولة ؟ والله يدعوهم إلى الجنة فيرفضون ؟

« ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى . وإلى الله عاقبة الأمور » ومن كفر فلا يحزنك كفره . . .

إن هناك من يؤمن من يسلم وجهه إلى الله وهو محسن ذلك هو الإيمان والإسلام لتسليم الكامل لله ، والإحسان الذي جاء ذكره في أول السورة بأوصافه : « هدى ورحمة للمحسين ، الذي يقيمون الصلاة ويؤتوا الزكاة وهم بالأخرة هم يَقُونَ » وأولئك يستمسكون بالعروة الوثقى ، فلا يلتفتون لـ « الشيطان » ولا يستطيع الشيطان أن يسترهم منها . لأنه لا يقدر على من استمسك بالعروة الوثقى ، ويعلم أن كيده نالسة إليه صعب ! أما من كفر - ولخطاب موجه للرسول - صلى الله عليه وسلم - فلا تحزن على كفره . . . إن أمده قريب . إنه رجوع إلى ربه فمرسه حسابه بعدد « عليظ » ، فلا ينعمه ذلك المتاع القليل الذي أتيج له في الدنيا !

« ومن كفر فلا يحربك كفره . إلب مرجعهم فسبهم بما عملوا . إن الله عليم بذات الصدور . نمتهم قبلًا ثم بصطّهم إلى عذاب علق . »

بصطّهم . فهم من يذهب إلى العذاب محتارين ! ومن ذا الذي يرى العذاب ثم يرجع أن يدخل فيه ؟ ولكنهم يدعون إليه دفعًا بصطّهم إلى الدهاب ! ثم إنه عذاب « عبط » ! ولما رقة واصحة بن النعم الذي يتمتعون به في الأرض - ملاة من الله - والعذاب « اعبط » الذي ينتظرهم هناك !

« ونسألتهم : من خلق السموات والأرض ليقولن الله ! » .

إدب فهم يعرفون أن الله هو الخالق ! ولكنها المعرفة لذهية البردة الميتة التي لا تنشئ شعورًا ولا سلوكًا . ومن ثم معرفتهم والجهل سوء . وهم « لا يعلمون » !  
« فنحمد لله . بن أكثرهم لا يعلمون ! »

\* \* \*

« لله ما في السموات والأرض . إن الله هو العليّ الحميد . ولو أد ما في الأرض من شجرة أقلام . والبحر يمده من بعده سعة أحر ما بعدت كميات الله . إن الله عزيز حكيم . ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله صميع بصير . ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ؟ وصحر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى ؟ وأن الله بما تعملون خبير ؟ ! ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العليّ الكبير . ألم تر أن العلك تجري في البحر بعمه الله ليريك من آياته ؟ إن في ذلك لآيات لكن صبار شكور . وإذا عشيتهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمهم مقتصد . وما يجحد بآياتنا إلا كل حتر كفور »

إن الحديث في هذه الآيات كلها عام للناس جميعًا . ولكنه في الحقيقة مافشة للمكدين المنكرين ، الذين يرفضون أن يتبعوا ما أمر الله ويقولون ، بل تتبع ما وحدنا عليه انما مافشة لا يشركون فيها هم ! إنما يافشون عبنا ! لقتع بقية الناس - الحاصرين - ويؤسوا ، ويرداد لمؤمنون منهم إيمانًا . أم هم - المكذبون - فهم موجدون قطعًا بين المستمعين . وكى اسباق يتجاهل وجودهم ، ويبافشهم - كما قلنا - عيانًا . أى معرض قصيتهم ، ويقدم اردود الخاسمة انقاطعة عنها ، دون توجيه كلام مباشر إليهم . وتلك طريقة من طرق التوجيه ذات معمول تربوى مشر ! يكون من نتيجتها أن بعض هؤلاء المعاندين على الأقل يعبر موقفه الداخلي ، ويقتنع بالحق ، مادام أن صبح الاتهام ليست موجهة إليه هو بذات !

« لله ما في السماوات والأرض » . إن الله هو المعنى المحمّد !

وهذا تقرير يرد به أن ينشئ مشاعر بديّة . إنه ليس « كمعصوماهم » الباردة التي يعصمونها « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ! » وإنما هو تأسيس جديد ، لنهاء العقيدة الصحيحة الراسخة

« ولو أن في الأرض من شجرة أقلام ، والبحر بماء من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » . إن الله عزير حكيم !

إنها صورة رائعة يحاول الخيال أن يملأها !

نقول « يحسون » لأنه من يستطيع ذلك أحد . وسكف بعد قليل عن المناهضة !

وإلا فحرب أن يطوف بحالك في كل الأرض ، تنزع منها شجرة شجرة حتى تأتي عن كل ما فيها من أشجار ، ثم تصنع من كل شجرة ما يمكن أن يصنع منها من أقلام . ثم تحيي إلى لبحر ، فتجعله مدادًا لكتابة . ثم تجد أن البحر ليس وحده ، إنما وراءه سبعة أبحر ثمده

هل استطعت أن تستوعب الصورة وتحصّيها ؟ ! أم إن حياتك قد اكتفى بصنع شجرت ومرآة لشجر كله ، وبصنع مرات من عمس لأقلام في البحر ومرآة للاستمداد كله ؟

ثم ما بعد أن يطوف حياتك ذلك الطوف الواسع ، يقلم الأشجار جميعًا ، ويصنعها أقلامًا ، ويستمد مداده من البحر الذي وراءه سبعة أبحر ؟

« ما نفدت كلمات الله ! »

إن المعنى أن كلمات الله من الكثرة بحيث لا تحصى . ولكن هل هذا التعبير الذهني انتحريدي يحرك من نفسك ما تحركه تلك الصورة المدعة للأشجار والأقلام والمداد والبحر . ؟ !

كلا بلا شك ! إن لصورة لتعطي المعنى حيًا واسعًا لمساحة ، يتملأه الخيال والوجدان ، فتتحرك ويصحو ، ولا يبقى راكدًا كما يركد المعنى التجريدي في الذهن ، وينتهي هناك بلا حراك !

وما كلمات الله ؟

إن القرآن بالطبع من كلام الله . ولكنه من حيث عدد لألفاظ محدد وتخصي ومعلوم فليس هذا . بل هو المقصود . ولأن أن يكون المقصود شيئًا آخر ، فهو الإحصاء وهو المحصر .

إن كلمات الله هي أقدره التي بحقها لأثبت \* ب كل شيء حنفاه بقدر <sup>(١)</sup> والتي يقول به للشيء كن : فيكون . فهي دلائل قدرته التي لا تحصى وكلماته هي مشيئته لأرليه في اللوح المحفوظ لأبدية التي لا تنتهي ولا تنهد ولذلت لا يحصىها العدد ، ولا يكفى لكتابتها البحر الذي عمده سبعة أبحر إنما ينهد لبحر ولا تنهد الكليات

« إن الله عزيز حكيم »

ومن قدرته التي لا تحصى هذه الآية

« ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنس واحدة » إن الله سميع بصير »

إن هذه هي القصبة التي مشعل لمشركين ، ويصعوبها آدم أنفسهم عفة بصددهم عن الإتيان ! كيف يبعث الله من يموت ؟ وقاد لـ يس كفروا هل بذلكم عن رجن يبيحكم إذا مرقتم كل مرقق إنكم لمي حتى جديد ؟ أفترى على الله كذبا أم به جنة ؟ <sup>(٢)</sup> فقال الكاهرون هذا شيء عجيبي ! إذا مشا وكنا ترثا ؟ ! ذلك رجع بعينه <sup>(٣)</sup>

والفرد يرد عبيهم في موضع كثيره يقول هم إن اندي حتى أوب مرة هادر على أن يعبد لخلق بل هو أمون عبيه ! وهو الذي يبدأ لخلق سم بعده وهو أمون عبيه ! وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم <sup>(٤)</sup> أو ليس لدى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بل ! وهو الخلاق لعليم . رب أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . مسحان الذي بيده ملكوت كل شيء . وإليه ترجعون <sup>(٥)</sup>

ولكنه هـ في سورة بقره يماجتهم بصورة أخرى للعصية م نرد في الفراء إلا في هـ الموضع :

« وما خلقكم ولا بعثكم إلا كنس واحدة ! إن الله سميع بصير » .

وهي مصحاة هر الواحدان حق وتنهو القوس هؤلاء الخلق كلهم ملايين الملايين من البشر على مدار الأجيال . . خلقهم كخلق نفس واحدة ؟ !

نعم ولا شك ! لأنه يقول للشيء كن فيكون ! إنه - سبحانه - لا يتعب مثله ن إنشاء الشيء ، وتركيبه قطعة بقطعة ! إنما سوجه المشيئة يتم الخلق كن فيكون ! عيسى أن يكون مخلوق واحد ، مفردا أو يكون عدة ملايين ! كلامهم يتم بطريقة واحدة فلا تعب ولا

(٣) سورة ق : ٢ - ٣

(٢) سورة سبا - ٧ - ٨

(١) سورة النمل ٤٩

(٥) سورة يس ٨١ - ٨٣

(٤) سورة الروم ٢٢

جهد \* وسع كرسيه لسموات والأرض ولا يتوده حفظهم وهو العلى العظيم »<sup>١٠</sup>  
 وبه حين ينصح لك الأمر هذه الصورة ، وتبين هذه الحقيقة التوضيح ، يعود فعجب  
 لأنفسه ! كيف عجا حيا فجأتنا هذه الآية ، كأن القصص جديدة على حيا !!  
 نعم اب - بعير وعى ما - ومع ، ميان بقدرة الله التى لا تحدد - سوهم أن الخلق المفرد في  
 مئات الألوف من ليس لتولية أيسر من خلق الخبايا في اللحظة الواحدة ! الأب - بعير  
 وعى منا - يقس على قدرنا نحن بشرية الضئيلة المحدودة ! فمن اليسير عند مثلاً - أن  
 بسى ألف بيت في سنة ، بيتاً وراء بيت ، وطابقاً بعد طابق أم أن شئ الألف كلها دفعة  
 واحدة في لحظة فهد مستحيل ! وبهد العباس عن الواعى نقاحاً لأول وهنة حين سمع قوله  
 تعالى بأن خلق الأنس كلها كخلق نفس واحدة ! ولكن عجباً يرون شوه حين ينقطع إلى هذه  
 الحقيقة - أن الله يقول للشيء كن فيكون

وبكى أو تروى الهره من الوجدان حتى بعد أن يرون ما العجب وينقطع إلى الحقيقة ١٩  
 كلا ! إن هذه الهره وجدت تنهى ! ولستشعر على الدوم عظمة الله وجلاله ، وقدرته  
 اسى لا تحدد !

أو م يمهده السابق فده الم حاة انصحة بقوله تعالى \* ونو أن ما في الأرض من شجرة  
 أقلام ، والبحر يمده من بعده سعة أيسر ما بعدت كلمات الله ١٩ \*  
 وحين يطمئن الوجدان إلى هذه الحصة أن خلق الأنفس المتعددة - في لحظة كخلق  
 النفس الواحدة ، يكون مهيناً لنفس الحقيقة الأخرى أن يبعث الأنفس كلها - في لحظة  
 كبعث نفس واحدة . وبطريقة واحدة \* كن . . فيكون !

ثم بات أخرى تريد حقيقة القدرة الربانية المعجزة رسوخاً في النفس  
 \* أم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وسحر الشمس والقمر كل  
 يجري إلى أجل مسمى ، وأن الله به تعملون خير ؟ ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون  
 من دونه الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير .

وولج اسفل في النهار وولج انهار في الليل ظهرة شامدة يوماً في عسق انليل وعسو  
 الفجر ، حث ينداحل النور ولطلام تدريجاً حتى يعذب أحدهم على الآخر . وب  
 لعجبة من المعجائب الدالة على قدرة الله التى لا تحدد . والعلم يعلمنا أن ظهرة انليل  
 والنهار مشوها ختراج المجموعة الشمسية على ما هي عليه من نظام بهى يست ظهرة

١ محبة ! في محيط لأص ، ولكنها كريمة . ومع ذلك فإن الإلف والعادة يصعدان تدوفاً لهذه المحبة الصالحة ، وخاصة لندقة انتظامها بحيث يمكن أن نحسبها - فليكنها - بالساعة والدقيقة والثانية والثالثة ( جزء على ستين من لثانية ) بل بحره على مائة ألف من الثانية . الحساب الإلكتروني ! ومع ذلك نمر هيئة على حسب لأن حساسات تلبس عينيها ولو نظراً إليها - كما يسعى - على أنها دليل من دلائل لقدرة الربانية المعجزة ، لطلعت جديدة في حساس لا يصعد لآلف ، ولتجدد معها عن الدوام شعور بعظمة الله وقدرته .

والقرآن على أي حال يلفت إليها ، لهُدُوب عما تلبس عينيها ، ويوقظنا إلى دلالات

متطلق شحنتها لحسن بكاملها

ويستوعب السياق لحظة . إن يلاح الليل في نهار وإيلاج النهار في الليل وتسحير الشمس والقمر يات ظاهرة ومعلومة ، ومسلّمة عند أوثق العرب بشركين ، مصرف لغير عن عدم تأديتها - في حسهم - إلى مقتضاه الطلح وهو الإيمان بالله الواحد دون شريك . أما قوله تعالى « وأن الله بما تعملون خبير » فلم يكن على ذات بدرجة من التسليم في حسهم ! ولقرآن يحكي عنهم - « ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون » وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أركاكم ، فأصحتهم من الخاسرين <sup>(١)</sup> « وقال عنهم » أم يحسبون أن لا نسمع سرهم ونجواهم ؟ بل ! ورسلاً لديهم يكتبون <sup>(٢)</sup> « وقال كذلك » ألا إنهم شئون صدورهم ليستحقوا منه <sup>(٣)</sup> « ألا حين يستعشون ثيابهم يعم ما يسرون وما يعلمون إنه عليهم حدود الصدور <sup>(٤)</sup> »

فلم يكونوا من مسلمين تدم السليم بأن الله بما يعملون خبير . ولكن السياق كما قلنا يجهل وجودهم ، ولا يناقشهم مباشرة . إنه مخاطب المسلمين عامة « أم من » وإن المكذبن لمن من السمعين ، ولكنه الآن لا يحاضهم بأعيانهم . ومن أجل ذلك يسوق هذه الحفيضة « و أن الله بما تعملون خبير » بوصفها حقيقة . سواء كانوا هم مسلمين بها ، أم كان المسلمون بها هم المؤمنين وحدهم من بين المستمعين . ثم آيات أخرى للتوكيد .

« ألم تر أن العلك تجرى في البحر سحمة الله ليريك من آياته ؟ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور »

وإن في حركات العلك في البحر لآية من آيات الله المعجزة ، ما كان يمكن أن تتم لولا ما

(١) سورة فصلت ، ٢٢-٢٣ (٢) سورة الرعد : ٨١ (٣) سورة هود ٥

أودعه الله من خواص في المولد المختلفة التي يتألف منها الكون وتتألف منها الأرض فهي ككل شيء آخر في هذا الوجود ناشئة من قدرة الله القادر سبحانه ، الذي خلق كل شيء بمقدار وهي نعمة من النعم التي لا تحصى ، التي أنعم الله بها على الإنسان ليسر له حياته على الكوكب الأرضي  
ثم نقف وقفتين عند هذه الآية . .

« ألم تر أن الفلك تجري في البحر سعة الله ليربكم من آياته »  
وفي غير هذا الموضع قال ١٠ وهو لدى سحر لبحر لناكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلبة تيسرهما ، وترى الفلك مواجر فيه ولتستعوا من فضله ولعلكم تشكرون ١١ وقال ١٢ « وترى الفلك فيه مواجر لتستعوا من فضله ولعلكم تشكرون » ١٣ وقال ١٤ « ربكم الذي يجي بكم الفلك في البحر لتستعوا من فضله إنه كان بكم رحيمًا » ١٥  
أما هذا فيقول « ألم تر أن الفلك تجري في البحر سعة الله ليربكم من آياته » فكان هدفها هو أن يربكم من آياته . . ولا تعارض بطبيعة الحال بين أن تكون الفلك تجري في البحر لتستعوا من فضله ، وبين أن تكون تجري ليربكم من آياته فهذه وتلك متكاملتان « لتستعوا من فضله » وأيضاً « ليربكم من آياته » وفي جميع الحالات : « لعلكم تشكرون » إنما الذي يبعث النظر هنا أن جزء الفلك في البحر ، الذي يأتي في المواضع الأخرى بصدد تعديد نعم الله على الإنسان لعله يشكر ، يأتي هنا بصدد طلبهم أية ، وتعديد إيمانهم بأن تنزل عليهم أية . فهو مرد بوصفها أية « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » ونجى ، الأبناء من فضل الله متصفين في ليل في كلمة « نعمة الله » ، بذلك يذكر اسباق الأمور كلها ويذكر الآية بصفة خاصة ، لأنه بصدد الرد على طلبهم أية وذلك من بدائع التنسيق « المعنى » في القرآن الكريم

أما الومعة لثانية عند قوله تعالى « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » والمقصود إن في ذلك لآيات لكل مؤمن متعب وقد مر ما تسوية القرآن بين الشكر والعبادة ، وبين الشكر والإيمان وهنا نجى صفة جديدة هي الصبر ، مرادفة للإيمان والعبادة  
حاء في موضع آخر قوله تعالى « إلا الذين صبروا وصدقوا لصاحات أولئك لهم مغفرة

(١) سورة الححل ١٤ . (٢) سورة فاطر : ١٢ (٣) سورة الإسراء ٦٦



وأخر كبير<sup>(١)</sup> فكانها وصع النصر مكان الإيمان ، ودليلاً عليه ، حيث جرت العادة أن يقول القرآن « الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . . » .

ولكن تعير<sup>(٢)</sup> إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور<sup>(٣)</sup> يرد مرة أخرى في لقرآن بمناسبة الحديث عن السفر في البحر كذلك . « ومن آياته الخوار في البحر كالأعلام ، أن يشأ بسكن الرياح فيظلل روادك على ظهره » إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور<sup>(٤)</sup> .

فكانها هناك علاقة معينة بين سفر في البحر وبين هاتين الصفتين ، الصبر والشكر وكانها من أجل ذلك يجعل لصبار الشكور هو الذي يحسن معظم الآية الربانية في إجراء الفلك في البحر نعمة الله هي البحر بأهوله في أمواج الهدى ولرياح العاصفة ورجات الفلك . حتى أضحم السفر التي تشأ اليوم في وسط ذلك كله ينحأ الإنسان - حتى الكافر - إلى الله !

« وإذا عشهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ! »  
ولكن المؤس فقط هو الذي يصبر على أهول ، ثم تشكم الله عند الحاجة  
« فليست لهم إلى الله مقتصد » وما يجحد بأننا إلا كل حنار كفور<sup>(٥)</sup>  
وأم تختار<sup>(٦)</sup> لكفور فإنه بمحرد وصوله إلى الله يسسى ! يسسى نعمة الله بالحاجة ،  
ويسسى أنه دعا الله في وقت كربه ! « هو الذي يسيركم في البر والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك وجريهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم امواج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنحيتمنا من هذه لنكوسن من الشكرين ! فلما أنجدهم إذا هم يعبون في الأرض يعبر الحق ! »<sup>(٧)</sup> « وإذا من الإنسان انصر دعوا لحبه أو قعداً أو دنياً ، فلما كشف عنه صره مر كألم يدعى إلى صر منه ! »<sup>(٨)</sup>



وفي النهاية يجيء ختام السورة المؤثر الشديد التأثير  
« يا أيها الناس اتقوا ربكم وأحشوا يوم لا يجري ولد عن والده ولا مولود هو حاز من والده شيئاً إن وعد الله حق ، فلا تعرنكم حياة الدنيا ، ولا يعرنكم بالله العرور إن الله عنده علم الساعة وينزل العيث ويحكم ما في الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب عداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت » إن الله عليم خبير !

(٢) سورة الشورى ٣٢-٣٣

(١) سورة هود ١١

(٣) حنار بمعنى : غدار - من العذر والحق أقيح العذر

(٥) سورة يونس ١٢

(٦) سورة يونس ٢٢-٢٣

هل يستطيع الإنسان أن يقرأ ذلك الختام دون أن يتأثر ؟!

« يا أيها الناس اتقوا ربكم واحشوا يوماً لا تجرى ولد عن ولده ولا موبود هو حر عن والده شيباً »

إن علاقه الأسوة والنسوة هي من أعمق العلاقات البشرية كافة ، ومن أشدها تأصلاً في نفس ولو أن أب أحداً قدم نفسه فده لأحد ، فربما كان ذلك هو الولد بعدى والده أو لولد بعدى والده ومع ذلك فهناك في ذلك اليوم الرهيب تتعكك العلاقات كلها ، وينتهي القراء كذلك « وإن مدع مثقفة إلى جنبها لا تحمل منه شيء ولو كان ذا قربي »<sup>(١)</sup> « يوم يمر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصحبته وسه ، نكل أمرئ منهم يومئذ شأن يعيبه »<sup>(٢)</sup> « أي هون في ذلك اليوم وأية رهنة !

ألا يستحق ذلك اليوم الرهيب أن يعمل الناس حسابه و يعد له عذته ؟ ألا يستحق أن يحشاه ، فيعمل على النجاة من هونه ؟ ولا نجاة لا بطاعة لله ؟

« إن وعد الله حق . فلا تعربكم أخلة لديا ، ولا يعربكم بالله العرور »

إن هذا اليوم للرهب الذي يحدث فيه كل ذلك فحول إنه حق أ كذبتم به أو لم تكذبوا إنه حق ! فلا تعربكم أخية لديا لا يعربكم ذلك لتع الرائل الرائف الذي يصدقكم خوص عليه عن سبيل الله إنه كنه ، بكل ما فيه ، لا يستحق لحظة واحدة من ذلك الحول الرهيب الذي يلف الناس في ذلك اليوم ، فيفصل بين الولد وأبيه وبين الرجل وصاحبه وبنيه ! ولا يعربكم الشيطان الذي يحدركم ، فيصدكم عن الإيمان بالله إنه « عرور » لقد توعد بآب يمتس بى آدم أ ، يعرفهم بمناع الحياة الدنيا أن يرين لهم في الأرض بيساق الناس مع شهواتهم ويسوا رهم وحائقهم ، ولا يكونوا « مذكربين » ألا تشعر بنحو معين في هذه الآية ؟

إنه جو حزين بلا شك ! ولكن ألا تحس أنه هو ذاته جو « الموعظة » التي وعظ بها نضال ، به ١٩

اقرأ الموعظة مرة أخرى ثم عد إلى هذه الآية من تحس سابق بين جو هذه وتلك ؟ ثم حذر الولد والنواد في وصف المومن امثال يوم الحساب لا يجرى ولد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً « ألا تحس فيه شيئاً مع جو السورة الذي جاء فيه نضال وهو يعظ الله من ناحية ، وتوصية الإنسان بوالده من ناحية أخرى ؟

(٢) سورة عس ٣٤-٣٦

(١) سورة هاطر ١٨

وهل تظن أن ذلك السيق يأتي بعير قصد ؟

ثم هذه الآية الأخيرة

« إن الله عبده علم الساعة ، ويرسل لعيث ، ويعلم ما في الأرحام . وما تدري نفس ماذا تكسب غدا . وما تدري نفس بأي أرض تموت » .  
إياها تذكر اختصاص الله بعدم لعيب .

ألا ترى فيها سابقاً مع ما جاء في السورة من قبل « يا بني إياها إنك مثقال حبة من حردل ، فتكن في صحرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله » إن الله لطيف خبير .  
كأنها هو سيح واحد يشمل السورة من البدء إلى الختام ؟  
ثم الآية في ذاتها . . كم تهز النفس ؟

إن هذا الخشد من « تفصيلات » علم الله بلعيب الذي تختم به السورة مؤثر في ذاته ، وخاصة في حو الآية السابقة التي تتحدث عن هون ذلك اليوم الرهيب ولكنه وهو يتحدث عن علم الساعة ، ويرسل لعيث ، وعدم ما في الأرحام ، قد يمر عادي على النفس ، بشر فيها التأمل في علم الله الشامل الدقيق محسب حتى إذا جاء بين قوله تعالى . « وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت » ارتجحت كل نفس . . ولم تستطع نفس أن تنجو من التأثير .

« وما تدري نفس » نفس على إطلاقها وكل نفس هي داخلة في هذه النفس التي تتحدث عنها الآية وينظر الإنسان حوله هل تدري نفس ماذا تكسب غدا ؟ هل تدري نفس بأي أرض تموت ؟

كلا ! وما أشوق كل نفس أن تدري ماذا تكسب غداً وما أشوق كل نفس أن تدري بأي أرض تموت

ولكنه العيب المعنف بالأستار الذي تتعلق به القلوب في أعماقها ويرتج له كلما ذكر لعد المجهول وكما ذكر لموت ، المجهول الساعة ، المجهول المكان والذي يعرفه الله وحده . « إن الله عليم خبير » .

وفي جو الموعظة . . وفي هذا النحن المؤثر العميق لتأثير تحم السورة التي يعظ فيها لقها ابنه . . ويعط الله فيها كل البشرية !

## سُورَةُ فَطْرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أحصية مشى وثلاث وربع يريد في الخلق ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير » ما يفتح الله للناس من رحمة فلا يحسبها ، وما يمسك فلا يمرس به من بعده ، وهو العزيز الحكيم يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو فأتى تكذيبكم ! وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ، وإن الله يرحم الأمور يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تحربكم الحياة الدنيا ، ولا يعربكم بالله العزور إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حرمة ليكفروا من أصحاب سمير الذين كفروا هم عدو شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات هم مغفورة وأجر كبير . أفمن يرى له سوء عمله فراه حسب ١٩ فإن الله يفضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عنهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون »

السورة - ككل السور المكتبة - تتحدث عن العقيدة ، وعن المكذبين الذين يكذبون بالوحي والرسالة والبعث والحساب وخبراء ولكن لكل سورة جوها خاص ، وطريقة عرضها الخاصة .

« الحمد لله فاطر السماوات والأرض »

ولقد جاء الاستفتاح بالحمد لله في أكثر من سورة في القرآن .

« الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بهم يعدلون »<sup>(١)</sup>

« الحمد لله الذي أرسل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً »<sup>(٢)</sup>

« الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ، وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير »<sup>(٣)</sup>

(٣) سورة ميثا ١٠

(٢) سورة الكهف : ١

(١) سورة الأنعام : ١

وكنها تدعو إلى حمد الله على نعمه التي أجمعها على الإنسان ، ولنى كد مقتضاها أن يشكر الإنسان ويؤمن ، لا أن يكفر بالله لمعم ، وتنع لشيطان فلا يشكر

ومع قائل الاستفتاح بحمد لله ، فإن كل سورة تذكر بالله الذى يسعى حمده وعبادته وشكوه ، فى صورة خاصة تتميز به عن الأخرى ، كما هو ظاهر منصوص لايات السالفة وهى فى سورة طه بغير لسانى بوصف لله سبحانه ويعنى بأنه « فاطر السموات والأرض » أى مشئها أول مرة على غير مثال سابق وأنه « جاعل الملائكة رسلاً »

« حمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يريد فى الخلق ما يشاء ، إن الله على كل شىء قدير »

هذا الاستفتاح الأحاد هو المقدمة للرد على المكذبين « وإن يكذبوك فقد كذبت رس من قبلك ... »

وهو استفتاح يروع الخس لأول وهلة وير الوحدان مرأً ولا شك أن ذكر الملائكة هنا لا يشارك فى إيجاد هذا نحو الخشع بحمد لله ، المتطلع إلى قدرة الله لعجزة لى لا يجد قدرها شىء

ولا شك أن من بين مقاصد السياق لرد على المكذبين الذين يكذبون بإرسال حبريل عليه السلام بالوحي إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ولذلك قال « جاعل الملائكة رسلاً » ولكن الصورة فى ذاتها ، وأحوال الذى تشبه فى نفس ، بصرف النظر عن تكذيب المكذبين ، هى صورة أحادة ، تحرك الوحدان لينفعل بقدرة الله والملائكة خلق شعيب ، يتمثل للإنسان دائماً فى صورة أطباء رقيقة شفيفة من السور ولكن السورة هنا يريد أنهم عالم وسع متعدد أحيات ، بعضهم من دوى الخناجين ، وبعضهم من دوى الثلاثة الأجنحة ، وبعضهم من دوى الأربعة الأجنحة وحين يصورهم لإنسان على هذه الصورة - أو هذه الصور المتعددة - أطباء من السور ، هائطة صاعده تسبح بحمد الله ، وحين يفعل الوحدان تلك الصور من أولى الأجنحة « مثنى وثلاث ورباع » يحىء السياق بهذه الحفيفة فى موضعها « يريد فى الخلق ما يشاء » فتصح الصورة ، ولا تقف فى الوحدان عند المشى والثلاث ورباع ، ولا عند الملائكة أنفسهم ، يصورهم متعددة هذه ، بها تصح الصورة فتشمل « الخلق » كله ، وانقدره لنى نريد فى « الخلق » به شىء ، لا محده حدود ، ولا يقفها عجز عود ، وصل الوحدان مع السياق إلى قوله تعالى « إن الله على كل شىء قدير » كد قد تهبأ بالفعل بنفى هذه الحفيفة الهائلة ، والانعان بها تسحقه من شعور يعظمة

الخالق وحلّاه ، التى تستدعى أن يتوجه القلب لله بحمد ، ويتوجه بالطاعة ، ويتوجه  
بالإيمان

« ما يفتح الله لناس من رحمة فلا يحسك لها ، وما يمسك فلا يرسل به من بعده ، وهو  
العزير الحكيم »

وهذه الآية أيضا تأتي في سياق الرد على المكذبين بالنوحى والسوء . . ولكنها كسيفتي  
أعم وأشمل من مجرد الرد على المكذبين . إله نوحه بوجدان البشرى بحقيقة هائلة ،  
يشملها الوجدان مهترًا لها ، متفعلًا معها ، لا يملك نفسه من التأثير بها .

« ما يفتح الله لناس . . هكذا ، بيد التعميم الشامل الذى يشمل كل شيء » ،  
يشمل كل رحمة منزلة من عند الله . والتعبير بلفظة « ما » يعطى في الحس شمولًا يفوق  
الخصر . فمع أن معناها « أى شيء » و « كل شيء » إلا أن كل واحد من لتعابير  
الثلاثة يعطى ظلاً معيناً لا يعطيه الأحرار « فكل شيء » تفيد الخصر و « أى شيء »  
تفيد مفرداً معيناً وإن كان غير محدد . ولكن « ما » تفيد المعيد معاً أى كل شيء بغير  
تحديد ، ومن هه تعطى في الحس ظلاً لشمول الذى يفوق الخصر !

« ما يفتح الله لكس من رحمة فلا يحسك لها ! » وحين يفتح الحس مع « ما » فيسبح معها  
إلى كل مجال من مجالات رحمة الله ، التى لا يحسكها الخصر . فعددت السباق انصورة  
في الحس هذه الرحمت التى تمتد في كل مجال ، وتشمل كل شيء بغير تحديد . هذه .  
لا يحسب لها ! وكأنها السياق يلاحق حيالك وأنت متعلق تعدد مجالات رحمة الله ، أو تخاور  
أن تعددها ، فنقول لك انظر ! هذه لا يستطيع أحد أن يحسكها أو يتعرض لها في  
طريقها ولا هذه ولا هذه ولا هذه ! فكيف تجرى بإرادة الله العزير الحكيم ،  
القادر الذى لا يتعرض لقدرته أحد ولا يقف في طريقها !

ثم يمضى معك السياق فيردك إلى عكس انصورة ! « وما يمسك فلا يرسل له من  
بعده ! »

ويروح حيالك يجرى الشوط الحسيد كما جرى الشوط الأول . هذه الرحمة أمسكها الله ،  
الحكمة يريد لها ، « وهو العزير الحكيم » فلجميع كل قوى السماوات والأرض ، لتنتزعها  
من حيث أمسكها الله ، ويرسلها في أى وجهة يريد لها ! فهى تستطيع ١٩ كلاً ! لقد  
حبست وانتهى الأمر . . ولن تستطيع كل القوى أن يرسلها من حبسها !

وهكذا يمضى الخيال هدين لشوطين المتعافين ، وراء قدرة الله القاهرة ، سواء في إرسال

الرحمة لناس أو إمساكها عنهم . ويتر الوحدان ويعمل منك حقيقة هائلة فيتوجه  
فه بـحمد . . ويتوجه بالصاعقة . ويتوجه بالإيمان .

إن أحسن الشرى كثيراً ما يتبد إزاء انفتح الرحمة أو إمساكها ، فلا يراها في صورتها  
الحقيقة ، ولا يردها إلى مصدرها الحقيقي . وهو الله . لأنه ينظر إلى الأسباب القريبة  
المباشرة من نويّ طبيعته أو قوى بشرية ، فبطنها هي أنتى تدبر الأمر ، وهي التى تمنح وتمنع !  
أو تطمس بصيرته فلا يرى فيها ، لا اسح والمنع . ويعمل عن أن الله حكمة وراء ذلك .

فهو يراه كما يصوره القرآن « ولئن أدقنا الإنسان منا رحمة ثم نرعبها منه إنه لينوس  
كفور » ونش أدقناه بعاء بعد صراء مسته بقول « ذهب السيئات عني ! إنه لفرح محزون »<sup>(١)</sup>  
وتارة « وأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقوب ربي أكرم ! وأما إذا ما  
ابتلاه فعذر عليه رزقه فيقول ' ربي أهان ! كلا ! »<sup>(٢)</sup> .

والآية ه ترد عن الحسن لبشرى تبليه إزاء هذه الحقيقة الهائلة حقيقة إطلاق الرحمة  
وإمساكها ، فتبين له أنها من عند الله ، لا من عند الأسباب الظاهرة من قوى الطبيعة أو من  
قوى الشر . وأما الحكمة يريدها الله « وهو المعبر الحكيم » ولكن ذلك لا يتم بطريق  
التلقين الذهني لمجرد إيا رحمة هائلة يقوم بها الخناس ويعمل بها الوحدان .

وإنعم الله على رسوله . صلى الله عليه وسلم . بالنبوة و لوحي هو من بين تلك الرحمت  
التي مفتحه الله فلا تمسكها ، ردًا على تكذيبهم ، وعلى قوسهم « وقالوا لولا نزل هذا  
القرآن على رجل من انبريتين عظيم ؟ ! أهم يقسمون رحمة ربك ؟ ! »<sup>(٣)</sup>

ونكر لصورة أكبر وأشمل من مجرد الرد على المكذبين . إياها يحاسب لناس عامه  
المؤمنين وغير المؤمنين . . ويعمل بها الوحدان عامة . يصرف انظر عن تكذيب المكذبين !  
« يا أيها الناس أذكروا نعمه الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء  
والأرض ؟ لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ؟ »

وبعد الجولة الأولى مع خلق السماوات والأرض ، وللائكة أولى الأجنحة مثى وثلاث  
وربع . والجولة الثانية مع رحمة الله في حالي إرساه وإمساكها . وكنتهم قد أطلق  
الخيال يتملأها ، والوحدان يمعن بها ، يقترب من لقب البشرى في جوة ثالثة تحمها  
كالسابتين آية مفردة

وه يذكر الناس نعمه الله « يا أيها الناس أذكروا نعمه الله عليكم » ولعم ظهيرة وباحنة

(١) سورة هود ٩ - ١٠ (٢) سورة الفجر ١٥ - ١٧ . (٣) سورة الزحرف ٣١ - ٢٢

كم جاء في سورة لقمان ، مسبعة على الناس يساعاً . فهل من رارق يرقق الدس من سماء والأرض عبر الله ١٩ ألا يسحق الرارق . سبحانه - أن يتوجه به القلب بالحمد ، ويتوجه بالطاعة ، ويتوجه بالإيمان ١٩

ولكن اسألي - كم يرى - لا يقول - هل من رازق عبر الله يبرقكم من السماء والأرض ؟ إن يقول - هل من خالق عبر الله يبرقكم من السماء والأرض ؟ « وأقرب ما يرد على الخطر أن الساق يدكر لناس بالله ، الخلق والاراق في ذات الوقت . ولكن الساق يد جمع بين الخلق والاراق هكذا يشير إلى معنى معين . أن الرزق هو خلق مخلقه الله الخالق سبحانه وتعالى . والله ليس فقط مرسل البرق ولكنه خالقه أيضاً . ولورق ليس موجوداً من باب نفسه ، فتتخصر قدرة الله في إرساله للناس ، بل هو - ككل شيء - في الوجود - تُخلق بقدر من الله . « كل شيء - خلقه بقدرة . » ثم يرسل إلى الناس ، نعمة من عند الله . ومن ثم يلتفت إليه في هذه الحقيقة هذه اللفتة العظيمة . هل من خالق عبر الله يبرقكم ؟ ويجوز أنقلب البشرى ذلك الحوله الثالث مع رزق الله من لسماء والأرض . ويبحث حجاب مع كل رزق هابط من اسماء أو خارج من لأرض . هل من خالق عبر الله يخلق هذا الرزق ويحم به على الناس ١٩

« لا إله إلا هو ، عسى تؤفكون »

هل بقي شك بعد تلك الحولات الثلاث المتراية في آية إله واحد ، هو الذي يخلق وهو الذي يبرق . وهو الذي نعم . وهو القادر وحده الذي لا حد لقدرة ١٩ « عسى تؤفكون ١٩ »

\* \* \*

« وإن يكذبوك فقد كُذِّبت رس من قِلك وإلى الله ترجع الأمور »

إن يكذبوك بعد هذه الآيات كلها ، لتني عرصتها لسباق في ثلاث حولات متتامة ، مما كتب وحده الذي كذبه قومه . بل ذلك ما حدث لموسى من قِلك . والأمر كله مرجعه إلى الله ، هو الذي يدير ، وهو الذي يقرر . وهو الذي يعلم من يتدى ومن يضل . « يا أيها الناس ، وعد الله حتى ، فلا تعربكم أحياء الدين ، ولا تعربكم بالله العزور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، بما يدعوه حرمة فيكونوا من أصحاب السعير » . إن الله يسأل الموعدة للناس حتى لا يعفوا في محاج الشيطان . « يا أيها الناس إن وعد الله



حق « وعده بالبعث والحساب ، والثواب والعقاب » « فلا تعربكم حياة الدنيا » فتعربوا في متاعها الزائل وتنسوا ذلك لوعده الحق ، فمن طبيعة الاستعراق في المتع أن يُلهي فيسي الإنسان كل شيء وراء خطته الزاهية التي يستمتع فيها بذلك المتع بل إن من طبيعته أن يُلهي أحياناً عن بعض مطالب الدنيا ذاتها ! ولو كنت ضرورياً بتمتعش ! فكيف بالآخرة البعيدة عن الحس ، كيف يثبث لها ذلك بقلب العارق في المتع ؟ بل إن هذا هو العمل لرئيس للشيطان ! تزيين الأرض لتستعرق الحس « قال ربها أعويني لأزيس لهم في لأرض ، ولأعوبهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين » (١) ومتى استعرق الحس في متاع الأرض فما أسهل على الشيطان أن يسرع الآخرة برحاً من ذلك الحس ، فلا يعمل حسبها وإن أفر - نظرياً - بوجودها أو لا يؤمن بها على الإطلاق ! لذلك يقول « فلا تعربكم الحياة الدنيا ، ولا يعربكم بالله العرور » فيسيكم الله ، ويسيبكم وعد الله .

« إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً » !

إن الله بعدم حقيقة نوايا الشيطان فهو الذي نوءد أمام الله أن يعربى سى آدم ويحوى بينهم وبين الرجوع إلى الجنة . بذلك فهو - سبحانه - يعطى نى آدم ألا يعربوا بالصداقة المخادعة التي يهدف الشيطان لهم ، إذ يمسح فيهم في صوره المبحث الناصح الأمين ، لدى يرجو لهم الخير ويدلهم عليه « وقاسمهما » نى لكم من الناصحين ، فدلاهما مغرور (٢) « قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ ! » (٣) والله سبحانه وتعالى يُعلمُ البشر بأن الشيطان هم عدوهم فماذا يسمي للعدو ؟ أيجوز أن تتخذ عدواً الذي يكرهك ويتمى بك الشر صديق ؟ أم الحكمة أن تستمع لوسوسة عدو لا يألو عتاً ولا حبالاً ؟ بها يسعى أن تتحده عدواً كما هو في حقيقته « إنما يدعو حربه ليكونوا من أصحاب السعير » !

وإن لها من دعوة !

ولو أنها كانت دعوة مكشوفة إلى النار ، فلبس أحجم كثير من الناس عن تلبية الدعوة أو بعضهم على الأقل ! أما وهى دعوة مغلقة بالصحة خطوة ، وبالمتع الحاضر ، وباللذات القريبة فإن حس لشر لتعشه الصاب ، فلا يحس الرؤية ويدخل في روعه أن اللحظة الزاهية - أو الحياة الدنيا - هى نهاية المطاف وأن ليس وراء الصاب شيء يستحق أن ينعم النظر فيه . . . ومن أجل ذلك يأتى النذير

(١) سورة الحجر ٣٩-٤٠ (٢) سورة الأعراف ٢١٠-٢٢ . (٣) سورة طه : ١٢٠ .

« الذين كفروا هم عذاب شديد ، ولدين اموا وعموا انصالحا لهم معمرة وأجر كبير »  
 الذين استمعوا إلى عوايه الشيطان ، وليوا دعواه الخدعة أولئك \* هم عذاب  
 شديد أما الذين ستمعوا إلى الموعدة الربانية فاموا وعملوا لصالحا فأولئك \* هم معمرة  
 وأجر كبير »

ثم يتوجه الحديث إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، « يدى كانت نفسه الكريمة  
 نذهب حسرات على الذين كفروا وأصروا على كفرهم ، ولم يستمعوا إلى دعوة الرسول - صلى  
 الله عليه وسلم - ، ومصوا في تكذيبهم للوحي والرسالة والبعث والحساب . يتوجه الحديث  
 إليه - صلى الله عليه وسلم - ليقول إن إصرار هؤلاء على ما هم فيه من كفر وتكذيب ليس عن  
 تقصير منه في الدعوة والهدى وليس كذلك عن قصور في الساب الرباني عن توضيح  
 الحق ، بل بسب آخر في أنفسهم هم ، لا يرحى معه صلاح مهمل بل من عند الله من  
 الآيات الست ، ومهما حاهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - لإقناعهم بالحق ، الرباني  
 أقص رين له سوء عمله فراه حسناً ؟ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء »

إن هذه هي المسألة رين هم سوء أفعالهم . فهم يرون هذا الكفر والتكذيب هو  
 الحسن وهو الصواب ! لقد فتحوا قلوبهم للشيطان فوسوس إليهم ودين هم سوء أفعالهم  
 فأصروا عليها فمادى يمكن أن يصنع لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد أوصدوا  
 قلوبهم عن الحق وفتحوها لعواية الشيطان ؟

كلا ! « فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء » يصل أولئك الذين يرون الكفر  
 حسناً ، ويهدي الذين يفتحون قلوبهم للإيمان  
 « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ! »

إنهم من ناحية لا يستحقون هذا الأسى الذى يحس به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أحلهم  
 ، وسلم - من ناحية أخرى فإن ذلك لم يجدى شيئاً ! لقد كتب عليهم أن  
 بمصوا في هذا الطريق الذى يروه حسناً إلى هيته المحنومة  
 « إن الله عليهم بما يصنعون » .

ويعتصى هذا العلم سيحسهم يوم الحساب على ما يصنعون . فعصيتهم . كأفراد  
 بأفعالهم متتية ! ولا داعى للأسى عليهم بعد اليوم ، وقد تيسر سبب موقفهم ، وتبين  
 نجاحهم الذى يسيرون فيه !

أما قضية الإيمان من شاء أن يؤمن لمن كان في حاجة إلى مزيد من البيان فهذا  
 مزيد من بيان !

« والله الذي أرسل الريح فتشر سحابتها ، فسماه إلى بلد ميت فأحييت به الأرض بعد موتها . كذلك الشور ؟ »

هذا مشهد متكرر . ينلذد نحن عليه بسبب لآلاف والعدة ، فلا يلتفت إلى دلالة الحقيقة ، ولا يتلقى الرجاء شحنته كامنة

لله هو الذي أرسل الريح هو الذي أرسلها أصلاً فهي ليست رسالة من داب صها ؟ وليست « قوى الطبيعة » هي التي أرسلتها ؟ وإلا فمن خلق قوى الطبيعة هذه وجعلها ترسل لريح ؟ وهل كانت « الطبيعة » لولا ما أودع الله في فطرتها من سن وقوانين وهو « فاعل » السماوات والأرض - ولولا جراثيم كل شيء عليها بقدر معين موزون ، من حرارة وجاذبية وأرصاع محددة يشأ عنها ليل ونهار وحر وبرد الح هل كانت « الطبيعة » من تلقاء ذاتها ، لولا هذا الإجراء الرباني الدقيق ، ستطيح أن ترسل لريح وتحدد عما ساراجها ؟

كلا ؟ ب الله هو الذي أرسل الريح ابتداءً بقدر منه . . « فتشر سحابتها » أي فجعلها تثير سحابتها واستخدم لفعل المضارع بعد الفعل الماضي ، ثم لعودة إلى استخدام الماضي ، لابد أن تكون له دلالة . . فكل شيء « مبرر » !

أرسل الريح بقدرته وعشيتته ، وجعل من شأنها أن تثير سحابتها « فسماه إلى بلد ميت » باستخدام لفعل الماضي مرة أخرى أي فسماه بقدرته وعشيتته ، ويقدر خاص ما « إلى بلد ميت » فأحييت به الأرض بعد موتها «

ذلك هو المشهد المتكرر الذي يتبدد نحن عليه فلا يلتفت إلى دلالة ما يفعله الله عن حدوده ، وإما بسببه إلى لأسباب لظاهرة من « قوى الطبيعة » وبيان المسبب الخفي وهو الله .

والسياق يحثي المشهد بإعطائه الدلالة المسببة « والله الذي أرسل الريح » « فسماه » . « فأحييت »

ثم نصل إلى دلالة خاصة ، مطبوعة بها بالذات ، ومن أحلها سوى هذا المشهد بصفة خاصة ، ويريل عنه إله المتكرر « كذلك الشور »

إن المكدين بالعث بكذبون لأنهم يستهينون لأمر حذاً ويستعظمونه ! ويستكثرون على قدرة الله أن تمتع المولى ومن ثم يبعثهم إلى ظهيرة « الإحياء » التي تتم أمامهم ، هـ في

الأرض ، ويرونها على الدوام ، ثم لا يدركون ما وراءها من قدرة معجزة ، أو لا يلتفتون إليها بحس مفتوح . ألست هذه الأرض « مينة » فأحيها الله بالمطر «سارل بقدرته ومشيتته ؟ فإذا تجرد في حشهم أن يقدر الله على إحياء لأرض الميتة ، ثم لا تجور أن يقدر على إحياء الموتى يوم لقبة . والإحياء هو الإحياء . والمحيي هو المحيي في الخلق .

ولها قصة مع « الخفيين » أو « المتعلمين » في عالم اليوم . إذ يقولون إن لأرض مست « مينة » في الحقيقة<sup>١</sup> . وإن نظر لا « يحيي » الأرض عن الحقيقة . لأن الدور إلى يسرها المطر حياة حياة كمية في جسها ، وأنه لو مات المحي من المطر لا يستطيع إحياءها . وكذلك « النطفة » التي يمثلها القرآن بالإحياء هي حبة في الحقيقة . ولست مينة<sup>٢</sup> . ولذلك لا تجور الاحتجاج بهذه ولا تلك عن قدرة الله على بعث « الموتى » حقيقيين يوم لقيامه .

وهؤلاء « المتعلمون » يشربون قصة جانبية لا قيمة لها في الحقيقة . فإذا كانت الدور والنطفة تحتوي على حياة « كمية » فمن الذي أودع فيها هذا المقد من إحياء الكامنة ؟ ومن الذي أودع في حبيز ابدة أن « يجب » بمعنى يعمو ويتحرك حين يصبه الماء ، وأودع في النطفة أن « تحيا » بمعنى تنمو وتتحرك حين يتم الإخصاب ؟

فالأمر كله مرده إلى معجزة « خلق » إنشاء . سواء كانت الحياة التي يعاد بعثها كمية أو غير كمية . لذلك نقول في مواضع أخرى : « أو نس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ » أي ! وهو الخلاق العليم . إنها أمره إذ أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون<sup>٣</sup> . أو يقول : « أو لم يرو أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يخلقهم بقادر على أن يحيي الموتى ؟ » أي ! إنه على كل شيء قدير<sup>٤</sup> . فمردهم بذلك إلى أصل القصة قصة القدرة التي لا يحجرها شيء .

ثم يتحول السياق إلى قصة أخرى من القصص التي تصد الناس عن الإيمان في تلك الحضارة العربية وفي كل جامعة .

« من كان يريد العزة حساً . إليه يصعد الكدم العظيم ، وانعم الصالح يرفعهم . ولدين يذكرون السيئات هم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يور » .

« من كان يريد العزة حساً . فليحذر حياءً » .

إن الحضارة تأبى بدحج في الإيمان حرصاً على « العزة » التي في أيديها والتي نفس أن الإيمان سيضيعها عنها بصورة من الصور<sup>٥</sup> .

(١) سورة الأحقاف ٣٣

(٢) سورة يس ٨٠-٨١

فأب « السادة » أو « الملأ » كي يسميهم لقرآن ، فعلى أيديهم بالفعل سلطة وسيادة معتصبة من صاحبها الخفى ، وهو الله سبحانه وتعالى . سلطة يتحكمون بها فى رقاب الناس ، أى فى رقاب « العبد » الذين يستعملونهم لأنفسهم ولأهوائهم ، ولو كان ذلك تحت شعار « الحرية والأحباء » المباداة . كما يصنع الرأسمالية منذ القرن الماضى ، فتستعبد ملايين البشر لأهوائها ومصالحها ، وهى ترفع ذلك لشعار الخداع أو تحت شعار « الديمقراطية الحقيقية » كي يصنع لشيوعية مد أو ثل هذا القرن ، فتستعبد ملايين البشر « للدولة » و« للنظام » و « الرعيم » ، وهى ترفع شعار الديمقراطية . أو تحت أى شعار يحسن « الملأ » دائماً فى رفعه ليستعيدوا به لعبيد !

هؤلاء « لسادة » يرفضون الدخول فى الإيمان حرصاً على هذه « العرة » التى فى أيديهم ، وائتنى بحسود أنهم سيفقدونها حين يرضخون لعبادة الله الواحد ، الذى تتساوى فى لعبودية به جميع النعموس وجميع البرهوس

ولا شك أنهم بالفعل سيفقدون ذلك السططان المعتصب الذى يتحكمون به فى رقاب الناس بالباطل . ولكن هووسهم ، المتلوية وفطرتهم المكسوة لا تستطيع أن تدرء حملة الحقائق الإيمانية التى يدركها - بالمطرة السوية وانفس مستقيمة - كل من دخل فى دين الله أول هذه الحقائق وأعظمها أن العرة لله جميعاً

هو - سبحانه - وحده العزيز بحق ، المالك حمرة بحق . وأما هذه السلطة المعتصبة لتى يعتز بها الملأ فى الجاهلية وتصددهم عن الإيمان بالله ، فهى سلطة رائقة [ فضلاً على أن الله هو الذى أمدهم بها إملاءً واستدراجاً ] ليحموا أوردهم كملة يوم القيامة <sup>(١)</sup> . وهى سلطة موبقة لأنها تؤدى بهم إلى جهنم ونش الهلاك . والذين يمحرون سيئاتهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور . وليست العبرة بصحة أيام على الأرض يستمتع فيها هؤلاء الملأ بالسلطة الزائفة ، المعطاة لهم من عبد الله استدراجاً . إنى العرة بالخواصم . . وبالحياة الدائنة بعد ذلك فى عذاب المدة ومدلة العذاب . أفرأيت إن متحنهم سين ، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ؟ <sup>(٢)</sup> ما أصبى عنهم ما كانوا يمتعون ؟ <sup>(٣)</sup> .

أما الذين آمنوا فلهم فى مقاس دينهم الخلد ، لأن الله سجل أعمالهم لطنه فى الدنيا ويرفعها إله ، محجرين بها فى الآخرة ما تستحقه عبده من نعم . إله يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه .

(٢) سورة الشعراء . ٢٠٥ - ٢٠٧

(١) سورة النحل ٢٥

ولا يموتون ! أن نصف عند هذه الإشارة الدالة « للإيمان كما يعبر عنه الآية » كلم طيب !  
و « عمل صالح » وليس واحداً منهما دون الآخر

تلك هي الحقيقة الأولى بشأن « العرة » التي يعمل عنها الملأ في كل جاهلية .

أما الحقيقة الثانية المستمدة من الحقيقة الأولى فهي أن العرة لله ولرسوله وللمؤمنين !  
وتلك حقيقة أخرى على الفطر المكوسة ولموس الملتوية من الحقيقة الأولى ! ذلك أنهم  
يروون المؤمنين - في أول عهد الدعوة - لا حول لهم ولا قوة ، مشردين في الأرض ، معدر  
بأيدي الملأ أنفسهم ، لا سلطان لهم في الأرض ، ولا وزن لهم في مجرى الأمور ، فعشى  
ذلك نصيرتهم عن حقيقتين كبيرتين أن المؤمنين حتى في عد بهم ذلك وانعدم « السلطة »  
في أيديهم - أمر بما لا يقاس من جسارة الأرض المتمكين في الأرض بالباطل . لأنهم يعتزون  
بالله ، وبالإيمان بالله ، فيرخص في موسهم كل منافع الأرض لرائل ، الذي يستعد الحسارة  
فيذلون به ، ويبيعون آخرتهم من أجله . ويسمى في قلوبهم الإيمان فيحسبون في قرارة  
أنفسهم أنهم أكثر من كل ذلك الباطل المستحق بجرؤته ، وأهم أعظم في واقع الأمر من  
معديهم ، لأنهم يملكون « الحق » وأنتك يملكون « الباطل » . ولأن معديهم لا يملكون  
مهم إلا أجسادهم المادية ، أما أرواحهم فهي طليقة معبرة - معبرة بالإيمان بالله .

وأما الحقيقة الثانية التي يعمل عنها الملأ فهي أن « ميراث السلطة » لا يظل إلى الأبد في  
أيديهم ! وأن هذه المرة التي يستعلون فيها بالباطل ، وبديقون المؤمنين العذاب ، هي مرة  
يعدها الله لحكمة عنده ، وليست ناشئة من سلطة دائية في يد الملأ غير قابلة للزوال ! إنما  
هي مرة يتمحص فيها المؤمنون بالابتلاء ، ليس تجردهم لله ، ولتعدوا لحمل الأمانة  
الصحيحة ، وهي إقامة الحق والعدل بين الناس في الأرض . وعندئذ ينتقل « ميراث السلطة »  
بقدر الله العال ، من أيدي الحسارة لمتحكمين بالباطل ، إلى أيدي المؤمنين الذين أعدتهم  
الله على عينه - في فترة الابتلاء - لتسم « السلطة » من أوتك المجربين . وعندئذ نحقق  
« العرة » واقعاً مدموماً للمؤمنين ، بعد أن تحققت من قبل مشاعر مستعلية بالإيمان .

تلك قضية « العرة » بالسة « للملأ » في كل جاهلية . أما « العبد » فقد كان المظنون  
أن يسارعوا إلى الإيمان لأنه هو الذي يخلصهم من دل العبودية لعبيد ، حين يفلهم إلى عرة  
العبودية الحقة لله . ومع ذلك فإنهم هم كذلك فلم يسحبوا في مبدأ الأمر إليهم عبيد  
جاهلية ! وليس معنى كونهم مستضعفين ومستبدلين ومظلومين أنهم على الحق . . كما نحاول  
أن نقول لهم الدعوات الخادعة لتستميلهم إلى حائنها ، ريثما تستعبدهم من حديد الحساسة !

إنهم عبيد جاهلية يستهويهم السطط الجاهلي فيرتضون العبودية له ويخضعون  
 بظاهر السطط انوفوق فيحسبون أنها دائمة ، ويرقصون الخروح عبيدا خوفاً منها « ودنو  
 إن تنع الهدي معث تحظف من أرضاً ١١ » فيعلمون أنه هدى ، ومع ذلك يأنون  
 اندحون فيه خوفاً من سطط الأرض لرائف ، ولا يصدقون أن العرة لله جميعاً ، وأن العرة لله  
 ولرسوله وللمؤمنين ويسبون أن أملاً م بصيروا أصحاب سبادة وتجبر ، إلا لأهم هم .  
 العبد قد ارضوا أن يكونوا عبيداً لله ، أعرة بالآيات ١١

من أجل ذلك يقول السياق القرآني هم جميعاً ، سادة وعبيداً « من كان يريد العرة فله  
 لعره جميعاً » فلا نرعى العرة الحقيقة ، لا بالالنجاء به ، سبحانه ، ولا تشوقها إلا الذين  
 يؤمنون بالله حق لا يهابون فيسعون بالآيات على أوثث لعبد ، الذين يسمون أنفسهم  
 سادة ذوي سطط . . أو سادة ذوي حروت ١



ويعود السياق إلى فضيلة الآيات من شاء أن يؤمن لمن كان في حاجه إلى مزيد من  
 النبل

« والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفه ، ثم جعلكم أزواجاً ، وما تحمرون من أنثى ولا  
 تصع . لا تعلمه ، وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب . إن ذلك على الله  
 يسير »

تذكروا هذه الآية بأحتف في سورة الرعد ١ « الله يعلم ما تحمرون كل أنثى ، وما ينقص  
 الأرحام وما تردد وكل شيء عنده بمقدار » ٢ « ونحو ما مثل الخولة انثى طوى فيها  
 خيال والوجدان هناك

ويكن القرآن جديد دائماً ولو تكررت الإشارة دوماً في أكثر من موضع (٣) به ها يبدأ  
 قصة الخلق من أولها ، ويحيى علم ما في الأرحام خلقه من خلقات الخلق ١ « والله خلقكم من  
 تراب » وهذه وحدها آية « ثم من نطفة » ونبت آية أخرى « ثم جعلكم أزواجاً » وهذه  
 آية ثالثة « فما يستطيع غير القدرة الفادرة أن تحلوا الإنسان ابتداء من لراب « وما تستطيع  
 غير قدره الفادرة أن تجعل سله بعد ذلك من نطفه « وما تستطيع غير القدرة الفادرة أن  
 تجعل هذه المنظمة ، لتتجه في كتاب تربي لأصل ، نصبح « أزواجاً » ذكراً وإنثى يتم بينهم

( ١ ) سورة القصص : ٥٧ ( ٢ ) سورة الرعد [ ٨ ] راجع سورة رعد فيها معنى من الكتاب

( ٣ ) انظر الفصل الثاني « ظاهرة التكرار في القرآن »

الارواح ليخرج النفس ! وليس شيء من ذلك « جمية » من حتميات الخلق ! ولا حتى  
 صدرًا صدورًا تفاتيًا من الخلق في صورته الأولى بعد سويته من التراب ! إنما هي القدرة ،  
 التي تخلق كل شيء بمشيئتها ، « وكل شيء عنده بمقدار »

وما أتته ما يقوله قلب جاحد كقلب دارون ، إذ يقول مرة : « إن الطبيعة تخلق كل شيء »  
 ولا حد لقدرتها ! ثم يقول مرة أخرى : « إن الطبيعة تمجد خط عشواء ( ١ ) ولا تسير في  
 خط منظم في تطورها » وذلك بدلًا من أن يرد معجزة الخلق للحائق لتقدير سبحانه ، وأن  
 يمر بمعجزة عن فهم ما لم يستطع فهمه من شئون الخلق !

« والله حقيقكم من تراب ثم من نطفة ثم حملكم أروحا » إذ جاء ذكر الأرواح  
 والارواح تحدث عن الحمل ولوضع وعن علم الله سبحانه ولكن أمي ذات الصورة اسي  
 وردت في سورة الرعد ؟ فليست

« وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » !

إنها حنة وسعة بطوف فيها الحياء مع كل أنثى تحمل وكل أنثى تضع . فإن « ما »  
 و« من » « وما تحمل من أنثى » تفيدان الشمول وحصر ومع ذلك فهي صورة محتمة  
 وإن بدا لأول وهلة أمي متيثلتان !

هناك تحدث عن علم الله بما في دخل الأرحام من حمل بالأحبة على خلافها وهما  
 يتحدث عن عممية الحمل ذاتها وعملية الوضع « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا  
 بعلمه » ويجري الجدل مع السياق يستعرض - إن استطاع - كل أنثى تحمل وكل أنثى  
 تضع وما يستطع الحياء أن يخص ، حتى لو حصر نفسه في نطاق الإنسان ، الذي  
 يوحى لسياق هـ بأن الحديث خاص به لا يستطيع أن يخص كل حمل وكل وضع  
 ثم يربط كل حمل وكل وضع بعلم الله الشامل الدقيق

عبر أن لسياق هـ ستوقف لتمى الصورة به لا نقول في صورة الإناث ، بل كل  
 أنثى تحمل وكل أنثى تضع بعلم الله حملها ووضعها إنما يحى التوكيد في صورة المعنى  
 والاستثناء : « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » .

هل اختف المعنى بين صورة الإناث ، وصورة المعنى والاستثناء ؟

نعم . . كثيرًا جدًا !

دع لا يتعب المعنى الذهني « كثيرًا » ولكن المعنى المعنى أو الواحداني أو قل

بصورة التي تتكون في الحس والوجدان تتعب كثيرًا ما بين الصيغتين



إلى الأولى نقرر بحمد علم الله اشمل بكل أنشئ في حالة حملها وحالة وضعها

أم الثانية فهي تنفى أن تحمل أى أنشئ أو تضع إلا بعلمه !

زيادة في التوكيد ؟ نعم هذا أول أثر للصيغة لثانية في النفس ولكن أثرها لا ينتهي عند زيادة التوكيد ؟ بها تعطى معنى متحيلاً أن أية أنشئ لا تستطيع أن تحمل ولا أن تضع إلا بعلم من الله ! وكأنها العلم هنا هو لإدراك فلا يستطيع أنشئ أن تحمل إلا أن تستأذن القسرة القادرة ، ولا أن تضع حملها إلا أن تستأذن القدرة القادرة ! وكل شيء عنده بمقدار !

وبعضى السباى مع حركات الخلق ، بعد الحمل والنويع ، فيحدث عن العمر ، ما يُعَدُّ منه وما يُنْقَضُ \* وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب \* لا شيء يذهب بلا إحصاء ! لا تغلت حانة واحدة من هنا ولا من هناك دون تسجيل ! في عمر البشر كله منذ خلقه من التراب إلى آخر إنسان تهاً قدماء ظهر الأرض :  
« إن ذلك عن الله يسير ! »

\* \* \*

ثم مر يد من اليبان

« وما يستوى البحراں هذا عذب هرات سائح شرابه وهذا ملح أجاح ومن كل يأكلون لحمًا طريًا وتسترححون حلية تلبسوها وترى الفلك فيه مواجر لتبتعوا من فضله ولعنكم تشكروا بولج الليل في النهار وبولج النهار في الليل ، وسحر الشمس والقمر كل بحري لأجل مسمى . ذكركم الله ربكم به انك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، تدعوهم لا يسمعو دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجبوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم . ولا ينشك مثل حير ! »

هذه آية أخرى مما يتلوه عليه الحسن بحكم الإنف والعادة . البحر العذب والبحر ملح وهي عجيبة من عجائب الخلق نسائها لأننا في أحسن أحوالنا - بردها إلى الأصناف الطاهرة - إلى « قوى الطبيعة » ! ونسى أن قوى الطبيعة المرعومة هذه لا تحقق ! ولا تعمل شيئاً من تلفد ذاتها ، إنما بما أودع في تكوين من من ربينة بحري الكون عليها ومن حصيلة هذه السس يوحد ماء عذب يجري في الأنهار [ يسميها هنا بحاراً لمشاكفة الطبيعة ، وإن كان لا يخرج عن معنى لفظ في اللسان العربي ] وماء ملح تعج به البحار والمحيطات وهذا ودانك من حق الله ، وسم بعشيتة الله - واحتلافهما وهما من مصدر واحد كان كميلاً أن

يوظف الحسن لحقيقته انقدره الكمية وراء وجودهما وورد خلافهما ثم هناك مع هذا لاختلاف عجيبه أخرى « ومن كُنَّ بأكنون لحماً طرياً وتستخرجون حديد تليسونها » وهي - بولا تنفذ الحسن عليها عجيبة مذهلة ، ككل شيء في هذا الكون معجز المعجب والإلا فكيف - لولا قدرة الله لمعجزة - يوحد السمك مثلاً - وهو من اللحم الطري انقصود في الآية - في الماء لعذب والماء ملح ؟ وكيف ألهم الإنسان ، وكيف استطاع ، أن يستخرج هذا اللحم الطري وبأكنه ؟ وحقبة - في التلويح المرجود في الماء - شأنها كذلك - من عجائب الخلق التي لا ينته إليها الحسن المنبسط ، فيوقفه إليها السياق ليذهب عنه مله ، ويجسها بكل دلالتها والمثلث التي تمحر الماء بكلا نوعيه العذب والأجاج ، والتي يركبها الناس ليستعو من فصل الله كنها كنها شواهد على القدره المعجزه التي تدعو الإنسان بحمد الله ويؤمن بالله ويشكر الله . « وعلكم تشكرون »

والليل والنهار والشمس والقمر

كنها من آيات القدرة التي يتبدد عليها الحسن لتكررها وإلف الحسن في ولو حدثت أمام الإنسان أول مرة لاهترها وحدها هرازاً ، لأنه يومئذ يتلقى شحنتها الكاملة ويتيقظ بدالاتها فانساق بها يعطيه الهرة الوحيه ، ليلقى انشحة كاملة

« ذلكم الله ربكم له الملك والدين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير »

« ذلكم الله » فاطر السماوات والأرض حارس الملائكة رسلاً أولى أجنحة الذي يفتح سداس من رخته فلا يمسكها أحد ، ويمسكها فلا يرسلها أحد من بعده الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فتحمي به لأرض بعد موب الذي يملك العرة الحقيقية وحده ويهب للمؤمنين وحده ، الذي خلقكم من تراب ثم من نطفه ويعلم ما تحمل كل أنثى وما تصنع ، ويسجل عمر من يعمر وعمر من ينقص من عمره . الذي خلق البحر العذب وسحر الأجاج وأخرج منه لحماً طرياً وحية وأخرى منه السمك الذي يوبج الليل في النهار ويوبج النهار في الليل وسحر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . « ذلكم الله ربكم له الملك » .

إن السياق ميسر من أول السورة ، سباقاً وحنناً منصلاً لا انقطاع فيه يجوز بانوحد بالشئ هذه الحولات المتلاحمة في آيات لقدرة لربانية المعجزة يحصره أمام هذه النتيجة « ذلكم الله ربكم له الملك » فكيف تدعون أحداً من دونه « والدين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير » وهو العشاء الرقيق الذي يعطى النواة دهن التمرة . أي أحضر شيء في هذا الوجود ١١٩

أي منطق صحيح ذلك الذي يسول بقطرة المتكسة هذا البيان المفصل كنه ، أن تدعو

أحدًا من دون الله لا يسئلك - مصلًا على أن ينجق - أنه شيء في الكون ؟

« إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم » فهم أصم لا تسمع ولا تنصر ولا تعفل

« ولو سمعوا ما استجابوا لكم » إنها استجابة كامدة برسما لسياف - ولكنه يتدرج

بها كأنها يستدرجهم ليستنفذ آخر ما في حاشم الفريص من تصورات - فهم يعلمون أنها لا

تسمع اندعاء ومع ذلك يحادعون أنفسهم ويتصورون في راحتها أروحا تسمع ونصر

وتعذر فكأنها يمتصى لساق مع تصوراتهم الخوية هذه ليستدرجهم ويخرج بهم إلى

الخطوة ! « ولو سمعوا ما استجابوا لكم ! »

ثم المفاجأة لدى لا يتصورونها إطلاقًا ولا يعلمون عن حقيقتها شيئًا

« ويوم القيمة يكفرون بشرككم ! »

ويجب المفاجأة من كل جانب ! هذه الأصم التي يكتمونها اليوم ولا تكلمهم ، لأنها لا

تطلق ، هي التي سطق يوم القيمة وهم يراءى مشدوهون من هول المفاجأة !

وتنطق لتقول ماذا ؟ تنطق لكذبهم ! لنقول هم - إنكم ما كنتم تعدون أنها كما نحن

عبادتكم ؟ « ويوم يحشرهم جميعًا ثم يقول لندين أشركوا - مكنكم أسم وشركاؤكم ! فرسا

سهم وقال شركاؤهم ما كنتم بآباء بعدون ! فكفى بالله شهيدًا بينا وبينكم - إن ك من

عبدتكم لعافين ! » « « « ويوم يحشرهم ومن بعدون من دون الله فيقول - أأسم أضللتكم

عبادي هؤلاء أم هم صنوا السيل ؟ قالوا - سبحانه ما كان يسعى لنا أن نحسد من دونك من

أولياء - ولكن منعتهم وآباءهم حتى سوا للذكر وكانوا يومًا بور - فقد كذبوكم بما يقولون ،

بما تستطيعون صرق ولا نصر « « « وما أنشد المفاجأة حين يتحلى المدعو عن داعبه لدى

يعتمد عليه الاعتقاد كله ، ويقول له إن دعاءك لم يصل قط !

وهم بطبيعة الحال لا يصدقون ذلك ! فهو يؤكد لهم

« ولا يسئلك مثل حبير ! » .

\* \* \*

« يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الغني ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق

جديد ، وما ذلك على الله بعزيز - ولا نور ( ربه ربه أخرى ، وإن ندخ مثقله إلى حمله لا

يحمل منه شيء - ولو كان ذا عري - إن سدر للذين يحشون رهم بالعبث وأقاموا الصلاة ،

ومن تركى فإنا بتركى لنفسه ، إلى الله النصير - وما يستوى الأعمى والنصير ، ولا الظلمات ولا

( ٢ ) سورة الفرقان ١٧ - ١٩

( ١ ) سورة يوسف ٢٨ - ٢٩

النور ، ولا لطل ولا اخرور ومن يسوى الاحياء ولا الاموات . ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور . ان أنت إلا نذير . إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ، وإن من أمه إلا حلال فيها نذير . وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبهم . جاءهم رسيتهم بالناس وبالنور . والكتاب المبين . ثم أحدث الذين كفروا ، فكذبوا نكر ١٩ .

بعد الايات لسانه كلها ، التي مصى السور بها من أول السورة في تتابع متصل ، يتحول الحديث إلى « الناس » من السان إلى الموعظة والنذير .

« يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، الله هو الغني الحميد »

ان الله لا يدعوكم إلى الإيمان لأنه في حاجة إليكم ولا إلى دينكم . فأنتم الفقراء إلى الله ، وليس الله هو الفقير إليكم ، سبحانه ، بل هو الغني الحميد . أنتم لفقراء محتاحون الذين لا تستطيعون شيئاً على الإطلاق إلا بإذن الله ومشيتة . وجودكم ذاته كان بمشيئة الله وقدره وقدرته . وكل مطالب حياتكم التي تحصلونها عليها تتم بمشيئة الله وقدره وقدرته . لا شيء منها يتم من تلقاء ذاته ولا بقدرتكم أسم . بسم الله هو « يحيي » « يميت » ، لقائم بدانه العى بدانه ، وليس في حاجة إلى أحد من خلقه ولا إلى شيء . من خلقه . فهذا دعاكم إلى الإيمان . فلس لمصلحته هو سبحانه . إنما يدعوكم لمصلحتكم أنتم ، ليحييكم على الإيمان به في الآخرة . حباب تجري من تحتها الأنهار دائم وصلها . وفي الدنيا بظاهرها وبطهرها وعرة واستعلاء واستعانة وتكيا في الأرض بالعطيات الصالحات .

فأب أن أصرتكم على كفركم وتكذيبكم فلمس بمعجزين في الأرض

« إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز »

فإن الذي خلق السماوات والأرض بقدرته ، وخلق فيها من الآيات ما من بينه من قبل . لا يعجزه أن يذهب بكم ويستحيب من بعدكم من يشاء . ولا يعر عنه ذلك وهو القادر الذي لا يجد قدرته شيء . هـ في الدنيا . فأما في الآخرة فحسب آخر ، تحاسب فيه كل نفس معرودة بما كسبت ، ولا تزر فيه وازرة وزر أخرى ، ولا يحمل أحد حمل أحد .

« ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء . ولو كان ذا قربى ! » .

وإن الواحد لا يهتز تأثراً من هذه الصورة . « وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء »

ولو كان ذا قربى ! »

إن منظر الإنسان الذي يحمل حملاً ثقيلاً يبوء به يدعو الآخرين إلى التحفيف عنه منظر

مألوف في الدنيا وفي اعتقاد يحف الناس مساعدته وتخفيف حمل عنه . أما إن صورناه وقد بحمه ، يوء به صهه ، ثم يدعو الناس في صراعة أن يحملوا عنه شيئاً ليخفف عنه الحمل فلا يستحيب له أحد ولو كان من ذوي قرباه . إنها بصورة مؤثرة حقاً ومع ذلك فهي صورة اتوقع يوم القيامة ، حيث كن إنسان مشعوب بنفسه ، وبحسبه الخاص ، لا يلتفت إلى غيره من الناس . يوم يهر امرء من أحبه ، وأمه وأبه ، وصاحته وبه . لكل أمرئ منهم يومئذ شأن يحبه <sup>(١)</sup> يصورهم يود معجزم لو يقتدى من عذاب يومئذ بيه ، وصاحته وأحه ، وفصيلته التي تؤوبه ، ومن في الأرض جميعاً ثم يحبه كبره <sup>(٢)</sup>

ويستوفى التعبير ه بالمؤث « وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء . ولو كان د قريباً »

المقصود بطبيعة الحال هو « النفس » مذكرة أو مؤثرة . وإن تدع نفس مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء . ولو كان المدعو ذا عرى ولكن التعبير يعطى ظلاً معياً حين سماعه الإنسان لأول وهدة إنه يعطى صورة حامل المثقلة بحملها وهو مظهر أشد تأثيراً في النفس من منظر الرجل المثل بحمله . ثم يعطى صورة استحالة تخفيف حملها فمعها كانت الحامل مثقلة بحملها ، فمن د لدى يملك أن يخفف عنها حملها ، ولو كان ذا عرى . ومن هده الصورة المؤثرة ، التي يستحيل عليها تخفيف الحمل ، يتقل إلى « النفس » المثقلة بحملها يوم القيامة ، والتي يستحيل تخفيف حملها ، لأن كل إنسان مشغول بذاته ، ولأنه لا يحق لأحد أن يحمل حمل أحد ولو كان راعياً في ذلك .

وهذا الحديث موجه « للناس » كافة « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله . . . ولكن الذي يستمع إليه ويعيه ويعمل به هم المؤمنون وحدهم :

« إنما تنذر الذين يحشون ربهم بالعب ، وأقاموا الصلاة ، ومن تركى إنما يتركى لنفسه وإلى الله المصير »

و « الإندار » في حقيقته موجه للناس جميعاً ولكن المقصود أن الذين يستحيبون لندير ويتأثرون به هم المؤمنون « الذين يحشون ربهم بالعب » ولذين أقاموا الصلاة وآنوا الزكاة وهي صفات المؤمنين الأصيلة يؤمنون بالعب ، لأن الله لا تذكره الأنصار سبحانه ، إنما يؤمن به الإنسان إيماناً بالعب ، ويقومون الصلاة التي هي صلة العلب المؤمن بالله ، ويركعون

(٢) سورة المعارج ١١-١٥

(١) سورة عبس . ٢٤-٢٧

أموالهم بأداء حق الله فيها ( ١ ) . ولكن التعبير هو يصيب إضافة تنسب مع قوله تعالى فيها  
سوى . « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله » فهو لا يقول هذا أومو الصلاة وأتو  
الزكاة إنما يشير إلى إنشاء البركة عن طريق غير مباشر حين يقول « ومن تركي فإنما يتركى  
لنفسه » وكان ادعى هكذا إنما تدبر ليس يحشرون رسم بالعبث وأقاموا الصلاة وأتو الزكاة ،  
ومن تركي فإنما يتركى نفسه لأن الله عني عن زكاة العباد ، إنما يتركى الإنسان لنفسه رجاء  
المثوبة من عند الله .

« وإلى الله النصير »

والإنسان صائر إلى الله بأعماله التي عملها في الدنيا . وهذا يتلقى حراة على تلك  
الأعمال : إن حيرا محير ، وإن شرا فشر .

وبماسة العمل في الدنيا ، الذي يصير به الإنسان إلى الله في الآخرة يقول « وما يستوى  
الأعمى والبصير » . . الأعمى الذي عميت بصيرته عن طريق الحق ، لا يستوى مع البصير  
الذي رأى الطريق فاتبعه اتعاه مرضاة الله

« وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الخور »

وكما لا يستوى الأعمى والبصير كذلك لا يستوى الظلمات ولا نور ، ولا الظل ولا  
الخور وكلها أشياء حسية مشهدة قريبة إلى اندية . ولكن لمشبه هو الكهر  
والإيمان يعيب على الحسن لمعلق والبصيرة لمطموسة ، فلا تتبين أب الكهر هو العمى وهو  
الظلمات وهو الحر انلاوح ، ولا تتبين كذلك أب الإيمان هو البصر وهو نور وهو الظل  
الظليل لأن تلك انبصائر لمطموسة ترى الأشياء مقبولة ، فترى ذلك هذا ، وهذا  
ذاك وتحيل إياها أن الإيمان هو القند ، وهو التعمد والمثقة ، وهو الخسران : وأن الكهر  
هو المظلمة وهو اليسر وهو المكسب المضمون !

« وما يستوى الأحياء ولا الأموات . . »

وتلك بديهية حسية كذلك ولكن المقصود من ورثها ، لدى لا تدرك الفطر المكوسة  
أن الإيمان هو الحياة الحققة حياة القلوب والنفوس والأرواح وأن الكهر هو الموت  
موت الشعور وموت القلوب وتسد الإحساس

« إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور »

وأما « الأحياء » الذين يستحبون للحق فإن الله يُسمعهم الحق فيستحيون به . وأما

( ١ ) انظر بعض الصعاب في أول سورة البقرة

«الأموات» الذين «في الصور» و«وكانوا في عداد الأحياء بأحسانهم دون أراحهم انتهى قتلها لكم» أما هؤلاء فلن نستطيع أن نسمعهم مهما دعوتهم ! لأن الموتى لا يسمعون ويستوقفنا هذا التعبير «إن الله يسمع من يشاء» وما أنت بمسمع من في القبور !

إن الرسول صلى الله عليه وسلم - هو مبلغ في الخلق ، حبه الدين يستجيبون والذين لا يستجيبون ، وهو في الخلق مبلغ عن الله وليس من عند نفسه ولكن التعبير يفور إن الله هو الذي يفتح قلوب المؤمنين للحق فيستجيبون لرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك معنى «إن الله يسمع من يشاء» وأما الذين انطعمت بصيرتهم فإن الله يحجب قلوبهم عن الحق ، فهم دعاهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهم لا يستجيبون وفي الخلق وإد الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يملك لأحد الهدى أو الضلال

«إن أنت إلا نذير»

فليست مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم - أن يفتح قلوب الناس للهدى فهذا من شأن الله سبحانه وتعالى «يُسمع من يشاء» أما الرسل عنهم صوات الله وسلامه فمنهم

الذين هم محاسب - مهمتهم لتبلغ عن الله

«إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً» وإن من أمة إلا خلا فيها نذير .

وهذا إعلان رباني بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - مرسل من عند ربه «بالحق» في وجه المكذبين بالوحي والرسالة وإعلان كذلك بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليس بدع من الرسل ، ولا العرب المكذوب بدع من الأمم ! فما من أمة إلا خلا فيها نذير . فليس إرسال الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليهم أمر جديد ولا غريب في تاريخ البشرية حتى معجوا به كل هذا العجب ويكذبوه كل هذا التكذيب

«وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم» جاءتهم رسالتهم بالبينات وبزبر وبالكتاب

المحرر

فليس هؤلاء إذن أول المكذبين ! كل أمة منهم قد كذب رسولا فلا بأس عليهم ، ولا معجب من أمرهم ولا يحسن أنهم يكذبون بقص في البيان أو الحجة والبرهان ! فقد حدث التكذيب من قبلهم مع أن رسالتهم جاءتهم بالبينات والكافي وبالكتاب المبررة من عند الله

فالتكذيب إذن حادثة مرضية غير قسوة للشهداء ولكن شقيها على أي حال إرساله كم يرغم المكذبون ؟ إنما الأولى أن يواجهوا النذير ! وهم معروفون صدق نذير فقد أصاب الأمم مكذبه من قبل

« ثم أحدث الدين كهروا فكيف كان نكير ؟ »

إبه معروف فلا يحتاج إلى بيان إبه الحق اشمل والتدمير !

ويقف ويعتبر سر بعين مع الساق

« إن أنت إلا مدير إن أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ، وإن من أمة إلا حلال فيها مدير »

إن مهمة الرسل هي الشارة والإبذار متاً . ووضح ذلك من قوله تعالى « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً » ولكن قبل ذلك يقول له « إن أنت إلا مدير » وبعد ذلك يقول : « وإن من أمة إلا حلال فيها مدير » . ووضح تعيب المدير هنا ، وهو أحد وجهي الرسالة ، لمسه ذلك فكيف انتهى بضم عنه يشكون من ناحية ، وبالإبذار بواردة في آية من بعد : « ثم أحدث الدين كهروا فكيف كان نكير ؟ »

والوقفه لثبته عند ثم « في الآلة الآخرة » ثم أحدث الدين كهروا فكيف كان نكير ؟  
إن لها أمثلة أخرى في القرآن « فأمليت للدين كهروا ثم أحدثتهم فكيف كان عقاب ؟ »  
« فأمليت للكافرين ثم أحدثتهم فكيف كان نكير ؟ »<sup>(٢)</sup> وإن ها يدلان « إن الله لا بأحد المكذبين لتوهم بمجرد أن يكذبوا كما يسمى المؤمنون وهم واقعون في قلب الطغاة يعدوهم في مرة الابتلاء » كلا ! إنه على العكس من ذلك يعمل للطاغيين ، فيردادون عتوًا ويشدد وطأتهم على المؤمنين !

وما ذلك عن ولي من الله بضمير ولا تحل عنهم ولا هو كذلك عن حب للطاغيين ويصرهم وهم على الساطل ، كما يرغم الظالمون تحديًا للمؤمنين وهم يعدوهم ! يقولون لهم لو كنتم على الحق ما نصرنا الله عليكم !

بها هو على لهم سبحانه يفعلوا ذلك وليقولوا ذلك ! ثم يأخذهم بعنة وهم في قمة السلطة وقمة التحدي ! « فلما ساء ما ذكرناه فتحنا عليهم أبواب كل شيء » حتى إذا فرحو بها أغروا أحدهم بعنة فإذا هم ملسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، وحمد الله رب العالمين «<sup>(٣)</sup> وكذلك » سحبلوا أورارهم كاملة يوم القيامة ومن أورار الذين يصلوهم بغير علم ، ألا ساء ما يبررون »<sup>(٤)</sup>

أما المعدون في الأرض - هم الله - فلما يمنحهم الله للحق في الحياة الدنياه  
الابتلاء ثم « يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب »<sup>(٥)</sup>

(١) سورة الرعد ٣٢ .

(٢) سورة الحج ٤٤

(٣) سورة الزمر ١٠

(٤) سورة الحن ٢٥



وبعد أن يعمل التدبير فعلة في نفوس السامعين ، يعود بهم إلى آية من آيات الله المعجرات - ردًا على طسهم انكسار للآية - ولكنه في هذه المرة كأنه لا يوجه الخطاب إليهم هم ، وإن كانوا في الحقيقة ممن يوجه الخطاب إليهم ، بل يعرض عنهم ويتحدث حديثاً مفصلاً عن المؤمنين

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانها ، ومن الخيال حديد بيض وحمى مختلف ألوانه وعرابيب سود ، ومن الدس والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء . إن الله عزيز غفور » .  
 « ألم تر . . . الحديث موجه إلى الجميع ، مكسبين ومؤمنين ، ولكن الآية تنتهي بذكر مؤمنين وحدهم ، لأنهم هم الذين يدركون دلالة هذه الآية فيرددون لربهم طاعة وعبادة وحشية .

والآية هي الاختلاف الواضح في الأشياء التي خلقها الله في الكون ، والتنوع الملحوظ في الكائنات ذات النوع الواحد

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانها »  
 تذكر بالإنشابة المائة في سورة الرعد « وفي لأرض قطع متجاورات وحات من أعقاب وروع وحصل صوان وعبر صوان سقى بهاء واحد ومصل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لأيات لقوم يعقلون »<sup>(١)</sup> ولكن لكل إشارة طعماً وحوماً خاصاً وإن تشبهت للإشارات في الظاهر<sup>(٢)</sup>

التنوع الأول المشار إليه هو في الثمرات المختلفة الألوان وهي تسقى بالماء النوع الواحد النار من السماء

والنوع الثاني في خصال « ومن الخيال حديد بيض وحمى مختلف ألوانها وعرابيب سود »  
 والنوع الثالث في اساس ولدواب والأنعام « ومن الدس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك » .

فهذه أنواع الكائنات لثلاثة الخياد والساب والحيوان [ ومعها الإنسان ] ، والاختلاف حادث فيها جميعاً ، بمشيئة الله وقدره وقدرته . . . مما يمكن إلا للآله القادر سبحانه أن يحدث هذا التنوع العجيب في جميع الكائنات وهذه الظاهرة ملحوظة ولا شك ولكنها من أشد ما يتولد عنه الحسن نتيجة الإلف

( ٢ ) انظر الفصل الثاني « ظاهرة التكرار في القرآن »

( ١ ) سورة الرعد ٤

والعادة والتكرار وإن كل واحدة منها يمر الوجدان المفتوح هراً ، وتوجهه به توجيهاً يلي  
الله الخالق القادر معجز القدرة

وقعه واحدة عند ثمرت المحتفة لألوان كهيئة بأن يحشع الوجدان لله في هذه  
القدرة المعجزة التي تثبت البت بعد السوع الأحاد كل سات به لون ، ولا يكاد يلتقي  
لوان اثنا منها عن تعددها الذي يفوق لخصر أ حتى « خصرة » التي نصف بها البت م  
هي خصرة واحدة ! في ظلال محتفة متباينة من الخصرة . أما « ثمرات » فحدث عن  
اختلاف ألوانها ما شاء لك حديث ! واستخدم أدق الألفاظ المعبرة عن الألوان وطلال  
الألوان . فمتى نخرج من الوصف ؟ وهذا لون واحد من ألوان السوع والاختلاف ؟؟

ووجه واحدة عند احب المتباينة لتداخله لألوان تدهن الإنسان عجاً ! بالله أ ما هذه  
الدقة العجيبة في الألوان ؟ وكيف تأتي بلصخرة الواحدة أن تتداخل فيها الألوان وتبين  
بهذه الصورة ؟ وهل هي صخور تذك أم معاصر ألوان ؟؟ وإياها هكذا عند ملايين النسيج  
بوقعها الشائخة هذه وتعدد ألوانها حتى من قبل أن يوحد الإنسان !

ووقفة واحدة عند ألوان البشر المختلفة ، وألوان الدواب والأنعام المختلفة ، حرية بأن  
تثير العجب والدهشة في قلب الإنسان هذا ، الأصفر والأحمر والأبيض والأسود والأصفر  
كلهم بشر ! كلهم من بوع واحد ؟ و يلتقون بألوانهم المختلفة هذه فيأخذك انتماءهم وتنوعهم  
في أن أ كنهم بشر تلك نقطة الالتقاء وبعد ذلك كل منهم عالم وحده ؟ تماماً  
كالجمال إلى منها جدد بيض وحر وعرايب سود وكالثمرات المختلفة الألوان  
وكذلك عالم الدواب والأنعام

ألا إنه بالإعجاز في الخلق ألا إنها للقدرة القادرة ليس تبديع على غير مثال  
ولقد كان الوجدان الشري حرياً ألا يبتد على هذه المعجزة أنت ! هي - وحده - هو حل  
لإنسان حياته كلها ياملها ، ملأت حياته كلها تأملاً وعجلاً ثم لا يصد العجب والأمل  
وبوهدت الحياة !

ولكن البشر مع لأسف يمرون على هذه الظاهرة المدهلة مسدين من إهم كذلك  
ليكفرون !

« إياها يحشى الله من عباده لعلماء » !

إهم هم الذين تفعل وحدانيتهم بهذه الظاهرة المعجزة ، فيلقونها بكل شحنتها ،  
ويدركون دلالتها . إنه الله الخالق المبدع المصور فتحشع قلوبهم بذلك الإله العادر ،

وَيَحْشُرُهُ كَمَا يَسْعَى خِلَالَهُ وَعَظَمَهُ      فَحَسْبُ اللَّهِ لَهُمُ وَالْعَرِيرُ الْقَادِرُ

« إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ »

وقبل أن نوصي مع السباق في الحديث المفصل عن أولئك الذين يحشرون ربهم بقف  
ونقنن مع هذه المجموعة من الآيات

إن المقصود هو لعب حسن الشرى إلى صاهره استوع في الخلق ، لى سلك عبيها الحسن  
بحكم الإلف والعادة ولكن استوع لا يقتضى بلعب النظر بالحدث المباشر إلى صاهره  
سوع هذه ، وإنما بلعب النظر إليها عن طريق أسلوب التفسير ذاته بطريقة معجبة ومعجزة  
في أن ! اقرأ الآيتين مرة أخرى ثم لعب هذه الظاهرة الدعوية

« مَخْتَلَفًا أَلْوَانُهَا » .

« مَخْتَلَفٌ أَلْوَانُهَا »

« مَخْتَلَفٌ أَلْوَانُهَا »

أرأيت ؟! إن الاختلاف وشتوع تُغَيِّرُ عه شوبع العبارة اللغوية ، إلى حلة ثلاث مرات ،  
مع كل نوع من نوع خلق لثلاثه خياد والسات وحيوان ! وهى عبارة رحدة في معناها  
العدم ، ولكنها بأحد شكلاً - إعرابياً - جديد ، في كل مرة ، كما أن السات كله واحد في المعنى  
العدم ، ويختلف نونه في كل مرة ، والحاصل كلها واحد في المعنى ،العدم ، ويختلف ألوانها في كل  
مرة ، وليس والدواب والأعدم كل منها واحد في المعنى العام ، وتتخذ شكلاً مختلفاً في كل  
مرة !

أرأيت إلى الإبداع في التعبير ؟ ألا إنه الإعجاز !

والوقوفه اثباتية عند كلمة « العلم » ، « بها يحشون الله من عباده العلماء »

فمن كثرة تداولها لكمه لعلم والعلماء في عصر الحاضر ، يحظر في ذلك - بلا تدبر - أن  
المقصود هم العلماء بمعنى رجال العلوم من أطباء ومهندسين وعلماء حياة - إلخ خاصة  
وأن الظاهرة المذكورة هنا هي من لطواهر « بعممة » التي يشتعل بها أولئك « العلماء » ثم  
نظر حزن في الخدمية لمعاصره يرى لكثرة العادة من هؤلاء أقرب إلى الإخاد والكفر منهم  
إلى لايمان !

فيسعى أولاً أن يرجع إلى دلالة التعبير القرآني

العلماء هم « الذين يعصمون » وهم « أولو الألباب » الذين وصفتهم القرآن في أكثر من  
موضع ، ومن أفرسها - في دراسته هذه - سورة الرعد

« أفمن يعدم أنى أنزل إنس من ربك الخى كمن هو أعمى ؟ بها يذكروا أولو الألباب ،  
 « الذين يوقون بعهد الله ولا يعصون لأشاق » و الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون  
 ربهم ويخافون سوء الحساب ، و الذين صبروا لقاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما  
 رزقاهم سراً وعلاية و سروراً بالحسنة النسيئة أولئك لهم عسى لىار » ( ١ )  
 هؤلاء هم « العلماء » الذين يقصدهم القرآن ، و يصعبهم هب بأسمهم هم - من بين عباد الله -  
 الذين يحشون الله .

بل إن الساق هب لصعبهم فى لآة لتألة مشرة « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا  
 الصلاة وأنفقوا مما رزقهم سراً وعلاية يرحون نجارة لى تولى » هؤلاء هم العلماء وبنات  
 صفاتهم أو أعيانهم التى تعطىهم صفة العلماء

حقيقه إن من سمىهم فى صطلأاح الأناصر « علماء » بمعنى رجات لعلوم هم أخرى أن  
 يذكروا عظمه خلق و عجاره وبقدر آمن بعض هؤلاء بالفعل - بعد إلتاد - لى تكشف هم  
 فى حولهم لعلمية أن هذه المعجزات ، الدقيقه فى بناء أسدره أو الخلية الحية لا يمكن أن تحدث  
 اتفاقاً ، وأنه لابد هب من موجد عظيم القدرة دقيق العلم

هب كنه حقيقه وكن يصل لتعبير إسرائى دلالة المرآية و يصل معنى « العلماء »  
 لى لى ينعمون حقيقه ، الألوهية على الشىخ الإبنى « يحول المعرفة عندهم إلى مشاعر  
 وحدانية وسفوا عسى و يمكن أن يد حل فى مفهومها رجات العلم هؤلاء ، ردا صحت  
 بصيرهم بقدره الله المعجزة معنوا من حقيقه الألوهية ما يجعلهم أشد خشية لله وأشد امتثالاً  
 لأمره وهداه الصفة وحدها يصبحون « علماء » لا متحصصاتهم العلمية التى تزيغ قلوب  
 أكثرهم بلأ من أن تردا إلى الله ، لأن أنصاعه الخاطئة لى يقيمون عليها حياتهم تجملهم  
 أكثر بعدا من الله كلما تحنوا شيئاً جديداً من كرون الله !!

و يعود إلى لساق يعصل أحول « العلماء » الذين هم من بين عباد الله أكثرهم خشية لله  
 « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقاهم سراً وعلاية يرحون نجارة  
 من سور ، يوصهم أحورهم ، يربدهم من فضله ، إنه عصور شكور و الذى أوحى إليك من  
 انكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن الله بمساده خير مصبر سم أولئك لكتاب الدين  
 اعطىهم من عباد ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم معتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله  
 ذلك هو الفضل الكبير جبات عدد يدخلونها يحنون فيها من أساور من رهب و مؤلوا

وبسببهم فيها حريق ، ودلوا الحمد لله ندى أذهب عن الحرب إن ربنا لغفور شكور . ندى  
أحداً در المشقة من فصله ، لا يمسا فيها نصيب ولا يمسا فيها لغوب »

« إن الدين يتنوب كتب الله وأنمو الصلاة وأعقوا هم ورقهم سر وعلاية يرحون تجارة  
لن تنور »

الدين يتنوب كتب الله فيتدبرونه ، فيسح من هذا التدبر عمل مسوكن محسوس ، فيقيمون  
الصلاة ويعقون روقهم لله سرًا وعلاية أولئك يرحون عند ربهم تجرة راحة أبدأ  
« لن تنور ، لأن الله هو الذي ضمنها وضمن ربحها  
« بوفهم أجورهم ويزيدهم من فصله . إنه غفور شكور » .

به إنه كريم يجري الحسنة بعشر أمثالا « ويريدهم من فصله » ثم إنه إله غفور ،  
تجاوز عن السيئات ويعمر صغائر الدنوب ، ويعمر كائنها كذلك لن يوب عنها . وهو  
كذلك إله شكور ! والشكر طبيعة الخيال يس دا صورة واحدة عند العبد ولرب ! فاشكر  
من الله هو الجزء حسن الذي يجري به عبده المؤمن الصالح ولكن لفظ يلتقى طله في  
النفس مع ذلك ! والله المثل الأعلى .

وهذا « الكتاب » ندى يتلوه عباد الله الصالحون هو الحق الموحى من عند الله ، المصدق  
ما نزل من قبله من الكتب ، نزل الله مهمة معينة في حياة البشر . فهو خير بعبده ، نصير  
بأحوالهم ، يعلم ما يصلحهم ويصيحهم ، ويعلم أنهم في حاجة إلى هذا الكتاب ليبرهم  
سيديهم فأنزل عليهم .

« والذي أوحيا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه . إن الله بعباده لخبر  
نصير »

ولقد اختار الله هذه الأمة - لحكمة يعلمها - لتكون هي الورثة « للكتاب » . والكتاب  
هذا بمعناه العام ، أي « الكتاب المنزل من عند الله » وهذا المعنى يكون اليهود قد تلقوا  
« الكتاب » من قس ، ثم ورث النصارى « الكتاب » والآن ترثه هذه الأمة  
« ثم أورث الكتاب لدين اصطفين من عباد منهم طلم لنفسه ، ومنهم مقصد ،  
ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله . »

وبذا كان الطم من معنى الكفر ، مهد التقسيم الثلاثي يباثل ما جاء في سورة الواقعة  
« وكشم أر حا ثلاثة ، مصحاب يمينه ما أصحاب يمينه ، وأصحاب المشامة ما

أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون ، أرنئك المقربون «<sup>١١</sup>» فيكون الظالمون هم أصحاب المشأمة ، والمقتصدون هم أصحاب المنة ، والسابقون هم السابقون  
 أما إذا كان هذا تقسيماً ثلاثياً داخل دائرة مؤمنين فيكون هذا تقسيماً بفرقتين هذه  
 السورة ، ويكون الظالمون هم لعصاة الدين رادت سيئاتهم على حسانتهم ، والمقتصدون هم  
 الذين لهم سنات ولكن حسنتهم غطت عليها ، أما السابقون بالخيرات فأولئك الذين  
 استقاموا على الطريق بفصل الله

« ذلك هو الفصل الكبير حبات عدد يدخلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤة ولباسهم فيها حرير وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، لدى أحدا دار المقامة من فضله ، لا يمسأ فيها نصب ولا يمسأ فيها جوع »  
 وواضح أن النعيم هنا حسى ومعوى في ذات الوقت فيه أساور الذهب واللؤلؤة  
 وحرير ، وفيه الشعور بنعمة الله وفضله إذ أذهب عنهم الحزن ، وإذ أحلهم « دار المقامة »  
 لا يمسأهم فيها تعب كبير ولا صعب ومع أحسب نوعي النعم ، الحسى والمعوى ، فإن  
 الإنسان يلمح هنا أن النعيم المعنوى هو الأغلب

« وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن » إنيهم يحسبون بنعمة « إذهاب حزن »  
 وهي نعمة معنوية دون شك ، تطلق ألسنتهم بشكر لله على نعمائه « إن ربنا لغفور شكور »  
 وفي قلوبهم « إن ربنا » تلمح وحسانهم تلك الصلة بروحية ربهم الله التي يتقربون  
 بها إلى الله ويتحجبون به إليه بالإضافة إلى أنهم يصفون الله سبحانه وتعالى بنفس الصفات  
 التي وصف بها نفسه من قبل « ليوفيههم أجورهم ويريدهم من فضله ، إنه غفور شكور »  
 وهذا التطابق في الوصف ملحوظ ومقصود ، فكأن أهل الجنة أولئك يعرفون الله بذات  
 الصفات التي يعترف بها نفسه سبحانه ، وذلك من شدة صلتهم بروحيه به ثم هم  
 يصفون في عباد نعم الله فيقولون « لدى أحدا دار المقامة من فضله » فتحس مرة أخرى  
 بالنعيم لروحي ، فهم هم مرحوب معتطون بأن الله أحلهم « دار المقامة » وفي تسمية دارها  
 إشعار بنعم الروح . فهي لإدامة الدائمة الهمة الرغبة التي لا يمسأهم فيها نصب ولا  
 أسط التعب وهو المعبى ؟

وفي آيات الآخر من هذه النواع الحسى والروحي الشامل العدم الرصني الهني نجد  
 تكرار « يصطرحون » في نار جهنم

« والذين كفروا لهم نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ، كذلك نحرق كل كفور . وهم يصطرحون فيها . رب أخرجنا بعمل صالحاً غير أنسى كنا بعمل !... »

إنه عذاب حسي ومعنوي في ذات الوقت ، في مقابل متاع الحسي والمعنوي هناك فهذه « نار جهنم » عذاب حسي ولكن في داخله كذلك عذاب معنوي « لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها » ثم هم « يصطرحون فيها » والاصطراح يوحى بمعنى أكم من الصراح دته « فهم يصرخون ثم تندخل أصوات صراخهم وتختلط بعضها ببعض ، وذلك أنكى ، وأوقع . فهم ليسوا في حالة يستطيعون فيها تنظيم أصواتهم !

ويأتيهم الرد في النهاية ولكنه لا يأتي سريعاً لأن « الاصطراح » معاء أنهم صرخوا وصرخوا وصرخوا دون أن يتفكروا إجابة على صراخهم وفي هذا إهمال لهم وهو عذاب معنوي بجانب العذاب حسي فإذا أتاهم الرد في النهاية فهل هو استجابة لطلبهم الذي طلبوه « رب أخرجنا بعمل صالح غير أنسى كنا بعمل ؟ » كلا ! إنه رد لا يقن تعذيب عن العذاب الحسي .

« أولم نعمركم ما يتذكر فيه من نذكر ؟ وحياءكم الدين ؟ قدوة في اللطيفين من نصير ! »

ونصير بحياتنا أن الخواب حياء مذهلاً ومسكناً « وأن الصراخ قد كف خطة حسي يزججه العذاب من جديد !

ومن هناك من مشهد العذاب يوم القيامة تحدثهم هو في الدين ، كأنه تنمه الحديث هناك !

« إن الله عالم غيب السماوات والأرض ، إنه عليم بدات الصدور ، هو الذي جعلكم جلائف في الأرض ، فمن كفر فعليه كفره ولا يريد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ، ولا يزيده الكافرين كفرهم إلا حملاً »

إن من معجزات التعبد القرآني هذا التوصل بين عالم الدنيا وعالم الآخرة في سباق واحد لإحداث تأثير معين في نفوس السامعين فقد كان منذ هيبة يصف حال الكفار وهم يصطرحون في نار جهنم ، يظنون الخروج منها ويتعهدون ألا يعودوا لما كانوا يفعلون من قبل ، لينجبتهم لرد بالسكينة ولتنشيس الكمال فقد أصعتم فرصتكم ! مددنا لكم في

عما ركم بالقدر الذي يكفي بلذكر ولنذكر ، وجاءكم بدير يذكركم فكذلك سموه " ودوقو  
 به بلظمين من نصير " ثم يستمر حديث محدثهم هنا في الدين هم هم الذين أورد  
 وضعهم في جهنم من بل حطت ! لكأنها يرفع أدمهم مرأة عجبية لصنع ، بريهم صور  
 أنفسهم في ذلك السقل المعد ، فيرون أنفسهم في نار جهنم بصطرحون ويرد عليهم بذلك  
 الرد الموجه ثم سر المرأة فجأة لمحدثهم عن واقعهم ، خاصر ، ولكن بعد أن يكون  
 وجدانهم قد اضر به رأوه في المرأة من قبل ، فيتصورون الكلام مرة الانعصا

" إن الله عالم غيب السماوات والأرض ، إنه عديم بدت الصور ، فهو يعلم ما في  
 بؤنكم ، وبمقتضى علمه ذلك بحكم عليكم بحكم الأخير يوم لقدمه " هو الذي  
 جعلكم حلائف في الأرض " سخلفكم بعد قوم آخرين ، وأعطاكم فرصتكم في الحياة  
 والعمل " فمن كفر فعليه كفره " من اضرار الكفر فعليه معنة أخيره " ولا يريد  
 الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مفقدا ، ولا يريد الكافرين كفرهم إلا خسارا " وقد رواه  
 هبة عذبة الكفر وتأكدوا من مقت الله وعصيه ومن الخسر الذي يعاينه أهل النار ثم  
 يحاطهم مرة أخيره ، بعد أن هر وجدانهم بصطرحهم في نار جهنم ، وبلا تدار بالخساره  
 والمقت

" قل أرأيتم شركاءكم الذين يدعون من دون الله ؟ أروني ماذا خلقوا من الأرض أم هم  
 شرك في السماوات ؟ أم أتيناهم كتاب فهم على بينة به ؟ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا  
 إلا عرورا " !

" قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ؟  
 أرأيتم ماذا هم ؟ أم نسف ما هي صفتهم ؟ أرأيتم ماذا في طوفهم وماذا يملكون من نعم  
 أو صر لكم ؟

" أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟  
 هذه هي الأرض أمامكم ، حبوبها كلها رزقا عن شيء واحد خلقه أولئك الشركاء !  
 أم لهم شرك في السماوات ؟ !

وما كان العرب يشركون برعمون أن أولئك الشركاء قد خلقوا مع الله شسما في السماوات ولا  
 في الأرض فانسوا أن ليس مقصودا بمعناه إنما هو سؤال للسحرية بأفهامهم ،  
 لا يصف ظهم بلحقيقه التي يعص عنها حسهم هي دأمو يعرفون أن الشركاء لم يخلقوا مع الله  
 شيئ ، أفلا يدعوههم ذلك إلى مد يد الشرك انصحت وإذ بالله بالآلوهة ؟



« أم آياتهم كتاب فهم على بينة منه ١٩ »

وذلك استمرار في السحرية بهم . فهم يعرفون أنه لم ينزل عليهم كتاب من قبل ! إن يوظفهم إلى أن أى قول يقوله الشر في أمر الألوهية يسعى أن يكون مستند إلى كتاب منزل ، وأنه ليس للشر أن يمحطوا في هذا الأمر من تلقاء أنفسهم بصلوا  
« من إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا عرورا ! »

تلك هي الحصة النهائية للأمر ! إن الظالمين يتخطون ، ويمنون أنفسهم بالأمانى الصارعة أنهم هم الذين على الحق ، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو « الصابئ » عن الحق !!

ثم يشي السياق بآية من آيات الله المعجزة ونكسها تحمل سيرا حقيقيا في طياتها  
« إن الله يمسك السماوات والأرض أن تثرولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً »

رب آية من يريد الآية المعجزة ، ويعتق إيمانه عليها آية يعمل عنها الحسن المتبلى بسبب إعادة والإلف يرى السيارات والأرض قائمة كل صباح وكل مساء ، فيحسب ذلك « من ضائع الأشياء » ويرده إلى أسباب ظاهرة من « قوى الطبيعة » أو يعمل عنه هائلا فلا يحس دلالة عن الإطلاق ! ولكنها آية ككل آيات الله المعجزة هي الذي يحفظ السماوات والأرض ويعصيهما استمرار الوجود « لا مشيئة الله وقدره ، وقدرته ١٩ ولئن زالتا - بمشيئة الله وقدره وقدرته - فمن ذا الذي يملك في هذا الكون كله أن يقيهما وقد أراحنا الله ١٩  
ألا يدرك ذلك بالآية في مطلع السورة « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممك لها ، وما يعسك فلا مرس له من بعده » وهو العزيز الحكيم « ؟ بلى إنه نعم الخوف في منذر السورة وفي سخامها !

وفي الآية كما قلنا ، إن الله يملك - إذا شاء - أن يزيل السيارات والأرض من عليها ، من أولئك الكفار المكذبين ثم إشعار برحمة الله وخدمه هليهم إذ لم يفعل ! « إنه كان حليماً غفوراً » .

\* \* \*

ثم يحتم السياق محدث آخر عن أولئك المكذبين يأتي معه النذير الأخير :  
« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ! فلما جاءهم نذير ما رادهم إلا نفورا استكبارا في الأرض ومكر السيئ ، ولا يحيق المكر السيئ إلا

بأهله فهل يظنرون إلا سنة الأولين ؟ فمن نجد لسنة الله تبديلاً ، ولن نجد لسنة الله تحويلاً  
أو لم يسيروا في الأرض فيظنروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ؟ ! وما  
كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض ، إنه كان عليماً قديراً ولو يؤاخذ الله  
الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء  
أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً \* .

لقد أفسموا بالله جهد أيهم من قبل بشيئ فيهم سبي ليكون أهدي من ليهود لدين  
عصوا رسولهم موسى عليه السلام ، وعاندوه ، وخرجوا على طاعته ثم عاشوا ما عاشوا  
بعصون الله ورسوله . .

كانت أمة يتمومها للتدهي على اليهود محسب ! فلي جاءهم الدين الذي تمومه ما  
إدهم إلا بقور ! استكبروا على الأنبياء ، وكذبوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ومكروا  
بملكهم السبي ، بالتكاتف على الكفر والتكذيب وتعذيب المؤمنين وأصحابهم وبيدها الرسول -  
صلى الله عليه وسلم - بكل وسائل الإيذاء ! فماذا يتظنرون من وراء ذلك ؟ إن المكبر لسيئ لا  
يحق إلا بأهله ، فسقط عيهم في النهاية بالدمار والخراب . كذلك مصت سنة الأولين ،  
ودمر الله على المكذبين بكل رسول أرسله من قبل . وهي سنة حارية لا تتبدل ولا تتحول  
لأن سنة الله هكذا ، ليس من شأنها انقراض أو استحواي . أو لم يسيروا في الأرض فيظنروا  
كيف كان عاقبة قوم صابح وقوم هود وقوم لوط وقوم شعيب وغيرهم وغيرهم وقد كان  
هؤلاء أقرب لديهم في خربة العرب ، وهم يهربون عليهم في سمرهم صباح مساء أو  
لا يروون أن أولئك الأقوام عاد وثمود وغيرهم كانوا أشد منهم قوة ؟ فإذا كان لأقوياء قد  
أهلكوا ، فما بهم هم ؟ هل يستعصون هم على الهلاك ؟ وما كان الله ليعجزه من شيء في  
السماوات ولا في الأرض \* فضلاً عن أن يعجزه أولئك الخصم من المكذبين ؟ ! إنه كان عليماً  
قديراً \* وقد مر من آيات عظمه وهدوته ما مر في السورة . ومن كان هذا شأنه من العلم  
والقدرة من يعلبه شرعة من كهان قريش !

وهم ليستعجلون بالعداب ! ويتحدون لرسول - صلى الله عليه وسلم - إن كان صادقاً  
أن يرب عليهم حجارة من السماء ! \* ورد قائلوهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر  
علينا حجارة من السماء أو ائتنا بمعذاب الليم ! \* لا يستعجلونك بالسنة قبل الحجة وقد  
حلت من قبلهم المثالات (٢) .

(٢) سورة الرعد : ٦

(١) سورة الأنفال ٣٢

فها يقول هم « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهورهم من دابة » ولكن  
يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعبادهم بصير »  
كما قال هم في سورة الحل « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عبداً من دابة »  
ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » (١)  
وفي حالتين أدخلهم في مرة الدواب « وإن كان اللفظ - لعوي - يشمل كل ما دب على  
الأرض ، بما في ذلك الإنسان « ولكن المعروف جرى على استعمال « الدواب » للحيوان  
لهذا أدخلهم في زمرة الحيوان لإصرارهم على الكفر والتكذيب . .  
وهذه هي نهاية التوكيد ، انتهى بصرون على التكذيب بعد ذلك الدن المفصل  
المعجز المبين

\*\*\*

ثلاث بآيات ثلاث من السور المكية . يتبين منها  
أولاً كيف أن لكل سورة جواً خاصاً وتخصصاً معيناً دعم تشبيه العرض أحياناً ودعم  
وحدة الموضوع .  
ثانياً كيف أن كل سورة هي وحدة متكاملة متربطة في سياق واحد متصل من بدئها إلى  
نهايتها مهما حوت من موضوعات .  
ثالثاً : أن القرآن « على الطبيعة » ليس كذلك التفسير العقل المعنوي الذي قدمناه في  
أول الكتاب ، وقت مراراً إننا نصعبه لصعوبة البحث وإلما هو كيان حي مترابط ، حيوته  
في بسفه الخصاص ، الذي يمتزج فيه البشر بالدير ، بمشاهدة القيامة ، بالحياة الدنيا ،  
بمشاهدة الكون بصفاته الألوهية والروبية ، بأحوال المؤمنين والمكذبين .  
الحج وأن القرآن يسعى أن يقرأ هكذا « على الطبيعة » ليعطي تأثيره الحقيقي وإن كنا  
نحتاج بين الحين والحين ضرورة البحث والتوضيح - أن يصح التقاسيم ويصح المساوئ .

## ظاهرة التكرار في القرآن

من الظواهر التي بلغت الطر في القرآن ظاهرة التكرار وقد تكون أشد وضوحاً في السور المكية منها في السور المدنية ولكن السور المدنية كدست لا تخلو من التكرار وقد تحدث « الذين لا يعلمون » من استشرقين وتلاميذهم من « المثقفين » في هذه الظاهرة ما شاء لهم الحديث

وحين ننظر إلى القرآن على أنه كتاب التربية هذه الأمة ، ولشربة كلها التي ينبغي أن تدحل في دين الله ، تروى عن عرانه هذه الظاهرة ، وبصح بعض حكمها على الأقل مفهومة لديها

إن التربية ليست قولة يقال مرة وتنتهي !

وكل من مارس التربية مع صبر أو كبير بعلمه إلى أي مدى يحتاج من يتلقى التربية إلى « التدكير » الدائم حتى يستقيم على الأمر المطلوب ومن ثم يستطيع أن يقدر الهدف المربوي من عملية التكرار في القرآن :

« وذكر من الذكرى تمنع المؤمنين »<sup>(١)</sup>

« إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد »<sup>(٢)</sup>

« المص كتاب أمر إلهي فلا يكن في صدرك حرج منه لنسبه به وذكرى للمؤمنين »<sup>(٣)</sup>

« فذكر إن سمعت الذكرى ، سيذكر من يحشى »<sup>(٤)</sup>

وهكذا يتضح أن التكرار لا يأتي اعتباطاً ، إنما يأتي هدف مقصود

أصعب إلى ذلك أن انقرا ، قد برز على مدى ثلاثة وعشرين عاماً متطاونة ، فكان لدى

بعضنا بين برول الآية وشبهتها بل حتى قد يبلغ عدة سنوات

ويكن الذي يريد الإشارة إليه هنا هو أن حتى حين تشبه مجتمعا على صورت في المصحف ،

وحتى حين تشبه مقاربات لا يفصل زمن كبير بين الآية وشبهتها ، فإن لا نجد

(٢) سورة ق ٢٧٠

(٤) سورة الأهل ٩٠-٩١

(١) سورة المدريات ٥٥

(٣) سورة الأعراف ١٠-١١

فيه تكراراً حقيقياً بالمعنى المبهوم من اللفظ ، إنما نجد ظاهرة أخرى في حقيقته تستحق ما  
النظر من حيث هي حال في التعبير ، ومن حيث هي لون من التأثير الوجداني فريد

\* \* \*

فيل جاء من الآيات أو من العبارات هي التي وردت نصها أكثر من مرة في القرآن ،  
لأمر مقصود .

جاءت هذه الآية في موضعين من القرآن ، في سورة التوبة [ آية ٧٣ ] وفي سورة التحريم  
[ آية ٩ ] للتذكير وشجدة الهمة لمقاتلة الكفار والمنافقين .

« يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واعطهم عليهم . وماؤاهم جهنم ونفس الناصية »  
وجاءت حكاية قول الكفار « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » في أكثر من  
موضع . في سورة السمل [ ٧١ ] وفي سورة يس [ ٤٨ ] وفي سورة الملك [ ٢٥ ] كما جاءت في  
صبعة أخرى في سورة السجدة [ ٢٨ ] « ويقولون متى هذه البشارة إن كنتم صادقين »  
كما جاءت حكاية قوهم كذلك في طلب الآية في أكثر من موضع « ويقول الذين كفروا  
بولا أول عليه آية من ربه » أو « لولا برل عليه آية من ربه » أو « وقال الذين  
كفروا . . . »

والمقصود من هذا لتكرار الإشعار بأهم يكثرون من ترديد هذه الأقوال ويلحون في  
التحدث وفي طلب الآية

وهنا عدد هــ لقلب السادر الذي يكرر بلفظه هدف مقصود ، نجد أن الظاهرة الحقيقية  
يست هي « التكرار » وإني هي « التوزيع » |

\* \* \*

وبين هذه الظاهرة نحاس أن نتحدث قليلاً في « اللفظ » و « المعنى » و « الموضوع  
و « الأسلوب » .

إن أي محاولة لتصوير اللفظ منفصلاً عن المعنى ، أو المعنى منفصلاً عن الأسلوب هي  
محاولة خاطئة منه لئله وقد يقتضيه ضرورات البحث العلمي أن نتحدث عن الأمور في  
هذه الصورة المتحررة المتصلة الأجزاء أما في عالم الواقع فلا يمكن أن يوجد هــ ، التحرر ولا  
دك الانفصال

ولتوضيح الأمر نضرب مثلاً من وجه الإنسان .

إن كل وجه بشري مكون من عيين وشفتين وأسم وأذنين . . الخ . فإذا كان هــ

« الموضوع » بالنسبة للموجه ، فإن « الأسلوب » هو اجتماع هذه الأجزاء على نحو معين من التوافق يعطيها « شكلاً » معيّناً ملائماً لمحتوى محددة . فهل يمكن في أية لحظة أن نتصور وجهه فلان من الناس على أنه مجرد عيبي وشمسي وألف وأدين . الخ ، أم نتصوره دائماً على أنه تلك الملامح « الدشة » من اجتماع هذه الأجزاء على النحو المعين ، حتى وإن تحدثت أحياناً عن صفات خاصة بكل عضو من الأعضاء ؟

وكذلك الأمر في التعبير بالألفاظ المعاني المحددة . أي المعاني الذهبية لكل لفظ بمعناه أو مجموع المعاني . هي الأجزاء أو العناصر التي يتكون منها الموضوع . ولكنها - محددة - ليست هي التي تعطي المعنى المقصود في الحقيقة ، أو ليست هي التي تعطي « التأثير » الحقيقي . إنما الذي يعطي المعنى الحقيقي أو « لتأثير » هو اجتماع هذه المعاني على نحو معين من التوافق يعطيها ملامح محددة

وإذا كان الأمر كذلك في الكلام بصفة عامة فهو كذلك في القرآن بصورة أدق وخاصة حين نتحدث عن ظاهرة التكرار في القرآن .

ففيما عدا النصوص السادة التي أشرنا إليها لا يوجد نصان متماثلان في القرآن كنه إياها يوجد تشابه فقط دون تماثل . تشابه كذلك الذي قد يوجد بين الإخوة أو الأقارب ، ولكنه ليس تكراراً بحال من الأحوال . إنه مثل ثمار الحبة : لهم حبات تجرى من تحتها الأنهار ، كتب رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل . وأنو به متشبهاً<sup>(١)</sup>

لهم حين يتناولون الثمرة لأول وهلة يقولون : هذا الذي رزقنا من قبل ! وإذا تنوقوه عرفوا أنه مختلف عنه ، يشبهه ولكنه لا يماثله ! ومن ثم يعيشون في مذاقات متجددة على الدوام وإن بدت لأول وهلة مكررة .

وكذلك حيلة مع القرآن . إنها تعطي مذاقات متجددة على الدوام وإن بدت لأول وهلة مكررة . وذلك في حدود ظاهرة التكرار التي نشأها في هذا الفصل ، وليس نتحدث بشيء هنا عن مدقات المتجددة التي يجدها الإنسان مع المعنى الواحد كلما فتح الله عليه بإحساس جديد أو بصور جديد ، أو قبس من النور لعلوى جديد . فذلك أمر آخر لا ينتهي ولا ينهد مادامت الحياة !



أكثر الموضوعات تكراراً وتنوعاً في ذات الوقت هي موضوعات العقيدة بمفرداتها الستة

(١) سورة النور . ٢٥

لتي ذكرناها في أول الكتاب الإتيان بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة والكتب والنبين  
والقدر حشره وشربه ، وقصص الأنبياء ، وقصة آدم والشیطان ، وأحاديث إبراهيم وإدريس  
السور المكية والمدنية على نسواء (١) . أما في السور المدنية خاصة فموضوع التكرار - إلى  
جانب العقدة - هو موضوع الجهاد في سبيل الله ، وكل ما يدور حوله من جميع نواحيه . أما  
التشريعيات فهي بطبيعتها لا تحتاج إلى تكرار ، وبكفي الأمر ما مرة واحدة . إلى الذي كان  
في حاجة إلى تكرار يحدث فيه هو وجوب انقطاع الله . وقد تم ذلك في فترة النبوة في مكة  
حتى استمرت قاعدته تمامًا ، ولم بعد الأمر في حاجه إلا لأن يعرف المؤمنون ماذا أمروهم  
فيستجيون . مع التذكير الخفيف بين الحين والحين (٢) .

ولا يحتاج الأمر - ولا يسهل انجانها كذلك - لسط أمثلة لكل موضوع من موضوعات  
القرآن التي يتكرر ذكرها ، لتبين كيف يعرض في كل مرة بصورة جديدة وإن تجد الموضوع  
إنما نكتفي أولاً بتقرير هذه القاعدة العامة أن كل سورة من سور القرآن على إطلاقها ما  
شخصيتها لتتميز وجوهاً الخاص وكل نص من نصوص القرآن - وإن بدا مشابهاً - فإنه  
يأخذ جو السورة التي يرد فيها ، ومن ثم تكون له ملامحه الخاصة في كل مرة  
أحياناً تتقدم كلمه أو تتأخر كلمة ! [ سأنبأ أو مع تعبر في ملاحظها ]  
« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض » (٣)  
« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم معرفة وأجرًا عظيمًا » (٤)  
أحياناً يتغير حرف واحد !

« وترى المحدث موآخر فيه ولتستعوا من فضله ولعلكم تشكرون » (٥)

« وترى المحدث فيه موآخر لتستعوا من فضله ولعلكم تشكرون » (٦)

الهم ألا نحىء الملامح دتت موتى ! إنما يحدث في كل مرة نوع من التعبير !

فإذا انتصحت لنا هذه القاعدة العامة فلنحس بعد ذلك يعصر الساج من القصة ،  
ومن آيات الله في الكون ، ومن مشاهد لقيمة ، تريد الأمر في حساً وصوحاً

\* \* \*

في سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء ترد مجموعة من القصص مكررة الموضوع ،  
هي قصص نوح وهود وصالح وشعب مع أقوامهم المكذبين وذات القصة بالنسبة لكل

(١) ما من قبل إن حديث العبد لا ينقطع في السور المدنية

(٢) مستحدث في الفصل سأل عن السور المدنية وموضوعاتها

(٣) سورة البور ٥٥

(٤) سورة الفتح ٢٩

(٥) سورة النحل ١٤

(٦) سورة فاطر ١٢

واحد من هؤلاء الأنبياء - ورد في كل من أسور اثلاث، بما يؤهم لأول وهنة أن هناك تكراراً في  
 المرداب وفي المجموع - ويريد هذا أن نطرق في هذه المجموعات من القصص من زاويتين  
 أولاً - طريقة التوزيع في عرض المجموعة المتشابهة من القصص في كل سورة عن حدثها ،  
 مع إبراز التشابه - بل الوحدة - في موضوعاتها جميعاً  
 ثانياً - طريقة التوزيع في عرض لقصة الواحدة من سورة إلى سورة باختلاف الحق الخاص  
 بكل سورة .

ومن مقاصد يبراز هذا اللون من القصص كما أسلفنا من قبل إبراز حقيقة معية ، هي أن  
 كل الرسل قد جاءوا بكلمة واحدة من عند الله - لا إله إلا الله - وبفظة واحدة يبعثها  
 للناس : اعبدا الله ما لكم من إله غيره .  
 ومن مقاصده كذلك إبراز حقيقة أخرى - أن كل لأقوام قد كذبت رسلها ولم تستجب  
 ببعثها به الرسل من عند الله  
 ومن مقاصده أيضاً بيان أن الله نجى رسله في النهاية مع الذين آمنوا معهم ، ودمر على  
 المكذبين

فكيف تأتي هذه المعاني كلها في القصص القرآني ؟

نجد في السور ثلاث أسى أشربا إليها سقاً معيماً يجرى فيها جيباً هو توحيد الكلمة التي  
 ينطق بها السبي المرسل إلى قومه - هي سورة لأعراف وسورة هود نجد كل سبي يطلق بهد  
 لعبارة : يا قوم اعبدا الله ما لكم من إله غيره « أما في سورة الشعراء فتجىء هذه العبارة  
 المكررة على لسان كل رسول « إني لكم رسول أمين ، فأتقوا الله وأطيعوا ، وما أسألكم  
 عيه من أجر ، إن أجري إلا على رب العالمين »

وهنا نجد أن تكرار النص على لسان كل رسول أمر مقصود لذاته ، لإبراز ذلك المعنى  
 الذي أشرب إليه ، وهو أن كل الرسل قد جاءوا بكلمة واحدة وقضية واحدة ، وأن دين الله  
 واحد على مدار الأجيال ، وإن اختلفت الأقوام في المكان والزمان والأحوال .

ولكن التوزيع أمر مقصود كذلك ! لأن مراد هذا الكتاب سبحانه يعلم طبيعة المحلوق  
 الشرى ، ورعيه في التوزيع !

ومن ثم نجمع لفصه بين التكرار المطلوب والتوزيع المرغوب ، فتوحد انصيعة التي تنطق  
 بها الرسل وتنوع ما يأتي بعدها من الحديث !  
 حد سورة الأعراف



« لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » [ ٥٩ ] .

« إلى عاد أحاهم هود قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . أفلا تتقون ؟ » [ ٦٥ ] .

« وإلى ثمود أحاهم صالحًا قال : يا قوم عبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم هذه باقة الله لكم آية فذروها تاكل في أرض الله ولا تمسوها بمسره فبأحدكم عذاب اليم » [ ٧٣ ]

« وإلى مدائن أحاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين » [ ٨٥ ]

فتتوحد الدعوة في كل مرة ويختلف الأسلوب !

وكذلك الأمر في رد « الملأ » على كل رسول .

فمع نوح : « قال الملأ من قومه : إن لراك في ضلال مبين » [ ٦٠ ]

ومع هود : « قال الملأ للذين كفروا من قومه : إن لراك في سفاهة وإن لظنك من الكاذبين » [ ٦٦ ]

ومع صالح : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ، لمن آمن منهم أنعلمون أن صالحًا مرسل من ربه ! » [ ٧٥ ] .

ومع شعيب : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه : مخرجتك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا » [ ٨٨ ] .

فيترصد موقف التكذيب في كل مرة ويتنوع أسلوب التكذيب !

وكذلك في التعقيب على كل قصة :

فمع نوح : « فكذبوه فأنجياه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوماً عاصين » [ ٦٤ ] .

ومع هود : « فأنجياه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين » [ ٦٤ ]

ومع صالح : « فأحدثهم الرحمة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . فنولى عنهم وقال : يا قوم لقد أنزلتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الماصحين » [ ٧٨ - ٧٩ ]

ومع شعيب \* فأحدثهم أنرجفه فأصبحوا في دهرهم حائمين الذين كذبوا شعيباً كأن لم يعصوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين فتوى عنهم وقال يا قوم لقد أسعيتكم رسائل ربى وبصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ٨٩ [ ٩١ - ٩٢ ]  
فيتوحد التدمير في كل مرة ، ويسوع الأسلوب ا  
ومثل هذا تمجده في سورة هود وفي سورة الشعراء .

غير أن هناك تنويعاً آخر بين السور الثلاث أدق وألطف ا  
فمع أن المصنوع هي هي في السور الثلاث ، بما يبدو منه لأول وهمة أنها مكررة فيها حيث ، إلا أنها تجيء في كل مرة بصيغة مختلفة تماماً - في مجموعها - عن صورتها في كل من السورتين الأخرتين ذلك أن كل سورة تركز على جانب معين ، وتعرض ذات القصة لهدف مختلف ا ومع أن التوحيد قائم في هكل القصة في السور جميعاً الرسول - كل رسول - يأتي بكلمة الواحدة والقضية الواحدة ، ولألا - كل ملأ في كل جاهلية - يكتنزون الرسول ويصدون عنه ويتوعدونه ، وفي النهاية يسحق الله رسوله والذين آمنوا معه ويدمر على الكافرين مع وجود هذا التوحيد المقصود في هكل القصة ، عدم في السور الثلاث ، إلا أن « المقادير » المأخوذة من كل موضوع تختلف في كل سورة عن الأخرى باختلاف الهدف من إيرادها ، ونقطة التركيز فيها ا

فقد جاء عن هدف إيراد القصص في سورة الأعراف قوله تعالى \* تلك القرى نقص عنيك من أسئتها ، ولقد جاءهم رسلهم بالآيات فما كانوا ليؤمنوا ، كذبوا من قبل ، كذلك يطعم الله على قلوب الكافرين ، وما وحدنا لأكثرهم من عهد وإن وحدنا أكثرهم فناسقين \* [ ١٠١ - ١٠٢ ]

وجاء في سورة هود \* تلك من أساء ألعاب بوحبها إلكت ، وما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن انعاقبة للمتقين \* [ ٤٩ ]

وكذلك \* ذلك من آباء القرى نقصه عنيك ، عنها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أعنت عنهم آهتهم التي يدعون من دون الله من شيء ، ما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير تنبيي . وكذلك أحد ربك إذا أحد القرى وهي ظنة إن أحده أليم شديد \* [ ١٠٠ - ١٠٢ ] .

وكذلك \* وكلاً نقص عليك من آباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين \* [ ١٢٠ ]

أم في سورة لشعراء فقد كان التركيز على « الآية » المتضمنة في كل قصة إن في ذلك  
آية وما كان أكثرهم مؤمنين »

وتنوعاً لاختلاف الهدف من إيراد القصة اختلف طولها « ومقاديرها » واحتلفت كذلك  
ملاحظتها ، وإن كانت قصة واحدة في النهاية !

ففي الأعراف تأتي لقصة مختصرة بالنسبة إلى سورة هود ، وبأثنى التركيز أكثر على دعوة  
الرسول ، فمفضل الحديث فيها ، أما التكذيب فأتى محملاً لأن المقصود في القصة أن  
المكذبين يصرون على تكذيبهم مهما جاء به الرسول من بينات فتعصن السنان التي يأتي بها  
الرسول ، ويعرض موقف التكذيب جامداً مصرّاً لا حركة فيه !

وفي هود - بالنسبة للأعراف - متعددة من إيراد لقصة - تأتي القصة بتفصيل طويل  
ملحوظ [ تستغرق مجموعة القصص أربع صفحات في سورة الأعراف ، وسبع صفحات في  
سورة هود ] ، لأن التفصيل أدعى إلى إثبات صحة لوصي « ما كنت تعلمها أنت ولا قومك  
من قبل هذا » ويأتي التفصيل في دعوة الرسل وفي ردود أقوامهم عليهم سواء ، ويدور  
العراق المدحوظ فيها وبين سورة الأعراف في هذه السقطة ، لأن بيان طوبى المراء والمجادله  
والنصد والتكذيب في أقوام من سبق من الرسل أدعى إلى شبيب قلب الرسول - صلى الله عليه  
وسلم - ومؤمنين ، حين يرون أن موقف قريش ليس بدعاً من الجاهليات السابقة « وكلاً  
نقص عنك من أساء الرسل ما شب به فؤادك ، وحاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى  
لمؤمنين » ثم يأتي تركيز أشد على مهية المكذبين ، أكثر تفصيلاً مما جاء في سورة  
الأعراف ، لأن ذلك أدعى إلى بيان أحد ربك لغيري وهي طينة « إن أحده أليم شديد »

أم في سورة شعراء فتأتي القصة مختصرة عنه الاختصار [ تستغرق ثلاث صفحات ،  
ويمر الساق مرّاً سريعاً على تفصيلاتها ، في فقرات قصار كأبي هي ونعت سريرة عبد لمعام  
الدررة فيها ، لأن المقصود في النهاية هو عرض « الآية » المتضمنة في كل قصة ، ويست  
تفصيلات القصة مطلوبه ها : لأب لا تصيب كثيراً إلى « الآية » وإن تكفى اللغات  
السريعة المؤثرة التأثير !

وقد كان يحرك في ذلك قصة نوح في السور الثلاث فقد استغرقت في سورة الأعراف  
سبعة أسطر تحوى سباً وسبعين كلمة ، واستغرقت في سورة هود صفحتين كاملتين وبسعة  
أسطر ! واستغرقت في سورة لشعراء عشرة أسطر تحوى واحدة وسبعين كلمة منها سبع  
وعشرون كلمة استغرقتها النص المكرر الذي يأتي على لسان كل رسول . .

ولكن بأحد مثالا واحداً آخر زياده في البيان

« وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإن لنطشك من الكاذبين قال يا قوم ليس بي سفاهة ، ولكي رسول من رب العالمين ، أنذركم رسالات ربّي وأنا لكم ناصر أمين . أو عجزتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ليس بكم ليس بكم ؟ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد نوح وركبكم في الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تهتدون . قالوا أحسب بعد الله وحده ويدرأه كان يعد أنبأ ؟ فأتى بها بعداً إن كذب من لصافين ! قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وعصب . أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباءكم وما بُرئ الله بها من سلطان ؟ فانتظروا إني معكم من منتظرين ! فأجابه والذين معه برهة من ، وقطعوا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين » [الأعراف ٦٥-٧٢] .

« وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مهترون يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أخرى إلا على اندي فطري أفلا تعملون ؟ يا قوم استمعوا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويردكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين قالوا يا هود ما جئنا ببينة وما نحن بشركي آتت عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين ! إن نقول إلا اعتراك بعض آتت بسوء ! قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه ، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربّي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بصيرتها ، إن ربّي على صراط مستقيم وإن ترلو فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم . ويستحلف ربّي قوماً غيركم ولا تضروهم شيئاً ، إن ربّي على كل شيء حفيظ . ولما جاء أمرنا بجمعنا هوداً والذين آمنوا معه برهة من عذاب عظيم . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عبيد . وأتبع في هذه ألدب لعنة ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ، ألا بعداً لعاد قوم هود ! » [هود : ٥٠-٦٠]

« كذبت عاد المرسلين ، إذ دلهم أخوهم هود ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أخرى إلا على رب العالمين أتسون بكل ربح أية تعبدون ؟ وتتحدون مصانع لعلكم تهتدون ؟ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ؟ فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذي أمركم بما تعلمون ، أمركم بأنعم وسين ، وجنتات وميون ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ! إن هذا إلا خلق الأولين ! وما نحن بمعتدين ! فكذبوه فأهلكناهم ! » في ذلك آية وما كان

أكثرهم مؤمنين ، ورب ربك هو العزير الرحيم \* [ الشعراء ١٢٣ - ١٤٠ ]

ووضح - فيما اعتقد - كيف تختلف سمات القصة الواحدة وملاحظاتها الذاتية ما بين سورة وسورة ، وإن كان الهيكل العام بلغته واحداً في السور الثلاث . ويكسر العبرة ليست بهيكل لعام ، إنما بطريقة السرد ، وأهداف من السرد ، ومواضع التركيب !

\* \* \*

وقصة موسى وفرعون ، أو قصة بني إسرائيل عامة ، من أكثر القصص تكراراً في القرآن كله . وكان ذلك لهدفين :

الأول هو ذكر ما كان يلقى به إسرائيل من عذاب في ظل فرعون وصبرهم على العذاب تطويل الأمل . تأسية للمسلمين في مكة ، حيث كانوا يلقون العذاب والاضطهاد . ويحل في هذا الهدف كذلك - وإن كانت له بسمته الخاصة - موقف السحرة حين آمنوا ، مهددهم فرعون بالتقتيل والتعذيب والصلب في جذوع النخل ، فاستعصموا بالإيمان ، وارتفعت أرواحهم فوق كل ما يمتك فرعون من حيوات ، واستسلموا للمصير البشع الذي مهددهم به فرعون دون أن يعرطوا في عقبتهم ، بل ثوب أن يداوروا بها ويداروها في داخل أنفسهم . وبما أعلوها عالية ، وتخذوا بها كل سلطان الأرض لحائر ، رضاء بنعمة الإسلام ، ربما عند الله من جزاء . وكان تكرار هذا المشهد للمسلمين في محنتهم مما يشجعهم على احتمال الأذى ، ويرتفع بأرواحهم فوق انكسار الذي تكبده قريش . فاستعصموا بالإيمان ، ويستعصمون بالعقيدة ، مطمئنين إلى رضاء الله وجزاء الله . .

والثاني هو أن بني إسرائيل هم الأمة التي قامت حياتها - قبل المسلمين - على كتاب مرسل من عند الله . ثم لم يستقيموا على الكتاب اسرلاً بل ظلوا يحرفون عنه حتى كادوا يخرجون تماماً من صده <sup>١</sup> فحلف من بعدهم حنفاً ورثوا الكتاب ، يأخذون عرص هذه الأدنى ويقولون سيعمر لنا <sup>٢</sup> وإن يأثمهم عرص مثله يأخذوه <sup>٣</sup> أم يؤحد عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا ما فيه <sup>٤</sup> والدار الآخرة خير للذين يتقون <sup>٥</sup> أعلا تعقلون <sup>٦</sup> <sup>(١)</sup> .

لذلك كثر ورود قصة بني إسرائيل في العهد المكّي ثم المدني كذلك ، تحديراً للمؤمنين الذين تقوم حياتهم على كتاب مرسل من عند الله - أن يحرفوا كما انحرف بنو إسرائيل ويتهاوبوا في كتبهم لقاء عرص الحياة الدنيى كما تهاوت بنو إسرائيل !

(١) سورة الأعراف ١٦٩

لهذا ودك - بالإضافة إلى الأهداف العامة للقصص القرآني - كان ورود قصة بني إسرائيل مكرراً في القرآن ومع ذلك فلا توجد صورة مكررة بمعنى التماثل مع أية صورة أخرى في أثناء هذا القصص المتكرر كله !

وربما كان أقرب « مقطعين » إلى التماثل هم المقطعان المتشابهان في سورة الأعراف وسورة الشعراء ، والمقطعان المتشابهان في سورة النمل وسورة القصص - وعصلاً على كون المقطعين المتشابهين في كل حالة يردان في تسلسل قصصى مختلف تماماً ، فهما هما في ذاتهما متشابهان فقط وليساً متماثلين ! لأن التماثل التام لا يحدث قط في القصص القرآني !

يندا لشانه في اسرد ما بين سورة الأعراف وسوره الشعراء على هذه النحو

« فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، وبرج يده فإذا هي بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فإذا بأمرؤ ؟ قالوا أرجه وأحاه وأرسل في الدائن حاشريين ، يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟ قال : نعم ! وإني لكم المقيمين . قالوا : يا موسى إما أن تلقى ويأمرنا أن نكون الملقين ، قال : ألقوا ! فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحى إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . ففسوهم ذلك وانقلبوا صاعرين . وألقى السحرة ساجدين ، قالوا أم رب العبادين ، رب موسى وهرون . قال فرعون مستم به قس أن أدن بكم ؟ إن هذا لمكر مكرتوه في المدينة لتخرجوا منها أهلها ، وسوف نجعلكم لأقطن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبكم أحعين . قالوا إننا إنا ربنا منقلبون . وما تنقم منا إلا أن أم تأيت ربنا لما جاءتنا . ربنا أفرج عبدك صيراً وتوف المسلمين » [ الأعراف ١١٧ - ١٢٦ ]

« فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، وبرج يده فإذا هي بيضاء للناظرين . قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فإذا بأمرؤ ؟ قالوا أرجه وأحاه وبعث في الدائن حاشريين ، يأتوك بكل ساحر عليم . فجمع السحرة ميقات يوم معلوم ، وقين للناس هل أنتم مجتمعون ، لعنا تتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ! فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟ قال : نعم ! وإني لكم إدين للمقربين . قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبلهم وعصيهم وقالوا لعزة فرعون إنا لحن الغالبون . فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون . فألقى السحرة ساجدين ،

قالوا أما ربوب العالمين ، رب موسى وهرون قال ، آمنت به قبل أن آذن لكم !<sup>١٩</sup> إنه لكبيركم الذي علمكم السحر لتسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصصكم أجعين ، قالوا لا صير ، إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يعصرنا ربنا حطايانا أن نك أول المؤمنين « [اشعراء : ٣٢-٥١] .

وبمراجعة النص تدور مروق واضحة تقع أحياناً في حرف واحد ، أو في لفظة واحدة ، ويقع أحياناً في حلل تأكيدها وقد أبرزنا بعض المروق التي قد لا يلحظها القارئ ، ولكم لم يبرر سائرهما لأنها واضحة الاختلاف ، وهذا - كما قدنا - فضلاً عن اختلاف السياقين ، فقد جاء المقطع الأول في سورة الأعراف في مقدمة قصة طويلة معصية عن بني إسرائيل في مصر ، وجاء بعدها قصة الآيات الأخرى التي أظهرها موسى لفرعون « فأرسلنا عبيهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ياب معصلات » ثم إغراق فرعون وجيشه ، ثم خروج بني إسرائيل من مصر ، ثم مواعدة الله لموسى ، وذلك الخيل به ، وتزيين الألواح عليه ، وعادة سي إسرائيل للعجل من بعده وعوده موسى غضباً آسفاً ، وأحده برأس أخيه ثم اختيار سبعين رجلاً لميقاب الله وأحد الرحمة هم وقصة السبب إلى أب قال ، « فخلق من بعدهم خلف ورثوا الكتاب . . . » .

أما في « لشعراء » فتنتهي القصة عند خروج بني إسرائيل و« غرق فرعون » ، وأن هذه الآية لمن أراد الآية .

ومن هنا يصح ذلك التشابه في المقطعين المتشابهين تشابهاً حقيقياً بالنسبة للموضوع كله ، فضلاً على كونه ليس ثنائياً أعني الإطلاق

وكذلك المقطعان المتقاربان في سورتي النمل وانقصص .

« يا موسى لأهلكه إنني آتيت ناراً سأتيكم منها بحر أو آتيكم بشهاب منس منكم تصطلون » « جاءه نودي أن بوراً من في النار ومن حولها ، وسبحان الله رب العالمين يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم وألق عصاك » « فلما رآها تنثر كأنها جبال منسرا وم يعقب . يا موسى لا تخف إني لا بحرف لدي المرسلون ، ولا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني عفو رحيم ، وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين » [النمل ٧-١٢]

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آتس من جانب الطور نارا قال لأهله امكنوا إني

آتست دبراً لعلی آتکم مها بحر أو جدوة من البار لعلکم تصطوبون ولما أتاهم نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالدين ، وأن آتق عصاك ، ولما رآها تتوكلأها حاد ول مدبراً وم يعقب يا موسى أقبل ولا تحف إنك من الأمنين أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذاتك يرهانان من بك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين [ القصص ٢٩ - ٣٢ ] وذلك فصلاً على اختلاف السيفيين في السرد فهي سورة السجل تبدأ لقصة من الآيات التي أوردناها وننتهي بعد آيتين اثنتين ، ذكر فيها تكذيب قوم فرعون وكيف كان عاقبتهم ، وفي سورة القصص تستمر القصة - التي بدأت قبل ذلك بكثير ، وذكرت مولد موسى وقصة إنشائه في اليم وعودته إلى أمه كي تقرر عيها ولا تحزن - ستمر فتذكر حداث فرعون له واستكباره هو وجوده في الأرض بعير الحق حتى إعرافهم في عشر آيات آخر بعد النص الذي أوردناه

وبلث هي أشد المواضع تشامها في قصص القرآن كله وقد رأيت بوصيحي أب تشابه ولا تتأثر مثل ثمار الجنة !



من أكثر موضوعات وروفا في نقرن الحديث عن آيات الله في الكون في معرض الحديث عن قصة الألوهية وفي السور لمكية بصمة خاصة ترد هذه الإشارات بكثرة ملحوظة قد توهم لأول وهلة بوجود التكرار بمعنى التماثل ! ومع ذلك فظاهرة التنوع - مع التكرار - ربما كانت أظهر في هذه الإشارات لكوية منها في انمصاص القرآن !

ويطول بنا الحديث لو مصيباً نتبع أشكال التنويع المختلفة التي يتبعها السياق القرآني في هذه الموضوعات (١)

ولكننا نكتفي بمثال واحد لعله يعيد - موضحه - عن مريد من الأمثلة في هذا المجال في سورتي « الأنعام » و « يس » حديث عن آيات الله في الكون ، في معرض الرد على المكذبين الذين يظلمون تريل به حسية ، ويعتقون بيمانهم على مرون هذه الآية « الموجودات » في لسورتين تكاد يكون وحدة الشمس والقمر وسجود الماء انبارل من السماء فيسب به الريح ، وخلق الإنسان من التواء ذكر وأنثى ومع ذلك فما أبعد الفرق

(١) راجع إل شئت كتاب « التصوير الفني في القرآن »



يس « الجو » الذي تمسده فيه هذه الآيات وتلك ، وما أشد تأثير هذا الجو في طريقة العرض في  
السياقين !

« إن الله فائق الحب والبر ، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ذلكم الله  
فأبى تؤفكون ؟ فخلق الأصباح وجعل الليل سكا ولشمس ولقمر حسنا ، ذلك تقدير  
العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات لدن والبحر ، قد فصلنا  
الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . قد فصلنا  
الأنات لقوم يفقهون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا  
منه حصرح نخرج منه حنا مراكب ، ومن النحل من طلعه قناب ذانية وجنت من أعاب  
والبريتون والمان مشتبها وعبر مثله . نظروا إلى ثمره إذا أثمر ويصع . إن في ذلكم لآيات  
لقوم يؤمنون » [ الأنعام : ٩٥ - ٩٩ ]

« وآية هم الأرض الميتة أحيانا وأخرجنا منها حنا فمنه يأكفون . وجعلنا فيها حنا من  
نحل وأعاب وفجر فيها من العيون ، يأكفوا من ثمره . وما عملته أيديهم - أفلا يشكرون ؟  
سبحان الذي خلق الأروح كلها مما تبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون ! وآية لهم  
الليل سلب من النهار فإذا هم مظلمون ! والشمس تجري لمستقر ها ، ذلك تقدير العزيز  
العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ! لا الشمس ينبغي لها أن تدرك  
القمر ولا الليل سبق النهار ، وكل في فلك مسجون » [ يس : ٣٣ - ٤٠ ] .

هل أحسست بالعرفق بين جو هذه الآيات وتلك ؟

عد إليها مرة أخرى وعاود تلاوتها

أرأيت إلى اسمعته المائدة النعيمة الخادية في آيات سورة الأنعام ، والسمعة الخاصة المبيعة

المتوحدة في سورة يس ؟ !

خذ أولا سورة يس !

« وجعل فيها جنتا من نجيل وأعشاب وفجرنا فيها من العيون »

« يأكفوا من ثمره - وما عملته أيديهم - أفلا يشكرون ؟ »

« سبحان الذي خلق الأروح كلها مما تبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون »

« وآية لهم الليل سلب من النهار فإذا هم مظلمون »

« والشمس تجري لمستقر ها . . . » .

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » .

« لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سبق النهار . وكل في هلك يسبحون »  
إن نحو في سورة يس « مشحون بالعصب على الكفار من أول السورة إلى آخرها ،  
وبالعبد والتائب والتذيد

« لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . يا جمعا في أعقابهم أعلا لا فهي إلى  
الأدقاب فهم مضمحون . وجعلنا من بين أسبهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشىهم فهم لا  
يبدرون » [ ٧-٩ ]

« يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . ألم يروا كم أهلك قبلهم  
من القرون أنهم إلههم لا يرجعون » وإن كل لما جميع لدينا محضرون » [ ٣٠-٣٢ ]  
« وآية هم أنا حملنا ذريتهم في الصلح لمشحون . وحملا هم من مثله . يركبون . وإن  
شأ يعرفهم فلا يصريح لهم ولا هم ينقدون » [ ٤١-٤٣ ] .  
« ف يظنون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ، فلا يستطيعون توصية ولا إلى  
أهلهم يرجعون » [ ٤٩-٥٠ ]

« وامضوا انيؤم أيها المجرمون ! ألم أعهد إليكم يا بني آدم لا تعدوا الشيطان به لكم عدو  
مبين ؟ وأن اعدوني . هذا صراط مستقيم ؟ ولقد أصل منكم حلا كثيرا فلم تكونوا  
تعقلون ؟ هذه جهنم انى كنتم توعدون . أصلوها انيؤم بها كنتم تكفرون . اليوم نحتم على  
أنواهم ، ونكسما أيديهم وشهد أرجلهم بها كنز يكسبون . ولو شاء لطمسا على أعينهم  
فاستقوا الصراط فأنى يصرون ! ولو شاء لمسخهم على مكنتهم فما استطاعوا مصب ولا  
يرجعون » [ ٥٩-٦٧ ] .

وفي هذا الحو العاصب الشديد العصب ترد الآيات الكوبية ردًا على المكدين . وآية  
هم . . وآية هم . . وآية لهم . .

ولأنها نجي في جو مشحون بالعصب والعنف فهي تأخذ نفس الحو الذى ترد فيه !  
فانعمون فحربها . بها في حفظ التعجب من إيجاء العنف . والنسبة إلى أن ثمر من عند الله  
وبس من عمل أيديهم يأتي حادًا عيقًا في الآية « لأكلا من ثمره . وما عمته أيديهم »  
ثم يأتي التعقيب حادًا عيقًا كذلك : « أفلا يشكرون ؟ ! » والأزواج مما تبت الأرض ومن  
أنفسهم « وما لا يعلمون » . ويبدو من السياق أنه لا توجد أية إمكانية لهم ليخرجوا من  
جهنم هذا و « يعلمون » شئت مما لا يعلمون ! إنما تلقى « بما لا يعلمون » في وجعهم  
كالقديمة مثبتة عليهم جهنم فحسب ، دون رغبة في تعليمهم ! والليل يسلح سلاحًا من

« النهار » يبدى في جميع المواضع الأخرى « يولح الليل في النهار ويولح النهار في الليل »  
للدلالة على تلك الحركة الوثيدة المتدحلة ! أب ها هي عملية سلاح حادة عيفة يتحها  
الظلام معاجاً ! « فإذا هم مظلّمون ! » والشمس في حالة حركة عيفة « تجري » والقمر يظل  
حتى تكون آخر صورة له هي المرحون القديم الكليح الياس الذي لا يبص بالحياة !  
والشمس والقمر في سباق لا يسفى أب يدرك فيه أحدهم الآخر وكذلك الليل والنهار  
سباق يوحى بسجود ولا يبصر بالأمل لأنه لا يدرك عدته ! تلك هي الآيات الكونية  
في سورة يس ، فكيف هي في سورة الأنعام ؟!

إب وديعه هادنه لطيفه ، لا شد فيها ولا عنف ولا صحيح !

إن الحديث موجه للمكدين نعم ، ولكنه موجه كذلك للمؤمنين ، وهذا أثره الملحوظ  
في « تلطيف » نحو وجعه أقرب إلى التعسم والهدية منه إلى التأييب والتديد .  
ربما كانت أعنف لفظة في السياق كله هي كلمة « فائق » « إن الله فائق الحب  
ولوى » « فائق الإصباح » ولكن أين هذه من التصحير والسلاح ، ونحو المشدود  
هناك ؟

ثم إن فلق الحب والنوى ، وفلق الإصباح عصيات هينة لطيفة حاصه وأب تتم في بطة  
شديد وتدرج ثم انظر إلى « وجعل الليل سكناً » وكم توحى للنفس بالسكينة وهدوء  
والشمس والقمر هنا « حسان » لا يجرى بينهما ذلك السباق المجهد الذي يجرى هناك  
والبحر « لتهندوا » هـ ونحو العام نحو هدابة في لطيفات أ ثم التعبير عن التزويج  
« المستقر » في رحم الأشي و « المستودع » في صلب الذكر « انظر كم يوحى إليك لفص  
المستقر والمستودع بالسكينة والاستقرار ! ثم هذه اللوحة البديعة من أسباب « فأحرق مه  
حصراً » « رقيقة حصر توحى بالطراوة من جهة ، وهي مريحة للأعصاب كذلك من جهة  
أخرى ، فالجس الشرى يحب الخصرة ويرتاح إليها » والبحر من طلعها قنول « دانية »  
توحى بالرخة المتزلة في ذلك الدنو وجبات الأعصاب والريثون والرمم

إبها نوحة رائعة من الخصرة والبداه والعدونة والظل لطدل والبسر البادى في كل  
شيء . ولأب « نوحة » معروضة للنظر بسائر الوجداني « ما حال » لذلك لا يقو  
هـ « كدو من ثمره » كي يقول في موضع تالي من السورة ، « انظروا إلى ثمره إذا  
أثمر ويبعه » نعم ، « انظروا » . هـ محال للنظر ، وللاستمتاع بالحال في حل لايمان  
بالله : « إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون »

أرأيت إلى عارق الخو بن السورتين كيف كان أثره في طريقه عرض الآيات الكوبية المتشابهة  
هه وهناك ١٩

إبه هكذا التوبيع في القرآن . . الذي ينجيل للناس أنه تكرر !

\* \* \*

ومشاهد القيامة كذلك من أكثر الموضوعات تكررًا في القرآن ، وفي لسور الملكية نصفه  
خاصة

وهو يحتاج إلى حديث مفصل عنها بعد لنجاح انتى عرضها من قبل من القصة وآيات  
الله في الكون <sup>(١)</sup> . ولكننا نقرر حقيقة عامة بشأنها ، أنه لا يوجد مشهذان اثنان من مشاهد  
القيامة في القرآن كله مكررين بمعنى التكرار ! إنما تجري عليها قاعدة التشابه دون التماثل ،  
وقاعدة التوبيع

وسرد فقط بمرادجين من مشاهد القيامة يتبدى فيها ذلك التوبيع .

« إِدْ، وقمت واقعة . نس لوقعتها كدرة حافضة رافعة . إِدْ رَحَب الأرض رجاء ،  
وسنت بحال مت ، فكانت هاء متاً . وكنتم أرواحاً ثلاثة . فأصحاب اليمين ما  
أصحاب اليمين ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة . والصانفون الصانفون . أولئك  
المقربون ، في حبات لعيم . ثلة من الأولين وقليل من الآخرين . عن سرر موصوفة متكتين  
عبيها متفادين ، يطوف عبيهم ولدان مخلصون . ناكوب وأباريق وكأس من معين ، لا  
يصعدون عنها ولا سرفون ، وفاكهة مما يتحرون ، وخم طير مما يشهون ، وحرر عن ،  
كأمثال المؤلذ المكنون ، حرة بما كانوا يعملون . لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيلاً ، لا قيلاً  
سلاماً سلاماً . وأصحاب اليمين ، ما أصحاب اليمين ؟ في سدر مخضود ، وطلح مصبود ،  
وطل ممدود ، وهاء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرض مرفوعة . إن  
أنشأهم إنشاء ، محمد من أبكاراً ، عرباً أتراباً ، لأصحاب اليمين . ثلة من الأولين وثلة  
من الآخرين . وأصحاب الشمال ، ما أصحاب الشمال ؟ في سموم وحميم ، وطل من محموم ،  
لا بارد ولا كريم . إسم كانوا قبل ذلك مترعن . وكانو بصرون عن الحث العظيم . وكانوا  
يقولون . إإذا من وك تراثاً وعظمت أنا لمعوثون ؟ أو نأوا الأولوب ١٩ قل . إن الأولين  
والآخرين ، المجموعين إلى ميقاب يوم معوم . ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ، لا تكلون من

(١) راجع إن شئت « مشاهد القيامة في القرآن »

شجر من رقوم ، هائلون منها الطول ، مشاربون عليه من لحميم ، مشاربون شرب اھيم  
هذا برھم يوم الدين ا ۱ [ سورة الواقعة : ۱ - ۵۶ ]

» فإداعج في لصور صفحة واحدة ، ومملت الأرض والخيال مدكنا ذكة واحدة ، يومئذ  
وقعت الواقعة ، واستقت لسياء فهي يومئذ واهمة والمثل على أوحائها ، ومحمل عرش  
ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . فأما من أوتى كتابه بمحبته  
فيقول هاؤم اقرأو كتابيه ! يس ظلت أتى ملاقي حسبيه فهو في عيشة رضية ، في حنة  
عالية ، قلوبهم دائية ، كنوا وشربو هيثباها أسلفتم في الأيام الخالية . وأما من أوتى كتابه  
بشئاله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه ! ولم أدر ما حسبيه ! يا ليتها كانت لقضية ! ما أعمى  
عنى عاليه ! هلك على سلطانيه ! حدوده معلوه ! ثم بحجيم صلوه ! ثم في سلسلة درعه  
سمرن درعا وسنكوه ! إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحصر على طعام لمسكين ،  
فليس له اليوم ما صاحبهم ، وطعام إلا من عسبن ، لا يأكده إلا الخاطئون » [ سورة الحاقة  
۱۳ - ۳۷ ] .



إن التوزيع لا التكرار هو الظاهرة الحقيقية في القرآن  
وإنه لمن إعجاز هذا الكتاب أن يعرض المصوغات التي يكرر ذكرها للتذكير والتربية  
والتوجيه ، بهذا القدر المعجز من التوزيع بحيث لا تتكرر صورتان متماثلتان أبداً في القرآن  
كنه ، على كثرة المواضع التي يرد فيها كل موضوع !  
وإن في ذلك لحكمة بالغة بالنسبة لكتاب نزل لكي يقرأ على الدوام ، ولكي تكون تلاوته  
الدائمة جزءاً من العبادة التي يقترب بها العباد إلى الله !

وإن التوزيع ذاته لجمال . . فوق أنه يلعب على النفس باللال !  
» لله برل أحسن الحديث كتاباً مشابهاً ، مثالي تقشعر منه جلود الدين يخشون ربهم ، ثم  
يلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما به  
من هدا . ( ۱ )

## لقُرآن في العهد المديني

كانت الفترة السابعة - في مكة - فترة تربية وإعداد .

تربية بالعقيدة ، وإعداد لحمل الأمانة الكبرى التي لم تحملها أمة أخرى من قبل . وهي تحقيق مسيح الله في واقع لأرض ، والقيام في الوقت ذاته بعبادة البشرية قسدة واشددة مهديّة .  
 « الله » كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله<sup>(١)</sup> .  
 « وكذلك جعلكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »<sup>(٢)</sup>

هنا لتربية فكانت قد آتت ثمارها بالفعل في نفوس الفئة محدبة التي ردها على عبده رسول الله صلى الله عليه وسلم - خلال ثلاثة عشر عامًا في مكة .

كانت « لا إله إلا الله » قد نعمت في نفوسهم حتى أصبحت واقعهم الذي يعيشونه ، ورادهم الذي ينقوتون به . وعرفوا - إلى درجة اليقين - معنى الألوهية الحق ، ومعنى العبودية المحقة لله .

لم تعد لأرباب الرأفة تخطر في مشاعرهم ، أو تمارس سلطتها عليهم .  
 لا الأصنام التي معها اشركوا عبادة حسية ، فيسجدون لها ويقدمون القرابين إليها ولا « الفلسفة » التي يقوون عنها شاعرهم :

وهي أنا إلا من « عرية » إن عوت عوت ، وإن ترشد « عرية » أرشد .  
 ولا عرف الأبد والأحد الذي يسمون به من دون الله ، ويعطيونه في محالفة عن أمر الله « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أمر الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عندنا أبائنا ! »<sup>(٣)</sup>  
 ولا الهوى لدى يتحدونه إله فيمهمهم ويصمهم عن الحق « أرايت من اتخذ إلهه هواه ! »<sup>(٤)</sup>

(٢) سورة البقرة : ٤٣ .

(٤) سورة النمران ٤٣ .

(١) سورة آل عمران ١١٠ .

(٣) سورة لقمان ٢١ .

إني هو إله واحد ، لا شريك له في الخلق ، ولا شريك له في الأمر « ألا له الخلق والأمر »<sup>(١)</sup>

وهذا الإله الواحد تتحده بموسمهم بالعبادة والطاعة ، وبالرجاء والخشبة ، ويتمثلون صفاته التي عرفهم بها نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، فتتعمق هذه الصفات في نفوسهم وتخييط بكل حساب ، فتشكل مشاعرهم نحو الله وتحدد لها ، فإذا عرفوا أنه « هو الرزق ذو القوة المتين » لم يتوقعوا الرزق من غيره ، ولم يتطلعوا إلى غيره ليرزقهم وإذا عرفوا أنه هو الصار السافع ، وهو المحيي المميت ، ولم تعد في قلوبهم خشية من غيره أن يضرهم ، ولا تطمع إلى غيره أن ينفعهم ، ثم تعد قريش أو غيرها من أهل الأرض حيثما هي التي تمليك أمرهم ، أو تملك شئ من أمرهم إنما هو الله وما دام هو الله وحده لا شريك له - فهو إذن الذي يُعد ، وهو إذن الذي يطاع وتصبح عبادته وطاعته - في حسهم - هي الحياة تصح هي لواقع الذي يبارسونه ، وهي عشاعر التي تحيى في حواظهم ، وهي المكر الذي يحطر على عقولهم وهي الأمر الذي يستحق أن يعاش حقاً ، وتعيش من أحله الحياة في هذه الأرض

وتتفسح الحياة في حسهم حين تصح هي عبادة الله .

لقد كانت من قبل شيئاً نافهاً مزوياً لا يستحق أن يعاش .

كانت خواء لا يملؤه شيء في حقيقة . .

محلس للهو وانشرت من جهة ، واخرت والعارات في إطار الخمية الجاهلية من جهة أخرى :

ألا أيهد الراجرى أحضر الوعى وأن أشهد للذات هل أنت مخلدى ١٩

ثم ان وقع القريب المحصور فيما تدركه احواس ، حتى في لعبادة لمشوكة ، فصلاً عن مصالح الأرض اللاصقة بالتراب !

ومن هناك رفعتهم « لا إله إلا الله »

رفعتهم من واقع الحس القريب في العبادة إلى الله الذي لا تدركه لأبصار

ورفعهم من واقع الأرض المحدود إلى واقع الصورة متكاملة التي يكملها اليوم الآخر الذي لا تحده الحدود

ورفعتهم من مصالح الأرض القرية ومخالص اللهو وعبادات الجاهلية إلى أن يعيشوا «بالعقيدة» يعطوها فكرهم ومشاعرهم وجهدهم ، ويحتملون في سبيلها الأذى واخرمان والتشريد والتعذيب ، راضية بنومهم بلا إله إلا الله<sup>١</sup>

لقد كنو في الحقيقة يعيشون مولدًا جديدًا بلا إله إلا الله لم يكونو يعرفونه من قبل ، عندما عرفوه وتذوقوه ، أصبح بالنسبة إليهم هو الحياة

\* \* \*

تلك كانت فترة التربية التي عاشوها في مكة ، يطوف بهم القرآن يات الله في الكون في الدقة المعجزة ولصحة المعجزة في الحياة والموت في عجائب الرزق في تدبير الكون . في علم الله الشامل للغيب . . في قدرته التي لا تحد في معجزاته التي أيد بها أنبياءه . في ملأه للكفار ثم تدميره عندهم في مشاهد القيامة ببعيمها وعددها وحشرها وحسابها في قصة آدم ولشيطان في الجن والملائكة في أخلاقيات لا إله إلا الله أو . . . . . يطوف بهم في حديث «العقيدة» وما يتصل به من موضوعات ومن خلال التربية بالعقيدة كان يتم الإعداد . . .

لقد كانت هذه الأمة - كما قلنا - تعدّ لحمل الأمانة الكبرى التي لم تحملها أمة من قبل فهل كان يمكن أن تعدّ في دؤب أن يعمق في قلوبهم معنى لا إله إلا الله ، ودؤب أن تترى على التجرد لله؟!

وكيف إذن تقوم بحمل الأمانة ، وهي أمانة ذات تكاليف في العيش والمان ، كما أنها ذات تكاليف في الفكر والعمل والشعور؟

وهل كان يمكن هذا - هل أن تترى تلك التربية المدة بلا إله إلا الله أن تنقى على مستواها الربيع ذلك حين تمكّن في الأرض؟

إن السلطان في لأرض يغرى بالطعنين ولقد أصرى بالطعنين أحياناً لا حصر لها من أحوال البشرية ! فمن أين كان يأتى هذه الأمة أن تقدم مبادئ الربيع في تحقيق العدل الراسى في الأرض لو لم تترث تلك التربية المدة بلا إله إلا الله؟

هل من أين هذا - كان - أن تحقق معنى «الأمة» ، وهو معنى ضخم لم يتحقق في واقع الأرض إلا على يدى هذه الأمة التي قامت على عقيدة في الله ، مرتطبة فيها قلوب البشر على هذه العقيدة ، فدانت الأجاس والسمات والشعوب والقنائل لسكون أمة وحدة لا مثيل لها من قبل ولا من بعد في تاريخ تلك «الأمة» الرائقة التي لثقت على النوب وحسن ، أو اللعة



والأرض ، أو « المصالح » الأرضية المشتركة التي تمثل الصراع في حقيقة أكثر مما تمثل الوفاق والمقاء !

ومن أين ها - كب - أن تعطى تلك المبادئ لمريضة من الوفاء بالعهد ، ومن الصدق ، ومن معاملة الأمم لفتوحة معاملة « أخلاقية » لا تقوم على السب والنهب والسيطرة والتحكم ، إنى تقوم على إعطاء للمودع لمحبب الذي يقود - في رفق - إلى لتحلل عن المحاملية الوثنية والمحول في طاعة الله

ومن أين لها - باختصار - أن تكتب ذلك التاريخ لهذا الذي كتته في واقع الأرض في كل مجال من مجالات الحياة ، في سياسة المال والحكم ، في بطولات الحرب والسلام ، في إحصاءة ولعنهم ، في الأسبوح السريع في الأرض على غير مثال مسروق من قبل ولا ملحوف ١٤  
ألا إنها العقيدة هي الركيزة التي قدم عليها ذلك السء كله ، وما كان يتأتى - من غيرها - أن يقرم

\*\*\*

وحيث علم الله من قلوب هذه الفئة التي ترمت بلا إله إلا الله على عيسى رسول الله صلى الله عليه وسلم - حين علم منها أنها تجردت لله وأخلصت له ، وأصبح الله ورسوله أحب إليها مما سواهم - عندئذ نقلها لنقله الثانية اهتانة بتضم دورها المطلوب  
كتب لنقله الأولى بقية العقيدة - من الآداب المتفرقة إلى لا إله إلا الله  
ولنقله الثانية كانت من فترة الانتلاء والتمحص ، من فترة الاستضعاف والشريد ، إلى التمكن في الأرض والاستحلاف

وكما كان القرآن - ونعاسم الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو أداة النقلة الأولى من الكفر إلى الإيمان ، فكذلك كان هو أداة النقلة الثانية إلى التمكن والاستحلاف فكيف كان الكتاب هو الموضع والمربي في فترة التمكن ؟ وفي أي الموضوعات كان يحدث القرآن ؟

\*\*\*

تحدث السور المدنية عن العقيدة كما أشرنا من قبل ولكن حديث العقيدة ها لا يأخذ المساحة التي كان يأخذها في السور لكية لأنه هناك كان لبأسيس ، وهو ه للتذكير لقد تأسست العقيدة بالفعل في هذه انثوية لعقيدية في مكة ، واليوم يصرح مسلم ودوله مسيئة في المدينة ، تحتاج إلى تخطيطات وتشريعات ، وتحتاج إلى جهاد لحمايتها من أعدائها بادئ ذي بدء ، ثم نشر الإسلام في الأرض فيما بعد - ومن ثم يحتل هذان الموضوعان

أخديدان معظم المساحة في السور المدنية التنظيمات والشريعات ، والجهاد في سبيل الله . ولكن الذي يسترعى النظر أن حديث العقيدة لم ينقطع ليبدأ الحديث عن هذين الموضوعين بل استمر على ذات النمط المكثف . وإن كان في حيز أقل - فتحدث عن الألوهية ، واليوم لآخر ، والملائكة والكتب واليدين والقدر حيره وشره ، ونصص الأسياء ، وقصه ادم والشيطان ، وأحلاقيات لا إله إلا الله . وتحدث في كل واحد من هذه الموضوعات عن مفرداته جميعاً كما كان يتحدث القرن في مكة فتحدث في الألوهية عن الكون بصحاته المعجزة ودقته المعجزة ، وعن الموت والحياة ، وعن حدوث الأحداث وحرياتها ، وعن نصعب الشرى في مقابل القدرة التي لا يعجزها شيء ، وعن علم العبد وتحدث في اليوم الآخر عن العث والحساب والثواب والعقاب الح . الح .

كما أن هناك ما يسرعى النظر أكثر من ذلك أن الموضوعين الحديدين اللذين استعرق أكبر مساحة من السور المدنية ، وهم التشريعات والتنظيمات ، وجهاد في سبيل الله ، لم يبقا كموضوعين قائمين بذاتهما ، وبما عولجا من خلال العقيدة ، وانشاقاً منها !! وهما هو لعصم الأهم في الموضوع كله ! فليس في هذا الدين عقيدة منفصلة وتشريعات وتنظيمات منفصلة ! ولا عبادات منفصلة ومعاملات منفصلة ! «إني كله وحدة ، وكله عبادة» بالمعنى الشامل لعبادة ، الذي تنصصه الآية «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»<sup>(١)</sup> ونفسه الآية «قل . إن صلاتي وسكوتي ، وبخايتي ونماتي لله رب العالمين»<sup>(٢)</sup>

وقد يكون اتصال الجهاد في سبيل الله بالعقيدة أمراً طبيعياً في حسن كثير من الناس لا يسترعى الانتباه ولكن اتصال التشريعات والتنظيمات بالعقيدة ، بل بشاقها منها ، هو لدى يسترعى الانتباه حقاً ويحتاج إلى شيء من البيان

لقد درجا في أيام الأخيرة . وبسبب العدوى الوافدة إليها من العرب - أن نتحدث عن الإسلام كنظام نظام سياسي واقتصادي واجتماعي الح ولا شك أن في الإسلام تنظيمات سياسية واقتصادية واجتماعية وتربوية وأحلامية الح ولكن الحديث عن أي تنظيم أو نظام إسلامي بمعزل عن العقيدة إنما يفقده روحه ، ويجوله كأي نظام آخر إلى نظام تقوم عليه «الدولة» وتحرسه تنظيماتها ولا ريادة ! وليس الأمر كذلك في الإسلام !

حقيقة ، ، العظم الإسلامية ، لسياسة أو الاقتصادية أو الاجتماعية الح متميزة في

(٢) سورة الأنعام ١٦٢

(١) سورة البقرة ٥٦

داتها ، لأنها من صبح الله فهي حانية من عيوب انقصور بشرى ، واهوى البشرى ،  
ولمطرة البشرية الخثرنة ، التي ترى شيئاً وتعمل عن أشياء وترى مصلحة الخيل الواحد ولا  
ترى مصلحة كل الأحباب ، من ترى رواية واحدة من الشيء الواحد ولا ترى الروايات كلها  
مجموعة في آن . .

ولكن هذه المزية - على صحتها - ليست المزية الوحيدة في النظام الإسلامي  
والوقوف عنده ، تفكيراً أو تنقيداً ، يفقد النظام أهم خصائصه ، وهي قيامه على  
العقيدة وشاقفه منها . .

ولتقدير أهمية هذا الأمر ، اندى فقد أهمته في نظر كثير من « المثقفين » المحدثين بسبب  
تلك العلوى الوافدة من العرب ، نصرت أولاً مثلاً من الحاضر العربى مدرناً بالمواقع  
الإسلامى ، ثم يشير إلى حقيقة تاريخية هامة ذات دلالة لا تسعى أن تعيب عن الأدهان  
فأما المثال من الحاضر فهو مسألة الخمر . .

هى أمريك قانون يمنع السكر وهو لا يمنع شرب الخمر ولكنه يمنع السكر فقط ! ولا  
يمنعه اسعائاً من « روح انسانية » تقدر قيمه لكيان البشرى والمكانة الرفيعة التى خلقه  
الله عيبها لكن يقوم بمنحه الخلافة الراشدة في الأرض ، مما يتناق مع حالة الخمر و « الهروب »  
التي يسعى الشاربون إلى الوصول إليها . كلا ! إن يمنع لأسباب مادية اقتصادية تحتة !  
والسكر يؤدي إلى زيادة حوادث الطريق ، يعطل الإنتاج !! ويحدث خسائر اقتصادية !!  
أما يكن الأمر فهناك « قانون » يمنع السكر ! وهناك « توعية » مستمرة ضد هذه الجريمة!  
وهناك « عقوبة » على ارتكابها !  
فماذا كانت النتيجة ؟!

فمنسألم هم . . فإن تقاديرهم السوية تجيب !  
ب جريمة اسكر حدة في الازدياد المستمر ، رغم وجود القانون والتوعية والعقوبة ! أما  
في لإسلام فقد حدث شيء آخر  
حين نزلت آية التحريم « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأصاب والأزلام رجس  
من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة  
والبعضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متبهون؟ »<sup>١</sup> أرسل  
الرسول - صلى الله عليه وسلم - مدياً سادى في طرقات المدينة أيها الناس ! ألا إن الخمر  
قد حرمت !

هذا هو كل الإجراء الذي تم !

فما كانت النتيجة ؟

كانت نتيجة أن من كان في بيته رق أو دن من الخمر أرائه . . . دونيا شرطة ولا تحقيق ولا محاكمة !

بل أكثر من ذلك ، وأعجب من ذلك أن من كان في فمه شرية من الخمر أرائها ! ولم يقل لنفسه أشرب هذه لأني فعلى بالعمل ، ثم امسح بعد ذلك ! ذلك أن الله هو الذي حرم الخمر ، وهو يتعامل مع الله !  
وذلك هو الفرق بين النظام لدى يقوم على لعقيدة ويستق منها ، والنظام الذي تقوم عليه « الدولة » وتحرسه نظلياتها .

وفي الإسلام دولة تقوم على النظام ، وتشريع يحرسه ولكن ذلك بس هو الإجراء الأول ، بل هو الإجراء الأخير « يرع الله بالسُّلطان ما لا يرع بالمرآن » والواقع الأول هو القرآن ، والواقع الأخير هو السلطان !

تلك شهادة الحاضر لعربي مقارناً بالواقع الإسلامي ، وهي عينة عن البيان أن شهادة التاريخ ، ذات الدلالة الهامة ، هي أن الإسلام قد بقى حتى اليوم في الأرض لأنه عقيدة ، ونظام قائم على عقيدة ، وليس لمجرد أنه نظام !  
لو أنه مجرد نظام نعمت بمجرد أن نعمت « الدولة » أو بالكثير حين ألبيت استوية !  
ولكنه بى حتى اليوم ، يبعث في حركات بعث متتالية متواصلة ، لأنه عقيدة لا لأنه نظام . . أو لأنه عقيدة يستق منها نظام . .

وقد حاول أعدؤه في الحروب الصليبية الأولى أن يحطموه كنظام ، أو كدولة حامية لنظام ولكنهم أدركوا أنهم فشلوا فعادوا في الحروب الصليبية الحديثة محاولون أن يحطموه كعقيدته ، ليضموا ألا يحرم لدولة ولا يقوم النظام ومن بين حرمهم له كعقيدته أن يقولوا للمسلمين - « المثقفين » منهم بصفة خاصة - إن العقيدة لم بعد ما عتار في هذا العصر لدى يعيش فيه ! وإن المهم بس هو العقيدة إنما هو النظام ! فإذا حلوا إلى شاطئهم دلوا إن الديمقراطية ليست نظاماً فحسب وإنما هي عقيدة ! وإن الشيوعية ليست نظاماً فحسب وإنما هي عقيدة [ أو « فلسفة » كما يقولون ! ] يحاولون أن يسدوا نظمهم الجاهلية بشيء يشبه العقيدة فإذا تحدثوا عن الإسلام أهملوا العقيدة وتحدثوا عن

«نظام» ثم فأنوا إن النظام الإسلامي غير قابل للتطبيق في القرن العشرين!

إنها الحرب بكل وسائل الحرب ولن ينظر من الأعداء غير الحرب والله هو الذي يقول:

«ولن نرضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم»<sup>(١)</sup>

«ولا يرادون يقانسونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطعوا»<sup>(٢)</sup>

إننا نحن يسعى أن نعرف دينا عن حقيقته، ولا ندقق حقائق دين من أعداء هذا الدين!

إن العقيدة في هذا الدين هي الدافع لكل شيء فيه هي الدافع لإقامة «النظام» بكل

مراياه الربانية التي لا توجد في أنظمة الشر وماهجهم وهي الدافع لحماية هذا النظام

الرباني من أعدائه الذين لا يرغبون في رؤيته قديماً في الأرض وهي الدافع لشر الدعوة،

ولجهاد لكي تكون كلمة الله هي العليا في كل الأرض وهي الدافع للتحقق بالأخلاق

الربانية التي يسعى أن يكون عليها المسلم وهي الدافع للتعمق وهي الدافع بعبارة لأرض

عن الطريقة الربانية المستبصرة الرشدة، التي تنشئ حضرة «إنسانية» شاملة، لا مادية ولا

حيوانية ولا آلية متجردة عن الإنسانية

وحيث تصعب العقيدة أو تنهار... بهار هذا كله

وحيث تكون العقيدة قوية فإنها هي تنشئ هذا كله كما حدث مع الأمة المسلمة الأولى،

التي لم تكن من قبل أمة عدم ولا حصار ولا نظام، فدفعها الإسلام إلى إنشاء أكثر حركه

عدمية وقتند، وما زال تراثها - وهو المصحح التجريبي - هو الذي تقوم عليه الحركة العلمية

اليوم، وإنشاء أكثر حركة حضرة وقتند، تندو إلى جوارها الحضرة مادية الجاهلية محاصرة

«الخاوية» من الروح بكسنة بشرية تعمل حيثاً على تدمير مقومات «الإنسان»، كما أشأت تلك

الأمة دوة مادية مرمية الأطراف تحكم كلها شريعة الله على مستوى الدولة «الأم»، لا كما

يصنع «الامبراطوريات» تحصى نفسها بشريعات لا تعدها هي بقية «المستحمرات»

لذلك يحرص القرآن على توسيع هذه العقيدة وتقويتها، وجعل كل السطيات

والشريعات والتوجيهات مرتبطة بـ ومستقة عنها، بقدر ما يحرص أعداء الإسلام على قتل

هذه العقيدة ويحسم معالمها!

\*\*\*

في السور المدنية نجد ربطاً كاملاً بين «العقيدة» و «الشريعة» يُلَمَّسُ النظر إليه لمّا

مباشراً كما تحمله الإشارات والتلميحات...

(٢) سورة البقرة ٢١٧

(١) سورة البقرة ١٢٠

يلفت النظر إليه دعاءً مباشرًا في مثل قوله تعالى « ومن لم يحكم بما أمر الله فأولئك هم الكافرون »<sup>(١)</sup> وقوله تعالى « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسمو تسلياً »<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى « ويقولون امم بالله ويا رسولنا أطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، فإن فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم خلق يأتوا إليه مدعين ، أى قلوبهم مرض أم آربوا أم يحادون أن يخيف الله عندهم ورسوله ؟ ! بل أولئك هم الضالون . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون »<sup>(٣)</sup>

ومفهوم هذه الآيات كلها أن المدلول الحقيقى للإيمان هو التحاكم إلى شريعة الله . وأن الإدعاء بالإيمان مع رفض التحاكم إلى شريعة الله أو عدم التمسك بها في دحل النفس هو ادعاء كاذب مردود على أصحابه . والمحت الحقيقى للإيمان هو تحاكم الشريعة والتحاكم إليها وبعبارة ذلك هى دعوى كدنة لا يؤخذ بها في الأرض ولا يؤخذ بها في السماء وأما الإشارات والإيجاءات فيها كان أبرزها الآية الثالثة من سورة حائدة ، فقد برلت أور مرة على هذه الصورة

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، والحقة والموقودة والمتردة والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيت ، وما دبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق . من اضطر في محمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » وكلها كما هو واضح تشريعات شأن ما يحل وما يحرم من اللحوم ، مع بيان حكم المصطر من شدة الجوع .

ثم برلت يعرفات في حجة الوداع تكمة الآية « اليوم بشئ الدين كهرو من دينكم فلا يحشونهم واحشون . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضت لكم الإسلام ديناً »

ولكن ادى يلفت النظر أن التكممة لم توضع في نهاية الآية بعدما كان نزل منها من قبل ، بل في وسطها !

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، والحقة والموقودة والمتردة والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيت ، وما دبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم

(١) سورة المائدة ٤٤ (٢) سورة النساء ٦٥ (٣) سورة النور ٤٧ / ٥١

فسق اليوم يس الدين كفروا من دينكم فلا تحشوهم واحشون اليوم اكملت لكم دينكم وانممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً . فمن اضطر في حمصة غير متحاب لآثم فإن الله غفور رحيم .

ووضع التكملة على هذه الصورة دو دلالة واضحة . هي صلة هذا الدين الذي اكمل ، والنعمة التي انممت ، والإسلام لدى رضى الله ديناً للمسلمين . صلة ذلك كله بالشرعة وأحكامها ، بحيث يوحى السياق أن الشرعة وأحكامها هي هذا الدين ، وهذه النعمة ، وذلك للإسلام !

وثبت مثل آخر من سورة النقرة دو دلالة مماثلة .

ومن الآية ٢٢٦ يتحدث السياق بصورة متصلة عن الطلاق وأحكامه « يدين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن داءوا فإن الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم . . . »

ويستمر لسياق في ذكر أحكام الطلاق حتى آية ٢٣٧ « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ولم يفرصتمهن فريضة فصبر ما فرصتم ، إلا أن يعصوا أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح ، وأن تعفو أقرب للتقوى ولا تنسوا الفصل بينكم ، إن الله يب تعملون بصير »  
وفحاة قبل أن تنتهى أحكام الطلاق تأتى هاتان الآيتان [ ٢٣٨ - ٢٣٩ ] : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين فإن عصتم فرحالاً أو ركبناً ، فإذا أمستم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون »

ثم يعود السياق بعدها مباشرة إلى إكمال أحكام الطلاق « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهن ، متعاً إلى الحول غير عرج ، فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم وللمطلقات منافع بال معروف حقاً على المتقين كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » [ ٢٤٠ - ٢٤٢ ] .

ولا يمكن أن يمر الإنسان بالسياق على هذا النحو دون أن يقف لبتكر في دلالة هذا الحديث عن الصلاة في وسط أحكام الطلاق ، وما بقيت إلا ثلاث آيات فقط وينهى الحديث المتصل من الطلاق الذي استغرق خمس عشرة آية

إن هناك قصداً ولا شك من وضع هاتين الآيتين في وسط تلك الآيات

إنه يجب أن هذا الدين لا فاصل فيه بين الشرعة والشريعة . كلاهما سواء كلامهم من هذا الدين !

والأمثلة كثيرة ، تحية يودد الله في أثناء عرض مباح من السور المدنية . ولكن هذين المثالين واضحان لدلالةهما أشرب إليه أن هذا الدين كن متكامل ، لا تنفصل فيه العقيدة عن الشريعة عن الشعيرة ، ولا يمكن أن يجتزأ بعض منه عن بعض ، لأن الله يبدد بالدين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض « أفنؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما حره من يفعل ذلك معكم إلا حرق في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون » (١)



هل هذا شيء « مهاجئ » في السور المدنية لم يكن موجوداً في السور المكية ، أو لم تكن له مقدمات هناك ؟

كلا ! لا شيء فيه جديد ، إلا التشريعات ذاتها والتطبيقات ، التي برلت لتظيم المجتمع الجديد والدولة الإسلامية الجديدة . أما المبدأ ذاته مبدأ أن لا إله إلا الله معها اتبع ما أمر الله ، وأن الإيمان هو الطاعة والاتباع . هذا لا جديد فيه على الإطلاق . بل كان ما نزل من القرآن في مكة كله تقريراً له وتوكيداً لحقيقته !

أليس في سورة الأنعام - المكية - هذه الآية « ولا تأكلوا مما يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق » ، وإب الشياطين يوحون إلى أوليائهم يبيحونكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » [ ١٢١ ] فيربط بين الشرك وبين لأكل مما يذكر اسم الله عليه ؟

أليس فيها كذلك هذه الآية « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى دافعوا بأساً قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن ننبئهم إلا الظن وإن أنتم إلا تخرون » [ ١٤٨ ] فيربط بين الشرك والتكذيب وبين التحريم بعبر إدب من الله ، أي حكم بغير ما أمر الله ؟

أليس في سورة الأعراف - المكية - هذه الآية « اتعوا ما أمر إنبيكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلاً ما تذكرون » [ ٣ ] فيربط بين اتباع الأولياء - أي الشرك - وبين عدم اتباع ما أمر الله ؟

أليس في سورة البحل المكية هذه الآية « وما من الذين أشركوا لرو شاء الله ما عدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرم من دونه من شيء ، كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على لرس إلا البلاغ المبين » [ ٣٥ ] فيفصل لشرك بأنه التوجه بشعائر لتعب لغير الله ، والتحريم بغير إذن من الله ، أي التشريع بغير شرع الله ؟



أليس في سورة لقمان الحكمة هذه الآية « وإذا فـيـن لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا - بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ما أَوْثَر الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير » [ ٢١ ] فجعل اتباع ما أنزل الله في جانب ، واتباع عرف الآباء والأجداد واتباع الشيطان وعذاب السعير كله في الجانب الآخر ؟

كلا ! ما حدث في العهد المدني إلا « تفصيل » ما أنزل الله - أم « اتباع » ما أنزل الله فقد كان معروفاً من قبل في العهد المكّي على أنه هو العقيدة ، وهو معنى لا إله إلا الله !  
فحين يقول في العهد المدني - وهو يصند الحديث عن التشريع السماوي - « ومن لم يحكم به أنزل الله فأولئك هم الكافرون » <sup>(١)</sup> وحين يقول « أمحكم الجاهلة يعنون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » <sup>(٢)</sup> وحين يقول « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً » <sup>(٣)</sup> لا تكون هذه حقائق جديدة شأت في العهد المدني ، إن هي تؤكد لقاعدة إيمانية أصيلة ، أسست ورسخت في العهد المكّي ، واستقرت في نفوس المؤمنين بحيث لم تعد في حاجة إلى بيان !

ومى تجدر الإشارة إليه أن هذه الآيات كلها برلت في حق المدافقين ، الذين يزعمون أنهم أمروا ثم يرفضون التحاكم إلى شريعة الله ! ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم أمروا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ؟ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً » <sup>(٤)</sup> .

أما المؤمنون فقد كان من المسلمات عندهم أن علقهم بشهادة لا إله إلا الله هو تعهد منهم باتباع ما أنزل الله ، والتحاكم إلى شريعة الله ، وإلا فهو العاقب إدب وليس الإسلام والمدافقون في الدرك الأسفل من النار !

\* \* \*

في السور المدونة - كما قلنا - نجد موضوعين جديدين هما التشريعات والتنظيمات ، والجهاد في سبيل الله .

فأما التشريعات والتنظيمات فقد شملت كل جوانب الحياة الإنسانية ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والتربوية ، والفنية ؛ وأما الجهاد في سبيل الله أو ما يستطيع أن

( ١ ) سورة المائدة ، ٤٤  
( ٢ ) سورة المائدة ، ٥٠  
( ٣ ) سورة النساء ، ٦٥  
( ٤ ) سورة النساء ، ٦٠ - ٦١

يطلق عليه « معركة لا إله إلا الله » - فقد شمل الحديث عنه . تحديد أعداء لا إله إلا الله ، الذين لا يربعون في إقامة حكم الله في الأرض ، ويتربصون الدوائر للقضاء على الإسلام ، وهم اليهود والنصارى والمشركون والمنافقون . ولأعمال التي يقومون بها لمحاولة تفريق الصف المسلم وتعويق الدعوة وحلحلة ماء المجتمع الإسلامي مع عدية خاصة بها تسميه اليوم « المحطط الصليبي الصهيوني » وخاصة الحانب اليهودي منه . كما تضمن بيان واجب المسلمين إزاء هذه المحططات الشريرة ، من عدم موالة اليهود والنصارى أو المشركين والمنافقين ، والحد من مؤامراتهم ضد الإسلام ، ثم قتال أهل الكتاب « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »<sup>(١)</sup> وتنان المشركين كفة . وشمل كذلك دعوة متكررة لعدم التزاحي في الجهاد ، والحد من فتنة ملتحق لأرضي لمحلل عن الجهاد ، كما شمل التحبيب المتكرر في الجهاد وبيان أثره في الدنيا والآخرة . .

وإن كما قد تحدثنا مفصلاً عن موضوعات السور المكية قبل ، عطاء بمادح منها ، فإننا نكتفي هنا بهذه الإشارة الموجزة إلى موضوعات السور المدنية لأن المادح هنا نتحدث حديثاً تفصيلاً مباشرة عن هذه الموضوعات .

وقد احترياً أن ستعرض سورة البقرة استعراضاً سريعاً يعطي فكرة عامة عنها ، مع الوقوف عند مواضع قليلة فيها . ثم ستعرض سورة آل عمران وسورة النساء شئ من التفصيل . والمقصود الأول على أي حال هو مجرد إعطاء « بمادح » للتوضيح قد تعين الفارئ على تبيين بعض المفاهيم العامة . أما الدقائق والتفصيلات فليس مكانها هذا الكتاب إنما يرجع إليها في كتب التفسير ، خاصة وأن لن نتعرض لموضوعات الفقهية ، وهي كثيرة جداً في السور المدنية . لأب ليست مقصداً من هذه الدراسة ، إنما مقصداً فقط بيان الموضوعات التي تناولها القرآن ، والطريقة التي يتناول بها هذه الموضوعات .

نَمَازِجُ مِنَ السُّورِ الْمَدَنِيَّةِ

## سُورَةُ الْبَقَرَةِ

سورة البقرة هي أول ما نزل من القرآن في المدينة ، وهي أطول السور لقرآنية جمعاً إذ تستغرق أكثر من خمسين من أجزاء القرآن ، وفيها حشد من الموضوعات المتنوعة أكثر مما حوته أية سورة أخرى من سور القرآن . .

ولأول وهلة يبدو هذا الحشد مجرد انتقال من موضوع إلى موضوع بغير نظام ! ودلت اندى يقوله لئلا يعلموا من المستشرقين وتلاميذهم « المثقفين » ! ولكن هذه السورة رغم طولها ذلك ورغم هذا الحشد الموع من الموضوعات ، ذات « تسليق » دقيق في بنائها ، يربط هذا الحشد الموع كنه في رباط محكم ، بحيث يصبح له - على نوعه - أهداف واضحة محددة ، و« شخصية » موحدة !

ولا يستطيع هذا في تلك البمحة السريعة أن يستعرض كل موضوعات السورة ، وإن كان منتهى وقفات سريعة عند بعضها . ولكننا نقر كلمة موجزة عن هذا « التسليق » الدقيق لدى يقوم عليه بناء السورة :

انقسم الأول من السورة يستعرض الحديث عن بني إسرائيل ومن أهم دواعي ذلك مسان رئيسيات ، أروعها أن بني إسرائيل هم الأمة التي قامت حياتها على كتاب منزل من عند الله ، ثم طغوا يتعنون عن كتابهم تدريجياً ، حتى خرجوا منه خروجاً كاملاً في النهاية ، واستسلموا في بدء إقامه دوتهم وجمتمعهم على أساس من الكتاب المنزل ، يُؤجّهون ألا يفعلوا ما فعله سو إسرائيل من قبل ، بل يمسكون بكتابهم ويحافظون عليه لكيلا يحل عليهم غضب الله الذي حل ببني إسرائيل .

أما السب الآخر فهو الكيد المستمر من اليهود للدولة الإسلامية الناشئة ، ومحاولة تقويضها قبل أن تتمكن في الأرض ، بدافع حسدهم لهذه الأمة المتهتدية والتواء طبيعتهم عن الاهتداء « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم »<sup>(١)</sup> . ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفراً حسداً من عند

(١) سورة البقرة ١٥

أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق»<sup>(١)</sup> فكان «نقرا يعترف المسلمون تاريخ بني إسرائيل لمضى كله ليعرفوا عدوهم على حقيقته ، لسوفعوا منه الشر الدائم فيحدروهم ، ولكيلا يقوم بينهم وبينه أي من من ألوان الولاء ، إذ كان استحقاق وعي رأسهم عند الله من أبيّ تتحدون من اليهود أنصاراً وأولياء يلقون إليهم بالمودة .

أما القسم الثاني من السورة فهو موجه إلى المؤمنين نظم حياتهم الجديدة بالنظريات والتشريعات اللازمة ، ويرد على تساؤلاتهم في حياتهم الجديدة ، ويحدد موقفهم من العدو لثاني وهو المشركون الذين كانوا قد أخذوا في مساواة الدولة الجديدة ، ويصنع بصفة عامة قواعد الدولة الجديدة والمجتمع الجديد .

ولننظر كيف دخل السبق إلى حدث عن بني إسرائيل ، ثم كيف انتقل من بني إسرائيل إلى الأمة المؤمنة لصنع لها دستور حياتها الجديدة فإن في هذين الموضوعين بالذات تبدو « هندسة » دقيقة في ساء لسورة ، ونعطيها فكرة كذلك عن ساء كله

لم يبدأ حديث مناضره عن بني إسرائيل بل بدأ بما يناسب افتتاح عهد جديد في حياة المسلمين ، وهو قيام المجتمع المسلم والدولة المسلمة ، بعد ثلاثة عشر عاماً من الاضطهاد والشريد والملاحقة المصصة من قريش ، رعيمة الجاهلية في الجزيرة العربية .

لقد بدأ عهد لتمكين في الأرض - وإن كان الأعداء بعد يحيطون بالدولة الجديدة ويسعون إلى الإطاحة بها قبل أن يتم هذا التمكين - وبدأت الحقبة الإسلامية بأحد سمات « الوراثة »

وراثية العهد الرباني ، والقيم بالأمانة الكبرى لى كان بعدهم ها طول هذه السنوات في مكة ، وهى يقدمه حكم الله في الأرض ، وأن يكون « الدين » في الأرض لله

وبما يناسب افتتاح هذا العهد الجديد ، كان افتتاح هذه السورة التي برزت لإبرار ملامح هذه الأمة التي أخذت الآن في التكوين

« ألسم ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون لصلاة وما رفقهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم ، أولئك هم المفلحون »

هكذا تفسح أول سورة تحدد سمات الأمة الجديدة التى كتب الله لها أن تكون « حبر أمة أخرجت للناس » وأن تكون هى الحاملة برسالة الأخيرة ، التى تقر في علم الله أن تصل نافية في الأرض إلى يوم القيامة<sup>(٢)</sup> .

(١) سورة البقرة ١٠٩

(٢) لا تراء طائفة من أشي يقتلوا على الحق ظاهرين في يوم القيامة « أخرجهم مسلم

« السم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » . .

وقد سبق لكلام عن مثل هذه الحروف التي تفتتح بها بعض السور القرآنية ، إشارة - والله أعلم - إلى أن الكتاب المنزل هو من دات هذه الأحرف التي يطق بها البشر ، ولكنه سيح - حر غير الكلام الذي يتحدث به البشر .

« ذلك الكتاب » المكون من هذه الأحرف ، هو الكتاب منزل من عند الله لا ريب في حقيقة تربيته ولا في أنه هو الدات المنزل من عند الله هداية المتقين المؤمنين بالله وبصدق هدى الكتب .

ونلاحظ نادئ ذي بدء أن السبق يمرر الحقيقة وينتهي من تقريرها في هذه الكلمات القلائد ، لأنه لم يعد يرد على المكذبين والمجادلين الذين يجادلون في صدق الوحي والرسالة وفي أن الكتاب منزل من عند الله . إنه يحاطب المؤمنين اليوم مباشرة ، بعد أن تميزوا عن الكفار في محتمهم الحديد القائم بذاته ، وصار الكلام و لتوجيه لهم خاصة ، وإن كان محدثهم - في السورة - عن المشركين والمنافقين واليهود والنصارى . ولكنه محدثهم ليعلنهم ، ويعرفهم بأحوال هذه الفئات وموقفها ، لا لسجدها جداراً مفصلاً في صحة الوحي والكتاب . .

السياق إذن يقرر الحقيقة في هذه العبارة الموجزة ثم يعرض إلى تقرير سمات « المتقين » هؤلاء ، الذين هم هذه الأمة الجديدة الأحدة في التكوين . وهو تقرير وتوجيه في دات الوقت تقرير لسمات هذه الأمة كما هي في علم الله وتقديره ، وتوجيه للأمة كذلك أن تتبرم بهذه الصفات ، لأنها هي الصفات المطلوبة في « المتقين »

« الذين يؤمنون بالغييب » . .

تلك هي الصفة الأولى للمؤمنين . والصفة الكبرى هم كذلك .

إن الإيمان بالغييب هو من الصفات التي كرم الله بها نبي آدم . فلم يشأ لهم سبحانه أن تكون حياتهم محصورة في دائرة ما تدركه الحواس فحسب ، بل شاء لهم - فضلاً منه وكرماً - أن تكون حياتهم أوسع من ذلك وأرحب ، وأن تكون في أرواحهم القدرة على الإيمان بما لا تدركه حواس [ وإن كانت تستطيع أن تدرك أثره ] وأن تستطيع الاتصال بالله مباشرة ، عن غير طريق الحس ، لتقنن من بوره ، ويعود أرحب وأصفى وأشرف ، وأقدر على القيم بالمهمة الكبرى التي خلق الله من أجلها الإنسان .

ومن عجب أن الجاهلية الحديثة تريد أن تعظم هذه الهدى المضيئة في روح الإنسان ، فتروح تعيب عليه أن يؤمن بالغييب ، وتقول هذه حرافة ورجعية وتخلف وإن الإنسان

« الحديث » يسمى أن يؤمن بالعلم ، ولا يؤمن بالعبيات !!

عجبا ! أيمن الله على الإنسان بمحامين ، يخلق أحدهما في عالم العلم ، ويخلق بالآخر في عالم الغيب . أو يخلق بهما معا في هذا العالم وذاك . ثم يقول للإنسان قص أحد جاحيث وألقي به عنك لأنه لا حاجة لك به ، واحتم على لأرض عاجز عن التحقيق بجراح واحد . . لكي تصبح « إنسانا حديثا » يليق بالقرن العشرين !؟

لا جرم أنه هذه الصورة يصبح بالمعنى لائقا بجاهلية القرن العشرين !

وماذا يكسب الإنسان حين يطمس روحه ويحصر نفسه في دائرة ما تدركه الحواس ؟؟

يردد علما ؟؟ وهل يسمع لإيمان بالغيب من لإيمان بالعلم والبحث والدراسة والتجريب ؟ ومن الذي توصل إلى المنهج التجريبي في البحث العلمي ؟ أليسو هم أولئك المؤمنين بالغيب ، الذين حققوا كرامة « الإنسان » كامله ، لأهم حققوا كيان « الإنسان » كله ، بنفسه وروحه سواء ؟؟

ألا مأسا هذه الجاهلية التي تعير « الإنسان بأنه يؤمن بالغيب » لطمس روحه وتجبها من الله ؟

وإن وضع هذه الصفة في مقدمة صفات « المثقفين » لا تنجيء اعتدال فكيف « يتقون » ؟ إن م يؤمنوا بالله وهو غيب ، وبالوحي وهو غيب ، وباليوم الآخر وهو غيب ، وبالثواب والعقاب وهو غيب ؟؟

إن قاعده حياة المؤمن الرئيسية هي إيمانه بالغيب ، اندي يسم عن طريقه إيمانه بالله واليوم الآخر ، وبلائكة والكتاب والسيين والقدر حيره وشره . ويتقرر عن طريقه حظ سلوكه كله في الحياة الدنيا ، وحظ مشاعره ، وحظ تفكيره

« لذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقاهم ينتقون »

إن الإيمان ينبغي أن يأخذ في حياة المؤمن صورة عملية محسوسة . يسعى أن يعكس في سورة سلوك عملي والإيمان بالغيب ، الذي يتضمن الإيمان بالله واليوم الآخر ، يسعى أن تصاحبه إقامة الصلاة لأنها هي الصلة الروحية بين العبد وربه ، والفرصة التي تقبس فيها الروح من نور الله . كما ينبغي أن يصاحبه الإنفاق من رزق الله

« والذين يؤمنون بي أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون »

وقد سبق أن أشرنا إلى أن الإيمان بالكتب السابقة والرسل السابقين يوسع « انشاء » المؤمن بذلك من أن يحصره في نطاق معين ، فيرحب بذلك أفقه وتعمق جسوره في الأرض ، فضلا

على كونه ضرورة عقيدية أن يعرف أن الله لم يترك عباده مدى مد يد له الحقيقة ، إنما أرسلهم داناً من يعلمهم حقيقة الألوهية وحقيقة الربوبية وحقيقة العبادة ثم شرع كذلك إلى المعنى الخاص بالنسبة هذه الأمة بالذات

إلى الأمة الخاتمة ، ولأمة المفدر لها في عدم الله أن تكون هي لرائدة والمشرقة على البشرية « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون لرسلنا عليكم شهوداً »<sup>(١)</sup>

والأمة التي هذه مهمتها ، والمفدر لها أن تكون هي الوراثة بعهد الله ، ينبغي أن يتسع صدرها لأصحاب الرسالات السابقة ، الذين قدر الله أن يكونوا في دمتها ، وأن يكون دوت عن طريق الإيمان بتلك الرسالات ، حتى وإن كان أصحابها قد مرقوا منها وحرفوا !

إن الأمم السابقة لم تتسع صدر بعضها لبعض ، لأنها كعرت برسالات بعضها بعضاً « وقالت اليهود ليس النصراني على شيء ، وقالت النصارى ليس اليهود على شيء » ، وهم يلون الكتاب !<sup>(٢)</sup> ولذلك قام بينهم من انتعصب الدنى والأصطهاد الدينى ما سجله التاريخ

أما هذه الأمة التي يراد بها أن تكون هي الشاهدة على البشرية ، والتي مستوى محب حكمها من اليهود والنصارى ما قدر الله ، ولا يسعى لها ذلك التعصب الدنى ، ولا يسعى أن يصدر عنها اصطهاد دنى ، وهي التي أشتب ؛ لتكون المودح لكل البشرية « كتتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »<sup>(٣)</sup>

إنما تكون أمة متسامحة ، يتسع صدرها للآخرين - رغم إحقاقهم وتخريعاتهم - ما لم يقوموا بحربها والعدوان عليها « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم » ، الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إحقاقكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون »<sup>(٤)</sup>

لذلك يرى السياق في مطلع السورة التي تحدد سمات الأمة المؤمنة وتعددهم بلقاء برسلاتها ، صفة الإيمان « يا أيها الذين آمنوا لا تأخذوا دينكم بالدين ولا الدين بالدين ، الدين لله »<sup>(٥)</sup>

ومن معانيها لقيام برسلاتها العالمية التي تعدّها مد هذه اللحظة

« .. وبالأخرة هم يوقنون » .

(١) سورة بقرة ١١٣

(٢) سورة بقرة ١٤٣

(٣) سورة الممتحنة ٩-٨

(٤) سورة آل عمران ١١٠



والإيمان بالآخرة داخل صغر الإيمان بالنعم ، ولكن اسباق يردده ليعطيه أهمية خاصة . فقد سبق أن بين أن الإيمان بالآخرة هو الطريق الذي يعلم الله سبحانه وهو اللطيف الخبير أنه يعين الإنسان على الاستقامة في الدنيا ، والالتزام بحدود الله وهذه الأمة - ذات الرسالة العالمية - في حاجة شديدة إلى الإيمان بالآخرة ، ليستقيم سلوكها ، لا لنفسها فحسب ، بل لتعطي سمودح للحياة الإنسانية الطيبة المعتدلة القائمة بالقسط . لذلك فهي حاجة أن يسع الإيمان بالآخرة عنده درجة اليقين الذي لا يتر ولا يشوبه الشك « وبالآخرة هم يوقنون »

« أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون »

أولئك الذين هذه صفاتهم وهذه سماتهم ، هم « على هدى من ربهم » فكل ذلك يجعل اهتدى الرباني في نفوس لاس ومشاعرهم ، وكذلك يصوغها تلك الصبغة الربانية المعجبة التي شغف ونص ، والتي سير مستقيمة على الأرض وروحها ، مجهزة مخلوق في لاس ، « وأولئك هم المفلحون »

المفلحون في كل جوانب الملاح ومحالاته . فقد كتب الله من يكون هذه صفاتهم وسماتهم الذين اهتدوا بالهدى الرباني فصاع نفوسهم ومشاعرهم على هذا النحو ، أن يكونوا هم المفلحين في الدنيا والآخرة جميعاً .

فأما في الدنيا فقد أهّلوا بهذه الصفات للملاح بين الإيمان حين يكون على هذه الصورة ، تكون مكوناته النظرية قد وضعت في أفضل أوضاعها ، ويكون كما خلقه الله في أحسن تقويم « ولذلك يكون الملاح هو ثمره جهده ، وثمره انطلاقه في هذه الأرض ، يقوم بعبارتها على اهتدى الرباني ، وبشيئ فيها الحكمة الراشدة التي تحكم ما أمر الله ، وبقيم العدل الرباني في الأرض ، وبقيم الطهارة الخلقية والشعورية والسكرية والسلوكية . فتنم صوره للملاح كاملة في الأرض ، خاصة والله قد وعد الذين هذه حالهم بالمسكين في الأرض والاستحلاف « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستحلّسهم في لأرض كما سحلّس الذين من قبلهم ، ولممكن هم دينهم الذي ارتضى هم ، ويبذلهم من بعد خوفهم أمناً ، يعدونى لا يشركون بى شيئاً »<sup>١)</sup>

أما الملاح في الآخرة فقد مكس به الله سبحانه وتعالى للمؤمنين أن يدخلهم الجنة والسعيم المقيم . ولذلك يجتمع هم الملاح كله فلاح الدنيا وفلاح الآخرة ، فلا جرم يقول « وأولئك هم المفلحون »

ولقد شهدت هذه الأمة « الملاح » في وقعتها التاريخية حين كانت مستوية هذه الصفات التي أوردتها لسياق بالفعل ، فكان في يدها القوة والمال والسلطان ، والعلم والحصارة والعمران . وكانت الشعلة الحبيطة لتشرية كلها حين من الزمان



بعد هذا الاستفتاح الذي حدد فيه سمات المؤمنين وأوصافهم ، يتحدث عن غير المؤمنين وسماتهم وأوصافهم .

والتقسيم العالبي في القرآن هو تقسيم الناس إلى مؤمنين وكافرين . وكان كذلك الحال في العهد المكّي كله . ولكن هــ في المجتمع المدني - بدأت تظهر فئة جديدة من البشر ، هي ليست فئة « ثالثة » غير المؤمنين والكافرين ، فإن لا توجد فئة غير هاتين « حنفيكم ممكم كافر ومكم مؤمن »<sup>(١)</sup> ولكنها فئة متميزة داخل فريق الكافرين ، وهي فئة المنافقين

هذا التقسيم الثلاثي إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين [ وهم أشد كفرًا ] يحىء في مقدمة سورة البقرة ليصف حال المجتمع الذي يحيط بالدولة الناشئة . فالكفار من مشركي العرب جانب ، والمنافقون من يهود اندية الدين وعموا لإيحاء بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وهم يصمرون الكفر به والحقد عليه ويعملون بكل وسائلهم الخسيسة لمحاولة حثاث الإسلام من المدينة ، جانب آخر [ ولم يكن بعد قد برز المنافقون من أهل المدينة من لعرب وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بنصورة حادة ، وبكهم كانوا موحدون - وكذبوا باليهود ويسبون معهم في الخفاء للقضاء على المسلمين ]

وكي يحيط هؤلاء هؤلاء بالمسلمين في عالم الواقع ، فهم يحصون مهم كذلك في سياق لسورة ١

« إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون - حتم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ولم يذنب عظيم » .

وفي آيتين تيين انتهى من وصف الكفار الصرخاء ، الذين وقفوا موقف الكفر الواضح في قولهم وفي صلوهم وفي تذايرهم . .

أما الكفار المنافقون فيستغرق وصفهم ثمانى آيات كاملة ، ثم يستمر الحديث في تحصيل حدهم خمس آيات أخرى ، فكانما تحدث عنهم السياق ثلاث عشرة آية متواليه !

هذه العدية بإمرار صفات المنافقين لها أسباب محليه في مجتمع المدينة ، وأسباب دائمة لا

تقف عند مجتمع معين

(١) سورة نساء . ٢

فقد كان موقف اليهود - في صورة اساقف - جديداً على المسلمين ، سواء منهم المهاجرين  
الذين يدعون تديناً على هذا المجتمع ، أو الأنصار ، أهل المدينة القدامى ، الذين كانوا يعرفون  
اليهود ويتعاملون معهم ، ولكن في غير صورة المناقشين التي لنسب اليهود بعد تحول رسول  
- صلى الله عليه وسلم - في المدينة - ذلك كان الأمر في حاجة إلى كشف وتبيين مفصل  
لأحوالهم وسمايتهم وسلوكهم ، حتى يجدرهم المؤمنون ويأمنو كيدهم .

أما السبب بدائم فهو أن المدافعين دائماً - وفي كل مجتمع - أخطر من الأعداء انصرحاء  
فهؤلاء بكشوريتك موقفهم فتعدهم ، وتتعامل معهم على أساس موقفهم المكشوف ، سواء  
قاتلتهم أو هادنتهم - أم المدفوعون ، الذين يظهرون لك الولاء وهم يكيّدون لك في الخفاء  
فهؤلاء أخطر وأصعب في التعامل معهم - فإن عاميتهم على أهم أعداء رخوا يشكون  
ويقولون عدك إنك تصطهد المخلصين لمواين ! وإن أمست هم حركك إلى المكيدة ! وذلك  
وصلاً على صعوبة كشفهم وتحديد أشخاصهم بسبب سلوكهم المتورى ، الذى يظهر  
لصدقة ويبطن العداة .

وبذلك فالسياق يضع العلامات الحمراء عليهم حتى يتجههم السائر في الطريق !

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يجادلون الله والذين  
آموا وما يجادلون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فردداهم الله مرضاً وهم عداة  
أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قلوا ، إنما نحن مصلحون ! ألا  
إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنا بما آمن الناس قالوا أنؤمن كما  
آمن السفهاء ؟ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا  
وإذا حلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم ويمدهم في  
طغيانهم يعمهون أولئك شربوا الصلابة ناهلي ، بما ربحوا تجارتهم وما كانوا مهتدين  
مثلهم كمثل الذى استوفد نارا فلما أضاءت له حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا  
يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون أو كصتب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق  
يجعدون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق  
يحطف أنصارهم ، كنى أصاء هم مشو فيه ، وإذ أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب  
بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير »

بعد ذلك يتجه السياق إلى انفريق الأول من انكسار مخاطبتهم ، يدعوهم إلى الإيمان  
ومراجعة أنفسهم ليتبينوا موقفهم غير المطلق وغير القائم على برهان ، وإن كان الحديث

إليهم يأتي في صورة حديث موجه - إلى الناس -<sup>١</sup>

« يا أيها الناس ، صدقوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ، جعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ، وإن كنتم في ريب مما نزل على عبدنا فسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا - ولن تفعلوا - فاتقوا الله الذي هو بكم ناظر ، فاعلموا أن الله لا يهدي الكافرين »

ثم يتحدث - للمقارنة - عن مصير المؤمنين

« ربهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات إن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، كل يوم رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها ، ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون »

ثم يعود إلى مخاطبة الكفار بمناسبة مثل صر به الله من قبل<sup>(١)</sup> فقال الكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ هل يلين أن يضرب الله مثلا بعبادة ؟

« إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فليعلموا أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ ؟ يصل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يصل به إلا المستقيمين ، الذين يتقون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ، أولئك هم الخاسرون » .

إن المؤمنين يعلمون أن كل ما يقوله الله هو الحق ، ويعلمون أن الله لا يضرب المثل إلا بالحق ، أما الكافرون المضمضون النصيرة فلا يدركون فيم ضرب الله المثل ، وينظرون إلى شكل دون الجوهر ، فيقولون هل من العقول أن يضرب الله مثلا بالعبادة الخفية ؟ ! ولا يستطيعون أن يدركوا أن معجزة الخلق في الدابة هي معجزة الخلق في كل شيء ، ولكنه - من أجل تعليمهم - ضربهم مثلا بأحقر كائن في نظرهم ، ثم تحداهم أن يحذقوا مثله ، إن استطاعوا ، وهم لا شئ لا يستطيعون !

ويواصل السياق الحديث إلى الكفار :

( ١ ) قبل أن الإشارة هي للمثل المضروب في سورة الحجج [ ٧٣ ] « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ! »

« كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ؟ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم »

حديث عن العقيدة عن قدرة الله على لإحياء والإماتة ، وقدرته على الخلق ، وعلمه بكل الخلق على ذات الطريقة المتبعة في السور المكية !

وتماسة خلق السموات والأرض ، وخلق ما في الأرض جميعاً للإنسان ، هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ! يتحدث عن خلق الإنسان ذاته ونحىء القصة في موضعها لتحقيق عدة أهداف في وقت واحد !

« و إذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها وسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال استوبى لأسماء هؤلاء ، إن كنتم صادقين قالوا سبحان لا علم لنا إلا ما علمنا ! إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أسماؤهم بأسمائهم ! فبما أباهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون وإذ قل للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقم يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة تتكون من الظالمين فأولها الشيطان عنها فأخرجها مما كان فيه ونفا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات تائب عليه ، إنه هو التواب الرحيم فتب اهبطوا منها جميعاً ، فبما يأتيتكم مني هدي فمن تبع هدي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ولدين كهروا وكذبوا بآيات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

تلك هي القصة الكاملة لخلق آدم وقصته مع الشيطان وهي لا تأتي في السور المدنية إلا في هذا الموضع من سورة البقرة وقد تحدثنا عنها من قبل في باب مستقل فلا نحتاج إلى إعادة الحديث عنها في هذا المكان ولكن سامعها في هذا السياق وفحات !

بها أولاً ننحس سحفاً وقت كل ما جاء حول القصة في القرآن في العهد المكي مع بعض بعض التفصيلات فإذا تذكر أن هذه هي السورة الأولى في المدينة ، وأنها برلت لتحديد سمات المجتمع المسلم وتعطيه مقوماته لضرورية ، أمكن بنا أن ندرك قيمة هدي لتلخيص في مفتاح العهد المدني ، إنه تذكرة بالدرس أو الدروس المستفادة من القصة ، قبل أن يبدأ بتصديق العمل هذه الدروس !

لقد كانت القصة تورد في أماكن متفرقة من القرآن في العهد المكي بوصفها درساً في العقيدة!

والآن تلخص القصة وتقدم لتبنيه على أسس هؤلاء قد بدأنا مرحلة التمهيد فحذروا حذرکم! احفظوا الدرس جيداً وياکم أن تقعوا عند الامتحان! هذه واحدة

وانائية عند كلمة « حيفة » « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة »

إن هذا هو الموضع الوحيد في القرآن كله الذي تذكر فيه الخلافة في الأرض مرتبطة بحلق آدم.

جاء في سورة ص « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس باحق ولا تسع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يصلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » (١) ولكنه لا يحمل نفس المعنى المتضمن في قوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة »

لقد كان ذكر القصة من قبل تأتي في العهد المكي ، والمسلمون مشردون في الأرض لم يتمكنوا بعد والآن ترد القصة في العهد المدني بعد أن قامت الدولة المسلمة وبدأت نمكن في الأرض فهل لذلك علاقة بذكر الاختلاف في هذا الموضع ؟

ربما والله أعلم ! فهذا بعد أن استقر المسلمون في الأرض ، أصبح من المناسب أن يذكر لهم أن أباهم آدم خلق ليكون خليفة في الأرض وهم - اليوم - هم ورثة الاختلاف ، المطلوب منهم أن يقيموا الخلافة الرشيدة في الأرض !

كللت بذكرها لأول مرة - على كثرة ما ذكر من قبل من قصة آدم في السور المكية - قصة تعليم آدم الأسماء كلها

« وعلم آدم لأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال استوبس بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا مسحان لا علم لنا إلا ما علمنا ، إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنتهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ »

هذه هناك توجيه معين لها من ذكر هذه القصة في مطلع السورة المدية الأولى التي جاءت لتعدد سمات المجتمع الإسلامي ؟

مرة أخرى نقول : ربنا ! والله أعلم !

إن هذه الأمة التي بدأ استجلائها في الأرض مقدرها في عدم الله أن تكون هي المهمة على حياة البشرية فترة مديدة من الزمن . ومقدرها كذلك أن تكون هي الأمة العادة في الأرض في تلك الفترة من الزمن ، وأن تشيئ الحركة العلمية التي تعيش عليها البشرية قروناً أخرى فيما بعد . فهل لذلك علاقة بذكر تعمم آدم للأسماء كلها ؟<sup>١٩</sup>

ثم يجيء في نعت القصة هذه التوجيه : « فسادوا مطوا منها حيث ، فإيا يأتىكم من هدي فمن مع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

ولقد ورد مثل هذا الخدم من قبل في العهد المكى في سورة طه : « قل هطأ مطا منها حيث يعصمكم لبعض عدو ، فإيا يأتىكم من هدي فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » ومن أعرض عن ذكرى فإن له معشة ضيقة ويحشره يوم القيمة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال كذبت أنثى آياتنا فسيتها ، وكذبت اليوم نسي ، وكذبت بحرى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعلنا لا نذكر أشد وأنقى ؟<sup>٢٠</sup>

هناك كان يتحدث عن البصير في الآخرة فحسب . كان حديثاً في العقيدة ولكن الختام هنا . ولو أنه يتحدث عن البصير في الآخرة ، ويتحدث حديث العقيدة . لا أنه يخدم أغراضاً أخرى !

إنه سيتحدث بعد هذا مباشرة عن بني إسرائيل : « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتى التي أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياى فارهبون »

ومن قبل تحدث عن الكفار الصرحاء : « كتب تكفرون بالله وكنتم أممات فأحياكم ، ثم بستمكم ، ثم يحبسكم ، ثم إليه ترجعون » هو الذى خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم سوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم .

وبأنى القصة بين هذين الحديثين عن الكفار الصرحاء ، والكفار المأفوقين من بني إسرائيل . فما صلة القصة بهذا وذاك . وما موضع الختام بين هذا وذاك ؟<sup>٢١</sup>

إن القصة كلها - بختامها - تخدم - كما قلنا - أغراضاً شتى . لقد بدأت السورة بوصف سمات المؤمنين ، للتقرير - كما قلنا - وللتوجيه . ثم راحت تعرف المؤمنين بعدوتهم المحيطين بهم في ذلك الوقت ، مشركين ، وهم الكفار الصرحاء ، وبني إسرائيل وهم الكفار المأفوقون

(١) سورة طه ١٢٣ - ١٢٧

ثم لكي يبين ماذا وجد هذا الرصع وضع وجود مؤمنين وكفار ، أورد قصة الإنسان الأول - آدم . لدى هؤلاء مسلمة المؤمنين منهم وكفار كذلك وأورد فيها الموعظة الخاصة بقصة الشيطان لآدم وإخراجه من الجنة ثم جاء ختام القصة ليقول إن الله عهد بين آدم أنه سيرسل للنس « هدى » فمن تبعه فأولئك هم الناحون ، ومن كفر به فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . .

هذا إذن هو مشأ وجود الكفار والمؤمنين في الأرض . .

هبط آدم من الجنة ، وإرسال الهدى من عند الله ، فبشع بعض سى آدم ويكفر به آخرون . .

و إن فقد جاءت القصة تفسر وجود المؤمنين ، وهم الذين اتبعوا الهدى الربانى والكفار يستقيمهم ، وهم الذين لم يتبعوه .

ثم إنها تبيىء كذلك مدحلاً للحديث المطول المفصل عن سى إسرائيل ، الذى جاءها لتعريف المؤمنين بعدوهم الحيدى بر فى مدينة . ومن ختام القصة يأتى المدح إلى سى إسرائيل أن ختام القصة يتحدث عن عهد الله لآدم ، وجرء من يعى بالعهد وجرء من يحبس به

وبما صبه عهد الله لآدم يحىء ذكر عهد الله لسى إسرائيل إنه نفس العهد المبدون لآدم إن أطاعوا واستقدموا على الطريق فلهم التمكين والاستحلاف فى الأرض ، والجنة يوم القيامة وإن عصوا فلهم الصيع هنا وهناك

ومن هذه النقطة نقطة العهد ، يبدأ ذلك الحديث المفصل المطول عن سى إسرائيل ، يبين فى كل خطوة كيف أسهم حانوا العهد ، وكيف أسهم لم يستقيموا مرة واحدة فى تدرجهم كنه على عهد واحد بذلوه !!

« يا سى إسرائيل اذكروا معتى التى أنصت عليكم وأرعدوا بعهدى أوف بعهدكم ، وزيىء درهون وأموأ بما أنزلت مصدقاً لما معكم ، ولا تكونوا أول كفر به ، ولا تشتروا بآياتى ثمناً قبلأ ، وزيىء فائقون . . . . . »

\* \* \*

ولن نتبع السبق بالتفصيل . .

يس يقول فقط إن الساق قد لخص فى الآيات التالية [ من ٤٢ إلى ١٢٣ ] تريح بنى إسرائيل الأسود كله ا كفرهم وكذبهم والنواءهم وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونجحهم مع الله سبحانه وتعالى ، واستهترهم بكل العهود والمواثيق ، وتحيدهم ومكرهم وحداهم



ويستهي حديث ابراهيم صله هذه الآيات كله هذا الإندار الأخير  
 « يا بني إسرائيل ذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنى فصنتكم على العدين وانقروا  
 يوم لا تجري نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون »<sup>(١)</sup>.  
 ثم بعد ذلك سيبدأ الحديث يوحى إلى المؤمنين ، ينظم لهم شئون حياتهم في المجتمع  
 الجديد

فكيف انتقل من الحديث إلى بني إسرائيل إلى الحديث إلى المؤمنين ؟  
 لقد أتى الساق بوصلة بديعة تصب بين حديثين ، وتفرق في ذات الوقت بين الأمتين !  
 بين الأمتين تنتهيان في لسب إلى إبراهيم عليه السلام فهو أحد لمشارك لليهود عن  
 طريق إسحاق ، وللعرب عن طريق يسوع ، وهم أبناء إبراهيم عليه السلام  
 ولقد أعطى الله إبراهيم لعهد فجعله للناس أمماً وسأل إبراهيم ربه : هل  
 يسرى هذا العهد إلى دريتي ؟

« وإد ابن إبراهيم ربه بكلمات فأنهم ، قال يس حائك للناس ، ما قال : ومن  
 دريتي ؟ قال : لا يزال عهدي الظالمين »  
 وإذن عهد نبي إبراهيم عنه لسلم أن العهد له ثم بدرته إن استقاموا على العهد ، فإن  
 ظلموا فلا عهد لهم عند الله

ومضى العهد في درة إبراهيم عن طريق اسحق ويعقوب [ الذي هو إسرائيل ] ثم في  
 بني إسرائيل [ أي بني يعقوب ] حتى خرجوا عن العهد عمداً . فنقل العهد منهم إلى هذه  
 الأمة الجديدة ، وهي من درة إبراهيم كذلك عن طريق إسحاق ولكنها أمة مؤمنة  
 مهتدية ، ولذلك أورثها الله العهد والكتب ، وها هو ذا سبحانه يبدأ في التمكين في  
 الأرض . .

تلك هي القصة التي نحويها - صراحة وصماً - تلك الوصلة اندبعة لى تصل بين  
 الحديثين ، وتفرق في ذات الوقت بين الأمتين ! فتعبر اسهاء استخلاص بني إسرائيل في  
 الأرض - لأهم ظلمو - وبدء استخلاص الأمة الجديدة لأهم مهتدون

---

( ١ ) جاء هذا الإندار ذاته بتسوية طفيف في عبارته في مسأ الحديث بين بني إسرائيل [ ٤٧ - ٤٨ ] « يا بني  
 إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين وانقروا يوم لا تجري نفس عن  
 نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » . فكانت يبدأ حديث بالإندار  
 وحتم به !

« وإذ اتى إبراهيم رئه بكنيات فأنهم ، قال : نبي جاعلث نداس إسمًا ، ف . ومن  
 دريتى ١٩ قال : لا يبال عهدى نظامين . وإدجعد البيت مثبه لنداس وسمًا ، وتحدوا من  
 مقام إبراهيم مصلى . وعهدت إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى لندائهم والعاكفين والركع  
 السجود . ورد قال إبراهيم : رب اجعل هذا بلدًا آمنًا ورزق أهله من الثمرات . من آمن  
 منهم بالله واليوم الآخر ، قال : ومن كمر فأمته قبلاً ثم أضطره إلى عذاب النار ويشس  
 نصير . ويد يرفع إبراهيم ابوعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع  
 العليم . ربنا واحعدنا مسلمين لك ومن دريتنا أمة مسلمة بك ، وأربا ما صكنا . وتب  
 عاب ، إنك أنت الثواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ينلو عليهم أيتك ويعصمهم  
 الكتاب وحكمه ويركيهم إنك أنت العزيز الحكيم . ومن يرفع عن ملة إبراهيم ، لا من  
 سعه نفسه ؟ ولقد اصطغصاه في الدب ، وبه في الآخرة من الصالحين ، يد قال له ربه : سلم .  
 قال : أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب : يا بني إن الله صطفى نكم  
 الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه : ما  
 تعبدون من بعدى ؟ قالوا : بعد إفتك وإله آناك إبراهيم وإسماعيل وإسحق . إهاً واحداً ،  
 وبحر به مسلمون . تلك أمة قد حلت ، لها ما كست ، ونكم ما كسبم ، ولا نسألون عما  
 كبو يعملون »

لقد كان آخر الحديث إلى نبي إسرائيل - كما رأيت - هو ذلك الإنذار الأخير لهم أنهم إن لم  
 يستقيموا ، فلا مفر لهم من الخراء الصارم يوم الخراء

ولقد كان ذلك في الحقبة الزهراء فص اليد منهم ، لأهم - على ضوء ما مر من  
 تاريخهم في السرد المفصل لسبق - لا بتطر منهم أن يستجيبوا لذلك المدير إنما المعنى  
 الخفي لمدير أنه قد - أذركم بما فيه لكفيه ، فاليوم بعدكم أن دوركم في الاستحلاف  
 قد انتهى وأنا عهد إلى أمة أخرى ، هي أحق منكم بالعهد ولولاية والاستحلاف ١

ثم كأنها تعرض السياق مؤهلات الأمة المحددة للاستحلاف ، أو « وثقة العهد » التي  
 تستحق بموجبها الاستحلاف !

إنها وثيقة قديمة في التاريخ ! فهذه الأمة لم تولد اليوم في الحقيقة ! إنما ولدت من عهد  
 قديم جدًا ! هو ذات العهد الذي ولدت فيه أمة بني إسرائيل ! ونكها كاتب مدرة كاسة في  
 لأرض ستظر دورها حين يجيء دورها المقدر في عدم الله . .

إن الأمر يرجع في انماضى السحيق إلى إبراهيم نفسه ، الذي يدعى هو إسرائيل أنهم -  
 وحدهم - ورثة عهده . . وإلى أئد الأبلين !

والآن يكشف السياق في أنسب لحظة - عن هذه الوثيقة التاريخية الهامة ، التي تُسَرِّع  
مُوحِجها الخلافة من بني إسرائيل وتُعطي للأمة الجديدة !

لقد وقع لإبراهيم ذلك الابتلاء اعاقل حين أمر بدبح ابنه الحبيب إسماعيل ، فاستجاب لأمر الله هو وإسماعيل ، وأسدي : لهذا الأمر لدى يرتج به الصوب : « فلما أسماها ، وتله بلجيين ، وبديناه أن ي إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، إن كذلك بحرى المحسنين ، إن هـ ، هو البلاء المبين ، وفدياه يدبح عظيم وركن عليه في الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين » (١)

وبحسب شعر البشر ، التي لا يفارق البشر حتى وهم أنبياء تطلع إبراهيم أن تكون لإمامة من حظ دريته من بعده . « قال ومن ذريتي ١٩ » إنه سؤال مهدد لطيف ، ولكنه يحصل في طياته تلك اللهفة التي يحسها الآباء على مصير أبنائهم ، والرجح المتصلة إلى المكاة الرفيعة لهم في الأرض

« وإذ جعل البيت مشابة للناس وأمناً ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود »

ونقد جعل الله البيت مثابة للناس وأمناً      يثوب إليه الناس فيقضيهم من رحمتهم ، سواء  
برح الدنيا أو بزرع الآخرة ، وأمر أن يتحدد مقام إبراهيم مصلي ، تعظيماً لإبراهيم ورفعاً

لشأنه . ومن البيت كله نص . ولكن مقام إبراهيم مكان متميز في البيت ، والصلاة فيه ذات شأن خاص .

وبهذه المناسبة يذكر أن الأمر الرباني كان قد صدر لإبراهيم وإسماعيل أن يظهر البيت لبطانته والعاكفين والركع السجود . .

ويدعو إبراهيم ربه في بيته لمعظم أب يمس على البلد الذي يحوى هذا البيت ، ولكنه الآن قد وعى الدرس الذي تلقاه وهو يطلب العهد بدريته !

« وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا نبأً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر . . »

لقد تعلم إبراهيم عنه السلام . فلم يعد يطلب من الله لكل دريته ! بما أن آمن منهم بالله واليوم الآخر . ولكن من الرزق في الحياة اندب من ثمرات الأرض شيء . غير ولاية لعهد ! إن الله يذل الدنيا لمن أراد ! « كلاً سعد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ! وما كان عطاء ربك محظوظاً ! » (١) فلا بأس على إبراهيم أن يطلب الرزق وثمرات لمن آمن ومن لم يؤمن ! ولكنه إذ لم يفعل ، ملتمساً لتوحيه الرباني المسبق . فإن الله يعلمه هذه الحقيقة . « قل : ومن كفر فأمته نيلاً ، ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ! »

إن الله يعين إبراهيم أنه استجاب دعاءه ، وأنه من يقصر رزق لثمرات على المؤمنين وحدهم ، ولكنه سيعطيه كذلك لمن كفر ، ولكنه « متاع قليل » ثم مأوهم جهنم وبئس المصير . وبمفظة « أضطره » نفث الحس وتثير الخيال بتسببها ! إن إنكاره لن يكون بطبيعة حال مقبلاً على أسر ذاهباً إليها ، واختياره ! ولكن الله سيضطره اضطراراً إليها ! ويرتسم في الخيال صورة الذي يريد أن يمر يبحث عن مهرّب لها أو مهرّب هالك فإذا بقوة هائلة تقص عليه قصّة ثم يدفعه دفعاً لا يملك مقومته . حتى تذهب به إلى حيث يلقى في عذاب النار !

ثم يأتي هذا الدعاء الخاشع المطول ، الذي يدعو به إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعا قراعد البيت .

« وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا بك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن دريت أمة مسلمة لك ، وأز مناسكنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يلو عليهم ذنبتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم . »

(١) سورة الإسراء ٢٠

« وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . « ولا يقول المساق يقولان رب تقبل منا . « وبجيء مباشرة « ربما تقبل منا » إن كلمة « يقولان » مقدره في السياق ولكن تقديره وعدم إظهاره في المساق يعطى المعنى قوة كبيرة بتأثير المفاجأة التي يعمل الخيال لمواجهتها فالخيال يتبعها أولاً وهم يرفعون القواعد من البيت ، ومعجزة يُسمعُ صوتهم يدعوان « ربما تقبل منا » فتكون هذه المفاجأة أدعى للانتفاة لهذا للدعاء ومتابعته !

« ربما تقبل من إنك أنت السميع لعليم » تسمع دعاءهم وتعلم رجلاص قلوبهم فتقبل  
ما

« رب واجعلنا مسلمين لك ومن دريت أمة مسلمة لك . »

إن التأدب الواجب مع الله يقتضى منه أن يرفعها أمر إسلامهما إلى الله إسمها مسلمين بالفعل . وقد مرأى من عري سجرة هائلة وأشلاء ميين ولكنها لا يسكن لأنفسها ذلك الإسلام في الحاضر ولا في مستقبل إنما يدعوها الأدب مع ربها أن يقولاً « رب واجعل مسلمين لك . » ثم تدركها عوطف انبش المطرية بحر اندرية لمزقه فيقولان « ومن دريت أمة مسلمة لك » وقد علم إبراهيم من قبل أن العهدل يكون إلا لندرية المسلمة إذ قال الله له « لا ياب عهدي الظالمين » فهو يدعو أن تكون من دريه أمة مسلمة ليستمر فيها العهد ولا يبرح منها ، وكذلك يدعو إسماعيل . ولكن السياق حين يقول « أمة مسلمة » بعد أدهسا لمعرفة تلك الأمة لى يشير إليها ، حتى إذا قل فيما بعد « ربنا وبعث فيهم رسولاً منهم » تحددت الأمة وبعث . إنها هذه الأمة نى صارت تعرف باسم الأمة المسلمة ولتى رسوها هو رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم - .

« ومن دريت أمة مسلمة لك ، وأربا ماسك ، وتب عدا إنك أنت التواب الرحيم »

إن إبراهيم وإسماعيل يدعوان الله أن يرفع كيف يعبدانه « وأربا ماسكا » و« ماسك » تشمل شعائر التعمد جميعاً ولكنها أحدث معنى اصطلاحياً فصارت تطبق على ماسك الخبز خاصة ، و« ماسك » الخبز متعلقة تعمقاً وصحاً إبراهيم وإسماعيل بالذات ، فكان من التماسر « المعنى » أن يجيء ذكر ماسك على لسان إبراهيم وإسماعيل !

« وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم »

ومن لتاسق المعنى السديع كذلك هذه المذات الطولية ، التى تعطى حو لإطالة في

لدعاء ذاته ! « تقل من اينك أنت اسميع العليم » ومن دريت أمة مسلمة بك «  
 « وتب عليك إنك أنت النواب الرحيم » حتى إذا حل انتهاء الدعاء قال « ويركبهم إنك  
 أنت العزيز الحكيم » عبر مد كاسابق ، إشعاراً بانتهاء الدعاء !!  
 « ربنا وأبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم  
 بك أنت العزيز الحكيم » .

هذه هي الوثيقة التاريخية الهامة التي بعدمها بنو إسرائيل جيداً ولكنهم محسوب لأن إعلانها  
 سن في صالحهم ! إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو دعاء إبراهيم وإسماعيل ! وقد  
 دعا إبراهيم وإسماعيل ربي أن يجعل من دريتهما أمة مسلمة ويبعث فيها رسولاً منها . وما  
 قد آن أو ن هذه الدعوة التي استجيبت من فورها ، ولكنها طلت في قدر الله وعلمه حتى أن  
 أوامير المقدور . .

و إذن فهذه الأمة قديمة ، مسجلة وموثقة على ساد إبراهيم نفسه ، اندي يرعم  
 بنو إسرائيل أنهم هم وحدهم المحتصون بكل تراثه ! ومسجلة وموثقة كذلك على لسان  
 إسماعيل بن إبراهيم وفي حضور إبراهيم عليه السلام وبموافقته ومصادفته ! فلا مجال لبني  
 إسرائيل أن يقوموا بأي تشكيك في وثاقة هذه الأمة وصدق رسولها - صلى الله عليه وسلم - بعد  
 إعلان هذه الوثيقة الخطيرة

ثم إن هذه الوثيقة تعلق الآن بالذات ، لا قبل ذلك في اللحظة المناسبة لإعلان قيام  
 الأمة المسلمة واندولة المسلمة ، وبرع الخلافة والسلطان من الدرية الطاللة تحقيقاً لوعده الله من  
 قبل : « قال : لا ينال عهدي الظالمين » .  
 وفي الوقت نفسه كذلك تعلق الأسباب التي دعت إلى نزاع الخلافة والسلطان من تلك  
 الدرية الظالمة .

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ١٩ » .

إن ملة إبراهيم هي هذه التي يحملها محمد - صلى الله عليه وسلم - ويسر على هداها  
 « من إنسى هدى ربي إلى صراط مستقيم ديناً فياً ملة إبراهيم حيفاً وما كان من  
 لشركين »<sup>(١)</sup> « ثم أوجب إليك أن اتبع ملة إبراهيم حيفاً وما كان من اشركين »<sup>(٢)</sup> . فمن  
 رغب عن الدحوى في ملة محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد رغب عن ملة إبراهيم ، وهي  
 الهدى وهي الحق لدى لا يرغب عنه إلا من كان سقيها لا يحسن الإدراك ولا يحسن  
 التقدير

والعبر يقول « إلا من سعه نفسه ! » يعنى لم يحسن التقدير نفسه . ولكنه يوحى  
بمعنى من أخسره نفسه أو من أهلك نفسه . فيؤدى المعنيين فى ان واحد ، لم يحسن  
التقدير بنفسه فأوردها مورد الخسران والهلاك

ثم كأنها بشرح ملة إبراهيم لتي يسفها من يرغب عنها  
« ولقد اصطفيناك فى الدين ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسسم ،  
قال : أسلمت لرب العالمين » .

هذه هى ملة إبراهيم مسارعة إلى الإسلام لرب العالمين فالساق يوحى أنه بمجرد أن  
« قال له ربه أسسم ، قال : أسلمت » ومن أجل هذه مسارعة إلى الإسلام فقد اصطفاها ربه  
فى الدنيا والآخرة فمن يرغب عن هذه الملة المؤدية إلى هذا الخير « إلا من سعه نفسه »  
ثم إن الوثيقة الشهادة التى نشر اليوم تحوى سرًا خطيرًا يدس بسى إسرائيل ويؤهل لمرع  
السلطان والخلافة منهم !

« ووصى بها إبراهيم نبيه ويعقوب يا بى إن الله اصطفى لكم دين فلا تخرس ، لا وأنتم  
مسلمون ! أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قل بنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا  
بعد يحن وإنه آمناك إبراهيم وإسماعيل وإسحق ، إنهم واحد ونحن له مسلمون »

إن هذه الوصية الخطيرة فى إكثارة كنها بسى إسرائيل لدين يرفضون الإسلام مع محمد -  
صل الله عليه وسلم لقد وصاهم أبوهم يعقوب ألا يموتوا إلا وهم مسلمون ومؤدى  
ذلك أن تشعروا بالإسلام حبًا وجد ويعتقوه ليموتوا عليه والإسلام اليوم مع محمد صلى الله  
عليه وسلم وعلى بده ، فاصطل بوصيه أبيهم يعقوب يستدعى أن تشعروا رسول الإسلام ،  
الذى يحمل ملة إبراهيم ويسير على هديها ثم إن آباء يعقوب المباشرين وهم الأسباط  
الاثنا عشر حدود بسى إسرائيل قد يجهلون أن يعبدوا إلهًا واحدًا هو إله إبراهيم وإسماعيل  
وإسحق وذكر إسماعيل ه بالذات على لسان الأسباط له دلالة إر ، بكار متى إسرائيل  
لفرع إسماعيل كله ، ورفضهم للإسلام على يد محمد صلى الله عليه وسلم لأنه من بسى  
إسماعيل وليس من بسى إسحق ! لقد تعهد الأسباط أن يعبدوا إله إبراهيم وإسماعيل  
وإسحق ، إلهًا واحدًا هو الله سبحانه وتعالى وإله إبراهيم هو بطبيعة الحال إله  
إسحق وهو إله إسحق ولكن اليهود بموقعهم كأنما يرفعون أن إله إبراهيم هو إله إسحق  
فحسب ، وليس إله إسماعيل !! وأنهم فى حل ألا يعبدوا إله إسماعيل الذى هو إله محمد -  
صل الله عليه وسلم - !! اكتماء - ل وههم - عبادة إله إبراهيم وإله إسحق !

ومن هنا نجيء أهمية ذكر إسماعيل في تعهد أباء يعقوب ، أن يعبدوا إله إبراهيم وإسماعيل وإسحق « إماماً وحذاً ونحن له مسمون » فلا حجة هم اليوم أن يسكروا فرع إسماعيل ، والسبب المبعوث من فرع إسماعيل - صلى الله عليه وسلم -

ثم نجيء « لفافضة » بين الأمتين على أثر إعلان تلك الوثيقة الهامة « تلك أمة قد حلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » لقد انتهت صفحة تلك الأمة وبدأت صفحة جديده لأمة جديدة هي لى سبيلها السبيل من هذه اللحظة ويوجه إليها البيان !

« ولولا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ! قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين قولوا إنما بالله وما أنزل إليي ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ولأسماء ، وما أنزل موسى وعيسى ، وما أنزل السيون من ربهم ، لا تفرق بين أحد منهم ونحن له مسمون فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإني هم في شقاق فسيكفكهم الله وهو السميع العليم صبيحة الله ومن أحسن من الله صبيحة ونحن له عابدون قل أتتحنونا في الله وهو ربنا وربكم ؟ وثأ أعمالنا ولكم أعمالكم ، ونحن له محضون أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسماء كانوا هوداً أو نصارى ؟ قل أنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟ وما الله بعاقل عما تعملون تلك أمة قد حلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون »

إن الحديث متصل من حيث الموضوع ، ولكنه يوجه الآن للمؤمنين « وهونو كونو هوداً أو نصارى تهتدوا ! قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » .

رغم ما سبق إعلانه من وصية يعقوب بسبه فإن اليهود والنصارى يقولون للمسلمين كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ويوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم رداً شاملاً حاسماً « قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » فإن كنتم ترعون أنكم على ملة إبراهيم فما هو ذا المحك أما على ملة إبراهيم ، وأنا أدعو إلى ملة إبراهيم ، إنى كان مستقيماً إلى الله ، وما كان من المشركين فما موقفكم من هذه الدعوة المستقيمة التى لا عوج فيها ولا اضطراب ؟ ثم يوجه المؤمنون كذلك أن يردوا على هذه الدعوى :

« قولوا إنما بالله وما أنزل إليي ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب



والأسباط ، وما أوى موسى وعيسى ، وما أوى السبون من ربههم ، لا تفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون .

بها إحداه تقرر حقيقة وتفطع الطريق على كل جدل فارغ وتعلل في ذات الوقت هذه السمة الخاصة التي تتميز بها تلك الأمة المهيمنة ، ذات الدعوة لعالمية .  
تقرر حقيقة إذ تقرر أن هذه الأمة قد آمنت بالله وما أوى إليها على محمد - صلى الله عليه وسلم ، وما أوى على الأنبياء جميعاً من قبل ، ولأنبياء جميعاً جاءوا بكلمة واحدة وقصبة واحدة لا إله إلا الله عدوا الله ما لكم من إله غيره وهذه الأمة مؤمنة بهذه الكلمة وهذه القصبة ، ومؤمنة بكل من جاء بها من الأنبياء والرسل من قبل ، لا تفرق بين أحد منهم ، وهي مسلمة لله الذي دعا إليه كل هؤلاء . . .

وتفطع لطريق على الجدول الفارغ إذ تقرر أن هذه الأمة مؤمنة بإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى وما أوى إليهم فيها يريد المجادون أن يقولوا أكثر من ذلك ؟ إن كل ما يقوله كل فريق منهم داخل في هذا الإقرار فيها بقى هم ؟ ! إنما هم الذين يكذب بعضهم بعضاً ، ويؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض سجدوا إلى أنفسهم ويصلحوا أحوالهم ! أما المؤمنون فما هم في حاجة إلى دعاواهم المتداعية ، فهم مؤمنون ابتداء - وحقيقة - بما يزعم كل فريق منهم أنه مؤمن به ، مجرد زعم لا صيد له من الواقع ولو كانوا هم مؤمنون حقاً بما يزعمون أنهم مؤمنون به ، لأدى بهم ذلك إلى الإيمان برسول الله - صلى الله عليه وسلم ، الذي يقول نفس ما قاله ، ويعرض نفس ما عرضه ، فضلاً على أنه يحمل ملة إبراهيم ويسير على هديها ، وهي التي يزعم كل فريق أنه مثلها الأوحداً

ثم إنها تعلل تلك السمة الخاصة التي تتميز بها هذه الأمة ، إنها لا تحمل في صدرها خرجاً من رسول سابق ، ولا تنكر كتاباً من الكتب لمرله . ويسمى يتصارع كل فريق منهم ، يثبت كتابه ورسوله وينهى كتب الآخرين ورسولهم ، تنهى هذه الأمة في أطمعها الإيمان وأصلها الإيمان ، تعلل أنها مؤمنة بالمرسل جميعاً ولكتب المنزه جميعاً . وأنها لا تحمل في صدرها عللاً لأحد ولا خرجاً من أحد ! إنها السمة التي يؤهلها العظيم في الأرض ، الذي يعلم الله أنه سيكون من نتائج دخول يهود وبصاري في دمة مسيحيين ، فيعاملونهم بالتسامح الذي يليق بالأمة الخاتمة ، والأمة الرائدة التي بيدها مشعل النور لكل البشرية !

ويستمر السياق يحاطب المؤمنين .

« فإن أموا بمثل ما أنتم به فقد اهتموا . » وهو احتيال ضعيف بعد الذي مر من تد  
سلوكهم !

« وإن تولوا فإننا هم في شقاق فيسبكيهم الله وهو السميع العليم ! شقاق مع الله ،  
وشقاق ما بين كل فرقة وفرقة ، وشقاق في داخل كل فرقة ! والله متكفل سبحانه بأن يكفي  
رسوله شرورهم وكيدهم ، وهو السميع العليم .

« صبعة الله . ومن أحسن من الله صبعة ؟ ونحن له عابدون . . »

إسما حسن . هذه الأمة المسلمة - صبعة الله ! إسما من صبح الله سبحانه ونعدي . على عيبه ،  
وعلى منهجه الرباني . ومن أحسن من الله صبعة ؟ هل هناك وجه للمقارنة بين هذه الأمة  
التي صعبها الله لتزدي تلك برسالة الخاتمة ، وفئات تلك الأمم التي احتفت صبعة الله منها  
بالتحرفاها عن الطريق ؟

« ونحن له عابدون » أما أنتم . . . ١٩

« قل أنا جوسا في الله وهو ربنا وربكم ؟ » .

إن سي إسرائيل يقولون داني « إله بني إسرائيل ! » كأنها هو إلههم وحدهم ! والنصارى  
يقولون « الرب إلهنا ! » ويقولون - يستعمر الله - « أبان لدى في السماوات » ثم ينكر  
هؤلاء وهؤلاء أنه - سبحانه - إله أحد غيرهم ! فهذا يرد عليهم

« قل أنا جوسا في الله وهو ربنا وربكم ؟ » فيقرر عقيدة هذه الأمة الصادية أن الله  
رب الجميع . .

« ولنا أعمالنا وبكم أعيانكم » واحكم في النهاية بالأعمال ، وليس بالدعوى التي  
يدعيها كل فريق « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل نعم يعذبكم  
بذنوبكم ؟ إن أنتم بشر من خلق يعمر لمن يشاء ويعذب من يشاء ! والله ملك السماوات  
والأرض وما بينهما وإليه المصير » (١)

« ونحن له مخلصون » أما أنتم فلتنظروا في أعمالكم ، ولتنظروا في قلوبكم ، لتروا  
مدى إخلاصكم الحقيقي لله ، اندي ترعون أنه يلحكم وحدكم دون بنية لعالمين !

« أم تقولون رب إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ؟ »  
تلك دعوى كل فريق ، التي يقول بها أن « يستعبد » على هذا الفريق من الأنبياء ليرحم  
أن العهد ما مضى فيه وحده !

(١) سورة المائدة ١٨

« قل : أأسم أعلم أم الله ؟ »

والله يقول إن هؤلاء لم يكونوا هودًا ولا نصاري ، فإنما جاء اليهود من بعد ، والنصارى من بعد ، فكيف كان السابقون هودًا أو نصاري ، قل أن يوجد اليهود ويوجد نصاري ؟  
« ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله » والشهادة عندهم من الله أن هؤلاء جميعًا أنبياء ورسل أمر اليهود والنصارى أن يؤمنوا بهم ، ثم أن يؤمنوا بكر من جاء مصداقًا لدعوتهم . « وإذ أخذ الله ميثاق النبي لما أنبئتم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لمدعكم نتؤمن به ولتنصرنه . قل : أفقررتم وأخستم على ذلكم نصري ؟ قانو أقروا !  
قل : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين »<sup>(١)</sup>

وهذه هي الشهادة التي يكتتمونها لأنها تلزمهم بالإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وهم لا يريدون . « حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق »<sup>(٢)</sup>  
وهنا يحىء التهديد

« وما لله بعاقل عما يعملون » .

ثم يجتم السياق مرة أخرى بصيغة المفصلة التي تفصل بين الأمنيين ، وتعلن انتهاء عهد الأمة الأولى ببدء عهد الأمة الثانية

« تلك أمة قد حلت ، هـ ما كسبت ولكم ما كسبتم . ولا تسألون عما كانوا يعملون »

\* \* \*

يمضى لسبيل من هنا إلى نهاية السورة بنظم للمسلمين حياتهم الجديدة في المدينة ، فيحدثهم في سياق متصل عن تحرير القبلة وموقف اليهود من هذا الأمر ، وعن الشركيين الذين يرفضون الإيمان وعن لمسى الحقيقى « بلر » الذي هو حفيظة الإيماء وعن القصاص ، وعن ابوصبة وعن نصيبام وعن الحج وعن القتال في سبيل الله ويرد عن تسوؤاتهم بشأن الخمر والميسر ، وسأنا ما يجب عليهم في الإنفاق ، وبشأن ليتامى ، وبشأن المحيض ثم يتحدث عن الآيات ، ويميز الإيلاء ، وعن الطلاق في بيان مفصل مستفيض ، وعن الإنفاق في سبيل الله ، وعن الربا ، وعن الدين والنجدة والشهادة في الدين والشهادة في البيع والشراء ثم يجتم لسورة بتقرير صورة الإيماء الذي آمنه الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنون ، وبالدهاء أن يعنى هذه لأمة مما وقع فيه من قبلها حرم ما وقع منهم من انحراف .

(٣) سورة البقرة ١٠٩

(٢) سورة آل عمران : ٨١ .

جوبة طويلة جدًا ، وموضوعات شتى ولكنها يرتبطها كلها ذلك الرباط المحكم  
أب معالم الطريق الذي تسير فيه الأمة الحديدة تقوم برسالتها الضخمة في إقامة الخلافة  
الراشدة في الأرض .

وقد لا يكون هناك ارتباط مباشر أو تسلسل معين بين الجزئيات التي يحويها هذا القسم  
من السورة كما هو موجود في السور الأخرى الأكثر تخصصًا وليس من المفروض في أي  
دستور عدم يضم حياة الناس أن يوجد فيه تسلسل معين . إذ أب أي تسلسل كأي تسلسل  
في هذا المجال ! فمطالب الحياة الشرية متعددة ومتداخلة وبحر نفوذ مثلاً في تفكير  
الملوب لقسم هذه سياسة وهذا اقتصاد وهذا اجتماع الح ولكن هل يوجد  
حققة تخصص كس في أي موضوع يقطع صده تمامًا عن موضوعات أم إنها في حقيقة  
الأمر متداخلة ومتراطة بأكثر من رباط ؟

إذن ما الرباط الذي يربط هذه الجزئيات جميعًا ؟

إنه يرتبطها رباط ..

الأول كما قد أب جميع معام في طريق الأمة تهتدي بها في سرها نحو غيها ، وصورات  
حوية ه لكى تبين الطريق  
والثاني أبها كها مستقنه من العقيدة فالعقيدة هي الشريان لدى بعدها جميعًا  
ويمسحها دلالتها

هي شأن تحويل الصلة يقول « سيقوم السعفاء من الناس م ولاهم عن هنتهم التي  
كانوا عبيها ؟ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم »

وعن المشركين يقول : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إن في خلق  
السموات والأرض وختلاف الليل والنهار والعنك التي تجري في البحر بها ينع الساس ، وما  
أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به لأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح  
وسبحان المسحر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقنون ومن الناس من يتحد من دون  
الله أدنًا بحومهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون  
العداب أن القوة لله جميعًا وأن الله شديد العذاب . . . »

وعن انقصاص يقول : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم لقصاص في تقتلوا ، فحر  
بآخر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى فمن عصى به من أحياه شيء فاتباع بالمعروف وأداء  
إليه برحمن ذلك تخفيف من وبكم ورحمة . فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » .

وعن الصيام يقول : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »

وعن الحج يقول : « حج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رش ولا فسوف ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن حير الرد لتقوى واثقون يا أولى الألباب »

وعن القتال يقول « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون »  
وعن المحبص : « يسألونك عن المحبص قل هو أذني ما عتزلوا الباء في المحبص ولا تقربوه من حتى يطهروا ، فإذا تطهروا فأنه من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين »

وعن الطلاق « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن يأخذوا مما ينموهن شيئاً إلا أن يخاف ألا يقي حدود الله ، فإن حصم إلا يقيها حدود الله فلا جناح عليهن فيما فتن به تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن بعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .

وعن الإيقاع . « الذين ينقضون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلاوة فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

وعن الربا « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من انس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وهكذا وهكذا في كل التوجيهات والسطيات والتشريعات

قل إننا ننتع موضوعات أسورة بالتفصيل ، فهي أكثر وأطول من أن يستوعبها بحسن هذا الحمل ولكن نقف وههنا عند بعض المواضع في السياق  
« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »

إن هذه الأمة ليست مكلفة أن تعيش لدانها فحسب ، ولا في حدود ذاتها فحسب ! إنما مكلفة بمهمة أخرى هي قيادة البشرية  
« لتكونوا شهداء على الناس »

والأمة القائدة الرائدة ينبغي أن تكون لها مواصفات غير الأمم العادية التي تعيش لديها  
محسب ، وفي حدود ذاتها محسب !

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً . . . »

والوسط في لغة العرب المحاطين بهذا القرب أول مرة تحمل معنى كثرة فالوسط هو  
الأفضل والوسط هو المعتدل والوسط هو المستوى والوسط هو المتوسط بين  
الأطراف

وكل هذه المعاني توهمت في تلك الأمة القائدة الرائدة ، لتكوب شهادة عن الناس

فطبيعة الإسلام هي « التوازن » والتوازن بمعناه الإسلامي هو المعين على « التوسط » .

ومن ثم كانت هذه الأمة لا مادية بحيث كهادية الحادله المعاصرة اليوم ولا روحانية بحيث  
كأخاهليات التي تظهر الروح تكنت حسد وتحميره وتعديه وإهمال مطالبه ، وبالتالي إهمال  
الحياة الدنيا كلها وإهمال عمارة الأرض

إنما هي أمة تأخذ بجانب من المادة بجانب من الروح وتعمل ما بين المادة والروح ولا  
تجعلهما في موقف الخصام والصراع ، لا يحقق أحدهما وجوده إلا بمحو الآخر وإعلاق  
أسبيل إليه !

وأمة تعمل لندنيا والآخرة في سياق واحد ، « بواردة » بسطة ، تجعل العمل عبادة  
والعبادة عملاً كذلك ! فتقوم بعمارة الأرض في حل الله والعبادة ، لا يعزل عن الله  
والعبادة ، ونقوم بشعائر العبد لصلاح الدي وصلاح الآخرة في ديت الوقت !

في سياستها توازن بين سلطه حاكم وسلطه الأمة فلا يطغى أحدهما على الآخر يحاكم  
له السمع والطاعة في المعروف والأمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح لولي الأمر  
في انتصادهما توازن بين الملكية الفردية ومصالح المجموع ، وبين المعس والمفام في  
المجتمع

في اجتماعها توازن بين الفرد والجماعة فلا يطغى الفرد فيحطم جماعة ، ولا تطغى الجماعة  
فتحطم الفرد

في تربيتها توازن بين إطلاق الدواع الفطرية بلا صياط فتقلب شهوات مدمرة ، وبين  
كبت هذه الدواع وتعطيل الحياة بالرهائية فتصميم « صواب » تصبط مطلق الشهوات  
وتتظف مجراها دون أن تكتها من مسجها .

في فكرها توازن بين « العلم » و « الإيمان » فلا يطغى العلم العقلي أو المادى فتكر

الوحي ولا يمسها إيمان بالوحي أن تتعلم وتجرب وتفت وتجتهد حيث كان مجال لكل  
داك وبذلك أقامت حركتها العنيفة لكبرى في عبر صراع مع العقيدة كجاهلية اليوم ، بل  
في ظل العقيدة ومنبثقة منها ، مهندبة بهدى الرسول - صلى الله عليه وسلم - « طلب العلم  
مريضة » .

وهكذا كانت هذه الأمة « وسطاً » في كل مجال من مجالات الحياة ، وبكل معنى من  
معاني الوسط . لتكون القائدة لكل البشرية

واليوم يجد المسلمون أنفسهم في ديل القفلة ، يهشون وراءه وهي تسبقهم على الدوام  
نعم لأنهم تحلوا عن تعاليم دينهم فقدوا مكان القيادة الذي أهبطهم الله له ، بل  
فقدوا مقومات وجودهم حتى في حدود ذواتهم !

ولا سبيل لهم إلى الحيلة الكريمة التي وعدهم الله بها إلا أن يعودوا لهذا الدين  
يتهمونه ويظنونه ويعشونه . . عندئذ يتغير الحال . . « إن الله لا يغير ما بقوم حتى  
يعرفوا ما بأنفسهم » (١)



« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر  
والملائكة والكتاب والنبين ، واتى بدل على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن  
السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام للصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا  
والبصيرين في الأسماء والصراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »

بص شامل من أقوى النصوص المبينة حقيقة « البر » الذي هو الإيمان

وإن المسألة ليست أداء آلياً لشعائر التعبد هي أياها هذه من عبادة !

إياها أمور اعتقادية داخل القلب وسلوك عملي في واقع الحياة

إيمان شعوري بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وانفاق في سبيل الله .

وإقامة للصلاة ووفاء بالعهد وصبر في الأسماء والصراء وحين البأس « أولئك  
الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »

إن التقوى ليست حمض الهامات تظاهراً بالخشوع كذلك الذي ضرب به عمر رضي الله  
عنه بالدرة وقال له : أمت علينا ديننا أمتك الله !

إنما هي هكذا كما حلدتها كتاب الله !

(١) سورة الرعد ١١ .

والخشوع في الصلاة من التقوى ولا شك <sup>(١)</sup> قد أطلع المؤمنين ، الذين هم في صلاتهم حاشعون <sup>(٢)</sup>

ولكن دين الله ليس أجراء يتقى الإنسان منها ما يروو له ويحمل سائرهما ثم يدعى التقوى والإيمان !

وإن هناك أقوامًا يقومون بتربية روحية لأنفسهم ولأتباعهم ، لا شك في جملة ، ولا شك في أنها من الإسلام ومن الإيمان ولكن ما عايتها ؟ وما قيمتها حين يسكرون عن أنفسهم وعلى غيرهم اجتهاد في سبيل الله ، والسعي لإقامة حكم الله في الأرض ، ولتكون كلمة الله هي العليا ؟

وإن واقع المسلمين في أي عصر من عصور لتاريخ ليحدده بالصسط كم يأحدون من دين الله وكم يدعون ! ويقدر ما يأحدون معه الشامل ، المتكامل ، ويعيشون به في واقع الأرض يكون تمكسهم في الأرض وفيهم برسالتهم الربانية العادية . ، ويقدر ما يقطعون هذه الدين أجراء . ، ويقدر حوائجهم من المعنى الشامل الكامل في المشاعر وفي السلوك يكون انكماشهم وتصاقهم . .

وهم اليوم في الدل الذي يرون .

فدينظروا لأنفسهم أين هم من دين الله الشامل المتكامل ولسألو أنفسهم عن مدى استحقاقهم لأن يكونوا مسلمين !

\*\*\*

« يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين »

إنها دعوة للمسلمين أن يدخلوا في « السلم » كافة ، والسلم هو السلام وهو ما الإسلام . . لأنه هو الذي يتمثل فيه السلام الكامل في داخل النفس ، حين تصطبغ كلها بحصنها مع بعض وينظم كلها في طريق واحد وعاية واحدة هو الطريق إلى الله إنه « لا طعنان » الذي أشارت إليه سورة الرعد « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » <sup>(٣)</sup>

وإنما « النفس المطمئنة » التي أشارت إليها سورة الفجر : « يا أيها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي » <sup>(٤)</sup>

(١) سورة المؤمنون ١ - ٢

(٢) سورة الرعد ٢٨

(٣) سورة الفجر ٢٧ - ٣٠



ولا يتأتى هذا الاطمئنان وهذا السلم الا حين تنصوى النفس كافة في داخل إطار  
لإسلام! حين تكون كل جرئة من جرئيات النفس ، وكل حابت من جوانبها قد استسلم  
لكامله الله . ولم يعد للشيطان قدرة على ما وشته وجده خارج إطار الإيمان<sup>(١)</sup>

لذلك فهو يخاطب المؤمنين هنا ولا يخاطب « الناس » . . .

المؤمنون هم الذين يستطيعون - وبر بالجهد - أن يدخلوا في السلم كافة ، يكافئ ما في  
أنفسهم من مشاعر وحواطر وتطلعات وآمان وآلم ، ويكفه ما يصدر عنهم من سلوك  
إلها مهمة ليست هينة - ويكفهم - عندما يصل المؤمن إليها بعد الجهد - تستحق ما بذل  
فيها من جهد ، ثم إن لها جراً ليس كالجراء<sup>(٢)</sup>

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا  
بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ولكم فيها ما تشتهى  
أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ، بولاً من عهود رحيم »<sup>(٣)</sup>



« أم حسنتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم أناساء  
والصبراء ولزولوا حتى يقول الرسول وائدين أمموا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله  
قريب »

إنه لا ابتلاء . سبه الله مع المؤمنين « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً ، وهم  
لا يفتنون ؟ ! ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكذابين »<sup>(٤)</sup>  
هل هو ضرورة « منحة » إلى هذا الحد ؟ ! هذا ، لعداب الذي يلقاه المؤمنون في الدنيا ،  
وخاصة في الحولة الأولى ، حولة الإنشاء ؟ أما كان من الممكن أن تتهاداه المؤمنين ، وتغر  
حياتهم في سلام ؟

لو علم الله أن ذلك هو الخير ما صنَّ بالخير على عباده المؤمنين !

ولكن الله هو الذي يعلم من خلق ، وهو لطيف الخبير

إنه يعلم سبحانه أن النعم لا تستقيم على الحق ، ولا تستقيم للحق ، ولا تتجدد الله لا  
بعد ذلك التمهيد الذي يتم بالابتلاء !

إن طبيعة النفس البشرية هكذا ! إذا سلمت وأمنت برهلت ودب العطب إليها !

« النفس كالحسم ! وحين لا يقوم الحسم يتدريبات عبيقة يترهل و يفسد ، و يعجز بعد

(٢) سورة العنكبوت ٢-٣

(١) سورة فصلت ٣٠-٣٢

قبل حتى عن أسعد الجهد ! وحين يفهم بالتدريبات الشاقة - وهي شاقة بل أن يتعودها ،  
فإن يعودها ذهبت مشقتها ! - فإنه يكون أحف وأشط وأرشق . وأقدر على احتمال الجهد  
دون أن يصيبه الجهد !

ولنعوس التي تعد لعظائم الأمور لأننا نعد لاحتمال الجهد دون أن يصيبه الجهد  
والطريق إلى ذلك هو التدريبات الشاقة ، التي تصل في مشقتها أحياناً إلى حد أن يقول  
الرسول والذين معه - من شدة الرزلة - « متى نصر الله ! »

ثم يمس الله على عباده ويرفع عنهم الجهد ويرفع عنهم الابتلاء . ولكن أرواحهم تكون  
قد أصبحت أحف وأشط وأرشق . ويعومهم أقدار على احتمال الجهد دون أن يصيبه  
الجهد .

ثم إن الابتلاء هو نزاع الإنسان من متاع حياه الدنيا . سواء كان هذا المتاع هو الطعام  
والشراب والمنس والملبس والمال والعشيرة والأهل أو كان هو الملكية المرموقة أو كان  
هو الأمن والسلامة والأطمئنان على الحياة  
والإنسان في أمه محسب أن هذه الأمور هي مقومات الحياة . وأنه لو فقدتها فقد  
مقومات حياته !

وهو بهذه الصورة لا يصلح لعظائم الأمور ! لا يصلح لحمل الأمانة الكبرى . فضلاً  
عن الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله

ولو ترك الإنسان لنفسه من يصلح من أمه ورحته ، وماله وأهله وعشيرته

فيأتي الابتلاء فينزعها نزعاً من هذه الأمور كلها أو بعضها

ويشعر في يادى الأمر دون شك بالمشقة

ثم تمر فترة المحنة ، وقد حرم مما حرم منه ، ومع ذلك فهو لم يفقد « مقومات » حياته ! بل  
به عن انعكس قد استشعر لوجوده طعماً لم يكن يستشعره من قبل ، وصار يتذوق قيماً  
ومشاعر وأعمالاً سلوكية لم يكن يتذوقها من قبل . .

لقد صار إنساناً آخر أرفع وأعلى مما كان قبل . وراى حباته ثراء ورحابة وعمق

فإن عاد للأمن بعد انتهاء محنة ، فلا يستغرقه متاع الأرض ، لأنه حرب بالهوى أنه  
يسر أرفع ولا أجمل ما في حياة الإنسان . .

وإن ذهب بقاء ربه . عدت الشهد . وبلغ أقصى مراتب الحياة !

ثم إن الإنسان عرصة - وهو مستمتع بالمتاع الأرضي - أن يسى لأخرة أو تصاعل حجمه  
في حبه !

إن المعربات كالخسبات في كيان الإنسان

قرب أصعبك من عينك تجده قد حجب عنك - على صالة حجه - مساحة هائلة من الفضاء . وأبعدك عنك يند لك في حجه الطبيعي ، ويظهر لك ما حجه مما كان حجه عنك

وكذلك حين يقترب الإنسان من منافع الأرض حتى يلتصق به ، فإنه يحجب عنه متاع الأحرى . ويحتاج أن يتعد أو يتعد عن هذا المتاع فترة ، يراه على حقيقته ، صغيراً ضئيلاً في الحقيقة ، ويرى ما كان يحجه من نعيم أكثر وأمتع وأعظم وأحد لكل ذلك فإن الله يوجب الانتلاء عن عباده المؤمنين لأنه يحجبهم ويس لأهم - عنده - غير جذيرين بالمتاع !

\* \* \*

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .  
إنها طريقة الإسلام الواقعية في التربية . .

إنه لا يكره عليهم كرههم لقتال ولا يفرص عليهم فرصاً أن يتجردوا من مشاعرهم الشرية الفطرية !

ولكنه ، يقر هذه المشاعر الفطرية من حيث المبدأ ، لا يتركها على حالها دون رفع أو تطهير أو توجيه . إنه فقط لا يستكرها منهم لكي لا يوقعهم في شد عصبي بين واقعهم وما يسعى أن يكونوا عليه ولكنه يوجهها بما يؤدي إلى رفعها وتطهيرها والصعود بها إلى القمة المطلوبة

وكذلك فعل بأمر القتال يقرهم على أنه « كره » هم . ثم يوجههم إلى أنه ليس كل شيء يكرهونه يكون شراً فقد يكرهونه ويكون فيه الخير ، وقد يحبونه فيكون فيه الشر ومن هذا المحيط يجدهم في أعلى فيستجيبون طائعين ويصلون إلى قمة لا مثيل لها في التضحية والفداء !

\* \* \*

« يا أيها الذين آمنوا لا تبصروا صدقاتكم بالمال والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثل صمون عليه تراب فأصابه وابل فتركه صنفاً ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدي القوم الكافرين » ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله رتينا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فانت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطن . والله لا يعمدون بصير » .

إن بلقرآن عناية كبيرة بها نسميه « مشاهد الطبيعة » .

وهو لا يستخدمها فقط في توجيه الحسن الشرى لآيات الله في الكون ، وهو العرض الأساسى الذى ترد فيه مشاهد الطبيعة . . إنها يستخدمها في مجالات أخرى تدور « فية » بحثة !

وهو هنا يستخدم مشاهد الطبيعة لتمثيل حالتين « مستيتين » هم الإيمان رثاء الناس والإيمان انتعاء مرضاة الله . .

وفي ذلك درس لمن أراد أن يسأل هل للإسلام صفة مانع ؟ أو هل يجوز لمسلم أن يشعل بالنار ؟ !

إن لحيال التعبيرى جزء من كتاب الدعوة الأعظم فحين يستخدم المسلم النفس لدعوة فهو في نطاق الإسلام لم يعاذه . .

ولكنه النفس الطيف الملتزم بالتزامات الإسلام<sup>(١)</sup> !

\*\*\*

والآن نأتى إلى ختام السورة

« آمس الرسول بها أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا يفرق بين أحد من رسله ، وقلوا سمعنا وأطعنا وعزائمك ربنا وإليك المصير »

ألا ترى هناك شبهة بين الاعتناج والجامعة ؟

« اسم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقسمون انصلاة وبما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » .

به وهو يحكم السورة بلخص مرة أخرى سمات هذه الأمة المميرة ، لتتوهمها للعلامة الراشدة في الأرض .

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن سبنا أم أخطأنا ، ربنا ولا يحمل علينا حملنا على الدين من قبلنا ، ربنا ولا تحمِلنا ما لا طاقه لنا به ، واعف عنا و غفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »  
« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »

---

(١) انظر « منهج النفس الإسلامى »

وسواء كان هذا تقريراً ربانياً حقيقةً ربانية ، أو كان حراً من الدعاء معه . رب لا تكلمنا فوق وسع . فإنه تقرير لحقيقة أن التكاليف التي فرضها الله في هذا الدين هي في وسع النفس البشرية ، وليست خارجة عن احتياها .

ثم يُلهم المؤمنين أن يدعوا بهذا الدعاء الخاشع الخامع الحميل  
« ربنا لا تؤاخذنا إن سبنا أو أخطأنا » وقد استجاب الله للدعاء الذي ألهم به عباده  
يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - إن الله وضع عن أمتي الخطأ والسيئان وما استكبروه  
عليه (١) .

« رب ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبل » ولإشارة إلى أن إسرائيل  
الذين فرضت عليهم القيود بسبب عدوانهم في السبت وسبب كفرهم وانحرافهم . وما  
يبدو التناقض بين بدء السورة وختامها . فهي أوها تحدث عن بني إسرائيل يوجه المسلمين إلى  
انحرافهم لكي لا يقع في مثلها . فالآن تحتتم السورة بدعاء المؤمنين ألا بصيهم مثل ما  
أصاب بني إسرائيل من قبل

« رب ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » وهو دعاء طبيعي من كل نفس بشرية في الوجود  
ولكنه هنا ليس تهرباً من التكاليف . فقد سبق أن التكاليف التي فرضها الله في هذا الدين  
ليست خارجة عن وسع البشر . إنما هو دعاء للتخفيف من الاتلاء وليس للتهرب من  
التكاليف .

« فاصبرنا على القوم الكافرين » . المدير جاء في سياق السورة أنهم لا يكهون عن قتال  
المؤمنين .

---

(١) أخرجه ابن ماجه

## سُورَةُ آلِ عَمْرَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«أَلَمْ يَلَمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ بَرُّكَ عَلَيْكَ لَكَبَ بِالْحَيِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، مَنْ قَبِلَ هَدَى لِلدِّينِ وَأَبْرَأَ لِفِرْقَانِ إِبْنِ لَدِينِ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ . إِنْ اللَّهُ لَا يَحْكُمُ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . هُوَ الَّذِي يَصُورُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رَيْعٌ فَيَسْعَوْنَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَاتَّعَاءَ مَأْوِلِهِ . وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَ بِهِ ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ رَسَائِلُكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنْ اللَّهُ لَا يُخَفِّفُ الْمِيعَادَ . إِنْ أُنذِرُوا كَفَرُوا لَنْ تَفْنَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ كَذَّابٌ آلُ عَمْرٍاءَ وَالَّذِينَ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَحَدَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْرٌ مَنُوعُونَ وَمَحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبَشِّرِ الْمُبَادِلَ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْقُرْآنِ ؛ فَتْنَةُ تَقَاتُلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ، يَرَوْنَهُمْ مَشِينًا رَأَى الْعَرَبُ ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصْرَةَ مَنْ يَشَاءُ . إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ » .



هذه السورة ، على طولها ، فهي ثالث سور القرآن من حيث الطول ، مشعولة بموضوع واحد من أبدى إلى النهاية ، هو معركة لا إله إلا الله ! إن هذه المعركة - يمكن عيادتها ، وكل وسائلها ، الحسنى منها واللعنوى ، والبدنى منها والروحي - ذات أهمية بالغة في حسن الإسلام ، هي معركة الوجود كله بـأسسها للقلب المؤمن ، الذي امتلأ بحقيقة لا إله إلا الله إن هذا القلب الذي أقر بلا إله إلا الله ، واستقرت فيه حقيقة الألوهية وحقيقة الربوبية وحقيقة المعروية ، لا يمكن أن يبدأ أو يستقر كي تستقر القلوب الخاوية إلا أن يرى هذه

«حقيقه الرمانية قد استقر وتمكنت في الأرض وإنه بواجد لآله إلا الله أعداء كثيرين في الأرض ، يحاربونها لكي لا تستقر ! يحاربون بكل وسائل الحرب ، الحسية والمعنوية ، والبدنية والروحية يحاربونها بسبل والسلاح ، ويحاربونها بالندعاية المعرصة ، ويحاربونها بالثشكيت في قيمها وأصولها ، ويحاربونها بمحاولة زلزلة المؤمنين بها وحرحتهم عن عقيدتهم ، ويحاربونها بانتظار ما تناعف ثم الرجوع عنها لعل المؤمنين بها يرجعون عنها وهكذا لا يتركون وسيلة واحدة من وسائل الحرب إلا اتبعوها . لأنهم يكرهونها ، ولأنهم يحسدون أهلها عليها في ذات الوقت ، ولأنها تسعى إلى اسرداد السلطة المعنصة من أيديهم وردها إلى صاحبها الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى ، ولأنهم تدعو إلى التطهر والنظافة وهم يكرهون تكاليف التطهر والنظافة إلى أسباب كثيرة بدعوهم إلى كراهيتها ومحاربتها مما إذا يعمل المؤمن إزاء هذا كله ؟

إن هذه السورة كلها متحصصة في هذا الموضوع  
إنما تحدث المؤمن عن طبيعة المعركة ومحلاتها ، وعن أعداء لا يله ودواعيهم هذه العداوة ، وعن الوسائل التي يتحدونها صلبه وصد دعوته ، وعن واحده هو إراء ذلك كله حديثاً مستفيضاً يستغرق ما تبقى آية كاملة هي كل آيات السورة ويجول به حولات واسعة ما بين الدنيا والآخرة ما بين المتاع للقعد عن الجهاد في الدنيا والمتاع المكافئ عن الجهاد في الآخرة ما بين اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين وهم الأعداء الأربعة الذين يكرهون للإسلام ويحاربونه ما بين معركة لجدل ومعركة السلاح ما بين النصر والهزيمة ما بين القضاء والقدر ومسئولية الشر ما بين الفرار من المعركة والاستشهاد في سبيل الله ما بين المنفيين في سبيل الله والناحليين بها أتتهم الله من فصله ما بين قصص الماضي وقصص الحاضر . . وما بين الأرض والسماء !



«الآن الله لا إله إلا هو الحي القيوم برل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام » .

بده يشبه في بعض جوانبه بدء بعض السور المكية ، ولكننا نلاحظ بعض الفروق فيها يذكر التوراة والإنجيل باسميهما ؛ وكان في السور المكية يذكر ما نزل من الكتاب من قبل مجملأ بغير تفصيل . وذكر التوراة والإنجيل هنا مقصود بالذات بمناسبة الحديث عن اليهود

والنصارى وموقفهما من الإسلام . ثم إن هذا الافتتاح « العقيدى » تترتب عليه هنا نتائج معينة ، تتصل بمعركة لا إله إلا الله ، فهو لا يذكر لتأسيس العقيدة فقط ، كما كان الحال في السور الملكية ، إنما لأمر تتصل بالعقيدة في حياة الأمة الجديدة وتترتب عليها .

إن الآيات الأولى من السورة في الحقيقة ، إلى قوله تعالى « إن في ذلك لعدة لأولى لأبصار » هي تلخيص وافي للموضوع الرئيسى للسورة . فالمقدمة هنا تشير إلى ما ستناوله السورة من موضوعات ، وكل إشارة فيها متصلة بحزء من صلب الموضوع .

« لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَلِدْ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ »

سلك هي القصيدة الرئيسية في السورة وفي القرآن كله . قصيدة لا إله إلا الله والتي سجد أن السورة كلها تدور حولها من شتى حواشيها . فمجيئها في افتتاح السورة يشعر بأنها هي الموضوع الذي تناوله السورة بالتفصيل

« برز عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان . . . » .

نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً للتوراة والإنجيل . وهو الذي قد أنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ، وهو الذي ينزل الفرقان اليوم لذات العرص وهو هداية الناس . وما بال اليهود والنصارى لا يؤمنون بالكتاب الذي برز مصدقاً لما معهم ، وما بهم يريدون أن يسكروا على الله سبحانه أن يرسل كتاباً جديداً بعد التوراة والإنجيل ، بينما هو مصدق لما فيهما فضلاً على أنه ليس من حق بشر أن يعرض على الله سبحانه وتعالى أن يرسل كتاباً جديداً حين يشاء

إن هذا كله لا يذكر صراحة في افتتاح السورة ، وإن يذكر في أثنائها بتفصيل وتوضيح ولكل نريد أن بين أن الإشارة الواردة في افتتاح السورة هي إشارة ذاتية . كأنها يذكر رموز موضوعات كلها في مقدمة السورة لبتناولها بالشرح والتفصيل بين بعد ثم يجيء ذكر العلة الثالثة التي تعارض « لا إله إلا الله » وتحاربها « إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام »

و « الذين كفروا » تشمل في الواقع كل المعاصرين للإله إلا الله ، المحاربين لها ، أي أنها تشمل اليهود والنصارى والمشركيين والمذبحيين ، ولكنها - اصطلاحاً - ترد في وصف مشركي مكة الذين لم يكونوا قد أسلموا بعد ، ونجى ، الفئات الأخرى بأسمائها الخاصة أو بامتناع هذه الإشارة إلى الذين كفروا في مقدمة السورة تعنى أن الحديث المفصل ستناوله



وإد يضع هذا التهديد « والله عزيز ذو انتقام » يسترسل لسياق في الحديث عن  
لألوهية ، قصيدة السورة الرئيسية

« إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء » هو الذي يصوركم في الأرحام  
كيف يشاء . لا إله إلا هو العزيز الحكيم »

فهو إد يهددهم بأن الله سينتقم منهم لقتلهم ، يعلنهم أنه - سبحانه - لا يخفى عليه  
شيء من أفعالهم ، لأنه لا يخفى عنه شيء في الأرض ولا في السماء وهو العليم بهم ، لا  
مد هذه اللحظة الراهنة بل مد كانوا أجنة في الأرحام فهو الذي يصور البشر في أرحام  
أمهاتهم كيف يشاء . . ومرة أخرى يقرر لقصيدة الرئيسية في السورة : « لا إله إلا هو » ويكرر  
وصفه لله سبحانه بأنه عزيز . قوى مضافاً إليه وصفه بأنه حكيم وحكيم ترد في القرآن  
بمعنيها : حكيم من الحكمة ، وحكيم من الحكم . وكلاهما مناسب لسياق .

« هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما  
الذين في قلوبهم ريب فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا  
الله والراسخون في العلم يقولون أما به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب »

هو - العزيز الحكيم سبحانه - أنزل عليك هذا الكتاب منه آيات محكمات ، هي المتصلة  
بحقيقته لا إله إلا الله . والمتصلة بالأحكام الشرعية والتطبيقات السياسية والاجتماعية  
ولاقتصادية والخلقية والتربوية . وأخر متشابهات كالأحرف الموجودة في أوائل أسور  
وحقيقة الاستواء على العرش الح فأم « الذين في قلوبهم ريب » . وهؤلاء هم الفرقة  
الرابعة من معارضي لا إله إلا الله ومحاربيها ، وهم المنافقون ، يحییء ذكرهم هنا في ملخص  
السورة لا باسمهم وإنما بفعالهم ويحيیء ذكرهم إشارة إلى أن لسورة متشابهات الحديث  
عنهم تفصيلاً كما تناول اليهود والنصارى والمشركون أما « الذين في قلوبهم ريب » هؤلاء  
فتتبعون هذه المتشابهات لتؤولوها تأويلاً يشكك المؤمنين في عقيدتهم « ابتغاء الفتنة » . وما  
يعلم تأويلها الحقيقة إلا الله وما أرب إلا ليعلم الذين يؤمنون بالغيب ويسموا لله إيماناً  
وتصديقاً ، والذين تريخ قلوبهم فتخدونها مادة للفتنة أم « الراسخون في العلم » أي في  
الإيمان فيقولون : « أما به » لأنه أت من عند الله « كل من عند ربنا » فالله الذي أنزل  
لحكيم هو الذي أنزل المتشابهة ، وكلهم آمنوا بالحكم لأنه أت من عند الله ، فهم كدرك  
يؤمنون بالمتشابهة لأنه من ذات المصدر ، الذي يؤمنون بكل ما يحيىء من عنده . وما يذكر  
إلا أولو الألباب » . فأصحاب البصائر المفتوحة هم الذين يذكرون الحقيقة فيؤمنون . وهذه

العبادة ربي تكون استمرازا لكلام الراسخين في العلم ، وربما تكون من خطاب الله المباشر ، ويستوى - كما ذكرنا من قبل - ان تكون هذه أو هذه - وإن كان الراجح أن تكون استمرازا لكلامهم ، فإنهم يعودون بعد ذلك فيستردون في الحديث :

« رب لا تزع قلبنا بعد إذ هديت ، وهب لنا من لدنك رحمة إنا أنت الوهاب ربنا إناك جامع الناس ليوم لا ريب فيه . إنا إليه لا نجلف الميعاد »

إنهم يدعون الله ويتضرعون إليه ألا يرح قلبهم كأولئك لما فقيس ، وأن يتم فصله عليهم بعد إذ هداهم فيشتهم على الإيمان ، وأن يرحمهم بهذا الإيمان الثابت منه منه وفصلاً فإنه وهاب . ولنعبر « وهب لنا من لدنك رحمة إنا أنت الوهاب » فيه تصنع إلى كرم الله السبع أن يهب لهم هذه الرحمة ، وأن تكون واسعة شاملة تناسب مع كرم معكم « الوهاب »

« ربنا إناك جامع الناس ليوم لا ريب فيه » إنهم يعلنون إيمانهم لراسخ بهذا اليوم الذي يجمع فيه الناس ، وكأنما يقدمون هذا الإقرار مؤهلاً لطلب رحمة الله بهم في ذلك اليوم ، والإنعام عليهم بنعيم الجنة التي وعدهم بها « إنا الله لا نجلف الميعاد »

ثم يعود إلى تدبر كمروا بمناسبة يوم الجمع الذي لا ريب فيه ، وبمناسبة النعيم الذي يناله المؤمنون

« إن الذين كمروا لن تعني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقور سار كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا باياتنا فأحدهم الله يدبرهم ، والله شديد العقاب »

إنهم يعترفون عتزازاً باطلاً بأموالهم وأولادهم يظنون تخميتهم من عذاب الله « وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعدين » « ههنا يقولون هم إن أموالهم وأولادهم لن تعني عنهم من الله شيئاً . ومن تحول بينهم وبين مصيرهم الذي ينتظرهم عذاباً ثم يرسم لهم صورة مؤفة « وأولئك هم وقور سار » إنه لا يقول إنهم سيُعذبون في جهنم ، ولا إن جهنم ستحرقهم . - فالحيل يمكن أن يتوقع هذه الصورة وتلك - والمشاعر حين يتصور لإنسان لنار وهي تلتهم هذا الوقود الحي !

ثم يهددهم بأنهم يسوقون أنفسهم من فرعون ومن قبله وهم يعرفون مصيرهم ، فأولهم أن يعترفوا بذلك المصير

« قل للذين كمروا متعلبون ، وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد »

والخطاب هنا موجه لليهود الذين أعجبهم ولا شك هزيمة المسلمين في أحد ١ وانتشت  
 نفوسهم التي كان لصبر السحق في بدر قد كسها وأثقلها وكانوا قد قالوا للرسول - صلى  
 الله عليه وسلم - لا يعربك أنك انتصرت على بعض رجال من قريش لا خبرة لهم بالحرب  
 إنما حين تلقانا عدًا نعلم أننا نحن الناس ١ فهم يقول للرسول - صلى الله عليه وسلم - أن  
 يندركهم بأنهم سيعلنون ، ثم يحشرون يوم القيامة إلى جهنم ، ويذكروهم بما كان من أمر  
 المشركين في بدر ، وأن الله الذي نصر المسلمين يومئذ وهم قلة ، على الكفار الذين كانوا  
 يبدون في نظر المسلمين مثلهم مع أنهم كانوا ثلاثة أصعاقهم في الحقيقة ، هو الذي يؤيد  
 المؤمنين ويمحق الكفار ، وإذ فلا مطمع هم في النصر ، مادام الله هو الذي يتولى المعركة  
 ويقرر مصائرهم ، وليس البشر من هنا أو هناك ١

« قد كان لكم آية في كتبنا ، فقتلنا ، فقتلنا في سبيل الله وأحرى كاهنة ، يورسهم مشهم  
 رأى العين ، والله يؤيد بصبره من يشاء ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأنصار . »  
 وإذ يتحدث عن لفظة الكاهنة فإنه يتحدث عن دوافع كفرهم ، التي تصدهم عن  
 الإيمان .

« رين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة  
 والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب »  
 هذا هو سر ابتعادهم عن الإسلام . . يريدون متاع الحياة الدنيا بعير حد . ويرون أن  
 الإسلام سيحرمهم من ذلك المتاع ١  
 « رين للناس حب الشهوات . »

والتعبير موح بتعمق هذه الشهوات في كيان الإنسان فهو لا يقول رين للناس  
 الشهوات ، بل يقول « رين للناس حب لشهوات » ولشهوة حمة إلى النفس  
 بداتها ، فإذا رين هذا حب كذلك ، فهو إذن حب واغل في الأعماق  
 ثم يعدد تلك الشهوات « من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة  
 والخيل المسومة والأنعام والحرث . »

إنه بالنسبة لجميع في هذا السياق كل الشهوات المحبة إلى النفس . أو كل « الدوافع  
 الفطرية » في الإنسان ثم يعلن أنها مريضة للناس  
 وبناء الفعل للمجهول هنا يستوقف النظر كثيرا  
 إنه لا يقول كما يقول في مواضع أخرى - رين لهم الشيطان أعمالهم -

وقد قل سيدنا عمر لما مرت هذه الآية «والآن يارب إدريتها لـ ا» قيل هزلت الآية الثانية : «قل : أؤسثكم بحير من ذلكم ؟»

به عما لا شك فيه أن هذه «حقيقة واقعة» بالنسبة للإنسان ، أن هذه الشهوات عميقة في حسه ، واعدة في أصماقه .

وبما لا شك فيه كذلك أن الله هو خالق هذه العطرة الشريفة ، وهو الذي أودع فيها - بحكمة يريد - هذه الدواعي العظيمة ، وجعلها قوية دفعة دفعة

بأن الله جعل الإنسان حليمة في الأرض ، وكلفه بعمارتها ، وما كُفَّ أحد هذه العمارة إلا الإنسان ، وما أقبل أحد لعمارتها غيره . ورب هذه الدواعي - بكر قوتها - لم ي من بين المؤهلات التي أقر بها الإنسان للقيام بعمارة الأرض . فهي التي ندفعه للإنتاج وللإنشاء ، وللتعمير وللتصنيع . ولولا عمق هذه الدواعي العظيمة وقوتها لصدت صعد كثيرة دون الإنسان وعمارة الأرض ، ولقى حياته كلها محصوراً في نطاق ضيق من الأرض ، ونطاق ضيق من الحياة .

وإذن فقد كان بحكمة عبي أن تكون هذه الدواعي بهذه القوة في كبد الإنسان ولكن الله العليم الحكيم ، الذي أودع العطرة تلك الدواعي القوية لم يدعها تعمل وحدها . والله يعلم سبحانه أنها إن عملت وحدها فسوف تعطب الإنسان وتدمره . وإنما جعل معها ضوابط تصعد اصطافها ، وجعل هذه الضوابط عظيمة كذلك كما أن الدواعي عظيمة وجعلها بحكومة نقره الإنسان المريدة الواعية التي اكتسبها من لصحة العلوية في قصة الطين . «إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرًا من طين ، فإذ سوينه ونفخت فيه من روحي ، فقعدوا له ساجدين»<sup>(١)</sup> وبمس وما سوف فأنهم فحورهم وتقورها ، قد أضح من زكاهما ، وقد خاب من دسها»<sup>(٢)</sup> .

فالإنسان إذن بفطرته مشتمل على دواعي عظيمة وضوابط عظيمة وفي حالة التوازن بين هذه وبذلك فإن الإنسان يكون كما خلقه الله «في أحسن تقويم» أما حين تعلب الدواعي العظيمة فتتقلب إلى شهوات مدمرة فهي ينقلب الإنسان «أسفل سافلين» . «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا»<sup>(٣)</sup>

وهذا هو المجال الذي يعمل فيه الشيطان . تزيب هذه الشهوات بقدر زائد من الحد وتخدل الضوابط عن العمل وتخدريها ، حتى تحف قنصتها فيسسى للشهوات أن تنطلق بلا ضابط !

(١) سورة ص : ٧٢-٧١ (٢) سورة الشمس : ٧-١٠ (٣) سورة التين : ٤-٦

ومن هنا يأتي الفعل « رتب » مسبباً للمجهول ليتسع للمعنيين معاً في ذات الوقت !  
فهى صورتها الطبيعية المترمة بحدود الله ، هى مربية من عند الله وفى صورتها  
العاجضة ، عبر المصرة بحدود الله ، هى مربية من عند الشيطان  
و لتلصح هـ إلى المعنى الثانى ، لأنها هنا قصد لمن عن الإيثار ، وإن كان هذا لا ينفى  
المعنى الأول الذى فهمه عمر - رضى الله عنه - لذلك يقول فقط إن هذا متاع الحياة الدنيا ،  
دور أن تصيع متاع الحياة الدنيا فى موضع اندم ، بل بقول فقط إن لله عنده ما هو خير منه  
« ذلك متاع الحياة الدنيا ، وله عنده حسن المآب قل أؤتيكم بحير من ذلكم ؟  
لندين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأرواح مطهرة ورضوان من  
الله ، والله بصير بالعباد الذين يقولون ربنا إنا آمنا ، فاعمر لنا دنونا ، وقد عذاب النار ،  
الصابرين والصادقين والقانتين والمتقين والمستعبرين بالأسحار »  
إن الله اللطيف الخبير ، الذى خلق ويعلم من خلق ، يعلم أنه لا يوجد علاج لطعيان  
الشهوات على كيد الإنسان إلا الإيثار بالآخرة !  
فحيثما تكون الحياة فى حسن الناس هى الحياة لدنيا وحدها ، ولا بعث ولا حساب ، ولا  
حياة بعد الموت ، فهى إذن فرصة وحده إن صاغت من تعود فرصة هذا العمر المحدود ،  
لدى يتقضى يوماً بعد يوم وكل يوم ينقضى لا يعود ! وإذن فمن لحتم عندهم أن يملأوا  
كل لحظة بأكبر قدر من التمتع فى صوف أيديهم من أن تذهب تلك الفرصة الواحدة المحدودة !  
ولذلك يتكالب الناس عن شئ فى الشهوة التى لا تؤمن باليوم الآخر ، ويؤذى سهم التكالب  
إلى الصرع  
أما حين يكون هناك إيثار باليوم الآخر ، وسعيهم دائم للمتقين ، ومتاع حاد لا يبعد ،  
فهي تحم حدة الشهوة ، ويحف وزن المتاع الأرضى فى حسن الإنسان ، فلا يصبح ذلك لثقل  
المرهق الذى يثقل أساس إلى الأرض حتى ينصقروا مائعين ! ويستطيعون صمد أن يكتفوا منه  
بالتقدير «مقرون الذى أن حه الله ويلتزموا بحدوده من يستطيعون أن يتجمعوا منه أكثر حين  
يدعو داع إلى الجهد ، فيحرم الإنسان حتى من النعيم المباح .  
لذلك فهو يقول هنا بعدم قرر غلبة حب الشهوات على الناس . « قل أؤتيكم بحير  
من ذلكم ؟ » ثم يعرض النعيم الأحاد الذى أعده الله للمتقين ، الذين يأخذون من متاع  
لدنيا بالنصيب المباح الظاهر خلال الذى حددته حدود الله ، ويمتنعون عن متاع لرائد  
على تلك الحدود

« بلدين اتقوا عند ربهم جناب تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأرواح مطهرة ورضوان من الله . »

حات حائدة بدلاً من هذه النعيم الدائم الراتل وأرواح مطهرة بدلاً من شهوات  
«حسن الدسة التي تتعلق بالمحرمات وأهم من ذلك كله وأجل ، وأشعب وأصعب  
«ورضوان من الله » وأي نعيم أكثر من ذلك الرضوان ؟! عند جسده متاعه والروح  
متاعها الرضوان .

« . والله يصير العباد الذين يقولون رب إن آمنا ، فاعف لنا ذنوبنا وقتنا عذاب النار »

إن الله يصير عباده هؤلاء الذين سيدخلهم الجنة ، عليم بأحوالهم وأعمالهم إليهم هم  
الذين يقولون « ربنا إننا آمنا » فقولوا إليهم بالله ، ثم يتطعمون إلى معمرته . « فاعف لنا  
ذنوبنا » ويستجيرون من عذاب النار : « وقتنا عذاب النار »

ولكن الله لصير عباده لا يدخلهم الجنة ويمسحهم الخلود والرضوان لمجرد أسم قالوا  
ذلك وإنما لأهم مع هذه المشاعر الإيمانية لمياصة يعملون  
« الصابرين والصديقين والقانتين والمنفقين والمستمعين بالأسحار »

ولها لصورة شديدة للمؤمنين ، صورة تجذب القلوب إليها بجمالها وشفافيتها وتطهرها  
وارتفاعها . .

هؤلاء يستحقون رضوان الله حقاً فقد أهلوا أنفسهم بمشاعرهم لإيمانية وسلوكهم  
الإيماني لذلك الرضوان

أم أولئك الذين علت عليهم شهواتهم فإسهم لا يؤمنون ، وبصرون على الشرك الأثم  
وهم في عملهم يعمهون لذلك يعلن إليهم حقيقة الألوهية

« شهد له أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز  
حكيم »

إنها حقيقة شهد بها الله ذاته ، سبحانه وتعالى وأي شيء أكثر شهادة من الله ؟  
والملائكة كذلك يشهدون ، وأولو العلم من بشر ، الذين آمنوا بالله ورسوله كل أولئك  
يشهدون أنه سبحانه إله واحد لا إله إلا هو قائماً بالقسط يقيم هذا لكونه بالقسط  
والحق ولذلك نزل الكتاب بالحق وهو يحاسب الناس على أعمالهم يوم القيامة بالحق .

فماذا بقى لهم بعد هذه الشهادة من الله والملائكة وأولى انعلم ؟ ألا فيمضوا في عمالياتهم ،  
عن يعبروا من ملئت الله شئاً

« لا إله إلا هو العزيز الحكيم »

فهو قوى عزيز لا يعيبه أحد من أولئك المحاذلين بعير الحق . .

وبلاحظ أنه كرر في الآية الواحدة قول « لا إله إلا هو » وأن هذه هي المرة الرابعة منذ  
بدء السورة ، ونحن ما نزال نأواندها وفي ذلك إشعا بالأهمية القصوى هذه القصيدة ،  
قصيدة الألوهية ، انتهى هي محور السورة كلها ، ومحور المعركة الدائرة من حارب الكافرين  
والمعارضين

وإذ تحدث عن هذين المشركين وعن دوافعهم شئ تدفعهم للصد عن سبيل الإيمان ،  
والإصرار على الشرك ، فهو يتحدث كذلك عن مرقه أخرى من الكافرين والمعارضين  
أولئك هم اليهود

« إن الدين عند الله الإسلام وما خفف لذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم  
العلم بغير سهم ومن يكثر بايات الله فإن الله سريع الحساب فإن حاجوهُ فقل  
أسلمت وحيى به ومن اتقى ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم ؟ فإن أسلموا  
فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإننا عليكم البلاء ، والله بصير بالعدا إن الذين يكفرون بآيات  
الله ويقتلون النبيين يعير حق ويعتدون الدين يأمرون بالقسط من الناس فشرهم بعدا  
أليم أولئك الذين حطت أعمالهم في ادب والآخرة وما لهم من ناصرين ألم تر إلى الذين  
أوتوا نصيباً من الكتاب يدعوون إلى كتاب الله سبحانه ثم يتولى فريق منهم وهم  
معرضون ذلك بأنهم قاموا لنفسهم لئلا أنام معدودات ؟ وعزهم في دينهم ما كانوا  
يمترون فكيف إذا جمعهم ليوم لا ريب فيه ، ووميت كل نفس ما كسبت وهم لا  
يظلمون ؟ »

« إن الدين عند الله الإسلام »

والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من نوح آدم إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - وكل نبي  
دعا إلى الإسلام ، بمعنى إسلام لوجه له . ولكن لفظة الإسلام قد صار لها معنى  
اصطلاحي ، هو دين محمد - صلى الله عليه وسلم - ولدين معه وهو معنى لا يتعارض  
مع المعنى السابق ولكنه تخصيص له . كأنها معناه إن الدين على دين الإسلام - الآن بعد بعثة  
محمد - صلى الله عليه وسلم - هم المؤمنون بهذا الرسول وحدهم في الأرض كلها دون غيرهم

من الناس وقد كتب أتباع كل رسول في وقته - مسلمين - وأتباع نوح كانوا مسلمين ، وأتباع هود وصالح ولوط وشعيب كانوا مسلمين ، وأتباع إبراهيم عليه السلام كانوا مسلمين ، وكذلك كان أتباع موسى وعيسى عليهما السلام مسلمين . أما الآن - بعد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم - فالإسلام هو هذه الرسالة التي بعث بها محمد - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون هم أتباع هذا الرسول

فحين يقول السياق « إن الدين عند الله الإسلام » يعبر عن معنيين في آن واحد . إن الدين عند الله مد خلق آدم إلى أن تقوم الساعة هو أن يسلم الناس وجوههم لله ، ويطيعوه ويتبعوا ما أنزل من عنده . وإن الإسلام الآن هو اتباع هذا الرسول الأخير ، المرسل بالقرآن ، مصداقاً لما بين يديه وخاتماً للرسل والرسالات . .

« ومن اختلف الدين أوتوا لكتاب إلا من بعد ما جاءهم لعلم بغيا بينهم »  
 إن كل رسول قد أوصى قومه باتباع ما يأتي بعده . ثم إن موسى وعيسى عليهما السلام قد سآ قومه بصمت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأمر قومه باتباعه عند ظهوره .  
 لم « جاءهم العلم » لما جاءهم تحقيق ما يعلمون من أمر بينهم ، وما هو مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل اختلفوا ، بمعنى خالفوا عن الطريق وأبوا أن يطيعوا رسوليهي موسى وعيسى باتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - فخرجوا عن الإسلام سواء برفض الدخول في دين لرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو مرسل من عند الله ، فطاعه واجبة هذه لاعتبار ، أو بمخالفتهم لأمر رسليهم . ولذلك قدم بقوله « إن الدين عند الله الإسلام » ونسب بقوله إن أهل الكتاب خالفوا عن طريق الإسلام بعد ما جاءهم تحقيق ما يعلمون من أمر الرسل السابقين « بعيا بينهم » وطعياً ونجوراً للحظ لسلم . فهذا إذن هو دافعهم إلى الكفر كما كان دافع المشركين هو حب الشهوات ، ودافع المنافقين الريع الذي في قلوبهم . وهي اسباب متقاربة في النهاية بالنسبة لهم جميعاً ، ولكنها تحمل لونا من التخصيص بالنسبة لكل فريق

« . . ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب » .

من يكفر بآيات الله من هذه الفرق جميعاً ، بما فيهم أهل الكتاب ، « فإن الله سريع الحساب » وقد أشرب من قبل إلى أنه يستوى أن يكون هذا الحساب في الدنيا أو في الآخرة فهو سريع في كلا الحالتين <sup>(١)</sup> .

(١) راجع سورة برعد عند الحديث عن قوة تعالى « والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب »



« فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعني وقل للذين أوتوا الكتاب ولأمة أسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد »  
والذين كانوا يحاخون لرسول - صلى الله عليه وسلم - من أهل الكتاب في ذلك الوقت كانوا هم اليهود وإن كان النصارى قد جاءه يحاخون بعد ذلك في نفس السورة ، ووجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم بما يشبه ما رده عن اليهود

« فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعني » وقد سبق القول بأن الذين عند الله هو الإسلام - إسلام الروح لله - فما هو ذا الرسول - صلى الله عليه وسلم - يوجه أن يقول للذين يحاخونه من أهل الكتاب « أسلمت وجهي لله ومن تبعني » . فأما أنا ومن اتبعني فقد أسلمنا ، فما موقفكم أنتم ؟ أسلمتم ؟

« وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين - أسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا »  
والخطاب هنا شامل للمعريين جميعاً أهل الكتاب ومشركي مكة ، الذين يربصون بالإسلام أسلمتم ؟ فإن أسلموا - وهذا احتمال بعد ما رأينا من مواقفهم - فقد اهتدوا ، وكسبوا الأجر

« وإن تولوا فإنما عليك البلاغ » .

إنك لست مكلفاً هدية لناس ، ولا أنت تملك ذلك - والله وحده هو الذي يملك - إنما أنت مكلف بالبلاغ ، وهذا الذي تملكه بالفعل وأمر الخلق بعد ذلك إلى الله  
« والله بصير بالعباد » يعلم ما في قلوبهم ويخبرهم بما يعلم من أحوالهم وهذا حال فريق من أولئك العباد ، الذين يقرر لسبق أن الله بصير بهم  
« إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، فيشرهم بعذاب أليم أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما هم من ناصرين »

ومن يكن أولئك غير اليهود ؟ إن أعمالهم هذه من لاشتهاد بغير حق لا يلزم أن يُسْمَوُا بأسانهم ، وإنما تكفى الإشارة لأعمالهم ليُعْلَمَ من هم ! إسم أصحاب أسود سحر في تاريخ الأمم التي أرسل إليها رسل وأنبياء ! يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير حق - هل يمكن أن يقتل نبي بحق ؟ ! إنه التعبير لتطبيع عملهم ذلك ، فالنبي الموعود للناس بالهدى هو آخر من يمكن أن يوجه إليه التكمية بالقتل ، بل إن ذلك لا يسمى في حق نفس بشرية عادية فكيف يسمى ؟ ! ولا يكفون بقتل الأنبياء ، بل كل من قام من الناس بأمر بالعدل

كان مصيره القتل على أيديهم ، لأن العدل هو عدوهم الأول خلال تاريخهم كله ' لا لأن العدل يظلمهم - وحاشا للعدل أن يظلمهم - ولكن لأن شهواتهم الإحرامية الخائفة تصطدم دائماً بالحق والسعد ، ويمس يدعون إلى الحق والعدل من الرسل والأنبياء والبائس ، فيكرهون هذا كله ، ويتقنون من الرسل والأنبياء والدعاة إلى العدل من البائس فيقتلونهم جميعاً متى وجدوا الفرصة السانحة لذلك !

\* . . فبشرهم بعباب آليم \* .

ومن يستحق العذاب لأليم أكثر ممن يكفر بآيات الله ، وأكثر من قتلة الأنبياء والبائس ؟!

« أولئك الذين حطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما هم من باصرين » .

حطت أعمالهم بمعنى أحرق ولم تأت بالنتيجة المطلوبة . ولكن أصلها اللعوى من حطبت الدابة أى أكلت عشباً مسموماً وتصححت فماتت . ولذلك يعبر اللفظ عن شئيين معاً في ذات الوقت . انتفاح أعمالهم لفترة من الوقت كأنها باحجة ، ثم إحراقها في النهاية وبطلان مساعيها .

فأولئك حطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما هم من باصرين

وسيدو واقع اليهود في الوقت الحاضر استثناء من هذه الصورة ولا شك . وإلى ذلك تشير السورة في بعد [ آية ١١٢ ] « صرنا عليهم الدنه أي ثقفوا إلا نحمل من الله وحمل من البائس » . « وستحدث عنها إن شاء الله في حينها »

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعوون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ؟ » .

ولو كانوا غير ذوي كتاب هربا كان مفهوماً منهم أن يعرضوا حين يدعوون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، وإن كان غير مقبول ذلك منهم مادام الكتاب منزلاً من عند الله ، وفيه من اليات ما بشت ذلك . فما بال هؤلاء وقد أوتوا نصيباً من الكتاب من قبل - وهو لنوراه - وعرفوا أن الله يرسل كتباً على رسوله بالوحي ، ولم يعد الأمر غريباً عليهم ولا مفهوماً ؟ إن عراضهم يكون أعجب من إعراض الأميين وأدعى إلى الاستنكار . لذلك يعجب السياق منهم بقوله : « ألم تر » .

ثم يعف عند ملاحظة أخرى . إن السياق يسمى البائس « نصيباً من الكتاب » . ويسمى القرآن « كتاب الله » .

والتوراة - انسنة - هي كتاب الله ولا شك وقد قال هم من قبل في سورة البقرة : « وإذ أتى موسى الكتاب والفرقان لعينكم تهتدون »<sup>(١)</sup> ولكنها وفيها كانت هي « الكتاب » لأنها يومئذ هي لكتاب المعتمد من السماء . وهي انقدر لدى أنزل من كتاب الله حتى ذلك الحين . فأما بعد ما أنزل القرآن وتم كتاب الله المنزل ، فقد أصبح القرآن هو « كتاب الله » ، لأنه هو المصدق . بل من لكتاب واهيمس عليه كما قال في سورة المائدة : « وأنبأنا إياك انكتابنا بحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه »<sup>(٢)</sup> وأصححت التوراة « نصيباً من كتاب » .

ثم إن الإنسان ليطلع معنى معيياً في تسمية ما عند اليهود « نصيباً من الكتاب » ذلك أن اليهود شديدو الاعتزاز بما في يدهم من التوراة - بصرف النظر عن تحريمها - فكأنها يريد السيق أن يظامن من اعتزازهم الباطل هذا ، حيث يرفعون أسهمهم وخدمهم الأمة ذات الكتاب في كل الأرض . ويسمون عرهم « الأميين » أو « الأعميين » فيقول هم إن ما في أيديهم ليس إلا « نصيباً من الكتاب » ! إنها « الكتاب » لكامل الشامل هو هذا القرآن الذي يَدْعُونَ إليه ليحكم بينهم فيعرضون . .

ولماذا يعرضون ؟<sup>١٩</sup> إنه سب سادح مصححك ، ولكن كم من المصححات الساذجة يدخل في كيان الأمم ويصحح جرءاً من مكوناتها !  
« ذلك بأنهم قالوا : لن نمس النار إلا أياماً معدودات ! ! وعزهم في دينهم ما كانوا يفترون ! »

إهم شعب الله المختار . مدلل الذي ليس في الأرض أمة ذات كتاب غيره ! ومن ثم فإن لهم أن يكفروا بآيات الله ، ويقتلوا النبيين بعبر حق ، ويقتلوا الذين يأمرهم بالقسط من لدن ، ويكذبوا أنبياء الله ، ويرفضوا الدخول في الإسلام . ثم لا يذنبهم على ذلك كله إلا أن عسهم النار أياماً معدودات ! ! يخرجون بعدها ليرثوا اسعيم الخالد الذي لا يروا !

وهي سداجة مصحكة ولا شك . فإن الله قد فور أن من يكفر به ويرسله ، ويريد أن يعرق به وبين رسله ، أو سهم بعضهم وبعض ، فحراؤه جهنم خاتماً فيها : « إن الذين يكفرون نالك ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض

(١) سورة البقرة ٥٣

(٢) سورة المائدة ٤٨

ويريدون أن ينجسوا بين دينك سيلاً ، أولئك هم الكافرون حقاً ، واعتدوا للكافرين عذاباً مهيباً<sup>(١)</sup>

وهيها أياماً معدودات كما يرعمون ! من ذا الذي يعرض نفسه - عامداً - لأيام معدودات من النار ولعمرة الواحدة في النار تنسى الإنسان كل نعيم الأرض ؟ ! يؤتى بأشد أهل الأرض شقاء يوم القيامة فيعمس عمسة في النعم ثم يقال له : هل رأيت شقاء قط ؟ يقول لا باري ! ويؤتى بأشد أهل الأرض نعيماً يوم القيامة فيعمس عمسة في النار ثم يقال له : هل رأيت نعيماً قط ؟ يقول لا باري !<sup>(٢)</sup> أو كما قال عليه الصلاة والسلام فمن د الذي يعرض نفسه عامداً لأيام في النار لقاء أي ثم من على الإطلاق ، إذا كانت العمسة الواحدة فيها بهذا الهول ؟ !

« فكيف إذا جمعهم ليوم لا ريب فيه ، ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ؟ » يومئذ سيعلمون أنها ليست أياماً معدودات : إنها هي العذاب المهيمن الذي لا يطبقه أحد على الإطلاق !

\*\*\*

« قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وترفع الملك من تشاء ، وتعرف من تشاء وتدبر من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير توبخ الليل في النهار ، وتولج ليل في الليل ، وتخرج الحي من ميت ، وتخرج الميت من الحي ، وترقق من تشاء بغير حساب »

يتن من بات العقيدة تأتيا في وسط لسبق كأنها تفتعده ! فقبلها كـ . يتحدث عن اليهود ، ويحيى من بعد : « لا يتحد المؤمنون الكافرين أو بناء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، إلا أن تتقوا منهم تقاة » فما الصلة بين ما قل وما بعد ، وما صلة الآيتين المعترضتين بهذا ذلك ؟ !

الحقيقة أن هناك صلة عميقة جدداً ، وأن السياق مستمر بغير فصل على الإطلاق ، كما ستبين من شرح الآيتين

إن الآيتين دعاء في صورة تقرير واقع ، أو - إن شئت - تقرير واقع في صورة دعاء !  
« قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وترفع الملك من تشاء ، وتعرف من تشاء وتدبر من تشاء » .

( ٢ ) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد

( ١ ) سورة النساء ١٥٠ - ١٥١

به دعاء لأنه مصدر بكلمة « انهم » وهي بداء لله سبحانه ومعاني ولكن الأتيين بعد  
 ذلك لا تخجلان دعاء مباشرة ، إنما تخجلان دعاء متصفاً خلال تقرير هذا الواقع الرباني  
 أن الله سبحانه وتعالى هو مالك الملك ، الذي يؤتي الملك من يشاء ويرفعه من يشاء ، ويرفع  
 من يشاء ويدل من يشاء ، والذي بيده خير وهو عن كل شيء قدير ، والذي يولج الليل في  
 النهار ويخرج النهار في الليل ، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويرفق من يشاء  
 بغير حساب كأنها يقول يا اله اندي تملك كل هذا وتملكه وحدك دون شريك أنا  
 الملك ولا ترعه ما ، وأعزها ولا تدل ، وأنا محاييدك من الخير ، وارزقا بغير حساب  
 وهذا الدعاء . بهذه الصورة التي تقرر حقيقة ربانية يأتي بعد وصف حال اليهود ،  
 ووصف أفعالهم التي استوجبت سحب العهد والاستعلاف منهم ، فكأنها الدعاء يقول  
 يا رب ، يا من برعت لملك من اليهود حواء على ما فعلوه ، وأدلتهم في الأرض ، وأتيتنا  
 لعهد ومكنت لنا في الأرض ، اللهم لا تبرح العهد والتمكين ما ، وأعز بعزتك إيت على  
 كل شيء قدير

وهذه هي نصبة الوثقة بين هذا الدعاء الخاشع وبين السياق فيه .  
 ولك وقعت مع هذا الدعاء قبل أن نتصل منه إلى ما بعده ، وبين صلته بما بعده  
 إنه دعاء خاشع جداً لا يملك الإنسان أن يمر به دون أن يخشع قلبه لجلال الله  
 وعظمته ، سبحانه المعز المقل .

إن عملية الملك واسعة في الأرض ، وانتقالها من يد إلى يد ، من أكبر الأمور إثارة للاهتمام  
 في حياة البشر . وهم ينامونها مباحة تكاد تكون يومية . فيستطرون كل يوم في ميراث  
 القوي هل تعير أم هو على ما كان عليه بالأفس ومن أشد الأمور تأثيراً في نفوس الناس  
 وهمراً لمشاعرهم أن يصبحوا فداد ملك قد زال ، وتأسس ملك غيره ، وعرة قد هوت فاستقلت  
 إلى دل ، وقام مكانها عر غيره

وعن هذا التوتر احساس ، الشديداً التأثير ، يوقع لقران هذا الدعاء الخاشع الذي يمس  
 أهم ماب البشرية وتأثراتها من مباشرة

« قل اللهم مالك الملك . تؤتي الملك من تشاء وترفع الملك من تشاء وتعر من تشاء  
 وتدل من تشاء . . . » .

فربط القلب البشري ربطاً نهائياً الملك ، الذي هو لصانع هذه الأحداث كلها ،  
 المعلن لما يريد ، وهذا اسمه « مالك الملك » تذكر لقب الشري - إن كان سعي ، وكثيراً

ما يسمى - بالقوة الحقيقية التي تحرك الأحداث في حياة الناس - الأحداث لا تحدث من تلقاء ذاتها ، ولا للأسباب الظاهرة التي يكتل الناس إليها في عصفهم تفسير الأحداث وحركتها . إنما تحدث بإرادة من مملك الملك ، الفاعل لما يريد .

ولا ينبغي ذلك أن توحد الأسباب ، ولا ينبغي أن تكون له سبب يجرب في الأرض ويجري بها الأحداث ، ولا ينبغي أن الله سبحانه - رحمة منه بعباده - قد يتنهم هذه السبب وحشهم على تدبيرها لكيلا يقعوا في حتميتها التي لا تحابي أحدا ولا تتحلف من أجل أحد . كل هذا وارد وموجود . ولكن يبقى بعد ذلك كله أن المرجع لأول والأخير في أحداث الكون كلها هو إرادة الله ومشيئته . ولا تحدث في الكون إلا ما يريد الله .

وحيث يرتبط لمراد لقب البشرى بمالك الملك على هذه الصورة ، ومن هذا التوتر ، احساس الشدائد التأثير ، فإننا يوجهه أن يتطلع إلى الله وحده . لا إلى أي قوة في السموات والأرض غير الله . بذلك يبدأ هذا السداد : ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ . فهو الذي يبدى ، وهذا الذي يدعى ، وهذا الذي يتطلع القلوب إليه لا إلى سواه . لأنه هو الذي يؤتى الملك ويرعه وهو الذي يعز ويدن . فمن شاء شئت من هذا بعبه أو لغيره ، [العره لفسه والدل لعدوه] فليتطلع إلى ملك الملك وحده دون سواه .

وليس معنى هذا ألا يأحد بالأسباب

هذه قصية مختلفة تمام الاختلاف . ولن يكون عاملاً بأمر الله إن لم يأحد بالأسباب ، لأن الله هو الذي يأمره بذلك . وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم <sup>(١)</sup>

إنني المقصود فقط هو ألا يركن بغير الله ، ولا يتطلع بغير الله . لأن أحداً غير الله لا يصنع الأحداث ، أو يؤتى ملك أو سريع الملك أو يعطى العرة أو يعطى الدن . فمعنى ، ويأحد بالأسباب كما أمره الله ، ثم يتطلع إلى الله وحده ولا يتطلع إلى سواه .

﴿ . بيبك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾

فمن أراد الخير ، من أي أنواع الخير ، فليتوجه إلى الذي هو على كل شيء قدير . لأنه هو وحده سبحانه الذي يملك أن يعطى الخير المطوب

﴿ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ، وتخرج الحي من الميت ، وتخرج الميت من الحي . وترق من ثناء بغير حساب ﴾

(١) سورة الأنفال ٦٠

إنها آيات القدرة الربانية . فهو مالك الملك الذى يؤتى الملك من يشاء وينزعها من يشاء . وهو القادر الذى ترى قدرته فى إيلاح الليل فى النهار وإيلاح النهار فى الليل ، وإخراج الحي من الميت كما يخرج الميت من النذرة التى لا قدرة لها على النمو والحركة ، وإخراج الميت من الحي فى حالة موت الكائن الحي وتموت خلاياه كلها ومكوناته الحية ، ويسط الرق لمن يشاء كما يشاء .

نعم إنها آيات القدرة ، يمر الحس عليها متسللاً بتأثير الإلف وانعادة فلا يتدبر هذه الآيات ولا يعطيها دلالتها الحقة ، ويمتته السياق إليها ليتغنى شحنتها اكاملة ويدرك دلالتها .

ولكن . . إنها آيات مختارة فى هذا الموضع باندات !

بحركة الليل والنهار هى دنيا حركة الأحداث أ وهى التى تستوعب فى داخلها الملك لدى يأتى والملئ الذى يروح ، ولعر الذى مأتى والعر الذى يروح ! فهى سميت مجرد آية من آيات القدرة ، ولكنها لآية الشديدة لارتباط بحبل الأحداث ، الذى تمسك به يد القدرة الإلهية ، تتحرك به الأحداث فى أثناء ولوح الليل فى النهار ولوح النهار فى الليل . أما خروج الحي من الميت وخروج الميت من الحي فهو حصد موبر كذلك ومقارب لخروج العر من الدل وخروج الدل من العر . وذهب الملك ومحيته فالصورة كلها متلاحمة بالأحرى متأسقة الخطوط والألوان

١ . وترق من نشاء بغير حساب

فمن تطلع بى لورق والورق ليس كنه مالا ولا طعام ولا كساء فملك رق ، والعر رق فمن تطلع بى شيء من هذا كنه فليتوجه بتطلعه إلى الله ولا يتوجه لأحد سواه .

علب الآن فهمنا ، أو أحسست بالصلة بين هذا الدعاء الخاشع لدى يملك أقصر لنفس ، وبين ما يجيء بعده !

« لا تتحد المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء - إلا أن تتقوا منهم تقاة - ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير »

إن الدعاء يرجع الصلب المبشرى للارتباط بالله ، لا يطلب العزة من أحد سواه والآن بقوى السياق للمؤمنين - لا تتحدوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين تعون عنهم العزة . . والعزة عند الله ، ويمسحها الله ، ولا يمنحها أحد سواه !

هل تبين الآن صلة السياق ١٩

إن المناقش كانوا يلجئون إلى اليهود ، يقولون نبتعي عندهم العرة . وكان عبد الله بن أبي راس المناقش بن بذلك اتصالاته مع اليهود . فانساق بحذر المؤمن أن يصغر ذلك الذي يصغره المنافقون . ويقدم هذه التوجيه بذلك الدعاء الخاشع المؤثر الأحاد . وهذا جاء التوجيه جاء والقبيل يبص هذا المعنى بحرة ، والوحدان يفعل به والمشعر تتحرك ، فيكون ذلك أدعى إلى الاستجابة من محي التوجيه بعبر هذه التقديم الحمة الباطنة المنفعة المتأثرة .

وهكذا صارت التوجيهات ، العقيدة في السور المدنية لا تحيئ لتأسيس العقيدة - فقد أسست وتوطدت - إلى تحيئ - بحسب الذكر - ليشق منها توجيهات سياسية واقتصادية واجتماعية ، وتقدم عليها تطبيقات في كل هذه الجوانب ، فتكون أوسع وأثبت ، وتكون أديم وأبقى

ولكن السياق لا يقول لا يتحد المؤمنون الكافرين أولياء من دون الله ! بل يقول :  
« لا يتحد المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين »  
ولا تعارض بين المعنيين !

فإن الله يسمح العرة من عبده للمؤمنين ، حين يكون ولاؤهم بعضهم لبعض وصفهم متهايك ، ويلوهم مترابطة . فحين يتحد المؤمنون المؤمنين أولياء ، هناك مما يؤهلهم للعة الرياسة ، والله يقول « والله العرة ولرسوله وللمؤمنين »<sup>(١)</sup> أما حين يتحد المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين فإنهم لا يستحقون بذلك العرة الربانية التي يسمح للمؤمنين المستقيمين على أمره .

« . إلا أن تنفوا منهم تقاة » .

فعدتد يمكن أن تصعو ما تصون به شرهم ، حاشا ولاء القلب ، وحاشا كشف أسرار المسلمين هم ، وحاشا لناصر معهم ضد المؤمنين ! فهذه ليست تقية إنما ولاء . وليست تحرير أزمة إنما ميل وهمة !

ولأن هذا الباب - باب النجاة - يمكن أن يبعد منه الشيطان سهولة يربى لنصحاء ومرضى الغيوب أن يركنوا إلى أعداء الله قال بعدها مباشرة  
« ويحذرکم الله نفسه . وإلى الله المصير »

(١) سورة المنافقون ٨



يخدركم في ادب أن تتحدوا هذا الباب مكاة ، ونستسهلوا هذه الكبيرة . وهي موالاة أعداء الله . وسدركم أن إلهه منصرف ، فيحاريكم على ما فهم في ادب ، فلا تحسبوا أن يرمكوا هذه الكبيرة في الأرض . محادعين أنفسكم أو محادعين لدنس . ثم تحووا من عذاب الله و الآخرة

« قل إن تحموا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء يود لو أن سها ونسه أعداً بعيداً ويخدركم الله بهسه ، والله رءوف بالعباد »  
« قل إن تحموا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن سها ونسه أمداً بعيداً ويخدركم الله بهسه ، والله رءوف بالعباد »  
استمرار في التحذير . .

« قل : إن تحموا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله »

فلا تحسبوا أنكم يستطيعون أن تحموا عن الله شيئاً مما تحمونه عن الناس أو تبدوه والحديث متصل حول النقطة دها ، وهي اتحاد الكافرين أولياء ، كما يشعر بأهميتها الدلعة وما من شك في أهميتها القصوى في حياة المسلمين . فما أرى المسلمون في نكبتهم الكبرى إلا من هذا الباب . كذلك كانت نكبتهم الكبرى في الأندلس ، حين اتحد مؤسسون الكافرين من نصبيين أوبياء من دون إخوانهم المؤمنين ، وتحالفوا معهم ضد بعضهم البعض فوجعت البكة الأليمة . وكذلك كانت نكبتهم لثانية في فلسطين ، التي مهد لها من لأصل اتحاد المؤمنين الكافرين من الصليبيين المحدثين أولياء من دون إخوانهم المؤمنين إذ تحالفوا معهم ضد ابنه لمسلمه فسقطوا وسقطت وذهب فلسطين

من أجل ذلك يشدد الساق جداً في التحذير .

« قل إن تحموا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض »

فعلمه ليس مقصوراً على ما في صدوركم مما تحمونه أو تبدون ولكنه يعلم ما في السموات وما في الأرض جميعاً ، فأين يهربون منه ؟  
« والله على كل شيء قدير »

فهو يحاسبكم - بقدرته - لا تحموا - ويحاريكم احراء الذي يوفق أعمالكم

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محصرًا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدًا . . »

في ذلك اليوم لنرى مُخَصَّر فيه الأعمال كلها خيرها وشرها . . فأم الخير بأهلآ به . . وأما السوء فتود كل نفس لو يُتَعَدَّ عنها ويُحَقَّى فلا يطلع عليه أحد ، ولا يوضع في الميزان . . ولكن هيهات أن تفر منه أو يُتَعَدَّ عنها . إنه ملازم لها حتى يسم الحساب والجزاء

« ومحذركم الله نفسه . والله رءوف بالعباد »

مرة ثانية يحیی التحذير على تلك الكبرة المكرة . . في حرك لها انقلب من قبل بذلك الدعاء الخاشع ، ويحرك لها انقلب الآن بالتحذير ولكن التحذير الثاني يبدو عريًا لأول وهلة . . يد تصحبه هذه العادة - « والله رءوف بالعباد »

كيف يكون محذيرًا ! ثم تكون رافة ؟

نرى ! إن التحذير من الرافة ! والله سبحانه وتعالى لا يأخذ لباس ولا يجزيهم قبل أن يعطيهم ، سيرهم . ومن رافته بهم يعطيهم ذلك لتحذير ، لتحسوا الوقوع في المحذور !

« قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ، يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم . والله غفور رحيم قل ، أطيعوا الله والرسول ، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين »

إنه الإعلان الأخير للذين يتعبدون في هذه الكبرة . الذين يرغمون في ذات الوقت - هم وأولياؤهم من اليهود - أنهم يحبون الله !

« قل ، إن كنتم تحبون الله فاتبعوني . »

إن أمرة الحب الحقيقية هي هذه ! . . اتبعوني ! فاحب لبس دعوى ثقل باللسان ، بما يسعى أن يصحبها عمل ذات عليها ، ويسعى ألا يصحبها عمل مضاد لها ! وأنتم تزعمون أنكم تحبون الله . فإن كان كذلك فاتبعوني . فهذه هي علامة الحب الحقيقي ؛ وحين ذلك سيحبكم الله . .

« . . فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم »

إن الله - سبحانه - واسع المغفرة . إنه يبدها بذلك لمن يسعون طريقه . فيغفرهم عثراتهم في أثناء الطريق . وهو يحب الناس في مغفرته ، ويدعوهم أن يتعرضوا لها بأن يتبعوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويطيعوه

« قل ، أطيعوا الله والرسول ، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين »

هكذا باختصار حاسم قوى تدحض قضية الإيهان كلها .

إن الإيهان ليس مجرد دعوى ولن يكون إنما هو انطاعة لله والرسول ولطاعة  
دلائله وطرائقه فإن تولوا عن طاعة الله ورسوله ، فآلف دعوى من دعاواهم لا تعطيه  
صحة الإيهان ولا الإسلام . .

« قول الله لا يحب لكافرين » . .

\* \* \*

الآن وقد أجد جولة مع اليهود وأتباعهم من السفليين ، يأخذ جولة أخرى مع نصارى ،  
بيست منقطعة انصلة عن بني إسرائيل فإن عسى عليه السلام قد بعث أصلاً إلى بني  
إسرائيل ، فما أحسن منهم انكسر قال من أنصاري إلى الله ، فاتبعه الخواريون وقالوا نحن  
أنصار الله فاصروا هم وأتباعهم هم النصاري . .

ومن ثم يأتي بقصة عيسى - عليه السلام - وصيه بين بني إسرائيل والنصاري كما يأتي  
بالقصة لأنها هي موضع فتنة أنصاري إذ أهوا عيسى - عليه السلام - لأنه ولد من غير أب  
فذلك يروى القصة من أولها ، وعلى حقيقتها ، ليس للنصاري موضع فتنتهم ، وأهم مضوا  
بيها على غير الحق . وذلك كنه سماسة عيسى ، وقد نحروا من النصاري لمحاكاة الرسول -  
صلى الله عليه وسلم - في أمر عيسى عليه السلام .

« إن الله اصطفى دم ريوخا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من  
بعض والله سميع عليم ، إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل  
منى ، بك أنت اسمع العليم فلما وضعها قالت رب إني وضعها أنثى - والله أعلم  
بما وضعت - وليس الذكر كالأنثى ، وإني سميتها مريم ، وإني أعيدها بك ودرسي من  
لشيطان الرجيم فتقبلها رب بقبول حسن وأنتها سائناً حسناً ، وكفلها زكريا ، كلما دخل  
عندها زكريا المحراب وجد عنده رزقاً ، قال يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند  
الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب اهاتك دعا زكريا ربه ، قال رب هب لي من  
ولدك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فهدته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله  
يشرك بحبي ، مصداقاً بكلمه من الله وسيداً وحسباً ونبياً من الصالحين . قال رب أنى  
يكون لي علام وقد تدعى الكفر وأمرأتى عاقراً ! قال كذلك الله يفعل ما يشاء ! قال رب  
اجعل لي آية ! قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمراً وأذكر ربك كثيراً وسبح بلعشى  
والإنكار . وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله صبغاك ، وطهرتك ، واصطفاك على نساء

العالمين يا مريم انتى بربك واسجدى وركعى مع الراكعين . ذلك من أنباء انعيت بوحية إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكمل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون ، إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وحيها في السما والآخرة ومن المقربين ، ويكلم ناس في المهد وكهلاً ومن اصباحين . قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسى بشر ؟ قال كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنى يقول به كى يكون ! ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولاً بنى سى إسرائيل أنى قد حثكم بآية من ربكم . أنى أخلق نكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فكون طيراً بإذن الله ، وأرى الأكمه والأرض ، وأحيي الموتى بإذن الله ، وأنشكم بها تأكلون وما تدحرون فى بيوتكم إذ فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ، مصداقاً لما بين يدى من النوراة ولأحسن نكم بعض الذى حرم عليكم ، وحثكم بآية من ربكم فاتقوا الله ، وأطيعوا . إن الله ربي وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم »

إن قصة عيسى عليه السلام ، سواء هنا أو فى سورة مريم لمكية ، من أحسن القصص وأشدها تأثيراً فى النفس . وهى تأتى مفصلة فى هذين لموضعين فى القرآن ، ولا تأتى فى غيرها إلا إشارات عائرة ، كآلى فى سورة النساء ، وسورة المائدة ، وسورة الأنبياء ، وسورة الرحمن . . .

ولى نفق عبد القصة بآية كى فعبا نفه السياق ، فالفصه عبه نفه ، مؤثرة بآيتها

إنما نفق مع السياق ونفها

به يبدأ القصة من أوها ، لىكون سمها حاضرة بن يذى الحذل الذى جادله النصارى مع لرسول - صلى الله عليه وسلم - بشأن عيسى عليه السلام . ولكن انده فى الحقيقة يأنى من أول آدم ! حتى يصل - عبر نوح وآل إبراهيم - إلى آل عمران الذين ولد فيهم عسى ! وهذا النده - منذ أول الخيفة - يؤدى ها غرضين اثنين . . .

فأمرص الأول هو بن خط الاصطفاء لربانى من أول آدم عليه السلام حتى يصل إلى آل عمران . بما يمهد للنفس أن تتلقى أسماء الاصطفاء فى آل عمران بانتباه وسوف . إذ أنه اصطفاء عريق جد ، يرحم إلى نده الخليفة ، ويمضى خلال لتاريخ ، بقدر من الله ، حتى يصل إلى آل عمران . ويحيى هذا كله تمهيداً لاصطفاء مريم ، ذلك الاصطفاء الفريد فى التاريخ كله ، ثم اصطفاء وندها عيسى عليه السلام .

أما العرض الثانى فيى أن المعجزة فى عيسى عليه السلام ليست مفردة فى التاريخ ! فقد

سبقتها معجزة حتى آدم حين ذاب المستوى من الإعجاز ويعبر أب في الحانتين وقد  
 نص السياق على ذلك نصاً بعد إكمال القصة ، عند بدء الخلق مع البصاري حيث يقول  
 [آية ٥٩] « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قارب به كى يكون ! »  
 ثم تأتي قصة امرأة عمران حين بدت ما فى بطنها لله على عدة أهل تلك العرة إذ  
 كانوا يبدرون أساءهم للمعبد تقرت لله ، فعش الولد فى معد يتلو ويتعد ولا تقرب الحياة  
 الدنيا ! وتلك « عقدة » القصة ، فقد وبدت أنثى ولم تلد ذكراً كما كانت تسمى والأنثى لا  
 يمكن أن توهب للمعبد كما يوهب الذكر إلا أن الله من عليها ، وتقبل منها هبتها ،  
 وقبل أن توهب للمعبد بدلاً من الذكر الذى كانت تسميه !

وهنا نقف مع امرأة عمران تدعو وهى تكاد تحرم - بمشاعرها - من شدة التمس ، أن  
 يكون ما فى بطنها ذكراً فتعنه للمعبد ويستطيع أن يتصور البصيرة والمدحاة حين وضعها  
 أنثى فتأدى ربه رب بنى وصنعها أنثى وليس الذكر كالأنثى ! لقد كان الإنسان  
 يتصور أن يقول ويستأنس لأنثى كالذكر ! فكون الكلام منطقياً مع الواقع ! ولكن امتلاء  
 حياتها بالوليد الذكر الذى كانت ترحوه هو الذى يجعلها تقدم الذكر على الأنثى ، كأنها  
 تقوى - وليس الذكر الذى يسميه لأهله بمعبد ، كالأنثى لئى وصنعها ولا يمكن أن توهب  
 للمعبد !

ونكن الله يتقبل منها هبتها ويرحم لذكرا أن يكملها

وهنا وقفة مع ذكرى

إن كمالته لهذه الصغيرة المباركة ، اننى يفيض الله عليها من رزقه ، وهو المحروم من  
 الدرية ، وقد حرك فى نفسه ذلك هائب القوى ، لعميق لعميق فى لفظة ، بحيث لا  
 تحوم به نفس بشرية ، ولو كانت نفس نبى ذلك هو الحين إلى الدرية

« هالك دعا ذكرى ربه ، قال رب هب لى من لذك ذرية طبه بك سمع اندعاء »

ترى ذلك العمق فى « هالك »

به لا يقول هيا دعا ذكرى ربه ولمسه حاضرة مع بصغيره فى اسحار

ولا يقول هالك دعا ذكرى ربه فبعدنا عنه شيئاً ما ، نترده من بعد وهو هناك فى

المحرب يدعوه ربه .

إنما يقول . « هالك دعا ذكرى ربه . . . » .

ب « هالك » تحمل كل العمى الشعورى فى قلب ذكرى نحو الدرية وكل الدهشة

الموجعة فى حناياه !

## هناك . هناك في الأعماق !

إسها ليست تعبراً عن العدد المكاني . فالمكان أمامنا قريب ، ونحن معه نشاهد مريم ، والررق يفيض عليها من عند الله ، وزكريا واقف إزاءه

ولكنها تعبر عن المدسبة التي تحرك فيها وجدان زكريا . ومن هنا تأخذ شخصيتها الحقيقية لا من مدلولها المكاني الحسي ، بل من مدلولها النفسي الشعوري الذي أبهر مكيون صدر زكريا ، الموغل في أعماقه . . هناك في أعماق الشعور !

وإنه لإعجاز أن يتحكم حرف واحد في المعنى ، معطيه كل هذا العمق . وكل هذا التأثير !

ورقعة أخرى معه وهو يسأ لمولد يحيى فلا يصدق ! وهو الذي كان يتمنى وهو مصدق ! فحين كان يتطلع إلى الله ، كان موقفاً . في أعماقه . بأنه ينطبع إلى القدير الذي لا يعجزه شيء . ! ولكن لما تحققت الأمية العبدية لم يستطع وحده أن يصدقها لأنها كانت عبدة بعيدة . « هناك » في أقصى الخيال !

ثم يترك زكريا في مفاجأته وفي فرجه ليعود إلى مريم صاحبه القصة الأصبية . والملائكة تشرها باصطفاؤها . بمعنى احتبرها . ويظهرها . واصطفاؤها . بمعنى تفصيلها . على ساء العائين . وإن كان تكرار لفظة الاصطفاء . مع اختلاف المعنى . تأكيداً للمعنى الاصطفاء في كل حال .

ثم قبل أن يذكر البشارة الثانية بحمل عيسى ، يُقطع اساق بانه « ذلك من أساء لعب نوحيه إليث . وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكتم مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون »

إن هذه الآية تؤدي مهمة عقيدية . هي إثبات الرحي للرسول . صلى الله عليه وسلم ، فهو لم يكن حاصراً هذه القصة ولا كان يعلم تفصيلاتها ، فهي دون من أبناء العيب الموحاة إليه . .

ولكنها تؤدي كذلك مهمة « فنية » فهي نتيج عاصلاً رمزاً بين شارة الملائكة لمريم بالاصطفاء ، وشارتهم لها بحمل عيسى . عليه السلام . اللتين يفصل بينهما فاصل رمزي في الواقع . يملأه السياق هنا . هنا . بالحديث في موضوع آخر ، وإن كان وثيق الصلة بالقصة . . فإذا عاد إلى السرد كان الخيال مهيناً لمحدث الحديد ، فقد مر من الزمن ما يهين لحدث جديد !

ردلك من دقائق التعبير ، الفرأني وقصة مريم هنا وفي سورة مريم مليحة بالبطائف  
الفية الدقيقة ، التي تهىء حوا شعورياً معبياً يتناسب مع تلك القصة لمريدة في حياة  
البشرية !

وتجيب الإشارة الثابتة بمعالجة حادثة لمريم أشد من معالجة زكريا بمولد علام له  
وعما يلفت النظر أن القصة في الموضعين اللذين وردت فيهما ، وهم سورة آل عمران وسورة  
مريم ، قد جمعت بين قصة ولادة علام لكريب وولادة العلام لمريم ذلك أن المعجزة فيهما  
من نوع متقارب ، وإن لم تكن واحدة في الحايث . فهي حالة زكريا يولد له ولد بعير  
الإمكانيات المعتادة في عالم البشر ، ولعافر لا تلد ، واحتمال النسل للشيخ الذي بلغ من  
الكر عتق احتمال صئبل في ذاته ، فإذا كانت الروحة عاقراً فهو مستحيل بطبيعة الحال .  
ومن ثم تكون المعجزة في حالة هذا الشيخ الكبير وإبروح العافر هي معجزة « كن فيكون »  
ولكن مع وجود أساس يمكن « إصلاحه » كما جاء في وصف القصة في سورة الأنبياء :  
« وزكريا إذ نادى ربه رب لا تدربى فرداً وأنت خير الوارثين ، فاستجبنا له ووهبنا له يحيى  
وأصلحنا له روحه . إسم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا  
خاضعين »<sup>(١)</sup>

أما معجزة ولادة عيسى بعير أب فهي معجزة « كن فيكون » ولكن بعير لأدوات المعتادة  
في حياة البشر أصلاً . ولذلك نجد السياق يقول حين عجب زكريا : « قال : رب أنى  
يكون لى علام وقد بلعنى الكبر وامرأى عافر ؟ » قال : كذلك الله يفعل ما يشاء . أما حين  
عجبت مريم : « قالت : رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسى بشر ؟ » قال : كذلك الله يخلق  
ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون »  
وثبتت وقعة « نية » أخرى في سياق القصة :

« قالت : رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسى بشر ؟ » قال : كذلك الله يخلق ما يشاء إذا  
قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولاً  
للى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بدية من ربكم »

هل هو استمرار للحوار مع مريم ؟ استمرار لوجهى الله لها إذا قضى أمراً فإنما يقول له  
كن فيكون ، ويعلمه الكتاب والحكمة ؟ أى أنه إنهاء لمريم بأن عيسى سيولد بعشة الله التي  
تقول للشيء كن فيكون ، وسيعلمه ربه الكتاب والحكمة . وسيرسله رسولاً للى بنى

(١) سورة الأنبياء ٨٩-٩٠

إسرائيل كل ذلك في المستقبل ؟ أم إن الحوار انتهى عند قوله تعالى : ﴿إِنِّي يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وهذا إخبار عن الماضي ، أنه قد ولد بالفعل ، وعلمه ربه الكتاب وأحكامه وانتوراة ولا نخلص ، ثم أرسله رسولا إلى بني إسرائيل ، وها هو ذا في لحظة الكلام هذه يقول لبني إسرائيل : إني قد جئتكم بأية من ربكم . . . ؟  
إبه هذه وتلك !

فهو إن شاء لمريم بالمستقبل وهو تحقيق للإنشاء فقد وقع بالفعل وهذا هي ذي  
الخلقة لأخيرة من الأنبياء تتحقق أمام أعيننا في الحاضر !  
لو أن السببا هي التي تصور وصورت لنا هذا التدخل بين المستقبل والماضي  
والحاضر فصور ل لإنشاء في لحظة الإنشاء به على أنه مستقبل ، ثم عادت فعرضت ما  
تحقق منه بالفعل ، ثم وصفت أمام الخلق الحاضرة فأعطت تفصيلاتها لعيش معها خطوة  
خطوة . لو أن السببا هي التي تصنع ذلك لقل إنها برعة تأخذ بالألباب ! وهذه مجرد  
ألفاظ لا صور تتحرك وألفاظ قليلة معدودة تعطي كل هذه الدخيرة من الصور  
والمشاهد وحركة الأحداث !  
ثم .

﴿رسولا إلى بني إسرائيل إني قد جئتكم بأية من ربكم إني أخلق لكم من الطير كهيئة  
الطير فأصبع فيه فيكون طيرا يرد الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص ، وأحيي الموتى بإذن الله .  
وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم . إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾  
أم تسخط شئ مما في السباق في أثناء سرد الآيات التي جاء بها عيسى لبني إسرائيل ؟  
أم لاحظ أن الآيتين بالذات ، اللتين فتس بهما لنصاري فأمر عيسى من أجلهما ، وهما  
خلق الطير من الطين وإحياء الموتى ، قد نص انسباق بشأنهما نص أنها يتيان بإذن الله ؟  
بيها لم يذكر ذلك بشأن الآيتين الأخريين وهما إبراء الأكمه والأبرص وإسأؤهم بما يأكلون وما  
يدخرون في بيوتهم ، وإن كانت الآيات كلها تتم بإذن الله ، ولكن مقصود إبرار هاتين الآيتين  
بالذات .

لقد جاء قصة هذه الآيات نفسها مرة أخرى في سورة المائدة ، وهناك نص على أنها كلها  
تتم بإذن الله [ لئتم انسوبع امدى أشرف إليه من قل ١ ] ونكه كذلك مير هاتين الآيتين  
بالذات وهما خلق الطير من الطين وإحياء الموتى ، عن إبراء الأكمه والأبرص ! إذ قال الله  
يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدك ، إذ أيدت بروح القدس نكلم الناس



في المهد وكهلاً ، ويد عمثت كذب وحكمة والتواة وإلجيل وإذ نحق من لطير كهينة  
الطير وتنفع فيها فتكون طيراً يادى ، وتري الأكمة والأرص يادى ، وإذ تخرج صوتى  
يادى . . . (١١)

وأخيراً يبرر السياق هذه الحقيقة في نهاية القصة « إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا  
صراط مستقيم » فيسجل قور عيسى عليه السلام أن الله هو ربه وربهم . نكى لا تكون  
هناك شبهة على الإطلاق أن عيسى قد ادعى بونه لله !

\* \* \*

« فلما أحس عيسى منهم الكفر قد . من أنصارى إلى الله ؟ قال الخواريون نحن  
أنصار الله - ما بالله واشهد أنا مسلمون - ربما أما بما أنزلت واتعنا برسول فاكبتنا مع  
الشاهدين ومكروا ومكر الله والله خير المذكرين - إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك  
ورافعك إني ومطهرك من الذين كفروا وحاعل الدين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيمة ،  
ثم ينفى مرجعكم فأحكم بكم فيما كنتم فيه تكفرون . فأما الذين كفروا فاعذبهم عذاب  
شديداً في الدين والآخرة وما هم من نصريين - وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فبوفيتهم  
أجورهم والله لا يحب الظالمين »

هذه تكملة القصة ، وهي مرقى الطريق كحدث بين بنى إسرائيل وبين أنصارى - فقد  
كفر بنو إسرائيل بعيسى عليه السلام ، واتعاه خواريون وهم أفراد قلائل ، ومكر سو  
إسرائيل مكرهم بيقدموا عيسى عليه السلام للمحاكمة سى تؤدى إلى صلبه - باعتباره حارجاً  
على الدولة لرومانية ومثيراً لنفسه والقلق - ومكر الله - أى دبر - وهو خير المذكرين ، فأنقذ  
رسوله من كيد بنى إسرائيل ، ورفعهم إليه .

وليس به هذا أن نحوص في قصص هذه الآية « إني متوفيك ، ورافعك إني ، ومطهرك  
من الذين كفروا » - فإن ذلك كله لا يدح فى نطاق هذا البحث ، أندى يتناول رموز  
الموصفات في القرآن - إنما يسير مع القصة حتى يبيتها ، فوجد وعداً من الله يجعل الدين  
اتعوا عيسى فوق الذين كفروا به إلى يوم القيمة ، ووعدت بتعذيب الذين كفروا في الدنيا  
والآخرة

ثم تنتهى القصة بهذا التعقيب ، الذى يتقل الساق بعده إلى معركة الجدل مع أنصارى  
« ذلك بثبوتهم من الآيات والذكر الحكيم » .

(١) - سورة مائدة - ١١٠

وللتعقيب صفة هذا الجدل ، فكأن هو توثيق من الله سبحانه وتعالى لرسوله - صلى الله عليه وسلم ، ومسحه التمويض الذي يتكلم بموجه في القصة ! ذلك أنه يتكلم باسم الله ، ويوحى من الله

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن ، فيكون » .  
هكذا هذه الساطة يفصل في قصته الألوهية المرعومة لعيسى لا عجب ولا عرارة ولا ضرورة على الإطلاق لوضع الأساطير ! إن الله يخلق بتوجه المشيئة للخلق يقول للشيء كن فيكون . وحادثة عيسى ليست هي الوحيدة في تاريخ البشرية ، فقد سقناها حادثة خلق آدم ، وهي ادعى للعجب من خلق عيسى . فقد خلق عيسى عن أى حال من كيان شرى وهو مريم . ولكن دم حذر من تراب وخلق إسدل حتى من البراب الملبت أعجب من خلق كيان آدمي حتى من كيان آدمي حتى وإن كان على غير الصورة المعهودة وعنى الرعم من كون خلق آدم من تراب أعجب في حسب من خلق عيسى بعرأب . إلا أن السباق يرحل بينهما بالقياس إلى الله سبحانه وتعالى . « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم » وهذا هو المقصود . إذ أنه بالقياس إلى الله سبحانه وتعالى يسوى الصغير في حسا والكبير ، والعجيب وغير العجيب ، لأن مرده كله إلى توجه لمشيئة ، أن يقول له كن ، فيكون

« الحق من ربك فلا تكن من الممتريين »

وما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الممتريين في يوم من الأيام ، إنما يوحى الخطاب إلى أناس من جلال بوحيه إلى لرسول . صلى الله عليه وسلم ، فهم المقصودون من قوله تعالى : « فلا تكن من الممتريين » .

« فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، وبنا وأبناكم ، وأنفسا وأنفسكم ، ثم سهل فجعل لعنه الله على الكاذبين »

وتلك هي ماله الشهرة التي تقوم شهادة لتدريج إن وقد بجره الذي جاء بمجادل في أمر عيسى قد توقف عندها وسحب من سابقته ! والدلالة النفسية بذلك واضحة ! إن هذه الأساطير التي وضعتها الكنيسة حول عيسى عليه السلام تدل على تباعه منع الاعتقاد ، ولكنها لا تصل إلى درجه اليقين ، ومن ثم فهم حين ووجهوا ماله على يد مرسى أحجموا وحاهوا ، وإن م بتأملوا عن اعتقادهم مع ذلك !

« إن هذا هو المصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله هو العزير الحكيم »

إن قصة عيسى كى رواها القرون هى القصص الخوف ومنها يسى أب عيسى بشر خلقه الله  
كما خلق آدم وليس إسها ولا شبه إله وما من إله إلا الله وحده لا شريك له فى ألوهيته .  
وإن الله هو العزيز الحكيم القادر الذى يفعل كل شىء بقدرة

« فإن تولوا فإن الله عليهم بالفسدين » .

وبمقتضى علمه بهم يحاسبهم يوم القيامة

وكأنها يوجه الخطاب إليهم قبل أن يتولوا ! . . .

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا شرك له

شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأن مسلمون »

تعالوا إلى كلمة فاصلة بيننا وبينكم كلمة مستقيمة يلتقى عندها أو يفترق عندها إلا

نعبد إلا الله وحده دون شريك ، وألا بشىء من يسا الله بعدد من دون الله . وهى كلمة

حق لا يملك أحد مستقيم الفطرة ألا يوافق عليها . فإن تولوا ، فاصلبو منهم - قبل التور -

أن يشهدوا شهادة واحدة . أنكم مسلمون لله وحده دون شريك !

وهم بطبيعة الحال لن يعطوا هذه الشهادة لأنها ليست فى صحتهم ! ولكنها طريقة

لإعلان المسلمين عن موقفهم من القضية وهى أنهم مسلمون لله لا يشركون به شيئاً ، ولا

يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله

« يا أهل الكتاب لم تحتاجوا فى إبراهيم وما أوتيت التوراة والإنجيل إلا من بعده ؟ أفلا

تعقلون ! هـ أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم فلم تحتاجوا فيما ليس لكم به علم ؟

والله بعدم وأنتم لا تعلمون ! ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما

كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين آمنوه ، وهذا السبى والدين امرؤ والله

ولى المؤمنين »

إن أهل الكتاب - يهوديهم ، نسطوري - يرفعون منكبه إبراهيم عليه السلام

وحدهم دون شريك . اليهود يقولون إنه كان يهودياً ، والنصارى يقولون إنه كان نصرانياً

وكلاهما يقول إن المسلمين لا صفة لهم بإبراهيم ولا يحق لهم أن ينتسبوا إليه !!

« لقرآن محبتهم فى هذه القضية منطق بسيط واضح . وإن كان الهوى يعمى بصيرتهم

عن المنطق فلا يصيخون به ! كيف يكون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً إذا كنت السورة التى

سمى اليهود يهوداً بسببها . والإنجيل الذى سعى النصارى نصرارى سبه ، لم يزل إلا بعد

إبراهيم بفترة طويلة من الزمان ؟ ! كيف محصع إبراهيم لتسمية لاحقه لم تكن موجودة فى

وقته !؟ إنها يكون حيفاً مسلماً ، لأن كل أنبياء الله وكل الذين اتبعوهم كانوا مسلمين ،  
بمعنى إسلام الوجه لله ، واتباع ما أنزل الله

ثم يوصل القرآن في هذا النزاع الجدلي الذي يثيره اليهود والنصارى حول إبراهيم فحدد  
من هم أولى الناس به إسم لبسوا اليهود لأنهم لم يحافظوا على العهد ، بل طعنوا وندسوا  
الله إبراهيم إلى ذلك حين طلب العهد ندرته فقال « لا يدل هدى الظالمين » (إسم  
لبسوا النصارى كسبك ، الذين يخالفون حفظ الإسلام الذي كان عليه إبراهيم ، بدعواهم في  
تأله عيسى عليه السلام إنها هم أتباعه ، المشركون الذين أمروا به في وقته على استقامة ،  
وهذا النسي الذي جاء بالإسلام والذين آمنوا معه بهذا الإسلام والله ولي المؤمنين في هذه  
المعركة ، يسددهم بكلمة الحق أما لصبيان فلا ولي لهم من دون الله

« وددت طائفة من أهل الكتاب لو يصبونكم وما يصبون ، لا آمنهم وما يشعرون »

إن أهل الكتاب بمتكثرون جداً على المسلمين وكأنا لمسلمون قد سلبوهم سبطاتهم  
وعهدهم ، وليسوا هم الذين احرقوا من العهد فسحبت عنهم الخلافة ، وبدلاً من أن  
يستقيموا على دين الله ، فدخلوا في هذا الاستحلاف الجديد فإنهم يحقدون ويسعون إلى  
الكيد ومن الكيد أن يحاولوا تصديقكم . وما يشعرون أنهم حين يحاولون جذبكم بعيداً  
عن الخط المستقيم فإنهم هم آمنهم الذين يضلون لأنهم يردون بعداً عن هذا الخط  
المستقيم . . . ويتوجه الخطاب إليهم يسهم إلى سوء عملهم :

« يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ؟ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق  
بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون !؟ »

إن المحاطين في هذه الساق هم لليهود وتلك أعياهم ووسائلهم ! يكفرون وهم  
يعرفون الحق ويلبسون الحق بالباطل وهم يعلمون بعمدة التريفة والنيليس التي يقومون  
بها عن قصد

« وقاتلت طائفة من أهل الكتاب أمر بالذي أنزل على الذين آمنوا وحه النهار وكفروا  
آخروه لعدمهم يرجعون ، ولا تؤمنوا إلا بما تبع دينكم ! »

إنها هي هي الوسائل التي يستخدمها أهل الكتاب حتى هذه اللحظة !

إن مخططات أعداء الإسلام ومكائدهم لمشروحة ومفصلة في كتاب الله مدد أربعة عشر  
قرناً ! ما تغير إلا بعض وسائلها ، ولكنها في جوهرها لم تتغير ، وكثير من وسائلها كذلك لم  
تتغير !

إن هذا اندى تذكره الآية هو ذاته اندى يتحداه المستشرقون ليوم من نصارى ويهود  
يبدأون شيء من المديح للإسلام ولرسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم - ، حتى إذا اطمأن  
العبد المسلم أنه في حري صديق ، وألقى سلاح اليقظة ، دسوله السم في العسل وهو محذر  
بذلك المديح اندى لا يتويع صدوره من أعداء الإسلام ، فيص أنهم محلصون ! ماذا يدروا به  
الشهات في الطريق ، راح يتشكك في ديه وكأنه يقول : لابد أن ما يقولونه حق لم أكن  
منتبهًا إليه ، فهنى ذلك لكاتب « العلم » محلص التزيه !! وسلك تربي أجيال من  
« المثقفين » يأحدون دينهم من أولئك المستشرقين ، ولا يفتون إلى تحدير الله هم من أربعة  
عشر قرنًا وتبانه هذه الوسائل الخيثة لمسمومة : « آسوا بالدى أرل على الدين آسوا وجه  
النهار » أى تظاهروا أمهم بالإيمان في أبى الأمر « واكثروا آخرة لعلمهم يرجعون ! » يرجعون  
معكم ! يرجعون عن دينهم ! « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » فهى مخادعة للمؤمنين فقط  
دون تحول حقيقى عما يعتقدون !

« قل إن اهدى هدى الله ، أن يؤتى أحد مثلها أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ! قل  
إن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء والله واسع عليم » يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل  
العظيم »

إن الآية تروى حوارًا من جنسين ، فيه كلام من حاسب أهل الكتاب ، ورد من جانب  
الرسول - صلى الله عليه وسلم - يؤجّه إلى الرد به عديهم  
ولو كتبها في صورة حوار متبادل لصار الحوار هكذا  
يقول أهل الكتاب بعضهم لبعض : « آسوا بالدى أرل على الدين آسوا وجه النهار  
واكثروا آخرة لعلمهم يرجعون ، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » .  
يقول لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم : « إن اهدى هدى الله » .  
ويقول أهل الكتاب بعضهم لبعض : « أن يؤتى أحد مثلها أوتيتم أو يحاجوكم عند  
ربكم ! »

يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم : « إن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء » .  
هم يرغمونهم على الحق ، ويريدون في الوقت ذاته ألا يؤتى هذا الحق أحد سواهم !  
فالخير .. إن كان ما عندهم خير ! - يسعى أن يكون مفصلاً عنهم ولا يحق لأحد من الشر  
أن يهتدى سواهم ! فهم يعملون على نصيل المؤمنين حشيه « أن يؤتى أحد مثلها أوتيتم »  
فنكسر الفاعلة اليهوديه وهى أنه لا خير إلا لليهود وحدهم ، و شر لعمى الأميين !

هذه واحدة أما الأخرى فهي حشية محاجة المسلمين لليهود عند الله لو كشفوا ما عندهم من حق ولم يداروا عليه بالتضليل<sup>١</sup> كما جاء في سورة البقرة من قبل « وإذا لقوا الذين آمنوا قنوا - ما أؤاد، خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثوهم به فتح الله عليكم ليحا حوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ! »<sup>(١)</sup> وهي عقلية عحة تظن أن الله لن يحاسبهم إلا إذا تمسك عندهم المؤمنون شئ ، وشهدوا به عند الله صدهم ! ولذلك رد عليهم في سورة البقرة بقوله « أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون »<sup>(٢)</sup>

والرسوب - صلى الله عليه وسلم - يوجه أن يرد عليهم بأن الهدى هدى الله وليس ما عندهم هم ما يعلمون أو يكتُمون وأن الفصل بيد الله لا بيدهم هم ، يوتيه من يشاء غير مترقب على رعتهم !

« ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من ، تأمنه بندينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ! ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »

وقد يكون هذان الفريقان من اليهود أو يكون الفريق الأول من نصارى والثاني من اليهود . لكن المؤكد في كل حال أن الفريق الثاني من اليهود ، لأنهم هم الذين يقولون « ليس علينا في الأميين سبيل » فهم كانوا يسمون العرب أميين يعنى أمة بغير كتاب ، داعسارهم هم أهل الكتاب ومارانوا بالنسبة للبشرية كلها يرفعون أنهم وحدهم أصحاب الكتاب الحق ، وأن الآخرين كتبهم مريضة فهم أميون كذلك ! أو « أميون » كما يسميهم النصارى ، أى من الأسم الأخرى غير اليهود وهؤلاء الأميون ، أو الأميون ، لا حساب لهم عند اليهود إنهم مجرد أدوات يستخدمونها للوصول إلى أغراضهم أو كما يقول لهم لتلمود - دواب يستخدمها شعب الله المحتر - بذلك يحق لليهود أن يسبواهم ويهزؤهم ويسرقوهم بل أن يشربوا دماءهم في وحشية أو يعجزوا بـ « خيراً » مقدساً ! « ويأكلوه ! »

« ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ! ويقولون عن الله الكذب وهم يعلمون »

يرعمون أن الله صرح بهم بذلك في حق الأميين وهذا كذب مغرور على الله وهم يعلمون أنه افترء - والله يقول : إنه يحب المتقين الذين يوفون بمعهدهم ، ولا يحب من يجس بالنعهد « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكدمهم الله ولا ينظر إليهم يوم لقبامة ولا يركهم وهم عذاب أليم »

هذا هو عقاب الله على الأمر اندى رعموا أنه صرح لهم فيه ! إن الله يجرمهم من الحدة ،  
ولا يكرمهم ولا يطرأ لهم يوم القدمة ولا يزكهم ثم يدخلهم العذاب الأليم . وليس وراء  
ذلك بعض من الله لشيء أو لأحد على الإطلاق !

ثم يتحول إلى الفريق الآخر من أهل الكتاب وهم الصابري :

« وإن منهم فريق يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ،  
ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »  
كان لبشر أن يؤتية الله الكتاب وحكم ولبيوة ثم يقول للناس كونوا عبادي من دون الله  
ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتحدوا بالملائكة  
والنبيين أرباباً . أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟ ! »

إسهم يقولون كلاماً يرعمون أنه من عند الله وما هو من عند الله . يقولون إن عيسى ابن  
الله ! وبه أمرهم أن يعبدوه ويعيموا الصلاة له ! ولهم أن يقول إن هذا لا يمكن أن يكون  
أصلاً ! « ما كان بشر » أي لا يتأتى أصلاً لأى بشر على الإطلاق « أن يؤتية الله الكتاب  
واحكم والسوة » فيعلمه الحق ويرسه به « ثم يقول للناس كونوا عبادي من دون الله ! » إنما  
يقول هم « كونوا ربانيين » مستقيمين على أمر الله « بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون  
» فتعليم الكتاب وتدرسه لابد أن يقىء بالإنسان إلى الحق ولا يدفعه إلى الضلال ! ولا يتأتى  
لبشر بنعم الله عليه بهذه النعم أن يأمركم بأن تتحدوا جبرين عليه السلام ربنا وعسى عليه  
السلام ربنا . وإلا فهو يأمركم بالكفر بعد إسلامكم . بدلاً من أن يأمركم بالإسلام !

« وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق  
معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا أقرنا » قال  
فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين »

لقد أخذ الله ميثاقاً على النبيين ، يلغونه لأتباعهم فيصبح ميثاقاً عليهم كما هو ميثاق  
على أتباعهم أنه « بالذى آتيتكم من كتاب وحكمة ( أى قسماً ) بما آتيتكم من الكتاب  
والحكمة » حين يبعثكم رسول مصدق ما معكم فمعيكم أن تؤمنوا به وتنصروه . ثم شدد الله  
على النبيين في الميثاق « قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ » أي أنه أكد عليهم  
بكل وسائل التوكيد . ووثق الرباط وأحكمه بكل وسائل الإحكام . فلما قالوا « أقرنا » لم  
يته الأمر عند هذه الحد . بل أشهدهم مرة أخرى « قال فاشهدوا وأنا معكم من

نشهددين « وذلك كله لكي لا يتلتمت واحد من أنواع الرسل فيقول ما عمنّا ١ أو يقول ما أمرنا ٢

ومقتضى هذا الميثاق فقد أخذ على موسى وعيسى عليهما لسلام عهداً أن يؤمنا بمحمد - صلى الله عليه وسلم ، وبلغ كل منهما أثناعه بمجيء الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأعطاهم اسمه وصفته ومكان معته ، وأمرهم عند ظهوره أن يتبعوه « ومن تولى بعد ذلك فأوثق هم الفاسقون »

ولا حجة هم في توليهم بعد هذا الميثاق المشدد ، ولإلغاء المؤكد « أيعير دين الله يعير ؟ وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون » ماذا يريدون بعصيتهم وإيائهم الدخول في دين الرسول الجديد - صلى الله عليه وسلم ؟ أيعير ديناً حر غير دين الله ؟ إن الدين عند الله الإسلام وهو ليس دين الشر وحدهم ، فقد أسلم الله من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً . . فما بال هذه الخفنة الأيكة من الشر لا تؤمن ؟ وما مصيرهم في بصورهم ؟ أيستطيعون أن يهربوا من لقاء الله ؟ إن كل من في السماوات والأرض عائدون إليه « وإليه يرجعون » .

ألا فليعس المسلمون موقفهم وليس عليهم أن يتولى من تولى « قل أما بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »

نفس الصيغة - مع التوسيع المهود في القرآن - انتى أمر المسلمون أن يقولوها لليهود في سورة البقرة وهم بها صبرهم <sup>(١)</sup>

« ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » الإسلام بمعنى إسلام الوجه لله ، أدى يقضى إلى الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - والدخول معه في دينه ، وهو دين الإسلام ومن يبتغ غير ذلك ديناً يصنعه هو من عند نفسه ، غير الإسلام ، فلن يقبل منه ويكون في الآخرة من الخاسرين « كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن لرسول حق وجاءهم البينات ؟ والله لا يهدي القوم الظالمين أوتيتك حراؤهم أن عديهم لعنة الله والملائكة واسمن أجمعين ، حالدين فيها لا يخفف عنهم لعذاب ولا هم يظفرون »

( ١ ) « قريوا أما بالله وما أنزل إلينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن به مسلمون » [ سورة البقرة ١٣٦ ]



والمقصود بهذه الآيات كلها هم يهود الذين أظهروا الإسلام بأبرسون - صلى الله عليه وسلم - وشهدوا أنه هو المرسل الحق الذي يجذب صفته في النبوة ، ثم تقدموا كافرين مرة أخرى فأولئك خالدون في نار جهنم ، وليس أمرهم أمر أيام معدودات في النار كما يزعمون ، والسيوف تصور النار كما هي لغة الله والملائكة والناس أجمعين مصونة عليهم من كل جانب !

« إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحو فإن الله غفور رحيم » بغل توبة العبد الثالث مهما كان من ماضيه ! أما الذين يصرون على الكفر هؤلاء الذين لا يعمر الله لهم ، لأنهم اعتنقوا باب المعرفة في وجوه أنفسهم !

« إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم ، وأولئك هم الصالون . إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهناً ولو افتدى به أولئك هم عذاب ألوم وما هم من مبصرين »

وبماسة الحديث عن اليهود ، نحدث عن الإنصاف ذلك أن اليهود مشهورون بالشح يحلون ، يأمرؤ الناس بالحل ثم يوعمون أنهم هم المقربون عند الله ! كلا ! من تأنوا البر حتى تنفق مما تحبون وما تقصرون من شيء فإن الله به عليم »

ويستمر السياق مع اليهود في حولة ثانية من مغرياتهم فقد حرم الله عليهم بعض الأطعمة بسبب عصبائهم وكفرهم « وعن الذين هادوا حرم كل ذي ظفر ، ومن النمر والعنم حرم عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورهم أو الحوايا أو ما احتاط بعظم ، ذلك حريانهم بعيهم وما لصادقون »<sup>(١)</sup> ولكنهم يذكرون ذلك ، « يذكرون أن هذا المنحريم كان عقوبة من الله لهم » فإن كذبك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين »<sup>(٢)</sup>

وهم هنا كذلك يصرون على كل شيء ، هرد القرآن عليهم

« كل الطعام كان حلالاً لى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل النبوة من فأتوا بالنبوة فأتواهم بكم صادين فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون » صدق الله فاتبعوا منه إبراهيم حينئذ وما كان من المشركين »

(٢) سورة الأنعام ١٤٧

(١) سورة الأنعام ١٤٦

إن جادلوا في أمر عقوبة التي حرم عليهم فيها ما حرم من الطعام - وهم يجادلون - فهم هاتوا التوراة فأتواهم إن كنتم صادقين - وهم كانوا يجنون مثل هذا الطلب حين يطلبه لرسول - صلى الله عليه وسلم - منهم ، لأنهم يعلمون أنه موحى إليه ، وأنه سيعرف الموضع لدى يستشهد به من الكتاب الذي بين أيديهم - ثم إن كشف هذه الأسرار يصححهم لأنهم يحتفظون بأسرار تنورة لا يديعونها ، ويروون أي كلام من عندهم ويقولون هذا حكم التوراة !

لذلك فهو لا ينتظر أن يجيئوا بالتوراة ويتلوها ، بل يقول لهم « صدق الله » ويهيئ لحدل معهم - ولكنه قبل أن يهيئ اخذ يقول لهم : « إن كنتم ترعمون أنكم أناس إبراهيم حقاً ، فأتبعوا ملة إبراهيم حقيقاً وما كان من المشركين »

وتماسية إبراهيم يتحدث عن الكعبة وعن الحج ، فهذا شديداً الارتباط بحياة إبراهيم عليه السلام

« إن أول بيت وضع لبأس للذي بيكة مباركاً وهدى للعالمين - فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين »

وأهل الكتاب من اليهود أول من يكفر

« قل ، يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ولله شهيد على ما تعملون » قل ، يا أهل الكتاب لم تصدقوا عن سبيل الله من أمر تبعوها عوجاً وأنتم شهداء ! وما الله بمحدث شيء يعملون »

لم ؟ لأنهم هكذا ! لا يحبون الاستقامة ولا يصبرون عليها ! ولا يحبون من يستقيم عليها وهذا يحدث المؤمنين عن كيد اليهود هم ، الذي كادوا يصعدون فيه فيريدون عن الإسلام ويعودون إلى الكفر ! ذلك حين هم شياطين اليهود يثارة لأوس والخرج بين كان بينهما من عنوة وصراع قبل الإسلام !

ذلك أن اليهود كانوا يعيشون من قبل عن تأجج الصراعات والأحقاد بين لأوس والخرج ، لكيلا يأتلفوا فيصحبوا قوة موحدة فينفقوا بقوتهم لموحده على اليهود وكذلك تقوم سهم الحرب فيسارعوا إلى شراء السلاح من اليهود ، تجار السلاح منذ كانوا ! فيما جاء للإسلام حتى بين الأوس والخرج فيما عادوا ينقسمون ، وبطلت أحلام اليهود وكذلك مافهم . ويبيحون إحداهما على الأخرى حتى تبادوا للفتن بالمعلن ! لولا أن خرج إليهم

الرسول - صلى الله عليه وسلم - مسرعًا يعطهم ويردهم إلى بيوتهم ويقرهم - لا تعود بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض !

« يا أيها الذين آمنوا إن نطعوا فريقًا من الذين آوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ ! ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم » يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ! واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا ، وادكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »

به توجيه مؤثر وعتاب مؤثر وبداء مؤثر هذه الجماعة من المؤمنين على شفا الوقوع في المكيدة التي دبرها أولئك الشياطين ، وعلى شفا الوقوع خارج الطريق ! طريق الإيمان ! كيف تكفرون وأنتم تسمعون آيات الله تتلى عليكم ؟ كيف تكفرون ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - موجود فيكم ، يعظكم ويعصمكم ويصل قلوبكم بالله ؟ ! كيف تستمعون إلى إثارة الأعداء وأنتم تعلمون أنهم أعداء ؟ !

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » وأنتم أولى الناس أن تتقوا ! وإلا فمن يتقيه إن لم يتقه المؤمنون ؟

« ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » إنه من الموت على غير الإسلام ! وقد كان الموت حينًا لا يعلم أحد مواعده ، فالسبيل الوحيد إذن لسعيد هذه الوصية أن يظل الإنسان متمسكًا بالإسلام ، حتى إذا جاءه الموت كان عتقًا للشرط المطلوب ،

« واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا » إن اعتصام كل منهم بحبل الله ، هو الذي يجمعهم ! فحبل الله واحد ، وطريقه واحد ، فإن اتجه كل مؤمن إليه ، واعتصم به ، فقد اتفقوا جميعًا هناك !

وحبل الله هو دينه ، وهذه الراسل إليه ، ولكن اسباق يجسمه في صورة الحبل الممتد الذي تمتد به الأيدي لتتحو

ثم يذكرهم نعمة الله الكبرى عليهم إذ ألف بين قلوبهم بعد عداء طاب في الجاهلية فأصبحوا بهذه النعمة إخوانًا متحابين ، وكانوا على شفا حفرة من النار - بصلاهم من اعتناقهم الإسلام - فأقدهم منها بارسال الرسول - صلى الله عليه وسلم - بهدي ودين الحق :

« وادكروا بحمده الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ،  
وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . . »

ويجسم التعبير الموقف : « كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » فيتحيل الإنسان  
قوماً مشرفين على الهاوية ، ولكنها هادوية من نار وفي اللحظة التي يهيمون أن يقعوا فيها  
تتد اليدهم الرحمة فتقدهم . .

« . . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »

كذلك . . تذكريكم بعمدة الله ، وتحذيركم من عدوكم ، ودعوتكم إلى الاعتصام بحبل  
الله

« ولتكسبكم أمة يدعو، إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم  
المفلحون »

لنتكون منكم أمة هذه صفاتها يدعو إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن  
المنكر وأولئك هم المفلحون »

« ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب  
عظيم » .

لا تكونوا كاليهود الذين سق بوعيتكم بشأنهم ، وبيان انحرافهم

وهذا التحذير من أن يصبحوا مثل هؤلاء بالذات ، يأتي في مكانه هذا بعدما كاد فريق  
من المؤمنين يستمع إلى كيدهم فيرتد عن الإسلام فهو إذ يذكرهم بانحراف هؤلاء ،  
يحفرهم في ذات الوقت ، يعلم المؤمنون أن طريقهم غير طريقهم ، فلا يعودوا للإصغاء  
إليهم

« . وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت  
وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ؟ هدووا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين أبيضت  
وجوههم همى رحمة الله هم فيها خالدون »

أولئك الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم اليات - بدلاً من أن يستقيموا على  
الطريق وتتفتح قلوبهم للبينات - لهم عذاب عظيم في ذلك اليوم اشهدوا الذي تبين فيه  
وجوه الصالح والطمانينة التي يسكبها الله في قلوبهم ، ويشراقة الإيمان على  
وجوههم ، وتسود وجوه بالعمل الشرير والفرع الذي يستولى عليهم ، وبظلمة الكفر تصح  
على وجوههم فأما الذين اسودت وجوههم فيوجه إليهم هذا السؤال المزعج ، لأن نتيجة

معرفة . « أكفرتكم بعد إيمانكم ؟ » وما ينتظر منهم إجابة والإجابة معروفة . بل يقال لهم عني  
التو . « قد وقع العذاب بما كنتم تكفرون » وأما الذين أبيض وجوههم « فعني رحم الله »  
وكفى بها نعيماً في ذلك اليوم العصيب و « هم فيها خالدون » .

يسوقه انظر أنه قال « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » فقدم الذين أبيض  
وجوههم ومع ذلك فقد حسب قدم الذين اسودت وجوههم كأنها عمل هم  
الحساب فاعصاب جراء على كفرهم .

إلهاعني أي حال ليست المرة الأولى في السورة ! فمن قبل قد بالنسبة للذين اتبعوا عيسى  
والذين كفروا به « وحاعل لذين نعوذك فوق الذين كفروا إلى يوم لقيامة ثم إلى  
مرجعكم فأحكم بيسكم في كنتم فيه تحمقون » فأما الذين كفروا فأعد لهم عذاباً شديداً في  
الدين والآخرة وما لهم من نصيرين . وأما الذين هم وعملوا الصالحات فوسفهم أجورهم  
والله لا يحب الظالمين » [ ٥٥ - ٥٧ ] .

فهو إذن سبق في السورة ، وليس مرة عابرة . به يعمل هم العذاب والمقصود  
في الموضعين واحد هو اليهود

« تلك آيات الله تنوها عليك بالحق وما الله يريد ظمماً للعالمين » والله ما في السماوات  
وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور »

تلك من تعذيب الذين نمرقوا واحتلقوا من بعد ما جاءتهم البينات ، ومن رحمة الله  
لتنى يحمد فيها الذين آمنوا واستقاموا على طريق الله ، تلك آيات الله تنوها عذبك بالحق  
وإن الله لا يريد ظمماً لأحد من العالمين إنما هم الذين يعذبون أنفسهم بسكت الطريق  
فبفسهم الحزم الحق ولا شيء يذهب ماء ، ولا أحد يهرب من حره ! فإن الله ما في  
السماوات وما في الأرض والأمر كله مرجعه إليه

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »  
ذلك هو لتقرير الرباني بشأن هذه الأمة إنها خير أمة في تاريخ البشرية كله حتى  
تاريخ الأمم مؤمنة من قبل ! إنها الأمة الخاتمة ، كما أن رسوها - صلى الله عليه وسلم - هو  
الرسول الخاتم ، وهي الأمة الراشدة لسي محمد ، الأمانة والمشرية في سن الرشيد . . . وحملتها  
على نحو غير مسبوق وغير ملحق في تاريخ الأرض كله الأمة التي حققت وجود  
الإنسان في وضعه الأسمى كما خلقه الله « في أحسن تقويم » ووارث في حيدنها بين  
مقومات الحياة الإنسانية كلها ، فلم يهمل جانب منها ، ولم تدع جانب منها يطعم عن الآخر

وهي خير أمة « أخرجت للناس » فما نصصها أخرجت ! وما لتؤدي دوراً ذاتياً خلقت إنما لتؤدي دورها لبشرية كنها ، بأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وتقدم الإيمان لكل البشرية !<sup>(١)</sup>

« . . . وؤمن أهل الكتاب لكم خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » .  
لو آمن أهل الكتاب الذين سبقوا للحديث عنهم وعن نجاحاتهم ، لكاد خيراً لهم ولكن قلة قليلة منهم هي التي امتت بالرسول - صلى الله عليه وسلم - « وأكثرهم الفاسقون »  
ثم بوجه الحديث للأمة المؤمنة - خير أمة أخرجت للناس - ألا يحشوا ناس اليهود  
« لن يصروكم إلا أدى » . وإن يقدلوكم يولوكم الأدبار ثم لا يصرون !  
إنه لا يقول لن يصروكم ! كلا ! إنما يحدد نهاية المعركة إذا حدث القتال « يولوكم الأدبار ثم لا يصرون » .

« لن يصروكم إلا أدى » والأدى يس هو لهم في حياة المؤمن إيمانهم هو عقيدته  
فما دامت عقيدته ماقية واسعة لم يصصها أدى ، فلا عليه أن يصصه هو الأدنى في سبيلها !  
واليهود لن يكفوا عن ترحيه الأدنى إليكم ولكنهم لن يضروا عقيدتكم فلا تالوا بالأدى  
أدى يصصكم أنتم ثم إن فاتلوكم فتصصه لمعركة معروفة ومصمومة « يولوكم الأدبار ثم لا يصرون » .

وهذا كله مطسعة حجاب حين كانت الأمة للإسلامة هي خير أمة بالفعل ، لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله فاما حين تصص إلى ما صارت إليه ، لا يرتبطها بالإسلام إلا الاسم . . فمن أين يتحقق لها وعد الله ١٩  
ثم نحى هذه الآية ، بحصية في حق اليهود التي تتحصى بعد ثلاثة عشر قرناً من بروفها ،  
وإن أوسع مجالاتها وأوسع معانيها !

« صررت عليه لدلة أينما نفصوا إلا بحيل من الله وحيل من الناس ، رباءوا بعصب من الله ، وصررت عليهم المسكة . . . ذلك بها عصوا وكانوا يعدون . . . »

إن لدلة مضرونة عليهم بد ، وحيشها وجدوا « وإذ نادى ربك ينصش عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب »<sup>(٢)</sup>

( ١ ) رجع في عرض سورة المقررة الكلام عن « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون

الرسول عليكم شهيداً »

( ٢ ) سورة الأعراف . ١٦٧

ولكن هناك فترات استثنائية « إلا بحبل من الله وحبل من الناس »  
وحبل هو المدد . فتلك الفترات الاستثنائية تتم بمدد من الله فإنه لا يتم في الكون  
إلا ما يريد الله . ومدد كذلك من الناس .

واليهود اليوم في قمة فترتهم الاستثنائية لئى لم يصلوا نزلهم في تاريخهم كله بحبل من  
الله وحبل من الناس .

فكيف تم ذلك وحادا تم ؟!

وليس هذا سؤالاً لله سبحانه وعالي في فعله ، فإنه - سبحانه - لا يُنْأَل عما يفعل  
وإلى الله سبحانه له سبب يجري به الأمور في الأرض وقد أمرت سدر هذه السس لكي لا  
نقع في حتمتها وقد وقع أ

إن البشرية اليوم قد بعدت عن الله ما لم يعد في تاريخها كله وتجنحت بالكفر ما لم  
تسبح في تاريخها كله ومن هنا فهي معرضة بلسه الربيه لئى يقول عنها \* قل هو  
القادر على أن يبعث عنكم عدائاً من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يمسكم شيعاً ،  
ويذيب بعصكم بأس بعض \* وقد شاءت إرادته سبحانه ولا سأل عما يفعل - أن يلس  
الشريعة شيعاً ، وأن يذيبها بأس اليهود - وهم شر خلقه - خلال القرن التاسع عشر والقرن  
العشرين ! فهذا لعالم اندى بعش فيه - بأفكاره بأخلاقه بسياساته باقتصاداته باجتماعاته  
- هو من صنع اليهود . فكيف تم هم ذلك ؟

« بحبل من الله ، وحبل من الناس »

وقد بطن بعض الناس أن الحبل من الناس مدد أمريكا وروسيا سيهود !  
كلا ! إن الأمر أوسع من ذلك بكثير إنه مدد كل الناس إلا من عصم الله \*  
ويهود دوو عنصريه شريرة ولا شك . ولكنهم بشر ! ليسوا آلهة ولا أشباه آلهة .  
وهذه القوة المدمرة لشريره انسى في أديهم اليوم يوجهون به البشرية إلى الدمار لست من  
صنع عنصريتهم لشريره بقدر ما هى من صنع « الناس » . .

إن البلورد يقول ليهود « إن الأمم هم الحسير الذين خلصهم الله ليتركهم شعب الله  
المختار » ولذلك فهم يسعون ، حاشرين مدد قرون طويله إلى « استعمار » الأمم فكيف  
يستحرمونهم ؟ برع عفائدهم وبرع أخلاقهم فهو يتحول « الإنسان » إلى ذلك « الحمار »  
المعد للركوب !

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل حمار »<sup>(١)</sup> أى أن الأمة التى ها كتاب ولا

تطبق كتاب في واقع حياتها هى مثل الحمار

وقد تعب اليهود هروناً طويلة في محاوله إفساد البشرية لأن لباس كانوا على بقية من التمسك بالدين والعقيدة والأخلاق .

ولكنهم منذ القرن الماضي ، وعلى « هدى » الحاهلية التي ترفع أهداب رأيتها ، احدثوا يتهاوون مسارعين ، بعيداً عن الدين والأخلاق . وها وجد الشياطين فرصتهم الذهبية ! ويجدو حيزاً معدة للركوب . . هركبوا كما يأمرهم التلمود !

إن اليهود أشأوا يوت الرمة ويوت الأرياء . لبكسوا منها كسبين في آن واحد . المكسب امدى الفاحش . وانكسب الآخر هو إفساد لأمين بفساد المرأة وإخراجها إلى الطريق فتنة هائجة مانحة نقتن الرجل ونقتن نفسها معه .

واساق « الأميون » . لأهم كانوا بلا عقيدة ولا أخلاق ! وتدفق المكسب إلى ليهود المكسب امدى وإفساد أخلاق لأمين سواء !

ويهود هم اندين أشأوا السبي ! ليعسودوها الأولاد والنساء في كل الأرض ، ويكسبوا من وراء ذلك الأموال

وهكذا . . هي توى من معاسد اليوم على وجه الأرض . وحدوا الخمير جاهرة فركبوه . وتدفق « المدد » من لندن . لا من روسيا وأمريكا وحدهم كما يفهم البعض . . ولكن من كل الناس إلا من عصم الله !

وبالأموال التي كسبوها من الخمير . وبلفساد الذي أفسوه في الخمير . . صدرت لهم تلك السيطرة البشعة على مقدرات لباس ، خاصة في هذا القرن العشرين

ولم تكن العبقرية اليهودية الحبارة التي ينحيلها الناس . إنما كان تحلى الناس عن دينهم وأخلاقهم هو السبب فيها وصلوا إليه من سلطان

وقد كان ذلك كله لأن الأمة التي أخرجها الله للناس لتكون خير أمة ، قد كف عن الوجود ! وكفّت عن أداء رسالتها للبشرية !

فيوم كانت تؤدى رسالتها للبشرية وتمسك هي في يدى لرمم ، كان اتجاه البشرية كلها إلى الصعود ، حتى الدين لم يدخلوا في الإسلام .

فأما حين تحضت وتحلت . فلا بد أن نولى الحاهلية قيادة بشرية . وذلك الذي حدث بالفعل . فحدث الانهيار العميق والأحلامى الذى يحول لباس إلى خمير . فأسرع

! شعب الله المختار ! يركب الخمير .



ولن بتعبير وصح اليهود في الأرض ، حتى يعود « لنس » إلى الله حتى يكفوا عن  
استعمار أنفسهم لشعب الله المحذر

إن « المؤمن » لا يستطيع الشيطان أن يسيطر عنه ، ولا أعوان الشيطان وأولياؤه « إنه  
نس به سلطان على الدين ، آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، بما سلطانه على الدين يتولونه والدين  
هم به مشركون ! » (١)

ويوم يعود أساس إلى الله ولن يجد للشيطان مسلاً إليهم ، ولن يستطيع أولياء الشيطان  
كذلك أن يسيطروا عليهم ويكفواهم !

ويوم يعود أساس إلى الله فسوف يحصر دور الشيطان في الأرض ويعودون إلى  
حالتهم الدائمة « صرنا عليهم الدلة أيما ثقوا » وتزول تلك الفترة الاستثنائية التي  
تعالجها البشرية اليوم بما أجمعت في حق الله !

\* \* \*

« ليسوا سواء » من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون .  
يؤمنون بالله ويؤمنون بالآخرة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسدعون في الحيات  
وأولئك من الصالحين وما يفعلون من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين !

ليس كل أهل الكتاب سواء [ وذلك كان وقت نزول هذه الآيات بالطبع ] فمهم فئة قليلة  
امت مائرسون صلى الله عليه وسلم فأولئك الذين يشير إليهم السياق هـ يقومون  
بالدليل متعددين ، ويؤمنون بكل ما يؤمن به المؤمنون هؤلاء هم أجرهم عند الله ولا يحصى  
أمرهم على الله أما الباقون فهم مصرون على كفرهم لا يعبرون مرقعهم

« إن الذين كفروا لن تعنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب  
النار هم فيها خالدون مثل ما ينفقون في هذه حياة الدنيا كمثل ربح فيه صر أصحاب  
حرب قوم ظلموا أنفسهم فاهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون »

إن الذين كفروا كفروا كفروا - من أهل الكتاب و المشركين - لن تعنى عنهم أموالهم التي  
يكتسبونها ولا أولادهم الذين ينامون بهم لن تعنى عنهم من الله شيئاً ولن تمنح عنهم  
النار التي هم أصحابها والتي هم خالدون فيها وكل ما ينفقون في هذه الحياة صانع  
عليهم ، بل حسرة عليهم ، لأنه يريدون إنهم كانوا آمنوا إدا ينفقون في الباطل وفي الصد عن  
سبيل الله والسيد يمثل لأنفسهم بصورة ربح صرصر عاتية تهلك حرب القوم الذين

(١) سورة الحن ٩٩-١٠٠

ظلمو أنفسهم ، وهو تشبيه مسروق الإنسان بآمنه وهو أشد تأثيراً في النفس من المعنى الذهني المجرد ، كأن يقول إن ما ينفقون وبالم عليهم لأن الخيال هنا يتتبع الربح المدمرة وهي تهلك ، ويحيد بها وقد أنت على لررع لناصر انسى كان يرجى منه اسمر وإذا هو حطام وكذبت حدل هؤلاء الكفار يهلكون أعياهم ويهلكون أنفسهم ولا يكسبون إلا النوار

وإذا كان هذا هو حاتم فما يسعى للمؤمن أن يتحدوا بظانة منهم ، خاصة وهم لا يظفون إلا على الحقد والصعينة ولا يتمون للمسلمين إلا العنت والخيال  
« يا أيها الذين آمنوا لا تتحدوا بظانة من دونكم لا بآلؤكم حداً ، ودوا ما عنتم . قد بدت البعضاء من أهوائهم ، وما نحصى صدورهم أكبر . قد بدت لكم آيات إن كنتم تعقلون » .

إنه التحذير الرياني لدى مرر على المؤمنين منذ أربعة عشر قرناً ، وما زال قائم الدلالة في حياتهم كأني يتزلزله اللحظة !

لا تتحدوا بظانة من قوم غيركم أي غير مسلمين لا يألون جهداً في بث الخيال في صمومكم وأقصى ما يتمونه أن يثيروا نكم المتاعب والمصاعب يظهر في حديثهم الحقد الذي تنطوي نفوسهم عليه ولكن ما ينفون من الحقد والصعنة أكبر ثم يهتم التحذير بما يتضمن التهديد - « قد بدت لكم الآيات إن كنتم تعقلون » وهي كلمة حاسية حين توجه إلى المؤمنين والمقصود بها التحذير الشديد ، وإيقاظ المسلمين من العملة التي نصيب بعضهم ، فيحسبون أن أحداً من أهل الكتاب يمكن أن يصبرهم ، ومخلصهم النصيحة !  
وما أحوح « المسلمين » اليوم إلى تدبر ذلك لتحذير ، وهم يحرقون إلى أذقهم في لعمنة ، فيحسبون أن أحداً من أهل الكتاب أو من غيرهم من المشركين يمكن أن يعاونهم ! أو يستندهم في حربهم لإسرائيل ! أو سمي هم النصر عليهم ! أو يحب أن يراهم في غير الدن والمهنة والعنت والمشقة ! وهذا غير العملاء المأجورين الذين يروّجون لمثل هذه « الصداقات » الماكات ، ويمنون الشعوب بالخير العميم الذي سيأتي من ورائها وما يأتي من ورائها إلا ما أخبر به كتاب الله منذ أربعة عشر قرناً من الزمان !

« ه أنتم أولاء تحبوسهم ولا يحبونكم ! وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا حلوا عصبوا عليكم الأناس من العيفد . قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بداب الصدور  
إن تمسككم حسنة نسؤهم ، وإن نصصكم سيئة يفرحوا بها ، وإن نصبروا وتنقوا لا يضركم

كيدهم شيئاً إن الله ما يعمنون بحبط

كأن يتزل التتريل في هذه اللحظة !

« ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ! »

ويتظاهرون بحكم !

« ونؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا ! »

هذه هي التي تعبر مظهرها ! فهم اليوم لا يقولون آمنا لأنهم اليوم لا يخشون بأس

المسلمين !

كانوا من قبل يتملقون المسلمين ، ويتظاهرون أمامهم بالإيمان وهم يكيّدون هم في الخفاء أما اليوم فهم يكيّدون في الخفاء وفي العلانية ، ثم لا يحتجّون أن يقولوا أمام المسلمين « آمنا » لأنهم لا يجدون أمامهم ذلك النوع من المسلمين الذي كانوا يحتجّون به ثمّنه ومافقته ، بل يصل بهم التمتع اليوم أن يقولوا لأولئك المسلمين « اتركوا عقائدكم وبعالوا آموه لدينا ! » وذلك ما أصاب أولئك المسلمين « جره تحليهم عن إسلامهم وتمسّحهم بأعدائهم أن فقدوا احترام هؤلاء الأعداء وكسروا استحقاقهم بهم ونجّروهم عليهم . »

« وإذا جنّوا عضوا عليكم الأناس من غيب قل موتوا بغيظكم إن الله عليم

بدهات الصدور » .

ومارلوا إلى اليوم يعصون الأناس من غيب ولكن لا من تلك الأساليب العديدة من

عملوا أساء المسلمين ، فهؤلاء لا يعصونهم في شيء ، ولا يحصونهم - الآن - في شيء

ولكنهم يعصون لأنهم من الغيب من حركات البعث الإسلامي القائمة في كل مكان في

العلم الإسلامي هذه هي التي تعبطهم حقاً ونحنهم ، ويقسمون المؤثرات السرية ولعلبه

يتدارسوا كيفية القضاء عليها وإبادة !

لقد كانوا متوا أنفسهم أن المسألة قد انتهت ! وأن هذا الإسلام قد ذهب إلى غير رجعة !

وأن الثمرة قد أصبحت وشيكه لوقوع في أيديهم ولكن عدم حركات البعث هذه أحد

يشككهم في تحقيق أميتهم القديمة في القضاء على الإسلام ومن ثمّ يحتمون عليها ويعصون

لأنهم من الغيب منها ، ويتواصون بصربها بأقصى درجات العنف لعلها تنيد ونهي

ويستحدمون أشنع أنواع التعذيب للقضاء على لقائم منها ، ولتنفير من لا يحراهم

في سلكها . ولكنهم مع ذلك لا يصلون إلى عرصهم منها لأن الله هو الذي يريد

سأبده أن يهني ! وليس الشمر هم المحكمين في أمر الله !

« وإن تمسككم حسنة سيؤهم وإن نصكم سيؤهم »

فأما هذه صفقة إلى هذه الساعة . وإلى أن تقوم الساعة !

يهم دعم أعضائهم لخاصة « المسلمين » أنهم أصبحوا غير قوة تُخشى منها . فهم - كما يعترف كتابهم - لا يستطيعون سبيل الدص ، ولا يطمئنون بالمستقبل ! بذلك فيراؤهم سمون بمسلمين السوء ، ويستأعون من أي حسنة تلحقهم

يقول المستشرق الكندي « ولقد كانوا سمث » في كتابه « الإسلام في التاريخ الحديث Islam in Modern History » ص ١١٢ « إن أوروبا لا تستطيع أن تسي الفرع لدى طلب تراوهم خمسة قرون متولية ، والإسلام يعرفه من لشرق و لعرب و جنوب ، و يقتصر في كل يوم حرة من أحمل أجزاء الإمبراطورية الرومانية و يكاد يستول على اعاصمه دها . ذلك لفرع لا يد به شيء في العصر الحديث ، ولا حتى فرع أوروبا من ستيلاء لشيوعيه عن تشيكوسلوفاكي ل سنة ١٩٤٦ »

وهو - المستشرق الأمريكي « وشروب » في مقدمة كتابه « السيف المقدس The Sacred Sword » بعد أن يخص تاريخ المسلمين بأهم عروا أوروبا واسولوا على أجزاء منها وصعوا كذا وكذا . ويكلمهم اليوم أصبحوا بلا قوة ، وأصبحوا خاضعين لأوروبا يقول « ولكن ما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى ! رب الشعلة التي أشعلها محمد صلى الله عليه وسلم - في قلوب أتاعه لمى شعلة غير قابلة للاطفاء ! »  
بذلك يراؤهم يدافع بصلبه النوارثة ويدافع الخوف من استفسل يتصورون للمسلمين السوء ، ويستأعون لما يلحقهم من خير !

« وإن نصروا وتنفقوا لا يصركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط »

ويعلم كان هذا نوحه محققاً حالما كان الشرط متحققاً « إن تصبروا وتنفقوا »

فأما وقد غير حال المسلمين ، فهم يمودوا تنقون ، لأنهم لا يفسون دينهم ولا يسمون م أسوأ عليهم من دينهم فقد صار الكيد نصر ، ويمس في الإصرار ! ولن يتغير الحال إلا بإد تعير وصح المسلمين « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ! »<sup>١١</sup>

\* \* \*

« وإذ عدوت من أمك نبؤى المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم ، إذ همت طائفتان منكم أن تغشوا الله وبهيه وعلى الله فلتوكل المؤمنون ولقد نصركم الله بدر وأنتم أدب فاتفقوا الله بعلكم تشكروا إذ يقول المؤمنون أن يكفيناكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بل إنا نصبروا وننتقم ، ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وما جعله الله إلا شرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتنهم فيضعوا حائش - بس لك من الأمر شيء - أو يتوب عليهم ، أو يعذبهم فهم عاقلون والله ما فى السموات وما فى الأرض يعز لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم »

« بمناسبة الحديث عن تكفل الله بأمر المؤمنين ، صبروا واتفقوا يذكر حدثين كانت كفانة الله للمؤمنين هي التي حالت دون فشلهم فيها وأدت إلى كشف النصر عنهم حين همت طائفتان من المؤمنين أن تغشوا الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - بين المؤمنين للمعركة في أحد ، فأدركتهما ولاية الله واستقام لأمر ، وذلك حين همت يسو حائشه ويوسوسة أن ترجعا مع عبد الله بن أبي - وحين نصر الله المؤمنين ببدر وهم ضعفاء قليلو العدد قليلو العدة لا يتصور أحد أن يتصوروا على ثلاثة أصعافهم في العدد وأكثر من ذلك أصعافاً في العدة ولكن الله أرب ملائكة يحاربون مع المؤمنين ويدفعون الكفار ويقتلونهم وما جعل الله ذلك إلا شرى للمؤمنين لتطمئن قلوبهم ولتبرر دأبهم ، ولو كانوا مؤمنين - بل لو كانوا أنبياء - يحسون أن يروا الدليل ملموس لتطمئن قلوبهم ألم تر إلى إبراهيم عليه السلام وهو نبي يحاطب ربه فيقول « رب أرى كيف تحبي الموتى » قال « أولم تؤمن ؟ » قال « بل أومنك بطمئن قلبي »<sup>(١)</sup> والله يعلم ذلك من قلوب البشر وهو العظيم الخبير ، محمد للمؤمنين بالدليل ملموس ، ملائكة يرونهم رأى العين يقاتلون بين جوارهم لتطمئن قلوبهم بحقين وعد الله بالنصر ولكن النصر هو من عند الله بنصره انظر عن رسول الملائكة أو عدم بروهم وانسيان بنصت نظر المؤمنين إلى هذه الحقيقة « وب جعله الله ، لا شرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » وقد كتب الله هذا النصر لحكمة يريد بها سبحانه « ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتنهم فيضعوا حائش » أو يتوب عليهم أو يعذبهم فهم عاقلون « ويأتى بين هذه وتلك قوله تعالى لبيك

- صلى الله عليه وسلم - « ليس لك من الأمر شيء » فبس للرسول - صلى الله عليه وسلم - شأن نهابة لمعركة ولا نتائجها ! إن هذا من شأن الله - وحده - سبحانه - هو الذي كتب النصر ، وهو الذي حدد أهله وبناته - إليه يرجع الأمر كله ، وهو الذي يدبر الأمر كله ، وهو الذي يدبر الأمر وحده بما يشاء سبحانه .

ثم إنه يطمح الكفار في الرحة ومعصرة إن تابوا وأمسوا ، فهو يصد المعصرة ويحكم به كذلك « والله ما في السماوات وما في الأرض ، يغفر من يشاء ويعذب من يشاء ، والله عليم رحيم »

وفي جو المعركة والفتان يهوى المؤمنين عن حرب ، ويوجههم إلى المسارعة إلى المعركة ، والإنفاق في سبيل الله ، وكظم العيظ ، ولعمري عن الناس ، ولاستعصاء للدنوب « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الرب أصعافاً مصبعه ، واتقوا الله لعلكم تفلحون ، واتقوا النار التي أعدت للكافرين ، وأطيعوا الله واطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ، وسارعوا إلى المعركة من ربكم وجه عرصها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون في أسراء والنصر ، ولكاطمين العيظ والناعين عن الناس ، والله يحب المحسنين ، واندين إذا فعلوا فاحشه أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستعصموا لذنوبهم - ومن يعص الله فليحفظ الدين - ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم معصرة من رهم وحنان تجري من تحتها الأنهار جالدين فيها وبهم أجر العاملين »

وقد يبدو هذا لأول وهلة انتقالاً مفاجئاً في السياق !

ولكن التسع الدقيق للسباق يبين خير ذلك !

لقد كان الحديث قبلها مباشرة عن معركة بدر التي انتصر فيها المسلمون ذلك النصر الفريد في التاريخ ، والحديث بعدها بتناول معركة أحد ، التي انتصر المسلمون في أوف ، ثم أصابتهم هزيمة لم يخالقوا عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو حديث مفصل موصول يستغرق من آية ١٣٩ إلى آية ١٧٩ أو ١٨٠ ، ويمضي أشواطاً بعيدة في دحض معركة وفيما حولها من شئون - في مال هذه التوجيهات الخفية والروحية يعترض السياق ؟

كلا ! إنها من صميم السباق - من صميم الحديث عن المعركة !

إن الإعداد الروحي والنفسي للمعركة لا يقل أهمية بحال عن الإعداد الحربي لها سواء بالتدريب على السلاح أو بإعداد السلاح ذاته - بل إن هذا الإعداد الروحي والنفسي

و بنفسى هو صاحب التأثير الأول ولأفوى، وثانى بعد ذلك العوامل الأخرى على كل أهميتها

وهذه الآيات التى تبدو معترضة فى السياق ، تتحدث عن هذا الإعداد المعنوى للمعركة ، أو عن بعض خواصه ، ثم تستمر السياق ، وهو يشير إلى معركة أحد فيتحدث عن جوانبه الأخرى

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربأ أصعباً من عبثة ، وأنتموا الله بعلكم تفلحون وأنتموا أنار لى أعدب للكافرن وأطعوا الله والرسول لعلكم يرحمون »

وهذه علاقة لربما بالإعداد للمعركة فهى أن الربأ شيء لصعاش فى النفوس فلا نحن انقلوب صافية متربطة متلاحمة كما يسعى هـ أن تكون وهى تستعد للمعركة بوجهه لعدو ! وقد تبدو - اليوم هذا الكلام بظرفٍ وحيداً ! فما هم أولاء ؟ الخفاء ؟ قد انصروا فى الحرب الماضية وهم يقسمون حياتهم كلها على الربأ والعرب كنه بغيره على الربأ ، وهو لدى يملك القوة المادية الكبرى فى الأرض ولا يجمعهم ربنا من أساب القوة ولا من انصر !

ودلك حق وبكنه بحقى حق أكبر منه !

فى البصرة العربية يبدو العرب عنه فى القوة متمك من النصر ولكن عند إعدام انظر يبدو منهك فى طريقه للانهيار !

هذه واحدة أما الأخرى فهى أن الله لا يعامل المؤمنين كم يعامل الكافرين ! إنه ينصر الكافرين - باطلهم - بمقدار ما جتهدوا فيه وأحدوا بالأسباب ، لأنه يعجز لهم نصيحتهم فى خيبة الدنيا ، وما هم فى الآخرة من حلاق ! « من كان يريد خيبة الدنيا ورينها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يحسون ! أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون » (١)

أب المؤمنون فى الله لا ينصرهم باحتيادهم وهم على الباطل ! لا ينصرهم إذا اتخذوا داب السبل التى يتخذها الكفار فتصرون ! ذلك أنه - سبحانه - يريد لهم ولا يريد أن يقتلهم ! ولو نصرهم وهم على باطل لقتلهم فكروا ! لا ينصرهم حين يتخذون الأسباب على طريقه ، ملتزمين بأوامره . .

(١) سورة مود ١٥-١٦

وقد نصر الله « إخلاء » أو غيرهم وهم يأكلون الربا أصعاف مصاعفه فذلك حق ، ولكنه لا يعنى أنه سبصر المسلمين وهم يتعاطون الربا ويتبعون أمر ما أمر الله ويخالعون أمره . إنما ينصرهم فقط حين يستقيمون على أمره ويتبعون هداياه ! ثم نصر مرة سريعاً بقصبة الأصعاف المضطعة التى يرغم بعض المجادلين أنها هى وحدها المحرمة ، وأن الربا كميات قليلة لا يشمله النص بالتحريم !! وهو جهل وهوى فى ذات الوقت . فكل من يعرف شيئاً عن حساب الربا - وهو ما يعرف فى الحساب باسم الربح المركب - يعرف أن الكميات لقليلة تتحول بمضى الزمن تلقائياً إلى أصعاف مضطعة . ثم بـ « بصوص لقرآن صريحة فى هذا الشأن » « فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون »<sup>(١)</sup>

« وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون »

وهو توجيه عام ، قد يكون ورداً بشأن الربا الذى سبق الحديث عنه ، ولكنه يشمر بصعته كل طاعة

« وسارعوا إلى محضه من ركنه وحجة عرضها المساوات ولأرض أعدت للمتقين »  
سارعوا ! لا تتوانوا ! إن الأمر لا يصلح فيه التكاثر والتقاعد . إنما يحتاج إلى همّة وبشاط فى السعى . ومع سعة الحجة لم تكن هناك توصيل إليها يحتاج إلى سعى . وهذا هو الذى يدعو للمسارعة فيه

« أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين العيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »

ووصف المتقين بأسم الدين يعقوب بن رقهيم الله يرد كثيراً فى القرآن بين صفات أخرى . أما وصفهم بأسم الكاظمين العيظ والعافين عن الناس فوصف يكاد ينمرد به هذا الموضع نعم جاء التحبيب فى العفو فى أكثر من موضع . أما وصف المتقين به بجانب كظم العيظ فهو الذى يقول إن هذا الموضع يكاد ينمرد به . ونحن ننظر إليه فى ضوء الإعداد للمسي للممركة ، عرى قيمته ودلالته . إن الأمة لا تنتصر وبعضها يحمل الأحقاد والأعلال لبعض . كما وصفت اليهود فى سورة الحشر : « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى »<sup>(٢)</sup> . إنما تنتصر وهى متلاحمة القلوب بالوعدة . وهى تسمى كظم العيظ والعفو عن الناس كأداة للمودة وربط القلوب . وليس معنى كظم العيظ حفظه فى القلب فيتحوّل إلى صفة أو صفة من

(٢) سورة الحشر ١٤

(١) سورة البقرة ٢٧٩



ذلك ألا يكظم أصلاً وأن نترك معجراً ! إنما المقصود صسطه بل أن يهدأ ، وتصريفه في هدوء ، حتى ينتهي بالعفو عن السيء .<sup>١</sup> وهذا أدعى إلى المودة بين الناس . فإنك حين تصفق لعصك العنان وأنت مستشار ، تريد إثارة نفسك ، فإنك غالباً ما تؤم أحداً وتجرحه ، وأنت تتردد في عصك بأنه أساء إليك فمن حقت أن تسيء إليه ! ثم يهدأ عصبك أنت ، ويبقى ما أثرته في نفس أحبك ! فإذا استطعت أن تصبط هذا العصب فلا يتحجر ، فيستصلح حجمه في نفسك من بقاء نفسه ، حتى يصيح في طوقك أن تعفو عنه وأنت مسريح الخاطر . ولا تكون قد أحدثت في نفس أحبك الإساءة التي تحتاج في محوها إلى جهداً

وفي ضوء الإعداد للمعركة تكون هذه وسيلة هائلة لارتباط القلوب وتلاحمها ، ومرشحاً من مرشحات النصر . وقد كان كذلك المسلمون ، يدخلون المعركة متصافين قلوبهم فيتعرفون بكل مشاعرهم للمعركة . . ويتصرون .

« والله يحب المحسنين ، واندبوا إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستمعوا لذبوبهم - ومن يعمر لذبوب إلا الله ؟ - ولم يصرو على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم معقرة من رسم وجبات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين » .  
في السياق هنا يستوقف وقفات .

« ولوا في » والدين إذا فعلوا فاحشة « قد تكون عظماً » والله يحب المحسنين واندبوا إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستمعوا لذبوبهم « ويمكن أن تكون استئنافاً فتكون « والله يحب المحسنين » تماماً للكلام لسابق وبدأ بعده كلام جديد وأما أميل إلى الأولى وإن كانت الثانية هي ظاهر النص

ثم ب حديث عن معقرة الله ابواسمعه الى تسع للدين « فعلوا فاحشة او ظلموا أنفسهم تجيء بعد دعوة المؤمنين أن يعفو بعضهم عن بعض فكأن يقول لهم بطروا إلى معقرة الله ابواسمعة كيف تسع حتى للفا حشة وطمم النفس . ألا يعمر بعضكم لبعض في صغائر الأمور ؟

ثم هذه الرحمة الشاملة من الله سبحانه لعواده حتى وهم يحضون ! ويخطئون ، خطأ انصحهم . ماداموا لا يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون . وما داموا يذكرون الله فيستعفرون لذبوبهم . وأعجب ما في هذه الرحمة أن يقول « أولئك جزاؤهم معقرة من رسم وجبات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » ونعم أجر العاملين « إنه يعثرهم من العاملين أولئك

المحطتين الذين فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم !! نعم إن العمل هو التوبة هو الاستعفار هو معاهدة النفس لكي لا يعود إلى المعصية . هذا هو العمل الذي من أجله أنعم الله عليهم بالحياة وسيهم العاملون !

وهذا كله يخبر في معرض الحديث عن المعركة . . هي دلالة ؟

إن القرآن - وهو يعد المسلمين للمعركة - يريد أن يصفي نفوسهم عما لكي يخلصوا للمعركة الجهاد في سبيل الله لا يعطلهم شيء على الإطلاق لا تعطلهم الأصعبان التي يشرف الرب ولا تعطلهم الأصعبان التي تثرها الرغبات الصغيرة بين البشر ولا تعطلها الإحساس بالذنب أو الإحساس بالذنب من أكر المعوقات عن الاقتحام إنه قيد يعين النفس فلا تنطوي . وثقل يدفعها إلى التخاذل والانكسار

وفي سبيل تصفية نفوسهم من كل معروف ، محبصهم كذلك من الإحساس بالذنب ، يفتح باب المعركة على مصراعيه ، لندكريه والمستعمرين ! في هذا من رحمة ! ويا لها من تربية ! . . ويا له من إعداد شامل للمعركة لا يهونه شيء !

وقبل أن يسمر السياق في عرض جوانب أخرى من الإعداد لروح المعركة يقول « قد حلت من قبلكم من صدروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بين الناس وهدى وموعظة للمتقين »

وهذا التوجيه قد يكون موجهًا للمؤمنين ، كما قال هم من قبل « واتقوا النار التي أعدت للكافرين » فيكون أمرًا بالاستقامة على طريق الله ، عن طريق الإشارة إلى عاقبة المكذبين لكي ينحسروا بمومنون وقد يكون موجهًا إلى الكفار الذين فرحوا بانتصارهم في أحد ، التي سيعود السياق إلى الحديث عنها ، فيكون معناه ، لا تفرحوا هذا لنصر لعارضي ، فقد حلت من قبلكم من لا ينحسروا وهذه سنس تؤكد أن النهاية ناسية للمكذبين هي التدمير والهلاك ، مهما أحرروا من جولات متتصرة قبل اللحظة الحاسمة وقد يكون شاملًا للمؤمنين معًا ، « هذا بين الناس » غير المؤمنين « وهدى وموعظة للمتقين » . .

ثم يحدث عن هزيمة أحد التي أصابت مسلمين بسب مخالفهم لأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، بينهم وقتلهم في المعركة ، حديث مستفيض متعدد الخواص والإشارات والتمحيات . وكله في سبيل الإعداد الروحي والنفسى والخصى للمعركة

« ولا تهر ولا تحربوا وأنتم الأعينون ، كنتم مؤمنين . إن بمسلككم فرح فقد عس القوم فرح مثله . وبذلك لأنام نداول بين الناس . وليعلم الله أسدبن آمو ، ويتحد عنكم شهداء

والله لا يحب الظالمين . ولیمحص الله الذین آمنوا ولیمحق الکافرین . أم حستم أن تدخلوا  
الحجة ولما یعلم الله الذین جاهدوا منکم ویعلم الصابرين ١٩ .  
« ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنین » .

لا تنهوا بسبب هزيمة التي خفكم في أحد ، ولا تحزنوا . فالخزن شعور مُقْعَد  
فست لعزيمة ويقعد الهمة . وأنتم الأعلون - رغم هزيمتكم - إن كنتم مؤمنين ! فالاستعلاء  
يس بالصر في معركة . وليس بالقوة العسكرية أو المادية . الاستعلاء بالإيمان ! بالشعور  
بأنكم مهتدون إلى الحق الربى ومسائرك على هذه . هذه هو مصدر استعلاء مؤمن ، ولو  
موت به هزيمة عابرة . هزيمته لا تمس مصدر استعلائه وهو الإيمان  
ونقد وعى المسلمون هذه الدرس منذ نزلت عليهم هذه الآية فما عادوا يسمدون الاستعلاء  
من غير الإيمان . وما عادت هزيمة عابرة ، أو نقص في لعدد أو العدة يُذهت عنهم  
استعلاءهم . . مداموا مؤمنين !

في الحروب الصليبية الأولى مرت عليهم هزائم متكررة ، بسبب ما كانوا عليه في مبدأ الأمر  
من تفرق واشتغال عن الجهاد ، حتى قبض الله للأمة القائد المؤمن صلاح الدين ، الذي  
راح يذكى العقيدة في النفوس ، ويقول الناس : لقد هزمت بسبب عدكم عن الله . وبن  
تنتصروا حتى تعودوا إلى الله . هادوا ونصروا . فقد كانت جدوة الإيمان ما تزال  
كامنة في القلوب وإن علاها شيء من الرماد

وصى الرعم من هذه الهزائم المتكررة في مبدأ الأمر . وعلى الرغم من أن الصليبيين تمكوا  
من إقامة دولة في الشام استمرت مائتي عام . فلم يتحل عن مؤمنين استعلائهم . ولا  
أحسّر - رغم هزيمتهم - أن الصليبيين خير منهم ! بل كانوا يحتمرون مسادهم الخندقى  
وتحللهم ، ويحتقرون نمط حياتهم كنه . ذلك أنهم كانوا يستعلون بالإيمان أو بنفيه  
الإيمان . فيعرفون أن طريقهم هو الأفضل ولو كانوا مهرومين !

كذلك حين غلبهم التتار وأرأوا دولتهم في اشرق ، حتى قبض الله للأمة القائد المؤمن  
قصر الذى صباح صبحه مشهورة . وإسلامه ! وانتصر على التتار في موقعه عين  
جلوب . كذلك م يتحلو يومئذ عن استعلائهم بالإيمان أو ببقية الإيمان . ولم يحسرو  
أن اسار خير منهم بسبب نصارهم على المؤمنين . بل كانوا يحسبون - من مخططات الهزيمة -  
أنهم هم الأفضل لأنهم مؤمنون !

في الحروب الصليبية الحديثة فقط ، أحسن المسلمون لأول مرة ماهزيمة الروحية . . وبأن

الصلبيين المنتصرين خير منهم ! ديث أن جدوة الإيبار كانت قد حب في قلوبهم كثيراً  
 خلال قرون متوالية ، وتحوّلت إلى مظهر حاوية من الروح عند ذلك ربي المسلمين  
 استعلاؤهم ، لأن عصر الاستعلاء الختفى كان قد راب انقلوب ا وسهر لمسلمون - لأول  
 مرة في تاريخهم - بما عند أعدّتهم فراحوا ينقبون عنهم . لم ينقلو « انعلوم » كما نقلوا مره من  
 قل في مبدأ حياتهم - ولا صير - ولم ينقلوا « التطبيات » النافعة كما فعلوا مرة من قبل في مبدأ  
 حياتهم - ولا صير - إلى نقلوا « لنظم » ونقلوا التصورات والمفاهيم والمعيير الخلقية  
 والسلوكية وتركوا ما عندهم من دينك كنه في كتاب الله وسنة رسوله وسيظلون في  
 عمرهم تلك ساددين حتى يستيقظ في قلوبهم جدوة لإيبار من حديد فيحسوا  
 بالاستعلاء من حديد ، ويعرفوا أن ما عندهم خير مما عند أعدائهم ، فهي كن من قوة  
 أعدائهم لمدية في الوقت الخاص وينقلوا العلوم بقط والتطبيات لتى محتاجون بها ،  
 ولا ينقلوا النظم والتصورات والمفاهيم والمعيير

« دين يمسكم فرح فقد مس القرم فرح مثله وملك الأرم يداولها بين الناس ، ولعلم  
 الله الدين أمر ويتخذ مكم شهداء والله لا يحب الظالمين ولمحس الله لدى أمر  
 ويمحق الكافرين »

يشير إلى ما أصاب « لقوم » من قل في موقعة بدر فلئن كان قد أصابكم فرح في أحد ،  
 فقد أصابكم فرح مثله في بدر ، وتلك الأيام من نصر وحرمة يدوها الله بين الناس . فلا  
 يظن المنتصر منتصراً أبداً ، ولا المهزوم مهزوماً أبداً الحكمة يريد بها هو سبحانه وقد بين هذا  
 بعض حكمه من هذه الشدة التي تصيب المؤمنين « ويعلم الله الدين أمر » وعلم الله  
 سابق في لأز ، فهو لا يعلم حدث عند وقوعه ، وإنما هو معلوم عند الله منذ الأز ، مد  
 هذه الله سبحانه ونعالي إنما المقصود برور هذه الحقيقة حتى تعم في عالم الناس أي  
 ليكشف الله للناس عن المؤمنين ، « ويتخذ مكم شهداء » فهذا هدف من أهداف  
 المحبة . أن يجد الله من المؤمنين شهداء وسواء كان الشهداء بمعنى الدين اسشهدوا في  
 سبيل الله وهو الأقرب ، أو بمعنى الدين ثلوا على الإيبار فأصبحوا بذلك شهادين على  
 صدق هذا الدين أو هما معاً فإن من أهداف المحبة أن يرر الله رجالاً مؤمنين يشنون  
 على الإيبار وقت الشدة - سواء فعلوا أو بقرو - لا يعرضون في عقيدتهم ، ولا يشتركون بها ثمة  
 ولو كان الثمن هو حياتهم لأن هؤلاء « لشهداء » هم قوة هذا الدين ، وتهادج تحديدهم  
 الأحيال من المؤمنين - بالإضافة إلى مبرنهم الخاصة عند الله ، لى سينحدث السباق عهدا

موضعين نائين - محين يكون اتحاد الشهداء هدفًا ربانيًا فهو لصالح هذا الدين ، وصالح هذه الصفوة الممتازة التي اختارها الله من بين عباده فيحصيها برحمته ومعرفته وبعيجه ورضوانه . وكذلك يبرر الخير انعميم من خلال هذا النصر الذي يتأدى منه الناس ، ويودون لو لم يكن قد حدث !

« ولتمحص الله لدين اموا ويمحق الكافرين »

والتمحيص لا يتم إلا من خلال الابتلاء الشديد ! هكذا قنصت حكمة الله ! وقد سبق الحديث من قبل عن الابتلاء والتمحيص <sup>(١)</sup> . ولكن هنا يريد السياق « ويمحق الكافرين » ومتى نفوز ذلك ؟ والمسلمون مهزومون في المعركة يقول لهم إن من حكمة هذا الابتلاء باهريجه تمحيص المؤمنين ، وتمحيصهم من بعض ما علق بنفوسهم من أوشاب ، وتحرير نفوسهم لله وللحق وللجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله . ثم يمحق الكافرين ، بأولئك المؤمنين الذين محصوا في المحنة ، فصلت نفوسهم وصفت أرواحهم وتجردوا لله وصاهر أن السياق يريد أحد الأمرين بعد الآخر ، ويرته على الآخر يأتي التمهيص للمؤمنين أولاً ثم يأتي المحق للكافرين بعد ذلك . ومحق الكافرين يأتي نتيجة بتمحيص المؤمنين . فلماذا أن يحدث التمهيص ليحدث المحق . وتلت كلها من أهداف الانباء ، الذي يظله الناس شرًا كله . . فإذا فيه كل ذلك الخير !

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟ » . وهو سؤال إنكاري يفيد أنه لا يمكن أن تدخلوا الجنة قبل أن يبرز الله لدين جاهدوا منكم والذين صبروا بحيث يعرف جهادهم وصبرهم . ولا يتم ذلك إلا بالامتحان والابتلاء . الذي يتسير فيه المجاهدون والصابرون .

« ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن نفوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله لرس ، أفرا مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ۚ ومن ينقلب على عقبيه من يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين . وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً . ومن يرد ثواب لنبياً يؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة يؤته منها وسيجزي الشاكرين »

من هه يبدأ عتاب جاد للمؤمنين بشأن موقفهم في أحد

لقد عصوا أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، فعادوا حين الرماة قبل أن تنتهي المعركة ، وقبل أن يتلقوا أمراً من لقائد صلى الله عليه وسلم - بمعادرة المكان الذي أمرهم

(١) إجماع سورة البقرة عند الحديث عن آية « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وما يأتيكم مثل الذين جدوا من قبلكم »

ألا بعدوه . فأنهر المشركون الفرصة وكروا على المؤمنين على حين غرة منهم فأحدثوا ارتباكاً شديداً في صفوفهم . وسرت إشاعة بأن لرسول - صلى الله عليه وسلم - قد قتل ، فزادهم ذلك ارتباكاً ، وفي هذه المصاحفة رأى بعضهم أنه لم يعد هناك إذن ما يدعوهم للاستمرار في القتال مادام الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد قتل !

فهم يعانونهم على هذا الموقف عتاً شديداً بقدر عظم المصاحفة أو المداخلات التي وقعت منهم

« وقد كنتم تمون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ! »

إن الإنسان قد تسمى الموت - صادفاً - ثم بهتر حين يجسبه بالمعل فيقلب على عقبيه لا لأنه لم يقدّر معنى الموت - وإنه لأنه رسم في خياله صورة معينة للموت ، وأعد نفسه لها فرد جاءه الموت من طريق آخر غير الذي تصوره وأعد نفسه له اضطرب لدمجها . وهذا هو الذي حدث للمؤمنين في أحد - لقد خرجوا صناديق آلية للجهاد في سبيل الله ، ولموت في سبيل الله - ولكنهم تصوروا أنفسهم بقاتلون الأعداء وحدهم لوجه عن تمكين - فيقتلون ويُقتلون ! وكذلك فعلوا في الجولة الأولى من المعركة وكان النصر حليهم . فلما حدثت المصاحفة غير المتوقعة ، وعما حأهم الموت من غير الطريق الذي رسموه لأنفسهم وأعدوا أنفسهم لبقائه . أصابهم الارتباك ففروا . ومع علم الله سبحانه وتعالى أنهم لم يبروا خيانة ولا تحيياً فإنه يشدد عليهم لأن هذا الذي حدث ما كان يسمى به أن يحدث !

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أنزّلنا من قبله الكتاب أو قتل أنفسكم على أعقابكم ؟ ! » .

وحين نظر إلى الموقف منطلقاً من الشر فإن يرى أن الدين هنروا حين سمعوا إشاعة مقتل الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما هو محذورين ! فإن رعيماً حادياً ، أو قائداً حادياً يمكن أن يكون عينه عن أساعه بالموت أو القتل - وخاصة في أثناء المعركة - سناً في احترامهم ومصيرهم . فلما سلّم حين يكون هذا الرعييم وانقائده هو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أعظم من حسنت الأرض في تاريخها كله ؟ وما سلّم حين يكون أتباعه ممتلئين بالتمسك به كما لم يحدث قط لرعييم ، أو قائد في تاريخ البشرية كله ؟ !

كيف يُحدث الفراغ المصاحفي في مؤسهم ؟ !

إنه موقف لا يصمد له إلا أولو العزم من البشر . ودليل ما هم !

بل إن الهزء - حين وقع فعلاً بموت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد هرب حتى

أولى الحرم . وعلى رأسهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - !  
ومع ذلك فإن التربية القرآنية تريد أن ترفع المسلمين إلى أعلى ما في طاقه البشر أن يرتفع  
إليه ! لا بالفسر . فافسر هنا لا يمكن أن يشعر ولكن بالبرية . بالتوجه  
بمخاطبة الوجدان والمشاعر  
وقد يكون التوجيه حاداً كما هو في هذا الموضع . ولكنه مؤثر ، ومن أجل ذلك  
شعر . .

إنه لا يريد - هنا - أن يقرهم على « لصعب الشرى » كما يقرهم عليه في مواطن أخرى  
[ « كتب عليكم القتل وهو كره لكم » ] لأن الموقف هنا دقيق وحاسم في وسط المعركة  
القائمة بنمعل . ولا يكون لإقرار الصعب لشرى نتيجة إلا ليريد من الخليفة في الصف  
والمريد من الأملاك .

إنما هو يسعى التوجيه للعزيمة فهذا هو التوجيه الذي يرد النفوس من أملاكها ،  
ويذكرها بواجبها فتتأسك ، ولا تسمح للصدمه أن تهديها عن واجبها فتحدث  
الصدمه ، نعم ، لا محنة ، ولكن سقى العزيمة وبقى التماسك كما حدث يوم وفاة لرسول -  
صلى الله عليه وسلم - بالفعل  
بذلك كانت هذه اللهجة الحادة

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أولئك مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟  
ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين » وما كان لئس أن  
تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤسلاً ! ومن يرد ثواب الدين يؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة يؤته  
منها وسيجزي الشاكرين ! »

وبلاحظ هذا التكرار في « وسيجزي الله الشاكرين » « وسيجزي الشاكرين » إنه تهديد  
خاصة بعد قوله « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً » وقوله « ومن يرد ثواب  
الدين يؤته منها ! » إن معنى التهديد الخفي أنه إن تخستم فإن الله يفرض بذه منكم ،  
ويدعكم لشأنكم ، ثم يصطفي المستقيمين منكم على أمره ، أو يستبدل قوتكم غيركم ويأتي  
بقوم آخرين شاكرين لله أي طائعين ميسرين متقين مستقيمين ، فيحصلهم بالأجر والثواب  
دوكم كما قال في سورة مائدة : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي  
الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أدلة على المؤمنين أعز على الكافرين ، يجهدون في سبيل الله ولا  
يخدعون لومة لائم : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » (١) .

ثم يصعق أممهم صورة لمحاهدين الصابرين لكي يروا الفرق بين ما وعدوه وما كان  
يحي عليهم أن يعملوه . وهي صورة شعبة عميقة التأثير

« وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهوا لما أصابهم في سبيل الله وما صعقوا وما  
ستكانوا . والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا . رب اغفر رب ذنوبنا ،  
وإسراف في أمرنا ، وثبت أقدامنا ، ونصر على القوم الكافرين . فتاهم الله ثواب الدنيا  
وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين »

« وكأين من نبى . . . »

وهي صيغة تعيد لتكثير . ومعناها . كثير هم الأنبياء الذين قاتل معهم المقاتلون من  
أتباعهم فما وهوا

بهم ليسو إذن أمثلة صابرة في كبريخ ، بل كثرة . ومن ثم يبدو سرك الدين امضوا  
عن لرسول - صلى الله عليه وسلم - في الموقعة سلوكاً شاذاً بالنسبة لكثرة من أتباع الرسل  
وسلوكتها ما كان يتنى أن يحدث

ثم هذه الصورة الحميلة لأولئك الشترين في القتال مع أنيائهم « فما وهوا لما أصابهم في  
سبيل الله ، وما ضعفوا ، وما استكانوا » إن هذا التخصيص في موقفهم يوحي بالخفاوة  
البرانية بهم ، والرضى عنهم ، والإشادة بهم . وحدث كنه في موقف العاصب للمؤمنين ! ثم  
هذا التفصيل مقصود بمرض آخر تربوي توجيهي . ذلك أنه يرفع الصورة أمام المؤمنين  
ليملوها ، ليكونوا مثلها . ومن ثم فإن كثرة التفاصيل في السورة معين على تدبر الدرس  
ووعيه ، والإفادة منه في المستقبل . وهذا التعقيب « والله يحب الصابرين » هو كذلك توجيه  
تربوي ، معناه . كونوا صابرين - مثل هؤلاء - ليحكم الله . .

واستمرراً لإعطاء التفاصيل في الصورة يأتي « وما كان قولهم إلا أن قالوا . رب اغفر  
رب ذنوبنا ، وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا ، ونصرنا على القوم الكافرين » . فيحفظ  
ذلك أهدافاً كثيرة في آن واحد

بها وصف دستورك الوجه واستسحب في مثل هذا الموقف . يكمل الصورة اشتمية  
لأولئك المتقنين الصابرين .

وتوجيه للمؤمنين في ذات الوقت أن يستعصموا بذنوبهم وأن يكون دعاؤهم أن يشت الله  
أعداءهم لكي لا تزل كما زلت ، وأن يصبرهم على القوم الكافرين ، فلا يحس بهم الهزيمة كما  
حلت . .



ثم هنا لفظة في « وإسرائيل في أمرنا » .

به في مكان آخر [ سورة البقرة . ٢٥٠ ] يقول « ولما برزوا للحالوت وجنوده قالوا

ربنا أفرع علينا صبرا وثيب أقدامنا واصبرنا على القوم الكافرين » .

وبكفه هنا - والمؤمنون قد أسرعوا في أمرهم في وقعه أحد - يوجههم - من خلال هذه الصورة

التي يرفعها أمامهم - يا يسعني عليهم أن يعبدوه لكي يستقيموا على الأمر ، فيصيب في

اللوحة هذه العبارة « ربنا اصبرنا دينا وإسرائيل في أمرنا » ليقرأها المؤمنون في اللوحة

ويجربوها في دعائهم ! وهي لفظة دقيقة إلى نفوس المؤمنين وما يعتمل في داخلها ، ثم توجيه

لهم بما يسعني عليهم ليخرجوا من موقفهم !

ثم تنجي نتيجة هذا الدعاء ، وثمرة هذا الموقف المتحرد لله « فأتاهم الله ثواب الدين

وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين »

وراء صبح بطبيعة الحال الصرفة في التعبير من ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . ثواب

الآخرة هو الأحسن والأفضل ، حتى حين يكون ثواب الدنيا تمويها من الله لعباده رضاء

عندهم ، ومكافأة لهم على ستقامة موقفهم أو دينك لكي تظل قلوب المؤمنين معقدة بثواب

الآخرة أبداً ، لا تشعل عنه بثواب الدنيا ولو كان من فضل الله وحسنه ، لا ستدراخ ولا

فتنة !

وواضح كذلك أن هذا العرض المفصل في وصف المكافأة التي أعطيت للمقاتلين

الصابرين ، هي توجيه تربوي لحفزهم للمؤمنين أن يكونوا بحيث يستحقون مثل هذه

المكافأة السخية من فضل الله !

\* \* \*

« يا أيها الذين آمنوا إن تطعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنبهوا حذرين بل

الله مولاكم وهو خير المصيرين » سمي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم

يرل به سلطاناً ، وما أودهم النار وبئس مثوى الظالمين »

يحيى هذه التحذير للمؤمنين من إطاعة الذين كفروا ، لأن الكفار في المذهب - سواء من

قبائل العرب التي لم يسلم بعد أو من اليهود - معهم المذنبون الذين يلودون بهم ، قد

استمعوا جزاء الجريمة في أحد لبشظوا المؤمنين عن القتال ويحذروهم عواقبه ، من أنهم من

يستطيعوا الانتصار على أعدائهم ، ولن يصيبهم من القتال إلا الخسارة ! فهو يحذرهم أن

يستمعوا هذه الأقاويل ، وهم في حالة انكسارهم عرضة لأن تؤثر إليهم تلك لدعاية

المسمومة وشبابهم سبية الاسنياع للكفر والطاعة لتوجهاتهم إب الكفر ! وذلك لكي يوقفهم إلى أن ليست مسألة صغيرة ولا هشة إب الارتداد عن الإسلام وإب هي الحسارة الحقيقية ، وليست حقائق المعركة هي الخسارة !

« بل الله مولاكم وهو خير الناصرين »

وكان السياق يقول لا تطيعوا لدين كفو ولا تدوبوهم بل الله مولاكم ويحتمل لسياق كذلك معنى آخر لا تصدقوا قول انقائلي لكم - ليحدّلكم - أن الله قد تحلى بكم بعدد ، وترككم للهريمة بل الله مولاكم ، وهو خير الناصرين ، ثم يقوى قلوب المؤمنين لكي لا تؤثر فيها نك الدعاية المسمومة التي يوجهها إليهم الكفار والناصريون ، مستعينين حواهريمة

« سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب . . »

إن جو الهزيمة دائماً يكثر قوة لعدو عن حجمها الطبيعي فبدر صحة ، وتبدو قوة بهم أمامها صغيرة . لذلك يطمش السياق المؤمنين بأن الكفار من يتصرفوا عليهم في اراجعة القادمة ، بل سنلقى الله في قلوبهم الرعب ، سبب أصبل في سنة لله « سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً »

مهد . دن حط أصبل في سنة الله ، أب يهزم المشركون بالرعب حين تواضعهم لعنة المؤمنة ولو كانت أقل منهم عدد وعدة . وأن يكون هذا الرعب هو الجزء الديوري عن شراكم بالله ما لم ينزل به سلطاناً . . أب في الآخرة مجراء آخر « وما أواهم النار ويثنى المشوي الظالمين »

ولقد كانت هذه السنة متحققة بالفعل في أول المعركة لأنها سنة جارية مدامت لعنة المؤمنة قد وجدت ، وترست على الأيبي رثت عليه ، ومحضت قلوبهم فعدله يحيى بحق الكافرين « وليمحض الله الدين آموا ويمحض الكافرين » ولا تتحلف هذه السنة أن لا إلا المحالفة تقوم بها العنة المؤمنة فيصيبها جزء المحالفة

« ولقد صدقكم الله وهذه إذ تحسونهم بإذن حتى إذا هشلم وتدرعنم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أركم ما تحبون ، مكهم من يريد لدين ومكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم . ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين »

صدقكم الله وعده . وجرت لسنة على حطها الأصبل ، فانسعرتهم عليهم لأنكم أنتم

الفئة المؤمنة وهم المشركون الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وكان الانتصار في صورة اجتثاث للكفار ( إذ تحسبهم : أي تحتسبهم ) بإذن الله وتقليده وحسب سنته . . حتى إذا وقعت منكم المحالفة ، فترعتم وعصيتم . . . من بعد ما أراكم من تحوّل وهو النصر . . بعد ذلك وقع جراء المحالفة وهو الهزيمة .

« . . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » .

قال بعض الصحابة لما برئت هذه الفئة : ما كنا نعلم أن من يريد الدنيا حتى برئت هذه الآية !

وبسبب زيادة الدين بها بمعناها لدى يرد في شأن الكفار ، إذ تصدّهم عن الإيمان بالله ، ولا بمعناها الذي يرد في شأن المنافقين ، إذ تصدّهم عن الجهاد في سبيل الله إيماناً به إشارة لمحقاتين على حين الرماة الذين برلوا من الحس بحالهم لأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - حرقاً على نصيبهم من العبيّة . فهو يحسم السياق محالفتهم ليرزها أمام أعينهم لكي يستفطعوه ، فلا يعودوا لمثلها أبداً . ولتعبير مع ذلك يذكر حقيقة واقعة : أنهم من أجل العائث ، وهي من أمور الدين ، رفعوا في المحالفة . ولكن يحى ويحيى التجسّم والتفطّيع من أن السياق القرآني دائم يلصق زيادة الدنيا بالكفر والمنافقين ، بوصفها هي التي تصدّهم عن الإيمان أو جهاد . هذا رأى المؤمنون صورة أنفسهم فيها . إذا رأوا أنفسهم يوصفون بذات الوصف الذي يوصف به الكفار والمنافقون . وإن كان بمعنى آخر - مرعوا من تشابه الوصف وتشابه الصورة ، فلم يعودوا يربكون ما تبسب عنه وصفهم بهذه الصفة البرهية ، رتعدوا جهدهم عن هذا الطريق حتى لا يبالغوا في وصف يوصف به الكفار والمنافقون !

« ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » .

في مبدأ الأمر صرفكم إليهم تحتسبهم من حدودهم ، تحقيقاً لسنة الله الخيرية بعد قيام الفئة المؤمنة في الأرض . والآن صرفكم عنهم لأنكم حالقتم . فلم يعد قتلكم موحهاً إليهم ، ولا مودياً إلى اجتثاثهم ! وذلك ليبتليكم بمخالفتكم .

« ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » . .

بأن الله لم ينقص يده من الفئة المؤمنة جراء مخالفتها . إنه يعلم صدق قلوبهم ، وصدق نواحبهم . وبأنه هو ذاته عارضة أصابتهم حين حاربوا لأمر من أمور الدين ، تصحّبت بعبث في حسهم أكثر مما ينبغي . فاستهم - خطئة - أنهم جاءوا لقيمه أكثر وأهم ، هي إعلاء كلمه الله في الأرض . وهي الجهاد في سبيل الله . وهي الحق .

ومن أجل هذه الرلة ابتلاهم بالحرمة ، سيقظوا إلى نتيجة محالهم ، وتبيح الاحترار  
العارضة التي أصابهم ونكه - أنذا - لم يفسد به منهم إيمانهم عنهم والله  
دو ففس على المؤمنين عما عنهم في النهاية حين علم أن قلوبهم قد صمت وصمت  
وزلت عنها تلك الاحترار العارضة فعادت إلى نصها الأصل !

\* \* \*

ثم يأخذ في عرض صورة دقيقة لما حدث في المعركة ، كأنها لمارة يرون أنفسهم فيها ، أو  
كأنها شريط للأحداث يعرض عليهم ليروا أنفسهم فيه !  
بها طريقة من طرق الترسه بالغة التأثير .

ولقد اهتمت بعض طرائق انثريه المعاصرة إلى شيء شبيه بذلك معالج بعض العادات  
السيئة التي تصبح « لازمة » عند بعض الأفراد لا يستطيعون الخلاص منها ، فيؤخذ هم -  
دون أن يدحضوا شريطاً من الصور وهم يأنون هذه العادات السيئة ، ثم يعرض الشريط  
على صاحبه وهو جالس بمفرده ، حتى لا تجرح كرامته بالعلانية والتشهير - فمشاهدته  
« متخرجاً » فيعرض من الصورة التي يراها أمامه - ويحس أن الناس « المتخرجين » بتفروا منها  
ولهم الحق في ذلك ! فيدفعه ذلك إلى إبطال العادة السيئة التي تلازمه ، سواء كانت حركة  
عصية غير راجعة ، أو وضع الإبهام في الفم ، أو قرص الأظفار أو ما شابه ذلك من الحركات  
والعادات !

والقرآن يسبق بهذه الطريقة الناجعة في التربية

إن الإنسان لا يرى نفسه على حقيقتها أنذا ! ولا يرى كيف تكون صورة العمل الذي  
يأثبه ولا تأثيره عن الآخرين - إلا أن يعرض عليه شريط بأعماله ، يراه في موضع المتخرج ،  
فيراه على حقيقته !

وها يعرض السياق صورة دقيقة معبرة متحركة ، ترسمها الألفاظ في دمه معجزة ،  
فتسجل فيها حال المؤمنين وقت المعركة - ثم تعرض الصورة على المؤمنين فيرون أنفسهم  
فيها ، ويرون الصورة الحقيقية لهم - فليعدون من الصورة ، فلا يعدون مثلاً أنذا !  
« إدا يصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أحركم فأتاكمم عما بعم لكم لا  
تحمروا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ، والله خير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم  
أمنة بعامنا يعشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ، ظن  
الجاهلية ، يقولون هل لك من الأمر شيء ؟ قل : إن الأمر كله لله يحكمون في أنفسهم

م لا يدور لك ، يقولون لو كان لك من لأمر شيء ما فبها ما اقل مو كتم في  
 سيوتكم بدر الدين كتب عليهم القتل بل مصاحبتهم وليست الله ما في صبوركم ،  
 وليمحض ما في قلوبكم . والله علم بذات الصدور »

« إذ تصعدون ولا تنزون على أحد . »

كميات قسمة تعطى صورة كامة للاضطرب والخلل الذي وقع في صف اسمين حين  
 فوجئوا بهجوم العدو اذ عت يد يصعدون في الخيل منعتين لا يستمتون لأحد ولا شيء ،  
 ولا يتوقعون ليتيسر ، ولا يتمهون ليفكروا !

« والرسول يدعوكم في أحراكم . »

ولكنهم في اضطرابهم لا يتيسر صوت الرسول - صلى الله عليه وسلم ، ولا يستحيون  
 لفصوت الذي يناديهم لقد انقضت العقد وانفلتت كل حبة وحدها في حركتها الدائرية لا  
 تستجيب حركة الأخرى ولا تتوجه إليها !

« فأنكم عمى نعم نكى لا تحربوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله جبريا تعمدون »

ولا يحدد السياق هذا لعم الأول الذي أنشأ به العم الثاني لذلك اختلف المفسرون  
 في تفسيره هل هو موت الشهداء لسعين في أحد مقابل عدم قتل أسرى المشركين في بدر  
 والاكتفاء بأصبرهم ، ولذي برر شأنه في سورة الأنفال « م كان لبي أب يكون له أسرى  
 حتى يشحن في الأرض ، تريدون عرض لنديا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم لولا  
 كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » ( ١ ) أم هو نعم الذي أحدثوه في نفس  
 لرسول - صلى الله عليه وسلم - بهزادهم عنه ، وإصابته بما أصابه يومئذ من جراح وآلام ،  
 فأنشأ به العم الذي أصابهم من الهول والاضطراب و هزيمة ؟

وأيًا يكن الأمر فقد أحس المؤمنون بعظم شأنهم ثقل يعشى هوسهم بعد أن انجلت  
 المعركة والسياق يقرر أن الله قد أنشأهم هذا لعم نكى لا تحربوا على ما فاتكم ولا ما  
 أصابكم أي نكى يصرفهم عن الحرب على ما فات وقد يكون المقصود لمت نظر  
 المؤمنين إلى أن تداوى النصر وهزيمة هو من سن الله بخارية فلا ينبغي أن يحربوا إذا أصابهم  
 هذه النسبة ، بل ينبغي أن يتعلموا منها الدرس فيعدوا عدة النصر فيطمعوا في عرب  
 الله لهم

« ثم أنزل عليكم من بعد العم أمة ناعسا يعشى طائفة منكم . . . »

وتلك كانت المرحلة الأخيرة في علاج نفوسهم برحمه غامرة من عند الله (١) إذ يفشيهم  
 العيس وهم آمنون وما أشد ما يتعير أخو بنفسى بعد لحظه بعاس ! ! إن هذه اللحظة -  
 وقد تكون قصيرة - كأس تعيد تشكيل النفس من داخلها ، فتمسح تمامًا كل أثر لحظة  
 السابقة ويصحو الإنسان بمشاعر مختلفة تمامًا كأنه ودم من عالم جديد عبر لدى كان فيه  
 عند لحظات ! وتلك رحمة الله أحاطت بقلوب المؤمنين المستسلمين لله ، المستسلمين فنفسهم له ،  
 العظميين في رحمة - مسحت على شحوبهم وآلامهم ، فاستيقظوا بأروح مطمئنة ونفوس  
 صادية

أم الطائفة الأخرى فإنها لم تنعم بهذه الرحمة السابعة لأن قلوبها لم تخلص بعد لله  
 « وطائفة قد أهمتهم أنفسهم . . »

وما دامت أنفسهم مزلت هي محور اهتمامهم ، فإنهم إذ لم يتخلصوا لله ، لعقيدة بعد !  
 به لا يتم الخلوص لله ولدين الله ، حتى يكون الإنسان قد أسلم نفسه كلها لله « يا أيها  
 الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين »<sup>(٢)</sup>  
 ادخلوا جميعًا ، وبكافة أنفسكم ، ما أشرنا من قبل<sup>(٣)</sup>

وحيث يسم الإنسان نفسه كلها لله لا تعود نفسه هي التي تهمة ، بها يكون دين الله هو  
 لدى تهمة وتكون نفسه مستسلمة لقدر الله ، راضية بنصها في مسهل لله ، مدركة في  
 ذات ابوت أن هناك حكمة وراء قدر الله سواء عرفها الإنسان بوقتها أم لم يعرفها  
 والاستسلام لقدر الله ليس معناه الاستسلام للهزيمة أو للمرض أو للفقر أو للظلم الذي  
 يقع على الإنسان في الأرض من الحبارين والظلمة ، وليس معناه لعجز ، القعود أو ما بهم  
 اناس من لفظ « الاستسلام » من السلبية الكاملة تجاه الأحداث<sup>(٤)</sup> .

بها معناه لرضى النفس به يأتي من عند الله - بعد أن أدى الإنسان واجبه جهادًا وعملاً  
 وتوكلًا على الله وأخذًا بالأسباب ثم لعودة في ذات الوقت إلى جهاد والعمل والتوكل على  
 الله والأخذ بالأسباب من جديد ، انتظرًا لقدر من الله جديد ، ورحمة في قدر من الله  
 جديد وبذلك لا تحطم الهزيمة روح الإنسان ، ولا تحطم المرض روح الإنسان ، ولا يحطم  
 الظلم روح الإنسان لأن في حب الإنسان المؤمن أن هذا ابتلاء من الله له ، له عليه

(٢) راجع حديث عن هذه الآية في سورة البقرة

(١) سورة البقرة ٢٠٨

(٣) راجع الكلام عن القصة والقدر في الفصل الأول

الثواب انصمهم حين بصر عبده ولا يبأس من رحمة الله وفي الموت ذاته لا يقعد عن مجاهدة  
هريجة أو الممرض أو الفقر ، أو الظلم الح لأن الله أمره بمجاهدته ، ولأنه - دائماً - بطمع  
في حو الله له كلها جاهد في أمر من الأمور

والاستسلام لقدرة الله إذن - كما أثبت من قس - هو صوت للطاقة أن تتحطم وتتبدد إزاء  
الأحداث ، وهو حذر على معاودة الجهد والعمل بنفس راضية معتمنة مطلعة على قدر الله  
وحين يصل الإنسان إلى هذه المرتبة من الإيمان لا يعود نفسه هي التي تهمة إنما يكون دين  
الله ، ولا يعود ما أصابه في سبيل الله هو شعبه الشعاع ، إنما يكون التهيؤ لعمل من حديد  
في سبيل الله .

وهي مرتبة عالية ولا شك ولا تحيئ لكل إنسان دفعة واحدة ومن أول خطوة في  
الطريق ! وإياها معنى حجة إلى مجاهدة طويلة للنفس وأهوائها وهوائها وجودها حتى تنحصر  
إلى الله !

وبكها - حين يصل الإنسان إليها - مرتبة شقيقة وصيته حملة تستحق كل ما يبذل  
فيها من الجهد . . . وبكفي جلاء على الجهد رضوان الله !

والإسلام لا يقلع لناس من الأرض اقتلاعاً ليقذف بهم إلى تلك لقمة الرقيقة السامقة  
ولا يجدهم جذناً يقطع أوصالهم !

ولكنه - وهم الرحمة كلها ، واهدى الرمانى الرقيق - يأخذ بأيدي الناس خطوة خطوة على  
المرتقى حتى يصلوا إلى هناك فودا وصلوا - بعون الله وتوفيقه - ربي لهم لقاء هناك وحبه  
« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتلوا عليهم الملائكة ألا تخافون ولا تحزنون ، وأبشروا بخير  
التي كنتم توعدون نحن أولياكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهون أنفسكم ،  
وبكم فيها ما تدعون ، نزلنا من عهود رحيم »<sup>(١)</sup> ثم اد زلوا مرة م يطردهم من رحمة ، إنما  
عاونهم على الصعود من حديد « وقد عرف عكم ، والله ذو فضل على المؤمنين »

إما الذين ما زالوا في السمع ، فأولئك الذين أهمتهم أنفسهم لأنهم لم يخلصوا الله بعد ، فلم  
يستطيعوا أن يستسلموا لقدرة الله !

« وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير حق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا  
من الأمر من شيء ؟ قل : إن الأمر كله لله ! » .

أولئك لم تمر الهزيمة سهلة في نفوسهم وهزيمة لا تمر سهلة في نفس أحد عل

لإطلاق ولكن فريقاً يأسي ما أصاب دين الله ويريقاً بأسي ما أصابه هو شخصاً من حسائر في صورة قتل وجراح ! وشتان ما بين أسي وأسي ، وما بين شعور وشعور ! ثم يتوب الفريق الأول إلى الله فيستسلم لعدوه - بمعنى الرضاء النفسي والطمأنينة - ويخشد صدقه خولة جديدة في المعركة ، ويظل الفريق الثاني يتقلب في حسرته لا يثوب ، لأن محور حسرته هو شخصه ، وهو حسرته الشخصية فلا يستطيع أن يدرك لأمر على حقيقتها ، ويظن بالله غير الحق ، ظن خاطئة ، فيسأل : \* هل لا من الأمر من شيء ؟ ١٩ ذلك أنهم يظنون أنهم قد أصابهم ما أصابهم لأنه لم يؤخذ رأيهم في المقام في المدينة وعدم الخروج منها وأنه لو أخذ رأيهم ما قبلوا في هذا المكان !

وهل أن يعرض تفصيل ما في نفوسهم يرد سريعاً على مسؤولهم ، فنقول : \* فن إن الأمر كله لله ، بصحيفة بطيهم بالله غير الحق ، ظن خاطئة ، أنه يمكن أن يكون مع الله شيء أو أحده من الأمر شيء ؟ ثم يعود بعد تفصيل ما يدور في نفوسهم ، ويظهره من خفاء الذي يحيطونه به في أنفسهم يعود فيرد مرة ثانية ، يؤكد ذلك المعنى ، أنه لا أحد به من الأمر شيء على لإحلاق ، أن الأمور تقع بقدر من الله لا تتدبر العبد من هذا أو من هناك \* وطائفة قد أمنتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ، ظن خاطئة ، يقولون هل لا من الأمر من شيء ؟ فن إن الأمر كله لله ! نحمل في أنفسهم ما لا يبدون ، يقولون : لو كان ما من الأمر شيء ما فعلنا هذا ! فن لو كنتم في بيوتكم لرد الدين كتب عليهم القبل إلى مصاحبتهم ! . . .

تعبير عجيب ، يصح النص البشرية إزاء قدر الله في موضع حاسم لا يفر منه ! إن فلان من الناس لا يقتل لأنه أخرج من بيته أو من بيته بعد رأى منه ! ولا يقتل لأنه ذهب أو أخذ إلى ميدان القتال ! ولا لأي سب من تلك الأسباب الظاهرة التي يسبب الناس في حملته إليها سبب القتل ! ثم إنه لم يكن يريد القتل عنه أن يؤخذ رأيه في الخروج أو البقاء ! ولا في الذهاب إلى ميدان القتال أو البقاء في البيت !

\* فن لو كنتم في بيوتكم لرد الدين كتب عليهم القتل إلى مصاحبتهم ! \* نظر كلمة « برر » إنيهم هم الذين يبررون إلى مصاحبتهم ، كأنها بريدة منهم ولا إرادة هم في الحقيقة ! إنما انقدر الذي كتب عليهم القتل هو الذي يكتب عليهم البرور لملاقاته ، مدبرين دعماً لتلك الملاقاة لا يمكنون ما رده ولا يحويلاً !

هكذا .



يُقتل الناس لأن انقضى كتب عليهم ، لا لأهم في هذا المكان أو ذاك ، ولا في هذا الوضع أو ذاك . ويقتلون في الرماح والمكان لدى كتب عليهم القتل فيه ، لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ! وليس الهدف بل ميدان القتال هو الذي يقتلهم ، لأهم لو كانوا في بيوتهم في اللحظة التي كتب عليهم فيها القتل لتحركوا وبرروا لكي يلاقوا القتل في تلك اللحظة المحدودة . لأهم يتحركون بغير مقدور لا يتوقف على ملائمة من الملائمات !

وتصور الأمر على حقيقته في هذه الصورة يعبر لأمر تعبيراً أساسياً في دحض النص في الناس - في عملتهم - يتصورون أن لقتل - في دته - هو الذي يقتل الناس ! وبعضون عن قدر الله الذي أوجد فريقاً من الناس يقتتلون في ذلك المكان والرماح ليموت فريق منهم وحين يتعلقون بالنسب الظاهري ويسبون ما وراءه من قصباء الله وقدره ، يحسبون أنهم يستطيعون أن يفرروا من الموت إن استطاعوا أن يفرروا من القتال ! ولذلك يحسبون على الجهد في سبيل الله فراراً - في طلبهم - من الموت ، وانفقاء له ! ولو أدركوا الأمر على حقيقته ، وعلموا أنهم يموتون في اللحظة التي يموتون فيها لأن الموت قد كتب عليهم في تلك اللحظة ، لا لأي سبب آخر ، ولا يموتون في غيرها لأن الموت لا يكون قد كتب عليهم بعد ، ولو كانوا في ميدان القتال . عندئذ يدركون أن قتلهم لا يتوقف على جهادهم في سبيل الله ، فقد يجاهدون ثم لا يقتلوا إن لم يكتب لهم القتل والشهادة . وإن فرارهم لا يؤمنهم البقاء إن كان القتل قد كتب عليهم ، لأهم عندئذ سيبررون من مضاجعتهم ولو كانوا في بيوتهم وعندئذ لا يحسبون عن القتال ولا يتقاعسون عنه !

وعندئذ كذلك لا تقعدهم الهزيمة أو الخسارة ولا تحطم أرواحهم ولا تبيد طاقتهم ! إنما تستسلم نفوسهم لقدر الله ، ويقومون من وقعتهم بروح جديدة وعزيمة غير مشحونة بالجراح !

وذلك هو الدرس الذي يوجههم القرآن إليه من خلال السياق

ثم يعلمهم حكمة الانتلاء بالهزيمة

« ويبينى الله ما في صدوركم ، ولمحخص ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور »

إن قدر الله - بالنصر أو بالهزيمة - لا يجري عتاً - فضلاً على كونه يجري حسب مسير رغبة معينة ، فإنه في كل مرة يقع تكون معه حكمته الربانية ، سواء عرفها الشر في حينها أو لم يعرفها . وهو هنا يعرفهم حكمته تلك الهزيمة التي وقعت - إنما احتدر لما في الصدور ، يتبين منه الدين أسلمو نفوسهم وقلوبهم لله والدين ما زالت تهمهم أنفسهم ومحبيص

لديهم أموا ، شسبهم على الإيهاى فى كل حالة من أحوالهم ، متصربين أو منهرمين ، وتوجيه قلوبهم لله دائماً ، يرحون رحمة ويخافون عذابه . وديث هو الكسب الحقيقى لهم فى هديه . خطاف . . والله عليم بذات الصدور !

وتعليق انقلوب بالله ، فى كل حالة من حالات الإنسان فى حياته على الأرض ، هو - كما علمنا من السور المكية - من الأمور المتعلقة بالعقيدة . ولكن أمور العقيدة التى كانت تؤسس - صرفاً - فى المرة المكية ، تأتى الآن قاعسة تنسب فوقها أشياء . لقد تم « تأسيس » العقيدة وترسيخها فى العهد المكي . والآن يأتى التدكير بالعقيدة لتسب عليه أمور فى واقع الجماعة المسلمة فمرة يأتى توجيه سياسى ، ومرة يأتى توجيه اجتماعى ، ومرة يأتى توجيه اقتصادى . وهذا يأتى توجيه لمجهود فى مسيل الله . كلها تأتى مؤسسة على العقيدة ، التى هى الأساس الذى يقوم عليه كل شىء فى هذا الدين ، وكل شىء فى حياة المؤمنين بهذا الدين . وهنالكَ كذلك ملاحظة أخرى

كانت العقيدة فى المرة المكية تؤسس تأسيساً شعورياً وجدانياً [ وعقيداً كذلك بطبيعة الحال ] أما هذا فى العهد المدنى ، فالإصافة إلى الخط الشعورى لوجدانى [ والعقل ] فإن تثبيت العقيدة وترسيخها يأتى من خلال « الدروس » الدروس العملية والدروس لتربوية . كما هو واضح هنا من لدروس التربوية الموجهة من خلال المعركة وما حدث فيها . وبموضح منها هذا الدرس عن القصء والقدر ، وأنه هو الذى يقرر مصائر الناس . وببست لأسباب لظاهرة من قتال أو بعد عن القتال . ويكون المقصود من هذه لدروس العملية والتربوية هو تحوير العقيدة إلى « أعمال » واقعية فى حياة الناس [ ولا شك أن تحوير لعقيدة ] إلى أعمال . كما ظاهرة باررة فى لسور المكية من قبل . ولكنها - بحكم ظروف التربية الأولى لجماعة مؤمسه فى مجتمع جاهلى - كانت تُعدُّ أعمالاً « أخلاقية » ذات صعة « فردية » عالية ، وهى اليوم ذات صبغة « جماعية » عانة من جهة ، ومن جهة أخرى فإن المعنى « لأخلاقى » قد سب فيها سموً طاهراً ، فصار أخلاقيات سياسيه ، وأخلاقيات اجتماعيه ، وأخلاقيات اقتصادية ، وأخلاقيات فتنيه . وهكذا وديث أمر طبيعى مع نمو جماعة وبدء تمكيبها فى لأرض ، وبدء ممارستها للحياة الواقعية فى ظل الإيهاى . ولكنه كذلك دروس تربوية مفعلة فى حياة كل إنسان !

\*\*\*

« يا الذين بولوا بكم يوم التمشى الجمعد إنما استرهم اشيطان ببعض ما كسوا . ولقد عفا الله عنهم إن الله عفور حلیم »

وتلك حقيقة نفسية عميقة تكشف عنها القرآن في هذه الصورة التقريرية الموحية

« الإنسان يردد في لقاء الموت في سبيل الله حين يكون نفسه كلها أو بعضها غير حاضرة لله تعالى في تلك اللحظة » ما لشيء من شهوات بشده على الأرض ، أو لحظيته لم يخلص نفسه من آثارها تمامًا لتوبة على الله . وعندئذ تكون فرصة الشيطان ، تجذب الإنسان منها بعيدًا عن الطاعة لأعلى والأرفع والأعظم من كل لطاعات ، وهي الموت في سبيل الله

والعبر القرآني يقول « إن سرهم انشغلوا ببعض ما كسبوا » كأنما يريد الإنسان أن يرتفع فيحيا الشيطان فيجده على أسفل يزل ويقع بدلاً من أن يستقيم ويرتفع . . وهو يجده من الموضع الذي يعلم أنه في تلك اللحظة - غير حاضراً عند الله ، لأنه يعلم جيداً أنه لا يستطيع أن يحمي يده من موضع في نفس حاضراً لله ! وهذا يلقي أصواء حديده على الحصن القرآني الذي مررت به من قبل « ولذين رد دعوا فاحشة أو ظنموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لدينهم - ومن يعمر لوجه لوجه لا الله . ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » ولئنك جردتهم معصية من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وبهم أحر العبادين »

فقد لنا من قس به - في سبيل إعداد المؤمنين للمعركة محلصهم من كل قيد بعرو انطلاقهم ، ومن بين تلك لمبود الإحساس بالذنب . ولأن نرى أن الشيطان تصدى للمؤمن الخاطئة التي لم تخلص بعد من حظيتها بذكر الله والاستعصار والتوبة ، فيجدها من نقطة صعبها هذه ، فتتولى حين ينتفى الجمعد . فكان فتح باب الاستعصار وتوبة إدن تنقونه انفسهم إزاء مصدى لشيطان في كم باب انقبل ، حتى لا يجد الموضع الذي يمكن يده منه فيستزل الإنسان ويقعده عن الصعود والارتفاع .

« . . . ولقد عفا الله عنهم . إن الله غفور رحيم »

عفا عنهم - سبحانه - لأنه يعلم أنهم أب رلة عانوه بسبب القلوب عذرة . ولصالح ذاته دون من ألوان التوبة تجعل النفس الكريمة من أن تعود إلى ما يستوجب لعنات !

\* \* \*

ثم يعود السياق إلى لقضية أبي تحدث عنها من قبل بشأن لطائف الدين أهمهم أنفسهم فراحوا يعكرون فيها حدث في المعركة من حناثر ، فقالوا « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناه » والدين وصف موقفهم هناك بأنهم « بطون بالله غير الخلق من الجاهل ، والدين رد عليهم مرتين في ذات الآية « قل إن الأمر كله لله » « قل لو كنتم في بيوتكم لبرد الذين كتب عليهم القتل إلى مصارعهم »

يعود السياق إلى القصة ليحذر المؤمنين من أن يرمقوا في مثل هذا التمكبر فيستهو إلى حيث ينتهي الكمار :

« يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وولوا لإخوانهم إذ صرخوا في الأرض أو كانوا عرياً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله عليم بحيريته وميت والله بما تعملون بصير . وإن قتلتم في سبيل الله أو متم لمعصية من الله ورحمة خير مما تجمعون . وإن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون »

وعودة السياق إلى القصة مرة أخرى يوحى ولا شك بالأهمية القصوى التي لهذه القصة في حياة الأمة المكنته بإعلاء كلمه الله في الأرض ، وإقامة مخططة الرماية التي يستغل بها الناس ، فيعينون في حدها إلى الحق والعدل الربانيين .

إن إقامة ذلك كله لا نحى بعبر جهاد ولا قتال وإنما لأبد - مادام هناك في لأرض من يكره حق والعدل الربانيين ، ويكره أن تكون كلمة الله هي العليا ، ويكره أن يرد الحكم بصاحبه سبحانه وتعالى ويصر على اعتصانه يتحجر في الأرض بهواه - لأبد مادام ذلك كله قائماً في لأرض ، من أن يقع جهاد والقتال ، وأن يموت في سبيل الله أساس فيصبحوا شهداء الله

وما لم تطبق النفس - في هذه القصة - من كل إسار بحجوها أو هاجس سوء بمعدها ، فمن يوحى لحمد الذين يكونون « حمد الله » في الأرض ، والذين يأخذون على عاتقهم أن يكونوا ستاراً بقدر الله في الأرض

وإن الله من يعجزه أن يعنى كمنته في الأرض بعير أولئك الخوذة فهو يعجز بلشئاً « كس يكون » ولكن هكذا اقتضت حكمه سبحانه - أن تكون الأمور في الأرض سارية من خلال تصرفات البشر وفي الوجهة التي يوجهون جهودهم إليها ، فإذا وجهوها نحو الخير تكون الخير في لأرض ، وإذا وجهوها نحو الشر فإنه كذلك يكون « طهر الفساد في الم والبحرياً كسست أيدي الناس »<sup>(١)</sup> وذلك « ليلوكم أيكم أحسن عملاً »<sup>(٢)</sup> وكذلك « وليلى المؤمنين منه بلاء حسناً »<sup>(٣)</sup>

وما دام الجهاد والقتال والتعرض للموت في سبيل الله هو لأداة التي لا غناء عنها لإقامه الحق والعدل الرباني في الأرض ، فلا بد إذن أن تخلص هذه القضية تمام في نفوس المؤمنين ، حتى لا يصيرهم حاجز عن لقتال في سبيل الله

(١) سورة الروم ٤١

(٢) سورة المائدة ٢

(٣) سورة الأنفال ١٧

وفي سبيل تخليص نفوس المؤمنين عما قد يدب بها في هذا الشأن يأتي عرض القصيدة مكرراً في السورة من روايات « لقطات » مختصة

يأتي مرة في قوله تعالى « ولا تهو ولا تحربوا وأتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » إلى أن يقول . « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء . »

ومرة في قوله تعالى « وما كان لفس أب تموت إلا بإذن الله » إلى قوله « وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما صعبوا وما استكانوا »

ومرة في الرد على الذين أهتمهم أنفسهم . « قل لو كنتم في بيوتكم لبرر الدين كتب عليهم القتل إلى مصابيحهم . . . »

وهذه المرة انتهى بحدس فيها المؤمنين أن يقعوا فيما يقع فيه الكفار ثم مرة ثانية بعد ذلك وهو يتحدث عن المناققين . « الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا - لو أطاعونا ما قتلوا بل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين »

ومرة وهو يتحدث عن الشهداء « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أموات بل أحياء عند ربهم يرزقون . . . »

ومرة حيث يقول : « لتبلون في أموالكم وأنفسكم . »

ومرة حيث يقول : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أصيب عمل عمل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم ، وأودوا في سبيل ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكرن عنهم سيئاتهم . . . »

وفي كل مرة يسأل القصيدة من زاوية جديدة يؤكد لمعنى ذاته ، ويربط على قلوب المؤمنين



« يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا . . . »

وبحسب التهديد بأن يكونوا كالذين كفروا كفس بأن يفعل فعله في نفوس المؤمنين فليس شيء أكره إلى قلوبهم من أن يكونوا كالذين كفروا في أى شأن من شئوهم ومن ههنا يبرهن هذا التهديد أو التحذير هزاً عميقاً فينصرهم من أن يفعلوا فيه

« يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم »

إن الذين كفروا إذا ضربوا في حروبهم في الأرض أو خرجوا للقتال ، ثم أصابهم الموت يتصورون

أن خروجهم ذلك هو الذي قنهم ، وأهم لو كانوا بأفئ في ديارهم وبين أهدهم ما ماتوا وما قتلوا ذلك أنهم يظرون إلى الأسباب الظاهرة بحسبها هي التي تفعل ، فيتصورون أنهم يستطيعون أن يتحاشوها بعدم التعرض لها ، ويسبون المحراء الخفيقي للأحداث وهو قدر الله ، لأن بصيرتهم المطموسة لا ترى إلا ما يدركه العقل أو ما تدركه الحواس [ وهو ذات الشيء الذي تقع فيه الجاهلة المعاصرة ! ] فيرون بذلك المطلق المطموس - أنه مادام الذهاب إلى القتل هو الذي أدى إلى القتل ، فعدم الذهاب إلى القتل هو السبيل إلى النجاة من القتل !

ذلك ظل الدين كمروا !

أم الحقيقة تكامه وراء ذلك - وهي التي يراها المؤمن وحده لأن بصيرته تصحب على الحقيقة سور الله - فهي أن الله قد قدر لعالم من الناس أن يقتل ، فخرج إلى حيث يقتل ! ولو كان في بيته سر إلى مضجعه كما ذكرت الآية من قبل

ليس الذهاب إلى القتل إذن هو الذي يقتل ! إنما هو الأداة التي قدرها الله ليتم بها القتل انقدر من قبل في الزمان والمكان المحددين في علم الله وتقديره

وهو ليس الأداة الوحيدة ولا الختمية ! وإنما هو أصح كذلك بأسسة لعالم من الناس لأن قدر الله قد انتصى ذلك . . وإلا فإن الله قادر على تعيد قدره بأية صورة ، وذلك هو معنى « قل لو كنتم في بيوتكم لرد الدين كتب عليهم لقتل إلى مصاجعهم ! »

ولكن الدين كمروا ، إذ لا يرون هذه الحقيقة لأنهم لا يطعن بصائرهم ، تفتن قلوبهم حسرة على ما صاع منهم لظنهم أنه كان يمكن التصرف في الأمر على صورة أخرى ! « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ! »

والنبي القزاس يقول : « يجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم » وبلاد . كما يقول الجاهل - لا تعدل - كأنما ذلك هدف مقصود - أن تفتن قلوبهم حسرة على ما يصيب منهم فهو لا يقول : « لا تطعاس بصيرتهم تفتن قلوبهم حسرة » بل يقول : « إنهم يقولون قولتهم هذه » « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » ليحعلها الله حسرة في قلوبهم ! فهي إذن عقوبة ربانية مقصودة لأولئك الذين يرفضون الهدى الرباني - تفتن قلوبهم حسرة في الدين على ما يصيب منهم ، وهم في الآخرة عذاب أليم .

« . . وانه يحيى ويميت »

تلك هي الحقيقة الكبرى وراء الأسباب الظاهرة التي يتعق بها الناس بحسبها هي التي

تعمل ، فيذهبون معها ويحيثون ، يحاولون محاورتها ومداورتها ليكسبوا أكثر كسب من زوائدها  
ويحسروا أقل خسرون ! فتصبح حياتهم كلها في هذه المحاولة العائقة ، ونضيق الحياة الأخرى  
كذلك نتيجة الصلال !

وهنا يحطر على القلب محاطر قد يحتاج إلى بيان .

أو ليس المؤمنون مكلفين أن يأخذوا بالأسباب ؟

أو ليسوا محاسبين - في الدنيا والآخرة - إن فعلوا عن الأخذ ؟

أو ليسوا يؤمرون بالخروج لفضل كسب من أسباب النصر لا سم النصر إلا به ، وأن يعدوا  
عدو الله وعدوهم ما استطاعوا من قوه ، كسب من أسباب النصر لا يتم النصر إلا به ؟

نعم ولكن المؤمن يأخذ بالأسباب دون أن يتعق قلبه بالأسباب !

وهو تلو المسألة صعبة التصور أو صعبة التحقيق في داخل النفس !

ولكنها في القلب المؤمن ، الذي يبرس الإيمان على هدى وبصيرة ، مسانة سهلة لا  
عقيد فيها ولا تعارض ولا اضطراب !

إنه يأخذ بالأسباب معينة لأن الله أمره به ، ولأن الله أحمره أو ألهمه أن للتأنيح - في عالم  
لبشر - تتم عن طريق اتحاد هذه الأسباب . . ولكنه يؤمن - في الوقت ذاته - أن النتائج لا  
تتم تلقائياً وبصورة حتمية نتيجة اتحاد تلك الأسباب ، وإنما لأن الله هو الذي يرتبها على تلك  
الأسباب ، ولو شاء يرتبها على أسباب أخرى من عبده ! ولو شاء كذلك يرتب على ذات  
الأسباب نتائج أخرى غير التي عرفها الناس وتوقعوها ! وأنه إذ كانت رحمة الله قد اقتضت  
تثبيت السس الكونية لستطيع الناس أن يتعلموا معها ، ويرتسوا حياتهم عليها ، تأدية لدور  
الخلاقة المطلوب في الأرض ، وإعانه من الله على تأدية ذلك دور . فليس معنى ذلك أن  
الله سبحانه وتعالى مقيد تلك السس بصورة حتمية ! ولا أن هذه هي السس الوحيدة التي  
يدير الله بها شئون الكون . وإنما مشيئته طليقة وإرادته حرة يفعل كيد يشاء

ومن هنا يتوازن في قلب المؤمن وفي حياته ، الوافعة أحده بالأسباب ويعلق به الله لا بتلك  
لأسباب ! فيعمل في عالم الواقع كأشد ما يعمل من يسموهم « أهل الدنيا » من ناحية الأخذ  
بالأسباب ، ومع ذلك نظر قلبه دائماً معلد بالله وحده ، ينتظر منه وحده الخير ، ويتقبل  
قدره إن جاء على غير ما ينتظر وما يجب . ولا يمتلئ قلبه بالخسرات ! ولا يفتن في حالته  
لا يفتن بالأسباب إن نجح سعيه في حياة الدنيا فتعده من دون الله . ولا يفتن في حالة  
لفشل هيأس من رحمة الله !

## ١ - والله بها تعملون بصير

يعلم حقيقة الدواعي في قلوبكم ، وحقيقة الأعمال ، يعاسبكم بمقتضى علمه سبحانه هذه الحقيقة : « ولئن قسم لي سبيل الله أو مسم معصرة من الله ورحمة خير مما يجمعون » وئن مسم أو قنسم لإللى الله تحشرون ، .

إن لئاس يعرون من أن يقتلوا في سبيل الله ، ويفصلون - إذا لم يكن من الموت ندم - أن يموتوا ولا يقتلوا ! وكأنهم يتوهمون في دحلته أنفسهم أنهم إن فرو من القتل فستطول أعمازهم ولا يموتون الأك ؟ ولا يدور في حلدتهم أنهم إن عاشوا فعلاً فترة من الوقت بعد فرارهم من القتال فلان الكتاب الموحل م يحس موعده بعد ، لا لأهم فروا من لقتال ! وأنه لو كان الموعد قد حان فسيان أن يكوبوا ما أو هلك أو في أى مكان !

وانقرآن بعرض القصية للمؤمنين من روية أخرى محتفة تمامًا : إن الكسب يخصى ليس عدد الأيام اننى تعاش على الأرض مهما طالت : إنما هو المعصرة من الله و : « دنت » خير مما يجمعون » في أيامهم التى يعيشونها على الأرض ، طالت أو قصر استقر في قلب المؤمن أن هذا هو الكسب حقيقى م بعد همه أن تعول أيامه على : ولا أن يسعى في إطالتها تحب ما يتوهم أنه تنسب في قصرها ، من جهاد في سب وفان ! بل أصبح همه أن يسعى إلى المعصرة والرحمة حيث كانت : فإذا وجد أن جهاد والقتال في سبيل الله هو أوسع أبواب المعصرة والرحمة صدر معبه متجهًا إلى هناك

ثم يعرض انقرآن القصية من روية ثانية متممة لتلك : هي الفرق في استهابة من الموت والقتل ؟ هل يذهب الموتى أو الحقولون إلى أحد غير الله - سبحانه وتعالى - في نهاية المطاف ؟ أو لبس الحشر إله وحده سبحانه ، يستوى في ذلك من مات تلك الموتة التى محوص عليها أكثر الناس ، ومن مات قتلاً في سبب الله ؟ إذا كان الحشر واحداً ، وكله إلى الله فهو هناك فرق حقيقى بين هذه الموتة وتلك : إلا المعصرة من الله والرحمة ولرصوص ؟ !

من هذه الرواي المحنفة بعرض الأمر على المؤمنين ، لتستقر القصية في نفوسهم تمامًا ، ولتخلص نفوسهم في هذا الأمر لله كما تخلص في جميع الأمور

ومن ثم يوجه الحديث لرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد فعل الدرس فعده في نفوس المؤمنين - أن يعفو عنهم ويسفغرهم ويشاورهم في الأمر

« فيها رحمة من الله لئست بهم ، ولو كنت قطاً عظيم القلب لانفصوا من حولك



فأعف عنهم ، واستعمرهم ، وشاورهم في الأمر ، فإذا عرمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين .

وفي هذه الآية الوحدة مجموعة كاملة من الدروس

فهو إذ يوجه الرسول صلى الله عليه وسلم - أو يعمر عن المؤمنين يذكره ابتداء برحمة الله التي حملته - صلى الله عليه وسلم ليأعطوهم رفقاً ، « فيها رحمة من الله لست لهم » وأنه صلى الله عليه وسلم - لم يكن مطلقاً عليلاً ولو كان كذلك لانقصوا من حوله هذا هو الدرس الأول أن هذا اللين والرفق والسباحة وسعة الصدر في طباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - إنما كانت برحمة من الله إليها جانب من جوانب تهئية هذه النفس لعظيمة الرسالة العظيمة والأمانة الكبرى

والدرس لنا نحن فمن كان في طاعه شيء من اللين والرفق والسباحة وسعة الصدر فلا يعتز بنفسه ، ولا يحسب أنه من عند نفسه حصل عن هذه الصانع إنما هي برحمة الله والفضل كله رجع إلى الله . والشكر على هذه الموهبة واجب لله ومن كان في طاعه جفوة وغلظة فيبدع الله أن يرحمه سرحها منه وإن الله مستجيب إن صدقت البينة وصدق التوجه إلى الله . .

والدرس الثاني يحى في هذه العبارة « وبو كسب فقط القلب لانقصوا من حولك » .

إنه درس لنا جميعاً ، وللدعاة إلى الله بصمة خاصة .

فالقرآن يحدث الرسول - صلى الله عليه وسلم أنه لو كان فقط عليل القلب لانقص الناس من حوله . هذا وهو يندفع رسالة الله وينقل إليهم وحت ليس من عند نفسه ولكنه من عند الله !

به لا تكفى إذن أن يكون « نأذه » التي يمددها للناس هي في دأها طيبة وقيمة وضرورية وفعلة ! إنما يسعى أن يفسحها كذلك بطريقة لا تضر الناس ولا تصرفهم عما فيها من حق وجمال وقيمة ومنفعة !

وليس معنى ذلك أننا أن نملأ الناس بالملق رياء وكذب وريسة . وندعوهم أن نتعبد به دعوة فاشلة في النهاية .

وليس معناه كذلك أن نأمر عن الناس نقائصهم وعيوبهم لكي لا يغضبوا منا حين نهبهم إليها فربما لا نعالجهم بذلك وإنما نغريهم بالأمسمرار فيها هم فيه من الحرف !

وليس معناه كذلك أن نحمل عن الناس تكاليف ندين ومكافآت لدعوة ولا نررهم إلا الخواص الخيرة السهلة ، أو الخواص التي بحسب أبي يمكن أن تصادف هوي في نفوسهم حين تعرضها عليهم عرضاً جذاباً يبرز حفيقتها ! فإننا بذلك نكون قد كتمنا جانباً من أنزل الله ، والله يقول لرسول - صلى الله عليه وسلم - « يا أيها لرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته »<sup>(١)</sup> فكتمان جزء ولو ضئيل مما أنزل الله يمحوا لتبليغ كله ويلغيه !

كلا ! سن معنى ذلك شيئاً من هذا كله . إن معناه فقط أننا ونحن سبه الناس إلى ما فهم من نص وانحرف ، ونحن نعرض عليهم ، حتى كمالاً بلا مـرة ولا تخفيف - من عبدنا - ولا حذف ، يصنع ذلك كله بروح المودة والحب ، وبالطريقة التي تتألف قلوبهم لا الطريقة التي يجدهم يقولون إنه حتى لو كان هذا هو الحق فلا يريد من وجهه فلا !  
وبعض الدعاة . يدفع الحجة هذا الدين والإخلاص له . يقعون في هذا خطأ إذ يطعنون أنه لا بد من الشدة مع الناس والعبث ، ولأنه من رحمهم ما يخص في وجوههم لكي يعبقوا ويسبوا من عفتهم ! وأنه بغير ذلك فلا دته برحى ! ولو كان هذا أسلوبنا ناجحاً في الدعوة لكان أولى الناس به هو انصطفي - عليه الصلاة والسلام - ولكن ما هو دـ لمصطفي - عليه الصلاة والسلام - هناك له « ولو كنت قطاً غيظ الغلب لانقصوا من حرمك » !

والدرس لثالث في قوة تعدي « فاعف عنهم ، واستعمرهم ، وشاورهم في الأمر »  
فأما أن يُطلب من لرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعفو عنهم ، على الرغم من صدقته بسبب معصيتهم به من حراج وآلام وما أنزله بنفسه الكريمه من عـم فامر قد لا يستعربه في جانب الرسول صلى الله عليه وسلم - ، وهو لنفس العظيمة ، أعظم نفس في مـربح الشرية كله وهذا العفو عى عـره - قمة من القمم النفيسة البشرية ومن أولى بها من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟

وما أن يطلب منه أن يستعمرهم بعد كل ما فعلوه فقمه أخرى ، أعسر في المرتقى ولكنها ليست عسيرة على تلك النفس الباقية لشجعة التي تتمثل فيها الأسوة والقدوة بكل الشر في كل انـار يح مند مبعثه - صلى الله عليه وسلم - إلى أن يفرم الساعة

وأما أن يطلب منه أن يشاورهم في الأمر بهذه مسألة أخرى لا تتصل بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم - وبعبارة الرقيقة - بها مسألة من صلب هذا الدين ، غير متعلقة بشخص من الأشخاص

هو جاء هذا الأمر بالمشاورة في ساعة رجاء وبصر أو في ساعة طاعة من المؤمنين وتلبية للأمر ، فربما حسب أنها « مكافأة » للمؤمنين على انتصارهم وطياعتهم وستماتهم أما أن يجرى الأمر في ساعة الشدة والحرمة ، وفي ساعة معصية وما ترتب عليها بل يجرى على أثر مشاورة كانت الأعلى لتى أشارت بها غير موفقة في مشورتها ، إلا أشارت بالخروج من المدينة لملاقاة العدو ، نبي كانت الأقبية لتى لم يوجد رأيها هي لأصوب نظرًا والأكثر خبرة ، وهى التى أشارت بالسما في داخل المدينة حتى يهاجمها العدو ، فذلك أدعى للنصر عليه

أن يجرى الأمر بعد ذلك كله للرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يشاورهم في الأمر فهو ذو دلالة واضحة على أن الشورى أصل من لأصوب الحقيقة حذًا في بنية هذه الدين (١) وذلك درس لنا ونحن نرى أصلاً

ما أكثر ما يحتاج طغاة في لأرض بأن أمهم لا تصح لشورى في موقعها الزمان ، ولذلك فلا يسعى أن تعطى حرية إنشاء رأى ، وأنه يسعى أن تصح الأمة أولاً - على أيديهم - أى بالسياسة والحدود واسر - لكى تصبح مؤهلة بعد ذلك للشورى !

وما أكثر ما يحتاج طغاة في الأرض بأن شعوبهم تخوض صراعاً مع العدو وأنه لا يمكن إعطاء حق الشورى والمعركة دائمة ، لأن ذلك يصنع لنصر ! وأنه لابد من الخضوع لإرادة الرعييم في تلك الفترة الحرجة - وإن أخطأ ! - لأن ذلك أدعى سكيل الجهود وتوحيد الصف وتوحيد الكلمة !

والله يهون غير ذلك .

يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو يؤيد بالوحى ، وهو أولى الناس على الإطلاق بالأاستشارة أحذا من الناس ! - يقول له والمعركة ديرة ، والصراع مع العدو على أمده ، صراع حياة أو موت ، بل يقول له على أثر معصية أمه لأوامره ، وسبب هذه معصية هى الشهيرة بعد النصر ، وهى الخسائر المؤلمة لنفوس المؤمنين وبمس الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، بل يقول له على أثر مشوره غير موفقة مهدف في الحقيقة لحائب

(١) الشورى - طبيعة الحال تكون فيما لم يرد فيه نص

من جواب العريضة حين وقعت المعصية . يقول له في هذه الظروف كلها التي لا يمكن أن يحتاج أحد بأسوأ منها . . . وشاروهم في الأمر !  
والدرس الرابع أو الرابع والخامس معاً في قوله تعالى « فإذا عرمت فتوكل على الله  
إن الله يحب المتوكلين »

إن المشاورة واجبة وضرورية في مرحلة معينة من الإعداد . فإذا كنت فيها تحييء مرحلة  
العريضة . ولا يجوز . بعد أن تتحدث بعريضة . أن يعود القائد إلى المشاورة ! وإلا لانت عرائم  
الحدث ، فحطبت مشاعرهم فلم يعودوا يحسبون انتوخته للأمر ، وانعزموا والإصرار الضروري  
لإنجاح أي أمر من الأمور سواء كان هو المعركة أو غيرها من شئون الحياة  
والعريضة ليست موقفاً « نفسياً » حائضاً ، إن كان مسعها ولا شك في دخول النفس  
وإن هي كذلك إعداد . واتحاد للأسباب . ولا في قيمة العريضة التي لا تعد  
العدة ولا تتحدث للأسباب ؟ كيف تستعد ؟

« يوحى بغير » فإذا عرمت « بعدة معار معاً » فإذا عقدت الية . وأعددت  
العدة . واتحدت لأسباب فتوكل على الله  
وهنا يأتي الدرس الأخير

إن العريضة واعداد العدة واتحاد الأسباب كلها ضرورية وواجبة لنصر . ولإنجاح كل  
شأن من شئون الحياة . ولكن حيث ينتهي هذا عمل لئس في الخيبة ، فإن الأمر لا  
ينتهي في نفس المؤمن عند هذه النقطة ، إنما يوحى قلب مؤمن بعد هذا الإعداد كله إلى  
الله ، راجياً منه أن يُنجح مسعاه ، وموقفاً أن الله هو الذي ينجح المسعى ويبت هي  
الأسباب !

وهذا هو التوكل الحق على الله ، مع اتحاد الأسباب . وليس هو التوكل بغير اتحاد  
الأسباب !

وتعميقاً لمعنى التوكل تأتي الآية لثانية

« إن يصرحكم الله فلا غالب لكم » وإن يحدنكم فمن د الذي يصرحكم من بعده ؟  
وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

إن النصر من عند الله كما قال من قبل في السورة « وما النصر إلا من عند الله »  
واتحاد الأسباب بنصر ضرورة واجبة . ولكن النصر ذاته هو من عند الله . هو الذي  
يقدره ، وهو الذي يريه على لأسباب . ومن ثم فإن المؤمن حين يصرع من اتحاد الأسباب

يودع الأمر كله ، بما في ذلك أسبابه التي تجدها ، في يد الله ، ويتضرع منه وحده سبحانه أن يأتي بالنصر من عنده . فإن كان النصر مقدراً فلا عيب لم قدر الله له النصر . وإن يكن الخذلان هو المقدر فمن د. ليس يملك أن يأتي بالنصر ١٩

والآية - هنا - لا تتحدث عن الأسباب ومكاسب من النصر أو الخذلان - وإن كان القرآن في غير هذا الموضع يتحدث عن وجوب النعمة ووجوب إعداد القوة - لأن المجاز هنا هو محض تحريك القلب المزمع من الاعتماد على الأسباب لظاهرة أو انظر بأنها هي التفاعلة في الأمر . وتخلص ذلك القلب من التطبع لشيء أو لأحد غير الله سبحانه . لذلك يذكر السياق تلك الحقيقة الربانية العليا ، وهي أن النصر من عند الله وحده ، ومربط بقدره وحده دون غيره . فيسعى إذن أن يتوكل عليه المؤمنون لأنه هو وحده سبحانه الذي يقرر الأمر

ولكن ذكر التوكل وتكراره والتوكيد عليه ليس معناه الدعوة إلى التوكل وعدم الأحذ بالأسباب فقد سبق قوله تعالى « إذا عرمت » وانعزلة كما هنا تنصص تنبئة لأسباب



ثم يتحدث عن جانب آخر من جوانب المعركة هو جانب العائث وما يسعى تجاهها من ظهورها وعدم إخماء شيء منها صعر أو كبر

« وما كان لشيء أن يعمل ، ومن يعمل يأتي بها علّ يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » أقصر اتع رضوان الله كمناء سحق من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ؟ هم درجات عند الله ، والله بصير بما يعملون .

ومناسبة ذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث عن العدل أن قوت من المواقين رعموا أن عائث بدر قد اضمي بعضها ، وذكر الرسول - صلى الله عليه وسلم - هيم من اعائث ١١ لها يقرر استحالة حبوت ذلك من أصله ١ « وما كان لشيء أن يعمل » أي أن ذلك لا يتأتى أصلاً ولا يمكن أن يحدث ١

ثم - هذه المناسبة - يذكر حكم من يعمل شيئاً هو من حق الله أو حق الجماعة لمسة « ومن يعمل يأتي بها عن يوم القيامة » فهو يلازمه في يوم الحساب شهداً عنه « ثم توفى كل نفس ما كسبت » فتأخذ حسبها الذي تستحقه بالحق « وهم لا يظلمون » .

ويعرب في اتباع صواب الله ، والاستعلاء على ذلك الهاتف الهابط الذي يدعو النفس إلى العلول

« أعمس أنيع صواب الله كمن باه بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير »

كلا ! إهم لا يستترون أبدًا !

« هم درجات صد الله . والله بصير بما يعملون »

ويختتم هذه الفقرة التي بدأت بنوحيه الحديث إلى لرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعمر عن المؤمنين ويستعمرهم ويشدورهم في الأمر ، والتي تحدثت عن العلول وصفت عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يتأني منه العلول أصلاً ، وهو المربي الهادي الذي يعلم المؤمنين الأمانة ويرفع نفوسهم عن اللذات ، ويركيزهم أن يهبط إلى مستوى الجاهلية التي خرجت منها

يختتم هذه الفقرة بتقرير منك الحقيقة الهائلة

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم

ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين »

وأي منة على المؤمنين - وعلى البشرية كلها - أعظم من هذه المنة الربانية بعث رسول - صلى الله عليه وسلم - هادياً ومشرقاً رديئاً ومعيناً ومربيّاً بأحد بيد الشريعة إلى آفاقها لتعليق ، معطيّاً من نعمه لقدوة ، ومعطيّاً من نعمه الرحمة وحب والصر على الأذى وسعة لصدر ؟!

وبها منه على البشرية كلها ، ونكها على المؤمنين أعظم ، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - « من أنفسهم » وبنه لشرف لهم أي شرف أن تكبر منهم تلك الشخصية العظيمة ، أعظم شخصية في تاريخ البشرية كله .

وبعض المنه تعصياً « بعث فيهم رسولاً من أنفسهم » « يتلو عليهم آياته »

« ويزكيهم » « ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين »

إنها المنه العظمى ممة الإيثار والهدى بعد الشرك والضلال ممة نعلم الحق بعد جاهلية ممة التركية بعد فساد المشاعر ودنس نفوس الملة التي توهم للملاح في الدب والأخرة - وتؤدي إلى رضوان الله

\*\*\*

ثم ينقل إلى رواية جديدة من رواة الرواية في قصصه لمعركة التي تدورها من قبل من رونا

مختلفة ليريد القصصية وصوتها في نفوس المؤمنين ، ويريدهم نصرًا بالأحداث التي يقابلونها في طريقهم ، ليسيروا في الطريق على بصيرة ، وليعلموا ما حصى عليهم من حكمة لأحداث .

« أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير وما أصابكم يرمي الغنى الجمعان فيردن الله ، ولعنهم المؤمنين ، ولعنهم الذين باعوا قلوبهم وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو دفعوا ، قالوا - لو يعلم قتلاً لا تبعناكم ! هم لكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ، الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ! قل : فادعوا عن أنفسكم موت إن كنتم صادقين ! » .

وأول ما يفتت هو الصلة الوثيقة بين هذه الآيات والآلة السابقة عليها في السياق . « وعدمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل نحن صلال مني » . إن هذه الآيات كلها تعليم « للحكمة » وعلى ذلك يرى أنه على الرغم من أن هذه الآية جديدة في عرض لفصية إلا أنها تتصل اتصالاً مباشرًا فيها في السياق . لقد دهل المسلمون للهزيمة فقاتلوا « أنى هذا ! كيف حدث - ونحن المسلمون لمجاهدون في سبيل الله - أ - هزم ويتنصر الكفار ، وهم على الباطل ، معانسون بدين الله ، كارهون بالهدى ، معصرون على لصلال ؟ »

وكأنها كان النصر الباهر المعجز في بدر قد أدخل في رؤوهم أنهم سيقتضرون أبدًا في كل معركة يحرمونها مع الكفار ، مجرد أنهم هم المسلمون والكفار هم الكفار فهي حانقوا أو انحرزوا أو عصوا أو نقاعسوا . « داموا هم المسلمين ! » فلما هزموا صد متهم طريفة صدمة بالغة وهرتهم حتى قالوا « أنى هذا ؟ » يريد عندهم السياق مباشرة « قل هو من عند أنفسكم ! »

إنه لا يكفي أن يكون المسلمون هم المسلمين والكفار هم الكفار ليس هذا بمعزده هو الذي يقرر مصير المعركة ! إنما هو عنصر مؤهل للنصر إذا استوى المسلمون المؤهلون لأخرى اللازمة للنصر ومن سها التحمل والأسباب ، وعدم معصية الله ورسوله . فأف إذا حالف المسلمون هذه الشروط على بقيتهم كونهم مسلمين من النتائج الحتمية لأفعالهم ، لأن هذه النتائج تسر وفق مسررة ثابتة لا تتغير من أجل أحد من الخلق ، ولا محابي أحدًا من الخلق . ولو كان من المسلمين !

وإنما سعى المسلمون هذه الخيفة أو لم يجعلوا بالهم إليها ، وظنوا أن مجرد كونهم مسلمين هو لدى يؤهلهم لنصر ، لأن النصر الحاسم اسهر في بدر بكاد أن يكون قد تم بغير أدوات<sup>(١)</sup> فقد كان المسلمون ثلث عدد الكفار ، وكانت حيلهم وعدتهم لا تعاس شيئاً من حيل الكفار وعدتهم ، ومن ههنا طعن المسلمون حين تصور مع هذه الموارد الثمانية في العدد والعدة أن النصر عجز فقط من كونهم مسلمين<sup>(٢)</sup> ومن كون عدوهم هو الكفار !

ولم يكن ذلك بطبيعة الحال هي الحقيقة<sup>(٣)</sup> إنما كانت عسراً واحداً مؤهلاً لنصر إذا وجدت الأسباب الأخرى وقد وجدت تلك الأسباب بالفعل ووجد منها ليوكل الكامل عبي الله ، ووجد منها بطاعة الكافة لله ورسوله ووجد منها اتحاد الأسباب لمادة فتحة من يدي المسلمين يومئذ واستجد منها إلى أقصى طاقته وعدته انتصر المسلمون رغم قلة عددهم وعدتهم ، لا استثناء من ستة لله ، بل تخفيف لئلا الله<sup>(٤)</sup> قد أنزل بطون أهم ملافو لله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بئذ الله والله مع الصابرين<sup>(٥)</sup> فهي إذن ستة ربانية إلا يكن دئمة لوفوع في كل حال فهي على الأقل كثيرة الحوادث ، كما بهم من تعبير « كم من » وهو لتكثير

احصنة إن عسراً حارفاً قد تدخل في معركة بدر ، وهو قتال الملائكة مع المؤمنين ولكن هذا لم يكن إلا على سبيل لبشرى والتعلمين كما جاء في هذه السورة « وما جعله الله إلا بشرى لكم وتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم »<sup>(٦)</sup> ثم يرب سر الملائكة على المؤمنين ليس حادثاً واحداً عريذاً في تاريخهم لا يتكرر ، هذا جاء في معركة الخندق فبوء تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمه الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم يروها وكان الله بما تعملون بصيراً »<sup>(٧)</sup> وقال عز صبح الحديث في سورة الفتح « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليردادوا بيئناً مع ربهم والله جنود السماوات والأرض ، وكان الله عليماً حكيماً »<sup>(٨)</sup> كما أن المؤمنين عرضة لتنزل الملائكة عليهم دائماً إذ وصفت نفوسهم إلى الشفاعة التي يستقنون فيها ملائكة « رب الدين قاتل رب الله ثم استقاموا سرور عليهم الملائكة ألا تحموا ولا تحربوا وأنشروا بالحقه ثلثي كنتم

(٢) سورة آل عمران : ١٢٦

(٤) سورة الفتح ٤

(١) سورة البقرة ٢٤٩

(٣) سورة الأحزاب ٩



توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ،  
ولكم فيها ما تدعون ، نزلنا من عموم رحيم <sup>(١)</sup>

م يكر إادن مجرد كون اسمين مسلمين هو الذي جعلهم يتصورون ذلك النصر الباهر  
الخاسم في بدر كي دخل في رؤيهم ، فجعلهم يذهبون بهزيمة في أحد ، ويفترون أني  
هد ؟! إي كان . بالإضافة إلى كونهم مسلمين . أحدهم بالأسباب ولشروط التي توهل  
نصر الله ، وثاهم الله النصر . فأما حين حانقوا وعصوا فما كان يمكن أن تجاملهم مدة  
الله أو تحاييهم لجود كونهم مسلمين !

١ . . قل . هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شيء قدير

هو بسبب عملكم وتصرفكم في أثناء المعركة والله على كل شيء قدير ، ومربى  
آيات قدرته سبحانه أن يعير لنصر الذي كان في أول المعركة إلى هزيمة ، ترتيباً على  
معصيتكم ومخافتكم لأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - . .

ذلك درس من « الحكمة » التي يعدها الله للمؤمنين نحن أحوح إلى تعلم هذه  
الحكمة والتوكيد عندها ، فإن كثيراً ما سأل أنفس كيف أمرها وتعلب الكفار على ؟  
أو لسنا نحن المسلمين ؟ أو ليسوا هم الكافرين ؟ فأني هذا ؟

وحيث نتعلم من هذا الدرس أن مجرد كون مسلمين وكونهم كافرين لا يؤدي بدانه إلى  
النصر ، فليعلم أن تراجع أنفسنا ويتحدد لأسباب

ثم يمضي يعيد « الحكمة » شوطاً آخر فيبين لهم ما كان وراء قدر الله بالهزيمة ، التي  
هي في وقت معاً « من عند أنفسكم » و « يادن الله »

ثم يمضي يعلم « الحكمة » شوطاً آخر فيبين لهم ما كان وراء قدر الله بالهزيمة ، التي  
هي في وقت معاً « من عند أنفسكم » و « يادن الله » !

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبذن الله ، ولعلم المؤمنين وليعلم الدين نافقو »  
فهو من قدر مقدور من ورائه حكمة

وفي المدب يؤمن المصطفى بالإيمان يلتقي الخطوط بلا تعارض ولا تفص ولا  
احتلاف . انقدر المقدور من عند الله ، ومسئولية الإنسان هي يقوم به من أعين لا  
لمسئولية بمعنى أن ما وقع بالفعل هو قدر من قدر الله ، ولا المقدر المقدر يعني مسئولية  
الإنسان عن أخطائه التي يسحق في نطاق الإمكانيات المسموحة له أن يتلافها

(١) سورة فصلت ٢٠-٢٢

الهريمة وقعت نتيجة المحالفة والعصيان « من عند أنفسكم »

والهريمة قدر قدره الله لحكمة يريد بها هي إدراك واقعة ياد الله

والحكمة - التي يعلمهم إياها من وراء الهريمة - هي تنبيه المؤمنين ، وسينذرين  
الذين قبلهم « تعدلوا قاتلوا في سبيل الله أو ادعوا قاتلوا لو يعلم قتالاً لاتنصركم ا » وما  
كان للمنافقين أن يسمروا وتوضح حقيقة موقفهم إلا شدة كهذه الشدة التي أصابت  
المؤمنين وفي تنبيه حقيقته موقفهم خير لا شك فيه ، ليجدر المؤمنين بالاعتناء  
ومكائدهم ولا يحدوهم أوبياء

ويصف صورة المنافقين وحضنتهم

« هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم

والله أعلم بما يكتمون »

بهم يقولون بأفواههم لو يعلم قتالاً لاتنصركم أما ما في قلوبهم فهو أهم لا  
يريدون القتال أصلاً ، ولو تيقنوا من نفاق نفروا منه ! فهم يحدون إخوانهم عن القتال  
بالعمود - وهو قدوة سيئة في ساعه المعركة - وبالأفواه كذلك  
« الذين قالوا لإخوانهم - وقعدوا - لو أطاعونا ما قتلوا ا »

« هو قوله محذرة تحذّر من في قلبه أدنى قدر من الردد ، ويرجح العمود عدده على  
الإقدام . . . بذلك يرد عليهم في الحال :

« قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين »

إنما ذات لمصيبة التي عرصها من قل حين قاب من حال « لو كان ل من الأمر شيء  
ما قتلها ها » فرد عنهم « قل لو كنتم في بيوتكم لردن يدين كتب عليهم القتال في  
مضاجعهم » وحين حكى قول الكفار « لو كانوا عديد ما ماتوا وما قتلوا » وعصب عليها  
« ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحبي ويميت »

بها ذات القصية وإن كتب من مدح آخر « قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن  
كنتم صادقين »

إن الموت هو نهاية الأحياء على الأرض فهل يستطيعون أن يهربوا من ذلك المصير  
مهما قعدوا عن القتال ومهما حذّروا من إخوانهم ؟

وما داموا - بطبيعة الحال - لا يستطيعون ، فإن جهدهم كله اندي يجهدونه هي

انقذ القتل جهد صانع لا ثمرة له في نهاية المطاف !  
ثم ينتقل إلى جانب حديد من جوانب القصبة      ذلك هو الحديث عن لشهداء  
الذين يستشهدون في المعركة

به - حقيقة - يُقتل ناس في المعركة . كما يذكر لما فقول  
ولكن      بصرف النظر عن كونهم قد قتلوا بمقتضى من الله وقدر ، لا سبب الأسباب  
الظاهرة ، وبصرف النظر عن كونهم كانوا لابد سيقتلون ما دام قد كتب عليهم القتل ،  
ولو كانوا في سوتهم

بصرف النظر عن هذا كله . . فهل ماتوا حقيقة حين لبسوا في سبيل الله ؟  
« ولا تحسب الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما  
آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم  
يحرزون . يستبشرون بعمرة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين »  
يا لها من صورة وصية شديدة ربيعته عالياً

هل تحس أنهم ماتوا وأنت تنظر في هذه الصورة الوصية ؟  
بل هل تصدق أنهم ماتوا ؟ !  
كلا ! نعم لم يموتوا أبداً ، ولا يموتون أبداً !  
أحياء عند ربهم . وأحياء في الأرض كذلك !  
كل الناس يموتون ، فذهب ذكراهم بعد فترة تطول أم تقصر ، بمجرد أن يذهب  
الحيل لدى كل يعاصرهم من الناس . فهل يذهب ذكر لشهداء من الأرض ؟  
من ذهب ذكر حرة ؟ وعمر ؟ وعش ؟ وعي ؟ وخس ؟ وألوف وألوف غيرهم من الشهداء ؟  
من ذهب ذكر المواقف التي استشهدوا فيها ، والبطولات التي سجلوها ؟  
أم ، باقية للأحياء لكل الأحب . تسلاها كأنها هي حاصره المحطة ؟  
كلا ! لا يموت الشهداء أبداً !

ويذهب الطعنة فيموتون ! ويتحولون - على الأكثر - إلى أسطر مائة في كتب التاريخ !  
ولكن شهداء الذين فليسهم أولئك الطعنة لا يذهب . لأنهم لا يموتون ! ويعطون  
ذكرى حية في قلوب الأحياء ، لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، ولأنهم قدموا - في سبيل الله  
- عملاً باقياً لا يموت !

\* \* \*

## وتجىء اللمسة الأخيرة في صورة المعركة .

بعد كسب الدروس ماضية عتاتاً شديداً للمؤمنين عن محبيهم يوم أحد من بعد ما أراهم ما يحون . وكان انتوحه بعنف أحبات ، ينطق أحياناً حين يذكر العدو عن المؤمنين بعد عصبيتهم . .

وبكنه هنا في تلك اللمسة الأخيرة يشيد بهم ، بعد أن وعوا ذلك الدرس الهائل كله وصعدت له قلوبهم

« والذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم النفرج ، للذين أحسوا منهم واتقوا أخر عظيم ، الذين في هم ليس قد جمعوا لكم فاحشواهم فردهم إليهم ، والذين أحسوا الله وبعث الرسل فأنفلقوا بعمة من الله وفصل لم يمسسهم سوء ، وأنبعوا دسوس الله ، والله ذو فضل عظيم »

إنها صورة رائعة للمؤمنين !

لقد قاموا من وهدتهم

بعد غلبت نفوسهم مما أصاب من وعاء العصاة والفرق والاعفالات وعادوا إلى الصورة التي يسمي أن يكونوا عليها

« يا بصرة البصيرة عما لصورتهم الباقية » رد تصدوب ولا ملوون على أحد ، ولرسول يدعوكم في أمركم . ! »

إنها صورة الثبات والتمسك والعصمود والعزيمة والطاعة والتوكل الكامل على الله

استجابوا لله ولرسول من بعد ما أصابهم النفرج فقد كان من عات التربة بلهمه أن قام بهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقاتلهم الكفار على آثار المعركة السائلة وهم ما يرانون بجراحهم متحصين !

إنها تحة تربوية هائلة . هو استعرب هزيمة في قلوبهم ، فبرس أورثهم اعراب من عدوهم ، فلا يعودون بقصصهم عليه بسهولة في بعد . أما حين يجمعهم فائدتهم اندهم - صلى الله عليه وسلم - فيسير بهم بفتك فديهم ببعضون من قلوبهم ثار خوف ، ويشجعون على الافتحام ، فسرول العقدة ، ولا تترك هزيمة آثارها السيئة في نفوس

ونقد خوفهم البس ! دلواهم « إن البس قد جمعوا لكم فاحشواهم ! » وبكنهم وقد غلبت نفوسهم من أوضاعها ، وعادوا محضين إلى الله كمنة ، لم يعد هذا التحذير أثره في نفوسهم . . بل صار أثره زيادة في الإيثار وزيادة في التوكل وزيادة في العزيمة على



أليم ولا يحسن نسين كهروا أبي نمنى هم خير لأنفسهم :بى نمنى لهم ليردادو إناهم رهم عذاب مهين»

« إنا ذلكم الشيطان يحوف أولياءه »

إن شيطان به أولياء وهو يحوف الناس من أوليائه هؤلاء نحصعوا لهم ويرهوههم ، فيتمكر بذلك أولياء الشيطان من شر الفساد وانشر في الأرض ، في ظل ربه الناس هم وحشيتهم منهم . واساس - حين لا يركون إلى الله ولا يتوكلون عليه التوكل الحق - يصحون فريسة لأولياء الشيطان ، يحوفونهم على أمهم وسلامتهم ، وعلى أموالهم وأولادهم ، وعلى مكانتهم ومصالحهم في الأرض - فيحاربون

والمؤمنون هم القمة التي تنصدي في الأرض لأولياء الشيطان سري السطان المعتصب من أبلدبهم لئلا يردده إلى الله سبحانه وتعالى تتحكم شريعته ، لعدله في الأرض . فسعى إذن أن يكونوا غير بقية « اساس » . سعى ألا يفعلوا في ربه أولياء للشيطان ، وإلا أكنهم لشيطان قمن يأكل .

« إنا ذلكم لشيطان يحوف أولياءه ، فلا تحفوههم وحافون إن كنتم مؤمنين »

إن دورهم في الأرض متوقف على هذه النقطة . ألا يحفوا أولياء الشيطان ، بى يحافوا الله . والخوف يستوجب الطاعة . فحين يحافون الله فيسطيعون أوامره ، فيقيمون حكمه في الأرض . أما إن حافوا أولياء الشيطان فيسطيعون أوامره فيقيمون حكم الشيطان في الأرض . لذلك يؤكد عليهم « فلا تحفوههم وحافون إن كنتم مؤمنين »

ثم يتوجه بالحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - يراسيه ويسرى عنه في شأن الكفار الذين « يسارعون في الكفر » ويجهلون فيه ، بدلاً من أن يسارعوا إلى الإيمان ويجهلوا فيه . يوسيه بأن يقول له إنهم من بصروا الله شيئاً وهذا يكشف عن أن العمل لشغل للرسول - صلى الله عليه وسلم - هو أمر هدا الذين ، ورعته المتفحة صلى الله عليه وسلم - أن يؤمن اساس كنهم و يصحوا بدمين الله . فالله سبحانه وتعالى يطمشه أنهم لن يصروا الله شيئاً كنهم ، ولذلك فلا يحتاج الأمر إلى كل هذا الأذى من قبل الرسول - صلى الله عليه وسلم - إنا إرادة الله من وراء ذلك أن يحرمهم من حظ الآخرة

« ولا يحرث الذين يسارعون في الكفر ، إنهم لن يصروا الله شيئاً يريد الله ألا يحسن هم حطاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم »

ويكرر هذا المعنى مرة ثانية في الآية الثالثة ، وزيادة في التسمية عن قلب الرسول  
- صلى الله عليه وسلم - :

« يا الذين شئروا الكفر بالإيمان لن يصروا الله شئاً ، ولهم عذاب أليم »  
ثم يوجه الحديث إلى الكفار لئلا يفرحوا ، وإن كان الحديث في الحقيقة يتضمن ترحيباً  
إلى المؤمنين في نقطة كثيراً ما نشور في نفوسهم وهم يوجهون الباطل المنتقم في معركة يتصبر  
فيها لبطل على أصحاب الحق لمؤمنين !

« ولا يحسن الدين كفروا أنها نعمة لهم خير لأنفسهم » .

لا يحسن الدين كفروا أن إيماء الله لهم هو خير لهم . . .

وكثيراً ما يعجز أصحاب الباطل بالنصر المؤقت الذي يجربونه على مؤمنين ، وخاصة في  
مرحلة الدعوة الأولى ، فتحدثهم نفوسهم الخبيثة مطموسة بأنهم خير من المؤمنين وبذلك  
يتصرفون عليهم ! وأن الباطل الذي هم عليه خير من الحق الرباني ! فهو هذا يكشف لهم  
- وللمؤمنين في ذات الوقت - عن أن إيماء الله لهم ، وبصرهم على مؤمنين ، ليس خيراً لهم  
في حقيقة الأمر

« . . . إنما نمن لهم ليردادوا إننا ، ولهم عذاب مهيب » . . .

ذلك هي الحكمة الربانية من هذا الإيماء . أن يردوا إننا . « ليعملوا أوزارهم كاملة  
يوم القيامة » ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يروون » <sup>(١)</sup>

وفي ذات الوقت تكون فترة دسيسة ومحسنة للمؤمنين كي مر في سياق السورة من قبل  
« وللمحصر ، الله الذين آمنوا » فهي فترة يتم فيها أمران في وقت واحد : يردون الكافرين كفراً  
ويرداد المؤمنون إيماناً ، بسم قدر الله يعد ذلك بمحو الكافرين وقد استحقوه بنجاستهم ،  
وبصر المؤمنين وقد استحقوه بنجاستهم !

ثم هدف آخر يكشف عنه السياق

« ما كان الله ليدر المؤمنين عن ما أشتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان  
الله ليطلبكم عن العيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ، فاصبروا لله ورسوله ، وإن  
تؤمروا وتتقوا فلكم أجر عظيم »

إنه لا بد من فترة ابتلاء - تتم بالإيماء للكافرين - يميز فيها الخبيث من الطيب ، لأن  
الأمر لا يستقيم إلا بظل الخبيث محتلطاً بالطيب ، متوارياً فيه ، غير ظاهر ولا متميز . لا

(١) سورة البحل . ٢٥

تستقيم حال الجماعة على هذه الصورة ، والخبيث كالسوس يخرق دجلها ؛ ولا يستقيم  
 حل الأمانة على الصورة المظلمة ، اللاتقنه باخيه الربانية ، لأن الخبيث سيعرج في  
 الطريق ، ويعوق حصوب الجماعة المؤممة عن إقامة الحق ، وقد معجزها عن ذلك أئبته ؛  
 ولا يستقيم أمر الجهاد في سبيل الله ، لأن الخبيث سيضل عدل ويعوى ويدعو إلى ليعود  
 عن الجهاد ويسعى إلى حلحله لصف

كلا لا يستقيم الأمور إلا بد تغير الطيب من الخبيث وليس بدمبر إلا أحد  
 صريحين ان يوحد الانتلاء الذي يكشف حباب النفوس ، او يصف الله على العيب فيقول  
 يا مبد لبد ان هذا طيب وهذا خبيث وقد اقتضت حكمته سبحانه ألا بطع الخلق  
 على العيب « وما كان الله ليطلعكم على العيب » لا عيب الأحداث ولا عيب النفوس  
 وإنما لطريق انى حناره بحكمة الربانية أن يرسل لله من يجتبه من ربه ويدعو  
 الناس إلى الإيمان بالله ورسوله ، إلى انصر على الإنس ، واجتهاد في سبيل الله ، وعن هد  
 الطريق يتمير الخبيث من الطيب ، ويكشف ما كان مخوء من عيب النفوس

وبين ان نسال ماذا فتصت بحكمة لله ذلك والله سبحانه وعانى لا يُسأل  
 عما يفعل ثم به قد أحربا أن خبئه ندي هي فتره الانتلاء هذا المحنوق انشري  
 « بحق الموت وحياة بسوكم بكم أحسن عملاً »<sup>١</sup> والإملاء بكافرين حتى يتمير الخبيث  
 من الطيب هو لون من الانتلاء ، ان يكن شاقاً على السوس ، فإنما أحره كدلك عظيم  
 « وإن تؤمنوا وتتنقوا فبكم أحر عظيم »

\* \* \*

ولآن وقد انتهى الحديث عن معركة أحد ، بجولاته المتتالية ، ودروسه التربوية العميقة  
 المؤثرة ، يتحدث - عوداً على بدء - عن فريق من المحاربين الدائمين هذا الدين ، وهم  
 ليهود :

« ولا تحسبن الدين يخلون بها آثم الله من فضله هو خير لهم ، بل هو شر لهم ،  
 سيظفون ما يحضونه يوم نقامة الله مرات السعوات والأرض ، والله بما يعملون خير  
 لقد سمع الله قوب لدين قالوا إن لله فخير ويخر أعيب سكت ما قابوا ، وقتلهم  
 الأنساء بعد حو ، وهول ذوقا عذاب خريق ذلك ما قدمت أديكم ، وأن الله ليس  
 بظلام للعبيد ، الدين قالوا إن الله عهد إينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا برهان تكفه

(١) سورة البكت . ٢



لقد قد جاءكم رسل من قبل بالنبأ وبالهدى فليتم ، فلم تقتسموهم إن كنتم  
صادقين ؟ فإن كنتم كنتم قد كذبتم رسل من حيث جاءوا بالنبأ والهدى فليتم  
لقد جمعوا من صغائر السوء والنشر ما لم يجتمع في شعب واحد على مدار التاريخ من  
محل ، وسوء أدب مع الله سبحانه وتعالى وقتل الأنبياء وتكذيب الرسل ومعاداة الحق  
والسبب في هذا يعصمهم ويعدد جرائمهم ويدد بها تهديدا لهم ، وتهويبا من شأنهم  
في نفوس المؤمنين

« ولا يحسن الدين يعملون بها أناهم الله من قصده هو خيرا لهم ، بل هو شرهم »  
والنص - بصورته هذه - شامل يشمل اليهود وغيرهم ، وإن كانت بقية الآيات خاصة  
باليهود وحدهم ، لأنهم هم وحدهم الذين صدرت عنهم تلك الأقوال البديهة في حق  
الله ، وتلك الأفعال الشنيعة في حق رسله

والساق معطوف على ما قبله « ولا يحسن الذين كفروا أني سمى لهم خير  
لأنفسهم » « ولا يحسن الذين يعملون بها أناهم الله من قصده هو خيرا لهم »  
فكلا الفريقين يحسب أن ما هو به وما يفعله هو الخير ، وكلا الفريقين واقع في الحقيقة  
في أعظم الشر  
« سيطوفون ما يحلوا به يوم القيامة والله ميراث السماوات والأرض ، والله بما  
يعملون خبير » .

فالذي يعملون به ليوم ستمثل لهم حملا ثقيلا يوم القيامة يطوفهم ويصرعهم فوق ما  
هم حاملون من أوزار وهم لن ياحدوا شيئا معهم يذكرون بها برئه الله سبحانه وتعالى ،  
الذي له ميراث السماوات والأرض فلا هم يستمعون به بعد موتهم ، ولا هم ياحون من  
إثمة يوم القيامة والله خبير بما يعملون ، لا يحصى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ،  
وهو يحاسبهم بما هو عالم به من حطهم

ثم يسجل على اليهود سجلهم الأسود :

« لقد سمع الله قول الذين قالو : إن الله فقير ونحن أغياء . . . »

وهي حيلة وفحش لا يصلح عن قلب به درة من الخشية لله

« مسكت ما قابوا ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونقول : هووا عذاب الحريق »

فذلك هو الحراء الوحيد لهذه الأئمة المنبجحة المتوقعة على الله ورسله

« ذلك بي قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد »

ثم هم يرفعون أيهم يرفعون لإيهان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إطاعة لأمر الله !!

« الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا يؤمن برسول حتى تأتيهم بقرآن يأكله أسد »  
ومادم لرسول صلى الله عليه وسلم لم تأتهم بقرآن يأكله أسد ، فهم . بأمر الله لا يؤمنون به !! ولكن القرآن يفصح دعوتهم :

« قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالنبي فليمنهم ، فلم قبلتموهم ، بكنتم صادقين ؟ » .

إن الذين جاءوهم بالبينات وبانقربان لدى تأكله الأسد كان مصيرهم لقتل على أيديهم ! ثم إن سيدنا موسى وعيسى أمراهم أمرا صريحا أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم حين يبعث ، وأعطاهم صفته ومكان بعثته فهي معالطة إذن ومجرد حجة مفتعلة لتكذيب .

« فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا باليات وأمرير والكتاب المبين »  
فليس ننص في السات بكذبوك وإنما تلك طبعتهم لتي جلوا عبيد فلا عربة  
يدن في أن يكذبوك !

\*\*\*

وستمرأ في حو لمركة ، اندى بشعل السورة من أوها إلى حرقه ، ويتعمل في كل درس فيه يحى . هذا التعقيب :

« كل نفس دائمة موت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن ربح عن لدر وأجل الحنة فقد در وما الحياة الدني إلا متاع عرور . تنلون في أموالكم وأفسكم ، ويسمع من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أدنى كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور »

إن معركة مع أعداء لا إله إلا الله معركة حتمية . وقد مر بمودح من قبله بهادج أخرى من هؤلاء الأعداء الذين يسعى قدامهم فلا يكن إذن خوف الموت حائلا دون هذا القتال لواجب لأعداء الله

« كل نفس دائمة الموت . . »

فاندى بقعد عن القتال لن يحو من الموت . واذن فلا مبرر لهذا القعود والأحر حقيقي لنس هو أداما رائدة في الحياة الدني ، أو متعنا يستمتع به الإنسان

فى تلك الأيام الزائدة . . ثم يزول !

« وإني نوهون أجوركم يوم القيمة »

تلك هى الأجر الحقيقية التى يستحق أن يحرص الإنسان عليها ويسعى إليها سعيًا

« فمن رحرح عن النار وأدحر الخنة فقد فار ، وما أخبأ الدنيا إلا متاع العرور »

هذا هو الأمر الحقيقى . وهذا هو الذى يستحق أن يحرص الإنسان عليه . أما متاع

أخيلة الدنيا الرتل . رتمه لمشوب ، فما يستحق أن يصيغ الإنسان من أجله ذلك المتاع

الخالد الدائم العظيم الكريم

ونستوقفنا فى اسباق كلمة « رحرح » . إنها لفظة معبرة . إنها توحى بالجهد والمشقة

التي يتكدها الإنسان ليبعد عن النار ! وكأنه فى تجده إليها حبًا عيقًا يحتاج إلى كل

جهد « ليرحرح » بعدًا عن حاديتها ! وإن الأمر كذلك : « حمت الخنة بالمكاهة ،

وحمت النار بالشهوات »<sup>(١)</sup> . إنها هى حادثة الشهوات هى التي تشد الإنسان شدًا إلى

نار ، ويحتاج إلى الجهد والمشقة ليبعد الإنسان عن دائرة جذب ويهتلك من إسارها

والتعبير كذلك يجتلى أن هناك أيديًا كأنها تجذب الإنسان حشدًا شديدًا من صاحب

الأخرى لترحرجه عن النار وتدخيه خنة ! فهو لا يترحرح من تلقاء نفسه ! ولو ترك وحده ،

لا يندفع إليها ووقع فيها . إنما تأتى هذه الأبدى الخيرة فتجده لسجيه من منطقة الخلد

الخطرة التي لا يمدك بمسه . وإها لأبدى الهداة من الرسل ، أو أيدي الملائكة

الموكلين بالمؤمنين ، أو هى يد الله الرحمة سبحانه وتعالى تمد لتنفذ عبده من النوع فى

النار

وكأما كانت تلك الآية مقدمة بأتى بعدها هذا التقرير ، المتصل بموضوع المعركة مع

أعداء لا إله إلا الله

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن

الذين أشركوا أدى كثيرًا . . . »

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم »

بهذا التأكيد ، لئلا يجعلها سنة حتمية من سن الله لا مهر بها . وإنما كانت الآية

اسباقه تمهيدًا لئلا تنقل نفوس المؤمنين ذلك لانتلاء بصير ورضي ، ولا تأسى على متاع

أخيلة الدنيا ، الذى تفقده فى ذلك الابتلاء

( ١ ) أخرجه مسلم والترمذى

« ونستمع من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا »  
 فالاسلاء - بالعدو - والأذى - باللسان - صادران عن أوثك الأعداء المحددين الذين  
 أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ، والذين أشركوا [ ولغة الرانعة وهى اساقفون داحنة فى  
 هذه الفئات وإن كانت تفرد بالحديث أحيانًا ]

هؤلاء هم الأعداء . . كانوا وما يزالون . ولن يزالوا  
 « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور »  
 والأمر فى حاجة إلى التعزيمة لمواجهة ذلك لكيد من أولئك الأعداء  
 ثم يعود إلى إبراز اليهود خاصة من المجموعة لمعاداة الكائنة  
 « ورد أحد الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب بشيئة لئلا يكتفوا به سدوه وراء  
 ظهورهم وشربوا به ثمناً قليلاً فحس ما يشتررون لا تحس الذين يفرحون بما أوتوا ،  
 ويحسون أن يحمّدوا بها لم يفعلوا ، فلا تحسبهم بمصرة من العذاب وهم عذاب أليم والله  
 ملك السماوات والأرض ، والله على كل شيء قدير »  
 فقد أهد الله ميثاق أهل الكتاب أن يبيعوا ما فى كتبهم لئلا يكتفوا به ولا يكتفوا بذلك  
 بتأني مع أطعامهم ودوايحهم اشربة فحين يُعرف ما فى الكتب فإن الناس سيتذكرون  
 فئات أهل الكتاب عنه ، ويقومونهم لذلك كتموه وحرفوه وفى عام الوقع « يبدوه  
 وراء ظهورهم » ليضموا لطعامهم العبد « واشتروا به ثمناً قليلاً » وهو قليل ولو كان هو  
 املاك كل الأرض ولسيطرة على كل مقدراتها لفترة من الزمن ! قليل بالسمة لجراء الذى  
 ستظهم يوم بقامة جراء كفرهم ونسبهم لكتاب الله « فحس ما يشتررون ! »  
 وإن من حصصهم الدعيمة أن يموا بها أوتوا ولو كان ريف ! وأنهم يحسون أن يحمّدوا بها لم  
 يفعلوا

« فلا تحسبهم بممازة من العذاب ، وهم عذاب أليم »  
 « والله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير »  
 فهم لن يفرحوا - بكن أفعاصم - من ملك الله الذى له ملك السماوات والأرض وإنه على  
 كل شيء قدير ومن قدرته أن يعدهم العذاب الذى يستحقونه على ما جئت أيديهم من آثام



« إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين  
 يدكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ، ويتذكرون فى خلق السماوات والأرض ، ريب ما

خلقت هذا باطلاً سبحانه ! فقد عذب النار ربنا بك من تدخل الدار فقد أحرته ، وما للظالمين من أنصار . ربنا إنما سمعنا منادياً ينادي بالإيمان أن آمنوا بربكم فآمن . ربنا وعمرنا دبرنا وكفرنا عما سألنا وتوجها مع الأبرار . ربنا واتنا ما وعدتنا على رسلك ولا نخزن يوم القيامة إنك لا تخلف لميعاد واستجاب لهم ربهم . إنى لا أصنع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض . فالذين هدرنا وأخرجوا من ديارهم وأودوا في سبيلنا ، وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنتنا تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب .

هذا الدرس الأخير في سورة . وفيه من أعمق الدروس فيها جميعاً . إنه يحمل خطأ أصيلاً من خطوط الإسلام ، ويبرره إبرار .

إن الإسلام لا يكتفى من المؤمنين بالتصكر والتدبر والتذكر . . ولا يكتفى منهم بالمشاعر الإيمانية المستكنة داخل القلب . إنما يسعى أن يتحول هذا كله إلى سلوك عملي ، وعمل واقعي .

إنه يبدأ بهذا التقرير : « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى لألباب » . وهذا التقرير متصل في الحقيقة بالآية السابقة : « والله ملك السموات والأرض ، والله على كل شيء قدير » . انتهى نعم الحديث عن أهل الكتاب ، وما ينتظرهم من عذاب أليم ، وتكون في ذات الوقت وصلة في السياق بصل إلى « أولى الألباب » وموقعهم من هذا الملك الهائل الذي هو ملك الله . وهكذا يكون الحديث عن ملك الله الواسع وقدرته التي لا تحد بديراً للكفر بأهم لن يستطيعوا الخروج من منكبه ومن محيط قدرته ولا انجاة من عذابه ، وشيراً للمؤمنين بأهم في رحمة الله التي وسعت السماوات والأرض ، وفي محيط قدرته التي تدخلهم الحجة بإدبه .

وحقق السماوات والأرض ، وفي محيط الليل والنهار . وتلك آيات الكعبة كلها ذات وقع عميق على الجنس البشري لا يمكن أن يسحو منه . ولكن فرقاً من البشر يرين على قلوبهم ما يكسبون ، فتطمس بصائرهم ، فلا يعودون يلتفتون لتوقعات الكون على قلوبهم ، ولا يتفطنون لدلائلها الهائلة . دلالتها على وحدانية الله وقدرته ، وأنه لا شريك له ، ولا يسعى أن يتحد معه أو من دونه شريك .

أما أولو الألباب فهم لا يوصدون قلوبهم دون توقعات الكون ، ولا يشيخون عنها ، بل تنكروا فيها ويتدبرون . .

إنه يصف أولى الألباب بالنصعة التي تُبهرهم :

« إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين  
يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض »<sup>(١)</sup>  
فهم عماد ربوبيون لا يفترقون عن ذكر الله ، في قدامهم وقعودهم وعلى جنوبهم أي  
في جميع أحوالهم وجميع أعيانهم . قلوبهم منصبة بالله ، متعلقة به ، ترجو رحمة وتخاف  
عذابه . .

ثم بهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض ، فيبتعدون إلى الحقيقة الكبرى . إن الله خلق  
السماوات والأرض باحق ، ولم يحصها باطلاً . يبتعدون إلى ذلك نور الإيمان الذي يبر  
أفكارهم وتهدي . وإلا فالعقل وحده عرصة لأن يضل . وكم صلت عقول وهي تتفكر  
في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار فقالت إنه باطل ، عشت لا حكمة فيه ولا  
عناية وراءه [ انظر الوجوديين مثلاً !! ] ذلك أسم يتفكرون وهم محرومون من نور الإيمان الذي  
يسر الطريق للعقل فيهدي إلى الحكمة والعناية . « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما  
باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار »<sup>(٢)</sup>

إن أولى الألباب يبتعدون إلى أن الله لم يخلق هذا باطلاً فمسحوب الله « مسحوك ! » .  
وإذ يعلمون أن الكون حقيق باحق ، فهم يدركون أنه لا يمكن أن تكون الحياة الدنيا هي  
نهاية المطاف . وإلا فهو العبث الذي يتره عنه الخائف سبحانه ، والباطل الذي يقود بتداه  
من خلق الله . .

إذن فلا بد أن تكون هناك رحمة إلى الله ، وأن يكون حساب على ما تم في الحياة الدنيا من  
أعمال « أفحسبتم أمياً خلقناكم عبثاً ، وأنكم إليه لا ترجعون ؟ »<sup>(٣)</sup> كلا ! إنها هي المرجع  
والحساب ، هي التي تنهى العبث عن خلق الله ، وتتمم الصورة فتستقيم  
وإذا عرفوا أن هناك رجعي ، وأن هناك ثواباً وعقاباً ، فهم يسارعون إلى الاستعانة من  
لعداب « فقد عذاب النار » ثم يسترسبون في لتوسل إلى الله أن ينجيهم من هذه النار  
« رب إنك من تدحل النار فقد أحرقت ، وما للظالمين من أنصار »  
وكانها يقدمون بين يدي مولاهم المؤهلات التي تؤهلهم لدخول الجنة والبعث عن النار  
« ربنا إنا سمعنا صاعداً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا »

أما بمجرد أن سمعنا ! فهذا مدلول العبرة ! أى سارعت إلى الإيمان ولا يفوتنا ذلك لتكرار لفظ الإيمان ومشتقاته ، ثلاث مرات في هذه خمسة الواحد ، ربما إنما سمعنا مندباً ينادى للإيمان ، أن آمنوا بربكم ، فأمّا ، ١ إن له دلالة نفسية واضحة : إنه من جهة طريقة لتوكيد إيمانهم بتكرار لفظ الإيمان في حديثهم ، ومن جهة أخرى يدل على أن مشاعرهم مشعولة بالإيمان ، مثله به ، بحيث لا يكفيهم أن يذكره مرة ! إنهم يعاودون ذكره مرة بعد مرة كشأن الإنسان حين يحب شيئاً فيظل يردد ذكره ويتعشى به !

وبما أنهم سارعوا للإيمان بمجرد أن سمعوا المبادئ [ وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم ] ينادى للإيمان ، فهم يتوجهون إلى الله بالدعاء

« ربنا فاعمر لنا ديننا ، وكفر عنا سنا ، وتوأمنا مع الأبرار »  
ثم لا يكفيهم هذا لتوجه الحار إلى الله ، بل شعرون في قلوبهم بمزيد من الرغبة في التقرب إلى الله والتوسل إليه ، فيصيحون

« ربنا وآنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزب يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد »  
إلى هنا ينتهي ذلك الدعاء الحار الذي لا شك في صدوره عن قلوب مؤمنة صادقة بالإيمان تفكرت وتذكرت وتندرت ، فهداهم التدبر إلى ما هتدت إليه من الحق فتوجهت إلى الله بمشاعر إيمانية صادقة ، وتوصل حار إلى الله . ولا يهون تكرارهم للصفة « رب » في الدعاء خمس مرات متتالية ، منها مرتان في آية واحدة إن دلالة اللفظة على حرارة التوجه وصدق الرغبة دلالة لا تحصى . .

« فاستجاب لهم ربهم . . . »

نعم ! ولكن متى استجاب ، سبحانه ؟

هل استجاب للتفكير وهو تفكر ؟ وللتذكر وهو تذكر ؟ وللتدبر وهو تدبر ؟ وللدعاء الحار وهو دعاء ؟

« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أصعب عمل منكم من ذكر أو أنى ، يعصم من بعض . . . »

إنها لفظة هائلة جداً لا يصح الإنسان أن تفوته دلالتها

إذ استجاب لهم سبحانه بأنه لا يصعب عمل عامل منهم ومعنى ذلك أن ذلك التفكير والتذكر والتدبر ، وتلك المشاعر الإيمانية - دعم صدقها الذي لا شك فيه - يعنى أن

تتحول كلها إلى عمل . وعندئذ يستجيب الله سبحانه لتلك الدعاء !  
ولأن لسورة كلها مشعرة بالمعركة . معركة لا إله إلا الله . فهو يصير مثلاً من  
« العمل » المطلوب ، يحذره من يتصل بالمعركة :

« فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأودوا في سبيل ، وقتلوا ، وأكفروا ،  
عهم سيئاتهم ، ولأدخلتهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ثواباً من عند الله ، والله عنده  
حسن الثواب »

لقد كان دعاءهم « ربنا هجرنا لربنا ، وكفرنا سيئات ونوفنا مع الأبرار ، ربنا  
وأتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة . . »

وهذه هي استجابة دعائهم . إن الذين هاجروا هذه الأعمال . « لا أكفروا عهم سيئاتهم  
ولأدخلتهم جنات تجري من تحتها الأنهار . . »

إنه درس هائل جداً . إن كان قد ورد في سياق الحدث عن المعركة ، واتصل بها ، فإنه  
يستند في الحقيقة في كل اتجاه

إن للإسلام لا يعرف التفكير من أجل التفكير ، ولا التدبر من أجل التدبر . ولا المشاعر  
في صورتها الوحيدة الخاصة ولو كانت هي مشاعر الإيمان . بل ينبغي أن يتحول ذلك  
كله إلى عمل . . التفكير والتدبر والمشاعر والدعاء . . كلها سواء !  
وهو درس وعاء المسلمون الأوائل في كل اتجاه . .

ومن هنا لم تنشأ « الفلسفة » في أحيال الإسلام الصاعدة الأولى ، لأنها تكفر من أجل  
التفكير ! وبها جاءت عدوى من اليونان حين بدأ حظ الانحراف !

ومن هنا كذلك لم تنشأ « الصوفية » بصورتها السلبية في أحيال الإسلام الصاعدة الأولى .  
لأنها تذكر من أجل التفكير ، وتدبر من أجل التدبر ، ومشاعر من أجل المشاعر ، ودعاء من  
أجل الدعاء ! إنها جاءت عدوى من فارس والهند ، ورد فعل لانحراف انزوف والفساد !

إنما كان الإسلام في أجياله الصاعدة الأولى تفكيراً وتدبراً وتذكراً ودعاء ومشاعر ، تتحول  
كلها إلى عمل وسلوك في كل اتجاه . في شعائر ، لتعبدها هي في الأخلاق ، وفي الجهاد  
في سبيل الله كما هي في عماره الأرض ، وفي بناء الأسرة كما هي في بناء المجتمع

بين كانت كدنه في العلم . . والمسلمون هم الذين أشأوا المنهج التحريبي في البحث  
العلمي ، من إحياء الإسلام لهم ، ولم يكن معروفاً من قبل . وهو هو الذي تقوم عليه الحركة  
العلمية المعاصرة في أوروبا ، بعد أن تعلمته من المسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي !



إيا حقيقة الإسلام الكبرى التي أشأت من قبل نك الأمة التي كانت « خير أمة أخرجت للناس » والتي كتبت ذلك التاريخ مدى لا مثيل له في تاريخ الأمم من قبل .  
 وحين انحرف المسلمون عن هذه الحقيقة - وفقدوا أخلاقهم - صاروا إلى ما هم فيه اليوم من أحوال !



« لا يعرف قلب الدين كهرو في البلاد - متاع قليل ثم مأواهم جهنم ونس لهاذ لكن الدين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار حالدين فيها نزلًا من عند الله »  
 عند الله خير للأبرار .

الحديث متصل بلا انقطاع ، وإن كان يبدو لأول وهلة أن هناك فجلة مفاجئة في السياق !  
 لقد كان يقول من قبل : « فالدين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأودوا في سبيل ، وقتلوا وقتلوا ، لأكرمهم عنهم سبتهم ، ولأدحسهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ثوابًا من عند الله ، والله عنده حسن الثواب »  
 وما به حسن الحاجس في القلوب .

لماذا ؟ إذا ترى المؤمنين هذ الانتلاء لشاق ، فيصطرون للهجرة من ديارهم أو يخرجون منها ، ويؤدون ، ويحوصون لقتال فموت منهم من يموت - سي الدين كهروا يتقدمون في البلاد ، آمين مطمئنين ، و فوق ذلك مسطرين ؟  
 هكذا يكون الوضع دائمًا قبل التمكين النهائي للمؤمنين ، والتدمير النهائي عن الكافرين

والبشر بشر وفي حدود بشرتهم ، وإطلاقًا منها ، بهجس ذلك الحاجس في القلوب !  
 فهو هذ يرد على هذ الحاجس البشري ، يزيل الأسى الذي يشبه ذلك الحاجس في القلوب !

« لا يعرفك قلب الدين كهروا في البلاد . »  
 لا تعطه أهمية أكثر من حقيقته ، ولا يعرفك مظهره عن حقيقته !  
 إنه حتى لو دام إلى بداية أعمارهم ، ولم يؤحدوا بالعذاب قبل موتهم - إنه « متاع قليل »

وهل متاع الأرض كله ، ومتاع العمر كله ، إلا قليل ؟ ما هو حين يقاس إلى متاع الخلد ؟ بل ما هو حين يقاس إلى شهوات الإنسان ذاته هذ في الأرض ، وهي شهوات حين

يطلق ما العبد . لا نشع ولا تروى وتظل تنصلع إلى لمريد ؟!

« . . متاع قليل . ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » .

كما قل في سورة الشعراء « أفرأيت إن متعاهم مسين ، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ؟! ما أعنى عنهم ما كانوا يمتنعون ! » (١)

« لكن الذين اتقوا ربهم هم حات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها براء من عبد الله وما عبد الله خيرا للأبرار »

فشتد بين مصير ومصير عبد قليل في الدنيا وبعم الخلد في الآخرة . ومتاع قليل في الدنيا ومأواهم جهنم وبئس المهاد !

وهذه ليست دعوة لدرسى بالظلم في الدنيا مقابل بعيم لأخرة ، ولا تنمية بعيم الآخرة لتحذير الناس في الدنيا ليعتصموا بالظلم ولا يثوروا . كما بقول الجاهل في كل الأرض ، الذين يقولون إن الذين أهولوا لشعوب !

وبطرة واحدة في السياق تسمى ذلك الحاطر الذي يحظر في عقول جهل ! فالسيف قبلي مباشرة يقول إن الله سيدحسن الخلة أولئك الذين يقانون في مسس الله فيقتلون ويقتلون ! ويره لا يكتفى من الناس بالتفكر والتدبر والمشاعر والبدعاء . إنما يسعى أن يتحول ذلك كنه إلى عمل وجهاد في سبيل الله .

إب هو طمأنة لقلوب المعاهدين . حتى لا يقعد بهم تمكس الكافرين في الأرض عن الجهاد . وحتى لا يشعدهم الأسى لوضعهم اشاق في لأرض ، ويحضر حننا من طاقتهم التي ينبغي أن توجه كلها للجهاد حتى يتمكن الحق في الأرض

\*\*\*

وبدأ السورة بالحديث عن أعداء لا إله إلا الله ، ومن بينهم أهل الكتاب ، وأفاضل الحديث عنهم طرول . سورة مأكملها . فهو يحتم السورة تقرير هذه الحقيقة ، تشجيعا للآخرين من أهل الكتاب أن يؤمنوا قبل أن يوصد في وجوههم باب

« وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليهم حاشعين لله لا يشتركون مايات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب »  
ثم يحى . الختام لأخير للسورة التي شعنت كلها بالحديث عن المعركة

(١) سورة الشعراء ٢٠٥-٢٠٧

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »

إنه حديث موجه إلى المحدثين خلد لدين جدتهم السورة للقتال في سبيل الله أن  
يحتملوا تكاليف المعركة ويصمدوا بها بالصبر والمصابرة والمراطة وتقوى الله وتذكر هي  
العدة التي توصل إلى العلاج « لعلكم تفلحون »

\* \* \*

وهكذا تنتهي تلك لسورة التي تخصصت في المعركة من جميع جوانبها وجاءت  
بالمؤمنين حولات هائلة في محيط الكون وفي داخل أنفسهم في واقع المعركة وفي جوانبها في  
قدر الله وتدبيره وصيه التي تجري الحياة بمقتضاها في الانتلاء وحكمته في النصر  
والحرمة . في الإعداد النفسي والروحي للمعركة في أعداء لا إله إلا الله ورسائلهم  
وكيدهم في اتحاد الأسباب المهيبة بالنصر مع التوكل الكامل على الله

لها دروس تربوية كلها تحتاج مما يلي التدبر العميق لوعيتها والإحاطة بها ، لنعد تربية  
أنفسا بمقتضاها ، ونحاول من جديد أن نستوى على الطريق !

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »

## سُورَةُ النِّسَاءِ

لا نملك هـ . في هذا المجال المحدود - أن ستعرض سورة النساء بمثل التفصيل الذي عرضناه به سورة آل عمران - فقد كانت سورة آل عمران - كما رأينا - تعالج موضوعًا واحدًا من البدء إلى النهاية هو معركة لا إله إلا الله من جوانبها المختلفة ، كما أنها لا تشتمل على شيء من الأحكام . بينما تحتوي سورة النساء على موضوعات متعددة ، كما تشمل على مجموعات كثيرة من الأحكام ليس من شأننا التعرض لها هنا وقد قصرنا الهدف الرئيسي من الكتاب على تحديد الموضوعات التي تناوينا لقرآن بصيغة عامة ، وبين الطريفة التي يعالجها القرآن هذه الموضوعات .

لذلك سكتفي في عرضنا للسورة بالوقوف عند بعض الموضوعات أو القضايا الواردة فيها ، وبالفقر الذي يسمح به المجال



تشتمل السورة كما أضحى على موضوعات متعددة ، ولكنها مع ذلك مترابطة ، مجتمعة محورها واحد ، أو إن شئت حمى محاور ، ولكنها متصلة في النهاية برباط واحد وقد يتكرر ذكر الموضوع الواحد أكثر من مرة في سياق السورة ، وخاصة الموضوع الذي يتصدر السورة والذي سميت السورة كلها باسمه وهو موضوع « النساء » ولكنه في الحقيقة ليس الموضوع الوحيد الذي تتكرر الإشارة إليه . وبما هي ظاهرة عامة في السورة أن يعود الحديث إلى الموضوع الواحد مرة بعد مرة ، كأنها هي دروس متتابعة ، يعلم الله بها المسلمين أمور دينهم ، جولة بعد جولة في سياق متصل طويل<sup>(١)</sup> .

ويلفت نظرنا في ذلك السياق المتصل الطويل أمران ، أحدهما سبقنا الإشارة إليه في مقدمة هذا القسم من الكتاب ، وفي عرض سورة البقرة وسورة آل عمران ، وهو أن العقيدة في السور لمذنية هي محورها الأصيل الذي تنبثق منه كافة التوجيهات والتنظييات والتشريعات والأمر الآخر هو الانتقال الذي قد يبدو معاجلاً من حديث عن العقيدة إلى حديث

(١) يستطيع القارئ أن يلاحظ هذه الظاهرة كذلك في سورة المائدة

عن شعيرة من الشعائر ، إلى حكم شرعى خاص بالمعاملات ، إلى توجيه اجتماعى أو سياسى أو اقتصادى أو الحربى . .

ولكن هذا الذى قد يبدو لنا مفاجئاً هو أمر به دلالاته فى السياق القرآنى . ذلك أن الانتقال من العقيدة إلى الشعيرة إلى الشريعة إلى لتوجيه ليس فى الحقيقة انتقالاً من موضوع إلى موضوع آخر مختلف إنما هو انتقال من حرثية من جزئيات هذا الدين إلى جرثية أخرى منه ، فى داخل المحيط العام الذى هو فى مجموعه « هذا الدين » . و « الدين » كما يريد الله هو هذه الموضوعات أو هذه الحرثيات جميعاً فى وقت واحد . إنه ليس العقيدة وحدها ، ولا الشعيرة وحدها ، ولا الشريعة وحدها ، ولا لتوجيه وحده إنما هو مجموعها جميعاً ، وفى آن واحد . ومن ثم لا يكون السياق قد تحول من بحر إلى بحر جديد . إنما يكون فقط قد تقدم من نقطة إلى نقطة أخرى فى سبيح واحد متحانس وإل كان متعدد الألوان .

وهذا السبق الخاص من العرض ، الذى يتقل به السياق من نقطة إلى نقطة بلا انفصال ، حدير بأن يكشف لنا عن هذه الحقيقة فى هذا الدين ، وهى اتصال موضوعات وجرثياته اتصالاً عضوياً مترابطاً غير قابل للانفصال بالصبط كى يعرضها السياق القرآنى ، متصلة - عن حثلافها - بلا انقطاع ولا انفصال .

ومن ثم يرول « المفاضة » فى الانتقال ، التى يحسها القارئ الذى يتناول القرآن بعير وعى لهذه الحقيقة ، أو اندى يتناول وفى حبه صورة معينة من التقسيم « المنطقى » للموضوع إن فى تقسيمنا الدهنى ثوب الأشياء ونصنعها ، ثم يعزل كل باب بمفرده ، ويبحث فيه كأنه قائم بماته . ولا بأس من ذلك فى البحث العلمى أو ربما تكون هذه ضرورة فى هذا النوع من لبحث ولكن الترتيب والتبويب فى الحقيقة يتم على حساب قدر من الإحساس بالوحدة الشاملة للموضوع . وسحتاج دائماً إلى إعادة التصور ، لتستعيد هذا الإحساس بالوحدة والتجانس فى الموضوع . ولكن دين الله شىء آخر ! والله يريد أن نتعرف على ديناً فى صورته الشاملة المتصلة المترابطة ، لكى يمارسه كذلك فى صورته الشاملة المتصلة المترابطة ، ولكىلا يتجزأ فى حسابا ونى ممارسنا إلى موضوعات منفصلة لا يربط بينها رباط ؟

\* \* \*

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وثبت  
 صهي رجلاً كثيراً وساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً »  
 هذا هو افتتاح السورة وهو يحوى عدة إشارات وموضوعات وقضايا تشملها كلها هذه  
 الآية المفردة في مفتتح السياق .

فالآية تحوى أولاً إشارة موجزة إلى الموضوع الرئيس في السورة وهو علاقات الأسرة  
 والمجتمع ، وذلك بذكر النفس الواحدة التي خلق منها زوجها ، وذكر الرجال الكثيرة  
 والنساء التي تنشأ من لقاء الزوجين ، وذكر الأرحام التي تنشأ من التزاوج بين هذه لرجال  
 الكثيرة والنساء

وهي تحوى ثانياً إشارة إلى الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه علاقات الأسرة - وعلاقات  
 لمجتمع كله الناشئ من وجود الرجال والنساء والأطفال - وهو تقوى الله ، التي تفتح بها  
 الآية « يا أيها الناس اتقوا ربكم » ويشار إليها مرة ثانية أثناء الآية « واتقوا الله الذي  
 تساءلون به » وتخصم به الآية في صيغة أخرى : « إن الله كان عليكم رقيباً »

ثم هي تحوى أخيراً إشارة موجزة - ودالة - إلى القضايا الثابتة في حياة البشرية ، التي ينبغي  
 أن تحكم تلك حياة مهما تغيرت مطهرها أو « تطورت » كي يحلو للمحدثين أن يعبروا<sup>(١)</sup>  
 وهي إشارة تكفيها وتشرحها الآيات الأخرى في هذه سورة وفي غيرها من السور ولكنها هنا  
 على إيجازها الشديد ذات دلالة واضحة

وهذه الإشارة بالدات تحتاج إلى شيء من البيان

نحن في وقتنا الحاضر بصفة خاصة - ويتأثر الدروية وإيماءاتها التي جاءتنا مع المرو

(١) من بعد نظرية دارون صارت أورد نعيم كلمة التطور في كل شيء - وأحدنا نحن منها هذه الكلمة  
 بطريق العدوى وأقبحناها كذلك في كل شيء - مصداقاً لحديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - « حتى  
 إن دخلوا حجر صب دخلتموه » ١ وأما أفضل أن أسخدم كلمة « التعبير » وكلمة « النمو » كلياً في  
 صيغتها بدلاً من كلمة « التطور » التي تحوى دائماً جرائم الإيماءات الدروية ؟

انعكس - ينظر إلى الحاة كأها متعرة أذا - أو متصورة أذا - بحيث لا توجد لها أصل ثابتة  
 يرتكر عليها ، ونحت بمكر أن تسر في أي اتجاه بلا صابط ؛ يحكمها عمل لتغير أو  
 التطور وحده ، ولا تحكمها أية أصل ثابتة ، تون على الأقل عامل التغير إن لم نقل تسطر  
 عليه ن الحقيقة وتتحكم فيه <sup>(٢)</sup> .

ولكن هذه الآية التي تفتح بها سورة النساء ، التي تدول على ذات الأمر وعلاقات  
 المجتمع - بل علاقات المجتمع لبشرى النوسع في الحقيقة - ردنا إلى تلك الأصول الثابتة التي  
 تحكم هذه العلاقات وتضبط مساهها ، فتغير مظاهرها ما شاء لها التغير ، وتنمو ما شاء لها  
 النمو ، ولكنها تظل محكومة بتلك الأصول الثابتة لا تتفك منها

ويصلت نظري يادى دى بدء أن السورة قد افتتحت بقوله تعالى « يا أيها الناس »  
 وهي خطاب إلى كل الناس ، وليس للمؤمنين وحدهم كما جاء - مثلاً - في افتتاح سورة  
 المائدة : « يا أيها الذين آمنوا أو هو بالعقود . . »

وهذا الافتتاح دلالة في أب هذه القضايا الثابتة تشمل حياة البشرية كلها ولا تخص مجتمع  
 معينا من مجتمعاتها ، وأن خروج أى مجتمع في الأرض عن مقتضى هذه الأصول الثابتة هو  
 خروج عن النهج المستقيم ، لاند أن نشأ عنه احتلالات ن هذه المجتمع ، وأنه لا يتسنى  
 مثل ذلك المجتمع أن يبرر انحرافاتة بأن له ظروفًا خاصة ، أو بأن « التطور » قد أفضى به إلى  
 ما أفضى إليه ، فالخطاب موجه للناس كافة والأصول الثابتة تشمل كل الناس بلا تمييز  
 « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم . . »

بذلك هي العصبية الأولى الثابتة أو الأصل الكبير الثابت لدى يحكم كل حياة البشرية من  
 أول أحيائها إلى آخر أحيائها .

إن للناس ربًا عليهم أن يخفوه لأنه هو شالفهم .

وعلى ساطة المعارة وإحارها الشدد في سياق الآية فإنها تحوى الأصل الأكبر في دستور  
 الحياة البشرية

إنها أولاً قضية أزلية وهي كذلك قضية ثابتة

فإنه الخالق حقيقة أزلية ، وخلق للناس حقيقة تاريخية ثابتة لا يجرى عليها تطور ولا تغير  
 ولا تحوير ؛ لن يجرى تطور ولا تغير يجعل أحدًا عن الله هو « الذى خلقكم » ، ودعك من  
 تحولات البارويبية لى تقول « إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها » ؛ فهي تحولات

(١) انظر المزمع في الصفحة السابعة (٢) ينظر كتاب « التطور والثبات في حياة البشرية »

عبر عنمية وعبر مطهية ، فإن « دارون » - وهو يهرب بهذه العبارة من إله الكيسه الأوربي -  
 لظروف لا شأن لها - لم يفلح بطريقه عنده ما تلت « لطبيعة » التي يتحدث عنها ،  
 ولم يتوقف - كما يسعى للعالم - حتى أن توقف - لسأل نفسه عن هذه الطبيعة التي يقول عنها  
 بها غير عاقلة وإنها تحبط حبط عنواء ، كيف حدثت الإنسان العاقل بفكره لدى مجرع  
 الأدوات والآلات كما تحتج لأفكار والظلمات ! وسطل تحدى لفراغ له وبغيره وثى إلى يوم  
 انقيامه « أم حلفوا من غير شيء أم هم الخاقون »<sup>١٩</sup> « كما سيصل كذلك تحدى انعطافه  
 التي تحته تلقائياً إلى الله الخاسر - حتى وإن صلت معرفته عن حقيقتة - بصديقاً لقوله تعالى  
 « وإد أحد ربك من سى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم عن أنفسهم أسب  
 بربكم » قالو « بلى شهدنا ! »<sup>(٢)</sup>.

وإذا كانت هذه حقيقة أربية وقضية ثابتة لا تتغير ، فقد ينب عليها نتائج هي الأخرى  
 ثابتة لا تتغير - ترتب عليها أن الله هو رب الخلق ، وأن عليهم أن يتقوه ، وأنتموى لا تكون  
 إلا بطاعة أوامره ، وقد أمرهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وأن يتحاكموا إلى شريعته وليس  
 إلى أى شريعة سواها - ومن ثم تصبح عبادة الله ومحكيم شريعته أصلاً ثابتاً في حياة البشرية  
 لا يمحى لحمل التغير ، ولا يتطور « كما يقول التطوريون !

وقد جاءت في سياق السورة تمصيلات كثيرة هذا الأصل الكبير ، ستعرض لها في  
 مكانها ، ولكنى هنا بالإشارة إلى قوله تعالى « واعدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » [آية  
 ٣٦] وإلى قوله تعالى « أن تر إلى الذين يزعمون أنهم سما أرسل إليك وما أنزل من قبلك  
 يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمرو أن يكفروا به » إلى قوله تعالى « فلا وربك  
 لا يؤمنون حتى يحكمول عبي شجر سمهم ثم لا يحملو في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا  
 تسليماً » [آية ٦٠ - ٦٥]

أم القضية الثانية من انصاف التي تشملها الآية الأولى من السورة هي هذه

« . . ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة »

وتلك أيضاً قضية تاريخية وثنية ، لا تجرى عليها تعير ولا تطور ، ويرتب عليها كذلك

نتائج ثابتة

يترتب عليها وحدة لشريعة في أصلها ، لأنها كلها مشتقة من نفس واحدة ، ووحدتها في  
 معيبرها وقيمها ولدمنور الذى يسعى أن تقوم عبده حياتها لأنها شيء واحد في الأصل لا

(٢) سورة الأعراف ١٧٢

(١) سورة الطور ٣٥



أشياء متعددة أو متعايرة ، كما يترتب عنها أن يتعامل البشر فيما بينهم على أساس هذه الصلة المشتركة في الأصل الواحد ، وإلى ذلك تشير الآية [ ٣٦ ] « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والحجار ذي القربى والحار الحب والصاحب بالحسب وانس لسبيل وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » غير أن هذه القضية بالذات - قضية وحدة الإنسانية في أصلها ، ووجوب قدم العلاقات بينها على أساس الأصل المشترك بينها - محكومة هي ذاتها بنقصية الأولى وهي قصة البرومة والعبودية ، وواجب العباد في تقوى ربهم الذي حلفهم - فقد حدث في تاريخ البشرية اشعاب في هذا الأصل الواحد المشترك ، إذ آمن فريق من البشر بربهم وتقوه ، وكفر فريق آخر وأبى ، فترتب على هذه المشقة اختلاف في الوجهة والغرض ، واختلاف في العقيدة ، واختلاف في التعامل كذلك - وإلى ذلك تشير بات كثيرة جداً في لسورة هي الآيات التي تتحدث عن المشركين والمنافقين واليهود والنصارى وهي تشغل من أسوره حيزاً غير قليل

والعصية لثلاثة الثالثة هي قضية الحسين :

« خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها »

ويترتب عليها نتائج ثابتة

يرتب عليها وحدة الحسين في الأصل « وخلق منها . . »

ويترتب عليها المساواة بين الحسين في نقيمه الإنسانية ، وفي العبودية لله ، وفي الآخر على طاعة الله - وإلى ذلك تشير الآية : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون فيها » [ يه ١٢٤ ] وإذا كان توزيع التكليف بين الحسين في الحياة الدنيا قد اقتضى الاختلاف في بعض حقوق والواجبات ، مع عدم الإخلال بمدى المساواة في الإنسان وفي العبودية لله وفي الآخر على طاعة الله ، إنما هو اختلاف تقتضيه طبيعة « التنظيم » في داخل الأسرة وهو الذي يشير إليه الآية : « لرجال قوامون على نساء » [ آيه ٣٤ ] والآية « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » [ آيه ١١ ] ومتحدث عنه في مكانه

ويترتب عليها كذلك ثبات العلاقات بين حسين وعدم حصوعها لعامل التعبير ولا لتطور فيما دامت أصول هذه العلاقة ثابتة وهي وجود رجل من ناحية وامرأة من ناحية وعلاقة تبادلية بينهما تعبر عنها آية سورة البروم « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا

لتسكوا، ليها وجعل يسكنهم مودة ورحمة ١١ فما لدى يمكن أن يتغير أو يتطور في هذه  
العلاقة ١٢

إن اللقاء لا بد أن يتم - بحكم المفطرة - بين الرجل والمرأة - وليس هناك إلا طريقتان إنسان  
هذا اللقاء مهيأ تعددت صورته ، ما لقاء مشروع في صورة رواج و ما لقاء غير مشروع في أية  
صوره من الصور ، والله خالق هذه المفطرة وصاحب الأمر في شأنها - وفي كل شأن - يقبل  
النسوة الأولى ويدعو إليها ، ولا يقبل الصورة الأخرى بل يهيئ عنها ، كما نشر الآية  
المحصرين عن مسافحين ١٣ [ آية ٢٤ ] والآية التالية للمحصرات عن مسافحات ولا  
متحدثات أحدان ١٤ [ آية ٢٥ ] .

وبترتب عليها أحياراً ثمت العلاقات في داخل الأسرة ، وإلى ذلك تشير مجموعة غير قليلة  
من الآيات ، تتعلق بالمعاشرة بالمعروف ، وبحالة النشور من الروحة والنشور من الروح ،  
ويتعدد الزوجات وشروطه ، وتتعلق كذلك بالمواريث

ثم تشير نهاية الفقرة الأولى من الآية إلى قصة قد تكون ، متداخلة للقضية الثانية المتعلقة  
بالتمسك بالوحدة التي انبثقت منها البشرية أو تفصيلاً لها ، وذلك في قوله تعالى  
« وبت منها رجالاً كثيراً ونساء . . . » .

إنها قصة « المجتمع » سواء في ذلك المجتمع في صورته الخاصة ، أي مجتمع أمة من  
الأمم ، أو المجتمع البشري على أساعده وهي كذلك نصية ثابتة لأن أركانها وقواعد ثابتة  
ومن ثم ترسم السورة صورة ثابتة بقواعد التي تقوم عليها العلاقات داخل المجتمع وهو هو  
المجتمع الإسلامي - كما تحدد لعلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب والمشركين والمنافقين وهم  
الفريق الذي لم يدخل في دين الله كما دخل المسلمون ، وإن كان الخير الذي تستعفه هذه  
القصة في هذه السورة مشمولاً بالعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين أكثر مما هو مشمول  
تنظيم العلاقات داخل المجتمع المسلم ذاته ، الذي تتدوله سور أخرى بالتفصيل

\*\*\*

وبدا نظراً إلى الآية الأولى على هذا النحو ، فإنها في الواقع تكون تلخيصاً دقيقاً لكل  
موضوعات السورة ، كما أن السورة من جهة أخرى تكون كلها مترابطة ارتباطاً دقيقاً وإن  
احتمت موضوعاتها ، لأنها كلها شرح وتفصيل لتلك القضايا الأربع التي افتتحت بها  
السورة ، وهي في ذاتها قصاص مترابطة متسلسلة متصل بعضها ببعض بروابط وثيق

(١) سورة الروم [ ٢١ ]

من هذه الآية الشاملة الموحدة في مفتاح أسوره يتفصل السياق إلى تحديث عن لئى  
 عمة وبتامى النساء خاصة ، ثم عن مهوز النساء ، ثم عن التصرف فى أموال السهفاء ، ثم  
 يعود إلى اليتامى وطريقة التصرف فى أموالهم ، ثم إلى المورث وطريقة تقسم مال المورث  
 « وأتوا لئى أموالهم ، ولا تنسلو الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه  
 كان حرمًا كبيرًا . ومن حقتم ألا تقسطوا فى لئى فانكحوا ما طاب لكم من النساء منى  
 وثلاث وربع ، فإن حقتم ألا تعدوا فواحده أو ما مكث أياكم ذلك آدمى ألا تعولوا  
 » وأتوا النساء صدقهن بحلة ، فإن هن لكم عن شىء منه نصًا فكلوه هينًا مريًا »  
 « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قيامًا ، وارزقوهم ههنا وكسوهم وقلوا  
 لهم قولًا معروفًا »

« واسئوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن أنستم منهم رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا  
 تأكلوه إسرًا وبدارًا أن يكروا . ومن كان عيًا فليستعفف ، ومن كان فقيرًا فليأكل  
 بالمعروف . فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عدتهم ، وكفى بالله حسيًا »  
 « للرجل نصيب مما ترك لوالديه والأقربون ، والنساء نصيب مما ترك لوالدان والأقربون  
 مما قل منه أو كثر نصت مفروصًا . وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين  
 فارزقوهم منه وقلوا لهم قولًا معروفًا . وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافًا هموا  
 عيهم ، هلثقوا الله ولقولوا قولًا سديدًا . إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون فى  
 بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا

« يوصيكم الله فى أولادكم للمذكر مثل حظ الأنثيين . . . »

يظهر للوهلة الأولى أن احدث يشمل ثنائى عيها من المجموع ، هى الثنائى الضعيفة  
 أو المستضعفة فيه ، اليتامى والنساء بصفة خاصة

أما اليتامى فيستوصى بهم خيرًا فى أكثر من موضع فى هذه الايات :

« وأتوا اليتامى أموالهم . . . »

« واسئوا اليتامى . . . »

« وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى . . . »

« وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعاف . . . »

« إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا . . . »

ويتضح من ذلك مدى ما كان يلقاه اليتامى فى مجتمع الجاهلية من إهمال وظلم وسوء

استعلال ، ومدى اهتمام الإسلام برفع الظلم عنهم ، وإقامة حياتهم على أساس من العدل والتأمين والرعاية ، ووضع الضمانات الكفيلة بذلك من التشريعات والتوجيهات ومن خلال حديث عن التامى يتحدث عن فئة مهم هي أشد ضعفاً واستضعافاً ، وهي يتامى النساء . فإذا كان لبتامى حياً يلقون سوء الاستعلال في ذلك المجتمع الجاهل فيتمى النساء يلقى من سوء الاستعلال ما هو أشد وأكثر ظمناً . يد بطمع الطامعون في أشخاصهم حياً فيلجأ الوصى عن اليتيمة إلى فرض نفسه عليها ربحاً - رصيت أو كرهت - بحكم أنه وبها ويترجى كذلك بلا مهر ، فتقع كلها شخصها وماه عبيمة باردة بين يديه ولا جاء الإسلام وبه عن الظلم عامة وهدم آياتها خاصة ، وأحد يرمى قلوب المسلمين على تحجب الظلم في أفعالهم ومشاعرهم ، ويقيم هذه التربية على أساس من تقوى الله ( الذي أشد إليه الآية الأولى في ثلاثة مواضع منها ) تخرج مسلمون من رواج اليتيمات الثلاثي في وصايتهم حجة أن يصدروهن ، فجاءت الآية الثالثة في السورة ترفع عنهم الخرج وتدهم على الطريق

« رُونَ حَتْمَ أَلَا تَقْطُرُ فِي الْيَتَامَى »<sup>(١)</sup> فانكحروا ما طردت لكم من النساء مشى وثلاث ورباع ، فإن ختمت ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا »  
والآية - كما هو واضح - تقرر مبدأ تعدد الزوجات إلى أربع

ويكثر الحديث عن موضوع تعدد الزوجات في الوقت الحاضر ، في المحاضرات التي يرادها فئة مسلمين عن دينهم ، وتحكيم شرائع أرضية بدلاً من شريعة الله . ولقد تحدث في موضع آخر عن هذا الموضوع<sup>(٢)</sup> ، وما به من حاجة إلى تكرار القول في محال الحاضر . ولكننا - في إيجاز - نقف عند بعض النقاط

أولاً هل الأصل الذي تشير إليه الآية هو لتعدد أو الوحدانية ؟  
صاهر البعد هو - إباحة التعدد ولا شك - ولكن البعد الوارد في عجز الآية - وهو الحد - قد ليس بالخير في حقيقته ، يد على ذلك أن الحظاظ موجه معموم ، وليس بالنسبة ببعض الناس فحسب

لذلك فإن الآية توحي إلى كلما قرأها بأنها مش كل توجيهات القرآن التربوية الأخرى ، تجعل الإباحة هي لأصل ، ثم تضع من القيود على هذه الإباحة ما يضيّق مجاها إلى الحد الذي تستقيم به الحياة في أفقها الأعلى

(١) أي في نسيات الثلاثي في وصايتكم (٢) انظر كتاب « شبهات حول الإسلام » فصل « الإسلام والمرأة »

« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا »<sup>(١)</sup>

« ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل »<sup>(٢)</sup>

« والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ، وأن يستعففن خير لهن »<sup>(٣)</sup> .

فالتوجيه في اعتقادي هو إلى الوحدة ، وإن كان التعدد مباحاً بكل تأكيد  
ثانياً - أن لتعدد الأيدى أن يحدث في المجتمع السوي خبطة أسباب ، من أهمها أن عدد  
النساء أكبر دائماً من عدد الرجال حتى في حالات السلم ، ولكن لفرق يرد في حالات  
الحرب ، لأنها - دائماً - تقتل من الرجال أكثر مما تقتل من النساء ، والحرب الحديثة تشر  
الدمار على جميع محاربين وغير محاربين بسبب استثناء من ذلك ، لأن التركيز في القتل  
ما زال منصّباً على الحيوش الحربية ومعظمها من الرجال - ونتيجة ذلك أنه إن لم يكن التعدد  
مباحاً ومشروعاً فستظل مجموعة من الإناث لا يملن حقهن لقطري أبداً أو لا يملن إلا عن  
طريق غير مشروع ، وفي كلنا الحائتين لا يكون لمجتمع « سوريا » بمقاييس الفطرة السليمة

ثالثاً - أن الجبهة المعاصرة التي تستكر تعدد الزوجات لا تستكر الصداقات غير  
المشروعة ، بل تدعو إليها وتيسرها ، ولقد شهدت بنفسى في المدينة الجامعية بباريس كيف  
حُظر على أحد الطلاب أن يستصحب زوجته معه في السكن الجامعي فاضطر إلى إحلاله ،  
بمساعدة إدارة المدينة للطلاب أن يستصحبوا ما شاءوا من الصديقات يتن معهم في البيوت  
الجامعية بغير حرج على الإطلاق [ ونفس الحق مبرح بالطلع للطلبات ]

إنه المسح الذي لا تفسير له إلا إباحية الجاهلية التي تعتمد أن تنكح النظافة حيث  
وجهها ، وتصر على الدس والإدارة حيث وجدت سبيلاً إليها !  
« أخرجوهم من قريبتكم ، إنهم أناس يتطهرون »<sup>(٤)</sup>

« وإن يروا كلاً لا يؤمنوا بها ، وإن يروا ميبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيلاً  
لهي يتخذوه سبيلاً ... »<sup>(٥)</sup> .

وهذا ندس الذي تدرسه الجبهة ليس هو الذي يستطيع أن يرتفع إلى رؤية النظافة  
الحسنة والشعورية في شريعة الله ، وليس هو الذي تأخذه الشريعة مديلاً من شريعة الله

\*\*\*

(٣) سورة النور ٦٠

(٢) سورة الإسراء ٣٣

(١) سورة الأعراف ٣١

(٥) سورة الأعراف ١٤٦

(٤) سورة الأعراف ٨٢

قصية أخرى تلفت نظراً في سياق هذه الآيات

« ولا تؤنوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً »

قد يبدو لأول وهلة أن المقصود في الآية هو ألا تعطوا أموالكم للسفهاء ( إن كانوا من مستحقيها بالوراثة مثلاً ) ولكن الحكم في الحقيقة يسرى على ما في أيدي السفهاء من أموالهم التي يملكونها بالفعل ، وهذا موضع اندلالة في الآية إنه لم يقل « ولا تؤنوا السفهاء أموالهم » ، بل « ولا تؤنوا السفهاء أموالكم » حتى وإن كانت هي أموالهم في الحقيقة ، ولكن حق التصرف فيها يرجع - في حالة السفه - إلى الجماعة المسلمة ، أو التصرف في المال حق لصاحب المال في حالة حسن فهم عليه ، أما إذا أساء استعماله فهو ملث له لا يزال ، ولكن حق التصرف فيه ينتزع منه ويعطى للجماعة المسلمة فتصبح هي صاحبه الحق الأول فيه

وفي هذا يبدو لون من التوازن الإسلامي في مقابيل جهديات عن يمين وعن شئان !

في مدى الجاهليتين تعطى حق التصرف في المال للفرد إذا كان سلوكه فيه وإيّا كانت الأضرار التي يمكن أن تنتج عن تصرفه في حق الجماعة

وأما الجاهلية الأخرى فتحرم الفرد أصلاً من حق التصرف بل من المثلث ذاته بحجبه أنه متى مَنك فسوف يسيء التصرف في حق الجماعة !

والنظام الرباعي المنزور لا يحرم الفرد من المثلث ولا من حق التصرف استلزام فيما يملث ، لأن ذلك أدعى إلى نشط الخافق الفردى للعمل والإنجاح وعمارة لأرض ، وفي الوقت ذاته يعطى الجماعة المسلمة حق التصرف في المال إذا سفه مالكة أي لم يحسن التصرف فيه ، ويضع في حسابه أن هذا السفه يصير بمصالح الجماعة فيقول « ولا تؤنوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً » أي جعل حياتكم تقوم عليها ، فقرر - مع رد حق التصرف في مال السفيه إلى الجماعة - أن مصالح الجماعة مرتبطة بحسن انقيام على هذا المال

وبين نمة الأب ما يجب على الجماعة في سلوكها نحو صاحب المال الذي سفه فأحدث الجماعة عنه حق التصرف في ماله :

« ويرزقوهم فيها ، واكسوهم ، وقولوا لهم قولاً معروقاً »

فليست حسالة إذن انتعاش قصه الجماعة على رأس ذلك لسفيه وإيّاها هو تنويم ورعيه لمصالح الفردية والجماعية في آن واحد فالجماعة تتصرف في المال على النحو الذي كان يسعى على صاحبه في حاله السوية أن يتصرف به ، ونصون له ماله من الصياح لأن صياحه لا يخصه وحده ، وإيّا يخص الجماعة التي ترتبط مصالحها في مجموعها بهذا المال وحسن القيام عليه

وبلغت نظرياً كذلك هذا التعبير « ورر قوهم فيها . » مقابل قوله تعالى بالنسبة من  
 بحصر القسمة من أولى لقربي واليسمي والمساكين في الآية الثامنة « ورر قوهم منه »  
 فالأولى توحى باستمرار الإمداد عليهم من مالهم لدى تولد جماعة بمسئلتها حتى  
 التصرف فيه ، يبي الثانية مرة واحدة وتنتهي عند تقسيم المال للميراث  
 وهكذا يقرر الميراث في آية واحدة موجزة . أهمية العمل الاقتصادي في حياة الجماعة ،  
 وطريقة التصرف في المال بما يحفظ حق الفرد وحق الجماعة ويوازن بينهما في آن واحد . وذلك  
 من الإعجاز .

\* \* \*

من بين ما تشتمل عليه هذه الآيات كذلك تقرير حق الميراث للرجل والمرأة على السواء  
 « للرجل نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ونساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما  
 قلّ منه أو أكثر نصيباً مفروضاً »

وقد كانت الجاهلية العربية لا توزع النساء أصلاً ، وجاء الإسلام فقرر للمرأة هذا الحق  
 ونصّ عليه نصّاً مشدداً « مما قلّ منه أو أكثر نصيباً مفروضاً » ولم يكن ذلك لأنه قد نزل  
 في ذلك المجتمع الجاهلي « قضية » المرأة ولا مطاسةً منها « بحقوق المرأة » ! وإنما لأن هذا  
 هو العدل الرباني لدى يريده الله ، ويمسحه لمعاداة رجلاً ونساء دون أن يظانوا به ،  
 ويدلّون في سبيل خطائه به أرواحهم وأعراضهم وأحلافهم وإسائيتهم ! وقد تقرر هذا الحق  
 منذ أنزلت هذه الآية وصمته لمحاكم التي تحكم بشريعة الله ، دون أن يحتاج الأمر إلى « حركة  
 سائبة » وحده مما يعجز به جاهلات الاستخلاص الحقوى ، ويبلغ فيها ما يدل على معرفته  
 الرجال والنساء على السواء !

أما توزيع المال للموروث فقد بيّنته الآيات الحادية عشرة والثانية عشرة من السورة بالإصادة  
 إلى الآية الأخيرة [ ١٧٦ ] التي تضمنت مريّة من أنبياء بشأن « الكفالة »  
 وليس من شأننا هنا أن نتعرض للأحكام الواردة في السورة فحدث أمر خارج عن هدف  
 الكتاب . ولكل نصف وفعة قصيره عند نسبة التوزيع في مال الموروث « للذكر مثل حظ  
 الأنثيين » .

بعد نازت في الجاهلية المعاصرة منذ الثورة الصناعية « قضية » للمرأة شأن من أن هذه  
 الجاهلية شعلت النساء في المصانع ( الأمر يراد ! ) ثم أعطتهن نصف الأجر الذي تعطيه  
 لعمال الرجال . ومن هنا قام النساء بظلمة بالمساواة في الأجر ، ومن ثم بدأت القصة

لتي اتسعت - أو وُضعت - لتصل إلى المساواة في كل شيء ، وفي حق الفساد بصفة خاصة  
أي « حق » المرأة في أن تهب نفسها لمن تشاء وفي أي صورة تشاء ( ١ )  
وشتان بين هذا الأمر وذاك

ب. الإسلام يعطي المرأة نصف الرجل في المأان الموروثة وحسب ، الذي لم يبدل منه جهد ،  
وعلى أساس واضح هو أن الرجل يأخذ نصيب الضعيف ويكلف بالإنفاق ، ومن بين من  
تجب النسقة منه عليهم المرأة التي يتزوجها والآم ولأخت التي لا عائل لها ، أما المرأة فتأخذ  
نصف الرجل ولا تكلف بالإنفاق على أحد ، لا نفسها في الأحوال العادية ومن ثم فهو حق  
مقابل تكليف .

أما المأان المكتسب . الذي ثرت من أجله قضية المرأة في الجاهلية لمعاصرة . فإن الإسلام لم  
يتعرض له على الإطلاق ولم يتفحص من حق المرأة كاملاً فيه ، لأنه جهد بشري مبدون ،  
وحين يتعادل الجهد يتعادل الجراء . ومن أجل ذلك لم تثر امرأة قضية في شأن المأان  
المكتسب في ظل الإسلام لأنه لا قضية ! بينما أراء العامة في مجتمعاتنا تزداد على هذه المحظة  
تأخذ أجراً أقل من رميلها الذي يعمل معها في نفس المكان

\*\*\*

أم قضية المساواة المطلقة فقد ثارت بالفعل في بعض بعض المجتمعات ، ولكنها  
كانت على أهم أعلى بكثير من الأفق الذي تثار فيه في الجاهلية المعاصرة ، والذي يعنى في  
تخليصه حق المساواة في الفساد  
ثارت بشأن مساواة في الآخر في الشهادة ، والمساواة في الميراث ، وإلى ذلك تشير  
الآية [ ٣٢ ] .

« ولا تمنعوا ما فضل الله به بعضكم على بعض - بل حان نصيب مما اكتسبوا ولكنهم  
نصيب مما اكتسبوا وأسألوا الله من فضله - إن الله كان بكل شيء عديماً »  
روى ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه والحاكم في مستدركه ، من حديث الثوري ،  
عن أبي بصير ، عن محمد ، قال : قال أم سلمة : يا رسول الله ، لا يغفلن من شهد ،  
ولا يقطع الميراث . . فزلت الآية ثم أنزل الله « أمي لا أصبح عمل عامل منكم من ذكر  
أو أنثى . »

( ١ ) راجع إن شئت كتاب « معركة التعميد » أو كتاب « التطور والثبت » وراجع في ذات الوقت  
« بروكولاف حكيم صهيون » !



وقال السدي في الآية إن رجالاً قالوا إن يريد أن يكون له من الأجر الصنف على أجر الشهداء كما لو في لشهداء شهداء أو وفات لساء إن يريد أن يكون له آخر مثل آخر الشهداء ، فإن لا استطع أن يعاثر ، وبو كتب عبد الصار فقاتلنا فأبى الله ذلك ، ونكر قال لهم : سلوى من قصي قال : ليس يعرض الدنيا

ومع اختلاف الروايات بشأن برون الآية ، فإنها تذكر نوعاً من لناس عن الحقوق والواجبات ، بين الرجال والنساء ، ويذكر على أي حال يختلف في هدفه ومستواه عن قضية المساواة في المعاصرة

ومن ناحية أخرى يذكر الآية أن الله لم يستحب منك انفس أو ذلك لتمنى كما تسميه الآية - حتى وإن كان في بعض الروايات يرتفع إلى الأفق الأعلى إلى تمنى لشهادة في سبيل الله للفر بالآخر في الآخرة ، وإنما دلهم « واسألوا الله من فضله »  
إن الله - من رحمته - لم يجعل الآخر عبء وفقاً على نوع معين من العمل يباح لأحد المحسنين ولا يباح للآخر إن الأجر على الوفاء بالنكاح أيا كان التكليف « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن »

فكل من احسن حله الله لمهمة معينة يؤديها في الأرض ، ووهب له المواهب اللازمة هذه المهمة لم كلفه تكاليفها ومن بين تكاليف الرجال - أو في لقمة منها - الجهاد في سبيل الله ، الذي يؤدي في بعض الأحوال إلى الشهادة ومن بين تكاليف النساء - أو في لقمة منها - رعاية البيت وبرية الشئ على الإسلام وعلى طاعة الله .

ثم إن الله يعطي أعلى درجات الآخر لكل من الرجل والمرأة في ميدانه الأصيل للرجل عن استشهاده في سبيل الله ، والمرأة على حسن قيامها ببيتها وروحها وأولادها ومن ثم فلا ضرورة للمرأة أن تقوم بعمل الرجل لتحصل على آخره ، إنما هي تحصل على ذلك الأجر وهو الجنة - من خلال عملها الخاص وتكاليفها الخاصة ، مع المحافظة على توزيع الاختصاصات في المجتمع ، وعدم الإحلال بمهمة من مهامه الأصلية كما تفعل المعاصرة المعاصرة حين تفسد الأسرة والمجتمع والأخلاق بل تصد لفطرة من حيث هي فطره تدعوى المساواة بين المحسنين .

والتعقيب في الآية يشير إلى ذلك « واسألوا الله من فضله » إن الله كان بكل شيء عليماً

فهو - سبحانه - يعلم كيف يستقيم حال المجتمع الشرى حين يقوم كل جس من

الحسين بتكاليف وطيفه المظريه ، وكف يخل حاله ويضطرب حين يأخذ أحد الحسنين مكان الآخر

لذلك يأبى - سبحانه - تلك الموصى الى تش من ذلك « انتمى » فصلاً على تحقيق ذلك المسمى في عدم الواقع ويوجه لباس - رجالاً وساء - أن يسألوا الله من فضله ، وهو معطيهم من فضله حين يتطلعون الى ذلك الفصل من وجهه الصحيح

وإن كان الناس قد تموا ، فقد ردّ الغراب عليهم يهاهم عن ذلك المسمى ، فانتهاه عنه لأنهم كانوا مسلمين ، يسعون الى طاعة الله ومرصاته ومحكمون دعوتهم الخاصة - أو حتى أهواءهم - بأوامر الله وتوجيهاته ، فتستقيم نفوسهم على انظريه فيما أنعم الله به عليهم من بركاته ويطلبون من رجال جهديون - المساواة في الميراث ، ويقال لهم - وهم يعمدون أساء مسلمة - إن الله يأبى ذلك فيقولون ولكننا نحن نريد

ما أنعمهم وما أصبرهم على النار

\* \* \*

« وعاشروهم بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » وإن أردتم امتداد روح مكان روح وأنتم إحداهن قطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً

هذه عند هاتين آيتين وفهتين سريعتين

الأولى عند قوله تعالى : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

والتوجيه الى الآية واضح لا يحتاج الى بيان ولكننا نقول فقط إن الإسلام ككل كامل ، لا يؤخذ منه جزء ويترك جزء ، ولا يترك فيه عن جانب ويهمل منه جانب آخر ، فإذا كان الإسلام قد أوجب على المرأة أن تطيع زوجها ، فإن هذا الواجب بقائه واجباً على الرجل هو المعاشرة بالمعروف وهذا ينور الأمر ، وتنور الحقوق والواجبات ، ويكون التطبيق صحيح للإسلام . أما حين يستند الرجل بحقه ولا يؤدي ما عليه من واجب ، فإنه يكون فيه من الخاهية بقدر ما يحيد عن أوامر الإسلام وقد كان في واقع المجتمع الإسلامي في العصور الأخيرة حاصه من ريد الى سلوك الخاهية في هذا الجانب وبعد عن طريق الإسلام وأعمل أعداء الإسلام من داخله وخارجه هذا الوضع ليبرو فضيه للمرأة ، يمحون فيها لبقود من طريقها إلى تحطيم التقاليد الإسلامية وانهاهم

لإسلامه ، وفي نهاية يحطمون هذا المجتمع كله لكيلا يبقى على وجه الأرض دين ، ولا يبقى هذا الدين مبادئ

وكون المرأة كانت تعاني وصفاً مجحفاً في المجتمعات الإسلامية المتأخرة<sup>(١)</sup> حقيقة لا شك فيها ، يحمل ورثها أولئك الرجال لدين اسكسوي جاهلية في معاملتهم لسائهم ولكن اندى آثاره « القصبة » كانوا يقولون كلمة حتى يردب باطل وكذا وراءهم من وراءهم من أعداء الإسلام بدعوتهم لا تصحيح الأوضاع في المجتمع ، وإنما تدميرهم ولقصاء عليه وقد رينا في عالم الواقع كيف صدرت « القصبة » وأي شيء أدت إليه ! والعلاج الصحيح دائماً هو دين الله ، بشرط أن يؤخذ كله كما أنزل الله ، بكل توجهاته في كل اتجاه ، والتوكيد عن معايشة المرأة بالمعروف والاصح في النص شديد الوضوح ، يؤكد التعقب في الآية : « فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ومحمل الله فيه حبراً كثيراً » وهو توجه مردوح ، والاستمرار في المعايشة بالمعروف حتى مع الكراهية إن حدثت ، والاستمرار كذلك في الإبقاء على رباط الزوجية وعدم قصصها عند أدنى تحول في مشاعر القلوب

والوقفة الثانية عند قوله تعالى « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج . . . » .  
إلى ألمح في النص إجماعاً معيماً أن مكان الزوجية لا ينبغي أن يترك خالياً لأي سبب من الأسباب !

لقد كانت الآية السابقة تتحدث عن الكره وما يمكن أن يتبعه من انفصال وكانت التوصية في الآية ألا يسارع الرجل إلى قصم رباط الزوجية عند أول بادرة من تحول المشاعر ، فعسى أن تكرهوا شيئاً ومحمل الله فيه حبراً كثيراً والآية الثانية تشير إلى الحالة التي يتم فيها الانفصال في هذه المطاف رغم التوصية ورغم الحرص فهذا تكون النتيجة ؟ هل يحدث الانفصال ويظل المكان حياً ؟

هذا الذي نوحى الآية بأنه لا ينبغي أن يحدث !

إن الوحدة الحقة التي يقيم عليها الإسلام بناء مجتمعه هي الأسرة والإسلام شديد حرص على الأسرة لأهداف ومبادئ لا تحصى ليس أقلها تهيئة الاستجابة الطيبة لدواعي المعطره لكي لا تتحول إلى طريق الفاحشة وليس أقلها تهيئة المحسن الطبيعي لدرية لنشء

---

( ١ ) نقصد المتأخرة في الزمن ، ونقصد كذلك في ذات الوقت أب متأخرة عن المهم الإسلامي الصحيح والمجتمع الإسلامي إن أن يطبق لإسلام الصحيح فيكون متقدماً ومحصراً ، وبما أن محيد عنه متأخر وشغل في كل جانب

هبة إسلامية سليمة ومن سها كذلك تهبة ددد البشرى اندائم هذا لمجتمع الذى  
نحوطه الأعداء من كل جانب ير يدون القصاص عليه ، والذي يعيش فى جهاد دائم فى سبيل  
الله لنشر دعوته وإقامة حكم الله فى الأرض . فوقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين  
 كله لله ، <sup>(١)</sup>

من أجل ذلك فإن الإسلام لا يستريح تعطيل وصيفة الأسرة فى المجتمع الإسلامى  
وبذلك يعطى الإنحاء بأن هذا المكان لن يظل حاوياً إذا حدث الخلاف الذى يؤدى  
للاتفصال ، وإنما يُملاً المكان على التوافق . فتستخدم الآية لفظ « استبدال » تنوحى بأنه أمر  
يتم فى الحال ! خرجت من « وظيفة » الأسرة راحة لأن اتفاهم معها أصبح متعذراً ، ولم تعد  
لرابطة تؤدى مهمتها . « ومن ياتنه أن خلق بكم من أنفسكم أروا جاً لتسكنوا إليها ، وجعل  
بيكم مودة ورحمة » <sup>(٢)</sup>

حدث ذلك رغم الحرص والحرص ، إذن فلنأخذ « الوظيفة » راحة جديدة تملأ الفراغ ،  
ولا تعود الوظيفة معطلة لسبب من الأسباب

وهكذا كانت نظرة المجتمع الإسلامى الأول على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
بأسية للرجل والمرأة عن السواء . وقد رأينا كيف يسعى عمر - رضى الله عنه - فى جدية  
كاملة إلى ترويح انتنه حمصة ، فيعرض الأمر على أبى بكر وعثمان - رضى الله عنهما -  
شعوراً منه بأن هناك وظيفة حمصة فى المجتمع يسعى أن تأخذ وضعها الطلى فى الحال

\* \* \*

« الرجال قوامون على النساء فى مثل الله بعضهن عن بعض وبما أنفقوا من أموالهم  
فالصالحات قانتات حافظات لنفسى بما حفظ الله واللاتى تحافظون شورهن معطوهن  
واهجروهن فى المضاجع وضرىوهن . فإن أطعكم فلا تمعوا عليهن سبيلاً » . رب الله كتاب علياً  
كبيراً <sup>١</sup>

فى معرض عاية الإسلام بالأسرة ، وتنظيمه تعطيلاً ديبقاً لكل علاقاتها لكى تؤدى وظيفتها  
الخيوية فى المجتمع . يحى ذكر القوامه ، ويحدد من يقوم بها فى الأسرة  
إنه - بادئ دى بدء - لابد من قوامه وإلا تفرض عهد الأسرة وساءت فيها الأحوال ولم تعد  
تؤدى وظيفتها

وإد نقرر ذلك فقد نطس قضية الجانب الذى نوكن إليه القوامه . أهو الرجل أم المرأة ؟

(٢) سورة الروم ٢١٠

(١) سورة الأنفال ٣٩

والقضية في صوره الإسلامية ليست مافسة ولا نفاق بين الحسبي كما تثيرها الجاهلية  
للعاصرة . فما أوجد الله أحسن ليقيم بينهما الصراع والشفق ، وإنما ليوجد أسكن  
والسكية وتوجد المودة والرحمة كما أشارت الآية التي ذكرناها آنف من سورة الروم [ ٢١ ]  
« ومن يات به أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة »

إنما القضية هي تكليف بكلف بـ لأصنع في جميع الأحوال .

فأي الحسبي أصلح أن « يكلف » بالقوامة ويقوم تبعاتها ؟

لقد تحدثت في كتاب « لإسان بين المادية والإسلام » عن هذه القضية بما بعسى عن  
إعادة الحديث في هذا الموضع <sup>(١)</sup> ولكن أصيب كدمة سريعة بشأن أمر جد في حياة  
الجاهلية المعاصرة ما بين ذلك الكتاب الأول وهذا الكتاب

لقد كثر المحرفون والمنحرفات من الأولاد والبنات في المجتمع العربي ، وكثر كذلك  
الشدود وشططت المؤتمرات « العلمية » تبحث هذه الطائفة الخطيرة ، وقام علماء النفس  
وعلماء الاجتماع وعلماء الجريمة وعلماء القانون وعلماء بالدراسة والتشخيص وأخبار  
قالوا إن هناك عوامل كثيرة أدت إلى هذه الظاهرة المرعبة ، وإن من بين الأسباب  
أهمها في هذا الشأن غياب سيطرة الأب من جر الأسرة نتيجة عمدة المرأة غريبتها وتطلعيها  
الشديد إلى المساواة مع الرجل !

ولا يحتاج من أن يعق على هذا الأمر بأكثر من أن هذه هي قانون المعطرة كما خلقها الله !  
وأن هذه القانون حين يحالف اتباعاً لدهوى والشهوات تتخ عنه في حياة البشرية تلك  
الأمراض وتلك الانحرافات وأن للإسلام - في هذا الأمر ، وفي كل أمر - هو دين المعطرة  
القوية كما خلقها الله :

« فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا بديل لخلق الله ذلك  
الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » <sup>(٢)</sup> .

ولكن أمراً آخر يستوقفنا في النص . « وبما أنفقوا من أموالهم »

إن هذا النص يستوقفنا بصمة خاصة بعد أن « تحررت » المرأة اقتصادياً وصارت تعق أر  
تشارك في الإنفاق ، ثم رفضت قوامة الرجل عليها ، وكذب من وراء ذلك ما كان من عساد  
الأجل .

هل كان من أجل ذلك تكليف الرجل بالإنفاق وعدم مكيف المرأة ؟

(١) سورة الروم - ٣٠

(٢) فصل « المشككة الجنسية » .

إن يدرك ولا شك أن الإسلام قد أعفى المرأة من السحت عن الرزق ، ولم يصع عليها شيئاً من التكاليف المادية في الأحوال العادية لكي تتفرغ لشئون الأسرة غير مشغولة الأعصاب بالعمل أو الإنفاق . ولكن تجربة أهل هذه المعاصرة تشهد أشاهد شديداً على استئثار التي تترتب عن قيام المرأة بالإنفاق ، بحيث لا يستطيع أن يعمل هذه الروية من الموضوع وليس المعنى هو أن المرأة تسعى أن تحرم من الملك لكي « تنحصر » ليرحل كما يقول التفسير المسمى للتأريخ بشأن وضع المرأة في المجتمع الراعى .

كلا ! إن الإسلام لا يحرم المرأة من الملك ، ولا من التصرف بأهلية كاملة فيما تملك ، وهو الحق الذي ظلت الجاهلة الأوردة تحرم المرأة منه في عهد قريب جداً في هذا القرن العشرين ! المسألة أن الإسلام لم يكلفها بالإنفاق مهما كانت أموالها الخاصة <sup>(١)</sup> ، وكيف أن الرجل وحده بالإنفاق . وتجربة القرن العشرين تقول لنا أن المرأة حين تشعر أنها مكففة بالإنفاق يضطرب نظام لأسرة وتصبح الأجيال !

ثم تبين الآية صورة الحياة داخل الأسرة في نطاق الفطرة السوية .

« فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله »

إن النصائح ترضى نفوسهن وسريجن إلى وضع الفطرة السوية ، فيجدن كينهن كاملاً في حياة الأسرة بوضعها الذي يحدده دين الفطرة ، يولفن تبعه انقومة على الرجل وفيه بأعبائهم المالية والنفسية على السوء . وإن المعاشرة بالمعروف هي جزء من هذه التبعة ولا شك . ليست القوامه نجراً وعطرسه ، ولا عرضاً للإرادة باحق ودليل كما يمارسها بعض الرجل بشاعر جاهلية بحت . فالسليم لسوى يمارس السلطة بشعور التبعة لا يشعور الاستعلاء <sup>(٢)</sup> . ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأسوة ولقدوة في كل خلق إسلامي ، وهو - صلى الله عليه وسلم - الذي يقول « خيركم خيركم لأهله ، وأب خيركم لأهلي » <sup>(٣)</sup>

والآية تصف الصفات بأنهن قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله . فترى خير الصفات التي تتجلى بها الروجة لصالحة ، والتي تقوم عليها في الوقت ذاته الأسرة المسلمة فهذا الصوت لله هو الباب الحقيقي الذي ندخل منه انسكبة إلى لبيت ، وتتحقق به الآية الربانية « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة

(١) إلا إذا أصعب منظوعة غير تكلف

(٢) تحمل الآية في جميعها نبيها صريحاً عن السلي بالسلطة « فإن أطعكم فلا تنعوا عليهم سبلاً » وبعيناً ضمناً عن الاستعلاء ل قوله تعالى « إن الله كان علياً كبيراً »

(٣) أخرجه ابن ماجه .

ورحمة»<sup>(١)</sup> ذلك أن النفس انقادت لله نفس رضية صحيحة مسالمة مستقيمة للحق عبر محبة  
للمشاكل ولا المراءات .

وأم الحفظ للعبث « يحفظ الله » احدى يشمل حفظ العرص وحفظ المار وحفظ أسرار  
الروحية وأسرار الأسرة فهو التكملة التي تثبت أركان السلام في البيت ، وتكمل لصورة  
الوضيعة لدرجة الصالحة ولأسرة الهاتئة السعيدة التي يحرص الإسلام على أن تكون هي بنة  
المجتمع كله ، فيكون معتمد سبيلاً مترابطاً تشأ منه أمة مرابطة .  
أما الروحة الشائز عنها وضع آخر . .

«واللاتي تحامون شورهن فعظوهن ، واهجرهن في المصاحح ، راصريوهن فإن  
أطعنكم فلا تبعوا عليهن سبيلاً . . .»

إن الأسرة لا تؤدي وطيفتها حيوية في حالة وجود الشور من الرجن أو المرأة سوء لا  
هي تعطى السكن والسكينة ، ولا هي تحقق معنى المودة والرحمة ولا هي تعطى الجو  
الطبيعي لربية الشء على أسس الإسلامى السليم ولا بد إذن من إجراء يزيل هذا الشور  
ويصلح أمره . وهذه الآية [ ٣٤ ] تحدث عن لعلاج في حالة شور الروجة ، بينما تحدث  
آية [ ١٢٨ ] عن شور الروح

أولى درجات الإصلاح هي الموعظة ، وأمرها واضح لا يحتاج إلى بيان  
ولكن الموعظة قد لا تمنح ومعنى ذلك أن المل إلى الشور أكثر قدراً من أن تكفى فيه  
موعظة ، ولابد من إجراء آخر أفضل من الأول وأبلغ تأثيراً وهذا يأتي الأمر الربانى  
«واهجرهن في المصاحح . . .»

والله أعلم بمن حتى إن قوماً قد يحين إليهم أنه ما دام التأديب بالضرب قد ورد في  
آية ، فقد كان الطبيعى أن يأتى دوره بعد الموعظة ، ويكون الحجر في المصاحح عقوبة  
أخيرة!

ولكن الترتيب في الآية مقصود . الموعظة أولاً ، ثم الحجر في المصاحح ، ثم الضرب ( وقد  
يأتى الرسول - صلى الله عليه وسلم - صورته ، فأمر بأن يكون ضرباً عبر مبرح ، وأن يتقى منه  
الوجه ) .

إن الله العليم بمن خلق يعلم أن بعض النساء قد يدعوهن إلى الشور اعتزلهن سبحانه  
وجاديتهن ، وشعورهن بمنى تأثيرها على رجالهن ! فتدلل الروجة وتنشر عن أمر زوجها  
اتكلاً على ما لها من رصيد من اتحادية هو - في ظنها - لا يقاوم !

(١) سورة البروج : ٢١ .

وهي تأتي العلاج من نوع الداء « وهجرتهن في المصحح » يعنى أن الأمر جد ، وأن هذا الرصيد الذى يشتر به لا ماعلية له في موقف الحد و ذلك يكفى لأن تتبدل اماتته الى أمهاتها ابدلال !

وفي الأخير بأنى العقاب الذى لم تصدحها الموعظة ولا المحر في المصحح إيه بدن مشور حاد يحتاج بي تأديت من نوعه يحاج إلى لشعر بأن هناك « سلطة » تمثلت بتأديت وممارسة بالفعل ! ومن القوم من لا يصلح شأنه إلا على هذا النحو وليست مسأله مجرد ممارسة لرحل لسلطانه ، وستعلائه على المرأة كما يتصوره الخاملون المعاصرون وهم يقرأون هذه لاية إياها تربية وإصلاح إصلاح لأمر لمجتمع كله مستدثا بالفرد وبأسرة

وإن الله هو المربي - مسجانه - الذى يضر من مساواته إلى لمجتمع البشرى كله ، ويضع انمو عد والتوجيهات الى يعلم مسجانه أنها تؤدي إلى استقامته وصلاحه فهو لا يضع هذه التوجيهات لإرصاد عرور لرجل ولا لإذلال المرأة ! فليس أحدهم أقرب إله من الآخر إلا بالتقوى . « يأياها الساس إن خلقاكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) .

إنما يضع لله هذه التوجيهات ليصبح كل شىء في مكانه في هذه رحلة ذات الأهمية الحيوية في بناء لمجتمع ، لسكون منها ومن مثلها في انهانة مجتمع صالح يقوم بدور الخلافة في الأرض دون معوق ، وسنطلق في عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، تكفى فيه الموعظة ، ولابد من إحياء آخر أعمل من الأول وأوسع تأثيرًا وهي تأتي الأمر لربانى ، ويربى في الوقت ذاته حيلًا فادما يتبع السير في الطريق القويم

\*\*\*

« واعدوا الله ولا تشركوا به شيئًا »

لأول وهمة يبدو كأن هناك انتقالًا معاجتًا في السياق

لقد ظل السياق يعالج أمور المجمع بلا انقطاع من بعد الآية الأولى التى تشير إلى موضوعات السورة الرئيسية ، فتحدث عن التمسى والتهيات خاصة ، وعن مهو النساء ، وعن لسهه وأمواهم ، ثم عن انينامى عود عن بدء ، ثم عن الميرث وأنصته ، ثم عن الذين يأتون انصاحشة من النساء ولرجال ، وعن منهج التعامل في داخل الأسرة ، ثم عن

(١) سورة الحجرات ١٣



المحرمات من النساء وعمى بجل منهن ، ثم عن الطريقة السليمة لتداول المان في المجتمع المسلم وعن لهنى عن قتل النفس ، ثم انتهى عن تمى ما فصل الله به بعض الخلق عن بعض ، ثم عن المواقف والنشور وطريق الإصلاح بين الروحين عند حشية لشقاق .

ثم - فجأة فيما يبدو لأول وهلة - يقول : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » .

ولكن المواجهة غير قائمة في الواقع كي يتأمن قبل وبعد إلى أول السباق

« يا أيها الناس اتقوا ربكم انى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تسمعون به ولأرحم ، إن الله كان صديقاً رقيقاً » .  
« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » .

من نفس - على هذا النحو . أن هناك مفاجأة في السياق ١٩

حقيقة أن الآيتين يستتا متواليتين ، وأن من الأولى والثانية أربعاً وثلاثين آية كاملة شملت كلها بالموضوعات التى ذكرناها آنفاً . ولكن هناك معنى يتر من خلال جريان لسباق على هذا النحو ، يتضح ل حين نعود إلى السباق مرة أخرى نرى أن هذه الآيات الأربع والثلاثين قد وضعت في هذا الإطار « يا أيها الناس اتقوا ربكم » « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » . فكان الإطار المحيط بها ، وبكل ما تحويه من أحكام وتوجيهات ، هو تقوى الله وعبادة الله وحده دون شريك ، أو قل إنه المحيط الذى ينتظمها جميعاً من أولها إلى آخرها ، هى جميعاً مشمولة به ، وهى معدة به كذلك

وبريد أن نمرر به بعض نقاط .

الأولى أن هذا المحيط الذى ينتظم الأحكام والتشريعات والتوجيهات هو محيط لعقيدة « اتقوا ربكم » « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » . به الأساس الذى يقوم عليه المجتمع الإسلامى ، ونقوم عليه كل حياة الأفراد مسلم وإلا بدء هذه المجموعة من التوجيهات والتشريعات الاحتى عليه بتوجيه عقيدى ثم احتتامها بتوجيه عقيدى آخر هو وصح التلايه في أن لعقيدة هى البدء وهى النهيه وهى الأساس الذى يقوم عليه كل الساء

الثانية أن في الإسلام ولا شك نظاماً وتنظييات احتى عليه واقتصادية وسياسية تشمل حيزاً غير قليل من لقراء وحيزاً أكبر من السة ، ولكن الإسلام مع ذلك ليس « نظاماً » بالمعنى المصهور في « النظام » الذى مقرطى أو الشيوعى أو ال . . .

به عقيدة أولاً ، بنظام بعد ذلك مستق من العقيدة وذلك واضح من بدء التنظيمات

المشار إليها بذكر العقيدة ثم اختتامها بذكر العقيدة ، فهد تذكر ونؤكد بان « النظام » ليس هو الأساس ، إنه العقيدة هي الأساس . وتلك مزية النظام الإسلامى على غيره من النظم الجاهلية ولو حققت للناس بعض النفع فى المدى القريب

إن بعض الشباب لتحمس لنشر الدعوة الإسلامية فى العرب ، وأدى يغريه أن الفراع الذى يعنيه العرب اليوم يجعله أكثر تقبلاً للإسلام من دى قبل . بلح فى أن يكون طريق الدعوة الإسلامية فى العرب هو بيد مزايا « النظام » الإسلامى دون الحديث عن العقيدة بادئ دى بدء ، لأن لعرب معرم بالنظم ولتنظيمات ، وإذا لم نحدثه عن « النظام » الإسلامى فلن يقتنع بدعوتنا .

نعم ! ولكن انزىة الأولى فى هذا النظام الإسلامى أنه قائم على العقيدة ! فكيف بعض هذه لمرة ثم نرعم أننا نريد أن نتحدث عن مزايا النظام ؟!

إن لقول بأن العرب ليس على استعداد للكلام فى العقيدة أو الدحول من باب العقيدة ليس صحيحاً أولاً ، بدليل من دحل منهم فى البودية - وهى « عقيدة » أيا كان لوبها . ولست نظاماً على الإصلاق ! - ومن يستجيب منهم إلى دعوة « كرمش » وغيرها من الدعوات<sup>(١)</sup> ! ثم إنه إن كان صحيحاً ثانياً فليس هذا مرراً لأن بدوى عق الإسلام ليوافق انحرافهم ، تألف لقلوبهم لكى يدحلو لإسلام ! إن باب الإسلام هو انعقيدة ، ومن م يدخن من هذا الباب وإنما دحل من باب « الإعجاب » بالنظم فهو عرصة لأن نمته « لنظم » فى أية حصة فيرتد عن الطريق !

وأورب لا تنقصها النظم - من حيث هى نظم - ولا لتنظيمات من حيث هى تنظيمات إنما تنقصها انعقيدة التى ترد إلى روحها لأمن والطمأنينة بادئ دى بدء وترد عنها القدى والصبيع الذى يفت حياتها ، ثم ترددا عن اعتناق النظم الجاهلية التى تمارسها فتؤدى بها إلى الخس والاضطراب ، ودلت حين تقسع - عقيدة - بأن ابشر لا ينبغى لهم أن شرعوا من عند أنفسهم ، إنه يشرع لهم الله ، وأنه من لم يحكم بيا أمرل الله فأولئك هم انكادرون فالعقيدة أولاً ، وانعقيدة آخرًا ، والعقيدة هى الأساس بالصبط كى يتصح من هذا انص القرآن فى صورة النساء<sup>(٢)</sup>

( ١ ) ولعب النظر فى شوارع لندن شباب من الانجيز حينما الرأس إلا من حصلة شعر و حدة يدعون إلى اتباع « كرمشنا » بوصفه « ديكاً » حديثاً يدحبون فيه

( ٢ ) وفى كثير من النصوص العرانة الأخرى نظيمه الحال

ولا يحتاج أن بين هذا - فهذا فيما في مواضع أخرى - كيف يكون النظام القائم على العقيدة  
أكد في حياة الناس من النظام الذي هو مجرد نظام ، ويكفى مثلاً لذلك حيرة « النظام »  
الأمريكي في مسألة الخمر معارضة بما حدث عند تحريم الخمر في المدينة ، وحيرة ذلك النظام  
في قضية استعرة العصرية ركبت كان وضع ملال - رضى الله عنه - وأمثاله في المجتمع  
الإسلامي !

والثالثة لتي أشربا إليها في مقدمة حديث عن هذه السورة ، وهي أن الانتقال من  
الحديث عن العقيدة إلى الحديث عن شريعة ، أو من الحديث عن لشريعة إلى الحديث عن  
العقيدة من انتقالاً معاجناً كما يبدو لى عند أول هذه ، وليس انتقالاً من موضوع إلى موضوع  
آخر مختلف عنه - إنما هو انتقال من بيان جانب من هذه الدين إلى بيان جانب آخر من داب  
لدين - وهو في الوقت ذاته إشارة إلى أن هذه الدين كله سواء - العقيدة والشريعة  
والتوجه - والانتقال من واحد من هذه الجوانب إلى جانب آخر هو انتقال من نقطة إلى نقطة  
أخرى في ذات الموضوع ، وهو تعليم من الله لعباده وتعريف بالحقيقة الشاملة لهذا الدين



وترداد حقيقة الترابط بين العقيدة وبين روابط حياة وعلاقات لمجتمع وضوحاً حين  
تسكمل قراءة النص :

« واعدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين  
والخارج ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم . إن  
الله لا يحب من كان غيباً فخوراً » .

فالتوجه لأول توجه عقيدى بحسب ، يشمل على هذا الأمر عبادة الله وحده دون  
شريك - ولكن يرتبط به مباشرة في ذات النص ذلك التوجه بالإحسان للوالدين وبذي  
القربى واليتامى والمساكين - ولهذا يظهر في آيات أخرى من القرآن في العهد الملكي والديني  
سواء ، وإن كان النص هو يريد الإشارة إلى الجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب  
بالجنب

هذا الارتباط مقصود ولا شك وواضح الدلالة كذلك من ناحيتين

الأولى أن التوجيهات المنظمة لعلاقات مجتمع لمسلم - من جميع نواحيها - تأتي مستمدة  
من العقيدة ، كما أسلف

والثانية أن الرطة التي تربط الناس في المجتمع المسلم هي رابطة العقيدة - فالجميع

يدينون من حلال لا إله إلا الله أنى يؤمنون بها فيعملون بمقتضاها ومن إيمانهم بلا إله لله  
تجتمع قلوبهم ويتوحد اتجاهها ، فتشأ بينهم رابطة المحبة والمودة التى يأمر بها الإسلام  
وإنه لا شىء فى الوجود يجمع لقلوب أقوى من العقيدة

كل رابطة غيرها من جنس أو لون أو لغة أو مصالح مشتركة أو أمانى مشتركة أو  
تاريخ مشترك . إلى آخر تلك الروابط التى يقيم الناس وحوادثهم وتجمعهم عليها فى  
الجاهلية ، عرصة لأن تمتد وتشتت . ولكن رابطة العقيدة فى الله هى الأثبت والأقوى  
ولأدوم ، لأنها أعمق فى القلب ، ولأنها لا تطلب شيئاً فى المقابل ، بل تأتى تلقائية من إيمان  
كل مسلم بلا إله إلا الله ، ومن ممرسته التلقائية لمقتضيات لا إله إلا الله . وواضح أن  
النص يجعل إقامة هذه العلاقات مع أوالدين وذوى القربى واليتامى والمساكين والجار وس  
السيبل والرقيق من مقتضيات لا إله إلا الله ، لأنها تأتى مباشرة فى أعقاب الأمر الربانى

«واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً» فتعصى الإجماع بأن الله على درجة الإحسان التى يشير  
النص إليها . وإذا كانت الآية هنا قد حصت بالذكر فئات معينة من المجتمع ، فذلك أولاً  
متناسق مع جو أسورة التى تعنى عناية خاصة بالفئات الضعيفة أو المستضعفة فى المجتمع  
بالإضافة إلى تنظيم العلاقات بين أولى القربى ، وهو ثانياً لا يعنى أن هذه العلاقة ذاتها  
مطلوبة عن مستوى المجتمع الإسلامى كله ، فإن الله لا ينهى فى سورة الحجرات [ ١٠ ]  
«إنى المؤمنون إخوة» فبين لنا نوع العلاقة التى يسعى أن تشمل كل المؤمنين بلا إله إلا الله .  
وأخيراً يلفت نظرها التعقيب الأخير فى الآية : «إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً» .

إنه تعقيب يحىء متوسطاً بطريقة فيه لافته للنظر - بين معيين . يربط كل منهما من  
نحية بهذا لتعقيب ، يتصل بالمعنيين معاً فى ذات الوقت ، ويعطى كلاً منهما اتجاهه  
«وإلى السبيل وما منك أبى لكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً»

«إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً» الذين يمتثلون ويأمرون الناس بالبحل ويكتمون  
ما آتاهم الله من فضله وأعدنا للكافرين عذاباً مهيباً» .

فأما السباق الأول فهو يوصى بالإحسان إلى ابن السبيل وما منك أبى انكم ، مع من سبق  
ذكرهم فى الآية . وإذا كان وجود هؤلاء عرضة لإثارة الكبر والخيلاء فى نفوس بعض الناس ،  
فبعض الشخص ذو المال أو الحاح بالاستعلاء على ابن السبيل ، وبخاصة مالك الرقيق بالخيلاء  
بحو رفيقه فيسئ إليه ، فإن التوجيه القرآنى يأبى بالسفير من هذا الخلق الذمى والنهى  
الصمنى عنه ، ذلك أنه ما دام لله سبحانه وتعالى لا يحب من كان مختالاً فخوراً فإن المؤمن

الذى يعد الله ولا يشرك به شيئاً لاند أن يتعد عن انوضع الذى لا يرمى اليه عه ، فيستعد  
عن الخبلاء والفحور ، ويحسن إلى الناس بغير حيلة .

وأم السياق لثى فهو يتحدث عن فتى من البشر مختلفين تماماً - هما اليهود  
والمشركون - ولكنه يمتنع الحديث عنهم بأن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ( التى رُبطت  
من قبل بالإحسان إلى ابن لصيل وما ملكت أيانكم ) ثم يستمر فيصف هاتين الفئتين  
المختاليتين الفخورتين بما تفهم من أن المقصود به هم اليهود والمشركون

« الذين يحلون ويأمرون الناس بالبحر ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعتدوا  
للكافرين عذاباً مهيباً » وهؤلاء هم اليهود .

« والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ومن يكن  
الشیطان له قرناً فساء قرباناً » وهؤلاء هم مشركون من قريش خاصة

وكلاهما يشترك في صفة واحدة أنهم مختالون فحورون . هؤلاء مكنائهم وبأنهم - وب  
يرعمون - شعب الله لمحتار ، وهؤلاء بأموالهم التى بحالون بها على الناس ، وينفقون منها -  
حين ينفقون - رياء الناس .

وهكذا يعمل النص « إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » على « جيهتين » مختلفتين  
في وقت واحد إن جاز لك التعبير ، مرة يفر من الاستعلاء على المستضعفين في المجتمع  
لإسلامي ، ومرة ينمر من اليهود والمشركين

ومرة أخرى تدنو لنا النقلة مع حجة . ولكنا نعود إلى السياق لرى الارتباط

لند بدأ السياق بذهوة المؤمنين في عبادة الله وحده دون شريك - « واعبدوا الله ولا  
تشرکوا به شيئاً » ووجههم بعد ذلك إلى العمل بمقتضيات لا إله إلا الله ومن بينها الإحسان  
إلى العباد المذكورة في السياق . حتى إذا جاء إلى ابن السيل ولزنيق نمر من الاستعلاء  
عليهم ، لأنه مخالف لمقتضى لا إله إلا الله الذى يؤمن بها المؤمنون ومن ثم تنقل إلى فتى  
من بشر لا تؤمن بالله إلا الله ومن ثم لا يعملان بمقتضاها ، وهما اليهود والمشركون  
وهكذا يكون السياق كله مسمرًا في الحقيقة ، ومنطلقًا من عبارته الأولى أو قضيته الرئيسية  
« واعبدوا الله ولا تشرکوا به شيئاً »

ولكى تتأكد من اتصال السياق ، وانطلاقة من قضيته الرئيسية ثلاث ، فاقرا الآيات  
التالية

« وماذا عليهم لو سوا بالله واليوم الآخر وأبقوا عما رزقهم الله ؟ وكان الله هم عليا إن

الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لده أكثرًا عطيًّا فكيف يد  
جنا من كل أمة شهيد وحشا لك على هؤلاء شهداء ؟ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا أمرسون  
لو تسوى بهم الأرض ؟ ولا يكنمون الله حديثًا .

وهكذا يكون المطلق كله هو قصبة لا إله إلا الله ، يوحه المؤمنون بالإيمان به والعمل  
بمقتضاها ، ويتداندون لا يؤمنون بها ولا يعملون بمقتضاها من أي فريق كان  
ومن هنا يبدأ انسياق يتحدث عن أعداء لا إله إلا الله من يهود وبصاري ومشركيين  
ومفصين ، ويستغرق ذلك جزءًا كبيرًا من السورة كي سيحىء

\* \* \*

آية واحدة تتعلق بشميرة الصلاة والغسل والتيمم ، ثم يتوجه السياق فترة عبر قصيرة إلى  
اليهود

« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكرى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبًا إلى  
عابري سبيل حتىغتسلوا ، وبكسمل مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من المائط أو  
لأنتم لستاء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدًا طيبًا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ، إن الله  
كان عفراء غفورًا »

كانت هذه مرحلة في طريق التحريم النهائي للحمر ، التي كانت م برال علفة بقلوب  
بعض المؤمنين ومنهم عمر رضي الله عنه ، وقد علم الله أن أمورًا كهذه يحتاج إلى مدرج  
طويل حتى تحي من النفوس ومن واقع المجتمع ، ولحظ في طريقة الإسلام في معالجة  
النفس الشرية وتقويمها أن هناك موردًا بطب لتحول فيها في البو بلا إمهال وأمورًا أخرى  
ستغرق سنوات من التحول حتى يصل إلى عيبتها ، وذلك حسب طبيعة هذه الأشياء في  
النفس والطريقة التي يتم بها التحول . مسألة الإيمان بالله الواحد دون شريك من الأمور  
التي لا إمهال فيها ولا ندرج ، لا لأنها ماعده كل شيء محسب ، ولكن كذلك لأن التحول  
فيها يتم في لحظة والتلرج فيها غير ممكن ؛ إما حق أو صلال رؤية أو عماية أنص أو  
أسود . ولعد يستغرق التفكير في الأمر فترة من الزمن تطو أو بقصر . وقد تمتد سنوات كم  
حدث مع عمرو بن العاص . ولكن الهداه تحدث في لحظة واحدة حاسمه يتبين فيها الحق  
فيسهي الصلال لحظة تمشع فيها انعميه قسم الرؤية . لحظة يرى فيها الإنسان الأبيض  
فيتحول عن الأسود .

لذلك لا يتدرج القرآن مع الناس في قضية الألوهية ! ولا يقبل منهم أنصاف الحلول ،

لأنه لا توجد في القصة أوصاف حول ! « فلا تطع المكثبين » ودوا لو تدهش  
 بدهشهم !<sup>١</sup> إنهم في مدهشتهم ما رلوا في منطقة الحماية لا في منطقة الرؤية ، ولو تم الرؤية  
 لعادوا يدهشون !

أما الخمر وأمورها مختلف - إنها عادة نفسية وجسدية وفردية واجتماعية ، ولها اتصال  
 وثيق بالكبد العصبي للإنسان - وليس معنى هذا أن الإقلاع الفوري عنها غير ممكن بل  
 هو ممكن بعد شئ ولكن قلة من بشر من يقدر عليه والعالية تحتاج إلى التدرج حتى  
 تستطيع أن تصل إلى التدرج في المقدر ، والتدرج في لرمس المحصص لشرب ، والتدرج  
 في اعدادات الفردية والاجتماعية وقد اقتضت حكمة الرئاسة أن يتم لتحول على عدة  
 مراحل ، استغرقت في مجموعها عدة سنوات وكانت المرحلة التي نشر إليها الآية هنا هي  
 التدرج في ارمس شحريمها في أوقات لصلاة ، وذلك يصبق الفترة المناحة ، لأن المقصود  
 ليس لشرب دته وإنما أثره ومفعوله وهو السك « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم  
 سكارى حتى تعلموا ما تقولون » وهذا الوعي في الصلاة لا يتأتى إذا كان الشرب قد سم مد  
 قريب فلا يستطيع الإنسان أن يشرب في الصباح ويكون صاحباً واعياً في صلاة الظهر ، أو  
 يشرب في الظهر ويصل العصر على وعى ، أو يشرب في العصر ويؤدي صلاة المغرب أو  
 العشاء كما ينبغي لذلك فقد حصرت الآية فترة الشرب في حقيقة هي بعد صلاة العشاء إلى  
 النوم . . . وثلاث كانت مرحلة على الطريق .

ثم تحيء في لاية أحكام خاصة بالحياة والعس ورحضة المرض والسفر وحالة عدم وجود  
 الماء والقيم ، لا تعرض لها هنا لأن هذا ليس مجالاً كما أسلفنا

إن شير شدة - مكررة - إلى هذا الانتقال من الحديث عن اليهود والمشركين إلى الحديث  
 عن هذه الشعائر ، ثم العودة بعدها إلى حديث مقصص عن انيهود إنه أمر مأثوف في  
 القرآن على القاعدة التي أشرت إليها من قبل

\* \* \*

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من لكتاب يشترون الصلاة ويريدون أن تصوا السيل  
 والله أعلم بأعدائكم ، وكفى بالله بصيراً . من الذين هدوا . »  
 يتحدث السياق في آيات متواليات عن اليهود ، معرّفًا بأحوالهم وطباعهم حياً ، مهدداً لهم  
 حياً ، كاشفاً عن دخائل أنفسهم ودوافعهم الخبيثة الشريرة لحرب المسلمين والتأليب عليهم

والسور بمدية، تطول به لا يخلو من حديث عن أعداء لا إله إلا الله المحاربين للمسلمين  
اساوتين بدعوة الله عنانهم الأربع اليهود والنصارى وعشركين ولما فقي جاء الحديث  
عنهم ل سورة البقرة وسورة ل عمران ويحيى هـ في سورة النساء ويحيى كذلك في سورة  
المائدة ، على اختلاف في اسبب لمحصنة لكن منهم ويوع الحديث بلوحه إليهم  
وموصوعه . ولكنهم دأباً هناك

وحيث قرأ هذه السور على أنها تسجيل لأحداث معينة في تاريخ الدعوة فقد يجيل إلى أنه  
حديث مدعى ، المحدث تلك الأحداث . . ولكن حقيقته ليست كذلك  
إن هذا يؤكد لشديد في القراء على أعداء لا إله إلا لله وكذلك للإسلام . واليهود  
منهم خاصة . بس شيئاً من شئون الماضي ، في الوقت الذي كانت تقع فيه أحداث معينة في  
تاريخ الدعوة ينسب شباب القراء ، إلى هو حديث الخاصر واستقص ، وحديث الرمن كله  
إلى أن تقوم الساعة :

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطعوا . . » (١)

« ولن ترصي عنك اليهود ولا النصارى حتى تسع منتهن » (٢)

لذلك يسعى أن يأخذ هذا الحديث عن تلك العتات الأربع على أنه حديث الساعة .  
نوجه إليه شخصياً في اللحظة التي يعيش فيها الآن .  
ولا يسع المجال هنا لاستعراض الآيات تفصيلاً ولك نضع عند إشارته انقراء إلى حسد  
ليهود وحقدهم

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ »

ولذلك بعد قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ١٢ » .

ب مشكلة اليهود . ومشكلة البشرية الدائمة معهم . أنهم يحسدون أنهم أفضل أهل الأرض  
في جميع مجالات وعن جميع المستويات ! ومن ثم يرون أنهم . وحدهم . هم الحاديرون بكر  
خير في الأرض ، وأن كل حبر ياله أحد غيرهم هو متبرع منهم شخصياً ولابد من حرمانه  
منه ! ومن ثم لا يستطيعون أن يعيشوا مع البشرية في سلام !

ولكن حقدهم ، لأكثر . كما يقرر القرآن . هو نوجه ضد المسلمين والإسلام . ومن ثم فإن  
صرعهم مع الإسلام لا يرون حتى تقوم الساعة وينتهي الصراع في الأرض وهذا لدى  
سهب القراء إليه بالحديث لفصل عنهم في أكثر من سورة من سور الكتاب

\*\*\*



استعصم الأخير على الآيات الواردة بشأن اليهود تعقيب لا ثلث النفس أن تعر من تأثيره  
« إن الذين كفروا بآيات سوف يصليهم نارًا كما نضجت جلودهم بدناهم جلودًا غيرها  
بيدوقوا العذاب . إن الله كان عزيزًا حكيمًا » .

إذ نص عامر يشعل كل من يكفر بآيات الله ، وإن كان قد جاء بمسامحة ذكر من كفر  
بما أنزل الله على آل إبراهيم

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ فقد أتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة  
وتبناهم ملكًا عظيمًا . فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه ، وكفى بجهنم سعيرًا . إن  
الذين كفروا بآياتنا سوف يصليهم نارًا . . . » .

والنص يثير الرهبة والفرع في كل نفس ثلث الخس .

إن أقسى ما يصيب الإنسان في الأرض من الألم هو ألم الحرق بالنار . وبكنه في الأرض -  
على كل ما فيه من ألم يفوق الطاقة - هي هيت بالنسبة لذلك ، لعذاب الذي تصفه الآية في  
الآخرة

فكم يقضى الإنسان في الأرض شاعرًا بعذاب الحريق ؟

لحظة ؟

هنا لحظات تمتد إلى أيام . . ثم لاند أن يشفى أو يموت

وهو جلد واحد ، وأعصاب واحدة في هذا الجلد . فإن احترق فقد انتهت المسألة وانتهى  
العذاب

فما بال هذا العذاب الذي لا ينتهي ولا يعب عند حد ؟

ما باله لا ينتهي حتى حين محترق يحد كله بما فيه من أعصاب الخس التي تهل  
الإحساس بالعذاب ؟

كلا ! إن صاحبه لا يجد الراحة قط ، لأنه لا يشفى ولا يموت . وإن محترق جلده . لكن  
ما في ذلك من عذاب يفوق القدرة - فإذا به في ذات اللحظة جلد جديد بأعصاب جديدة  
تنقل الإحساس بالعذاب !

« بدلناهم جنودًا غيرها ليدوقوا العذاب » .

ويظل الخيال يتصور الاحتراق الدائم الذي لا يتوقف ، وأعداب الدائم الذي لا  
يكف . وأن كان في الحقيقة لا يستطيع أن يمتص في تصوره ، لا لخطاب . هم مجرد التصور  
شيء فوق الطاقة . فكيف بالعذاب !

وفي المقابل تمامًا تأتي تلك الصورة الرخية الهية الدورية

« ولدين دعوا وعملوا لصالحات سدحتهم حبات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها  
هذا ، لهم فيها أزواج مطهرة ويزوجهم ظلًا ظليلًا »

فمن ذا الذي يترك هذا العلى الوارف ويذهب إلى الحريق ؟

\* \* \*

من هذا حديث عن اليهود وكيدهم للمؤمنين ، يوحى الحديث إلى المؤمنين يومهم لهم  
دسور حياتهم على المهج الرابى ، ثم يعود إلى اليهود مرة أخرى بشأن صفه أخرى من  
صفاتهم أو ثوب آخر مما يلبسونه من ثاب ، هو ثوب المنافقين ، بقرر فى النهاية حقه  
الإيمان

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا  
بالعدل ، ان الله يعا يعظكم به ان لله كان صمبًا نصيرًا يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله  
وأطيعوا لرسول وأولى لأمر منكم فان تدرعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم  
تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا

« ألم نر إلى الذين يرفعون أنهم منا فى أنزل إليك وما أنزل من قبلهم أن يتحاكموا  
إلى العاصوب وقد أمرنا أن يكمروا به ، يريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً وإذا  
هم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً فكيف إذا  
أصابتهم مصيبة من قدمت أنبيهم ثم جاءوك يحضون بالله ان أردنا إلا إحساناً وبريقاً  
أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ، فأعرض عنهم ، وعظهم ، وقولهم فى أنفسهم قولا  
سيئاً وما أرسلنا من رسول إلا بيطاع بإذن الله ولو أنهم إذ طلبوا أنفسهم جاءوك  
فاستمعوا لله ومنعم لهم الرسول وجدوا لله توات رحيماً فلا يريد لا يؤمنون حتى  
يحكموك فى شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً من قضيت ويسلموا تسلياً »  
« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . »

نص شامل يشمل على معاني كثيرة ويحتج ما إلى التمام ،

إنه أولاً توجيه عقيدى فإن أولى الأمانات التى يسعى أن يؤدى إلى أهلها هى الأمانة  
الكرى نحو الله الإيمان به وحده دون شريك ، ثم إفراده بالحاكمية ، الذى ستتحدث  
عنه بقية الآيات .

وهو - من هذه الراوية - يلفتنا إلى أمر معين فى سياق السورة التى جاءت لتنظم علاقات

المجتمع الإسلامى وتقرر حداثته من أنواع المعاملات فيه  
بنيات السورة بالأمر بتقوى الله

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث فيها  
روحاً كثيراً وساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام إن الله كان عليكم رقيباً » ،  
وحاءت على أثر ذلك مجموعة من التوجيهات ، أعقبها هذا النص  
« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً . . . »

ومضى لىبى شوطاً مع علاقات أعم : لا إله إلا الله بالإسلام والمسلمين ، حاء بعده  
هذا النص

« إن الله يأمركم أن تؤدوا لأمانات إلى أهلها »

وستجىء بعد ذلك مجموعة من التوجيهات والتنظييات والأحكام والتشريعات يعقبها  
هذا النص

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء له ولو على أنفسكم أو ولديين  
والأقربين إن يكن غيباً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تسعون لحوي أن تعدلوا ، وإن تلووا أو  
عرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ، يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله . . . »  
إنها « محطات تعزية » على الطريق

فكلها مضى السياق شوطاً مع التوجيهات المنظمة لعلاقات المجتمع الإسلامى حاءت  
شحنته جديدة من التوجيه العميدى تؤدى أكثر من مهمة في الوقت الواحد :  
تربط لقلب البشرى بالله وتذكره به ، وحدث هو الرباط الذى تستقيم به حياة في  
الأرض ، وتستقيم به حياة ذلك القلب ، فسطع ويظهر ويصلح ، ويتوارن مع ثلة الأرض  
وجذب الشهوات

ومن جانب آخر تربط تلك التوجيهات داتها بالعقبة فلا تصح محرد أوامر تؤدى ،  
ولا تنظيمات تفهم وإيها تصح عباده يتقرب بها الإنسان إلى الله ، ويبتغى من تأديتها  
رضاء فلا يصح الخافر إلى أدائها مصلحته قريبة إن توقف بوقف هو عن الأد ، ولا  
حوقاً من سطوة الدولة أو مطاردة القانون بالعقاب إيها يصح خافز أعمق من ذلك  
وأوثق يصح ثواب الآخرة ومرصاة الله ومن ثم يصبر على التكليف ولا يصيق بها ، ولا  
يتحايى على لقام بها في أصبق نطاق ممكن ، بل يحاول أن يؤدبها على مستوى الإحسان لدى  
لا يقف عند الحد الأدنى ، وإيها ينطبع دائماً إلى المكار

وهكذا تؤدي تلك الإشارات الموزعة في ثابا السورة مهمتها تجديد شحنة انفعاده كلي  
مضى الإنسان شوطاً على الطريق ، فتعنه على حمل ما حمل من لتكليف من جهة ، وتنه  
من جهة أخرى براد جديد يتلقى به مريداً من التكليف .

\* \* \*

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . . . »

نص يشمل كل أمانة على الإطلاق

والأمانة التي تتعلق بها سائر الأمانات هي تلك المتعلقة بحق الله على العباد . أن يعبدوه  
وحده بلا شريك ، ويتحاكموا إلى شريعته وحده ويتخذوا منهج الله وحده منهج حياة  
فإذا تم ذلك فقد تم تلقائياً تأدية الأمانات كلها إلى أهلها ، ذلك أن منهج الله قد حدد  
بوصوح طبيعة تلك الأمانات وحدودها ، كي حدد كذلك « أهلها » الذين يؤدي إليهم  
فإذا ما راعى الإنسان الأمانة الكبرى وردها إلى أهلها - وهو الله سبحانه - فإنه سيسشعر  
تنوي الله ( وهو لتوجيه الذي بدأت به السورة كلها ) وسيرعى حقوق الآخرين عليه ، سواء  
كانوا من أولى القربى أو السامى ومسكين ومس السبيل الخ ، الذين أشارت إليهم الآية  
« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى . . . » أو كانت الروجة ،  
التي أشارت إليها الآية « وعشروهن بالمعروف . . . » أو كان لباس جميعاً الذين تشبههم  
ضمماً هذه الآية « يا أيها الذين آمنوا كونوا فوامين بالقسط شهداء لله » فهذه كلها  
أمانات ، وهؤلاء الذين يذكروهم الآيات هم أهلها الذين ينبغي أن يؤدي إليهم

ثم إن الأمانات كلها - وفي مقدمتها الأمانة الكبرى نحو الله ، وهي عبادته وحده دون  
شريك - لا يتم أدؤها إلا بالتحاكم إلى ما أنزل الله لأن الحاكم إلى ما أنزل الله هو  
التطبيق العملي للعبودية لله وحده من جهة ، وللعادل الرباني الذي يعطى كل ذي حق حقه  
من جهة أخرى

وهذا المعنى ستفصله الآيات التالية تفصيلاً وتؤكد عليه تأكيداً ولكننا نحدد في الآية التي  
نحن بصددنا إشارة دالة ، هي الأمر لموجه للمؤمنين أن يحكموا بين الناس بالعدل  
« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا  
بالعدل » .

فاحكم بين الناس بالعدل هو واحد من الأمانات الكبرى التي ينبغي أن تؤدي إلى أهلها -  
وهم هنا « الناس » جميعاً - يبررها السياق لأهميتها البالغة في حياة الأمة انسجامها بتطبيق

العدل الرباني على مستوى البشرية كافة لا في محيط ذاتها وحسب ، وبررها كدلت لأنها تثير الطريق كيميائية أداء هذه الأمة لأماناتها . فإن العدل لدى تأمر الآية بتطبيقه بين أساس ليس شيئاً آخر غير شريعة الله . والحكم بالعدل في حقيقته هو حكم بما أمر الله هذه الإشارة الدالة تمصدها وتؤكد لها الإيات التالية كما سرى . ولكنا - قبل الانتقال إلى تلك الآيات - نقف عند التعبير «لو رد بعد الإشارة السابقة لأنه يعبر لا يملك الإنسان أن يعمر به دون أن يتدبره ويتملاه »

« وإذ حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . إن لله نعماً يعظكم به »  
الأصل الدعوى لكلمة نعماً هو « نعم ما » إن الله نعم ما يعظكم به .

والذي يلمت النفر . من وجهة اللامعة - هو تركيب المسدأ ( اسم إن ) والخبر في الجملة والذي يرد على الدهن أن يقول التحير إن يعظكم به هو خير أو إن ما يعظكم به الله هو الخير أو « إن ما يعظكم به الله نعم هو أو نعماً هو ونكن التعبير القرآني لا يقول شيئاً من هذا الذي يرد على الدهن » إنها يقول : « إن الله نعماً يعظكم به » فيجعل لفظ الخلافة هو استدأ ( اسم إن ) ويجعل الجملة « نعماً يعظكم به » هي الخبر لفظ الخلافة وفي هذه ما فيه من التوكيد على لأهه السالعه لما يعظ به الله ( وهو بأدبه الأمانات إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل ) حتى يصبح خبراً مباشراً لفظ الخلافة والخبر في الأصل لئلا معنى هو ما شتم به فهم المعنى ويتضح به وصف المسدأ في الدهن ! ثم تأتي أولى الآيات المفصلة لما جاء في الآية السابقة :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً »  
إن هذا هو الطريق لتأدية الأمانات إلى أهلها وللحكم بين الناس بالعدل فإن شتم ذلك ابتداء بطاعة الله وطاعة رسوله وأولى الأمر من المسلمين ثم يرد الأمر لتنازع عليه بين الله والرسول

وفي الآية جملة إشارات تحتاج إلى وقفة عندها للبيان

الأولى أن طاعة الله وطاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - واجبة بالذات وفي كل ما أمر به الله ورسوله بينما طاعة أولى الأمر ليست واجبة بذاتها ، إنما هي ملحقة بطاعة الله ورسوله . يدل على ذلك أن الفعل « أطيعوا » ورد مع لفظ الخلافة ومع الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولم يرد مع أولى الأمر لم يقل لسياق أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأطيعوا أولى

الأمر منكم - وإلا لو حبت طاعتهم في كل ما يأمرؤن به بوصفهم سلطة تطع بداتها ولكن السياق يتر أن طاعة الله واجبه لداتها لأن الله سبحانه وتعالى هو صاحب السلطة التي يسمى أن تطع ( أي صاحب الحكمة كما سيرد في الآيات التالية ) وأن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم - وجبة لداتها لأنه المنبع عن الله سبحانه وتعالى الذي لا ينطق عن هوى « وما ينطق عن هوى ، إن هو إلا وحي يوحى » <sup>(١)</sup> والذي أمر الله ( صاحب السلطة وصاحب الحكمة ) بطاعته طاعة مطعقة في كل ما يأمر به ، وذلك في أكثر من آية من هذه السورة ومن غيرها فقد جاء في هذه السورة [ آية ٦٤ ] « وما أرسلنا من رسول إلا نيطاع بإذن الله » وجاء فيها أيضًا [ آية ٨٠ ] « من يطع الرسول فقد أطاع الله » وجاء في سورة الحشر [ ٧ ] « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »

أما طاعة أوى الأمر فيها أنها - في سياق الآية - ملحقه بطاعة الله ورسوله فهي - عملاً - في حدود ما أمر به الله ورسوله « أي في حدود طاعتهم هم لما أمر به الله ورسوله ولكن الأمر ليس متروك للاستسباط العملي إنما هو منصوص عليه نص صريح في لفظ ثانياً من الآية « فإن تدارعتم في شئ فرددوه إلى الله والرسول » فهي - وحدها - المرجع الذي يرجع إليه في كل الأمور

والرفعة الثانية عند قوله تعالى - « وأوى الأمر منكم »

عأولو الأمر ليسوا هم أي من يقومون بحكم على المسلمين ، أو يصتوون أنفسهم ليكونوا حكماء ، هم - ضرورة - ينبغي أن يكونوا من المسلمين من الجماعة السمة من المؤمنين ، لأن الخطأ أصلاً هو للذين آمنوا ، ثم يقولون هم « وأوى الأمر منكم » حين يتولى أمر المسلمين بخبر والعصب قوم غير مؤمنين ، لا يحكمون بما أمر الله ، فإن الله لا يأمر بطاعتهم على الإطلاق من هو سبحانه يأمر بعدم طاعتهم ، حين يأمر برد الأمر المتنازع فيه إلى الله ورسوله ، أي إلى ما أمر الله

وفي هذه النقطة يجيء التفصيل والتوكيد في الآيات لتأليه ليحدد باللفظ من هم « المؤمنون » ومتى يكونون مؤمنين ، أي متى يكونون « منكم » وتكون طاعتهم واجبة ، لا على إطلاقها ، ولكن في حدود ما أمر الله <sup>(٢)</sup>

( ١ ) سورة النجم ٣ - ٤

( ٢ ) قد فيما ورد فيه نص من الله ورسوله أم لتروك بلا نص من الناس السمع والطاعة فيها يجتهد فيه وى لأمر أسسم ، متى يطبق شريعة الله شرط ألا يخالف نصاً ولا قاعدة عامة من قواعد الشريعة

ولكن الذي ينبغي توكيده هو أن الجهالة قد وصلت « بالمسلمين » في عصرهم الحاضر إلى أن يطيعوا المستعبد عليهم الدس لا يحكمون بما أنزل الله دعماً بأن الله هو الذي أمرهم بذلك !

« وإدفعوا وحشة قلوبا وحدنا عندها أبدا والله أمرنا به ! قل إن الله لا يأمر بالفسحشاء ! أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ »<sup>(١)</sup>

ومن أجل فعلهم ذلك فقد تحولوا إلى العشاء الذي تحدث عنه الرسول - صلى الله عليه وسلم « يوشك أن تدعى عليكم الأمم كما ندعى لأكلة إلى قصعتها قلوبا آمن قه نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قه : بل أسم كثير ، ولكنكم عشاء كعشاء السيل »  
ومن يعودوا إلى عرتهم ومكاسم في الأرض حتى يعموا حدود الرب الله ، ويعرفوا من يطيعون ومن لا يطيعون

والوجه الثالث عند قوله تعالى « فإن تارعتهم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم مؤمنون بالله واليوم الآخر »

وهو يعبر حاسم لا يرد كثيرا في القرآن بالسب للمؤمنين ، إنما أكثر وروده بالنسبة لمن يدعون الإتيان ولكنه حيثما ورد خطأ للمؤمنين كما هو في هذا النص - فهو يضمن معنيين في آ ن و حد - المعنى الأول أن الأمر الوارد في النص هو حقيقة الإتيان ، لا يتأني الإتيان ولا يتحتم إلا به - والمعنى الثاني هو التهديد الخفي للمؤمنين - إن حالوا هذا الأمر - بأنهم عندئذ يخرجون من دائرة الإتيان ولا يعودون مؤمنين !

\* \* \*

« ألم يرail الذين يرفعون أنهم أموا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاعوت وقد أمروا أن يكفروا به ؟ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا »

الحديث ه عن اليهود الذين ينظاهرون بالإسلام لعابه في يومهم ، وهم لم يؤموا في حقيقة الأمر - فهم هنا يعرضون بصفة أصيلة من صفاتهم وهي النفاق ولا يشر السياق نصاً على أنهم اليهود ، ولكن يفهم ذلك من السياق ، ومن الإشارة إلى أنهم يرفعون أنهم يؤموا بما أنزل إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وما أنزل من قبله

والروايات تقول إن هذه الآيات نزلت في يهودى ادعى للإسلام ثم سأل الرسول - صلى الله عليه وسلم - في أمر من الأمور فأفتاه برسول - صلى الله عليه وسلم - فلم يعجبه حكمه ، ومضى يسأل عن حكم آخر يكون أقرب إلى هواه ؟

وانص على أى حد عام ، يشمل هذا اليهودى وكن حله مثله ، يدعى فيها الإسلام شخصاً ما ثم يعرض عن حكم الله ورسوله ويبحث عن حكم آخر بحجة من الخرج التى يتبناها الرأى عن حكم الله

والآية تسجل عليهم أربعة أشياء : أنهم يدعون الإيمان بما أنزل الله ، وأهم مع ذلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطغوت ( والطغوت هو كل شيء أو سلطة أو حكم أو عرف تكون له الحاكمية من دون الله ) وأهم أمر أن يكفروا بالطغوت ، وأن الشيطان يريد أن يصلهم ضلالاً بعيداً

و٣٠ تكون الآية قد حددت وضعهم أو وضعهم . تحديد دقيقاً يشرح للحكم الأخير لدى مصدر عليهم بأنهم ليسوا مؤمنين ، وأهم لا يؤمنون حتى يتحاكموا إلى شريعة الله والآية تقرر أنهم يرغمون الإيمان ، ولكنها فى هذا الموضع لا تجل إلى علم الله بما فى قلوبهم ، وإنما تجل إلى عمل ظاهرى هو إرادتهم أن يتحاكموا إلى الطغوت . ومن ثم تقرر مبدأ عيدين واضحا لا يس فيه هو أن كل من يرفع فى حكم الطغوت - وهو كل حكم غير حكم الله - فهو ليس مؤمناً ولو رغم ذلك . وحقيقته أن « الردة » التى تتحدث عنها الآية هنا شأن ذلك اليهودى كنت بعين ظهر هو بحثه عن حكم آخر غير حكم الله ولكن هذا أمر يدخل فى اختصاص الدولة المسلمة أى التى تحكم بما أنزل الله - حين توجد - لحكم عليه بالردة وتقيم عليه حد الردة . ولكن الذى يدخل فى اختصاص ندعاة اليوم - حتى تقوم الدولة المسلمة التى تحكم بما أنزل الله - أن يبيسوا لماس هذه الحقيقة أن التحول من الحكم بما أنزل الله إلى حكم الطغوت يخرج الناس من الإيمان ولو رغموا أنهم مؤمنون وأن من رضى بحكم الطغوت - وهو كل حكم غير حكم الله - فقد خرج من دائرة الإيمان وحين يصل إلى الآية الفاصلة [ ٦٥ ] سيكون هذا الأمر قد نقرر حاسماً كحد السيف وبكنا يقول هنا إن الآية الأولى من السياق قد مهدت تمهيداً وصحاً هذا الحكم ، بل لم تكن قد قررتة بالفعل .

« وقد أمروا أن يكفروا به » .

هناك أمر صريح من الله للناس أن يكفروا بالطغوت

« ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واحسنوا الطغوت »<sup>(١)</sup>

فكيف يصعب الناس بهذا الأمر ؟ وأتى هم أن يفتنوا به ويتنسوا لذلك التعديرات ؟



« وإذ قيل لهم معالو إلى ما أرسل الله رسل الرسل رأيت المذنبين يصدون عنك صدوداً فكيف إذ أصابتهم مصيبة يا قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردوا إلا إحساناً وتوفيقاً ؟ »

ذلك شأن المذنبين وتلك علامتهم في السلم والأمن يظهران الصدور والإعراض إذا أصابهم السوء نتيجة تصرفهم عندهم يمسبون المعتدلين ويدعون أنهم رب أردو الإحسان والتوفيق !

« أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم »

ولا يعنى النص بطبيعة الحال أن أولئك فقط هم الذين يعلم الله ما في قلوبهم فإن الله يعلم ما في قلوب الناس جميعاً ولكن التعبير يؤدى معنى بلاغياً آخر مؤداه أن أولئك - مهما حاولوا الاستحفاء بحقيقته عن الناس ، ومهما نظهروا بالإيمان - فإن الله يعلم دخيلة أنفسهم فلا يستطيعون أن يخدعوه

« فأعرض عنهم ، وعظهم ، وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً » .

ولم يكن الأمر بفتايتهم قد برن بعد ، فبوخه لرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الإعراض عنهم وعظهم ليرجعوا عن عيهم ويستقيموا على أمر الله ولكن التعبير في قوله تعالى « وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً » يحمل نغمة حادة تشبه النذير « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله »

إن لرسول لا يرسلون من عند الله ليكونوا وعظاً كخطباء المساجد ! وبذلك صورهم في حسن الخاهية المعاصرة ! إنه يرسل الرسول ليطاع ، فأمره أمر ، وليس مجرد نصيحة بأحد ما من يأخذ وينزكها من يترك ثم يمضى نحيباً من عقاب الله !

واحدثت هـ ليس عن « سلطة » النبي أو الرسول ، إنما عن العدية من إرساله فكثير من الأنبياء لم يكونوا حكاماً ذوي سلطة كي كان النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ولكن هـ لا يعبر شيئاً في موقفهم كدهم أرسلوا ليطاعوا أي أرسلوا بأوامر من عند الله وحيه الطاعة ، سوء أطلعها الناس بالفعل أم لم يطيعوها ، وسوء كان النبي يرسل ذا دولة ود سلطة يعاقبها لخارجين على أوامر الله أم ترك عقابهم لله في الآخرة المهم في جميع الأحوال أن كلام لرسول ، الذي يندعونه من عند الله ، ليس مجرد نصائح لترجيح القراع ! أو « لتهديت النفوس » بالعنى الذي يستخدم في كتابات الخليلين ! وإنما تهدد النفوس بالطاعة لمعينة لأوامر الله لا باتناع أهوى والشهوات !

« ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول بوجوه الله تواتر  
رحيماً »

فإن الله جن وعلا لا يعنى بأنه دون أحد من المستغفرين مهما كانت جريمته ، مادام يتوب  
عنه ويطلب العفو

ولكن هؤلاء لا يصنعون !

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموا بما شئنا بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما  
فصيت ويسلموا تسلياً »

ذلك هي الآية الحاسمة كحكم الشفيع التي تقر خلاصة الموقف كله بالنسبة لأولئك  
بدين يرضون بالإيمان .

إن المبحث الحقيقي للإيمان كمن في تحكيم شريعة الله ، وانرضى بحكم الله ورسوله

والإسلام إيمان

إنه من مجرد النطق بشهادته ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وليس لييام بعض  
شعائر التعبد كذلك إنما هو بالإضافة إلى ذلك التحاكم إلى شريعة الله

فإن النطق بالشهادة وحده غير الحاكم إلى شريعة الله ، فإنه يقول فيه

« ويقولون آمنا بالله وبالرسل وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك

بالمؤمنين وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، فإن فريق منهم معرضون وإن يكن لهم

الحق بأنوا إليه مدعى . أفي قلوبهم مرض أم أذنبوا ؟ أم يحقد الله عليهم

ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم

بينهم أن يقولوا سمع وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون » (١)

فليس بياناً حاسماً أن انطق بالشهادة - حتى مع دعوى الطاعة - لا يعطى الإنسان صفه

الإيمان إلا إذا تحاكم إلى شريعة الله ، وأن التحاكم إلى ما أنزل الله هو المبحث الحقيقي

للإيمان

وأم انقياد بعض شعائر التعبد فله يقول فيه ، في سورة النساء ذاتها [ ١٤٢ ] « إن

النافعين يجادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسفاً يراءون الناس ولا

يذكرون الله إلا قليلاً » .

وحقيقته إن اثنين - في الأرض - يعاملون معاملته المسلمين ويترك أمرهم إلى الله ولكن

(١) سورة انور ٤٧ - ٥١

ذلك بشرط واحد هو أن يقيموا استحاكم إلى شريعة الله ، ولا يعرضوا عن حكم الله ، ولا يرجعوا إلى حكم غير حكم الله ، وإلا فهم يعامدون معامنه الكفر انصرحاء ، كما عامل سيدنا عمر رضى الله عنه ذلك اليهودى الذى حكم له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في دعواه ، فرح يسأل عن حكم آخر غير حكم الله !

إن الآية كما هل صريحه وحاسم كحد لسف ، وإخراج لفقهاء ومفسرين عن أيهاية محكمة لا تحتسب أساويل وقررها الذى لا يقل الخذل . أن الناس لا يؤمنون حتى يحكموا شريعة الله ذلك هو حد الأدنى الذى يعطيهم صفة لإسلام أما الإيهان محصى فلا ينسب بمجرد الإدعاء بحكم الله ، إنما هو كما تقره الآية ببيان واضح . . . ثم لا يجندوا في أممهم حرجا على قصيت ويسموا تسليما .

ذلك ييهان القلب الذى لا يعلم حقيقته إلا الله مطلع على حكاما العلوب أما العلامة لظاهرة لمى يمسح بها الناس في عالم الظاهر سمة الإسلام وسمه فهي الإدعاء بحكم الله

\* \* \*

يستغل مع استيفاء إلى حوة أخرى بعد تصع ذات مصت تعمسا على أحوال أهل الكتاب الذين يزعمون الإيهان ثم يعرضون عن التحاكم إلى شريعة الله ، وعن الصورة المقارنة ، صورة الطاعة لله والرسول :

« ومن يطع الله ورسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا » ذلك الفضل من الله وكفى بالله علما . يستغل السياق بعد ذلك إلى توحه المؤمنين للفتن ، وبيان مواقف مختلفة بطوائف مختلفة في المجتمع الإسلامى بشأن القتال ، وشأن قضاء الله وقدره ، وشأن طاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وشأن تلقى الأذى وإداعتها . طوائف شمل المؤمنين لصادق الإيهان والمؤمنين الصعاف الإيهان والمنافين . .

والمحوظ في الآيات بضعة عامة أنها تتعلق « سجيد » الجماعة سسمه للقتال ، أو ما سسمه بلعتا لمعاصره عمليه النعته العامة ، وهي نعثة روحية وعقيدية كما هي تنظيمية وحرية

« أيها الذين آمنوا حدوا أنفسكم فانمرؤ شئت أو امروا حياء »

وهذا توجيه تنظيمى يتعلق بطبيعة المعركة يومئذ ، ويقصى بأن يفان المسلمون في جماعات صغيرة أو في صلب متجمع ولا يفتلوا فرادى حتى لا يتصيدهم الذين كفروا ، وأن

بأحدو حذرهم من الأعداء - وهو توجيه لازم لتلك المعركة ولكن معركة فهي تعدت وسائل القتال - وهو مصدر بالنداء « يا أيها الذين آمنوا » وفي هذا لتصدير تذكير للجماعة المؤمنة بـ يحترها - وهو الإيحاء - وتذكيرها بمهمتها ورسالتها ، وهي التحرك - في جميع المجالات - بمقتضى ذلك الإيحاء

وحيث يكون هناك توجيه تشريعى أو أخلاقى مصدراً بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » فقد لا يلتفت كثيرًا لدلالة النداء ، لأن « الإيحاء » يرتبط في أدبنا ارتباطاً « مطلقياً » مع توجيهات الأخلاق وتشريعات الأحكام التي لا يلتزم تنفيذها إلا المؤمنون - ولكن حين نجد ذلك النداء يتصدر كذلك التوجيهات لاجتماعه والتنشيطات السياسية والحربية ، فيسمى أن يلتفت إلى تلك الدلالة ، وهي التذكير « دائماً » للمؤمنين بوضعهم المتميز « برسالة » التي يقومون بأدائها في كل اتجاه ، وفي كل حرية من حريات الحياة - فهم جماعة - وهم أمة - مسمية في سلوكها كله ، وفي طريقة تفكيرها وطريقة شعورها وطريقة تعاملها عن كل أمة الأرض ، بوصفها لأمة المزمعة لتبصرها الله سبحانه بهذا الوصف الذي يحدد وضعها ويحدد مهمتها كذلك .

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١)  
« وإن منكم من يبغض » فإن أبايكم مصيبة قال قد أعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً - وفي أبايكم فصل من الله ليقول : كأن لم تكن بينكم وبينه مودة - يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً »

وصف دقيق لحالة نفسية تتبع فيها حركات ونصرفات

« وإن منكم لمن لئطئ »

والتعبير من الوهلة للالاعة دقيق التصوير لعمدية الإبطاء - فهو قال - حتى مع السكينة - وإن منكم لمن يبطئ ، لتغيرت الصورة وتغير وقعها في الحس إلى حد كبير ، لأن التعبير يصبح « أسرع » كثيراً من وضعه في النص ، ومن ثم لا يكون هناك الدرجة من البقاء في تصوير حالة الإبطاء - ولكنه بصيغته في النص يعطى بصورة كاملة باللحظ والمشي حتمًا - هناك حين نقرأ النص لا نقدر أن نسرّع في مطلقه ، لأن الحركات المتتابعة تسترقفك وتحدد من سرعتها - وذلك من الإعجاز - وبذلك لتكاد - عن عمدة التعبير - أن نهتم في حبالك صورة ذلك للشخص الخائف المتردد لدى يتأقفل في حطوه ويتأقفل حتى يتوقف ! وتتبدل المسافة

(١) سورة آل عمران ١١٠

فيه وبين الصبب كلها باطاً ، حتى ينصرف لقائلون ويقى هو وحده قائماً ، فتفسر الصعداء ، ثم ينصرف فرباً شخصه من البرطة ! فردا جاءت الانباء بوقوع القتل في صفوف المسلمين حمد لنفسه ما فعل وروح به ، وصاح في نفسه « قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً ! » أما إن عاد المسلمون مظمرين يحملون العيمة والنصر ، فعدت يتحصر على أن فرصة مئة عائمة قد دنته ، وصاح عليه نصيبه منها ! فقد كان يملك أن يذهب مع من ذهب ثم يعود دون أن يصبه لأدى ، ويصبح في صف المقاتلين المجاهدين ، ويهود بالعيمة كذلك !

إنه في كتب حسيب لا يذكر ولا نفسه ولا يرفع مكره عن دمه ، لا لأبيه لذي  
يشعله عن ذته إلى ما هو أعظم وأرفع ، لم يتمم في داخله بعد  
ولكنها تلمع في النص - إلى جانب التعبير «مصور الدقيو» - بوحية تربويًا معيًّا إن  
النص في صورته هذه لا تحدد اشخاصًا بعينهم ، بل يصف حالة قائمة في انصف  
الخطاب يرثه الجميع ، أهوية وصنعاء "وب منكم" دون أن تدرك بالأصح إلى  
شخص معين ومكان له أنت تفعل كذا ! وهذه الطريقة مدح محار مصوخا من تتطرق عنه  
عده انصفة أو يرجح عنها ويعتد موقفه ويستعمل على لسوك المطبوب ، مادام لم يشهر به  
بما يجرح موافقه ! وهي الطريقة التي كان يستخدمها الرسول - صلى الله عليه وسلم - في خطابه  
مجموع الناس ، فلا يقول إن فلانًا صنع كذا ، إنما يقول ما نال أقوام يفعلون كذا  
فيعلم المقصود بالحديث أن الحديث موجه إليه دون أن يعرف بقية الناس بالضرورة أنه هو  
بالذات ، فيسر به ذلك طريق العودة إلى السوك القويم وهو توجه لازم لنا في تربية  
الصغار والكبار على السواء !

« فَمَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَدَيْنَ يَشْرِبُ الْحَيَاءُ الدِّبَ الْمَلْحَمَةَ وَمَنْ يَفَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا »

إنه لتوجيه سلوك المطلوب ، بعد الإشارة السابقة من يُنطِثون ليحملوا عن اقتتال وهو نوجه يلحس لعقدة الحقيقة في الموقف فلماذا يبطئ من يبطئ ؟ اسبب الخمي في الحقيقة هو حرص على متاع الحياة الدنيا أو على شيء معين من ذلك المتاع فهو يصف الذين يقتلون في سبيل الله بأنهم لذين « يشرون حياة الدنيا بالآخرة » أى يبيعون متاع الحياة الدنيا ليشتروا به المعيم الحقيقي الخالد في الآخرة

وحين يعود إلى التوجيه التربوي نجد لصورة على هذا الوصف الخطاب يوجه إلى

جميع كما قنا ، بما فيهم الصعفاء والأقرباء ، ثم يصف أفعال الصعفاء دون أن يشير إليهم بأعيانهم ليتيح لهم فرصة العودة ، ثم بعد ذلك يهملهم ! يهملهم لشعروا بالإنهم .. فيما بينهم وبين أنفسهم - ويتوجه بالخطاب إلى الفئة القوية المستقيمة ، أو بالأحرى إلى الصفة المطلوبة التي ينبغي أن يتصف بها الصنف المسلم كله ، وهي بيع الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن ثم لإضمار على لقتل في سبيل الله . وهو توجيه مقصود به أرثك لدين أهتموا أنفساً ، ليحسبوا من موقفهم إلى الموقف المرعوب ! ولكهم لا يُذكرون بأعيانهم ! إنما يوجه الخطاب إليهم صمماً ليسمع منهم من يريد أن يستمع فيستقيم ! إنه تنديد بالموقف الأول دون تجريح لأشخاص بأعيانهم ، وإشادة بالموقف الآخر لتشجيع !

ثم بلغت بطر في الآية تقدم القتل على لعنة والنصر \* ومن يقاتل في سبيل الله فقتل أو يعلب فسوف يؤتة أجرًا عظيمًا \* وكان الموقع - مادم المقام مقام الاستحاثات والتشجيع - أن يذكر النصر أولاً - ومن يقاتل في سبيل الله فتعذب ثم يؤخر ذكر القتل ، الذي نصر منه النعوس قبل أن يتمكنها الإيذان الحق وتحلص كلها لله ، حتى لا يكون ذكره دفعاً إلى تردد من يتردد ! ولكن التوجه الرئائي الحكيم يأتي على غير ذلك ، ويسبق ذكر القتل هنا بالذات عن العلية والنصر !

بها التربية على الأفق الأعلى أفق العريضة وأفق التجرد والخلوص لله ! إنه لا يعزى بالنصر لاستحاثات المتأقلين ، حتى إذا كانت الهزيمة من نصيب لمسلمين نكص منهم من ينكص على عقبيه ! إنما يصح المسألة في وضعها لنمسي - والتربوي - الصحيح : أن المظان الحقيقي لقتال يسعى أن يكون هو التجرد الكامل لله ، وبيع الحياة الدنيا كلها حتى بما فيها رعة النصر ، ورعة التمكين في الأرض - تشتري بها الحياة الأخرى ، ويشتري بها رضوان الله وفي واقعة كسرة يقول الإسلام للدين يربهم إنكم داهون لقتال في سبيل الله ، ومعرضون أن تموتوا هناك .

وذلك أصل في تربيتهم على الأمن الأعلى - من ذكر النصر مسبقاً لتشجيع الهمة واستحاثات المتأقلين ! فإن لدى بدهب يعموت من تتغير موقفه حين يمس الله عليه بالنصر ، ولكن لدى يذهب للنصر وانفيمية يتغير موقفه كثيراً حين تحدث الهزيمة ! والله أعلم بطبيعة النعوس ، وبالتوجيه الذي يضيح النعوس !

\* وما لكم لا تنقلبون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين

يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا وجعل لنا من  
لدىك نصيراً ٥١ .

هنا يجيء الاستحاث في مكة ، بعد توصيح القاعدة الشعورية وتحكيها وهو ليس  
استحاثاً بمعن شحصى يناله اعدائون ! إنه استحاثات بقيمة من القيم اعلى لتي تنجيه  
إليها النفوس العسة على الأفق الأعلى ، وهى بصرة المستضعفين والمظلومين  
ويصت بطربا فى النص تعبران

الأول هو قوله تعالى « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله و مستضعفين »

إن القتال كله فى الإسلام إنما يكون فى سبيل الله ، ولا شىء غير سبيل الله ، وهذا هو  
العمود الدائم له فى القرآن والحديث :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »<sup>(١)</sup>

« من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله »<sup>(٢)</sup> .

وعطف المستضعفين فى النص على سبيل الله « فى سبيل الله والمستضعفين » سبب تشبه  
بسبيل ولا لوجهة لقال ، وإنما هو سبيل واحد وه جهة واحدة هى إشارة إلى أن  
القتال لإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان من لستمين هو قتال فى سبيل الله  
وإشارة من الجانب الآخر إلى أن سبيل الله لا يؤمن حتى يستنقل مستضعفون من الرجال  
والنساء والولدان من المسلمين فى أى بعة من بضع الأرض

والعبر الثانى هو قوله تعالى حكاية عن قوم أوثت المستضعفين « ربنا أخرجنا من  
هذه القرية الظالم أهلها »

إن القرية المشار إليها هى مكة المكرمة

وواضح أن التعبير لم يقل . ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم

ولى غير هذا الموضع باندات يصعب القرآن القرية داعها بالعلم .

« فكأين من قرية أهلكناها وهى ظنة »<sup>(٣)</sup>

« وكأين من قرية أمدت لها وهى ظالة »<sup>(٤)</sup>

« وتلك القرى أهلكناهم لما ظنموا . . . »<sup>(٥)</sup>

(٣) سورة الحج ٤٥

(٢) أخرجه البخارى ومسلم

(١) سورة الأعراف ٣٩

(٥) سورة الكهف ٥٩

(٤) سورة الحج ٤٨

ويكن هذه القرية - مكة - تكريم فلا يعرف لها القرية الظلعة ! إيا يقال هذا « القرية الظلم أهلها » فيختص أهلها - وقتئذ - بالظلم ، وتبقى هي مكرمة كما شاء لها الله !  
 « ان الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، ولدين كفروا يقاتلون في سبيل الله دعوتهم يقاتلون أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً »

بالسنة للدين - أموا هو تقرير حقيقة وتوجيه في ذات الوقت !  
 تقرير حقيقة ان الدين - مو - حيثما هاتوا - هم يقاتلون في سبيل الله - سواء كان قتلهم لاستنقاذ المستضعفين لظلمين كما هي المسألة هنا ، أو هي دفع عدوان انكمار كما نجى في مؤسسات كثيرة ، أو هي إزالة اقوى التي تمت في سبيل الدعوة ممثلة في حكومات جهلانية ونظم جاهلية وحشوش تحمى هذه الحكومات ولظلم ، مع عدم إكراه الناس على الدخول في الإسلام ، ومع إقامة شريعة الله وانتمكين لها في الأرض « حتى لا تكون فتنه ويكون الدين كله لله » فكان ذلك في سبيل الله ، وهو السبل تأمين سبيل الله - عهد طمأنة لقوم مسلمين - وهم يقاتلون في أي هذه السبل ولأي من هذه انمايات - أنهم يقاتلون في سبيل الله ، والله مولاهم في قتالهم هذا فيهب هم الشهداء أو النصر بـ هو سابق في علمه وتقديره ، ويجب لهم في جميع الحالات بعيم الحق والرضوان

وفي الوقت ذاته هو توجيه للمؤمنين أن قتالهم يسعى أن يكون دائماً في سبيل الله ، فإنه لا تقلل منهم قتال في غير هذا السبيل ، ولا يجوز هم أن يقاتلوا تحت أي راية غير راية الإسلام ، أو هدف غير أهداف الإسلام

وأما بالسنة للدين كفرو فهو تقرير حقيقة ويبين في ذات الوقت لهذه الحقيقة تقرير حقيقة أنهم حتى قتلوا فهم يقاتلون في سبيل الطاغوت ، سواء كانوا يقاتلون للإسلام والمسلمين - وهذا ظاهر - أو كانوا يقاتلون بعضهم بعضاً فيما يقاتلون وما يقاتلون إلا محالفين عن أمر الله ! في دوما قد كفروا بالله ورسوله بدءاً فلا يمكن أن يقاتلوا في سبيل الله ! وكل فعل في غير سبيل الله ، أي في غير سبيل الإسلام ، فهو في سبيل لطاغوت أي كان الشعور الذي يرفع له واللائقة التي توضع عليه - ولقد استحدثت الجاهلية المعاصرة ألواناً متنى من الشعارات واللافات لتقاتل تحتها وتبرر ما يقع من القتل والدمار والتخريب ، الذي يقع كله لحساب فتنه محدودة من الناس ، ويروح في سيده من يروح من بقية الناس ! فمرة قامت في سبيل « الحريه » ، ومرة قامت في سبيل « الديمقراطية » ، ومرة قامت في سبيل « القيم الإنسانية » وكثير من شعارات رائدة تحفى ما وراءها من مصالح أرضية محدودة ، وصراع



على نبت المصانع وحشى<sup>١</sup> ومرة دست في سبيل<sup>٢</sup> لقوميه<sup>٣</sup> ومرة في سبيل<sup>٤</sup> الوطنية<sup>٥</sup> ولعل  
من أصدقها جميعاً فوهم<sup>٦</sup> في سبيل<sup>٧</sup> لثراب الوطنى<sup>٨</sup> لا ع أفعه اليراب<sup>٩</sup> ، وأولئك الذين  
يعتلون من أجل اليراب<sup>١٠</sup>

كلها في سبيل لطاعوب والطاعوت هو كل شيء يتوجه إليه الناس بالعبادة والطاعة  
من دون الله

والسابق يقرر هذه الحقيقة ، ويسب كدث<sup>١١</sup> يبيها للمريقين في آن واحد . لنكافرين  
بحرموا حقيقتهم وحقيقة أهدافهم ، فعلن منهم محدوعين<sup>١٢</sup> ك عرهم الحقيقة يشوبون  
ولسؤسب لبطمتهم إلى أن طريقتهم هو الحق وطريق أعدتهم هو الباطل ، ليكمل ذلك  
بهذا الوجه<sup>١٣</sup>

« فاعلموا أولاً : الشيطان إن كيد الشيطان كان صحيحاً »

ودث لكى لا يرهرا أعدائهم ، ولكنى يطلقوا لقتال بعد عدد العدة كما أمر الله -  
مطمئين إلى صلابة القاعدة التي يعمون عليها ، ونهاوى القاعدة التي يصف عليها أعدائهم ،  
فصلاً عن صلال أولئك الأعداء<sup>١٤</sup> لأهم<sup>١٥</sup> أولياء الشيطان<sup>١٦</sup> ومطمئين كذلك - إن أعدوا  
العدة كما أمرهم الله<sup>١٧</sup> إلى أن الله هو مولاهم وهو ناصرهم<sup>١٨</sup> لأن كيد الشيطان مبها تهر مهور  
ضعيف بالقياس إلى كيد الله

ثم نتقل السابق - في إطار الموضوع ذاته وهو موضوع القتال - إلى فئة من الناس كانت  
محمية بنقل في مكة حيث كان الأمر الربانى هو<sup>١٩</sup> « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا  
الزكاة<sup>٢٠</sup> فلما كتب عليهم لقتال إذا هذه لفئة تتعاضد وتتأقل :

« أم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم  
القتال<sup>٢١</sup> إذا فريق منهم يمشون بالناس كحشية<sup>٢٢</sup> الله أو أشد حشية<sup>٢٣</sup> ، وقالوا ربنا كتب علينا  
القتال<sup>٢٤</sup> بولا أحرب إلى أهل قريش<sup>٢٥</sup> ؟ ما ع الدنيا قبل<sup>٢٦</sup> ولا آخرة خبر لم اتقى<sup>٢٧</sup> ولا  
يظلمون<sup>٢٨</sup> فسلأ<sup>٢٩</sup> »

وإظهار من السابق أنها فئة من المؤمنين لا من منافقين ، ولكنها فئة ضعفة الإيمان  
ربما كانت تدعمها نطس النصارى في مكة دوع الحمية التي كانت من صفات العرب في  
جاهليتهم ، وكانت نمة مبها ما تروا باقية في نفوسهم<sup>٣٠</sup> أو ربما كانت على ركب ندى  
القتال المردى الذى كان يجرى في الجاهلية من قبل<sup>٣١</sup> ، وأياً كانت اسباب حماسهم للقتال  
بومند<sup>٣٢</sup> ، فإنهم حين انتقلوا إلى المدينة وأسسوا على أنفسهم وعلى عقيدتهم لم بعد عددهم حماسة

بفتان ! بل ركبوإى متاع الحياه الدنيا يحرقون عليه ويحافون أن يصيبه عليهم القتال !  
 والسيدة يعجب من حاشم بادئ دى بده « أم سر إلى الدين قبل لهم كفوا أديكم »  
 ثم يصور حالتهم الراهمة من دحل يهوسهم « فلم كتب عديهم انقار إذا فريق منهم  
 يحشون الناس كحشية الله أو أشد حشية » .  
 ويحكى قولهم فى معبر مصور « وقالوا ربنا لم كتبنا على القتل ؟ ! لولا أحرنا إلى  
 أجل قريب ؟ !

ثم يرد عليهم بي يكشف العلة الخفية هده الموقف المتقاعس المتناقل لتلهف على ناحيل  
 بقار ولو إلى أجل قريب « قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير من اتقى ، ولا تظلمون  
 شيئاً »

إن العلة كلها كده فى متاع الأرض مستخود على حسهم ، يريدون أن يستريدوا منه إلى  
 آخر قطرة مت حه ! وينتهضون على كل لحظة يمكن أن يصيهاها إليه ، ويتمنون على الله أن  
 يمهدهم فيه أطول وقت قبل أن يفقدوه أو يتعرضوا لفقدانه  
 والقرآن يرد عليهم فى صارت ثلاث حاسيات :

« قل متاع الدنيا قليل » « والآخرة خير من اتقى » « ولا تظلمون شيئاً »  
 متاع الدنيا قليل مهما بدا للحسن المتطلع أنه كثير ! فليل بالقيس إلى متاع الآخرة من به  
 قليل فى حسن المتطلع إليه فى الحياة الدنيا فيما من أحد ممن يطمعون للحياة الدنيا بحسن  
 بالاسكدهم بي بين يديه من امتاع ! إنما سمحت دائماً عن المريد . وبحسن أن المتاع الذى يمشاه ،  
 ولدى م يستخود عليه ، أكثر مما بين يديه وأشهى وأمتع ! وهكذا يحسن بعده لمتاع مهم عرق  
 فيه ! وذلك فضلاً عن أنه دائماً متاع مشوب مشوب على الأقل بالخوف على صبيته  
 وانقار لدائم من خرمه منه ! وهذا إن صف بالإنسان فى الأرض متاع حالى من  
 المعصاة !

والآخرة - من اتقى - خير من ذلك لمتاع لأرضى الرائل الزائف الذى يحرص عليه الناس  
 فى الأرض خير من كل وجهه تحظر على انسان حمر فى نوعه وفى صفاته وفى شعاعيته وفى  
 حدوده وفى نظاميته منه والظماينة على دوامه وعدم انقطاعه ، وخير فى الإحساس بالمعرب  
 من الله ، والتمتع مرضوا الله . وخير فى الإحساس بالمعرب من الله ، والتمتع مرضوا الله  
 وخير فى الإحساس بأنها المستقر الأخير بعد رحلة التمتع والعباد !  
 ولا ظلم عند الله . إن كل متاع يحرم منه الإنسان فى الأرض - من أجل سبيل الله - لا

يضيع ١) ليست حسارة يحسرها عليها الإنسان بل هي - نيران الربح والخسارة - كسب  
 أى كسب خمسة عشر أمثاله إلى ستمائة ضعف! والجهاد في سبيل الله - بآيات -  
 هو أكبر الأشياء أجرًا عند الله ومن ثم فلا ظلم ولا حسارة على الإطلاق .

ولكن

هل هي كما يحسب الجاهلون حين يقرأون مثل هذه الآيات - دعوة إلى ترك حياة الدنيا  
 والانصراف عنها إلى الآخرة ؟ أو . كما يحسب من هم أشد منهم جهلاً - دعوته إلى الرضى  
 بالظلم ولعدب في الدنيا ، مع التمسك بعظيم الآخرة ؟ أو بعبء أخرى كما قال ماركس  
 اللين أفرون لشعوب ١٩

كلا ! لا شيء من ذلك على الإطلاق

إن الأمر كما يتبين من قبل في عرض سورة آل عمران إن الدنيا لا تدم في القرآن إلا في  
 موضعين اثنين - حين يكون متاع الدنيا هو الذي يصد الإنسان عن الإيمان أو حين يكون هو  
 الذي يصد عن الجهاد في سبيل الله - عندئذ يكون متاعاً حراماً على صاحبه ، ثم إنه يورده  
 مورد الهلاك في الآخرة - أما فيما عدا ذلك فتوضيحية لقرآن العريضة هي

« قل من حرم ربة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الزرق ؟ قل هي للذين آمنوا في  
 الحياة الدنيا خالصة يوم القيمة » (١)

« واسع فيها أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » (٢)

« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » (٣)

ثم إن الإسلام يأمر المسلمين بأن يعدلوا ما استطاعوا من قوة لأعداء الله . فكيف يتم  
 إعداد القوة إذا انصرف الناس عن حماية الأرض ؟ وكيف تتم إطاعة أمر الله ؟

كلا ! إنها لدى بهي عنه الإسلام هو القصة بمنح الأرض التي تبعد الإنسان عن الإيمان  
 أو عن الجهاد - عندئذ تصحح الدين حجة كما يصحها الرسول - صلى الله عليه وسلم - ،  
 ويصح طلاب - أى الذين يطلبونها على حساب الآخرة ويستخون بها عن الإيمان أو عن  
 الجهاد - كالأكل كالكلام ؟

أما الرضى بالظلم في الحياة الدنيا وتخدير المشاعر عن دفعه بالتمسك بعظيم الآخرة فهذه  
 السورة تردداً حاسماً عليه في آيات متباعدة ذكرها في السياق .

(١) سورة الأعراف ٣٢ (٢) سورة القصص ٧٧٠ (٣) سورة هود ٦١

« إن الدين توفاهم الدلائل ظالمى أنفسهم فالو . هم كنتم ؟ أقنوا . ك مستصعبين فى لأرض ! قالوا . أم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا »

ويعود الآن إلى لسبق ، فبعد الحديث مستمرا إلى أوثث الدين هؤلاء « ما لم كنتم على القتال ؟ لولا أحرنا إلى أجل قريب ! » .

لقد قال هم من قبل إن متاع الدنيا لدى محزون عنه وتركوا جهاد من أجله أو يسمون بأجله ، هو متاع قليل . ولأن محهم أنه . عن منه . منه إلى نهاية حتمية « أيا تكونو يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة »

وتلك حقيقة يدركها الناس جميعا لأنهم يرون رأى العين . ولكنهم مع ذلك يفسونها ! تنهم لحظة المتاع فيسون بهائته ، أو يتعافوا عنها ويحسبون أنها بعيدة ! من تحيىء الآن ! من يحيى حتى يشعروا من هذا متاع لمتاح بين أيديهم اللحظة ! ولكنهم فى الحقيقة لا يشعرون ! ثم تأتيهم النهاية لتى يعرفون منها ويمسوا . فى حياتهم . ألا نكون !

ربما يوقفهم نقطة حاسمة إلى الحقيقة ، ويجسمها هم تجسسا لا يدعهم معزاة من مواجعتها ، ليستمر فى حسهم تماما أن متاع الدنيا قليل ، حتى لا يتحسروا عليه حين يذهب بفضه أو كله فى الجهاد فى سبيل الله !

« بقية لآمة ربما كانت تتحقق بطائفة أخرى من لطوائف الموحدة د حل الصف المسماة ، هى فربى المائفين الذين قال عنهم - هم أو أثلمهم فى أحد - « وطائفة قد أهتمهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهل يقولون . هل لنا من الأمر من شىء ؟ » من إن الأمر كله لله . يجعون فى أنفسهم ما لا يدون لك ، يقولون . لو كان لنا من الأمر شىء ما كنا هنا . قل لو كنتم فى سوتكم برر الدين كتب عليهم انعتل إلى مصابيحهم . (١٠) أم ها يقولون عنهم .

« وإن تصبهم حسرة يقولوا هذه من عند الله . وإن تصبهم سبحة يقولوا هذه من عندك ! قل كل من عند الله هي طولاء العموم لا يكادون يفقهون حديثا » ١١

والموقع أن الآية لا تقول من هم على وجه التحديد ، هل هم نفس الفئة الأولى لتى نقول « ما لم كتب عليها القتال ؟ لولا أحرنا إلى أجل قريب ! » أم فئة أخرى ، وهو الأرجح ؟

ولكن ورود الحديث عن الطائفتين - عن ترجيح أهل طائفتان محلفتان - في سياق آية واحدة له دلالة - هذه الطائفتين تشريكان في سمة واحدة ، هي كراهيته القاتل ، واعتباره « سبباً » يعرضون لها بغير موجب<sup>١</sup> فأما الطائفة الأولى فمطلبت لتأجيل فقط<sup>٢</sup> وأما الطائفة الثانية فتري أن ما يعرضون له من السنات وأولها انقضاء هو بسبب وجود الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين ظهرانيهم ، أو بسبب أوامره وتعليماته وتحركاته<sup>٣</sup> ولولا ذلك لأرحمهم الله من هذه السيئات !

وكما رد على هذه الطائفة - أو مثنها - في سورة آل عمران بيان الحقيقة الكبرى وراء الأحداث العارضة ، وعلى قدر الله ومشيئته ، فكذلك يرد على هذه الطائفة بيان هذه الحقيقة الكبرى ، لأن المشكلة في الحالين واحدة وإن احتج لموضوع المباشر اندى أثر المشكلة هنا وهناك - فهناك كان نظن بما هي بالله أن ما وقع من القتل في صفوف المسلمين كان منه عدم الأخذ برأى تلك الطائفة التي رأت سقاء في المدينة حتى يأتي العدو ، وعدم الخروج إليه خارج حدود المدينة - فرد عليهم بأن السبب الحقيقي هو قدر الله من وراء الأحداث ، وأنهم لو كانوا في بيوتهم لمرر اندى كتب عليهم القتل إلى مصاحبتهم - وهنا كان الظن الخاطئ أن ما يصيبهم من خير ( وهو خير الديوى بحسب تقديرهم وتصورهم ) فهو سبب وجود الرسول - صلى الله عليه وسلم - بينهم أو بسبب تصرفه في أمر من الأمور<sup>٤</sup> وهنا كذلك يرد عليهم بدات الحقيقة التي رد بها على أممهم هناك « قل كل من عند الله »<sup>٥</sup> هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً<sup>٦</sup> ؟

إله لا يحدث في هذا تكون العريض كله إلا ما بقدره الله - فما يصيب الناس من حسنة أو سنة ( سواء بالتقدير لأرضي المعنى ، أو بالتقدير الحقيقي الذي يضع الله مقاييسه ) هو من عند الله ، لا من عند الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولا من عند أي بشر آخر - وتلك حقيقة يسعى أن يصحح ويستقر في الأفكار واشتد عركتي يطمش الإيمان في القلوب ، ولكي يطلق الناس في حياتهم لأرضية الإنطلاقة السوية لدى يمارسون فيها نشاطهم كله بغير قس ولا حيرة ولا تحبط

وإن ملك الحقيقة - كما أسفنا في عرض سورة آل عمران - لا تمنع لشئ من تحاد الأسباب ، بل إن لإسلام يوحى ذلك على المؤمنين ، ولكنها تمنع عنهم انقلو الذي يصيبهم حين لا يكون إلى الله الذي بيده مفاتيح كل شئ ، وحين يسعون شئ من الأحداث لغير تقدير الله !

والآية تندد بأولئك الذين يظنون هذا بعض الجاهلي وتصممهم بأنهم لا يفقهون شيئاً على الإطلاق . فما لم يلاء القوم لا يكادون يفقهون حديث ١٩ \* ذلك أنه إن عانت عنهم هذه الحفصة الكبرى فلا شيء يستطيعون إدراكه بعد ذلك

وبكن الآية التالية تحمل معنى قد يبدو لأول وهنة متعارضاً مع ما قررته هذه الآية ، ولا تعارض في الحقيقة

« ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا »

إن الحقيقة الواردة في هذه الآية ليست هي مقالة التي عاب على أولئك الجاهلين ، ولا تنهل بها أي انحصار ، إنها حقيقة قائمة على قاعدة أخرى مختلفة

هناك كانت قاعدة القصة أنهم يسبون ما يصيبهم من الخير إلى الله وما يصيبهم من الشر إلى شخص الرسول . صلى الله عليه وسلم . ، تطيرا منهم به . عليه الصلاة والسلام . ، أو تحريجا لميادته ، أو تنهيرا للناس منه ، أو كل ذلك في آن واحد . فصحيح لهم قاعدة تفكيرهم بأنه لا يحدث في الكون إلا ما يقدره الله ، فكل شيء مما يصيب البشر في الدنيا أو الآخرة مرده تقدير الله ومشيئته

أما قاعدة القصة هنا فمختلفة ، إنها بيان لأسباب ما يصيب الناس من حسنة ومن سيئة ( بالمقاييس الربانية هذه لمرة لا بمقاييس البشر البعثة ) وهذا انبيان يقول إن الله وضع للناس مهنها للحسنة متحققة به الخير الحقيقي في الدنيا والآخرة والخير بالمقاييس الربانية قد لا يكون متطابقا في كل حالة مع ادفع في التقدير الشرى ، كما يقول القرآن «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . والله العليم الحكيم هو الذي يعلم . عين وجه اليقين . أين يكمن الخير وأين يكمن الشر في حياة الفرد وجماعة على السواء ، وفي الحياة الدنيا والآخرة على السواء

وبمقتضى عنمه ذلك وضع للناس ذلك المذهب الذي يتحقق به خير الدنيا والآخرة فمن اتبع هذا المذهب فقد وقع له الخير المنزل من عند الله . وأما من خالف وابتعد فقد وقع له الشر ( بالمقاييس الربانية ) في الدنيا والآخرة ، ويكون هذا انشر بسبب من عند نفسه ، لعدم اتباعه المذهب الرباني الذي يتحقق به الخير . ومن هه تكون الحسنة . بالمعنى الوارد هه . من عند

الله ، وتكون لشيئة - بمعناها هنا - من عند الناس ، على قاعدة - أخرى لا تختلط بالقاعدة الواردة في الآية السابقة ، التي تردّ الأمور كلها إلى مشيئة الله وقدره ، ولا تتعارض معها كذلك ، لأن من أصابه الخير - بمعنى أنه اهتدى - ومن أصابه الشر - بمعنى أنه ضل - كلاهما واقع في مشيئة الله !

ولا تتعرض هنا لتعصيه الحمر والاحتداد لأهل قصبة لا يحجب العقل ولكن يحجب الإيمان ولذلك قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - « إذا ذكر لقدر فأمسكوا » <sup>(١)</sup> لأنه لا يعلم كيف تسير الأمور في قدر الله فلا تتعرض بين مشيئة الله ومشيئة الإنسان إلا الله ، أو أحد على مستوى علم الله ، والله « ليس كمثله شيء » <sup>(٢)</sup> ومن ثم يظل هد من اختصاص الله سبحانه ، تحاول الأفهام إدراكه ولكنها لا تدركه إلا بالإيمان !

والحديث في الآية موجه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ولكن المقصود منه ليس شخص الرسول صلى الله عليه وسلم وحده ، بل هو للناس كافة ، يبين لهم أصل انقصية ، وأن المسجع النبوي منزل من عند الله لخبرهم فإن اهتدوا حصل لهم ذلك الخير ، وإن ضلوا - من عند أنفسهم - وقع لهم الشر

ثم يمضي الساق موجهًا إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ومقصودًا به البيان للناس كافة في ذات الوقت :

« . . وأرسلناك لنا من رسولاً ، وكفى بالله شهيداً » .

إن مقتضى مشيئة الله أن يتيح للناس الخير مثلاً في مسجع منزل من عند الله واقتضت مشيئته كذلك أن تكون الوسيلة لإبلاغ الناس بهذا المسجع هي رسال الرسول - صلى الله عليه وسلم - فكأن الساق يقول يا أيها الناس أردنا لكم الخير منزلنا لكم مسجعاً يحقق ذلك الخير ، وأرسلنا رسولاً يبلغكم إياه ، ونحن شهود على إرساله رسولاً إليكم ، وكفى بالله شهيداً .

أما الحديث بعد ذلك فموجه في أوله إلى الناس مباشرة ، وبقيته للرسول صلى الله عليه وسلم :

« من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً »

إن الرسول - عليه الصلاة والسلام - يبلع عن ربه بالحق ، وطاعته هي طاعة الله في حقيقته ، لأنه - صلى الله عليه وسلم - لا يأمر الناس ويهيئهم من عند نفسه ، ولكن تبليغاً عن الله عز وجل ذلك هو محض الهدى لمعى الآية ولكن التعمير في الآية يعطى معنى عميقاً للتأثير ، وهو الإيحاء بالوحي لشدة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، لأن طاعته هي طاعة الله ، وطاعته هي الطريق لدى يال به الإنسان رضوان الله

« ومن تولى فيما أرسلناك عليهم حفظاً »

إن مهمة الرسول - كل رسول ، صلوات الله عليهم جميعاً - هي لتدب عن الله فحسب ولا سلطان للرسول - صلى الله عليه وسلم - على قلوب الناس - إنه لا يملك أن يصحح الإيمان في قلب أحد ، ولا أن يكره أحدًا على الإيمان - فهداية من اختصاص الله وحده

« إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين »<sup>(١)</sup>

« أفأنت تكفر بالأساس حتى يكونوا مؤمنين ؟ ! وما كان لنفس أن تؤمن ، لا بإذن الله ، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون »<sup>(٢)</sup>

وإن الرسول الحاكم - كما كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يملك سلطاناً ينفذ به أحكام الله على الناس ، ولكن هذا شيء مختلف تماماً عن السطوة على القلوب ، الذي يجعلها تهتدي إلى الحق - إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يملك أن يهدى حد الردة عن ارتداد ، ويمسك أن يقاس الكفر - ولكنه لا يملك أن يهدى هذا ولا ذاك ولا يملك ذلك بشر على الإطلاق

ثم يستمر السياق يتحدث عن هذه الطائفة بعينها أو طائفة أخرى من الطوائف المرحومة داخل الصف المسلم :

« ويقومون طاعة ، فإذا برزوا من عندك طائفة منهم غير الذي يقول ، والله يكتب ما ستون - فأعرض عنهم وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلاً »

قد تكون هذه الطائفة من منافقي اليهود ، أو تكون من منافقي العرب ، مسميين ظاهراً كهرقة عبد الله بن أبي ، ولكنها فرقة مائعة عن وجه الأكيد ، تتظاهر في حصة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالطاعة ، فإذا خرجت من عنده عمدت إليه على الخيانة ، وانمرت ضد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وضد الإسلام والمسلمين

(٢) سورة يونس ٩٩-١٠٠ ،

(١) سورة القصص - ٥٦



والآية عظمى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه لن يصيبه من أدامهم شيء ، وأهم  
أحدون حرءهم عند الله - والله يكتب ما يبتون ويسجله عليهم ليحاسبهم به في نذبا أو  
لآخره أو بينهما جميعاً - ثم يوحى الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الإعراض عنهم وعدم  
الاهتمام بشأنهم ، والوكل على الله - وكفى به وكيلاً قادراً على كسب أدامهم وحمية لرسول  
- صلى الله عليه وسلم - منه .

ولكن ما هؤلاء القوم يصعمون ذلك ؟ ما لهم لا يخلصون قلوبهم للإسلام ولرسول الإسلام  
- صلى الله عليه وسلم - ؟ أهم في شك من رسالته ، ومن أكتاب «مدر علىه ؟<sup>(١)</sup>  
« أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً »  
نعم ! لهم ولا شك - ولكن أمثالهم مد أربعة عشر قرناً ، سواء كانوا من الكفار الصرحاء  
أو من المنافقين - لا يتدبرون القرآن ! ولو تدبروه يعصون وقلوبهم مفتوحة لعلموا أنه من عند  
الله ، وأنه لا يمكن أن يكون من عند غير الله !  
ونكسهم كما يقول عنهم في سورة القاتل « أفلا يتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب  
أغماها ؟<sup>(٢)</sup> »

إن بشرًا في الأرض كلها لا يتأتى له أن يخرج كتاباً كهذا الكتاب ، المعجز على جميع  
المستويات وفي جميع الاتجاهات - والذي يتعرضون لتأليفهم أدرى بهذه الحقيقة ، كما  
كان العرب لعبون بأسرار البلاغة أدرى بحقيقة الإعجاز اللغوي بقرون  
ولآية بقر أنه لو كان القرآن من عند غير الله - أي من صبح لبشر - لوجدوا فيه اختلافاً  
كثيراً وأول ما يرد على الدهن بشأن « لاختلاف » هو التناقض - وواضح أن القرآن لا يحوى  
اختلاف بهذا المعنى - فوجهته موحدة ، وواضحة - وجهه هي ما قصة الأنوثة للناس  
لكى بعدوا الله وحده دون شريف .

ولكن لاختلاف في الحقيقة أوسع من التناقض - إنه يمكن أن يمتد إلى جميع المستويات  
ولا استثناء - وهذا يتلوه إعجاز القرآن على ذات المستوى الذى يتلوه به الإعجاز  
البلاغي . . . لاختلاف !

إن القرآن في المقام الأول كتاب مرسة ووجه - وهو الذى أنشأ هذه الأمة التى وصفها  
حائفاً هذا الوصف . « كتم خير أمة أخرجت للناس »<sup>(٣)</sup> .

وهو - من هذه الوجهة - يتناول كل مبادئ التربة لوتيسية في حياة « الإنسان » على

( ٢ ) سورة آل عمران ، ١٠٠

( ١ ) سورة محمد ( سورة القاتل ) ٢٤ .

مستوى واحد من توجيه الاهتمام، وعلى مستوى واحد من « الإتقان » ، والإحكام بلا اختلاف !

وهي تربية الروح ، وفي تربية لعقل ، وفي تربية الحسد وفي التربية السادسة والاجتماعية والأخلاق الح ، نجد ذات الدرجة من الإحكام ، كما نجد وحدة التوجيه نحو إنشاء « الإنسان الصالح » على جميع المستويات بلا اختلاف ! على سق لا مثيل له في منهج لشر انتى تعنى بجانب وتممل جانباً آخر ، وتتركز على جانب على حساب جانب آخر (٢) .

والقرآن يشيئ مجتمعاً متوازناً من أفراد متوازنين ، بلا اختلاف في التوجيه بالسيرة للفرد وبالسيرة للمجتمع ، على سق لا مثيل له في كل ما يصنع الشر من نظم ومنهج ، تبرر كيان الفرد لتفتت تماسك المجتمع ، أو تبرر كيان المجتمع لتسحق كيان الفرد ! والقرآن يشيئ فرداً وجماعه توازن بين مطالب الحسد ومطالب الروح ، وبين الدب والآخرة بلا اختلاف ! على سق لا مثيل له في كل « الخصارات » الخاهدية لئى برر عالم الحسد لتطمس عالم لروح ، أو برر عالم الروح تحتقر الحسد وتستقدره وتذله !

وهكذا في أى مجال وعلى أى مستوى تدبرت هذ القرآن وحدث أنه يحوى توجيهها موحداً بلا اختلاف وعلى درجة معجزة في كل جانب ، ثم على درجة أشد إعجازاً في حتماع كل الجوانب . وبلا اختلاف في بين توجيهه لجانب وتوجيهه لجانب آخر

ولقد قمت بدراسة متوصعة بقدر ما فتح الله عني في « منهج لتربية للإسلامية » وهي « دراسات في انفس الإنسانية » وفي « منهج الفع الإسلامى » وأدهلى هذ الإعجاز في كل جانب قمت بدراسته ، كما أدهلى اتحاد المستوى - بلا اختلاف - في كل من الموضوعات الثلاثة ، وكذلك بوحدة النى تشمل كل موضوع تعرض له القرآن

وحهدى المنواضع قد تناول حواص محدودة من القرآن ، وكثيرون على مدار لتاريخ الإسلامى قد أبرزوا حواص من عظمة هذ الكتاب المعجر ، وما زال لمجل مفتوحاً بريد من الدراسة في كل اتجه ، لهذا الكتاب هو كما وصفه الرسوب - صلى الله عليه وسلم - « لا تعد عداثه » وما يملك أحد أن يتدبره « دون أن يرى لوياً من الإعجاز فيه » ولو كان من عبد غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً !

( ١ ) « صبح الله الذى أنقى كل شىء » سورة الفيل ٨٨

( ٢ ) انظر - إن شئت - كتاب « منهج التربية الإسلامية »

ولكن هؤلاء الذين تشير إليهم الآية - وأمثاعهم في البشرية منذ أربعة عشر قرناً - لا يدبرونه  
بغير شك ، به يقرأونه - إن قرأوه - بقلوب مريضة وعقول مطموسة فلا يتبين به ما به من  
الحق ، بل لا اختلاف فيه

ثم يعرج لسبق على طائفة أخرى من طوائف المجتمع المسم قد لا تكون مدافعة  
بالضرورة ولا صعبة الإيمان ، ولكنها بغير شك صعبة « التنظيم » غير محكمة الالتزام  
« وإدعاءهم أمر من لأمس أو خوف ادعاء به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم  
علمه الذين يستنبطونه منهم - ولولا فصل الله عليكم ورحمته لاستعتم للشيطان إلا قليلاً »  
هذه الفئة صعبة الركيزة من الناحية السطيمية - وإدعاءهم إشاعة مضحكة أو مرعجة  
ادعاء بها - أي شروها - فقد تثبت ولا تحفظ ، ودون تدبر لأثار إطلاق هذه الإشاعة في  
الصف المسلم فقد تكون الإشاعة المظلمة - على غير حقيقة - صارة بتأسيك الصف  
كالإشاعة المرعجة سواء ، فتصور قوماً على أهبة الاستعداد للقاء العدو ، جئت إليهم فقلت  
لهم إن العدو قد انصرف ولم يعد هناك احتمال للقتل - فماذا تفعل هذه الكثرة في نفوسهم ؟  
لا شك أن كثيراً منهم مستترحي عصلاته وأعصابه ، ويتلقى عنه حالة التأهب التي كان  
عليها ، وقليل هم الذين سيطلون على حالهم من التأهب والعزم - حين تكون تلك إشاعة  
لا رصيدها من الواقع فكم تفعل من انصراف إذا دجاهم العدو بعد ذلك على عرة ؟  
وكذلك الإشاعة التي تهول في تقدير الخطر بأكثر من حقيقته ، به نشر لتحادل في  
الصف . . فليس كل الناس من أولى العزم !

وقد تكون هذه الفئة من الناس التي تسارع في إدعاء الأخطار حسنة النية فيما تفعل ، لا  
نقصد الإساءة ولا إشاعة الخلخل والاضطراب في الصف - ولكنها تؤدي إلى هذه النتيجة  
بما فعل وإن لم تقصد - وبما أنهم بدلاً من استنساخ الخبر - أي بدل الجهد في الحصول عليه  
ردوه إلى قادتهم - إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - في حياته وإلى أولى الأمر منهم -  
لعمروهم ، أي نعرفه حقيقته ، دون حاجة إلى الاستنساخ ، ودون وقوع في الإشاعات ، ولكانوا  
حينئذ أصعب نطقاً وأحذر بأن يكونوا أعضاء بفاعلين في المجتمع الإسلامي  
« ولولا فصل الله عبيكم ورحمته لاستعتم الشيطان إلا قليلاً »

فرعاية الله للصف المسلم هي وحدها التي تحول دون حدوث الآثار لصارة التي يمكن أن  
تحدث من هذا الاختلال ، كما أنها هي التي تحول دون ربيع المسلمين عن دسهم الحق واتساع  
لشيطان

وإلى هنا ينتهي الحديث عن تلك الطوائف الرائعة في المجتمع . وبلغت النظر أن السياق يتحدث عنها متلاحقة كأها طائفة واحدة قد صدرت عنها كل هذه المحادثات ! فهو لا يقول عنهم من يقول كذا ، ومنهم من يفعل كذا ، إنما تتبع الحديث عنهم هكذا « وقالوا ربنا لم كنست عليك انتقل ، لولا أحرمت بني أحل قريب ؟ ! » « وإن تصيبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصيبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . . . » « ويقولون طاعة وإد مروا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول . » « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذعوا به »

وبحق يعلم - من السياق - أنهم طوائف مختلفة لا طائفة واحدة - ولكل إد تدبر الأمر يتضح لنا أنهم - كلهم - دور موقف واحد أو متشابه في القضية الرئيسية المعروضة في هذا السياق ، وهي القتال ، التي بدأت بقوله تعالى « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » فموقفهم كلهم هي بل لتفادع أو التحديل أقرب - فربما كان هذا هو الذي جمعهم في حيط واحد كأهم طائفة واحدة !

ومن ثم يحى التعقيب الأخير

« فقاتل في سبيل الله لا تكلف ولا نفسك ، وحرص المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الدين كفروا ، والله أشد بأسا وأشد تنكلا » .

هذا هو التوجيه الأخير ، بعد بيان لطوائف المحدثلة في الصف ، يوجه الأمر للرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يقتل بنفسه - فيعطى بذلك لقدوة الواقعة في هذا المجال وفي كل مجال - وأن يحرص المؤمنين ، وهم الطائفة الصاعدة المخصصة من تلك الأوشاب التي وصفها السياق من قبل في تلك الصوائف الرائعة . . ثم لله عاص على أمره ، وهو القادر على أن يكف بأس الدين كفروا ، وأن يكل بهم تنكلا . .

ويلحق بهذا الأمر بيان بوضع كل من الفتيين المستقيمة على أمر الله والفتنة الرائعة ، كن بحسب صمته ، وأن الله سيحارى هذه وتلك بحسب أعمالها .

« من يشفع شفاعته حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعته سيئة يكن له كهل منها ، وكان الله على كل شيء مقبلا »

والنص عام يشمل كل شفاعته حسنة وكل شفاعته سيئة . ولكن ما سبقت هنا في السياق أن الذي يشفع شفاعته حسنة يكون مؤداه تخيير المؤمنين على قتال أعدائهم يكون له الجراء الحسن عند الله ، والذي يشفع شفاعته سيئة ( بمعنى يسعى مسعاة سوء ) تكون

نتيجتها تحديده الصنف وإشاعة المصلحة والاضطراب فيه فإن له عند الله ما ياسبه من الخراء  
« حراء سيئه بمثله »<sup>(١)</sup>

فكان الآية تلخص الموقفين المتقابلين للمؤمنين من جهة والمحدثين نشئ مصروفهم من  
جهة ، وتبين مهابة كل فريق .  
ثم يختتم هذه المساق الحاشد كله ، الدائر من أوله إلى آخره حول القتل والجهاد بآية قد  
تبدو عجيبة في موضعها

« وإذ حيينتم بتحية محبوه بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيباً »  
لكنها هي نعمة السلام بعد انتهاء القتال أو هي تقرير لبقاعده الأساسية في حياة  
الإسلام إنه يسعى إلى السلام أئداً ويسعى إلى الحرب والقتال كوسيلة لإقرار السلام  
وحسب ، لا من أجل القتال ذاته . ولكنه سلام الذي يرضاه الله سبحانه وليس أي سلام  
السلام الذي لا تكون فيه فنة ، ويكون الدين فيه كله لله  
« وفانصروهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله »<sup>(٢)</sup> ;  
وصدقته فقط يحىء السلام

\* \* \*

من طرق لبيان من يبان هذه الفئات المختلفة في داخل المجتمع المسلم إلى بيان الموقف  
المحدد الذي يسعى أن يحده المسلمون إزاء الفئات المختلفة خارج المجتمع ، من مباحين  
خارج أرض الدولة ، هي يومئذ دولة المدينة ، وكفار محالين لهم بينهم وبين المسلمين  
مشاق ، ومجيدين لا يريدون أن يدخلوا في حرب مع المسلمين ولا حرب مع قومهم الذين هم  
على دينهم ، ومتلاعين بظهور الإسلام إذا جاءوا إلى المسلمين ويرتدون إلى الكفر إذا رجعو  
إلى الكفر بآمنوا هؤلاء هؤلاء ! وبما فيه القتل والقتل بذكر حكم القتل الخطأ والقتل  
العمد فيما يقع بين المسلمين بعضهم وبعض ، وبين المسلمين وغيرهم من هذه الأقوام  
السالمة الذكر

ويخرج عن محالها أن تعرض هذه الأحكام ولكنها تذكر فقط أمرين  
الأول أن هذه الأحكام أو التوجيهات كلها ، وهي سياسية وعسكرية وعهية ، قد  
بذنت كلها بوحية عقلي

« الله لا إله إلا هو ، ليجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، ومن أصدق من الله  
حديثاً »<sup>(٣)</sup>

(٢) سورة الأنفال ٣٩٠

(١) سورة يونس ٢٧

فيه دواخ آخري من برماطات المسنة في السورة أو محطه من محطاب التوفية ، تبث شحنة  
 حديده من لمشاعر الإلهية ، كبا مصى لاسان شوطاً مع السورة وشوطاً مع استكاف ،  
 ستمس التكللف بالرصي ، ونقوى نفسه على احسن تعانها مادام عبادة تؤدي إلى الله  
 لله لدى لا إله إلا هو ، والذي سيجمع الناس إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، فيجاريهم بها  
 عملوا في الحياة الدنيا

وثاني أن هذه الأحكام تشكل ما يمكن تسميته بدعنا احصره « القانون الدول  
 لإسلامي » وقد أنشأ لإسلام قانونه بدولي هذا قبل أربعة عشر قرناً والشريعة لا تعرف إلا  
 شريعة العباد ، وما زالت في الحقيقة لا تعرف إلا شريعة العباد ، وإن كانت تدري أهواءها  
 وشهواتها وعدوانيتها تحت شعارات مختلفة وتطبيقات مختلفة أحرف عصاة الأمم التي هلك  
 وجمعية الأمم المتحدة التي هي حبة كميته ، تفوي على المصعب وتجمع لتفوي وتملأ  
 لشهوات فتحكم على الأمر الواحد حكمين مختلفين إن صدر من هذا إن صدر من هناك  
 أما الإسلام فيحكم موثيقه ، ويربي أهله على حزم موثيق ، متفرداً بذلك في كل  
 لتاريخ



مازال السياق يتحدث في موضوع واحد شامل متصل هو موضوع بفتار والجهاد في سبيل  
 الله ومن ثم تأتي هذه الآيات - بعد مجموعة لأحكام السابقة - بحث على الجهاد  
 « لا يستوى القاعدون من المؤمنين - غير أولي الضرر - والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم  
 وأنفسهم فصل الله مجاهدين على انقاعدين أجراً عظيماً ، درجات منه ومعرفة ورحمة  
 وكان الله عفوياً رحيماً »

ومن هذا الحث على جهاد عامة تحدث عن نوع خاص من الجهاد كان مصحوباً يومئذ  
 بالنسبة لظروف انقائمة وقتذاك وهو اخجره من مكة دار لكفر يومئذ - إلى المدينة دار  
 الإسلام ولكن المعنى الذي شتمل عليه هذا التوجيه عدم وشامل وغير مقيّد بشك الظروف  
 الخاصة

« إن الذين توفاهم ملائكة طين أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في  
 الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت  
 مصيراً إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ،  
 فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوياً رحيماً »

إن لقرآن بسميهم « ظلمى أنفسهم » أو شك الدين يقعدون عن هذا السور من الجهاد وهو المحرر من در لكره إلى دار الإسلام - وهم قادرين عليه ، ويعرضون أنفسهم لأذى يفتن عن دينهم ، وأن يعجزوا عن إقامة هذا الدين في أنفسهم وفي حياتهم ، ويتعدلون في هذا كله بأنهم مستضعفون لا يملكون شيئاً !

ويصو النص موقفهم عندما تتوافهم الملائكة ، يستحوونهم « فيم كنتم ؟ » ماذا كنتم تعملون ؟ فيم قصيتم حياتكم ؟ ماذا نصيتم بالفتنة وقعدتم فيها ؟ فبعثدرون عن هذا كله بقوهم « ك مستضعفين في الأرض » ويجسسون أنها حجة مقبولة تفتح لهم لطريق ويعطيهم جوار المرور بلا حساب ! ولكن الملائكة يوحونهم « ألم تكن أرض لله واسعة فتهاجروا فيها ؟ » ثم يعقب النص بيان حرائمهم يوم القيامة « فأؤنك مأواهم جهنم وساءل مصيراً »

والسياق كما فلما يتعرض لحاله كانت قائمة يومئذ ، وهي حالة الفتنة في مكة ، ووجوب الهجرة إلى أرض للإسلام للتقدير على ذلك ، ويتوعد القاعدين هناك بنار جهنم ، بعد أن يسميهم « ظلمى أنفسهم » لأنهم رجزوا بظلم في الدين وأوردوا أنفسهم مورد الهلاك في الآخرة

ولكن القصص في جوهرها أعم من هذا الظرف الخاص . إن الإسلام لا يقبل من أحد على الإطلاق - مادام قادراً - أن يرصى بالظلم ويقعد فيه ، مدعياً أنه مستضعف لا يقدر على عمل شيء . إن يعرض عليه الجهاد يرد هذا الظلم ويروع الجهاد الذي يشير إليه لسياق هو المحرر إلى دار الإسلام الأمه المظلمة التي تقدم فيها شريعة الله ومر ثم لا يكون فيها ظلم (و لظلم في اعتد الإسلام هو مخافة شريعة الله) ولكنه ليس الجهاد الوحيد الذي يحلص من الظلم والرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول « لا هجرة بعد الفتح (فتح مكة) ولكن جهاد وبية »<sup>(١)</sup> والظروف العالمية اليوم وظروف الأرض الإسلامية بحاجة تختلف كثيراً عن الحانة الأولى التي استجبت الهجرة من مكة إلى المدينة ، وعن الحالة الثانية التي قال فيها الرسول صلى الله عليه وسلم « لا هجرة بعد الفتح » ولكن لا يختلف الأمر من حيث وجوب محاربة الظلم الناشئ من عدم تطبيق شريعة الله ، وعدم الرضى به والاعتذار بقوله ك مستضعفين في الأرض !

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

بهدد الذين أئعد شيء عن أن يكون أفيوناً للشعوب ! أئعد شيء عن تخدير الناس  
برصى بالظلم في الحياة الدنيا وتمسهم بنعيم الآخرة إذ هم رصوا بالعلم في هذه الحياة ؟ وإن  
شوءد من يصنع ذلك بما توءد به الكفار !

« إلا للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان . . »

المستضعفين حقيقة ، لا الذين يدعون لاستضعاف وهم قادرون ، حرص على أمهم  
وسلامهم ، أو حرص على مواهم وأهدهم ، أو حرصاً على مكسهم وحدهم  
ودسب يعطى صورة دقيقة لأوثك المستضعفين حقيقة « لا يستطيعون حياة ولا  
يهيئون سبيلاً » فهم ييحثون عن السيل فلا يجدون ، وييحثون عن الحيلة فلا يستطيعون ،  
وهو وضع عسى وشعورى يئندف تماماً عن حبه لاستكائة والرصى ، حرص على شيء مر  
متاع الأرض .

« فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفواً غفوراً »

فهو نعم حكمة م في عفوهم ، ويعلم حقيقة صعهم وعدم قدرهم ، فيتفضل عليهم  
بالعفو . .

ولكن هؤلاء لا يئهى أمرهم على هذا الوضع في جماعة المؤممة مكلفه باستفادهم بما هم  
فيه ، بما لا يقدرون هم على مواجهته . ويرجع إلى الآيات الأولى :

« ليعاتل في سبيل الله الذين يشربون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل  
أو يعب فسوف يؤتية أجراً عظيماً » ومن يكم لا تقانون في سبيل الله والمستضعفين من  
الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أئرحنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا  
من لئلك وياً واجعل لنا من لئلك نصيراً »

وهكذا تتلاقى اسصوص من هـ ومن هـ تصع انصورة الصحيحة بالأمر كله من جميع  
بواحيه ، وتضع العلاج كدئك لنوضع كله من جميع بواحيه

« ومن يهاجر في سبيل الله فحد في لأرض مراعيماً كثيراً وسعة » ومن يخرج من بيته مهاجراً  
إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله . وكان الله عفواً رحيماً »

يستمر السباق لشجع على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ، بعد أن دد من هـ  
بالمقاعدين وهم قادرون ، ببواحيه المحاوف التي تدور في النفس بشأن الهجرة ألا يجد ررقه  
ميسراً في المهجر . أو أن يدركه الموت في الطريق

فإن الحاجة الأولى والساق ست الطمأينة بشأنها ، فطمش بالمهاجرين في سبيل الله أنهم



سيحدون في الأرض سعة وسطة والله هو الكفيل ، ما دامت الحجرة في سبيل الله  
وأما المحافة لأخرى فإن الله يحرم إعطاء أهلها ، فقد وقع أحمره على الله ، وكان الله عفوياً  
رحيماً ، فهو يعفو له ذنبه ، وأحمره أحمرًا كاملاً على الرحمة التي قم بها في سبيل الله  
وهكذا يحاط لأحمره بحافة بكل الصعوبات التي تسببها في سبيل ، وتجعل الإنسان  
الذي أحلص قلبه لله يقلل عيبها بلا إبطاء .

\* \* \*

ومما سبب له حجة - وهذه الرحمة التي يحوصها المحاول - تأتي حكم صلاة الخوف وبيان  
الصورة التي تؤدي بها - وهذا خلاف بين الفقهاء ، في بيان تلك الصورة لا تعرض له هنا  
لأنه خارج عن مجالنا ، ونكتفي بعد المعنى الذي يوحى به السياق ، وهو الأهمية العظمى  
للصلاة في حساب الإسلام ، حتى إن الخوف من الأعداء وتنتهم لا يحول دون أداء الصلاة  
في أوقاتها ، بل تقصر الصلاة فقط لموجهة موقف ، ويستقيم المؤمنون أنفسهم فسمين  
أحدهما يقص ويقف الآخر مستعداً بسلاحه بالحرام ، ثم يبدل الفريقان أما كنهم حتى  
تم الصلاة - ولكن ثبت على الإطلاق لا يحول دون الصلاة في صورة من صور أدائها التي  
قصتها السنة النبوية

ثم يحىء لتوجيه بعد بيان حكم هذه الصلاة ، صلاة الخوف  
" فإذا فصلتم الصلاة فذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا طمأننتم فأقيموا  
الصلاة - إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً "

إن الصلاة هي الصلة بين القلب لشئ وبين الله ، فلا يكون خوف المحط بالإنسان  
ماتماً لأدائها ، فإنها يحتاج للإنسان في لحظة الخوف إلى ذكر الله " ألا تذكرون الله بعد مش  
الصلوات " ومن هنا يحىء النص على ذكر الله بعد قضاء الصلاة ، فقد ثبتت الصلة  
الروحية التي تصل ما بين العبد وربه في أخرج لأوقات

وأحمرًا يحىء لتعقيب الذي يلخص الموقف كله تلخيصاً دقيقاً بشأن المؤمنين وأعدائهم  
" ولا تمهوا في أسماء المومنين ، تكونوا تألمون فيهم يأتون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا  
يرجون - وكان الله عليماً حكيماً "

لقد بدأنا أحدث عن انقمار عند قوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا حدودوا حذركم فاعلموا "

ثَبَاتٍ أَوْ مَفْرُودٍ خِيَفًا . « وظل السياق متصلًا في موضوع القصاص فشمل دعوة المؤمنين الذين يشرون الحياة الدنيا بالأجرة بلى القتل في سبيل الله ولا يفسد المستضعفين من المؤمنين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، ويدعون ربهم أن يجعل لهم من لديه وثناً وبصيراً ، وشمل مواقف الفئات الرائعة كلها لى تحذّر نفسها أو غيرها عن القتال في دحر مجتمع اسلم ، ثم مواقف العنات الأخرى خارج المجتمع المسلم مع تحديد موقف المسلمين من كل مها ، وشمل حكم انقتل الخطأ واقتل العمد ، ثم بيان فصل اصحابدين عن القاعدتين ، وبيان وضع الدين برصون بالمعود في دار الكفر حرصاً على مصالحتهم على الصاعدين ، وبيان وضع الدين برصون بالمعود في دار الكفر حرصاً على مصالحتهم الأرضية حتى تنوهم املائكة طائى أنفسهم ، وماوأاهم جهنم وساءت مصراً ، والرعيب في المحجرة ، وبيان حكم صلاة الخوف كل هذا في سياق متصل تُسلم كل نقطة منه بالأحرى

والآن يحتتم هذا السياق المتصل بهذه الآية الدقيقة التي تلخص الموقف كله

« ولا تمهوا في ابعاء القوم . . . »

إنها الدعوة لقتال اعدائهم حتى يُكفَّ بأس الكافرين ويُدفع أذاهم عن الإسلام والمسلمين وهي دعوة بالأجدل جهتها وإن كان الحديث في الآية كان موجهاً للمقتل يومئذ من المسلمين في ذلك الجبل . ولأن الله يعلم أنه جهاد طويل لا يُكفَّ ، فقد حثهم بهذه العبارة « ولا تمهوا في ابعاء القوم » وهي عبارة موحية بطول الطريق ، وتعرض الناس فيه بدوهم عالم يشدو على عرائسهم ، ويتذكروا هدف من القتال كله ، ويتذكروا كذلك وضع كل من المريقين فيه لذلك يقول لهم

« ولا تمهوا في ابعاء القوم . انكم تاملون ما هم يأملون كما تألمون وترجون من الله

ما لا يرجون »

هذا القسم والموصوح في التعبير يلخص الموقف كله .

الشوط طويل يحتاج إلى العزيمة ، والاساس فيه حرصة الآلام بتحسيناتها وتصحيحات ثمينة يتكبدونها معهم ، ولكن المريق الآخر - مريق الكفر - يتألم كذلك كما يتألم المؤمنون فليست الآلام وتصحيحات وفقاً على المؤمنين وحدهم ولا شك أنه مما يشجعك على القتال أن تعلم أنك قد أحدثت في عدوك جراحاً وحسائر في لأموال والأرواح ، وأنت تست وحدهك الذي تألم ، بل إنك تزم عدوك في ذات الوصف .

ثم نجىء لعذرى لأعظم أسم تألوا وعدوكم بألم ، ونكر شتان بين أم وأم هده أم  
 داهب إلى أخته ، حيث نعلس الحرجات ونمسح الألم ويرول العذاب ، ويعوص عن ذلك  
 كنه نعلم حديد شهى شفيف جميل لا نصل ولا ينتهى ولا يروى ودك أم دهب إلى  
 حهم ! ليردادوا عذابا عوفى العذاب ، وسبقوا هناك « لا نقصى عنهم فموتو ولا يجمع  
 عنهم من عذابها »<sup>(١)</sup> هي أبعاد الشقة بين هذين الفريقين المتقابين المخلصين في الفصل !

و بدنتهى هذا التعقيب حدثت القنال فإن الحديث عن الماهيين د يصل إلى منه بعدا  
 فقد كان الحديث عن القنال وردة في الخصبة في داخل إطار حديث عن الماهيين !  
 ولقد بدأت الإشارة إليهم في قوله نعدى « أم تر إلى الذين يرفعون أصمواها أنزل إليهم وما  
 أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الصاعوت وقد أمرو أن نكفرو به ويريد الشيطان أن  
 يصلهم صلا لا بعدة [ آية ٦٠ ] وجاء حديث عن الفصل في داخل ذلك الإطار [ آية ٧١ ]  
 « يا أيها الذين آمنوا جدو حدركم فامرو نيت » بعد جمعا حتى جاء لتعقب الأخير بشأن  
 القنال [ آية ١٠٢ ] « ولا هوى في متعاء القوم إن نكوبوا بألمون فإنهم بألمون كما تألمون ،  
 ويرجون من الله ما لا يرجون » ثم يعود انساق إلى قصة من قصص السابقين دت دلالة  
 خاصة بالنسبة للإسلام وللمسلمين ولمهج لتربية للإسلامة وللجاهليات كنها خلال  
 التاريخ

« إن أنزل إليك الكتاب باحق لتحكم بين الناس ب أنراك الله ولا تكن للحدثين  
 حصيما واستعمر الله إن الله كان عهرا رحيم » ولا محادل عن الذين يختبؤ أنفسهم ، إن  
 الله لا يحب من كان حواما أثميا يستحقون من الناس ولا يستحقون من الله وهو معهم إذ  
 يتنبون ما لا يرضى من القوم ، وكان الله ب يصبون محيط ه أسم هؤلاء جادهم عنهم في  
 أخنة الدنيا ، فمن محادل الله عنهم يوم انصامه ، أم من يكون عليهم وكلا ومن نعلس  
 سوء أو بظلم نعلسه ثم يستعمر الله محدل الله عهرا رحيم ، ومن يكسب إثما فإنها يكسبه على  
 نعلسه ، وكان الله عليما حكيما ومن بكك حطشة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتان  
 وإثما مبيا ولولا فصل الله عليك ورحمه لممت طائفة منهم أن يصلوك وما يصلون إلا  
 أنفسهم ، وما يصرونك من شيء وأنزل الله عندك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن  
 تعلم ، وكان فصل الله عليك عظيم »

تقول القصة إن نمرأ من لأبصار عرو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض عرواته  
سرقوا لأحدهم درع فحامت الشبهة حول رجل من الأبصار ، فأتى صاحب الدرع رسول  
الله صلى الله عليه وسلم وانهم لسارق ( في رواية أنه طعمه بن أبيرق ، وفي رواية أخرى أنه  
بشير بن أبيرق ، وهو منافق كان يقول الشعر في دم الصحابة ويسببه إلى غيره ) فلما رأى  
السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاه في ست رجل يهودي يسمى يد ابن النسيم ووجه قومه  
إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقلوا يا نبي الله ، إن صاحبنا بريق ، وإن الذي سرق  
الدرع فلان ( اليهودي ) فاعذر صاحبنا على رموس النسيم ، وجادل عنه ، فإنه إن لم يعصمه  
الله بك يهلك . فلما عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الدرع وجد في بيت اليهودي  
دم نمرأ ابن أبيرق وعذره على رموس ناس . فزلت هذه الآيات

إياها حادثه عدة في تاريخ البشرية ، وبقيت حادث عارص يُسنى

نقد كـ اليهود - وما زالوا - على موقفهم المعروف من الإسلام ، لا يتركون فرص واحدة تمر  
دون إبداء بالإسلام والمسلمين

وبعد كانوا في المدينة قد فعلوا كل ما في وسعهم لجلبونه دون قيام هذا الدس وتغكه في  
الأرض

حاولوا قتل الرسول صلى الله عليه وسلم مرتين مرة بإلقاء الحجر عليه ( لولا أن الوحي  
أخبره فترك المكان من قبل ) ومرة بدم السم له في دراع النشاة  
وحاولوا تشكيك في صدق الوحي المرسل على الرسول صلى الله عليه وسلم  
وحاولوا التشكيك في أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدقه وأمانه وعدله  
وحاولوا تعريق صفوف المسلمين ، وإساعة البغضاء بينهم كما حدث يوم أثارو الأوس  
والخزرج بعضهم على بعض .

وبشروا الأراحيث بمختلف أنواعها خدعة الصف المسلم وورثته  
وتحالفوا مع منافقين وبامروا معهم على محاولة القضاء على الإسلام  
وتحالفوا مع المشركين ، واستعدوهم لقتال المسلمين  
وارتكبوا كل حيالة ممكنة ، وأبدوا كل ضبيعة وبغضاء .

ثم ؟

ثم تسرب هذه الآيات نسج [ ١٠٥ - ١١٣ ] تنبئة واحد من هؤلاء اليهود أنهم ظلموا سرقة  
درع نوح من المسلمين !

يا لله إنه الإسلام ! الإسلام وحده في تاريخ البشرية كله .

وعبر الإسلام لم يكن صميره لتتحرك بشرته منهم ينتمى إلى قوم به سهم كل ذلك  
العد .

ولقد شهدنا في الجاهلية المعاصرة وهي التي ترغم أب قمة لتاريخ البشرية في تمثيل معسى  
عدل والإحياء والمساواة ! كيف تنحار لمحاكم كلها ولقصاة كنهم حين تكون القضية  
معروضة حصومة بين واحد من المسلمين وواحد من غير المسلمين ! يستوى في ذلك  
المحاكم الخاصة والمحاكم العامة وهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن ! هذا كله والإسلام لا  
يعتدى ، ولكنه دئي معتدى عليه ، والمسلمون اليوم هم المضطرون المشردون الذين تسلب  
أموالهم وأرضيتهم وترهن دمارهم بلا حساب ، فكيف يكون المسلمون يكيدون وكيف لو  
كانوا يعتدون ويتآمرون ؟ !

ألا إنها القصة السامقة التي لا يقيمها تنده إلا الإسلام ، ولا يرقها إلا المسلمون في كل  
التاريخ !

نقد كتب كل لظروف « مشحمة » عن اتهام ذلك لليهودى وتبرقة ذلك المذوق المذى  
ينتمى ولو شكلاً إلى الإسلام !

عالمداوة بين مسلمين ولهود قائمة في المدينة

وكند اليهود بالمسلمين قائم وصح ليعيان ، ويمكن أن يكون حرم من هذه الكيد سرقه  
نة من آلات الحرب من واحد من المسلمين !

وبوجه التهمة لواحد من المسلمين ( و ب كان صادقاً ) يصير سمعة مسلمين كلهم وهم  
في هذه الحرب الضارية ، في الخارج مع قربش وحشائها ، وفي الداخل مع اليهود  
والمذيقين ، ويمكن أن يستغفه الأعداء في التجريح والتشويه

له لث فإن أى أحد غير الإسلام والمسلمين كان قعيا أن يعتدى على الدعوى حتى لو  
نت العكس ، ويمضى في تجاهل الأمر ، وإبصو لتهمه باليهودى ، وانتسز على الفاعل  
لأصل

ونكنه يومئذ من يكون هو الإسلام ، ولن يكونوا هم المسلمين !

ما جاء الإسلام ليستر عن انحراقات البشرية أو يسامح مع شيء منها ! وما جاء  
بيجارى الخلفيات فيما تقع فيه من انحراف !

نقد جاء ليشي « الإنسان الصالح » في الأرض

الإسناد الذي يها من بشرته كامة على الأرض ، ولكن في أفضها الأعلى الذي يحق  
للمصخرة اسوية كيانها الكامل « في أحسن تقويم »

« بعد حلها الإسناد في أحسن تقويم ثم رددناه أسهل سمعين ، إلا الذين آمنوا  
وعملوا الصالحات »<sup>(١)</sup>

حاء لئلا صورة الصحيحة لبشرية كمي يسعى أن تكون ، في واقعة مثالية ، تأخذ  
الكائن بشري كما هو ، وترفعه إلى أعلى ما يطيق ، بعير عمر ولا مشقة ، خطوة خطوة حتى  
يرفض القمة السامقة ، ويشرف على انبثريه من ههنا ، بيها يها إلى الطريق

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم  
شهاداً »<sup>(٢)</sup> والاستمرار في اتهام اليهودي الصرد - رغم كل الظروف المؤتنة والمشحمة على  
اتهامه - كان يحدث شعرة في هذا الساء لشاهق اسدى يشبه الإسلام ، لا للمسلمين وحدهم ،  
ولكن لكل البشرية

وفي سبيل تبرئة ذلك البناء الشاهق من تلك الثمرة ، نزلت هذه الآيات التسع تبرى ذلك  
اليهودي البريء من هذه التهمة ، وإن كان يتمنى إلى قوم لا يعرفون اسراة ولا يرقبون في  
مؤمن إلا ولا دمة ، وينقربون إلى الله - في رعمهم ! - سبك دماء المسلمين ووضعها في  
عجينة « مقدمه » يتركون يأكلها في عيد الفصح 11  
إنها ليست حادثاً عارضاً يمر فينبسى . .

إنها درس هائل في التربية على الأفق الأعلى ، لا يقدمه إلا الإسلام ، ولا يقدر عبه إلا  
المسلمون

ودرس في التطبيق لعمى للعدل الرباني ، الذي لم تعرفه أمة في الدريج ، إلا الأمة التي  
رباه القرآن

\* \* \*

ولقد كهر ذلك المدفوع الذي كشفه هذه الآيات التسع ، وانضم إلى لشركين ! وما كان  
لإسلام لينألف قلبه لأنه يحمل اسماً مسلماً ، على حساب العدل الرباني الذي يريد إقامة في  
الأرض براماً لكل البشرية . وإنما نزلت فيه هاتان الآيتان  
« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين بوله ، بولي

(٢) سورة البقرة ١٤٢

(١) سورة البقرة ٤-٦

وَيَضَعُهُمْ فِي سَاءِ مَظْهَرٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعْمِدُ عَلَىٰ يَشْرِكُ بِهِ ۚ وَيَعْرِفُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ  
وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ صَلَّىٰ صِلًا لَا بَعْدَ ۚ

لقد ذهب ابن أبيرق مع الشيطان ، وبقي ذلك من القدر دوماً وعنه المسلمون وحفظوه . فتعلمه ابشر به منهم يوم تفي ، بل يسدها ويحب أن يعرف الطريق ؟

\* \* \*

ومن هذا الذي ارتد إلى الشراء يلتفت السيق إلى المشركين وما كانوا يوفون بعدون  
 « إن يدعوك من دونه إلا إثم » وإن يدعوك إلا شيطاناً مريباً ، لعنه الله وقار  
 لأعدائهم من عبث نصياً مفروراً ، ولأصلحهم ، ولأمرهم هليكن أدان الأبناء  
 ولأمرهم هليكن حتى الله ومن يتحد الشيطان وياً من دون الله فقد حذر حذر مريباً  
 بعدهم وصيهم ، وما بعدهم الشيطان إلا عروراً أولئك مأوهم جهنم ولا يجدون عنها  
 مصباً

لقد تعيرت ولا شك بعض مظاهر السيادة ، مما يعد هناك « الإثاث » نرى كأن  
انحرفت في شركهم بعدونها ولكن عداوة الشيطان دعاهم لم تغرب رحلت محل « الإثاث »  
انقديمه أولاً أخرى الدولة ، والرعيمة ، والمذهب ، والحرب ، والعنم ، والقديم ،  
والإنساح ، والخصارة ، والسطور ، والمجتمع ، والوطن ، والقومية ، والعالمه ، والإنسانية ،  
والعملانية ، و « المودة » ، والخس ، والحرية الشخصية .

عشراس من « الإنات » اُخذت من تحت الإنات لسادحة السيفه اتى كى بعدها  
العرب فى ايامه ، نُصِفِي عِيَهَا نَقْدَاسَاتِ الرَّائِفَةِ ، وَبَعْدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَبَطَاعَ أَمْرَهَا لِي  
مُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ ، وَفِي بَعِيرِ حَلَوِ اللَّهِ  
مَا تَعَرَّبَ إِلَّا مَظْهَرَ الْعِبَادَةِ

﴿ عَطَايَا ﴾ !

ولكن الجوهر لم يتغير ، إنه عبادة الشيطان

ويُلمت بطرد في الآية تلك الخطوات المتبعة التي يستحوذ بها الشيطان عم عادته

«وَأَصْلُهُمْ وَأَمْسِيَهُمْ وَأَمْرُهُمْ»

هد ستتبع الدقيق احدى مصوره الآيه لا يذكر اعتباطاً إله يصور الخطوات متدرجة اننى

يُتهم بها عبادة البشرية على أيدي الشيطان

والمرححة الأولى هي لإضلال ، بمعنى لإبعاد عن الطريق المستقيم ، ومعنى التعمية

عن السالكين فهكذا يصنع شياطين الحن والإيس مع البشرية يعذبون عن الطريق المستقيم ، طريق الله ، مع اتعمده عليها في مبدأ الأمر وإيهاهم أن يرأى تسلك الطريق الصحيح ! وإذا بعدوا يصغر تحيى انتمسه بأن الطريق حديد أشهى ثمرة وأروح وأجل واحسن عاقبه من طريق الله ! فإذا فعلت التسمية فعلها وأسرع « حمير »<sup>(١)</sup> في أخرى يركبهم الشيطان ، فقد ملك أمرهم إذن وتكنس وهذا تحيى مرحلة الأمر من الشيطان ولإدعوا من أندسة أنتى يركبها الشيطان ! ثلاث مراحل مسبعة تكنس بعدها العباد ، ويستشرى بعدها العباد

« يعذبهم ويميتهم وما يعذبهم الشيطان إلا عرورا ! »

وهو هو إلا العرور ذلك لدى وقعت فيه إغماطية المعصرة حتى هيا في اندب هل أن تصل إلى مصيرها في الآخرة ؟ !

هذا الملق والصناع والخبرة ولاضطرابات والحنون ولاسحار ولاحرف و لشود والخنمر والمحدثات و

هل هو شىء غير هذا العرور أنتى أوقعهم فيه معبودهم لدى عبوه مر دور الله ، وتجحوا بعبادته وتخذوا به الله !

« أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً . »

وفي المقابل الكامل لذلك نجد المؤمنين عباد الله

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، وعد الله حقاً ، ومن أصدق من الله قيلاً ؟ »

فالجنات مقابل جهنم والجنود هـ مقابل مخلود هـاث وهـ وعد الله وهـاك وعد الشيطان هـ وعد الصادق ، وهـاك وعد العرور .

\* \* \*

وإن لله ن وعد الصادق هـ لا يحبى أحداً من حقه إنه بحرى به المؤمنين حمأ

والإيمان ليس بالتمنى

« يس أطيعكم ولا أمانى أهل الكتاب ! من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دور الله

ولاً ولا نصيباً ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون فيها »

( ١ ) يقول السمرقند للهود أن الأنبياء هم « الحمر » الذين خلصهم الله ليركبهم شعب الله المختار<sup>٢</sup>



ليس الإيمان بالمعنى ولا بالحيز ، ولكن ما وفر في القلب وصدقة لعمل وهذا  
 الخراء الصالح لدى عبده الله لعبده ، وهو نعم الحجة ورضوانها ، لا يمنحه الله لأى كان  
 لمجرد أن يسمى « وهو قاعد عن العمل ، وأمسه في اتجاه وعمله وسلكه في اتجاه آخر |  
 إن هذا الدين حاد وهو دين ممارسة عمله في واقع الأرض ، لا دين شعارات يرفع في  
 أهواء

وفد من ما لدرس في آيات الأخيرة من سورة آل عمران « إن في خلق السماوات  
 والأرض وحلاف النبل والنهار لآيات لأولى الألب » انتهى جاء في حتامها « فاستجيب  
 هم رهم أنى لا أصبح عمل عامل منكم من ذكر أو أنى بعضكم من بعض » وهو يعود  
 لدرس ليلقن للمسلمين من جديد .

به بغير التطبيق العمل لا يقوم « واقع هذا الدين

وس يقوم هذا الواقع بالتمنى والتمنى - وحده لا شئ شئ على الإطلاق ولقد أش  
 لمسلمون الأو ثر ذلك الواقع لصالح الذي أشوا به التطبيق العمل لمضى هذا الدين وفيتمته  
 وأوامره وتعليقاته وشرعه وتوجيهاته ثم لما حزل المسلمون دينهم إلى التمنى ، صاروا إلى  
 ذلك الغنى الذى يحدث عنه لرسول صلى الله عليه وسلم بعد أربعة عشر نوب من الزمان  
 ونس يعودوا إلى وضعهم ومكانتهم التى خلقهم الله من أحدها حتى يكفوا عن ممارسة الإسلام  
 بالتمنى ويعودوا إلى ممارسته في الواقع بالموس

والخراء في الآخره حاسم صريح « من يعمل سوءا يجز به ، ولا تجد به من دول الله ودنا  
 ولا مصبرا »

إنما نجد الخراء الحسن من يعمل لصالحات وهو مؤمن ودلت هو « الدين »  
 « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن وتبع ملة إبراهيم حنيفاً » وتعد الله  
 إبراهيم حنيفاً والله ما في السماوات وما في الأرض ، وكل ما بكل شئ عطف »  
 « هو لتسم الكمال لله وتباع ملة إبراهيم ، وهى هى ملة محمد صلى الله عليه  
 وسلم ، إن يردد القرآن ذكر لصلة بين دين محمد صلى الله عليه وسلم - ودين إبراهيم لأن  
 مشركى قريش من ناحية وأهل الكتاب من يهود وبشارى من ناحية أخرى كلهم يدعون أنهم  
 على دين إبراهيم فكأن القرآن يقول لهم من كان على ملة إبراهيم فليدخلى في دين محمد  
 - صلى الله عليه وسلم -

ولتعقيب الأحرار أن الله به ما في السماوات وما في الأرض وهو محيط بكل شيء . فهو محيط بما يفعله المشركون وما يفعله أهل الكتاب .

\* \* \*

ينتقل لساق نغلة تبدو لنا معجته ، فيعود إلى موضوع من الموضوعات الرئيسة في السورة : موضوع السماء وعلاقات الأسرة

« وستقنوت في السماء . . »

فيذكر يتامى السماء بلواتي تحدث عنهن في الآية : لثانية من أول السورة . وعن بشوز الروح وطريق الإصلاح .

وماب أن تعرض للموضوع في محله هذا . وبكامله فقط إن لفظة ليست معجته تماماً كما تبدو لنا لأول وهلة . فقد سبق فيها « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ؟ » ومن سلام الوجه ، ولتسليم لله في كل أمر جاء هذا الاستثناء من المسلمين للرسول صلى الله عليه وسلم . فقد توفوا عن لمضى في أي شأن من شئونهم حتى يسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن أمر الله هم في هذا الشأن ، وكيف يريد لهم الله سبحانه وتعالى أن يتصرفوا به . فهذا الاستثناء قبل التصرف في الأمر هو التطبيق العملي للإسلام أبرحه الله الذي ذكر في الآية السابقة القرينة . ومن ثم فلا انفصال ولا انقطاع في الساق وذلك فصلاً عن ملاحظته التي أشربا إليها من قبل ، وهي أن هذا الدين كله وحدة ، وكله سواء : المقيده والشريعة والبشرية ونشويه . .

والحدث في أمر الشور وحقوق الإصلاح تتكرر به الإشارة إلى التقوى أكثر من مرة « ورب امرأة خانت من بعثها بشوراً أو إعرصاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ، والصلح خير . وأحصرت لأفك الشح . وإن تحسوا وتنفوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ومن تستطبعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصن ، فلا تقبلوا كل ميل تهدروا كالمعلقة . وإن تصلحوا وتنقوا فإن الله كان عفواً رحيماً . وإن ينقضوا عهد الله كلاً من سمعته . وكان الله واسعاً حكيماً والله ما في السماوات وما في الأرض ، ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وريناكم أن اتقوا الله . . . »

وفي تلك الأمور الدقيقة التي عمن ما بين نروحين فإن التقوى هي الصمان الأول ليعود والإحسان المطبوعين في الموقف ، ثم تحيء الأمر كلها بعد ذلك . وبذلك يشدد السياق في الأمور بالتقوى ، ويصل الأمر إلى حد التهديد

« وإن يكفروا فإن الله ما في السماوات وما في الأرض ، وكان الله عبياً حميداً . والله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله كيداً ، إن شأ يدهكم أنها للناس ويأب بأحرار . وكان الله على ذلك قديراً »

ويجىء التعقيب الآخر ببيان ما يحدو الناس إلى عدم تقوى ، وهو الرعشة في متاع الدنيا ، وبين العلاج

\* من كان يريد ثواب الدنيا فقد الله ثواب الآخرة ، وكان الله سمعاً بصيراً »  
فلا يحرمكم ثواب الدنيا ألا تتقوا<sup>١</sup> ذلك أن لتتقوا نصم لكم ثواب الدنيا والآخرة معاً . والله سميع بصير يراقب أعمالكم ويجزيكم عليها

\* \* \*

نحن الآن في أواخر السورة ، وهذا الجزء الأخير منها يتناول بالحديث أهل الكتاب بشقيهم اليهود والنصارى ، ولم يبق يشفيعهم من ادعى الإسلام من اليهود ومن ادعى الإسلام من العرب ويتشبههم به يشبه الأندلسهم ، والمفاصلة معهم ولدنك بعد نعمة الحديث بصفة عامة أشد مما ورد في لسورة من قبل بشأن هذه الطوائف جميعاً

وعلى أبواب هذا الحديث عن تلك الطوائف ، التي لا يؤمن بالله إلا الله بعد آيتين دوائى دلالة خاصة موجهتين إلى الأمة المسلمة :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا فوامس بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن عبياً أو فقيراً فله أرى به ، فلا تسعوا لهوى أن تعدوا . وإن يلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً . يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى رآ على رسوله وانكتاب الذى أرب من قبل . ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً »

ب الآيتين معاً ، ثم كلاً منهما على حدة ، تُعد هذه الأمانة إحصاءاً خاصاً لمهمة الكبرى انتهى بسطت به

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ونهون عن المنكر وتؤمنون بالله »<sup>٢</sup>  
« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »<sup>(٣)</sup>

إنها أمة متميزة والفرد في توجيهاته كلها يؤكد هذا التميز ويؤكد عليه . فهو يقرر على

(٢) سورة البقرة ١٤٣

(١) سورة آل عمران ١١٠

أنه حقيقة واقعه « كنتم خير أمة « وهو كذلك يؤخه إليه توجيهاً دائماً ليعمق معناه على  
 حس الأمة المسلمة ولتقوم بتكادفه بفعل فهو ليس عميراً أحرف بس شعراً يرفع  
 وليس مجرد أماني بحول في الخاطر « ليس بأمتكم « إنما هو واقع محدد اسميات به  
 تكاليف في النفس والمال في المشاعر والسلوك في تكوين الفرد وتكوين المجتمع . في  
 كل اتجاه

وهو ليس كذلك عميراً عنصرياً متسماً بالدين كالذي بدعه بنو إسرائيل ، ليستعبدوا به  
 الأمم ويتحدوه دوات بركبتها كما يقول هم التمسود ولا عميراً عنصرياً قوماً كالذي كانت  
 تدعيه ألمانيا النازية لتستعبد به شعوب لأرض . .

كلا ! إنه عمير حليص بالعقيدة ، وبالتطبيق التوافقي لهذه العقيدة وتحمل تكاليفها  
 وتبعاتها ، عمير مفتوح ، يدخل منه كل من أراد الدخول من شعوب الأرض وأحاديثها وألوانها  
 ولغاتها وعناصرها وقومياتها ، لا يجذون حائراً بحور دوسهم ، ويصنعون جماعاً مسلمين ،  
 ويتوجه إليهم ذات البدء : « يا أيها الذين آمنوا . »

ونك سوا غير مكرر في التاريخ لشئ كنه هي التي اسوعيت لأحاسيس وللعنات  
 والألوان على مستوى واحد وبلا حواجر ، وأصرفت عليهم جميعاً نقياً واحداً « مسلمين »  
 « ألا فصل لعربي على أعجمي . . . إلا بالقوى »<sup>(١)</sup>

وكل التجمعات البشرية الأخرى في التاريخ ، قديمة وحديثة سواء ، لم تكون « أمة »  
 بهذا المعنى ، لا فرق في ذلك بين لتجمع الروماني الشهير ، والتجمع البريطاني في  
 الكومنولث ، والتجمع الروسي في الاتحاد السوفيتي ، والتجمع الأمريكي في الولايات  
 المتحدة ، أو غيرها من التجمعات التي عرفها البشرية كلها فشلت في تحقيق معنى  
 الأمة « بسب واحد رئيسي ، أنها لم تقوم على العقيدة في الله ، أندي مستوى في انعبودية به  
 الحاكم والمحكوم ، والنبل الفاتح والسدد المفتوح ، ويصبحون كلهم - بمجرد إسلامهم - إخواناً  
 في الله وإخواناً في الدين ، حتى وإن كانوا من قس من الأعداء المنحازين

« كيف تكون للمشركين عهد عند الله وعد رسوله ؟ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام  
 فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقوا  
 منكم إلا ولا ذمة ؟ يرضونكم بأفواههم وتأنى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون اشتروا آيات الله

(١) أخرجه أحمد في مسنده

نصاً قليلاً فصدوا عن مسلة إسم سباء ما كانوا يعملون لا يرفبون في مؤمن إلا ولا دمه ،  
وأولئك هم المعتدون . فإن تلموا وأداموا الصلاة وتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات  
نقوم يعلمون»<sup>(١)</sup>

ربها أمة العقيدة ، لا أمة الجنس ولا اللون ولا الأرض ولا النجوم العقيدة الخاصة في الله  
الواحد ، المنطقة في واقع الأرض وكان لقراب كم فله هو كتاب التربية هذه الأمة هو  
لدى أنشأها انتهاء ، وهو الذي ربها ووجهها .

وهذا لا يتنازل في الجزء الأخير من سورة مما حان من هذه التربية وهذا التوجيه  
« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين  
والأقربين . . . »

به الإعداد على الأفق الأعلى لنقوم هذه الأمة بمهمتها  
فمن مهمتها عامة لعدد الراسي في الأرض ها وكل البشرية  
ورقمة تعدل لراسي في الأرض تحت إله نزيه خاصة وإعداد خاص فالشر - إن لم  
يقوموا - فرصة دائمة للميل مع الأهواء . وسجود للحق ، الحق لدى لا تُنيل مبراه فرائد ولا  
مردة ولا مصالحة ، ولا بعض ولا حسد ولا براع ، هو قيمة الكويز الشري في أعلى أفاقه ،  
ولكنه لا يحسم اعتباراً بغير التربية والإعداد والتوجيه  
والذي صممه الإسلام مع حين الأوب لم يكن « وعظاً وارشاداً » بل دعوى المتدرب اليوم في  
الخطب والأحاديث لذي به إن كان مهتماً ونزيهاً . ولقد كان الدرس المتعقّب منيهودي  
لدى برلت ، لايات لدرئته من مهمة طلبة ، نموذجاً واقعياً لبحث النور من التمهيد والتربية  
التي أنشأ هذه الأمة وأعدّها لمهمتها

وهذه الآية هي استمرار لدات لتوجيه

« كونوا قوامين بالقسط شهداء لله »

فما يصلح هذه الأمة بمهمتها الكبرى وهي ريده البشرية وقادتها إلى طريق الخير بغير هذه  
النصه بغير سلوكها وتعاملها أن تكون قوامه بالقسط ، شهادة لله ، لا لمصلحة ولا هوى  
ولا لا تتهاون فرصه

والعبر يستخدم ما يسمى في الصناعة صنعه الملاحه<sup>(٢)</sup> « قوامين » أي شديدي القيام

(١) سورة نورة ٧-١١

(٢) في تحفظ عن هذه التسمية لافي يحلو بالمراس فقط بر و الكلام العادي أيضاً ، بالمقصود بها عادة شدة  
القيام بالنفعل وليس لملاحه هـ . والملاحه بوحى سحار القصد ، وبغير هذه قصد المتكلم في أعين  
الأخوال

أو كثرى لهم - ويتعبر دلالته ولا شئ - فيسـ . المطلوب أن تقوم هذه الأمة بالسط مرة  
أو مرات متتالية ! إنما تطل تقوم به حتى يصبح ذلك عادة ف نصقه بي ، وحرءا من بسبها لا  
يتفصل عنها

• كـ الإنسان عرصه لأن تفصل عنه هذه النصفة - ولو نرى عليها فترة من وقت -  
حين يوجد حذب شديد من أحد الحواسب ، فقد جاء في الآية تقويات هذا الرباط  
وتحذيرات من انفصاله  
« شهداء الله »

فهد تذكر بأن الأمر كله يتم لله ، لا بمصالح والمنافع ، ولا دئء الناس ، ولا إثناء النفس  
بصاً ! فقد يكون - فع إلى العذب حب إنشاء من الناس ، أو حب إنشاء من النفس ! أي  
الشعور بظلمه أو بالتمييز بقيام بعمل معين ! وكل ذلك فصلاً عن انحرافه العقلي  
والنفسى - عرصه لأن يذهب به أي يحود يحدث من النفس أو لاس ! ولكن المطلوب في  
التوجيه نصحيح أن يكون هذا الأمر لله وحده - وبذلك يستقيم الأمر عقيدياً ونفسياً في أن  
واحد

« ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . »  
فهد تحذير من أشد مناطق الخلد التي يتعرض لها الإنسان فيصبح عرصه لأن تفصل  
عنه حاسه العدل إن لم تكن وثيقة الرباط بالنفس  
ثم تحذير مما يسميه في بعضنا المحاضرة « الانتهازية » أو « الوصلية » أي بملاة دوى  
السلطان أو إخوانه والنموذ بمحصل على مصلحة منهم  
« يمكن عباً أو فقيراً بالله أولى بها »

فلا العنى ولا يحقر له دخل بمبرر العدل ! ولا بتعير بصياعد المبررات بتعير المورون به !  
تحذير شسه مدبث بتحذير في سريرة الحبل « ولا تكونوا كالى نقصت عرها من بعد قوة  
أفكث نحذون أبيكم دخلاً فيكم أن تكون أمة هي أربى من أمة - بها يندوكم الله به ،  
وليس بكم يوم لقامة ما كنتم فيه تحفون »<sup>١</sup>  
« فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » .

« هوى - شسى أبو عه وصوره - هو اندى يجبد بالناس عن العدل - وآية تبه المؤمنين إلى

نقطة الصعف هذه في الكتاب شري للتعنتوا ليها ويقوؤوه ، لكنى بقوة على حمل الأمانة ،  
وهي نعمة نعمة فرغت منها لسبوت والأرض والحيال وحملها الإنسان  
وهذه التوجه مدى توجه به لأمة المسلمة يذكرنا به وحه به سبي الله دود « يا داود يا  
حبيبك حليلة في لأرض وحكم من الناس بالحق ، ولا تشع اهوى فبصلت عن سبيل الله  
ب الدين يصلون عن سبيل الله هم عدد ب شمس من سوا يوم الحساب »<sup>١١</sup>

ثم يسمر السبق بخدرهم بعمه ترتفع إلى درجة لإلدار !  
« يا تنووا أو تعرضوا فإن الله كل بما تعملون حبراً »  
وهكذا تعد الأمة المسلمة لقيام بحمل الأمة لا نفسها بحسب ، بل بشرية كونه  
تحمل مير ، العمل لرباني وطبقه في واقع لأرض بصورة لا مثيل لها في التاريخ  
تطغه فسرئ ذلك اليهودي الذي سرق مدرع برعم كل الخصومة والعداوة حتى تشها  
يهود

وتطغه على ابن عمرو بن العاص حين فار عليه شاب قبلى في سباق خيل قصر به  
بالعب وقال به حده وأب بن لأكرمين هيشكو ولد الشب انقطى إلى عمر بن  
الخصاب في المدينة ، فعطى عمر انعب نوال الشب ويهول به صرف من لأكرمين !  
ويلعب إلى عمرو فيقول له : « عمرو ! متى استعديتم الناس وقد ولدنهم أمهاتهم أحراراً !  
وتطغه حين يجد على كرم الله وجهه درعه المفقودة عند يهودي فلا يتزعها منه بسطة  
الخلاقة وهو يعلم يميناً أنها درعه ، إنما يشكوه لقاصيه شريح ، حتى إذا أنكر لليهودي  
يتنصت انقاصي لأمر المؤمنين ويعون له يا أمر المؤمنين هل من بية ؟ ! فيتنصم على كرم الله  
وجهه ويقول صديق شريح ! ما بية ! ! فيقصي شريح بالدرع لليهودي !  
وتطغه مثاب لمراب والافه على مدار القروب ، على بحول نعره اشترية فقط ، ولا  
تستطيع أن تعرفه حتى تعرف الله ، وتربى على حلاق لا إله إلا الله ، فتكون قومة بالسط ،  
شهادة الله !

وتحى الآله ثانيه استمراراً لهذه التهيئة التي تُهيأ لها الأمة المريدة في التاريخ  
« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، وانكتاب أنسى نون على رسوله وانكتاب الذي  
أمر من قبل . . »

بـ محور لا نذكر كنه في قيام هذه الأمة بمهمتها هو الإيمان بالله ومن ثم يؤكد عليه النص تأكيداً<sup>(١)</sup>

« يا أيها الذين آمنوا آمنوا . . . »

والتي تؤكد يجب انظر ولا شك هؤلاء الذين يطلب إليهم أن يؤمنوا هم المؤمنون بالفعل نص الدعاء الذي يوجه إليهم<sup>١</sup> وهو كبر الكلام يا أيها الذين كفروا آمنوا أو يا أهل الكتاب آمنوا ، لما كبر في تعبير ما صنعت انظر ، فهم قوم غير مؤمنين يدعون إلى الإيمان أما أن يدعى مؤمنون بالفعل ليؤمنوا فشيء يفت النظر بكل تأكيد<sup>٢</sup>

بـ المطلوب فلا شك يسر تحصيل حاصل ما هو كبر بالفعل إنه المطلوب هو التمسك بهذا الإيمان القائم في النفوس ، والاستردة منه ، والعمل على تسميته على الدوام لكي لا ينقص ولا يتأرجح .

ثم إن هناك تفصيلاً لموعده الإيمان وأركانه ، مقصوداً هنا بالدات ، في إعلان المصاحف من هذه الأمة وعبرها من الأمم

« آمنوا بالله ورسوله » والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل<sup>٣</sup> فليس المطلوب إيماناً مطلقاً بالله فابوئى والمشرق يؤمنون بوجود الله وقد كان العرب في حاجتهم وشيبي ومشركي ، وكانوا مع ذلك يعرفون أن الله موجود ، ويسمونه رب الأرباب ، ويقسمون به ففوج ورب الكعبة<sup>٤</sup> ويعرفون أنه خالقهم وخالق السماوات والأرض ، ومدبر الأمر في السموات والأرض<sup>٥</sup>

« ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ! »<sup>(١)</sup>

« ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ! »<sup>(٢)</sup>

« قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يحمر ولا يحمر عليه إن كنتم تعلمون<sup>٦</sup> »  
سيقولون الله !<sup>(٣)</sup>

ومع ذلك فقد كانوا كفاراً كما وصفهم الله عز وجل صاحب الأمر في السماوات والأرض ومعطى لأشياء أسماها الحق به الإيمان المطلوب يسمى أن يكون كما خلقه الله الإيمان بالله ، وبالرسول صلى الله عليه وسلم ، وبالكتاب الذي نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم حجة كل مقتضيات الإيمان وشروطه والكتاب الذي أنزل من قبل على لسان السابقين . ويشرح الأمر في تفصيل أدنى في الجزء الأخير من الآية

(٣) سورة مؤمنون ٨٨-٨٩

(٢) سورة الزحرف : ٨٧

(١) سورة عمران ٢٥



« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ صلاتاً بعيداً »  
وهذه الأركان المذكورة في الخبر الأخير من الآية ليست شيئاً آخر معاً بل ورد في صدر  
الآية بوصفها منطلقات الإيمان ، أي هي تفصيل لما جاء في « لكتاب يدى برّك على رسوله » ،  
فهذا كله وارد فيه

وبذلك نحدد الإيمان على وجه مدققة ، ولا بتجميع حتى يدخل فيه رؤى ومفردات وكل من هنا ودت بحجة أنه يعرف الله في قلبه ، ويتعبد بصوره من صور لتعدد  
إله الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والسيب ( وانقدر خبره وشبه كما جاء في  
حديث « هذا خير مما أنتم تعلمكم أمر دينكم »<sup>١</sup> وهو ماورد تفصيله في « الكتاب الذي  
رُسل على رسله » )

و (لما) بالله معناه عبادته ، ومعناه طاعته ، ومعناه تخكم شريعته كما جاء في سياق السورة .

علايه يدل تحديد عن وجه الدقة معنى الإبرار المطلوب من بشر ينصنعون بضعة الإبرار ،  
 في ذات الوقت الذي تشكل فيه رابطاً من تلك الرباطات لإقامة لمسة في ثياب السورة ،  
 ومحنة تقوية تعطى شحبه جديدة من الإبرار تعين على احتجاب لتكاييف ، هي كذلك  
 إيدل بالمفصلة مع الفئات برئعه عن الإبرار ، بمهذبه بالجزء الأخير من الآية  
 « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد صلل صلاً بعيداً » ومن هنا  
 يشتد المعمة تقريياً حتى آخر السورة

« ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم كفروا ثم اردوا كفراً ، يكره الله ليعصرهم ولا يهديهم سبيلاً بشر المنافقين بأنهم عذاباً أليماً . »  
 حتى ينتهي اليق بشأنهم عند قوله تعالى : « ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ومن تجد لهم بصيراً إلا الذين آمنوا واصلحوا وعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ، فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً »  
 ونصف وفعات سريرة عند بعض هذه الآيات

« وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إن مثلهم فلنكون الله حامع المصفيين والكافرين في جهنم جميعاً »

١٠ رواه الشيخان قال وما لآيين ؟ أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله بالبر خير منه

إنه تحذرو شديد للمؤمنين أن يفعلوا مع الكافرين و المنافقين وهم يكفرون بآيات الله  
ويسهرئون بها ، حتى يقول لهم « بكم إذن مشهم »

نعم ! إنه يحذرهم وهم في أول خطوة في الطريق ، لأن نهاية الطريق هي الكفر الختبقى  
الذى لا شك فيه

بالحسن ليتبدل على الأمر المكرور !

وما لم يحسم الإنسان أمره عند الخطوة الأولى على المشرق ويرجع عنه ، فإنه عرضه لمراد من  
الابترلاق يصل به إلى الهاوية

كذلك يحدث في حياة الفرد ، وحياته الاجتماعية ، وحياته الأمة

واقرب تحدث « عن الذين كفرو من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم  
ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لنُس ما كانوا  
يعملون » ورسول صلى الله عليه وسلم يحدث عن هذا الأمر ذاته أن أول ما بدأ انفساد  
في بني إسرائيل أن أحدهم كان يلقي صاحبه الذي كان يعجب عليه فعلة بالأمس فيجده على  
حاله من المكر فلا يسمعه ذلك أن يكون جلسه وأكبله وشرهه فلعبهم الله

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واحداً في مجتمع الذي يملك الإنسان فيه أمره  
، ويملك أن يوجهه في أحبه الأمر والنهي ، فإن انحلاله التي برلت فيها هذه الآفة لم يكن  
استمرار فيها قد تمكنوا إلى الحد الذي يجعلهم يستطيعون منع أو تثني بكفار و منافقين من  
سعالن بالكفر بآيات الله والاسهراء بها بذلك كان المطلوب من المؤمنين فقط لا يفعلوا  
مهمهم حتى يحوطوا في حديث غيره وهو أقل ما يجب على المؤمن في هذه الحالة ، وإن لم  
يفعله - رهب أو مجمله أو لأي سبب من الأسباب - فقد وضع قدمه على المشرق الذي يؤدي  
إلى الكفر الصريح

وهذه ثابته أشربا إليها من قبل ولا بأس من العودة إليها ها في مكاتبها ، وهي أن مجرد  
القيام ببعض شعائر العبد - في ذاته - لا يعطي الناس صفة الإيمان ولا صفة الإسلام دلالة  
هنا تقرب عن المنافقين

« يا منافقين لماذا عرب الله وهو حاد عنهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون

ناس ، ولا يذكرون الله إلا غلباً »

فابحث انفسهم بالايها - الذي بعصهم - هو استحاكم إلى شرعة الله ، وانرضى به

والتسليم ، كما جاء في الآية [ ٦٥ ] من قبل

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في انفسهم جرأاً على نصيت ويسلموا تسلياً »

وإذا لم يفعلوا ذلك فهم مافقون ، وإن نظاهروا بالإسلام وأدوا بعض شعائر التعبد أو حتى كلها مع المؤمنين ! لأن لنصوص صرحة في أن الدين يعطهم صفة الإيها ليس هو القيم بشعائر التعبد ، بل التحاكم والرضى والتسليم .

ولا يتعارض مع هذا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم رجلاً يعتاد الساجد فشهدوا به بالإيها » فمن المنهى أن يكون هذا الرجل لدى يطلب الرسول صلى الله عليه وسلم له الشهادة بالإيها ، مسلماً لحكم الله ورسوله مدعياً به وإلا فمن شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بالإيها ، ولم يطلب من أحد من المؤمنين أن يشهد له بالإيها !

وابوجه لأخيرة مع الآية التي تحتم الحديث عن المدافعين ، الذين قال عنهم في الآية السابقة هـ مباشرة بهم في ادرك لأسفل من ادرك « إلا الذين تابوا ، وأصبحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصو دينهم لله ، فأولئك مع المؤمنين . . »

انظر كم شرط من الشروط فرضها السابق عليهم تابوا ، وأصبحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصو دينهم لله .

ثم بعد ذلك كنه لم يصر فأولئك من المؤمنين أني قال « فأولئك مع المؤمنين »

بيها قال عن الكفار الصرحة في سورة التوبة « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين . » (١)

دلت أن المدعى أسوأ بكثير من الكفار الصريح ولكفر الصريح مستقيم بطبع ولكن على قاعده منحرفة فإذا قومت به المدعى التي يعف عنها استقام أمره كنه أما المدعى فهو تركيبي بفسيه سببه عاينه في السوء ، بدلت يحتاج إلى إصلاح كثير طويل حتى يستقيم ومن هنا كانت هذه الشروط كلها ثم هذه النسخة في نهاية المطاف !

\* \* \*

ثلاثيات هـ تفصل في اسياق بين الحديث السابق عن المساهير ، والحديث اللاحق عن أهل الكتاب ، في موضوعين مختلفين

« ما يفعل الله بعدكم إن شكرتم وآمنتم ؟ وكان الله شاكراً علياً »

« لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً » إن تدبو خيراً أو تحسوه أو تعلموا عن سوء فإن الله كان عفوياً قديراً »

فأما الآية الأولى فقد جاءت بعد الحديث لمفصل عن عاتقين ، وبعد الوعد لهم بأن يكونوا مع المؤمنين إن تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله وهي أخرى بأن تكون تعقيباً حتمياً للحديث عن المساهير كأنها يقول الساقى إنيهم إن تابوا فإن الله ين يعذبهم ، فما يفعل الله بعدهم إن شكروا وآمنوا ؟

ومع ذلك فانهض عام ، واخطب فيه كأنه موجه إلى الناس جميعاً « ما يفعل الله بعدكم إن شكرتم وآمنتم ؟ »

وإنه تنعير موج عجيب

فإن الله لا يحب ابتداء تعذيب الناس أما إذا يفعل بعداهم ؟

إنهم بعداهم لأنهم يكفرون وخير يكفرون عنهم يخرجون على العبودية الواحدة في حق الله ، يخرجون على موسى لكون كاهن ، بعداء لولاه ، ثم يحدث الفساد في الأرض نتيجة ذلك الكفر ، واتخاذ شرائع ومناهج من صنع لبشر بدلاً من شريعة الله

أما إن شكروا وآمنوا فما يفعل الله بعداهم ؟ بل يقول « وكان الله شاكراً علياً »

ولشكر من لله ليس مطيعة لحال كانشكر من العبد ولكن الأفعال والصفات تختلف بتقديس إلى الله عنها « تقديس إلى العبد » ولشكر من الله هو الرضى عن عبده ، وما يصاحبه برضى من الثواب ومع ذلك فإن استخدام لفظ الشكر جزء على إيمان العبد بلمس قلبه لمسة عذيقة ، بمعنى الإيمان وتستحييه

أما آيات التثبيت فتتحدث عن كراهة الله عز وجل للجهر بالسوء من القول لا من ظلم

إنه توحية من اتوجهات الكثيرة التي تربي عليها الأمة بسببه ، والتي ترد في ثبات السورة . يذكر فيها جاء في سورة آل عمران

« وسارعوا إلى عمرة من ربكم وجة عرضها مساوات والأرض أعدت للمتقين ، الدين

بمعصوم في السرء والصبرء والكظمين العظء والعافين عن الناسء والله يحب المحسنين<sup>١</sup>  
ولقد قل ههناء به تصعبه نفوسهم من الإعداد للمعركة وهذا هو  
كديث ب المعركة مع أعداء لا به إلا اللهء من منافقين ومشركين وأهل كتابء تحتاج إلى  
صف متكاتف مساند لا توجد هه شعرات هه شعرات يهد دائئاً أعداء اللهء وفي  
مسئل تصعبه نفوس من أصعبهاء وفي مسئل مسئل الصعب ويرئ الشعرات يأس هه  
استوحه

« لا يحب الله الجهر بالسوء من القول . . »

ب السوء من القول هو مهاجمة الآخرين وسبهم وفدوهم أو عمرهم ولطمهم وإهائمهم  
بأسين من الصدق والسيء من الأعمال ولا يستقيم حان جماعة - ولا أمه - تنشر هه  
معدة لسوء الحق والباطل ولا بد من قيد على لسان حتى لا يفتت بانكلاء بعد حق  
يضيء لا يكون إلا في الصبر الصبر باللهء ذي الحسنة لما يحبه الله وه لا يحبه من القول  
والفعل

وهذه لأمة تربي على هذه احسنه بحه أوامر الله وتوحيهاه فكيف أن نقا هه إن لله  
لا يحب جهر بالسوء من القول لكي تمتنع عنه ويترحم بهي لله عنه

« إلا من ظلم . . »

هه لدى ساج له أن جهر بالسوء من القول جهر به مظلوم وأن فلاناً من الناس هو  
الذي ظلمه ولكن الكلام لا يكون هكدا عاصفاً بعد به يوبح للمظلوم أن يجهر بما  
صعبه من ظلم - مع تذييل لية عليه حسب البصيرة والحق الحق « وكء الله سميعاً  
عليم » يعلم ب ك هه الجاهر بالسوء مظلوماً حقاً أو مقترئاً على الناس بعد حق

ومع ذلك مع هه الإباح فليس هه هي طريقه المثلى التي يحبه الله إن  
لمظلوم يباح به أن يفس عن ألمه ب جهر بالسوء من القول ولكن الوجهه الرباني الموحى هو  
العفو والتسامح والارضاء على انصعيه<sup>١</sup>

« إن بينوا حياء أو تحفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً غديراً »

أريت ب لوجيه اللطيف بعد ب حه الجهر بالسوء<sup>١٢</sup> إنه سبحانه عن « الخبر » بدلاً من  
« السوء »<sup>١</sup> ويتحدث عنه في جميع صوره بذكر أو حاشاً ويخص من خبر السوء عن  
السوء<sup>١</sup>

ولكن أى عفو هو ؟ عفو الدليل العاشر الخانع يجمع لنظلم ويرغم أنه مسامح ؟  
 كلا ! إن هذا أمر لا يحبه الله ورسوله ، ولا يرضى به للإسلام إنها هو « العفو عند المقدرة »  
 كما يشير بحاء الآية « إن الله كان عفواً قديراً » .  
 فهذا هو العفو الذى يحبه للإسلام ، والذى يصفى النفوس حقاً ، ويربط الصنف المسسم  
 برباط من الحب يتنامسك به فى وجه الأعداء .



يتقل السياق بعد ذلك إلى فريق آخر من أعداء الإسلام : اليهود  
 ويستغرق الحديث المتصل عنهم اثنتى عشرة آية متواليه [ ١٥ - ١٦١ ] تروى مسحلاً  
 كاملاً عن أفاعيل اليهود فى تاريخهم الملىء بالأفغويل لمن قوطهم ، أرب الله جهرة وأحد  
 الصاعقة هم بظلمهم ، إلى اتحاد العجس من بعد ما حاءتهم البيئات ، إلى أحد الميثاق  
 العلبط منهم تحت الصخرة ثم نقصهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بعير حق ،  
 وتقولهم على مريم التول وتبهم لها بأشع لنهم ، وقولهم لإسم قتل المسيح ابن مريم رسول  
 الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم

ويعقب على هذا السجل الحافل من «سحارى» بقوله تعالى  
 « فظلم من لدين هادو حرماً عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيراً  
 وأحدهم الربا وقد نهوا عنه وأكدهم أموالهم لأس ماناظر وأعتد للكافرين منهم عذاباً  
 أليماً »

ولما كان بعض اليهود قد آمن بيأساً صادقاً فهم مستثرون من هذا الحكم  
 « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ،  
 والمقيمى الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر ، أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً »  
 وبماسبة أولئك المؤمنين يذكر حقيقة رئيسية فى تاريخ لرسول وفى حياة اشريه  
 إن ما أوحى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو ذاته الذى أوحى إلى السيى من قبل - لا  
 إله الا الله - اعدوا الله ما لكم من إله غيره . وإنهم كلهم قد بعثهم الله لعبه واحدة  
 « فلا يكون لباس على الله حجة بعد الرسل »

« وإذا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح وإسحق وإبراهيم وإسماعيل  
 وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وإتينا داود زبوراً  
 ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً

رسلاً مشريين ومثريين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً

إنه وحى واحد للرسل جميعاً ، وعذبة وحده . .

إن الله - من رحمته - لم يأخذ الناس بميثاق العطرة وحده

« وإد أحد ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا » (١)

ومن رحمته كذلك أنه م يكنهم إلى أنفسهم ، وهو يعلم - سبحانه - أنهم عرضة لهوى والانحراف والصلال وانتكاس العطرة . . . . . أرسل إليهم رسلاً مشريين ومثريين ( لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل )

نعم إنها رحمة الله ، بعد ما أودع العطرة أن تتجه إليه سبحانه وتعنده ، وبعد ما أعطى الإنسان من أدوات المعرفة ما أعطى « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » (٢) ألا يكنهم إلى ذلك وحده ، وألا يعدهم حتى يبعث إليهم رسولاً يدرهم ويشرهم « وما كنا بمعدين حتى يبعث رسولاً » (٣)

ومن كرمه سبحانه يقول : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . . . . . فكانت هم حجة على الله لو لم يبعث إليهم رعم إشهد العطرة وزعم إعطاء السمع والأبصار والأفئدة للناس ! !

ومع ذلك يكررون . . . ويتجججون . . . ويكفرون

فأما بالنسبة لبعثة محمد صلى الله عليه وسلم في الله يشهد .

« لكن الله يشهد بما أرى إليك ، أنزله بعينه ، ولما نكك يشهدون وكفى بالله شهيداً »

ومن ثم يعنف النبي صلى الله عليه وسلم عن المكربين . . . . . ويأخذ اليهود والنصارى في الطريق ، « يوجه الخطاب إلى الناس جميعاً بشأن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ثم إلى أهل الكتاب ليكفوا عن محرفاتهم ويؤمنوا بنور صلى الله عليه وسلم وبالرسل جميعاً على استقامه

« يا أيها الناس قد جاءكم نوحى ما حق من ربكم ، فآمنوا خيراً لكم وإن تكفروا فإن الله ما فى السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً . يا أهل الكتاب لا تعلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق . إنا لمسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم

(٢) سورة النحل ٧٨

(١) سورة الأعراف ١٧٢

(٣) سورة الإسراء - ١٥

وروح منه ، قاموا بالله ورسله ولا تقربوا ثلاثة انتهو حيزاً لكم إني الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيداً »

ثم يقول لهم رب المسح الذي يرعمونه رباً وإها لن يستكف أن يكون عبداً لله ، وكذلك روح القدس « جريين ، هما نالهم هم ١٩

« لن يستكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة انقربون ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسبحرهم إليه جميعاً فأما الذين آمنوا وعضوا بالصالحات فيوفىهم أجورهم ويريدهم من عبده وأما الذين استكفوا واستكرو فعدايتهم عدايتنا ألياً ولا يجدون هم من دون الله ولنا ولا نصيراً »

ثم يبيء في حتام السورة هذا البدء الرهيق للناس ، لناس جميعاً ولذكر أن البدء في مفتتح السورة كان للناس جميعاً كذلك

« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأرسلنا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفصل ، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » .

وهو حتام لحولة الطويلة مع الناس ( قبا عداية واحدة هي الختتام لنهاية السورة عن موضوع الكلاله ) جولة تناولت الإيحاء والمعتقدات ، والأفكار والمشاعر ، والسلوك ودوافعه المختلفة ، ومواقف الطوائف المختلفة عن البشر من القصيدة الرئيسية في حياة الإنسان قصيدة الإيحاء قصيدة لا إله إلا الله ، ومقتضيات لا إله إلا الله وتتأوت بالتربية والتوجيه تلك الأمة المسلمة لتعدها لأمانتها الكبرى تجاه نفسها وتجاه الناس

إنه بدء رهيق ، يحسب إلى الناس الإيحاء بعد هذه الجولة الطويلة مع المؤمنين وانفرتمين

وإنها من المواضع لقضية جد في القرآن ، التي يذكر فيها جزاء المؤمنين وخدمهم ، دون أن يذكر في معاملهم جزاء الكافرين !

إنه بدء لتحذير ، وليس للإمداد ولوعيد !

أما الختام الأخير للسورة فهو رد على فتوى المستعثرين عن الكلاله ، وهو موضوع سبق ذكره في السورة وإن طلب الصوري - كما قدما من قبل - فهو علامة من علامات الإيحاء والتسليم وإن إعطاء الفتوى هو بيان ورحمة من رب العالمين « بين الله لكم أن تصلوا والله بكل شيء عليم »





والآن وقد استعرضنا هذه السور الثلاث المقرء وآل عمران والسراء نتصح لنا معام  
رئيسية نعود إليها بيجار

أولاً أن العقيدة - بكل موضوعاتها - هي العنصر الرئيسي في القرآن كله ، مكية ومدنية  
سواء . وأن في السورة المدنية هي المحرى الذى تستب على جانبى التوجيهات  
والشريعة وتنظييات ، مريضة كدها برابط العقيدة ومستفحة منها  
ثانياً ، أن السورة وإن طالت وتعددت موضوعاتها دت وحدة شاملة تربط بين  
موضوعات بصورة ملحوظة

ثالثاً ، أن لكل سورة شخصية متميزة وإن تشابهت الموضوعات أحياناً ، لأن لكل سورة  
ختصاصاً عاماً من جهة ، ولأن الطريقة اى تعرض بها الموضوعات المشابهة تتغير من سورة  
لى سورة من يناسب خوا اعام لتلك السورة ، ومن ثم لا تتكرر بدايتها على الإطلاق !

## كَيْفَ نَقَرَأَ الْقُرْآنَ

القرآن هو الروح الذى يؤمن فى رحلته الشاقة فى هذه الأرض ، واسور الذى يضىء  
حواس روحه ، والمعلم الذى يلقنه ، والهادى الذى يبين له معالم الطريق  
والحياة مع القرآن تثير فى النفس عالمًا من المشاعر لا يعرفها ولا يسوقها إلا من يصاحب  
القرآن بحس متطلع وقلب متفتح - عدم نسح الروح فى جيباته ، ويجوب الفكر فيه جولاته ،  
وتعب النفس من فيضه بقدر ما ترتوى أو بقدر ما تنطق !

وحياة مع القرآن هى الحياة مع الله ، فالقرآن كتاب الله المنزل وكلامه الموجه إلى  
«الإنسان» إلى نفسه وقلبه وفكره وروحه - وهو كذلك حديث متصل عن الله جل جلاله  
وجل ثناؤه . يصفه بأسمائه وصفاته وأفعاله - يصفه بقدرته المعجزة - يصفه برحمته الواسعة  
يصفه بعلمه الشامل - يصفه بكراماته وجبروته - يصفه بكل ما تستطيع النفس البشرية أن  
تذكره من الصفات ،

فحين يعيش الإنسان مع القرآن فهو يعيش مع الله - سواء حين يحس برحمة الله وقضيه  
لعمرك ، الذى اقتضى أن يحاط به رب العزة من خلال كتابه المنزل ، وهو الدرة العاقية والهباء  
لمشورة فى هذا الكون الواسع ، الذى لا تزن شيئًا فى منك الله لعريض هو ولا كوكبها الذى  
يعيش فيه كنه ، لولا هذه الرحمة الواسعة والفصل لعمرك ، الذى يتدول بالرحمة فيرسل إليه  
لرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - ، ويقرئه كتابه خرن ليهدى به تلك النفس - تلك  
الدرة العاقية - تلك الهباء المشورة - الضائعة لولا فصل الله

سواء حين يحس برحمة الله لوسعته بك ، أو حين يتبع ذلك الحديث المتصل فى القرآن  
عن الله سبحانه وتعالى من أول سورة إلى آخر سورة - من العائجة إلى المعودتين - فهو  
يعيش مع الله فى كل لحظة يعيشها مع القرآن

من أجل ذلك يوصى الرسول - صلى الله عليه وسلم - المؤمنين بمداومة التلاوة والذكر ،  
و يحذر من الخفوة والقطعة بين السدم وكتاب الله ، لكى لا تنقطع تلك الصلة الحية ،  
ولا ينقطع الرباط الذى يربط القلب المؤمن بالله .

نكى لا يربى الران على لقنوب

فالنفس لشرية يعيشها ، يعيشها من حراء معرضها لدائم « لترايب » المتأثر في جو الحياة . سواء هو ترواب « الحمد » أو ترواب « الماده » وفي دور حورها من انصراف ' وهو ترايب متراكم ويتراكم إن لم يمسحه الإنسان عن نفسه وروحه ، حتى يتعشش ضياء النفس ، ونعتم شفافية الروح ، وتنظم في النهاية فلا يتعد منها النور والقرآن يمسح عن النفس ذلك الران ، حين يعيش الإنسان مع الله ، فتطلق الروح من أسارها تقس من النور العلوي ، ويسرب الحديث المتصل عن الله في أعماق النفس فيشيع فيها النور .

« الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة كأنها نوكب دري موقد من شجرة مباركة زيتونه لا شرقية ولا غربية يكاد ريشها يضيء ولو لم تدرسه نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم » (١) .

\* \* \*

لا عى للمسلم إدد عن مصاحبة انقرآن وتلاوته  
ولللاوة ذاتها عبادة وانقرآن هو الكتب المتعد بتلاوته ، الذي يكتب الله لقاري آخره  
على كل حرف منه يتلوه  
ولكن كيف قرأ القرآن ؟  
مقرؤه لمجرد التلاوة ؟  
مقرؤه لتذكر الآخرة وتذكر الموت وتذكر الحث والحرء ؟  
مقرؤه لتعجب ببلاعته وبطرب لجمال عبارته وألفاظه ؟  
مقرؤه لتعرج منه أبحاثاً ودراسات ؟  
مقرؤه لتصوغ منه نظريات سياسة واقتصادية واجتماعية وثقافية ودينية ؟  
مقرؤه لتتخير منه مواعظ أخلاقية تعظ بها أنفسنا أو تعظ بها الناس ؟  
فلنصنع من ذلك ما شئت . . لا صير  
فأب كان هدف التلاوة فقد كتب الله عليها الأجر ، هذا كان التوجه فيها إلى الله ،  
والرغبة فيها إلى الله .

ولكن الآخر بتدبر ولا شك على قدر ما في التلاوة من التدبر الذي أمر به الله ، وعلى قدر ما يؤدي التدبر إلى العاية المطلوبة منه ، فليس التدبر عدية في ذاته ، إنما هو وصية لأمر عظيم يراد :

« فشر عبادي ، الذين يستمعون القول فيتعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » الله يرسل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ، مثاني نقشعر منه جلود الذين يحشون ربه ، ثم تلبس جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء . (١)

وذلك هو الأمر العظيم المراد أن يتحول الاسماع إلى انقراء وتلاوة والبأثر الخاشع به إلى « هدى » . . إلى سلوك ملتزم بها أمر الله في الكتاب . .

عبارة أخرى : يتحول إلى منهج حياة

\* \* \*

إن القرآن هو دليل المرحلة للإنسان في هذه الحياة

وكي يستصحب المسافر معه دليل الرحلة يعرف منه من أين يبدأ وأين ينتهي وكيف يعطف به لطريق ، فكذلك يسعى للمسلم في رحلته على هذه الأرض أن يستصحب معه دليل رحلته ، قرآنه ، ليعرف من أين يبدأ وأين ينتهي وكيف يعطف به لطريق . وكما أن دليل الرحلة يقضي المسافر حين يرجع منه من أين يصل طريقه ، ويوفر عنه جهده أن يضيع بلا طائل وهو يصر في التيه ، فكذلك لقرآن مع المسلم يقيه من أن يصل في حياته الذي مادام يرجع إليه ، ويبين له طبيعة المواقف والقضايا التي تقابله في رحلته على هذا الكوكب ، فيزين عنه لاضطرب والخيرة ، ويمنع جهده أن يضيع في التيه .  
فلتظربادئ ذي بدء ما الذي يقوله الدليل

\* \* \*

إنه كما أسلفنا يجب بادئ ذي بدء على تساؤلات المعطرة الملحة ، التي يتعرض لموجعتها البشر كلهم على السواء ، مؤمنين كانوا أو كافرين ، مهتدين في الرحلة أو ضائعين ، واعين لوجودها في أنفسهم أو غير واعين :

من خالق هذا الكون ؟

من مدبر الكون ومدبر الأحداث ؟

---

(١) سورة الزمر ١٧٠-٢٣

من أين حث ؟

إلى أين يذهب بعد الموت ؟

لأى غاية نعيش ؟

على أى منهج نعيش ؟

والإجابة على هذه الأسئلة - أياً كان نوع الإجابة - هى لتنى تحدد للإنسان منهج الحياة .

فإذا كتب : «إجابة كإجابة الشاعر ، جاهل المعاصر » إيليا أبو ماضي :

جئت لا أعدم من أين ونكتى أتيت

ولقد أبصرت قدامى طريقاً عمشيت . .

فإنها تمثل ولا شك حيرة الجاهلات كلها وصلاتها حين تفقد انور الذى يستضيء به فى

الطريق ، ثم ترسم منهج حياتهم مفصلاً على قذ هذا الصلال الذى تسير فيه

والقرآن - يبدئ ذى بدء - يقدم الإجابة الصحيحة على تساؤلات العظرة ، ويرسم من ثم

منهج الحياة الصحيح



ويهتم انفراد اهتمام خاص بالسؤال الأول من أسئلة العظرة : « من حائق هذا الكون ؟ »

لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أنه سؤال رئيسى ومحورى وأن الصلاة الكبرى تحيىء من

الإجابات انصدية على هذا السؤال الأكبر ، وأن الهداية الكبرى تحيىء من معرفة الإجابة

الصحيحة على هذا السؤال بالذات

ومن ثم نجد أن قصة الألوهية هى محور القرآن كله وأوسع أبواب الحديث فيه

ولكن لقرآن - مع عنايته الفائقة بهذه القضية - يرد كذلك على استساؤلات الأخرى من

أين حثا ، وأين يذهب بعد الموت ، ولأى غاية وعلى أى منهج نعيش . فيعطى حديثاً

مفصلاً عن قضية « الإنسان » بعد الحديث المفصل عن قضية الألوهية .

أو قل إن القضيتين الرئيسيتين هم قصة الألوهية من جهة ، وقضية انعبودية من الجهة

الأخرى ، أنتى يشترك فيها الإنسان والكون والحياة « كلٌّ به قانتون »<sup>(١)</sup> ، ويقوم الإنسان

بالدور الأكبر فيها والدور الأهم ، لأنه الكائن الذى يحمل الأمانة بين لكائنات كلها التى

أشعقت من حملها واليهوض بها « إن عرست لأمانة على المساوات والأرض والجبال فأبين أن

يحملنها وأشعق منها ، وحملها الإنسان . . »<sup>(٢)</sup>



(١) سورة الروم ٢٦

(٢) سورة الأحزاب ٧٢

والعقيدة هي موضوع القرآن الأكبر

وما بنا أن نكرر هنا ما قلناه من قبل على صفحات الكتاب

ولكن - ونحن نحاور الإجابة على هذا السؤال - كيف نقرأ القرآن ؟ . لابد أن نستصحب في وعينا هذه الحقيقة أن القرآن لم يهتم هذا الاهتمام كله بقصة العقيدة لأنه كان يواجه العرب المشركين للإله إلا الله - فقد سبق أن كتب عن صفحات الكتاب إنه يواجه المؤمنين بدات القضية ، ويهتم - دلتسه إليهم - بعرضها والتذكير بـ ذات الاهتمام

إنما يهتم القرآن بالقضية لأنها قصة الحياة مناسبة للإنسان - ولأن صلال استرية في لترشح كنه جاء من خلال انحرافات مختلفة في هذه القضية - وأن الإنسان عرصة دائمة ، لا في الخيرية العربية قبل لعنة المحمدية فحسب ، بل الآن وفي كل أن أن يحرف في تصويره هذه القضية وفي ممارستها كذلك ، فيقع الاضطراب في حياته بقدر هذا الانحراف

نحب - بحار - أن نستصحب في وعينا هذه حقيقة ونحن نقرأ القرآن أن هذه قضية - قضية الألوهية - ليست من قضايا لماضي لدى كان - إنما هي قضية اللحظة وكل لحظة - إنها قصتنا نحن ، والخطاب فيها لنا نحن بالذات ، لا لقوم آخرين كانوا ، ولا لقوم غيرنا الآن - ولكن لنا - لكن فرديا - لأن كل فرد فيه عرصة لأن نسي ، وعرصة - في كل لحظة - أن يضطرب فهمه ومبادئه الحقيقة المعقدة حين يصطدم بصعوبات الحياة من كل جانب ، وبالعداوات المرصودة للإسلام في كل مكان ، ما لم يستصحب القرآن معه في قلبه وفي فكره ، ويجعله المرجع الذي يرجع إليه في هذا المجال

بل يجب أن نستصحب في وعينا حقيقة أخرى - أيا نحن - الذين نطبق على أنفسنا لقب « مسلمين » في هذا العصر - أحواح اناس إلى تدبر القرآن ومصاحبه في هذه القضية بالذات ، بعد أن ضعف وعينا بها ، وستحالت كلمه تقان باللسان واقلب غاف عن مقتضياتها ، وفي مقدمة مقتضياتها التحاكم إلى شريعة الله !

إن هذه القضية اليوم - العام الإسلامي المعاصر الذي أدركته جاهلية القرن العشرين وأعلنته عن مقتضيات عقيدته - هي قضية الساعة ، التي ينبغي أن يركز المسلم اهتمامه عليها ليستجيب له إسلامه بصفته فردا ، وبصفته بعد ذلك جماعة وأمة

ومن ثم فالإضافة إلى سبب الدائم الذي يجعل قضية الألوهية هي قضية كل لحظة في حياة الإنسان ، يوجد سبب إضافي يعيد العام الإسلامي المعاصر ، ويوجب على كل ما أن يقرأ القرآن في قضية الألوهية على أنه هو مخاطب بها بالذات ، وليس درس مطالعة

(قراءة) يقرأ فيه عن عصر من التاريخ مات .

والقرآن بعد . هو كتاب التربية والتوجيه لهذه الأمة

إنه هو الذي أنشأ « خير أمة أخرجت للناس » هو منهج التربية الذي تربي عليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - وربي عليه أمته من بعد . فينبغي لنا أن نقرأ القرآن على هذا الأساس أنه هو الذي وضع به منهج تربيتنا ، وهو الذي يربى في ذات الوقت إن هذا لذيذ كما قلنا أكثر من مرة في هذا الكتاب ليس شعارات ، وليس مثلاً معيقة في القضاء ، وليس قيماً فكرية تُشتمل بالذهن . ولكنه رافع يعاش . وهذا هو التوجيه « التربوي » الأكرم في القرآن :

« الذين آمنوا وحملوا الصالحات . »

« إنما نتذكر أولو الألباب الذين يؤمنون بعهد الله ولا يفتخرون بآيات الله »

« ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب . . . »

« فاستجاب لهم ربهم أني لا أصيب عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى »

ما من موضع في القرآن يحث من هذا التوجيه أن الإسلام ليس مشعر ببيانية فحسب ، فضلاً عن أن يكون كلمة تقال باللسان ولكنه عمل كذلك بمقتضى الإيمان . وإذا كان الإسلام كذلك ، فقد تولى القرآن مهمة تربية الأمة الإسلامية لتكون مسلمة بالفعل ، أي تدرس سلامها في عالم الواقع

ربهم أولاً بالعقيدة ، من خلال تعريفهم بربهم ، يعرفوه « كما يسعى خلال وجهه وعظيم سلطانه »<sup>(١)</sup> فيعبده حتى عبادته ، ويوفروه ويطيعوه ، ومن خلال التوكل والتعظيم لله ، ومن خلال العبادات والطاعة ، تربيهم بعبادته عن أخلاقيات الإسلام

فحين عرفهم أن الله سميع بصير وأنه « ما يكون من نحوى ثلاثة إلا هو راعاهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم يشهدهم بما عملوا يوم لقيته »<sup>(٢)</sup> وأنه « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما يبرز من بينها وما يعرج فيها »<sup>(٣)</sup> وأنه « يعلم السر وأخفى »<sup>(٤)</sup> صارت في قلوبهم نبت الحساسية تجاه ربه الله لأعمالهم انطهرة ومشاعرهم الباطنة ، فصاروا يحرصون على نظافة هذه الأعمال والمشاعر ليراه الله نظيمه فيرضى عنها ويثيب عليها أصحابها

(١) من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم - (٢) سورة المجادلة ٧

(٣) سورة سبا ٢ (٤) سورة طه ٧

وحين عرفهم أنه « به مقانيد اسماءوات والأرض » وأنه « بيده منكوت كل شيء »<sup>٢١</sup> م  
 يعودون ينظفون لغيره أن يعينهم في شدة يواحبوها ، أو يعتر وصفاً من الأوصاف يتألمون به ،  
 إلى ينظفون إليه وحده في لسراء ونصراء ، ويصرون حتى يأتي الأمر من عنده سبحانه ،  
 لأنه لا أمر إلا أمره ولا يعير إلا بيده . فزبوا على أن يوحوا الشدائد بانصر وقلوبهم معبقة  
 بفرح الله .

وحين عرفهم أنه « هو الرافق ذو القوة المتين »<sup>٢٢</sup> وأنه « يسط الرزق لمن يشاء ويعدره »<sup>٢٣</sup>  
 وأنه « ما يفتح الله نداس من رحمة فلا تحسب ف » ، وما يمسك فلا يرسل له من بعده ، وهو  
 العزير الحكيم<sup>٢٤</sup> لم يعد انقلب على الرزق شغلهم ولم يعودوا يحسبون حين يتعرضون من  
 أحل عقبتهم لاصطهاد قرش ، أو لعمره من الأحداث ، أن الشر هم لذين تصرفون في  
 أرواقهم وأقواسهم وأمسهم وراحتهم ، إنما هو الله سبحانه وتعالى وحده . لذلك لم ندن  
 قلوبهم لشر من الشر ، ونعموا - في صورة عممية - عزة الإسلام .

كذلك حين عرفهم أن لله هو الذي يحيي ويميت ، وهو الذي يملك أمر الدنيا وأمر  
 الآخرة ، وأنه هو الذي يصرف القلوب ، وأنه يحول بين المرء وقبضه . تعلقت قلوبهم بالله في  
 سر ولعل ، وأصبح ذكر الله حياً في قلوبهم ، فاستفادت هذه القلوب عن أمر الله  
 وهكذا كانت العقيدة ، وكان تعريضهم برسم ، هو أده التربة الأولى التي رباهم بها  
 انقرأ

ثم إن لقرآن كذلك رباهم بالترعيب والترهيب

ومن خلال الترعيب في ثواب الله وحنته وصونه رباهم عن أن يتخلصوا من نشج  
 « ينفقوا في سبيل الله ويؤثروا على أنفسهم ويو كان هم حصاصة ويخلصوا من الخوف من  
 موحيه لموت فيماتوا في سبيل الله بشجاعة حفظها هم الدار يح . ويخلصوا من اللصوق  
 بالأرض وحب الراحة والأمن والاستسلام لعواطف القرابة وحوادث لمصالح الأرضية .  
 ويجعلوا لله ورسوله والجهاد في سبيل الله أحب إليهم وأسى بل مشاعرهم

ومن خلال الترهب من غضب الله وعذبه رباهم عن الانحلال من شهواتهم وجعل  
 فيدها في أيديهم ، سواء شهوة المال أو شهوة الجنس أو شهوة الظلم للآخرين والاستعلاء  
 عليهم أو شهوة العمر واللمر والتحريج ، أو شهوة الحياة ذاتها إن كانت تعوقهم عن الجهاد  
 في سبيل الله

(١) سورة الرمر ٦٣	(٢) سورة يس ٨٣	(٣) سورة الداريات ٥٨
(٤) سورة الرعد ٢٦	(٥) سورة فاطر ٢	



ورباهم القرآن كذلك من خلال الأحداث

رباهم في سورة آل عمران التي برزت بشأن وقعة أحد ألا هموا ولا يحزنوا لأنهم الأعلون  
مدموما مؤسرين ، ولو كان قد مسهم لفرح في لقتل ورباهم على أن قدر الله هو الذي  
يقتل من كتب عليه القتل ، وليس الذهاب إلى ميدان لقال هو الذي يقتل أ ورباهم على  
الطاعة للقيادته بعد أن أسهم بأنيت شديدا على معصيتهم لمرسول - صلى الله عليه وسلم -  
ورباهم على أن المشاعر الإيمانية والأفكار الإيمانية لا بد أن تتحول إلى عمل في عالم الواقع لكي  
يستجيب لها الله سبحانه ويشيب عليها . . .

ورباهم في سورة البور بمناسبة حادث الإفك على ألا يلوكوا الأعراض بغير بينة ، كما  
رباهم على أن يصوبوا سهامهم من التبرج وأن يعصوا أمصارهم ، وعلى أن يسلموا على  
أنفسهم عند دخول البيوت وأن يستأذنبوا ولا يقتحموا بغير استئذان ويدن  
ورباهم ورباهم ورباهم حتى صاروا « خير أمة أخرجت للناس »  
ولقرآن الذي دعى هذه الأمة الأولى هو دأبه لمرآن الذي يقرؤه ليوم

ويسعى - ويحس نتله - أن يستقن أنه هو مبعث الترممة وهو المرمى الذي يجب أن نترى  
على يديه ، وأن كل حرف فيه قد جاء بتربية ، سوء دروس لعقيدة ، أو قصص الأسياء ،  
أو قصة آدم ولشيطان ، أو لتوجيهات خلقية أو الاجتماعية أو السياسية أو القتالية أو  
تنظيمية أو ما يحتويه من الترغيب والترهيب

إن هذا كله ليس للإثارة الوحشية خوفه لى تصحب عادة . قراءة النص المحكم  
المؤثر السليح

كلا ! إنه دروس ترممة

والعقيدة بصفة خاصة

إن - محكم أشياء كثيرة في آن واحد - فهي تنصت إلى لعقيدة على أب تربية ! وكثيرا ما  
معتقد أنها موجودة في قلوبنا بها من الكفاية ، وأنها في حرر حرير لا خوف عليها ، وأن « أمة  
محمد بخير » ! و

وهذا التوهم يحول بيننا وبين تناول لدرس الترموي من العرض انقراى للعقيدة  
إن حين نقرأ قوله تعالى « إن الله هو الرقي في دار القوة المتين » نصايح وهل في ذلك  
شك ؟ وهل من أحد يروق إلا الله ؟

ولكن هذا الذي يموله مستوثق من منه في حالة السلم والأمن والاطمئنان على الزرق ، يتر

كثيراً ويترلر حين نصاب أرقافاً أو حين يلوح في الأفق أب تعرص لشيء من ينصق  
وعندئذ نسي ' ويحفل إلب أن فلان من البشر هو الذي بملك أراقفا ! وأنه هو الذي  
سصبق عيا ، ونسي عرت وروح نترف لفلان ألا « يقطع أرقفا » ! ثم بروج برعم  
لأنسا أنا بأخذنا لأسباب !

لماذا ؟ لأننا لم نترف على هذا النص القرآني إنما قرأناه فحسب ، ووعته أدهسا  
فحسب ، وحسناه بذهبية بلفظها الإنسان في لحظة ولا يعود في حاجة إلى مزيد من المعرفة  
عنها أو التوكيد عليها !  
كلا ! إنها تربية . .

وبحتح وبحر بقرأ النص في انقران أن « تربي » عليه كما تربي الحين لأول من الصلحة  
رسوان الله عليهم ، حتى يتحول من بذهبية ذهبية إلى « عقيدة » إلى شيء مستقر في  
القلب إلى قوة محركة في واقعا إلى تصور كامل وسلوك مستق من ذلك التصور  
والعقيدة هكذا في الإسلام !

إنها ليست فكرة - ولست وحدنا مستكماً في الصمير - ولكنها منهج حياة ، بكل ما  
يحملة هذه الكلمة من معاني واقعة حداثاً ، شعورية وفكرية وسوكية وفي كل اتجاه  
وهذا هو لدى نبي أن بلغت إليه النعائ شديداً وبحر بقرأ القرآن ، نكي لا يعوت  
التدبر المطلوب منا ، ولا الآثار المطلوبة من هذا التدبر في واقع السلوك وواقع الحياة



ومن أبلغ ما يستخدمه القرآن من أمور العقيدة في تفويم النفوس وتربيتها مشاهد القيامه  
والحديث عن اليوم الآخر

وسبق أن قلنا في القسم الأول من الكتاب أن الإيمان باليوم الآخر يأتي في مواضع كثيرة من  
القرآن مرتبطاً ونائباً مباشرة للإيمان بالله - ونقول هنا مرة أخرى - بصدد حديث عن التوجيه  
التربوي من خلال العرض القرآني للعقيدة - إنه كما يستخدم القرآن قصة الألوهية - العقيدة  
- في تربية النفوس وتقويمها ، فإنه كذلك يستخدم قضية اليوم الآخر - العقيدة - في ذات  
الهدف - وقد أشرنا إلى ذلك إشارة عابرة في الفقرة السابقة ، والآن نلقى عليها مزيداً من  
النص من ناحية ما يسعى إليها وبحر بقرأ ذكر الآخرة في القرآن

إن نعرض لقرآني لمشاهد لقيامه من أشد الأمور تأثيراً في النفس ، نعرض لحيوية في هذا  
العرض ، وبحسيم القرآن لتلك المشاهد حتى تتحول في الحس إلى مشهد حاصر يعيشه

الإنسان بالفعل ، وتصيح لديه نكر ما فيها من واقعها خاضع كألم ما يصح كان وانتهى ولم يعد له وجود .

ولا يملك الإنسان ذو الإحساس لعدى فصلاً عن الإحساس انتصح أن يمر هذه المشاهدون أن يفعل بها وحدته وتأثيرها مشاعره<sup>١</sup> ونكر ما المطلوب ما ونحن نقرأ مشاهد القيامة ؟

أهو مجرد التأثير الوجداني ، وذكر الموت وإنهائه ، ولعث والحساب ، فسوف عن اسئل بالحياة الدب والنكالت عليها ؟

هذا ورد ولا شك وإن كان بوحية الإسلام هو ليس الانصراف عن عمارة الأرض ، وليس العزلة عن موكب الحياة ، وليس القعود عن اتحاد أسباب لقوة المادية الأرضية ، لأن هذا كله يؤدي إلى ضعف المسلمين في مجموعهم ، وعدم إعداد القوة لإعداد الله كما أمر الله .

بما المطلوب بالفعل ألا تسعرق حياة لدب فسوف عن ذكر الآخرة والموت والهيبة ، والبحث والحساب

ولكن هذا الوجدان وحده لا يكفي ، ولا يفي بكل العرض الذي خاضع من أحده مشاهد القيامة في القرآن .

وبما ينبغي له - ونحن نقرأ القرآن - ألا يفصل مشاهد القيامة عن السياق الذي وردت فيه وتأثيرها وحدتها كألم قائمة بداتها

بها نحيي في مناسبات معينة . والمناسبة مقصوده في كل مرة

فحين نحيي مشاهد العذاب بمناسبة حديث المباشر عن الكفر يصبح المعنى المقصود هو تهديد الكافرين بآز جهنم ، وهذا واضح

وحين نحيي إشاره ضمنية كهذه

« من كان يريد ثواب الدب عهد الله ثواب الدنيا والآخرة ، وكان الله سميعاً بصيراً يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن عساً أو فقيراً فإنه أولى بها فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تدوروا أو تعرضوا فإن الله كان به يعملون خيراً »<sup>١</sup>

يكون المعنى التربوي المقصود هو تهديد المؤمنين بعبث الله وعذابه إن كنوا عن القيام

(١) سورة النساء . ١٣٤ - ١٣٥

بالقسط ولشهادته لله معيًّا وراء ثواب الدنيا - أي متاع الحياة الدني - ويكون هذا توجيهها مقصودًا للدنيا والآخرة لا للآخرة وحدها كما يسق إلى الحس بشأن مشهد القيامة ! توجيهها لإقامة الأمور في الدنيا بالقسط ، وتطبيق العدل الرباني الذي كلف الله به الأمة المسلمة وحين تحي - إشارة كهذه

« ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءًا يجز به ولا يجد له من دون الله وليًا ولا نصيرًا » ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون فيها<sup>(١)</sup>

يكون المعنى التربوي المقصود أن هذا الدين لا يصلح أن يكون أمانًا إنما هو واقع عمل وأنه لا يقبل من الناس أن يقولوا ما بأفواههم - حتى مع توفر حسن النية - إنما يسعى أن يرسو هذا الدين في عالم الواقع ويسعى أن يربو أنفسهم على بند التمسى مع لقعود والكون في عالم الواقع ، وسادروا بالتطبيق الفعلي لما يقوون بأفواههم بهم مؤمنون به ويكون هذا كذلك توجيهًا للدنيا والآخرة ، لا للآخرة وحدها توجيهًا مقصودًا به تحويل هذا الدين إلى واقع ملموس لا إلى شعرات في الكتب وعلى أفواه الخطباء !

وحيث تحي - مشاهد العجم حراء عن الإيثار بالله - حملة - فأمرهم وصح ، وإب كان المعنى التربوي فيها كثيرًا ما يملت ما ، لأب كثيرًا ما تعتبر الإيثار بالنفس بيانًا حقيقيًا يؤهل لخدمة الله وهذا دعم ورود النص الصريح في الكتاب « ليس بأمانيتكم »

ولكن حين تحي - هذه مشاهد حراء عن تفصيلات الإيثار فسعى أن يكون المعنى التربوي حاصرًا في أذهاننا حين تحي - هذا النص

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أبيضت سبع مساس ، في كل مسألة مائة حبة ، والله يصاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يبعثون ما أنفقوا من قبل ولا أدى هم أحقرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون<sup>(٢)</sup> » لا يكون رد نفعل المقترص فيه ونحن نقرأ النص أن يقول « ما أسعدهم ! » ثم يمتص نحن فيما نحن فيها لا يعود أنفس على الإنفاق والبدن ، كأ المقصود بالنص قوم غيرنا تعرض صوبهم أن ما مجرد إثارة الإعجاب ! إنما يكون الدرس لتربوي المقصود هو أن نحاول نحن مع أنفسنا وقد نكون لمحاولة شافه وطوية الأمد ولكننا إن لم نرقم بها ، فإن

(٢) سورة البقرة . ٢٦٦ - ٢٦٧

(١) سورة النساء . ١٢٣ - ١٢٤

فكما نسمى ، فيطل الدرس التربوي بعيداً عن حسنا ، وظل مراعاة للنص هي قراءه  
 بعين لا قراءة القلب المفتوح  
 كذلك حين نقرأ هذا النص

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن هم أحبة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون  
 ويقتلون ، وعداً عليه حفاً في الثرة والنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله  
 فاستبشروا ببيعكم لدى يديته به وذلك هو الثمر العظيم » (١)  
 يكون الدرس التربوي أن نحاور مع أنفسنا أن يقتحم العقبة ، وبوطن أنفسنا على أداء  
 صريية الإيمان حين يحس موعدها .  
 وكذلك حين نقرأ

« قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، واندبهم عن لغو معصون ،  
 والذين هم بمرزاة عدو ، الذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت  
 أيهم غير ملومين فمن اتقى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأمانتهم  
 وعهدهم راعون ، واندبهم على صواتهم يحفظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون  
 الفردوس ، هم فيها خالدون » (٢)

فحينئذ أن ملتقط الدرس التربوي انورد في ظل قوله تعالى « أولئك هم الوارثون الذين  
 يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

إنه لا بد أن تراجع سلوك الواقع على هذا السلوك الموصوف في آيات ، وأن نطرح  
 نقوم من تجده بعيداً عن الخط حتى يستقيم

وهكذا تكون مشاهد لقيامه في القرآن - ببعيمها وعديها - دروساً تربوية كنها ، ويكون  
 واجبا ونحن نقرأها ألا نتأثر بها منفصلة عن سياقها ، لنحاول الانصراف عن متاع حبة  
 الدب ، إنما لنصلح سلوكنا الأرضي ونحن نمارس الحياة

\* \* \*

كذلك نجد في القرآن بيان السنن الربانية التي يدير الله بها حياة البشر على الأرض  
 إن الحياة البشرية لا تنمضي اعتباطاً بلا صابط ولا دليل إنما تحكمها سنن ثابتة كتلك  
 التي تحكم يوميس الكون غير أننا كثيراً ما نعمل عن هذه الحقيقة ، لأسأرى السنن التي  
 يدير بها الكون مطردة واضحة محدودة ، وبرى حياة البشر دائمة الثقل ، فمحسب لأن

(٢) سورة المؤمنون ١-١١

(١) سورة التوبة ١١١

وهذه أن الكون وحده هو المنصسط لحركة سواميسه ، أما بشر بأمرهم كما أتفق  
أمر آخر يجعلنا نعمل عن حقيقة وجود سوميس لصنطة في حياة البشر ، هو أن لطاهرة  
الشريعة تسعرق أجيالاً عديدة حتى تتحقق ، وحيانا محدودة بأعمارهم ، فلا ترى لطاهرة  
نبيها ، فلا تلتفت إلى وجوده ، وأحياناً تكون المظاهر الخارجية خادعة معايرة للحقيقة  
الباطنة ، فيريدنا هذا الأمر بعداً عن النقاط حقيقة وإدراك السوميس

من أجل ذلك وجهنا الله في كتابه المنزل إلى دراسة التاريخ لأن التاريخ الذي مضى هو  
مخبرية نامة منتهية ، واصحة المعالم من ثم ، وواضحة الدلالة ثم أمرنا الله أن نتدبر الحاضر  
على هدى دراسة التاريخ ، فكم الصورة - التي لم تتم بعد في حاضرتنا لدى بعثته - على  
صوء الصور الماضية المتكتمة ، فيتضح لنا ما لم يكن بعد من معالم صورتنا مخصرة  
لذلك نكثر في القرآن ورود هذا المعنى في صور شتى ( قل سيروا في الأرض فانظروا  
كيف كان عاقبة الذين من قبل )<sup>(١)</sup>

وهذه الدراسة - وتدبر السس الرعاسة التي تجري في حياة البشر على الأرض في أثناء قراءة  
لقرآن - أمر ضروري وحيوي للمسلم ، لكي يتضح له خط سير البشرية على صوء المنهج  
الرسمي ، ويرى موقعه هو - في لحظة الخاصة - من مجرى الأحداث  
فحين نقول لنا لقرآن « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم  
بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون »<sup>(٢)</sup>

وحين يقول « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يعيروا ما بأنفسهم »<sup>(٣)</sup>  
وحين يقول « ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ،  
وأرسلنا نساء غيبهم مدبراً ، وجعلنا الأنهار تجري من تحته فأهلكناهم بدموعهم وأنشأنا  
من بعدهم قرناً آخرين »<sup>(٤)</sup>

وحين يقول « ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأحداهم بأناساء وانصراء بعلهم  
يتصرعون فلولا رد دعاءهم بآسائهم لضربناهم ؟ ولكن هتفت قلوبهم ودينهم اشتطون ما  
كانوا يعملون فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا  
أخذناهم بعتة فإذا هم مبلسون »<sup>(٥)</sup>

(١) سورة الرعد ١١

(٢) سورة الروم ٤١

(٣) سورة الروم ٤٢

(٤) سورة الأنعام ٤٢ - ٤٤

(٥) سورة الأنعام ٦

وحين يقول : « وكذلك ما أرسد من قلبك في قرية من ندير إلا قال مترهوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإن على آثارهم مقتدون »<sup>(١)</sup>

وحين يقول : « كذلك ما أتى لدين من قلوبهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ! أنواصوا به ؟ بل هم قوم طاعون »<sup>(٢)</sup> .

وحين يقول : « وإذا أدق السرحمة من بعد صراء مستهم إد لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرًا »<sup>(٣)</sup> .

وحين يقول : « من كان يريد الحياة للدي ورينها نوت إليهم أعياهم فيها وهم فيها لا يحسبون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون »<sup>(٤)</sup>

وحين يقول : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بها كانوا يكسبون »<sup>(٥)</sup>

فكل هذه من رنانية تجرى بها حياة البشر على الأرض في دقة كانه وانصاف كالوأمس الكوبه سواء . وعلى صوئها ستطع أن نقرأ الماضي والحاضر والمستقبل ، مع تحفظ بالنسبة للمستقبل أنه غيب لا بعينه إلا الله ، ولكن يمكن استقراءه فقط على ضوء سنة الله لأهـا حتمه . « سنة الله في الدين حبوا من قس ولن تجد سنة الله تديلاً »<sup>(٦)</sup> والحتمية هنا حتمه الساتح حين توجد الأسباب ولكن الغيب مستور هو وجود لأسباب كما هي منظوره في الملحظ الحاضرة أم تغييها بقدر من الله وتغير الناس ما بأنفسهم . . أو قيام الساعة بختة بما هو مقدر في علم الله . ولذلك نقول بالنسبة للمستقبل إنه إذا استمرت الأمور على ما هي عليه فإن سنة الله تقو كذا . . . والعلم عند الله .

أما بالنسبة للماضي والحاضر فالأمر مختلف ، لأنه واقع مشهود لا غيب مستور ولحاو مثلاً أن نرى حاضرينا - حاضر الشربة - على ضوء السن الرنانة التي تجري بها حياة البشر على الأرض

إن حاصر اشهود هو ضعف المسلمين وتخلفهم في كن ميدان من الحياة وسيطرة أوربا بموتها السياسية وعسكرية وادنية والعلمية ، وبكل انحوائها الجاهلية في عالم انعقيدة والقيم والمكر والسفوك وسطورة اليهود بمحططاتهم الشريرة على كل مقدّات ابشيرة فهو هذا الواقع وارد في السن الرنانة المذكورة في كتاب الله ، بحيث يستطيع أن يقرأه ويحيى نقرأ القرآن ؟

(١) سورة الرحوف ٢٣٠ (٢) سورة الداريات ٥٢ ٥٣ (٣) سورة يونس ٢١  
(٤) سورة هود ١٥٠ - ١٦ (٥) سورة الأعراف ٩٦ (٦) سورة الأحزاب ٦٢

نعم !

فأما ناسه للمسلمين فقد بين الله هم

« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستحلصهم من الأرض كما استحلص  
الذين من قبلهم ، وبيمكنهم دينهم الذي ارتضى لهم ، ولنسلهم من بعد خوفهم أمنا ،  
يعبدوني لا يشركون بي شيئا » (١)

وبين لكم كذلك من خلال قصة إبراهيم عليه السلام

« وإد ابلى إبراهيم ربه بكلمات فأتاهن ، قال إني جاعتك لئس بمات ، قن ومن  
دريتي ؟ قال لا ينال عهدى الظالمين » (٢)

ومن خلال قصة بني إسرائيل ،

« فحلف من بعدهم حلف ورنوا الكتاب ، يأحدون عرص هذا الأدنى ويقولون سيصر  
لنا وإن يأتيهم عرص مثله يأحدوه أم يؤحد عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولو على الله إلا  
الحق ودرسوا ما فيه ؟ والدر الآخرة حير للدين يتقون - أفلا تعقلون ؟ ! » (٣)

ومن خلال قصص كثيرة

« فهل ينظرون إلا سنة الأديس ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » (٤)  
ومقتضى هذه السس كلها أن الله قد تكفل للمؤمنين بالاستحلاف والتمكين في الأرض  
والنأمين مقبل شرط واحد « يعبدوني لا يشركون بي شيئا » وقد تحقق هذا الوعد بالفعل  
للمسلمين - وبصورة تريحية هرة - طامد كانوا على الشرط لدى اشتراطه الله عليهم  
وقد اقتضت سنة الله ( الواردة في قصة إبراهيم عليه السلام ) أن العهد الرباني لا يُبدل  
بوراثة الدم ، إنما بوراثة العقيدة أي بالاستمرار في العمل بها في واقع الحياة - إذا تحرفت  
الدريه وطلمت من الله لا يحديها لمجرد كوس دريه قوم مؤمنين ! لابد أن تكون هي بدتها  
مؤمنة بالفعل ليتحقق ما انعهد ولكن عهد الله لا ينال الظلمين ، ولو كانوا من درية قوم  
مؤمنين !

وقد تحققت سنة الله - بلا محامدة - مع المسلمين حين احرفوا عن طريق الله ، فرال عنهم  
رويدا روبدا ، الاستحلاف والتمكين والنأمين ، حتى إذا وصوا إلى حد أن يوصوا بأهم  
« خلف ورنوا الكتاب يأحدون عرص هذا الأدنى ويقولون سيصر لنا » وهو واقع ( المسلمين ،

( ٢ ) سورة القرة ١٢٤

( ٤ ) سورة فاطر ٤٣

( ١ ) سورة النور ٥٥

( ٣ ) سورة الأعراف ١٦٩ .



اليوم، فقد زال عنهم سمات كل استعلاء وسكنين وأمن، وصدروا إلى العشاء الذي  
ندعى عليه الأمم لتفت به كي تنداعى الأكف إلى فصعتها ، كي حذت برسول  
- صلى الله عليه وسلم -

هدى بالنسبة للمسلمين .

فأم بالنسبة لأوربا فقد تعلمت من المسلمين عدوهم وحصارتهم وأنت أن تتعد دين  
الله أرادت الحياة الدنيا ورينها ، وسعت في سبل كتساب بكل ما وسعها من جهد  
ومن ثم انطلقت عندها مستان من أسس لربابه المذكورة في الكتاب  
« من كان يريد الحياة الدنيا ورثها برفء إليهم أعم لهم فيها وهم فيها لا ينجسون »<sup>(١)</sup>  
« فلما سوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء » . . .<sup>(٢)</sup>

وهو هو الحاصر المشهود في أوربا اليوم فقد وفي الله هم أعماهم في الحياة الدنيا بقدر ما  
اجتهدوا فيها ، ولم ينجسهم شيئاً منها ، ثم فتح عليهم أبواب كل شيء - أبواب القوة  
والثروة والتمكين والاستعلاء في الأرض !

وبنى هم الجزء المكمل هذه أسسة ، انورد في نفس الآية [ الأنعام : ٤٤ ] « فلما سوا ما  
ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء » ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذوا هم بعتة فبدأ هم  
مسلون »

وقبل عشر سنوات فقط لم يكن الناس يصدقون أن سة الله مسطو عليهم ! وكانوا  
يظنون - محدوعين بالظاهر - أنهم سيظلون محكمين في الأرض إلى أبد الأبد !  
واليوم تأتي الدر من كتسابهم ورمائهم أنفسهم ، الذين هم أقل فرحاً بما أوتوا ، يقولون  
إن الحصار الأوربية في طريقها إلى الانهيار اختفى إذ سارت على نفس الخطوط !  
ويقتصب الأمر هنا أن نمرق - ونحن سطر في سة الله - بين فتح وفتح .

يقول القرآن في الكافرين « فلما سوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء »  
[ الأنعام : ٤٤ ]

ويقول في المؤمنين « وبوأ أهل انقري آمنوا وتموا لفتحنا عليهم بركات من السماء  
والأرض » [ لأعراف : ٩٦ ]

فالكافرون يفتح عليهم أبواب كل شيء - فتة - ولكنهم محرمون « البركة » التي تمنح على  
المؤمنين وإن انوافع الأوربي اليوم هو مصداق ذلك فقد حصلت أوربا على قدر من

(٢) سورة الأنعام - ٤٤

(١) سورة هود - ١٥ .

« كل منىء » لم يحط به أمة في التاريخ من حيث الحجم ! ومع ذلك فانظر في حياتهم انظر إلى القنق والحيرة والاضطراب ولا تتحاروا وخشوا والخمر والمحدثات ولا تحاروا والشهود ! ونصرا إلى تقريراتهم هم ، التي تقول إن كل هذه حدة سستهم في الارتفاع !  
 دلت أسهم لا يعرفون الله ، فلا يجدون تلك العظمائية التي يجدها المؤمنون « الذين آمنوا وتعلمت قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (١)  
 أما اليهود فأمرهم كذلك مذكور في الكتاب .

« صرنا عليهم الدلة أبنا ثقفوا إلا نحن من الله وحبل من الناس » (٢)  
 وقد أشربا إلى هذا المعنى من قبل ونحن نستعرض سورة آل عمران فلاحظه هذا بأن القاعدة لدائمة بالنسبة هم هي صرنا الدلة عليهم أبنا ثقفوا ثم يحىء فترات استثنائية يمكنون فيها في الأرض نحن من الله وحبل من الناس وهو الحبل القائم اليوم ، حيث يمدتهم أساس بالمدد حين يقعون في محططاتهم ، سواء عن طريق بيوت ابرية ، أو بيوت الأرياء ، أو السسما والإداعة والتليفزيون ، أو جنوب الخمس ، أو جنوب الكره أو إمدادهم بالأموال المباشرة وبالملاح .

ولكن . . هل جاء هذا التمكين اعسافاً ؟  
 إنه واقع بقدر من الله ولا شك « بحبل من الله » ولكنه يأتي في إطار منه أخرى شاملة وإرادة في الكتاب .

« من هو القدر على أن يعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض » (٣)  
 هذا نذير الله للبشر حين يكفرون

وبعد كبرت البشرية اليوم كما تم تكبر في التاريخ كله وتنجحت بالكفر كما لم يحدث قط في التاريخ

لذلك بعد الله فيهم ستة ووعيده ، فجعلهم شيعاً ، وأذاق بعضهم بأس بعض ، واحتاج . أشد حقيقته إفساداً ليذيق البشرية كله بأسهم جزء بها كبرت وتنجحت بالكفر وقد كان هذا كله لأن الأمة المسلمة تحب عن طريقها وتحب عن رسالتها ، نفسها وبشرية كافة ، فتسلمت منها الرؤية أمة جاهلية رفضت أن تدعن لأمر الله ودينه ، وحررت البشرية كله وراءها إلى الإخاد والكفر وسيطر هذا الأمر قائماً ما قدر الله له أن يكون ،

(١) سورة الرعد ٢٨ . (٢) سورة آل عمران ١١٢ . (٣) سورة الأنعام ٦٥

حتى تعود الأمة المسممة إلى دينها ورسالتها . . . فيتغير وضع الشريعة  
وهكذا يجد المسلم في كتابه المرن يدًا وافيًا لنصرة انعامه سير الأحداث في عهده ، لدى  
بعث فيه ، على صوء السس الرمانية لمبنة في الكتاب ، كما يجد بيانًا لموقعه هو من  
الأحداث ، ودوره ادى يسعى أب يومه ، وكان الكتاب قد أرسل إليه الآن في هذه اللحظة ،  
ولس مند أربعة عشر قرنًا من الزمان ! وهكذا كله بعير أسرار ولا طلاس ، ولا قراءة «سرية»  
لرموز خاصة في الكتاب !



أما العداوات المرصدة في طريق الدعوة ، فإننا نجد حديثًا مستفيضًا عنها في كتاب الله  
ب. قسمًا كبيرًا من السور مبنية قد شعبه الحديث عن أعداء لا إله إلا الله بمئاتهم الأربع ،  
وعن كيدهم ومخططاتهم لحرب الإسلام ، كما يبا من قل على صفحات الكتاب  
« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم »<sup>(١)</sup>  
« ولا يرانوا يقتاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطعوا »<sup>(٢)</sup>  
ثم نجد حديثًا مستفيضًا في قصص الأنساء عن كل داعية قدم يدعو لآله إلا الله ،  
كيف تصدى له « الملائكة » الذين يكرهون رد لسلطة إلى صاحبها ، وهو الله سبحانه ويعلى ،  
يستأثروا هم بها ، ويستعدوا اساس عن طريقها ، وكيف ظلوا يجاربون بدعوة نبيه القصص  
عندها وصرف اساس - المستعدين لهم - عن اتباعها ، وكيف أدوا أصحاب بكل ما يملكون  
من صوف الإيداء ، حتى إد صر أصحاب الدعوة على الابتلاء ، ومحضت قلوبهم وتجردوا  
لله ، جاء قدر غائب من الله فصر المؤمنين ودمر على أعداء الدين  
وسيجد المسلم نفسه في وسط الأحداث المعاصرة كأنها يتنزل له القرآن الآن يصصف له  
حانه وحال أعدائه ، ويكشف له عن خباياهم ودوافعهم ، ويكشف له عن مخططاتهم  
كديث !

إنه ها - في هذا الموضوع بالذات - لا يعيش مع القرآن عاصيًا مر عده أربعة عشر قرنًا من  
لزمان إنما يعيش احاصر ، بكل حداثته ، بكل فسحاته ، بكل تفصيلاته .  
إنه يعيش المعركة مع أعداء لا إله إلا الله المعركة حاصر يعيشه الآن ، وكلام الله عنها  
حاصر كذلك ، يو كتبها لحظة لحظة ، ويصفها خطوة خطوة ، ويوحه قلب المسلم ومشاعره  
وأفكره كأنه خطاب منزل من الله . - الآن

(٢) سورة النقرة ٢١٧

(١) سورة النقرة ١٢٠

فهو - في هذا الموضوع باداب - يسعى للمسلم وهو نقرأ القرآن أن يكون واعياً هذه الحقيقة ، وأن يقدرها حق قدرها

إن القرآن يحاطه هو شخصياً ، وفي خطته التي يعيش فيها وهو حين يحاط به لا يقص له قصة موصلة عن أشخاص آخرين غيره عاشوا تجاربهم الخاصة ، إنما يقص له قصته هو الشخصية من خلال أشخاص آخرين !

ومن ثم فإن لتوجيهات التي يحملها الخطاب هي موجهة له شخصياً ، بيعها وتستجيب لها ، ويشكل مشاعره وأفكاره ومبادئه بمقتضاها وبعبارة أخرى ليتربى على صوابها ويقوم خطوته على طريق الله



ونحمل القرآن للمسلم قومه لثانية التي تحكمه في عهده المتغير إلى الحياة - كما أسلفنا في مقدمة الحديث عن سورة النساء - نحوى جوب ثباته وجوانب أخرى متغيرة وقد حوى كتاب الله بالنسبة للجواب اثباتاً أحكاماً وتوجيهات مفصلة لا تتغير ، ولا يسعى لها أن تتغير - يبي أن أورد بالنسبة للمسائل المتغيرة أصولاً عامة ثابتة ، ونترك لبعض المؤمن أن يجتهد في استنباط الأحكام التفصيلية لمبادئ حياته في إطار تلك الأصول العامة الثابتة

ولسنا هم - في عرضنا السريع هذا - نتعرض للأحكام - وعما كتب الفقه واجتهادات لعقهاء - وبما لدى قاصداً إليه هو أن المسلم في كل جيل كان يوحه بجمعاً غير الذي كان يعيش فيه أسلافه - ولكنه في هذا الخيل بصفة خاصة يواجه محتملاً - لأول مرة في حياته - ليس من صلب الإسلام

إنه يجد اختلافاً كثيراً في المجتمع الذي يعيش فيه اليوم عن كل المجتمعات التي عاش فيها أسلافه ، لا نسب التغير الطبيعي الذي وحده ، الذي ينبغي أن يحدث في حياة الإنسان ، تامة تدفع قواه مع لتكون نادية من حوله ، ولكن لخروج انبثارية كلها ، عن طريق الله وعن مسجع لله بما فيها المجتمعات التي تحمل اسم الإسلام

هالأخوان في العالم المعاصر ليست كلها نمواً سويًا ولا «تطوراً» كما يقول انتطوريون إنما هي متعلقة انتعلاً حسب محططات شريرة وصعنت لإفساد البشرية ، ودُشبت فيها كثير من المفسد وقيل للناس بها «تطور حتمي» وبعبانهم أن يأخذوها بلا معارضة ولا جدال وفقدوا أن هم وقفوا في مسيلها بأن عجلة التطور ستسحقهم !<sup>(١)</sup>

(١) انظر - إن شئت - كتاب «جامعية القرن العشرين» أو كتاب «التطور والاثبات في حياة البشرية»

والمسلم يواجه هذا لعدم أراد أو لم يريد يوجهه في مجتمعه هو اندي يعيش فيه ، ولدى  
 حذسه جاهلية القرن العشرين أو طعت عليه فأعدته عن طريق الله ومهجع لله  
 وموقف لمسلم في هذا العالم « انتطوري » أن يفرق بين المتطور ( أو المتغير ) بطريقة  
 صوبة ، وبين لتغير بطريقة معتلة ، أو بأساس جاهلية لا علاقه هذا بالإسلام .  
 ومرجعه في ذلك هو الكتاب <sup>(١)</sup>

\* \* \*

وأخيراً يجد المسلم في كتبه مهجع الدعوة لهذا الدين .  
 ولا نقصد فقط قوله تعالى « دعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » <sup>(٢)</sup> فهذا  
 ليس أسلوب دعوة وحده ولكن أقصد موضوع لدعوة وكيهيتها وهي مية بياناً  
 واضحاً في الكتاب .

فموضوع الأكر في انقرن كله كما رأيت هو موضوع لعقدة والموضوع الأكر من  
 موضوعات العقدة هو الألوهة .

وقد بينا عن صفحات الكتاب من قبل أن هذا لموضع ليس سبه موجهة للمشركين من  
 العرب في الحرية إنما هو سبب دئم في حياة البشر على الأرض وبيننا كذلك أن هذا الخليل  
 الحاصر من « المسلمين » قد عشيتة عواش كثيرة أفسدت فهمه للعقيدة فلم يعد يعرفها في  
 حقيقتها القرانية كما أمرها الله

فهذا الخليل إدد في حاجة إلى حديث مستفيض في العقيدة وفي قضية الألوهة في حاجة  
 إلى بيان معنى لا إله إلا الله ، وبيان مقتضيات لا إله إلا الله ، وفي مقدمتها التحاكم إلى  
 شريعة الله

ولقد يطر هذا الخليل أنه في عى عن الحديث في لا إله إلا الله ، لأنها مسلمة من  
 المسلمات التي لا محتاح إلى بيان ولكن الواقع الذي يعيشه « المسلمون » ليوم بين أنهم في  
 جهالة بمعنى لا إله إلا الله ، لم يقع فيها أي جيل مدق من المسلمين ، لأنهم يقولون لا إله  
 إلا الله مأواهم ثم لا يجدون في عوسهم حرجاً أن يحكموا بشريعة غير شريعة الله

وهذه جهالة من نوع جديد وبادر في التاريخ كما ساء في صفحات الكتاب  
 محير كان لئاس يؤمون بأمة متعددة كانوا لا يتحاكمون إلى شريعة الله لأنهم يشركون  
 بالله اعتقاداً فيشركون به كذلك في الاتباع

وحيث أمر أساس بالله الواحد صارو يتحاكمون إلى شريعته وحده لأن هذا كله في حسمهم من بديهيات لا إله إلا الله .

أما هذا الخيل الذي يقول إنه مؤمن بالله الواحد ثم يتحاكم إلى شرائع الجاهلية ويسد شريعة الله فهو جيل فريد أو نادر في التاريخ ! وهو من أجل ذلك في أشد الحاجة إلى الحديث في لا إله إلا الله ومقتضيات لا إله إلا الله . وفي أشد الحاجة أن سدا الدعوة معه بهذه القصص بالدات ، قبل الحديث عن الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وقبل حديث عن مكارم الأخلاق !

\* \* \*

ثم إن العقيدة كما رأينا في عرضنا السابق ليست فكرة ، ولست وحدانا مستكنا في الضمير إنما هي تربية وسلوك . وينتج على ذلك أن حين يدعو الناس محتاج إلى تربيتهم بالعقيدة ، كما ربي لقرآن الخيل الأول من المسلمين . فليست مسألة دروس نظرية تلقى في معنى لا إله إلا الله والتحاكم إلى شريعة الله .

واندروس مطبوعة ولا شك ، ولكنها وحدها لا تنشئ مسلما بعش لا إله إلا الله لأن من الترسمة بالعقيدة حتى تتحول إلى سلوك واقعي في حياة الناس ، وفي سلوك الدعوة أنفسهم قبل كل الناس . .

وذلك هو المنهج الذي يخدم الدعوة ويعيها على أن تجار أرومتها وتصل إلى عايتها وعائتها البديعية هي إنشاء مجتمع مسلم تحكمه شريعة الله . والله ولي التوفيق

# الفهرس

٥	مقدمة
١٨	القرآن - مكي ومكي
٢٢	السور المكية
٢٣	الإيمان بالله ..
٦٥	الإيمان باليوم الآخر
٨٥	الإيمان بدلائلة ولكتاب والسيين والهدى حيره وشبه
١٠١	قصص الأنبياء ..
١٣٣	أحلاقيات لا إله إلا الله
١٤٧	بإدح من السور المكية ..
١٥٢	سورة الرعد
١٩٦	سورة لقمان ..
٢٢١	سورة طه ..
٢٥٣	طاهرة التكرار في القرآن
٢٧١	القرآن في العهد المدي
٢٨٧	سورة البقرة
٣٢١	سورة آل عمران
٤٢٣	سورة النساء
٥٠٩	كيف نقرأ القرآن

# يصدر عن دار الشروق

في شرعية قانونية كاملة

## مكتبة الأستاذ سيد قطب

- \* في ظلال القرآن
- \* دراسات إسلامية
- \* مشاهد القيامة في القرآن
- \* نحو مجتمع إسلامي
- \* التصوير الفني في القرآن
- \* في التاريخ فكرة ومنهاج
- \* الإسلام ومشكلات الحضارة
- \* تفسير آيات الربا
- \* تفسير سورة الشورى
- \* خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
- \* كتب وشخصيات
- \* النقد الأدبي أصوله ومناهجه
- \* المستقبل لهذا الدين
- \* مهمة الشاعر في الحياة
- \* معركتنا مع اليهود
- \* هذا الدين
- \* معركة الإسلام والرأسمالية
- \* السلام العالمي والإسلام
- \* العدالة الاجتماعية في الإسلام
- \* معالم في الطريق

## مكتبة الأستاذ محمد قطب

- \* الإنسان بين المادية والإسلام
- \* قياسات من الرسول
- \* منهج الفن الإسلامي
- \* شبهات حول الإسلام
- \* منهج التربية الإسلامية ( الجزء الأول )
- \* جاهلية القرن العشرين
- \* منهج التربية الإسلامية ( الجزء الثاني )
- \* دراسات قرآنية
- \* معركة التقاليد
- \* مفاهيم ينبغي أن تصحح
- \* في النفس والمجتمع
- \* كيف نكتب التاريخ الإسلامي
- \* التطور والثبات في حياة البشرية
- \* للمستشرقون والإسلام
- \* دراسات في النفس الإنسانية
- \* هل نحن مسلمون



## من كتب دارالشروق الإسلامية

الفكر الإسلامى بين العقل والوحي	مصحف الشروق المفسر المبسر
الدكتور عبد العال سالم مكرم	مختصر تفسير الإمام الطبرى
على مشارف القرن الخامس حشر المجرى	تحفة المصاحف وقمة التفاسير
الأستاذ إبراهيم بن على الوزير	فى أحجام مختلفة وطبعات منفصلة لبعض الأجزاء
الرسالة الخالدة	تفسير القرآن الكريم
الأستاذ عبد الرحمن عزام	الإمام الأكبر محمود شلتوت
محمد رسولاً نبياً	الإسلام عقيدة وشرعة
الأستاذ عبد الرزاق نوفل	الإمام الأكبر محمود شلتوت
مسلمون بلا مشاكل	الفتاوى
الأستاذ عبد الرزاق نوفل	الإمام الأكبر محمود شلتوت
الإسلام فى مفترق الطرق	من توجيهات الإسلام
الدكتور أحمد عروة	الإمام الأكبر محمود شلتوت
العقوبة فى الفقه الإسلامى	إلى القرآن الكريم
الدكتور أحمد فتحى بهنسى	الإمام الأكبر محمود شلتوت
موقف الشريعة من نظرية الدفاع الاجتماعى	الوصايا العشر
الدكتور أحمد فتحى بهنسى	الإمام الأكبر محمود شلتوت
الجرائم فى الفقه الإسلامى	المسلم فى عالم الاقتصاد
الدكتور أحمد فتحى بهنسى	الأستاذ مالك بن نبي
مدخل الفقه الجنائى الإسلامى	أنبياء الله
الدكتور أحمد فتحى بهنسى	الأمناذ أحمد بهجت
القصاص فى الفقه الإسلامى	نبي الإنسانية
الدكتور أحمد فتحى بهنسى	الأمناذ أحمد حسين
الدية فى الشريعة الإسلامية	ربانية لا رهبانية
الدكتور أحمد فتحى بهنسى	أبو الحسن على الحسنى الندوى
الإسراء والمعراج	الحجة فى القراءات السبع
فضيلة الشيخ متولى الشعراوى	تحقيق وتقديم الدكتور عبد العال سالم مكرم

القضاء والقدر	مناسك الحج والعمرة في ضوء المذاهب الأربعة
فضيلة الشيخ متولى الشعراوى	الدكتور عبد العظيم المطعنى
قضايا إسلامية	أيها الولد المحب
فضيلة الشيخ متولى الشعراوى	الإمام الغزالى
التعبير الفنى فى القرآن	الأدب فى الدين
الدكتور بكرى الشيخ أمين	الإمام الغزالى
أدب الحديث النبوى	شرح الوصايا العشر
الدكتور بكرى الشيخ أمين	للإمام حسن البنا
الإسلام فى مواجهة الماديين والملحدين	القرآن والسلطان
الأستاذ عبد الكريم الخطيب	الأستاذ فهمى هويدى
اليهود فى القرآن	خفايا الإسراء والمعراج
الأستاذ عبد الكريم الخطيب	الأستاذ فهمى هويدى
أيام الله	الخطابة وإعداد الخطيب
الأستاذ عبد الكريم الخطيب	الدكتور عبد الجليل شلى
مسلمون وكفى	تأريخ القرآن
الأستاذ عبد الكريم الخطيب	الأستاذ إبراهيم الأبيارى
الدعوة الوهابية	الإسلام والمبادئ المستوردة
الأستاذ عبد الكريم الخطيب	الدكتور عبد المنعم النمر
قال الأولون - أدب ودين	سلسلة أعلام الإسلام ١ / ١٦
الأستاذ السيد أبو ضيف المدنى	سلسلة أهل البيت ١ / ٦
قال يارب	إسهام علماء المسلمين فى الرياضيات
الأستاذ السيد أبو ضيف المدنى	تأليف الدكتور على عبد الله الدفأع
الإيمان الحق	تعريب وتعليق الدكتور جلال شوقى
المستشار على جريشة	مراجعة الدكتور عبد العزيز السيد
الجديد حول أسماء الله الحسنى	الخبر الواحد فى السنة والتراث وأثره فى الفقه الإسلامى
الأستاذ عبد المغنى سعيد	الدكتورة سهير رشاد مهنا
الجائز والمنوع فى الصيام	الأديان القديمة فى الشرق
الدكتور عبد العظيم المطعنى	دكتور رؤوف شلى

رقم الإيداع : ٩٣/٣٢١٤

I.S.B.N 977 - 09 - 0134 - 2

### مطابع الشروق

الطبعة : ١٩ شارع سيّدة حسني - هاتف : ٣٩٢٤٥٧٨ - فاكس : ٣٩٣٤٨٨٤  
 بيروت : مسيد : ٨٠٩٤ - حلقب : ٢١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٣١٣